

علوم اجتماعية
٢٠١٥

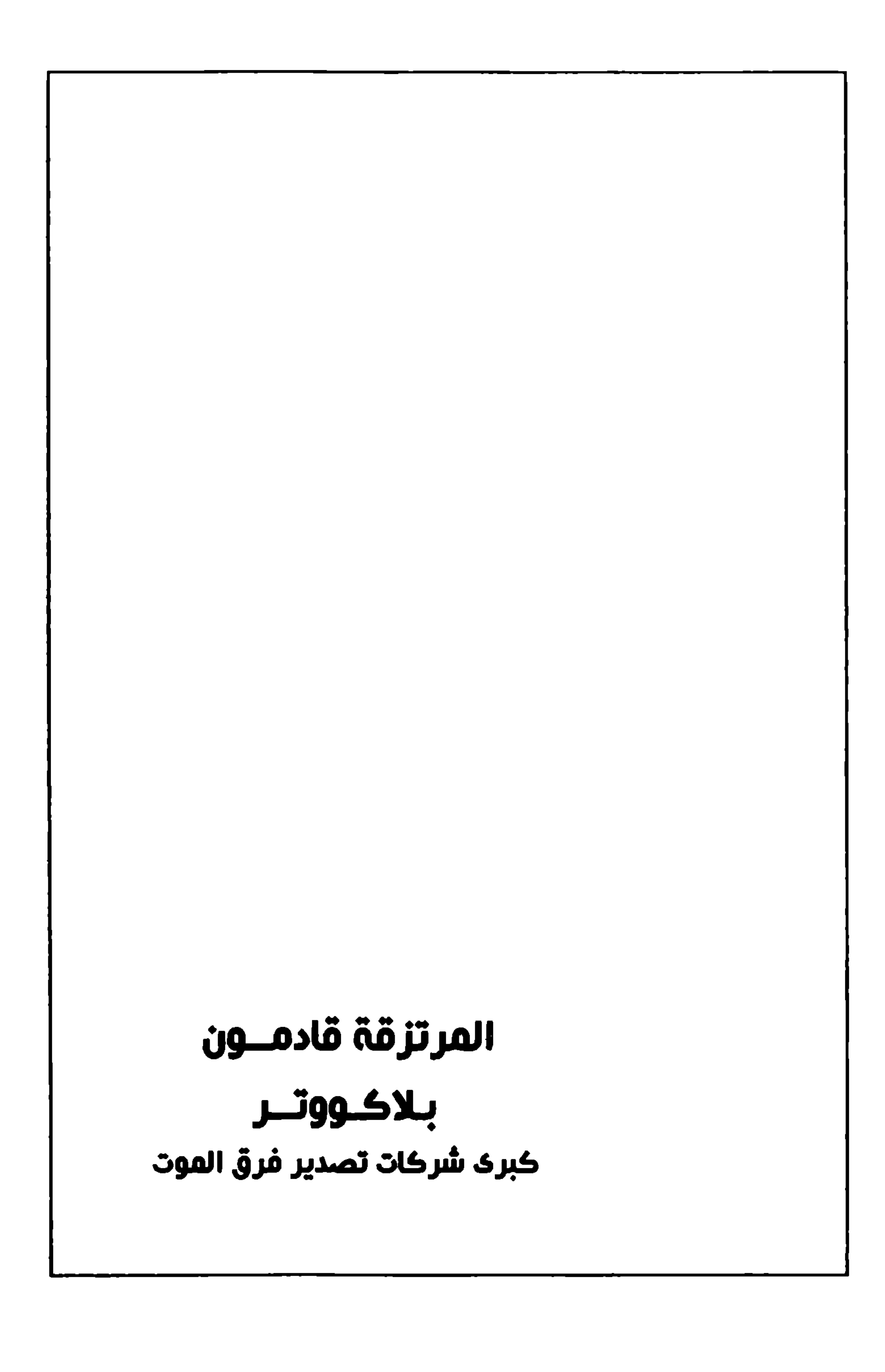
المرتزقة قادمون بلاكووتر

كبرى شركات تصدير فرق الموت

تأليف: جيرمى سكيل

ترجمة: د. فاطمة نصر
حسام إبراهيم





المرتزقة قادمــون

بلاكــووتــر

كبرى شركات تصدير فرق الموت



تصميم الغلاف

وليـــد طاهـــر

الإشراف الفنى

علـى أبـو الخيـر
صـبرى عبد الواحـد
هشام متولـى حامـد

تنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

المرتزقة قادمــون
بـلاكــووتــر
كبرى شركات تصدير فرق الموت

تأليف

جيـرمـى سكيـل

ترجمة

د.فاطمة نصر- حسام إبراهيم



سكيل ، جيرمى.
المرتزقة قادمون بلاكووتر. كبرى شركات تصدير فرق
الموت/ تأليف: جيرمى سكيل؛ ترجمة: فاطمة نصر، حسام
إبراهيم - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤
٤٨٠ ص، ٢٤سم
تدمك ٨_ ٠٧٠_ ٩١٠_ ٩٧٧_ ٩٧٨
١_ المرتزقة
٢ ـ حرب العصابات
أ_ نصر، فاطمة (مترجم).
ب_ إبراهيم، حسام (مترجم).
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٥٨٧/ ٢٠١٤
I.S.B.N 978- 977- 910-070-8
ديوى ٣٥٥ ٤٢٥

توطئة

مشروع له تاريخ

الحقيقة المؤكدة التى تنطلق منها «مكتبة الأسرة»، هى أن تجليات الارتقاء فى الممارسات المجتمعية، تتحقق عندما ينشط النسق المعرفى والفكرى والثقافى للمجتمع ويتسع، بوصفه أهم الدوائر المؤثرة فى استمرار المجتمعات وتطورها واستقرارها، حتى لا يصبح المجتمع أسير أجوبة متخشبة جاهزة متوارثة فى مواجهة ضغوط احتياجاته، باجترار ثوابت معرفية تجاوزتها فتوحات الزمن المعرفى الراهن، بتنوعات إنجازاته المتجددة، فى حين أن رهانات المجتمع لتحقيق تجدده تتطلب ليس فقط أن يعرف المجتمع نفسه؛ بل أن يصنع نفسه، ويؤسس ذاته فى سياق إدراك دائم أن المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بتحرير العقل العام؛ ليقرأ، ويتمعن، ويستوعب، ويدرك، ويعرف وتتحول مقروءاته، ومعارفه المستجدة إلى شبكة ممارسات يومية تسود كل مظاهر وآليات البنيات الاجتماعية والفردية وعلاقاتها، التى تواجه الصدوع اللامعقولة، وحالات التسلط المغلق التى تغلف وعى الناس بشطحات الارتداد والعزلة.

كما تستند «مكتبة الأسرة» إلى يقين أن إمكانات الإنسان أكثر ثراءً من الواقع، وأيضًا أن لا شىء يتأبد فى الحياة الاجتماعية، ليمنع العقل من بناء المعرفة الجديدة؛ إذ شحذ العقل باستخدامه الحر العام - بوصفه أداة الانتصار الإنسانى - يشكل إدراكًا معرفيًا عماده القراءة، يحرر المجتمع من عطالته، ويفتح نوافذ التأمل التى تدفع المجتمع إلى رؤية أشد تحولاً، وتؤسس لتفعيل إرادته وتحرير مصيره، وتضعه إيجابيًا فى مواجهة صورة الوجود الحقيقى أمام الممكنات المفتوحة التى ينتجها التواصل، والحوار مع الآخر، واستيعاب الاكتشافات الجديدة؛ إذ غياب القراءة يمنع المجتمعات من تحولها المتواصل، وينفيها من التأسيس الفعلى لزمن اجتماعى، فالقراءة هى البداية الكبرى التى إن ظلت مغلقة يصاب المجتمع بالخرس والصمت؛ حيث فى غياب القراءة تتجلى

علامات العجز عن إحداث شيء، استنادًا إلى أن الصمت عن القراءة يبقى صاحبه خارج موضوع المعرفة، محجوبًا عن التكوين الذاتى، والفعل الاجتماعى، إذ المعارف المستجدة تجعل الفرد يتمكن من أن يكون ، وأن يفعل، وتؤسس مسيرة إدراك المجتمع لمصيره الآمن، بأن تثرى امتلاكه قدرة إيقاظ ينابيع تخيل صورة وجوده، وإمكانية تحقيقها تصويبًا للواقع.

إن «مكتبة الأسرة» تسعى إلى فك احتكار فعل القراءة بالانتشار المتشعب للكتاب، وتقريبه للناس حتى تتحقق جدارة اكتساب الجميع مشروعية المعرفة، ومشروعية الفهم وتداولهما، وذلك ما يشكل صميم جهد «مكتبة الأسرة» ونطلعه، تحقيقًا لحيوية مجتمعية تعقلن قبول التغيير باستباق الفهم، وتمارس التحرر من فكرة المعرفة المطلقة، التى تخلق حالات من حصر التفكير وانحصاره، نتيجة هيمنة أفكار مطلقة متسيدة، تؤدى إلى الانغلاق، وعدم الانفتاح على المستقبل.

لا شك أن ثمة تناقضًا بين الدعوة إلى القراءة، وغياب الكتاب عن متناول شرائح اجتماعية لا تسمح ظروفها الاقتصادية باقتنائه، وذلك ما شكل معضلة أصبحت المحك الموضوعي فى تحقيق الدعوة إلى القراءة على المستوى المجتمعى، وقد نجحت وزارة الثقافة عام ٢٠١٤ بتفعيل التكاتف المؤسسى، وذلك بتجاوز الأطر التقليدية، فى دعم «مكتبة الأسرة»، لتبدد التمايز فى ممارسة حق القراءة بالنشر المدعوم، الذى يحرر الكتاب من استحالة وصوله إلى شرائح المجتمع، وقد استجابت لهذا التكاتف المؤسسى فى دعم «مكتبة الأسرة»، كل من وزارة التربية والتعليم، ووزارة التخطيط، ووزارة السياحة، انطلاقًا من أن دعم حق اكتساب المعارف يخلق تغييرًا يلبى طموحات الأجيال الشابة الصاعدة والمجتمع بأسره، وهو ما ينعكس فكريًا وثقافيًا فى ممارسات المجتمع الحياتية.

رئيس اللجنة

فوزى فهمى

إهداء

«إلى الصحفيين الذين لم يُدْمَجُوا في جيوش الاحتلال، خاصة العاملين بالإعلام العربي، الذين يخاطرون بحياتهم، وكثيرا ما يفقدونها من أجل أن يكونوا أعين العالم وآذانه. بدون شجاعتهم وتضحيتهم، لكَتَب التاريخ من يُعلنون أنفسهم منتصرين، الأثرياء وذوو السطوة»

31.3.04

٣١ مارس ٢٠٠٤، الساعة التاسعة والنصف صباحا

الفلوجة، العراق

حينما دخل أربعة أمريكيين إلى الفلوجة فى سيارتى جيب باچيرو كان المجاهدون العراقيون فى مدينة المساجد بانتظارهم. يصطف فى شارع المدينة الرئيسى المطاعم، المقاهى والبائعون الجائلون، وفى الأيام العادية، يتجول فيه حشود من الناس. لكن، فى ساعة مبكرة من الصباح ذاك، فجرت مجموعة صغيرة من الأشخاص آلية مفرقعات، فهرب الناس من الشوارع وأغلقت المحال أبوابها. ومنذ أن دخلت القافلة الأمريكية حدود المدينة، لفت الأمريكيون الأنظار -كانوا يقودون مركبات تعرف بـ"مغناطيس الطلقات" ويتباهون بنظارات شمسية تلتف حول الرءوس وقصات شعر توم كروز. وبُعيد دخولهم الفلوجة، بدأت سيارتاهما الجيب تتباطآن. إلى يمينهم كانت المحال والأسواق وإلى اليسار مساحة خلاء. اصطدموا بحاجز

طريق. وحينما توقفت مركباتهم، قُذِف بقنبلة يدوية على الجيب الخلفية، ثم تبعها سيل من نيران المدافع الرشاشة. اندفعت الطلقات مخترقة جانب الجيب الخلفية كما يتخلل الملح الثلج وأصابت الرجلين بداخلها بجراح قاتلة. وفيما تدفقت منهما الدماء، أحاط المسلحون الملثمون بسيارتي الجيب وأفرغوا فيهما النخائر واقتحموهما بعد أن كسروا الزجاج الأمامي. ملأت صيحات "الله أكبر" الأجواء. وسرعان ما انضم أكثر من عشرة شبان كانوا يتسكعون خارج محل كباب إلى تلك الهوجة. بمجرد أن أطلقت النيران على السيارة الخلفية، أدرك الأمريكيان في الجيب الأمامية أن كمينا كان يُنصب لهما. حاولا الهرب، لكن الوقت كان قد فات. تضخم الحشد ليصبح أكثر من ثلاثمائة رجل، فيما اختفى المهاجمون في شوارع الفلوجة الجانبية. سرعان ما التفت ألسنة اللهب حول السيارتين، وسُحِبت جثث الأمريكيين المتفحمة خارج السيارتين وقام الرجال والصبية، حرفياً، بتمزيقها إربا. وأمام كاميرات التليفزيون حمل شاب لافتة صغيرة عليها شعار جمجمة وعظمتين وكُتب

عليها بالإنجليزية "الفلوجة مقبرة الأمريكيين"، علقت الحشود بقايا الأمريكيين المتفحمة من كوبرى على الفرات، حيث ظلت هناك لساعات عديدة، صورة أيقونية مخيفة شوهدت على شاشات التليفزيونات فى أنحاء العالم.

وعلى بعد آلاف الأميال بواشنطون دى سى، كان الرئيس بوش يتتبع الحملة، ويتحدث فى عشاء لجمع الأموال. أبلغ مؤيديه "تحاول تلك المجموعة من القتلة هز إرادتنا. لن يخيف أمريكا أبدا الفتوات والقتلة. نهاجم الإرهابيين فى العراق بعدوانية. نحن نهزمهم هناك كى لا يكون علينا مواجهتهم فى بلدنا". وفى الصباح التالى، استفاق الأمريكيون على أنباء أعمال القتل الدموية تلك. كان عنوان الصحف الرئيسى النمطى "غوغاء العراق يشوهون أربعة مدنيين أمريكيين"، كانت الصومال كثيرا ما تُستدعى، فى إشارة إلى الواقعة التى حدثت فى أكتوبر١٩٩٣، حينما أسقط الثوار فى مقديشو طائرات شراعية بلاكهوك، وقتلوا ثمانية عشر أمريكياً، وسحلوا بعضهم فى الشوارع، مما حفز الولايات المتحدة على سحب قواتها. لكن، وبخلاف الصومال، لم يكن الرجال الذين قُتِلوا بالفلوجة أفراداً فى جيش الولايات المتحدة. ولم يكونوا "مدنيين" كما ذكرتْ كثير من الوسائل الإعلامية. كانوا جنودا خاصين ذوى تدريب عالٍ أرسلتهم إلى العراق شركة سرية المرتزقة مقرها بشمال كارولاينا الشمالية. اسمها: بلاكووتر يو إس إيه.■

تمهيد

التريح السريع من الحرب والقتل

كان العالم مكانا جد مختلف يوم ١٠سبتمبر ٢٠٠١، حينما صعد رمسفلد إلى المنصة بالبنتاجون ليُلقى أحد خطاباته الأولي الرئيسية بصفته وزيرا للدفاع فى إدارة الرئيس جورج دبليو. بوش. بالنسبة لأمريكيين كثيرين، لم يكن ثمة ما يُسمى بالقاعدة، وكان صدام حسين مازال رئيس العراق. كان رمسفلد قد تولى نفس المنصب من قبل –فى إدارة الرئيس جرالد فورد ما بين عامى ١٩٧٥و١٩٧٧– وعاد إلى المنصب عام ٢٠٠١ برؤى طموحة. فى ذاك اليوم من سبتمبر فى السنة الأولى لإدارة بوش، خاطب رمسفلد مسئولى البنتاجون المُناط بهم الإشراف على بزينس المخاطر العليا فى تعاقدات الدفاع –أى التعامل مع هاليبرتون، داينكورب، وبكتل.. إلخ. وقف الوزير أمام قطيع من التنفيذيين الشركاتيين السابقين من إنرون، نورثورب جرومان، جنرال ديناميكس وإيروسبيس كوربوريشن، كان قد عينهم كبار نوابه فى وزارة الدفاع وأصدر إعلانا للحرب:

"الموضوع اليوم هو خصمٌ يمثل خطرا، خطرا داهماً على أمن الولايات المتحدة". هكذا أرعد رمسفلد. "هذا الخصم هو أحد آخر معاقل التخطيط المركزى بالعالم. إنه يحكم بإملاءِ خطط خمسية. ومن عاصمة واحدة، يحاول فرض مطالبه عبر أقاليم زمنية، قارات، ومحيطات، وأبعد من هذا. يخنق الفكر الحر ويسحق الأفكار الجديدة بإصرار ضارٍ. يُمزق دفاعات الولايات المتحدة ويضع حياة الرجال والنساء فى خطر مطّرد". وبعد توقف وجيز لإحداث تأثير مسرحى مضى رمسفلد -المقاتل السابق فى الحرب الباردة- يخبر العاملين معه. "ربما بدا هذا الخصم مثل الاتحاد السوفييتى السابق، لكن ذلك العدو قد اختفى: أعداؤنا اليوم أكثر حصافة وحقدا، أعداء عتاة. ربما اعتقدتم أننى أصف أحد آخر الحكام المستبدين المتداعين فى العالم. لكن هؤلاء أيضا قد ولى زمانهم. ولا قِبل لهم بمضاهاة قوة هذا الخصم وحجمه. إن الخصم بيننا. إنه بيروقراطية البنتاجون". دعا رمسفلد إلى نقلة شاملة فى إدارة البنتاجون، وإحلال نموذج جديد مؤسس على القطاع الخاص محل

بيـروقـراطيـة وزارة الدفـاع. قـال رمـسـفلد إن المشكلة، هـى أنه، وعلى عكس البزينسات، فإن "الحكومة لا يمكنها أن تموت، من ثم نحن بحاجة إلى إيجاد حوافز أخرى للبيروقراطية كى تتكيف وتتحسن". أعلن أن المخاطر رهيبة -"مسألة حياة أو موت، وفى النهاية حياة أو موت كل أمريكي". أعلن رمسفلد، فى ذلك اليوم، مبادرة كبيرة لتنظيم استخدام القطاع الخاص وتبسيط عملية استخدامه فى شن حروب أمريكا، وتنبأ أن مبادرته ستواجَه بمقاومة ضارية. أخبر رمسفلد مستمعيه "قد يسأل البعض، كيف يمكن لوزير الدفاع أن يهاجم البنتاجون أمام أناسه؟ وأجيب على هؤلاء بالقول إنه لا رغبة لى فى الهجوم على البنتاجون؛ أريد أن أُحرره. علينا أن ننقذه من نفسه".

وفى الصباح التالى تعرض البنتاجون، حرفياً، للهجوم حينما اصطدمت الطائرة رقم٧٧- بوينج٧٥٧- بجدارِه الغربى وحطمته. وكما أصبح ذائعا، اشترك رمسفلد مع فرق الإنقاذ لإخراج الجثث من تحت الأنقاض. لكن، لم يمض وقت طويل حتى استغل رمسفلد، لاعب شطرنج العسكرة الماهر، تلك الفرصة التى كادت ألا تكون متخيلة، أى هجمات ٩/١١، ليضع حربه الشخصية -التى خطط لها قبل يوم واحد فقط- على المسار السريع. كان العالم قد تغير تغيرا لا عودة فيه، وفى لحظة، أصبح مصير أقوى قوة عسكرية فى العالم لوحة بيضاء يمكن لرمسفلد وحلفائه رسم إبداعاتهم عليها. كانت سياسية البنتاجون الجديدة تعتمد بقوة على القطاع الخاص، تؤكد على العمليات السرية، وأنظمة الأسلحة المتطورة، وعلى الاستخدام الأعظم للقوات الخاصة والمقاولين. أصبحت تلك السياسة تعرف باسم "مبدأ رمسفلد". كتب رمسفلد فى صيف ٢٠٠٢ مقالا بعنوان "تغيير الجيش جذريا". يقول فيه "علينا أن نعزز نهجا مقاولتيا مغامرا: نهجا يشجع الناس على أن يبادروا بالفعل الميدانى، لا أن يكونوا ارتكاسيين، وأن يسلكوا مسلك الرأسماليين المغامرين، لا البيروقراطيين".

فتح هذ النهج لرمسفلد الباب أمام أكبر التطورات أهمية فى الحروب الحديثة.

الاستخدام الموسع للمقاولين الخاصين فى جميع أوجه الحرب، بما فى هذا القتال.

بيْن أوائل من تلقوا مكالمات من الإدارة للانضمام إلى "الحرب الكوكبية على الإرهاب" التى تقرر أن تُشنّ وفقا لمبدأ رمسفلد، كانت هى مؤسسة غير معروفة تعمل من معسكر تدريبات عسكرية خاص بالقرب من أرض المستنقعات الكبيرة الكئيبة The Great Dismal Swamp بكارولاينا الشمالية. اسمها بلاكووتر يو إس إيه. وبين عشية وضحاها بعد كارثة ١١سبتمبر، أصبحت شركة كانت ألا توجد منذ سنوات قليلة، لاعبا مركزيا فى حرب كوكبية شنتها أقوى إمبراطورية فى التاريخ.

لا تبدأ قصة بلاكووتر يوم ٩/١١، أو حتى مع تعيين تنفيذييها أو تأسيسها. فهى، وبأساليب عدة، تُكبسِل تاريخ الحروب الحديثة. الأكثر من كل هذا، فهى تمثل تحقيقا لجهد حياة المسئولين الذين شكلوا جوهر فريق الحرب بإدارة بوش.

أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١، كان ديك تشينى –حليف رمسفلد الوثيق– وزيرا للدفاع. كان شخص من كل عشرة أشخاص تم نشرهم فى منطقة الحرب آنذاك مقاولاً خاصاً، وهو معدل كان تشينى مصمما بإصرار على رفعه. وقبل رحيله عن الوزارة عام ١٩٩٣، كلّف قسما فى الشركة التى ترأسها فيما بعد، أى هاليبرتون، بإجراء دراسة، عن كيفية خصخصة البيروقراطية العسكرية سريعا. وسرعان ما أوجدت هاليبرتون صناعة لنفسها للتخديم على عمليات الولايات المتحدة العسكرية بالخارج لها إمكانية تحقيق أرباح لا محدودة. فكلما زادت عدوانية الولايات المتحدة فى توسيع نطاق قبضتها العسكرية أفاد هذا بيزنس هاليبرتون. كان هذا هو النموذج الأصلى للمستقبل. وفى السنوات الثمانى التالية من إدارة بيل كلينتون العليا، عمل تشينى فى أحد مراكز صناعة الأفكار للمحافظين الجدد، أى الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت الذى قاد الحملة من أجل خصخصة الحكومة والجيش. ومع بداية ١٩٩٥، كان تشينى على دفة هاليبرتون يؤسس ما سيصبح أكبر مقاول مفرد للدفاع لدى حكومة الولايات المتحدة. احتضن الرئيس كلينتون، بحماس، أجندة

الخصخصة، ومُنحت شركة تشينى -ومعها مقاولون آخرون- العقود المُدِرّة للأرباح أثناء صراع البلقان فى تسعينيات القرن العشرين، وفى حرب كوسوڤو عام ١٩٩٩. فوَّضت إدارة كلينتون فى أواسط التسعينيات مؤسسة عسكرية استشارية هى مليتارى بروفشنال رسورسز إنكوربوريتد، ومقرها ڤرجينيا، ويعمل بها كبار ضباط الجيش المتقاعدين، فوضتها لتدريب الجيش الكرواتى فى حربه الانفصالية ضد يوغسلافيا التى يهيمن عليها الصرب، ذلك التعاقد الذى قلب موازين الصراع فى النهاية. كان هذا العقد استباقا لنوع إشراك القطاع الخاص فى حرب ستكون معيارية فى "الحرب على الإرهاب". لكن الخصخصة كانت فقط جزءا من الأجندة الأوسع. كان رمسفلد وتشينى عضوين رئيسيين فى "مشروع للقرن الأمريكى الجديد"(PNAC)، الذى أخذ مبادرته ناشط المحافظين الجدد ويليام كريستول. ضغطت المجموعة على كلينتون من أجل القيام بتغيير النظام فى العراق، وشكلت مبادئها، التى دعت إلى "سياسة من القوة العسكرية والوضوح الأخلاقى" الأساس للكثير من أجندة بوش الدولية.

فى سبتمبر ٢٠٠٠، قبل أشهر من تشكيل أعضائه جوهر بيت بوش الأبيض، نشر "مشروع القرن الأمريكى الجديد" تقريرا اسمه إعادة بناء دفاعات أمريكا: الاستراتيجية، القوات، والموارد لقرن جديد. وباستعراضه رؤية PNAC لإصلاح آلة الحرب الأمريكية، أدرك التقرير أن "عملية التحول، حتى إذا أتت بتغيير ثورى، من المحتمل أن تكون طويلة، فى عدم وجود حادث كارثى مُحفِّز- مثل بيرل هاربور جديدة".

وبعد عام بالتحديد، قدَّمت هجمات ٩/١١، الحافز: تبريرا غير مسبوق للدفع قدما بتلك الأجندة الراديكالية التى شكلها كوادر قليلة من ناشطى المحافظين الجدد الذين، كانوا لتوهم، قد اكتسبوا سلطة رسمية.

إن الحبكة الثانوية فى حروب ما بعد ٩/١١، والتى كثيرا ما يُتغاضى عنها، هى حكاية عمليات التزود بالتعاقدات من الخارج (من خارج البنتاجون) والخصخصة

التى اقتضتها تلك الحروب. فمنذ اللحظة التى استولى فيها فريق بوش على السلطة، مُلئ البنتاجون بالمؤدلجين من أمثال بول وولفويتز، دوجلاس فيث، زالماى خليلزاد، وستيفن كامبوت، وأيضا بتنفيذيى شركات سابقين -كثيرين من شركات كبيرة لصناعة الأسلحة- مثل نائب وزير الدفاع بيت أولدريدج (من إيروسبيس كوربوريشن)، ووزير الجيش توماس وايت (إنرون)، وزير البحرية جوردون إنجلاند (جنرال ديناميكس) وزير القوات الجوية جيمس روش (نورثورب جرومان). أتت القيادة المدنية الجديدة إلى البنتاجون ولديها هدفان رئيسيان: تغيير النظم فى بعض البلاد الاستراتيجية. وتفعيل أشمل عملية خصخصة وتعاقدات مع شركات خاصة فى التاريخ العسكرى للولايات المتحدة- ثورة فى الشئون العسكرية. وبعد ٩/١١، أصبحت تلك الحملة غير قابلة للتوقف.

شجعت هزيمة طالبان السريعة بأفغانستان رمسفلد والإدارة فيما كانوا يبدأون للتخطيط للعملية المركزية فى حرب المحافظين الجدد الصليبية: العراق. منذ اللحظة التى بدأ فيها تعزيز قوات الولايات المتحدة استعدادا للغزو، جعل البنتاجون المقاولين الخاصين جزءا عضوياً من العمليات. وحتى فيما كانت الولايات المتحدة تتظاهر بمحاولة استخدام الدبلوماسية، كانت هاليبرتون تُعدّ، خلف الأبواب المغلقة، لأكبر عملية لها فى التاريخ. وحينما دخلت الدبابات الأمريكية بغداد فى مارس ٢٠٠٣، أتت معها بأكبر جيش من المقاولين الخاصين نُشر فى الحروب بإطلاقه. وبنهاية مدة رمسفلد فى الوزارة، كان ثمة ١٠٠٠٠٠ مقاول خاص على الأرض فى العراق -بمعدل يكاد يصل ١:١ من جنود الولايات المتحدة الموجودين بالخدمة الميدانية. ومما عمل على إسعاد صناعة الحرب، كان رمسفلد، قبل تركه منصبه، قد اتخذ الخطوة غير المعتادة بتصنيف المقاولين الخاصين على أنهم جزء رسمى من آلة الحرب للولايات المتحدة. رسم رمسفلد، فى دورية البنتاجون Quadrennial Review عام ٢٠٠٦، الخطوط العريضة لما أسماه "خارطة طريق للتغيير" فى وزارة الدفاع والذى قال إنها بدأت عام ٢٠٠١، عرّفتْ الخارطة

"القوة الكلية للوزارة" بصفتها "مكوناتها العسكرية النشطة والاحتياطية، موظفيها المدنيين، ومقاوليها - تلك القوة التى تشكل قدرتها القتالية فى الحروب وطلقتها القصوى. يخدم أفراد "القوة الكلية" فى آلاف المواقع حول العالم ويؤدون تنويعة واسعة من الواجبات لإنجاز مهمات حاسمة". مثَّل هذا التصنيف الشكلى، الذى أتى فى وسط حرب كوكبية مفتوحة النهاية على الإرهاب، وتعريف غير محكم لها، خروجا راديكاليا على التحذيرات المنذرة التى أوضحها الرئيس أيزنهاور فى خطابه الوداعى للأمة منذ عقود، ووسط ما تخيله أنه "تضمينات خطيرة" لصعود "المجمع العسكرى/الصناعى". أعلن أيزنهاور عام ١٩٦١: "إن إمكانية الصعود الكارثى لسطوة فى غير محلها موجودة الآن وستظل تتواجد بإصرار. علينا ألا ندع أبدا ثقل هذا التمازج يُعرِّض حرياتنا ومسيراتنا الديموقراطية للأخطار. علينا ألا ننظر لأى شئ بصفته أمرا مُسلَّماً به. فقط جموع المواطنين اليقظين الذين يملكون القدر الكافى من المعرفة هم من يمكنهم فرض التناغم بين الآلة الصناعية والعسكرية الدفاعية الهائلة، وبين أساليبنا وأهدافنا السلمية، بحيث يزدهر الأمن والحرية معا". بيد أن ما تبدى فى السنوات التالية، وبخاصة فى ظل إدارة بوش، كان هو تحديدا السيناريو القاتم الذى تنبأ به أيزنهاور.

وعلى حين أن الحرب على الإرهاب واحتلال العراق تسببت فى توالد عشرات الشركات، فلم تَخبُر سوى القليل منها، إن يكن أيها على الإطلاق، ذلك الصعود النيزكى للسلطة، الربح والهيمنة كالذى خبرته بلاكووتر.

فى أقل من عشر سنوات. صعدت الشركة من مستنقع بكارولاينا الشمالية لتصبح حارساً إمبراطورياً خاصا لـ"الحرب على الإرهاب" التى تخوضها إدارة بوش. لدى بلاكووتر اليوم ما يربو على ٢٣٠٠ جندى خاص منتشرين فى تسعة بلدان، من بينها الولايات المتحدة. لديها قاعدة بيانات تشمل ٢١٠٠٠ من أفراد القوات الخاصة والجنود السابقين، وعملاء فَرضِ القانون المتقاعدين، الذين بإمكانها استدعاءهم بمجرد إشعارهم. لدى بلاكووتر أسطول خاص مكون من مروحيات

مدفعية ووحدة طائرات تجسس كما أن مقرها الرئيسى المقام على ٧٠٠٠ فدان بمويوك، كارولاينا الشمالية، هو أكبر منشأة عسكرية خاصة فى العالم. تُدرّب عشرات الآلاف من عملاء فرض القانون الفدراليين والمحليين كل عام، بالإضافة إلى قوات من دول أجنبية "صديقة". تقوم الشركة بتشغيل وحدة استخباراتها الخاصة، ومن بين تنفيذييها مسئولون سابقون رفيعو المستوى فى الجيش والاستخبارات. أقامت مؤخرا منشآت جديدة بكاليفورنيا ("بلاكووتر وست") وإلينوى ("بلاكووتر نورث")، إلى جانب غابة من منشآت التدريب بالفلبين. لدى بلاكووتر أكثر من ٥٠٠ مليون دولار من التعاقدات الحكومية- ولا يشمل ذلك ميزانيتها السرية للعمليات "السوداء" نيابة عن استخبارات الولايات المتحدة أو الأشخاص/الشركات الكبرى الخاصة والحكومات الأجنبية. وكما علق أحد أعضاء الكونجرس، فمن منطلق عسكرى محدد، باستطاعة بلاكووتر الإطاحة بكثير من حكومات العالم.

بلاكووتر جيش خاص يسيطر عليه شخص واحد: إريك برينس البليونير الذى ينتمى للتيار المسيحى/اليمينى الراديكالى والذى كان أحد المولين الرئيسيين لحملات انتخاب بوش، وأيضا لأجندة اليمين المسيحى الصهيوني العريضة. وحقا، وإلى وقت كتابة هذا، لم يمنح برينس أبدا مليما واحدا لأى مرشح ديموقراطى - وهذا من حقه بالتأكيد، لكنه نموذج غير معتاد لشركة قوية لخدمات الحروب، كما أنه يقول الكثير والكثير عن إخلاصه لالتزامه الأيديولوجي. ظلت بلاكووتر إحدى الكتائب الأقوى تأثيرا في حرب رمسفلد على البنتاجون. ويتحدث برينس بصلافة عن الدور الذى تلعبه شركته فى التغيير الجذرى لجيش الولايات المتحدة. أثناء منتدى للمناقشة عُقِد مؤخرا مع مسئولين عسكريين تساءل برينس "حينما تبعثون برسائل عاجلة، هل تستخدمون البريد العادى أم فدكس؟ إن هدفنا الشركاتى هو أن نؤدى لجهاز الأمن القومى نفس المهمة التى أدتها فدكس للخدمات البريدية".

ربما كانت العلامة الأكثر دلالة على أن هذا التغيير قد أُنجز كانت حينما عهد البيت الأبيض بمهمة حماية أكبر المسئولين الأمريكيين بالعراق إلى بلاكووتر بعقد بدأ من

عام٢٠٠٣. وفيما كان إل. بول. برمر، مبعوث بوش إلى العراق فى العام الأول للاحتلال، "يبرطع" فى بغداد لتفعيل أجندة بوش، كانت بلاكووتر هى التى تتولى حمايته، مثلما ظل الأمر مع كل مبعوث أمريكى أو سفير تالٍ هناك. وبالتقابل مع جنود الجيش الميدانيين الذين يتلقون رواتب متدنية، فإن الحرس التابعين لبلاكووتر يتلقون رواتب من ستة أرقام. ذكرت مجلة فورشن آنذاك أن متوسط أجر ضابط الأمن الشخصى (PSD) فى العراق كان حوالى ٣٠٠ دولار فى اليوم. وبمجرد أن بدأت بلاكووتر فى تجنيد ضباط لأول مهمة كبيرة لها ، أى حماية بول برمر، ارتفع المعدل إلى ٦٠٠دولار فى اليوم". وبدون أى جدل عام تقريبا، أوكلت إدارة بوش إلى القطاع الخاص كثيرا من المهام والوظائف الذى ظل الجيش، تاريخيا، مناطا بها. وبدورها فإن هذه الشركات الخاصة غير خاضعة للمساءلة من قبل دافعى الضرائب التى تجنى منهم أرباحها. وكما عبرت التايمز اللندنية آنذاك "فى العراق، فإن طفرة بزينس ما بعد الحرب ليس هو النفط بل الأمن".

وفيما تمددت تلك القوة الخاصة في العراق، كان آخر عمل قام به برمر قبل أن يتسلل خارج بغداد في ٢٨يونيو ٢٠٠٤، هو إصدار قرار يُعْرف بالمرسوم رقم ١٧، يُحصِّن به المقاولين ضد المثول أمام المحاكم. كانت هذه خطوة هامة وسط خضم بحرٍ من السياسات (وغياب السياسات) التى توجه الاحتلال فى العراق، خطوة جرّأت القوات الخاصة. فعلى حين أن جنود الولايات المتحدة قُدِموا للمحاكمة بتهمة أعمال القتل والتعذيب فى العراق، لم يُطبق البنتاجون المعايير ذاتها على القوات الخاصة الواسعة المنتشرة هناك. برزت تلك النقطة أثناء إحدى جلسات الاستماع النادرة بالكونجرس حول المقاولين الخاصين بالعراق، والتى عُقدت فى يونيو٢٠٠٦، مثّلت بلاكووتر تلك الصناعة فى جلسة الاستماع، التى ضمت أيضا عددا من المسئولين الحكوميين.استجوب النائب دنيس كوسينيتش مدير تزويدات الدفاع بالبنتاجون شاى أسد، أى مدير القسم المسئول بوزارة الدفاع عن المقاولين. بيّن كوسينيتش أن قوات الولايات المتحدة تخضع لأحكام المعركة قابلة للتنفيذ. وأنهم قد حوكموا على انتهاكات بالعراق، فيما لايخضع المقاولون لمثل تلك الأحكام. قال إنه

حتى تاريخ جلسة الاستماع "لم يحاكم أى مقاول أمن" على جرائم بالعراق. ثم سأل أسد مباشرة "هل وزارة الدفاع علي استعداد لرؤية الاتهام يوجه ضد أى مقاول خاص يثبت أنه قد ارتكب جريمة قتل بالعراق؟" رد أسد "سيدى، لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال". صاح كوسينيتش ؟" واو. فكِّر فيما يعنيه هذا. باستطاعة هؤلاء المقاولين الخاصين الإفلات، حتى من المساءلة على ارتكابهم جرائم قتل. يبدو أن المقاولين لا يخضعون لأية قوانين البتة، ومن ثم، لديهم ترخيص للعمل بمقتضي قوانينهم الخاصة".

أعلنت بلاكووتر، بصرامة، أن قواتها فوق القانون. وفيما كانت تقاوم محاولات إخضاع جنودها الخاصين لقانون البنتاجون الموحد للعدالة العسكرية (UCMI) – بإصرارها على أنهم مدنيون– طالبت بلاكووتر، فى نفس الوقت، بحصانة من المقاضاة المدنية أمام محاكم الولايات المتحدة، بزعم أن قواتها جزء من القوات الكلية للولايات المتحدة. تحاججت بلاكووتر، فى مذكرات قانونية، بأنه إذا سمحت محاكم الولايات المتحدة بمقاضاة الشركة على القتل غير المشروع الذى قد يرتكبه أحد العاملين بها، فبإمكان هذا أن يهدد قدرة البلد على خوض الحروب: "من أجل أن يرافق المقاولون الفدراليون المسئولون قوات الولايات المتحدة المسلحة فى ميدان المعركة، فمن الجوهرى أن تُصان حصانتهم من المسئولية القانونية فدرالياً عما يقع من إصابات، ويُعمل بها فى المحاكم الفدرالية. لا يوجد ما هو أشد تدميرا لمفهوم القوة الكلية، المكوَّنة بأجمعها من المتطوعين، ذلك المفهوم الأساسى لمبدأ الطاقة البشرية لجيش الولايات المتحدة، من أنْ تُعرَّض مكوناته الخاصة لأنظمة المسئولية عن الأضرار لخمسين ولاية مختلفة، وتُصدَّر إلى الخارج لميادين القتال الأجنبية... تقع الطريقة التى يَرأس بها رئيس الجمهورية ويشرف بها على هذه العمليات العسكرية، التى تشمل قراراته من خلال سلسلة القيادة فى أمور التدريب، الانتشار، التسليح، المهمات، التكوين،. التخطيط، الإدارة والإشراف على المقاولين العسكريين الخاصين ومهماتهم، تقع خارج نطاق دور المحاكم". وبدلا من ذلك، تزعم بلاكووتر أن قواتها تعمل بمقتضى قانون للسلوك عاجز قانونيا ولا يمكن فرضه قانون كتبه

اتحاد الشركات التجارى الذى تنتسب إليه، ومن المفارقة أن اسمه هو "اتحاد عمليات السلام الدولية". يقول إريك برينس إن قواته "مسئولة أمام بلدنا"، وكأنما الإعلان عن الولاء للعلَم هو دليل على الدوافع والأنشطة العادلة، أو أنه، بشكل ما، بديل عن إطار قانونى مرجعى مستقل.

يُشجع على هذا المنطق الحصانة الممنوحة للمقاولين وأيضا فشل البنتاجون فى الإشراف على تلك القوة الخاصة الهائلة المعترف بها الآن رسميا جزءا من آلة حرب الولايات المتحدة. يعمل المقاولون الخاصون، إلى حد بعيد، فى منطقة قانونية رمادية تترك الباب متسعا على مصراعيه أمام الانتهاكات. فى نهاية ٢٠٠٦، مُرِّر بهدوء تعديل من سطر واحد إلى مشروع قانون إنفاقات الدفاع الهائلة، وقعه الرئيس بوش، يخضع المقاولون بمقتضاه، فى مناطق الحرب، لنظام المحاكمة أمام المجالس العسكرية للبنتاجون. لكن لدى الجيش ما يكفيه من متاعب فى عملية ضبط أمن ونظام قواته هائلة العدد ولا يكاد يُتوقع منه مراقبه عدد ١٠٠٠٠٠ شخص إضافى من قوات الشركات الخاصة وضبط نظامهم بفعالية. وعلى حين لا تكاد الإضافة المكونة من خمس كلمات تؤسس نظاما للإشراف المستقل، يتنبأ الخبراء أن صناعة الحرب الخاصة ستقاومها بضراوة. وعلى الرغم من الاعتماد غير المسبوق على المقاولين المنتشرين فى العراق، وأفغانستان، وأماكن أخرى فقد فشلت الحكومة حتى فى إحصائهم، ناهيك عن ضبط أمنهم وسلوكهم. وجد تقرير لمكتب محاسبة حكومى، نُشر فى ديسمبر٢٠٠٦، أنه ليس لدى الجيش نظام إشراف فاعل وأنه "ليس باستطاعة المسئولين تحديد عدد المقاولين الذين تم نشرهم فى القواعد العسكرية بالعراق. لم يستطع الجيش والقوات الجوية تزويد محققى مكتب المحاسبة الحكومى "بعدد المقاولين الذين يستخدمونهم فى مواقع الانتشار أو الخدمات التى يؤديها هؤلاء المقاولون لقوات الولايات المتحدة". انتهى المكتب إلى أن "المشاكل المتعلقة بإدارة المقاولين والإشراف عليهم قد أثّرت بالسّلب على العمليات العسكرية ومعنويات الوحدات وأعاقت قدرة وزارة الدفاع على الحصول على تطمينات بأن المقاولين يُوفون بمتطلبات عقودهم وبالأساليب القصوى لفعالية التكاليف".

وبعد انتهاء حكم رمسفلد بالبنتاجون بأسبوع، كانت قوات الولايات المتحدة قد تمددت إلى حد الوهن بسبب الحرب على الإرهاب لدرجة أن أعلن كولن باول وزير الخارجية السابق أن "الجيش الميداني يكاد أن يكون قد تبدد". وبدلا من إعادة النظر في مثل تلك السياسات العدوانية وحروب الغزو، تحدثت إدارة بوش والبنتاجون عن الحاجة إلى توسيع حجم الجيش.

كان برينس قد طرح عرضا خاصا به: خلّق ما أسماه "لواء مقاولين" يُكمل جيش الولايات المتحدة التقليدي. قال "ثمة ذعر في وزارة الدفاع حول مطلب الزيادة الدائمة لحجم الجيش.نريد إضافة ٣٠٠٠٠ شخص، وقد تحدثوا عن تكلفة تتراوح بين ٣.٦بليون و٤بليون دولار لتنفيذ ذلك. لكن بحساباتي، يتكلف الجندي الواحد حوالي ١٣٥٠٠٠دولار.. بالتأكيد باستطاعتنا تنفيذ ذلك بتكلفة أقل". كان هذا إعلانا غريبا لا يأتى إلا من شخص يتحكم في جيشه الخاص. يروق لبرينس أن يُموقع بلاكووتر بصفتها امتدادا وطنيا للجيش الأمريكي، وفي سبتمبر٢٠٠٥، أصدر مذكرة لجميع من في الشركة تتطلب أن يُقسم جميع العاملين والمقاولين بها نفس قسم الولاء لدستور الولايات المتحدة الذي يُقسمه عملاء بلاكووتر ممن لهم صلة بالأمن القومي (أي البنتاجون، وزارة الخارجية، ووكالات الاستخبارات)، أُقسم "أن أدعم دستور الولايات المتحدة وأدافع عنه ضد جميع الأعداء، الأجانب والمحليين... وليساعدني الله".

لكن بالرغم من تصوير بلاكووتر بصفتها عملية أمريكية بالكامل تسعى إلى الدفاع عن العاجزين، فإن بعض مشاريعها الأكثر سرية وطموحا توضح واقعا مختلفا مخيفا. في مايو ٢٠٠٤، سجلت بلاكووتر، سرا، فرعا جديدا، أي جرايستون ليميتد، بمكتب حكومة الولايات المتحدة المركزي للتعاقدات. لكن بدلا من إدماج الشركة الجديدة في كارولاينا الشمالية، أو فرجينيا، أو ديلاوير مثل الأفرع الأخرى، سجلت جرايستون شركة خارجية في بربادوس بالكاريبي. من ثم، صنّفتها حكومة الولايات المتحدة على أنها "كيان شركاتي" مُعفيً من الضرائب". عرضت

نشرات جريستون الدعائية على العملاء المحتملين "فرق مهنيين ميدانيين للقتال "يمكن استئجارهم "لمواجهة متطلبات أمنية طارئة أو موجودة وفقا لاحتياجات العملاء بالخارج. فرقنا مستعدة للقيام بعمليات للاستقرار، لحماية الممتلكات أو استردادها، أو الانسحاب الطارئ للعاملين". أيضا، عرضت أدبياتها مدىً متسعا من التدريب من بينها "عمليات دفاعية أو هجومية للمجموعات الصغيرة". تفاخرت جرايستون أنها "تنفق على قوة عمل وتدربها، قوة اجتذبتها من قاعدة متنوعة من مهنيي القوات الخاصة، الدفاع، الاستخبارات، وفرض القوانين مستعدين بمجرد تلقي الإشعار للانتشار الكوكبي على الفور". أما البلدان التي زعمت أنها اجتذبت المجندين منها فهي "الفلبين، شيلي، نيبال، كولومبيا، الإكوادور، إل سلفادور، هوندوراس، بناما، بيرو، وغيرها من البلدان التي لدى قواتها سجلات حقوق إنسان مشبوهة، على الأقل. طلبت ممن يتقدمون بطلبات وضع علامة أمام نوع الأسلحة التي يتطلبونها: بندقية AK-47، جلوك19، مدفع طلقات متوالية M-16، بندقية قصيرة المدى M-4، مدافع رشاشة، مورتار، وأسلحة تطلق من على المنكبين. بين الخبرات التي يحددها كاتب الطلب: القناصة، البارعون في الرماية، مطلقو النيران على الأبواب، خبراء متفجرات، فرق مضادة للهجوم. في العراق، نشرت بلاكووتر عشرات عديدة من المرتزقة الشيليين، الذين تدرب بعضهم وعملوا مع نظام أوجاستو بينوشيه الوحشي. قال جاري جاكسون، رئيس مجلس إدارة بلاكووتر "نطوف أقاصي الأرض بحثا عن المهنيين. والكوماندوز الشيليون مهنيون جدا جدا ويتوافقون مع نظام بلاكووتر".

ومع مط القوات المسلحة إلى أقصى حد –ووقف نظام التجنيد الإجباري –لأسباب سياسية– تُركت الولايات المتحدة لتناضل من أجل العثور على دول متحالفة على استعداد لتزويد مهمات "حربها الكوكبية على الإرهاب"واحتلالها للبلدان بالخبرات اللازمة. وإذا لم تنضم الجيوش القومية للدول الأخرى "إلى تحالف الراغبين" تُقدم بلاكووتر وحلفاؤها حلا من نوع آخر: تمويل بديل للقوات أُنجز من خلال التعاقد مع جنود خاصين من جميع أنحاء الكوكب. وإذ لم تركب الحكومات الأجنبية متن

السفينة، بالإمكان التعاقد مع جنود أجانب -والذين تعارض كثير مع حكوماتهم الوطنية حروب الولايات المتحدة- بثمن محدّد. وهذه العملية، كما يزعم الناقدون، ترقى إلى كونها تقويضا لوجود الأمة/الدولة، ومبادئ السيادة وحق تقرير المصير. يقول مايكل راتنر، رئيس مركز الحقوق الدستورية، والذى رفعت منظمته قضية ضد المقاولين لانتهاكهم حقوق الإنسان فى العراق" إن الاستخدام المتزايد للمقاولين، القوات الخاصة، أو كما يسميها البعض "المرتزقة"، يجعل البدء فى القتال أمرا سهلا- كل ما يقتضيه الأمر هو الأموال لا إجماع المواطنين. إلى الحد الذى يُستدعى فيه السكان للحرب، توجد مقاومة، مقاومة ضرورية لمنع حروب تعظيم الذات وتضخيمها، الحروب الحمقاء، وفى حالة الولايات المتحدة حروب الهيمنة الإمبريالية.إن القوات الخاصة تكاد تكون ضرورة للولايات المتحدة العازمة على الحفاظ على إمبراطوريتها الزاوية. فكروا فى الإمبراطورية الرومانية واحتياجاتها المتزايدة للمرتزقة.وهذا ما يحدث الآن هنا، فى الولايات المتحدة. إن التحكم فى سكان غضبى منتهكين من خلال قوة بوليسية يكون عليها احترام الدستور لهو أمر صعب- باستطاعة القوات الخاصة حل هذه المشكلة".

ومثل هاليبرتون، أكبر مقاولى البنتاجون، فثمة فرق بين بلاكووتر وبين مجرد المتربحين من الحرب، ألا وهى خاصية تتميز بها نظرة تنفيذييها طويلة المدى. فهم لم يقتصروا فقط على انتهاز لحظة مربحة مثل كثير من منافسيهم، بل إنهم عزموا على نحت مكان دائم لهم لعقود قادمة. فتطلعات بلاكووتر لا تحدها الحروب الدولية. فقد تفوقت قواتها على معظم الوكالات الفدرالية وسبقتها إلى نيوأورلينز بعد أن ضربها إعصار كاترينا عام ٢٠٠٥، حينما انتشر مرتزقة بلاكووتر- وكان بعضهم قد عاد لتوه من العراق- فى أنحاء منطقة الكوارث. وفى غضون أسبوع تم التعاقد معهم رسميا بواسطة وزارة الأمن الداخلى لتأدية مهام فى U-S.Gulf وقدموا فاتورة إلى الحكومة الفدرالية بمبلغ ٩٥٠ دولار يوميا عن كل جندئ من بلاكووتر. وفى أقل من عام كانت الشركة قد حصدت ٧٠مليون دولار من عقود فدرالية تتعلق بأعمال الأعاصير -أئ ٢٣٤٠٠٠ دولار يوميا. رأت الشركة كاترينا لحظة لاقتناص

فرص عظيمة وسرعان ما بدأت فى تقديم طلبات إصدار تصاريح لتأجير قواتها للحكومات المحلية فى الخمسين ولاية جميعها. التقى تنفيذيو بلاكووتر بأرنولد شوارزنجر حاكم كاليفورنيا بشأن الانتشار هناك فى أعقاب حدوث زلزال أو كارثة أخرى.

قال مسئول بلاكووتر الذى ترأس قسمها المحلى الذى تشكل فى أعقاب كاترينا "انظر، لايحب أحد منا فكرة أن تصبح الكوارث فرصة بيزنس. إنها حقيقة غير محببة، لكنها حقيقة. إن الأطباء، المحامين، المشرفين على الجنازات، وحتى الصحف- جميعهم يقتاتون من الأشياء السيئة التى تحدث. وهكذا نحن، لأنه لابد أن يتولى أحد الأمور". لكن الناقدون يرون نشر قوات بلاكووتر محليا سابقة خطيرة بإمكانها تقويض ديموقراطية الولايات المتحدة. مرة أخرى يقول مايكل راتنز "يمكن لعملياتهم ألا تخضع للقيود الدستورية التى تنطبق على المسئولين والعاملين بالحكومة الفدرالية والولايات- بما فى هذا الحقوق التى نص عليها التعديل الأول والتعديل الرابع عن عدم خضوع الأفراد لعمليات الضبط والتفتيش غير القانونية. وبخلاف ضباط الشرطة، فهؤلاء ليسوا مدربين على حماية الحقوق الدستورية. وهذه الأنواع من الميلشيات تذكرنا بأعضاء فرق الصاعقة النازية، فهى تعمل كآلية تنفيذ خارجة عن سياق الإجراءات القضائية، وتستطيع أن تقوم بعملياتها، بل إنها تقوم بها، خارج نطاق القانون. إن استخدام تلك المجموعات المليشياوية تهديد خطير لحقوقنا إلى الحد الأقصى".

ما يخيف بخاصة فى دور بلاكووتر فى حرب أسماها الرئيس بوش نفسه "حربا صليبية" هو أن كبار تنفيذييها مكرسون لأجندة تعمل على تسيُّد المسيحيين. أمد إريك برينس وعائلته حرب اليمين المتدين ضد العلمانية بتمويلات سخية، كما أنه ينادى بتوسيع حضور المسيحية فى المجال العام. وأيضا فإن برينس صديق حميم وراعٍ لبعض أكثر المسيحيين الصليبيين القتاليين تطرفا فى البلاد، من أمثال متآمر ووترجيت السابق تشاك كولسون، الذى تقدم فى مسيرته ليصبح مستشارا لبوش

وهو رائد فكرة "السجون المقامة على أساس العقيدة"، وأيضا جارى باوير، القائد المسيحى المحافظ، من الموقعين الأصليين على "بيان المبادئ" لمشروع القرن الأمريكي، والذى عمل معه برينس منذ شبابه، وكان صديقا حميما لوالد برينس. يتفاخر بعض تنفيذيى بلاكووتر بعضويتهم فى "أخوية فرسان مالطا العسكرية ذات السيادة"، وهى ميلشيا مسيحية صليبية تشكلت فى القرن الحادى عشر، ومهمتها الدفاع" عن الأراضي التى غزاها الصليبيون ضد المسلمين". وتتفاخر هذه الأخوية اليوم بكونها "كيانا ذا سيادة خاضعا للقانون الدولى، له دستوره الخاص، جوازات سفره، أختامه، ومؤسساته العامة" و"علاقات دبلوماسية مع ٩٤بلداً". تعمق تعاقدات البنتاجون مع هؤلاء الصليبيين الجدد للقيام بعمليات عسكرية نيابة عن الولايات المتحدة فى البلدان الإسلامية والمجتمعات العلمانية، أعظم المخاوف لدى الكثيرين فى البلدان العربية، ولدى المعارضين الآخرين من حروب هذه الإدارة.

سمع معظم العالم لأول مرة عن "الشركات العسكرية الخاصة" بعد الكمين سيئ السمعة الذى نُصِب فى ٣١ مارس ٢٠٠٤ لأربعة من جنود بلاكووتر بالفلوجة - عملية قتل غوغائية دموية مثّلت علامة فارقة على لحظة تحول الحرب فى العراق، واندلاع المقاومة العراقية. أشارت معظم التقارير الإعلامية آنذاك (ومازالت إلى اليوم) إلى تلك القوات المشبوهة بصفتهم "مقاولين مدنيين" أو "عاملين أجانب بإعادة الإعمار" وكأنما هم مهندسون، عاملون فى مجال الإنشاءات والمجالات الإنسانية أو خبراء مياه. لم يكد تعبير "مرتزقة" يُستخدم أبدا لوصفهم. وليست هذه محض صدفة. فهذا حقا جزء من حملة متطورة جدا لإعادة تصنيفهم تنظمها صناعة المرتزقة نفسها ويحتضنها، بتزايد صناع السياسة، البيروقراطيون، وصناع قرار آخرون فى واشنطون وفى عواصم غربية أخرى. كان هؤلاء الرجال الذين قُتلوا بالفلوجة أفرادا فى أكبر شريك لواشنطون فى تحالف الراغبين بالعراق - عددهم أكبر من جميع القوات التى نشرتها بريطانيا هناك- وعلى الرغم من ذلك لم يكن لدى معظم العالم أدنى فكرة بأنهم موجودن هناك. نتج عن ذلك الكمين أن أصبحت بلاكووتر فى موقع يسمح لها بالتأثير على الأحكام التى تُشرِف (أو لا

تُشرف) على تلك الصناعة الآخذة فى التوسع بسرعة رهيبة، التى كانت بلاكووتر تحتل فيها مركز القيادة الجديدة. وبعد ثلاثة أشهر، مُنحت الشركة أحد أكثر التعاقدات الأمنية الدولية لحكومة الولايات المتحدة، أكثرها قيمة: حماية الدبلوماسيين ومنشآت الولايات المتحدة. أصبح موت أربعة من جنودها الخاصين الذى لقى إعلاما واسعا، الشرارة التى انطلقت منها بلاكووتر على طريق النجاح لسنوات عديدة قادمة.

قصة صعود بلاكووتر هى قصة ملحمية فى تاريخ المجمع العسكرى/الصناعى. فالشركة هى التجسيد الحى للتغييرات التى صنعتها الثورة فى الشئون العسكرية وأجندة الخصخصة التى وسعت إدارة بوش نطاقها جذريا تحت قناع الحرب على الإرهاب. لكنها جوهريا، فإنها قصة عن مستقبل الحرب، الديموقراطية، والإدارة العليا. تبدأ هذه القصة من بدايات الشركة فى عام ١٩٩٦ ومع افتتاح تنفيذيى بلاكووتر الرؤيويين معسكر تدريبات عسكرية خاص من أجل "الوفاء بالطلب المتوقع لتعاقدات الحكومة الخارجية للتدبب على الأسلحة، وتدريبات الأمن الأخرى ذات العلاقة"، وإلى طفرة تعاقداتها بعد ٩/١١، وحتى شوارع الفلوجة الغارقة فى الدماء حيث تُركت جثث المرتزقة متدلية من الكوبرى. تشمل بداية نجاحها أيضا معركة إطلاق النيران من على الأسطح بالنجف، معقل مقتدى الصدر؛ وإرسال بعثة مقاتلة إلى منطقة بحر قزوين الغنية بالنفط، حيث أرسلت الإدارة الأمريكية بلاكووتر لإقامة قاعدة عسكرية على بعد أميال قليلة من الحدود الإيرانية؛ إلى تلك العملية السريعة فى شوارع نيوأولينز التى دمرها الإعصار؛ وساعات طويلة فى غرف السلطة بواشنطون دى سى، حيث يلقى تنفيذيو بلاكووتر الترحاب كأبطال جدد فى الحرب على الإرهاب. بيد أن صعود أقوى جيش مرتزقة فى العالم كان قد بدأ على مسافة شاسعة من ميادين القتال الحالية، فى هولندا، بلدة المستنقعات الناعسة بميشيجان حيث وُلد إريك برينس لأسرة من المسيحيين اليمينيين. كانت عائلة برينس هى التى وضعت الأسس، وأنفقت ملايين الدولارات طوال عقود عديدة من أجل تمكين القوات ذاتها التى ستجعل صعود بلاكووتر النيزكى ممكنا ■

1

الفصل الاول

الأمير الصغير

يبعد القصر المهيب رقم ١٠٥٧ ساوث شور درايف، ببلدة هولندا، ميشيجان عن الفلوجة بمسافة آلاف عديدة من الأميال. يقع البيت الذى نشأ فيه الصغير إريك برينس، مؤسس بلاكووتر يو إس إيه، على شواطئ بحيرة ماكاتاوا الناعسة، وهى فرع صغير من بحيرة ميشيجان بالغرب الأوسط الأمريكى. تومض الأشجار على حافتى طريق السيارات؛ وتتلألأ أشعة الشمس بسلام على سطح البحيرة. بين آونة وأخرى، تنطلق سيارة مارة، أو مُحرِّك زورق، وباستثناء هذا فالحى هادئ ساكن، تجسيد مجتمع الوفرة الأمريكى الذى يظهر على البطاقات البريدية. تسير امرأتان فى أواسط العمر مسرعتان وتتخطيان رجلاً يركب جزّازة النجيل الآلية بتكاسل. وبخلاف ذلك، فالشارع مهجور. وفيما تسيران ترمق إحدى المرأتين رفيقتها بنظارة متسائلة، وتكاد قبعتا الشمس اللتان ترتديانهما تتصادمان، وتسأل ما إن كانت عائلة برينس مازالت تمتلك القصر. تلك الأراضى والأملاك شهيرة، وتفوقها الأسرة شهرة. وفى هولندا، ميشيجان، كانت عائلة برينس أسرة مالكة، وكان والد برينس،

إدجار برينس، هو الملك.

ومثل مجمع بلاكووتر بمويوك، كارولاينا الشمالية -الأرض، الشاسعة التى تبلغ مساحتها سبعة آلاف فدان وتعمها قعقة لا تتوقف لطلقات المدافع الآلية- كانت إقطاعية إريك الخاصة، القرية الرعوية بهولندا، ميشيجان ملكا لوالده. كان والده رجل صناعة عصاميا، يعمل لديه حوالى ربع سكان البلدة. شكّل مؤسساتها وخطّط وموّل مركز مدينتها التجارى، وكان بين أكبر رعاة جامعتيها. وحتى بعد عقد من وفاة إدجار المفاجئ عام ١٩٩٥، فمازال حضوره وتراثه نافذين فى البلدة. يوجد على ناصية الشارعين الأكثر نشاطا فى البلدة نُصبا تذكاريا لتكريم إد برينس: تؤدى سبع درجات برونزية مطمورة فى الأرض إلى منصه مرفوعة وُضِع عليها تماثيل بالحجم الطبيعى لثلاثىٍّ موسيقى -عازف تشيللو فى بدلة سهرة سوداء، وعازف كمان له شارب، وفتاة ترتدى تنورة وتنفخ فى الفلوت. ويصور تمثال آخر بنتا صغيرة تقف وذراعاها تحيطان بصبى يحمل كتاباً به نوتة موسيقية، وقد

تجمدت شفاهما على أغنية، وعلى القاعدة أسفل المجموعة توجد لافتة صغيرة تخلّد إدجار د.برينس كُتب عليها: "ستسمع خطواتك دائما. يُمجد أهالى وسط مدينة هولندا رؤيتك المستقبلية وكرمك غير العاديين". وإذا كان ثمة درس كانت عقيدة إدجار وإنجازاته تؤهلانه لتعليمه لأطفاله، فقد كان هذا الدرس هو كيفية بناء إمبراطورية مؤسسة على القيم المسيحية المتزمتة، السياسة اليمينية، واقتصاد السوق، وحمايتها. لكن على حين أن مشهد مدينة هولندا اليوم تُنَقِّطه النصب التذكارية لتراث عائلة برينس، فلم يكن إدجار إمبراطور البلدة الأول. فمنذ قيام، مجتمع مدينة هولندا، ظل يديرها الآباء المسيحيون . عام ١٨٤٦، هبط على شاطئ غرب ميشيجان ألبرتوس ڤان رالت ومعه عشيرة مكونة من خمسة وسبعين من الرفاق اللاجئين الهولنديين الذين أنهكهم ركوب البحر. كان سلف برينس قد هرب من موطنه لأنه "عانى من جميع أنواع المهانة والاضطهاد لتحديه القيود الدينية التى فرضتها الدولة على الكنيسة" وفقا لما تردده المدينة.

كان ڤان رالت عضوا فى طائفة "الإصلاح الكنسى الهولندى" التى كانت تعارضها الملكية الهولندية آنذاك. وبعد وصوله للولايات المتحدة على متن سفينته The Southerner، قاد ڤان رالت عشيرته إلى شواطئ بحيرة ميشيجان، وهناك تبنى تصورا لمجموعة سكانية لديها حرية العيش والعبادة داخل نطاق تعاليم نُسختَه من "الإصلاح الكنسى الهولندى"، وبدون أية مؤثرات خارجية. وبعد رحلات للبحث، استقر على البقعة المثالية، بجوار بحيرة تصب فى بحيرة ميشيجان. وفى ٩ فبراير ١٨٤٧، أقيم مجتمع ڤان رالت، على الموقع الذى قضى فيه إريك برينس، فيما بعد صباه. لكن رؤيته المثالية لم تتحقق كما توقعها "كان هدفه لتطوير مجتمع مسيحى تحكمه المبادئ المسيحية نبوئيا، لكنه تحطم عام ١٨٥٠. فقد أصبحت ناحية بلدة هولندا الوحدة الأساسية للحكومة (المحلية). من ثم ضاع مثال ڤان رالت لتحكم مسيحى". لكن ڤان رالت بحث عن وسائل بديلة لإقامة عالمه الطوباوى فى مدينة هولندا. تقول سيرته "أصبح تأثيره ملموسا لأنه نشط فى الحياة السياسية ومضى يتملك مساحات كبيرة من الأراضى ورغم انهيار عديد من الوسائل المتاحة لتحقيق

إقامة مجتمع مسيحى، كان ڤان رالت مازال راعى الكنيسة الوحيدة هناك، وعضوا فى مجلس إدارة المدارس بالإقليم، والضوء المرشد للحياة الأكاديمية، وأكبر مالك للأراضى، ورجل أعمال لديه ممتلكات كبيرة". يمكن تطبيق نفس الوصف، تقريبا، على إدجار برينس، وفيما بعد، على إريك، الذى وُلِد بعيد وفاة ڤان رالت بحوالى قرنٍ من الزمان.

أُسست "كنيسة الإصلاح الهولندية" المحافظة، التى أمدت ڤان رالت بالإرشاد الدينى، وفيما بعد، أمدت كل عائلة برينس بالإرشاد، أُسست عقائدها على تعاليم جون كالڤين، رجل الدين الذى عاش فى القرن السابع عشر. أحد مبادئ الكالڤينية الرئيسية هو الجبرية. أى الاعتقاد بأن الله قد قدَّر الخلاص للبعض، واللعنة للآخرين. يعتقد الكالڤنيون أنه ليس من شأن البشر التدخل فى قرارات الله أو محاولة التنبؤ بها. يقضى هذا الدين أيضا بالطاعة التامة، العمل الشاق، والفعل على أساس من الاعتقاد أن الله سيوجه أتباعه لكنهم مسئولون عن عملهم. منذ زمن طويل، ظل الكالڤنيون يتباهون بعقيدتهم فى أخلاقيات العمل وتطبيقها. تفخر مدينة هولندا أن قروييها قد حفروا القناة إلى بحيرة ميشيجان -والتى برهنت فيما بعد على قيمتها الكبيرة للتجارة- بأيديهم، ثم وضعوا مجارفهم وبدأوا فورا فى تشييد الكوبرى على قناتهم الجديدة.

كانت أخلاقيات العمل الشهيرة تلك وراء ركوب جد إيريك برينس، پيتر برينس مالك شركة تيوليب سيتى بروديوس Tulip City Produce شاحنة متجهة إلى جراند رابيدز على بعد ثلاثين ميلا، لحضور اجتماع عمل فى ساعات الصباح المبكرة من يوم ٢١مايو ١٩٤٣. وبعيد بدء الرحلة، اشتكى برينس لزميله تاجر الجملة الذى يتعامل أيضا فى الغلال الزراعية، من حموضة فى فم المعدة، ومن ثم توقفا لبضع دقائق. ارتمى برينس على زميله الذى كان يقود السيارة. وعند استدعاء طبيب البلدة قال إنه قد توفى عن عمر يناهز ٣٦ عاما. كان إدجار، ابن پيتر فى الحادية عشرة من العمر.

بعد عقد من الزمان، تخرج إدجار في كلية الهندسة بجامعة ميشيجان، والتقى بإلسا زويب، ابنة مالك محل زويب للبذور بهولندا، والتي كانت لتوها قد أكملت دراستها في الاجتماع والتربية بكلية كالفينية قريبة. تزوجا. واتبع إدجار تقاليد العائلة فالتحق بالجيش وخدم بالقوات الجوية للولايات المتحدة. انتقل الاثنان إلى الشرق، ثم إلى الغرب حيث كان إدجار قد تموقع في قواعد حربية بكارولاينا الجنوبية وكلورادو. ورغم أنه من غير الواضح ما إن كان بيتر قد خدم سابقا في الجيش -بلغ سن التجنيد في الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية- فقد كان أربعة من إخوة بيتر الخمسة بالجيش وقت وفاته. وعلى الرغم من أن إدجار برينس قد سافر في أنحاء كثيرة أثناء الدراسة وخدمته بالقوات الجوية إلا أن موطنه ببلدة هولندا ظل يناديه هو وإلسا للعودة إلى بحيرة ميشيجان وإلى التقاليد الدينية والثقافية المتزمتة التي اعتنقتها عائلة برينس. قال إدجار برينس في كتاب عن المركز التجاري لمدينة هولندا، والذي ضم ثلاثة فصول عن العائلة "نجد هولندا مكانا مريحا مناسبا جدا للمعيشة. لدينا هنا عائلة. نتمتع بفرص ترفيهية. نحب موروثات المجتمع هنا، المؤسسة على ما عُرف عن الهولنديين من الإتقان، النظافة، النظام، والعمل الشاق. ظل الامتياز دائما معيارا لهم".

ولدى عودته إلى البلدة، شمر إدجار عن ساعديه وبدأ يعمل في صب القوالب، حتى ترقى إلى مركز كبير المهندسين بمصانع هولاندز باص ماشين وركس Holland Buss Machine Works. لكن كان لدى إدجار طموحات أكبر كثيرا، وسرعان ما استقال من منصبه. في عام ١٩٦٥، أنشأ برينس واثنان من زملائه العاملين شركاتهم الخاص لتصنيع ماكينات مصبوبة لصناعة السيارات. في عام ١٩٦٩، شحن ماكينة وزنها ١٦٠٠طن لها القدرة على تصنيع صناديق نقل من الألمونيوم كل دقيقتين. في عام ١٩٧٣، كانت مؤسسة برينس كوربوريشن قد حققت نجاحا عظيما في وجود مئات من الأشخاص يعملون في أقسام الشركة المختلفة بهولندا. وفي تلك السنة بدأت الشركة في إنتاج ما سيصبح منتجها الدال المميز، اختراع قطع مبتكرة للسيارات أصبحت تستخدم في كل سيارة في العالم.

لكن فيما كانت عائلة برينس تحيا وسط وفرة من الثروة والنجاح، أثّر الجهد اليومى الذى كان يبذله إدجار -ما بين ١٦ إلى ١٨ساعة عمل يومي- في صحته، وكاد يلقى، فى بداية السبعينات مصير والده حيث أصيب بأزمة قلبية خطيرة. "وفيما كان يرقد فى سريره بالمستشفى ويتأمل إنجازاته وما حققه له عمله الشاق المثابر، قرّر أن يُكرس نفسه من جديد لإيمانه بالمسيح الصليبى عيسى"، هكذا تذكر صديق إدجار جاري باوير، أحد أوائل قادة اليمين المسيحى الصليبي ومؤسس جماعة اللوبى المسيحى المسماة "مجلس أبحاث العائلة". قال بوير أيضا "سلّم إد مستقبله ومستقبل البزينس الخاص به إلى الرب. ومنذ آنذاك، بارك الرب فى برينس كوربوريشن، وأسبَغ عليها نموا غير مسبوق ونجاحا مالياً". "شُفى إدجار برينس من الأزمة القلبية، وقاد شركته إلى ازدهار مذهل. سرعان ما توسعت برينس كوربوريشن ودخلت مجال إنتاج لمبات رسم الخرائط، وآليات فتح الجراجات، وكونصولات بطفّايات، وحاملات فناجين وعملات، ومنتجات أخرى. وفى الثمانينيات كان لدى إمبراطورية برينس مصانع عديدة وأكثر من ٥٥٠ من العاملين. فيما بعد قال إريك برينس "كان والدى صاحب مشاريع مغامرة جد ناجحة. بدأ شركة من لا شئ أنتجت أولا ماكينات ضغط عال مصبوبة، ثم تطورت لتصبح منتجة لقطع غيار وإكسسوارات سيارات انتشرت على نطاق عالمى من غرب ميشيجان. ابتكروا اكسسوارات سجلوا حقوق اختراعها مثل بوصلة/ترمومتر السيارة الرقمى وآلية فتح أبواب الجراجات التى يمكن برمجتها". لكنه أضاف "لم تكن كل اختراعاتهم مربحة. مثلا لم تنجح أشياء من قبيل آلة نزع العظام عن اللحم المؤتمته وغيرها. استخدم والدى تلك الاختراعات نماذج للحاجة إلى المثابرة والتصميم".

وفى هذا الصدد، لم يكن هذا هو الأسلوب الأوحد المنتج فى نجاح برينس، بل إنه بدا ذا أهمية ثانوية. ذكر أحد كتالوجات برينس كوربوريشن أن "العنصر البشرى هو ما يحدث الفرق. لا ينتج تميز الشركة من لا شئ. فالتميز هو نتيجة التزام الأشخاص المكرسين وعملهم الشاق. وسواء كنا نتحدث عن المنتجات أو العمليات فليس ثمة سحر أو توليفة سهلة لتحل تحديات الغد. لكن الناس هم من سيحلونها".

كان إدجار برينس مغرما بالمبادرات، مثل تلك التى التزم فيها العاملون بنظام صارم للتدريبات الرياضية. كان التنفيذيون يلتقون ثلاث مرات فى الأسبوع من الساعة ٤:١٥ وإلى ٥:١٥ عصرا بنادى التنس الذى كان ملكا لعائلة برينس وفى عام ١٩٨٧، افتتح برينس منشأة واسعة مساحتها ٥٥٠٠٠٠ قدم مربع، منتشرة على أكثر من خمسة وثلاثين فدانا، رابع مركز صناعى له، وكانت تضم العاملين بالشركة والذين كان عددهم قد أصبح ١٥٠٠شخص. ضم هذا "الحَرَم" الصناعى الجديد ملاعب كرة سلة وفولى. لم يسمح إدجار أبدا بأن يشتغل العاملون أيام الأحد، وكان يجعل المدراء التنفيذيين يستقلون الطائرات من أماكن تواجدهم فى رحلات عمل كى يتواجدوا مع عائلاتهم أيام الأحد ليمارسوا طقوس يوم الرب.

كانت صناعة السيارات بدترويت تعانى فى ثمانينيات القرن العشرين. لكن مقالا تحريريا رئيسياً فى صحيفة هولاند سنتينل، أورد كاتبه رولاند يونج بلتون ما ذكره له إريك برينس. "لم يكن لأحد أبدا أن يستنتج ما تمر به تلك الصناعة من صعوبات من الأوضاع التى كانت عليها برينس كوربوريشن. كان بيزنس عائلتى هو تزويد صناعة السيارات بقطع الغيار والإكسسوارات -أى أكثر البزينسات ضراوة فى التنافس على مستوى العالم. كان والدى يركز على الجودة، حجم الإنتاج، وإرضاء العملاء. كان هذا ما كنا نتحدث عنه على مائدة الغداء". لكن ما كان يشغل تفكير إدجار برينس هو أمر يتخطى نجاح البرينس والعاملين لديه، ومع تدفق الأموال على برينس كوربوريشن، أصبح لديه الوسيلة لإنجاز الغايات العليا التى كان يتطلع إليها. كان هذا يعنى صب مبالغ كبيرة من الأموال لخدمة قضايا المسيحيين المحافظين. يقول جارى باوير "لم يكن إد برينس من بناة الإمبراطوريات بل من بناة مملكة الرب. بالنسبة له، كان النجاح الشخصى يحتل المقعد الخلفى، فيما يحتل المقعد الأمامى نشر كلمة الرب والبشارة المسيحية والنضال من أجل الإصلاح الأخلاقى فى مجتمعنا".

فى الثمانينيات، اندمجت عائلة برينس مع إحدى أعلى العائلات المحافظة مكانة فى

الولايات المتحدة حينما تزوجت بتسى، شقيقة إريك برينس، ديك ديڤوس، الذى كان والده ريتشارد قد أنشأ أمواى، المؤسسة التسويقية متعددة المستويات، ثم مضى واشترى فريق أورلاندو ماجيك لكرة السلة. كانت أمواى شركة كبرى لتوزيع المنتجات المحلية وكانت دائما توجه إليها الاتهامات بأنها تُدار كجماعة دينية سرية ولا تتعدى كونها خطة هرمية متطورة للمضاربات. فى التسعينيات أصبحت الشركة إحدى أكبر الشركات التى تساهم بالأموال فى العمليات الانتخابية بالولايات المتحدة، وغالبا، للمرشحين الجمهوريين وقضاياهم، واستخدمت البنية الأساسية لأعمالها كشبكة سياسية تنظيمية هائلة. كتبت مجلة مَذَر جونس فى عَرْض لها عن الشركة "تعتمد أمواى بقوة على التكريس شبه المتعصب لموزعيها البالغ عددهم ٥٠٠٠٠٠ موزع أمريكى "مستقل!" وفيما يقوم هؤلاء الموزعون ببيع الصابون، الڤيتامينات، المنظفات، والمنتجات المنزلية الأخرى التى تنتجها الشركة يحثون الآخرين على اعتناق فلسفة أمواى". أخبرت كارن جونز، إحدى موزعى أمواى السابقين، المجلة أنهم "يقولون إن الليبراليين يدعمون المثليين ويجعلون النساء يغادرن أماكنهن الطبيعية" إن عليهم الرجوع بالأمور إلى ما يجب أن تكون عليه. أيضا عُرِف عن قادة أمواى أنهم يستخدمون "وسائل صوتية بالإضافة إلى حملات الشركة، وأشرطة مسجلة حافزة، لحشد الموزعين وجعلهم قوة سياسية فاعلة".

كان زواج بتسى وديك من نوع التحالفات الشائعة بين الأسر المالكة فى أوربا. كانت أسرة ديڤوس إحدى الأسر القليلة فى ميشيجان التى تفوق أسرة برينس سطوة وتأثيرا. كانوا بين أكبر ممولى قضايا اليمين المتطرف فى تاريخ الولايات المتحدة، وبأموالهم، دفعوا بالسياسيين والناشطين من المتطرفين المسيحيين إلى المواقع الهامة فى السلطة. ولفترة، سكن بتسى وديك فى نفس الشارع الذى تسكنه عائلة برينس، ومن بينهم إيريك، الذى يصغر شقيقته بعشر سنوات.

وفى عام ١٩٨٨، بدأ جارى بوير وجيمس دوبسون، مؤسس منظمة "التركيز على الأسرة" فى إنشاء ما سيصبح فيما بعد "مجلس أبحاث الأسرة" (FRC)، تلك

المنظمة الصليبية التبشيرية، ذات التأثير الكبير، الإنجيلية المحافظة المتطرفة التى ظلت منذ آنذاك تقود الحملات فى قضايا تتراوح بين حظر زواج المثليين وتجريم أبحاث الخلايا الجذعية. لكن، ومن أجل النهوض بها، كانت المؤسسات بحاجة إلى تمويل، من ثم، توجها إلى إدجار برينس. كتب باوير قائلا "حينما قررتُ وجيم دوبسون أن الموارد المالية لم تكن متاحة" للنهوض بمنظمة FRC تدخل إد وعائلته وملئوا الفجوة. "باستطاعتى القول دونما تردد إنه من دون إد وإلسا وأطفالهما المدهشين، لم يكن ليوجد شئ اسمه مركز أبحاث الأسرة". كان إريك ضمن أوائل من انضموا إلى FRC. كان التنظيم واحداً من التنظيمات اليمينة العديدة التى ستمولها أسرتا برينس وديڤوس، ذلك النشاط الذى أدى إلى ما أصبح يعرف بثورة الجمهوريين عام ١٩٩٤، التى أتت بنوت جينجريتش ومعه أجندة يمينية تعرف باسم "عقد مع أمريكا" إلى السلطة بالكونجرس وإلى انتزاع التحكم فيه من الديموقراطيين لأول مرة فى أربعين عاما. ولدعم "الثورة" تبرعت شركة أمواى التى تملكها ديڤوس باثنين ونصف مليون دولار للحزب الجمهورى وهو أكبر تبرع مفرد لأى حزب سياسى فى التاريخ. تبرعت أمواى أيضا، عام ١٩٩٦، بمبلغ ١.٣ مليون دولار لمؤتمر سان دييجو ومكتب الزائرين لتمويل بَثٌ "الإعلانات الإعلامية" للجمهوريين على قناة فاميلى تشانل التى يملكها پات روبرتسون أثناء المؤتمر القومى الجمهورى.

فيما بعد، ترأست بتسى ديڤوس الحزب الجمهورى بميشيجان من عام ١٩٩٦ وإلى عام ٢٠٠٠، ومن ٢٠٠٣ إلى ٢٠٠٦؛ راودتها أيضا فكرة الترشح لمجلس الشيوخ. كانت أيضا أحد الرواد الذين جمعوا التمويلات لحملة جورج دبليو. بوش. ترشح زوجها ديك أيضا لمنصب حاكم الولاية عن الحزب الجمهورى عام ٢٠٠٦، لكنه لم يفز. يقول المراقبون المحنكون للحياة السياسية بمشيجان إنه من الصعب المبالغة فى تقدير حجم تأثير عائلة ديڤوس فى الحياة السياسية للولاية قال دوج كوبمان أستاذ علم السياسة بجامعة كالڤين "إن على من يحاول الترشح لمنصب جمهورى هام مراجعة أسرة ديڤوس. فالمجتمع هنا يعتقد أنهم ليسوا فقط مصدر التمويل بل

حكاماً على مدى ملاءمة المترشح للمنصب".

أيضا، كانت عشيرتا برينس وديفوس هما القوة المحركة الأساسية وراء "منتدى الأسرة بميشيجان" (MFF)، وهو نسخة الولاية من "مركز الأسرة" لجيم دوبسون. وبالإضافة إلى عشرات آلاف الدولارات التى تدفقت على MFF من أسرة برينس، فقد كانت إحدى شقيقات إريك برينس، أى إميلى ويردا قد عملت أمينة صندوق المنتدى. حشد MFF الناخبين فى الكنائس المحافظة لدعم المُشرّعين الذين يساندون أجندة اليمين المسيحى. ومنذ عام ١٩٩٠، أدار MFF نظام لوبيهات من "الباب الخلفى"، من خلال إنشاء أكثر من ألف من "لجان التأثير فى المجتمع" (CICS) التى اتخذت من الكنائس مقارا لها، وعملت بعيدا عن الأنظار. يقول راص بلانت فى كتابه "اليمين الدينى فى حياة ميشيجان السياسية" (١٩٩٦) "تُقدم CICS ميزات للتنظيمات السياسية لا تملكها التنظيمات المسيحية اليمينية الأخرى. ولأنهم يتخذون مواقعهم داخل الكنائس، فإن اجتماعاتهم غير مرئية فى عالم السياسة. ونظرا لأن الأشخاص العاديين، لا رجال الدين، هم من يديرون هذه المجموعات، لا يصبح لهم وجود جاذب للنظر حتى فى مجتمع الكنائس خارج شبكة "منتدى الأسر". أيضا، أنشأ المنتدى "شبكة ميشيجان للصلاة، التى تشكلت من "مقاتلين داعين للصلاة" أنيط بهم التأثير على كل عضو مجلس تشريعى فى الولاية. وفيما حُظِر على المجموعة ممارسة الضغط بصراحة، فإن تأثير الطلب من أعضاء المجالس التشريعية بأن "يُصلُّوا" من أجل قضايا مثل اختيار المدارس، وضد حقوق المثليين. هو "لعبة أخرى من ألعاب اللوبيهات" كما عبر أحد أعضاء المجالس التشريعية بميشيجان.

وفى الوقت الذى كان إدجار برينس يغدق الأموال على اليمين المسيحى، أصبح أيضا راعيا لمجتمع بلدة هولندا، واستثمر ملايين الدولارات فى جامعة هوب، التى أسسها ألبرت ڤان رالت، ومنافستها التى تماثلها فى الالتزام الدينى، أى جامعة كالڤين، تلك الجامعة التى تخرجت فيها زوجة إدجار. قام هو وإلسا، وحدهما

تقريبا، بإعادة هندسة وسط المدينة التجارى، وأتيا بالازدهار الاقتصادى إليه، وأنقذاه من المصير الذى واجهته مئات من المدن الصغيرة فى أنحاء الغرب الأمريكى الأوسط، والتى طواها تدريجيا عالم النسيان الاقتصادى نتيجة للتخطيط المدينى السيئ الذى اقترن به التزود من خارج المدنية وتقليص الإنتاج وتسريح العمالة، وزواء صناعة الولايات المتحدة ككل. ساعدت عائلة برينس على إنشاء المنتزهات، والمراكز الترفيهية فى وسط المدينة وضغطت بشدة من أجل الحفاظ على معالم المدينة التاريخية وإصلاحها. ناضلوا من أجل جودة تخطيط المدينة بحيث يُمكّنها من الازدهار لأجيال قادمة، مع الحفاظ على ما رأوه أنه روابطها الضرورية مع جذورها الهولندية. قاموا شخصيا بتبنى قضايا مثل إنقاذ برج ساعة حجرى أقيم عام ١٨٩٢ والذى كان إحدى دعامات وسط المدينة وكان بحاجة ماسة للإصلاح. بدت بعض أفكار إدجار برينس للحفاظ على حيوية مركز المدينة التجارى أفكارا مجنونة. فى نهاية الثمانينيات، خطر له إنشاء نظام من أنابيب التدفئة تحت أرضى يذيب الثلوج فى أنحاء حى الأعمال ويُبقى على الحركة كما هى حتى فى أقسى فصول الشتاء. قام بحملة لتنفيذ المشروع وحينما ترددت المدينة فى أمر تنفيذ الخطة التى بلغت تكلفتها ١.١مليون دولار، دفع برينس ربع التكلفة من ماله الخاص.

وفى كل هذه الأثناء، استمر إدجار برينس يوازن بين التزاماته للبيزنس والتزاماته الدينية، التزاماته لكنيسة الإصلاح الهولندية ولبرينس كوربوريشن. كتب جارى بوير عن برينس عام ١٩٩٥ "كان إد فى أفضل أحواله، وكان ذا فائدة عظمى لمجلس أبحاث الأسرة أثناء الأوقات الصعبة القاتمة -أى فى المعركة التى تلت الإحباط المرير من حكم المحكمة العليا غير المتوقع لصالح الإجهاض فى قضية الإنجاب المنظم ضد كيسى، وطوال النقلة المعادية للأسرة فى الكونجرس عام ١٩٩٢، وفى الأشهر الأخيرة من وجود موجة المحاولات التى يقوم بها البعض لإعادة تعريف الأسرة التقليدية وتقويض الزواج". كما استمرت برينس كوربوريشن فى الازدهار "ازدهار مؤسس على المبادئ الإنجيلية التوراتية" وفقا لما قاله جارى بوير. فى عام

١٩٩٢ بلغ عدد العاملين بالشركة ٢٢٥٠ شخص وفى بداية ١٩٩٥ بلغ عددهم أكثر من ٤٠٠٠ شخص وبلغت قيمة المبيعات السنوية ٤٠٠ مليون دولار. كان برينس أيضا قد زاوج بين فطنته فى البيزنس ورغبته فى رؤية بلدة هولندا تزدهر، وكان قد أنشأ ليومير كوربوريشن التى أصبحت أكبر مستثمر فى وسط المدينة التجارى. لكن سرعان ما ضربت الكوارث إمبراطورية برينس.

فى حوالى الساعة الواحد ظهر ٢مارس ١٩٩٥، كان إدجار برينس قد أنهى أحد أحاديثه المعتادة مع جون سبولهوف رئيس مجلس إدارة برينس كوربوريشن، صديقه القديم، والذى كان برينس قد قضى معه الأسبوع السابق فى رحلة إلى كلورادو للتزلج. افترقا، ثم دخل برينس الذى كان آنذاك فى الثالثة والستين، إلى المصعد فى المقر الرئيسى لشركته. أصابته أزمة قلبية كبرى وهو داخل المصعد ثم وُجِد على الأرض بعد ربع ساعة. فشلت محاولات إنقاذه وتوفى فى غضون ساعة. قال سبولهوف "رأيته قبل وفاته بحوالى دقيقتين. نظرت إلى تعبير وجهه ولونه، كان إد هو إد. كنت أعرفه عن كثب طوال هذه السنين؛ ولو أن وجهه كان على درجة من الشحوب لعرفت على الفور".

وكما يحدث لدى وفاة الملوك والبطاركة ورؤساء الدول، دخلت بلدة هولندا فترة حداد عميق. نُكِست الأعلام نَشرت جميع صحف المنطقة مرثيات تُعدِّد مناقبه على صفحاتها الأولى مع صور له. تجمع أكثر من ألف شخص فى كنيسة كرايست ميموريال ريفورمد تشيرش ليستمعوا إلى القادة الإنجيليين جيمس دوبسون وجارى باوير الذى وصف إدجار بأنه "مرشده"، وهم يرثون برينس.

فى وقت وفاة والده كان إريك برينس قد خدم، بصفته ضمن فرق السيلز البحرية، فى عدة مواقع بالبوسنة، هيتى، والشرق الأوسط. وبالرغم من ذلك، كان قد تصادف أن زار والده قبل أسبوع من وفاته، حينما رسم إدجار علامة الصليب على جبين ابنة إدجار لدى تعميدها. تذكر إريك أن والده قد علمه ألا يقول "لا أستطيع أبدا". وفى وقت وفاته، كان إدجار قد ظل متزوجا من إلسا لمدة أربعين عاما، وكانا

قد ربيا ثلاث بنات بالإضافة إلى إريك. قال إريك لصحيفة هولاند سنتينل بعد وفاة والده "كان والدى راعيا لأسرته، وكان يجمع الأسرة معا كلما سنحت الفرصة. كان يقوم بجميع الترتيبات ويراعى جميع التفاصيل". كان إريك سعيدا لأن والده استطاع أن يرى ابنته الكبرى صوفيا، ويُعمِّدها، لكن سعادته كان يشوبها الأسى: "أَحَبَّها، كانت تلك آخر مرة رأيته فيها. أشعر بالأسى لأن أطفالى لن يروه أبدا. كنت أريدهم أن يتحدثوا إليه ويتعلموا منه".

كان إريك برينس شديد الولع بوالده وحاول اقتفاء خطواته. منذ أن كان طفلا كان إريك صبيا نشيطا، يلعب كرة القدم، ويمارس رياضة الجرى وكرة السلة فى مدارس مدينة هولندا المسيحية الابتدائية والثانوية، والتى كانت تدعمها أسرته. سجل إريك تأملات إنجيلية ودينية عميقة فى حَوليات المدرسة. أيضا، قضى فترة تدريب فى مجلس أبحاث الأسرة". وأثناء دراسته الجامعية، حاول أيضا أن يرتدى عباءة والده. دخل الأكاديمية البحرية بعد دراسته الثانوية كى يتخرج قبطانا بحريا لكنه تركها بعد ثلاثة فصول دراسية والتحق بكلية هيلسديل، وهى جامعة مسيحية بميشيجان متخصصة فى العلوم الليبرالية وتبشر بالاقتصاد الليبرالى. فى استطلاع للرأى أجرته جامعة برينستون عام ٢٠٠٦ احتلت تلك الجامعة المرتبة الأولى كأكثر جامعة محافظة فى البلاد.

قال جارى ولفرام، أستاذ إريك عنه "إنه ذكى، محبب، وعذب الحديث. ما يميزه هو أنه يفهم العلاقات المتداخلة بين الأسواق والنظام السياسى". كان برينس أيضا يتعطش للأفعال المثيرة، وقد أرضى هذه النزعة فى البداية بأن كان أول طالب جامعى يلتحق بقسم إطفاء الحرائق للمتطوعين بجامعة هيلسديل.

وفيما تقدم به العمر، أصبح إريك، وبتزايد، نشطا فى الحياة السياسية اليمينية، وقضى فترة تدربه مدتها ستة أشهر فى للبيت الأبيض فى إدارة بوش الأب. وفى أثناء فترة تدريبه، قدم أول إسهام مالى له للجمهوريين، حيث منح لجنة الكونجرس الوطنية للحزب الجمهورى ١٥٠٠٠دولار تبرعا منه. ومنذ آنذاك، تبرع هو وزوجته

بمبالغ وصل مجموعها ٢٤٤٨٠٠٠ دولار للحملات الفدرالية الجمهورية ولم يتبرع بأى شئ للديموقراطيين. عمل برينس أيضا لفترة قصيرة فى مكتب عضو الكونجرس الجمهورى دانا روهبرباتشر. وفى ١٩٩٢، انضم إلى حملة بات بيوكانان الذى كان ينافس الرئيس بوش فى الترشح عن الحزب الجمهورى، وكان برنامجه الانتخابى معاديا بضراوة للمهاجرين، وللإجهاض، وأدى تأييد إريك لبيوكانان إلى نشوب معركة بينه وبين شقيقته بتسى التى كانت على رأس حملة محلية لإعادة انتخاب بوش. بيد أن إريك وإدجار لم يكونا متحمسيْن لبوش. قال إريك لإحدى الوكالات الصحفية "تدربتُ مع إدارة بوش لستة أشهر ورأيت أمورا عدة لا تحظى بموافقتى- جماعات من المثليين يُدعَون إلى هناك، اتفاق الميزانية، قانون الهواء النظيف.. ومشروعات قوانين أخرى. أعتقد أن الإدارة لم تكن مبالية باهتمامات كثيرة للمحافظين".

لكن اشتغال إريك بالسياسة العامة لم يدم طويلا. فى العام التالى التحق مرة أخرى بالفرقة (8) من فريق السيلز البحرى عام ١٩٩٢، وبدأ الطريق الذى سيصل به إلى مويوك، كارولاينا الشمالية. التقى فى السنوات الأربع التى قضاها فى تلك الفرقة بولاية فرجينيا بكثير ممن أنشأوا معه فيما بعد، بلاكووتر. كان سعيدا بعمله فى فرقة السيلز وكانوا هم فخورين به.

لكن فى غضون الأشهر التى تلت موت إدجار برينس ظل مستقبل برينس كوربوريشن ضبابيا. كان أكثر من ٤٠٠٠ من العاملين بالشركات يعتمدون على رؤية إدجار برينس وشعرت أسرة برينس أن بإمكانها أن تضمن ألا يزول صيت برينس كوربوريشن بزوال مؤسسها. تولت إلسا رئاسة مجلس إدارة الشركة، وعاد إريك إلى موطنه للمساعدة فى تنظيم أمور الشركة، ولمساعدة عائلته. كانت زوجته الأولى تعانى من السرطان فى مراحله النهائية ولم يكن لدى إريك خيار الاستمرار فى فرقة السيلز.

لكن لم يتأت للشاب برينس أن يصبح ملك برينس كوربوريشن. وفى ٢٢يوليو

١٩٩٦، وافقت الأسرة بعد أن فكرت ملياً على بيع الكوربوريشن إلى جونسون كونترولز نظير ١.٣٥بليون دولار نقدا واشترطت الأسرة بقاء اسم برينس على الشركات، وأيضا الاحتفاظ بعامليها والجو المُجتمعي الذى تبنته الشركة لوقت طويل. قالت إلسا برينس، فى تصريح لها نشرته جميع الصحف المحلية "إن الرب، وفى استجابة لدعائنا، فتح لنا الأبواب الصحيحة فى الوقت المناسب. إن توقيته مثالىٌ على الدوام". بل إن إلسا قالت أيضا إن هذه الصفقة ستُمكن شركة زوجها من أن يكون لها تأثير يتخطى حدود الولايات المتحدة". وبعد سنوات قصيرة اتضح هذا التأثير فى بلدة هولندا حينما مضى العديد ممن كانوا يعملون فى شركة برينس يهاجرون إلى المكسيك. وفى النهاية أزالت جونسون كونترولز اسم برينس من على الشركة وأغلقت عددا من المصانع المحلية.

وعلى الرغم من أن تأثير رجل الصناعة إدجار برينس أخذ يتراجع بثبات فى بلدة هولندا، إلا أن عقائده الدينية والسياسية، وكذلك مركز المدينة التجارى الذى أنشأه مازالت مستمرة فى التنامى. فى حياة إدجار برينس، كانت العائلة تتحاشى التورط الصريح فى السياسة، وتفضل أن تتحدث النقود نيابة عنها. لكن، فى السنوات التالية لوفاته، أعلنت إلسا برينس عن آرائها المؤيدة لقضايا اليمين المتطرف بوضوح، ومن بينها تلك التى كان زوجها يؤيدها. شغلت مناصب فى عدة تنظيمات يمينية ودينية متطرفة. صرحت لصحيفة هولندا سنتينل، عام ٢٠٠٣ بالقول "شُغلى الشاغل هو فعل ما يَودّك يسوع أن تفعله كى تزيد من المعرفة به وبأسااليبه". تبرع إدجار، إلسا، وزوجها الجديد بمبلغ وصل مجموعه ٥٥٦٠٠٠ دولار للمرشحين الجمهوريين ولجان الفعل السياسى الجمهورية، إلى جانب ملايين لا تحصى الدولارات تبرعا لجهود اليمين وقضاياه. تظل عائلة برينس ومعها عائلة ديفوس لاعبين رئيسيين فى الحركة المسيحية الصليبية المحافظة على مستوى ميشيجان وأيضا على المستوى القومى. دفعت أسرة ديفوس وحدها أكثر من ٣مليون دولار عام ٢٠٠٠ لتفعيل المثال التعليمى المحافظ الدائم.

تبنى إريك برينس أسلوب عمل والده من وراء الستار، وأيضا حماسه لقضايا اليمين المسيحى المتعصب مع بعض التحريف. يقول الكاتب روبرت يونج بلتون، وهو من القلة الذين أتيح لهم لقاء إريك: "إريك يدين بالمذهب الكاثوليكى الرومانى، رغم أن الكثيرين يعتقدون أنه يعتنق مذهب والده". وحقا، فإن كثيرين من التنفيذيين الذين شكلوا فيما بعد جوهر شركة بلاكووتر هم أيضا كاثوليك. فى عام ١٩٩٧، كتب إريك برينس، وكان ملازما فى فرقة السيلز البحرية الكلمة على الغلاف الخلفى لكتاب بعنوان الأبوة المسيحية: الالتزامات الثمانية لحراس ميثاق القديس جوزيف" قال فيها إن الكتاب "يمد الرجال بالتدريب الأساسى الذى يحتاجونه لإتمام مهمتهم". آنذاك، كان برينس والدا لطفلين. وستيفن وود، مؤلف الكتاب هو مؤسس مركز العائلة الدولى، وهى منظمة كاثوليكية تدافع عن العقيدة،متخصصة فى التزويد "بإعلام أخلاقى.. باتجاه تعميق حب الأسرة، ومعرفة أفرادها بعقيدتهم، ومن ثم تأمل فى التأثير فى مجتمع اليوم. نركز بخاصة على الأبوة، وعلى الإمداد بموارد تساعد الآباء على إنجاز المهمة التى خلقوا من أجلها". من بين كتب "الإعلام الأخلاقى"، مثلا، كتاب "مرشد الآباء لمنع التوجهات المثلية" و"سرطان الثدى وحبوب منع الحمل".

واسترشادا منه بتمويل والده لقضايا وأنشطة البروتستانت الصليبيين اليمينيين،أصبح برينس ممولا رئيسيا للمنظمات الكاثوليكية المتطرفة الهامشية. فى عام ١٩٩٩ تبرع بمبلغ ٢٥٠٠٠ دولار لمنظمة "إجابات كاثوليكية" وهى منظمة إحيائية أسسها الأصولى الكاثوليكى كارل كيتينج ومقرها سان دييجو. كرّس كيتينج حياته للترويج للكاثوليكية والدفاع عنها بأى ثمن. أثناء انتخابات ٢٠٠٤، و٢٠٠٦، وزعت المنظمة "مرشد الناخبين للكاثوليك الجادين" الذى ذكر خمس قضايا "غير قابلة للنقاش" والذى قال إنها غير متقبلة إطلاقا وفقا للتعاليم الكاثوليكية: الإجهاض، المثلية، أبحاث الخلايا الجذعية، القتل الرحيم، واستنساخ البشر. حينما كانت زوجة برينس تحتضر من السرطان أرسل إيميل إلى كيتينج، الذى طلب بدوره من أتباعه الصلاة من أجل عائلة برينس. فى العام التالى، موّل برينس المجلة

الكاثوليكية اليمينية "كرايسيس". أيضا تبرع بسخاء لعدد من كنائس ميشيجان، من بينها ٥٠٠٠٠ دولار لكنيسة كاثوليكية ببلدة كالامازو، و ١٠٠٠٠٠ دولار لكنيسة ومدرسة سانت إيزيدور الكاثوليكية بجراند رابيدز، وأيضا لعدة كنائس كاثوليكية بفرجينيا.

لكن، وبالتأكيد، لم يقتصر سخاء إريك برينس في التبرعات على القضايا الكاثوليكية: كانت عائلة برينس على علاقة عميقة بمجلس السياسة القومية ذى الطبيعة السرية، والذى وصفته النيويورك تايمز بأنه "ناد لا يعرفه سوى القلة يتألف من بضع مئات من المحافظين الأكثر سطوة فى البلد والذين يلتقون خلف الأبواب المغلقة في مواقع لا يُعلن عنها فى مؤتمرات تعقد ثلاث مرات سنويا لوضع استراتيجية عن كيفية تحويل البلاد إلى اليمين". بدأ هذا المجلس، عام ١٩٨١، الكاهن تيم لاهاى، أحد مؤسسى حركة اليمين المسيحى الحديثة فى الولايات المتحدة، ومؤلف روايات "الذين تخلفوا" المستوحاة من سفر الرؤيا. كانت فكرته هى إنشاء بديل محافظ مسيحى لمجلس العلاقات الخارجية، الذى اعتبره لاهاى مفرط الليبرالية. ويُبقَى على عضوية المجلس طىَّ الكتمان، ويُبلَّغ الأعضاء أنه لا يجوز أن يعرف الإعلام "متى وأين نلتقى أو من يشارك فى برامجنا، قبل أو بعد أى اجتماع". وعلى حين أن قوائم العضوية ليست علنية، فإن الاجتماعات يحضرها عدد كبير من المحافظين اللامعين من أمثال جيرى فولويل، فليس شلافلى، بات روبرتسون، طونى بركينز، جيمس دوبسون، جارى بوير، ورالف ريد. أيضا فإن لدى هولاند إيتش. كورز من أسرة ملوك صناعة البيرة، و وين لابير من جميعة ناشونال رايفل (الأسلحة النارية)، وريتشارد وديك ديفوس وأوليفر نورث وجروفر نوركويست وفرانك جافنى لديهم روابط مع المجلس. يُسمح للضيوف بحضور الاجتماعات بشرط الموافقة الإجماعية من اللجنة التنفيذية". خاطب جورج دبليو . بوش المجموعة عام ١٩٩٩، فى سعى منه لدعم ترشيحه، لرئاسة الجمهورية.

استضافت الجماعة أيضا لاعبين أقوياء فى إدارة بوش. بُعيد غزو العراق، حضر

ديك تشينى نائب الرئيس، ودونالد رمسفلد وزير الدفاع اجتماعات المركز، وفى عام ٢٠٠٤، قدم جون بولتون للمجموعة تقريرا موجزا عن خطط الولايات المتحدة فى العراق؛ أيضا، حضر جون أشكروفت بعض الاجتماعات هو ودان سنور كبير مساعدى بول برمر. كما حضر قائد الأغلبية السابق فى مجلس النواب، طوم ديلاى، وسياسيون جمهوريون بارزون اجتماعات المركز. ثم مُنِح قائد الغالبية فى مجلس الشيوخ، بيل فريست جائزة توماس جفرسون من المركز. أخبر الحضور فى خطاب قبول الجائزة "إن مصير أمتنا يحمله أكتاف الحركة المحافظة". عمل إدجار برينس، لفترة وجيزة، نائبا لرئيس المجلس من عام ١٩٨٨ إلى عام ١٩٨٩، وكان نائبا له وقت وفاته. كانت إلسا برينس أيضا عضوا فى المنظمة. تبرعت أسرة ديڤوس بمبلغ ١٠٠٠٠٠ دولار على الأقل للمجلس كما تبرعت أسرة برينس بمبلغ ٢٠٠٠٠ دولار فى التسعينيات. من المستحيل تأكيد ما إن كان إريك برينس عضوا فى التنظيم بسبب عدم وجود سجلات علنية لكنه تبرع له بالأموال، كما أنه على علاقة وطيدة بكثير من أعضائه الرئيسيين.

أيضا، فإن تبرعات إريك برينس وتوجهاته السياسية جعلته يشارك بعض أكثر الشخصيات إثارة للجدل فى التاريخ الأمريكى الحديث، فراشهم. منح صندوق فريهيت (كلمة ألمانية تعنى الحرية) الذى يملكه برينس ٥٠٠٠٠٠ دولار لـ"أخوية السجون" عام ٢٠٠٠. ويُزعَم أن هذه الأخوية هى منظمة لإصلاح السجون، تدعو، بين أشياء أخرى لـ"سجون مؤسسة على الإيمان". وهذه الأخوية من بنات أفكار تشارلس كولسون، ذراع ريتشارد نيكسون الطولى، ومتآمر ووترجيت. عام ١٩٦٩ تم تعيين كولسون المستشار الخاص لنيكسون؛ نظر إليه الكثيرون بصفته "الروح الشريرة" فى الإدارة. وفى عام ١٩٧٢كتب كولسون ما عُرِف فيما بعد بقائمة أعداء نيكسون، وهى قائمة بمعارضى الرئيس السياسيين، الذين استهدفهم البيت الأبيض. كان كولوسون أول من حُكِم عليه فى فضيحة ووترجيت بعد أن اعترف بأنه مذنب لمحاولته تعويق العدالة أثناء التحقيق فى اقتحام عيادة الطبيب النفسى دانييل إلزبرج، الذى "أطلق الصفارة" بتسريب أوراق البنتاجون أثناء حرب فيتنام. أيضا،

قيل إن كولسون استأجر فتوات لضرب المتظاهرين ضد الحرب وخطط للإغارة على مؤسسة بروكينجز أو تفجيرها. أصبح كولسون "مسيحيا وُلِد من جديد". قبل ذهابه إلى السجن، وبعد خروجه، ألف كتابا عن تحوله الديني بعنوان "وُلدتُ من جديد" كان على قائمة أفضل المبيعات واستخدم أرباحه من هذا الكتاب ليؤسس "أخوية السجون".

وفى نهاية عام ٢٠٠٦، كان حوالى ٢٢٨٠٣ من المتطوعين فى الأخوية يعملون فى أكثر من ١٨٠٠سجن بالولايات المتحدة، فيما شارك أكثر من ١٢٠٠٠٠ سجين فى دورة دراسة شهرية للإنجيل وبرامج حلقات بحثية إنجيلية. تفاخرت الأخوية بوجود رجال دين لها فى أكثر من مائة بلد. انتشرت أخوية كولسون بدرجة أنها أصبحت تدير، واقعيا، الحياة اليومية لبعض السجناء، من بينهم مائتان فى سجن بتكساس، برعاية جورج دبليو. بوش. قال جورج بوش فى أول مؤتمر للبيت الأبيض عن المبادرات المؤسّسة على العقيدة والمجتمع "لن أنسى هذا أبدا. حينما كنت حاكم تكساس، كانت من أوائل المبادرات أثناء فترة توليتى المنصب، مبادرة مؤسّسة على العقيدة، لتحويل جزء من وحدة السجن إلى برنامج عقائدى، أى برنامج تشاك كولسون. أقنعنى بأن هذا سيكون فرصة عظيمة لتغيير حياة كثير من السجناء". مضى بوش، الذى استخدمت إدارته عمل كولسون، فى مرات عديدة، مثالا على "المبادرات الناجحة المؤسّسة على العقيدة" مضى يروى قصة السجين "الذى تغيرت حياته ومُنِح الخلاص نتيجة الإيمان". ومنذ الأسبوع الأول الذى تولى فيه بوش، ظل كولسون مستشارا مستداما للرئيس. كان سجن تكساس هو السجن الذى أداره كولسون فى منطقة شوجار لاند –وهى المنطقة التى يمثلها فى المجلس النيابى طوم ديلاى.

فى عام ٢٠٠٢، ألقى كولسون خطابا بجامعة كالڤين عن سجنه بتكساس. قال "سافر معى مؤخرا صديقى إريك برينس، الموجود هنا الليلة، إلى سجن بتكساس تديره "أخوية السجون" منذ ثمانية عشر شهرا. إن هذا برنامج رائع، ليس فقط لأن

الرجال يأتون إلى المسيح وينالون الخلاص، وهذا مدهش فى حد ذاته، بل أيضا لأنهم يَخلقون ثقافة كاملة". حكمت محكمة فى أيوا فى يونيو ٢٠٠٦، بأن البرنامج المثيل الذى ينفذ فى أحد سجون أيوا غير دستورى، لأنه كما قال القاضى، يعمد إلى "تلقين السجناء الخطاب العقائدى للمسيحية البروتستانتية الصليبية وتحويلهم إلى اعتناقها". أقسم كولسون أن يستأنف الحكم فى المحاكم بجميع درجاتها وصولا إلى المحكمة العليا. قال إن برنامجه للسجون المؤسس على العقيدة "هو الترياق الناجع الأوحد" لما أسماه "الانتشار غير المعوَّق للإسلام الراديكالى فى سجوننا". تنبأ كولسون بأنه "إذا حدث، لاقدر الله، هجوم من قبل الراديكاليين الإسلاميين المصنوعين محليا على الأرض الأمريكية، سيكون كثيرون منهم، إن لم يكونوا جميعهم، قد اعتنقوا الإسلام أثناء وجودهم فى السجون". قال إن من يعارضون برنامج أخوية السجون يحرضون على الإرهاب وإن المحاولات لجعل برنامجه غير دستورى "يترك الجهاديين والمجموعات الراديكالية الأخرى اللاعبين الوحيدين فى المدينة". فى أكتوبر ٢٠٠٦، مُنِح كولسون جائزة "الإيمان والحرية" من معهد أكتون لدراسة الدين والحرية، وهى منظمة تبرع لها برينس بمائتى ألف دولار. وهذه المنظمة التى تتخذ جراند رابيدز مقرا لها، عيَّنت زوج والدة إريك برينس رن بروكهويزن عضوا فى مجلس إدارتها، كما أن رئيسها ومؤسسها هو الكاهن روبرت سيريكو، الكاثوليكى، الذى ترأس مراسيم جنازة زوجة إريك الأولى. أعلن كولسن فى عشاء لأكتون "للإسلام نظرة أحادية على العالم ترى شيئا واحدا فقط: تدمير الكفار واستعادة الأراضى التى فقدها المسلمون. نحن فى خضم حرب مائة عام، وحان الوقت كى نصحو من غفلتنا، ويفهم المسيحيون هذا، لأننا نفهم تاريخنا، ونفهم ما يجعل العقل المتدين "يتكتك" فى الوقت الذى لا تُدرِك فيه أمريكا العلمانية هذا".

قبل ذلك ببضع سنوات، وفى خطاب له عام ٢٠٠٢ امتدح فيه كولسون إريك برينس، تحدث متآمر ووترجيت السابق باستفاضة عن الأساس التاريخى والضرورة الراهنة للتحالف السياسى والدينى بين الكاثوليك والبروتستانت الصليبيين. تحدث

كولسون عن عمله الذى بدأ فى منتصف الثمانينيات مع رجل الدين البروتستانتى الصليبى المحافظ الشهير والذى أصبح قسيسا كاثوليكيا، ريتشارد نيوهاوس، وآخرين، لإنشاء حركة موحَّدة. أدى العمل فى النهاية إلى صدور الوثيقة الخلافية بعنوان البروتستانت الصليبيون والكاثوليك معا: "المهمة المسيحية فى الألفية الثالثة". هذه الوثيقة عبَّرت عن الرؤية التى ستكون الدافع الحيوى لاستراتيجية شركة بلاكووتر والسياسة التى يمارسها إريك برينس: زواج بين المرجعية التاريخية للكنيسة الكاثوليكية والجاذبية القاعدية للحركة البروتستانتية الصهيونية الصليبية الحديثة فى الولايات المتحدة، ودعمٍ من تعاون المحافظين الجدد ذوى الغالبية العلمانية واليهودية، أسمى الكاتب ديمون لينكر، الذى كان قد عمل مُحرِّرا لدورية نيوهاوس "فيرست ثينجز" هذه الظاهرة صعود اللاهوتيين المحافظين Theo-cons.

أصبحت تلك الوثيقة هى بيان الحركة التى سرعان ما خدمها ومولها إريك برينس. أعلنت أن "القرن الذى يقترب من نهايته كان أعظم قرن للتوسع التبشيرى فى التاريخ المسيحى. ندعو الله، ونؤمن بأن هذا التوسع قد مهد الطريق لجهود تبشيرية أعظم فى القرن الأول للألفية الثالثة. إن الجماعتين الأكثر فعالية تبشيرياً والأكثر تنامياً، بأسلوب مُسرع، هم البروتستانت الصليبيون والكاثوليك". دعا الموقعون إلى التوحد بين هذين الدينين فى هدف تبشيرى مشترك "كى يأتى الناس أجمعون إلى الإيمان بيسوع المسيح كربٍّ ومخلِّص": اعترفت الوثيقة بالفصل بين الدين والدولة لكنها "احتجت بقوة على تشويه ذلك المبدأ بدرجة أصبح معها يعنى فصل الدين عن الحياة العامة... والمحاجة التى تتردد بتزايد فى قطاعات من ثقافتنا السياسية بوجوب إقصاء الدين عن المربع العام. يجب أن نعرف أن تلك هجمة على أكثر المبادئ الأساسية فى الإدارة العليا الديموقراطية". لم تكن تلك مجرد وثيقة فلسفية، الأحرى أنها كانت تصورا لأجندة هى صورة طبق الأصل من أجندة إدارة بوش التى تبدت بعد ذلك ببضع سنوات، حينما عمل نيوهاوس مستشارا لصيقاً ببوش، ابتداء من حملته الانتخابية عام ٢٠٠٠.

أكّد مُوقِّعو الوثيقة على أن الدين "له موقع متميز أساسى فى نظامنا القانونى" وعبّروا بصراحة عن الحاجة "للدفاع عن الحقائق الأخلاقية لنظامنا الدستورى". كانت الوثيقة بالغة الحماس والعاطفية فى معارضتها للإجهاض، وأسمت الإجهاض حسب الطلب "هجوم ضخم على كرامة، حقوق، واحتياجات النساء. إن الإجهاض هو حد السيف الأساسى لثقافة الموت التى تدهمنا". أيضا، نادت بنشر "التعليم الأخلاقى" فى المدارس، ودعت إلى مؤسسات تعليمية" تنقل للأجيال القادمة موروثنا الثقافى الذى لا ينفصل عن التأثير التقويمى للدين الذى يُشكِّل الأجيال، خاصة الديانتين اليهودية والمسيحية". دافعت الوثيقة بقوة عن السياسات الاقتصادية النيوليبرالية. أكد الموقعون "نحن نقاتل من أجل مجتمع حر، بما فى هذا اقتصاد سوق نابض، نؤكد على أهمية الاقتصاد الحر، ليس فقط لأنه أكثر كفاءة، لكن أيضا لأنه يتناغم مع الفهم المسيحى للحرية البشرية. إن الحرية الاقتصادية، التى تتعرض الآن لانتهاك خطير، تجعل من الممكن خلق نماذج من الإبداع، التعاون والمحاسبة تُسهم فى الخير العام". نادت أيضا "بالتقدير المتجدد للثقافة الغربية" بقولها "ندرك تمام الإدراك دور المسيحية فى تشكيل الثقافة الغربية والحفاظ عليها والتى نحن جزء منها، ونحن ممتنون لهذا الدور". أعلن الموقعون أنه من الشائع أن "التعددية الثقافية" أصبحت تعنى "تفعيل كل الثقافات باستثناء ثقافتنا". من ثم، نادى الموقعون بالثقافة الغربية "تراثاً" لهم وأناطوا بأنفسهم مهمة نقلها "هديةً للأجيال المستقبلية".

انتهت الوثيقة المستطالة إلى أنه "بعد حوالى ألفى سنة منذ بداية رسالة المسيح، وبعد حوالى خمسمائة عام من انقسامات عصر الإصلاح الدينى، فإن رسالة المسيحية إلى العالم نابضة حية وجازمة. لا نعلم، ولا يمكننا أن نعلم، ما يدخره رب التاريخ للألفية الثالثة. من المحتمل أن تكون ربيع بعثات التبشير العالمية، وتوسع المسيحية الهائل. لكننا نعلم يقينا أن هذا وقت اغْتنام الفُرص -وإذا كان وقتا للفُرص فهو وقت للمسئولية- وقت للمسيحيين الصليبيين الصهيونيين والكاثوليك أن يتحدوا بأسلوب يساعد على إعداد العالم لمجيئه، هذا الذى يملك المملكة، السلطة

والمجد إلى أبد الآبدين. آمين". وبالإضافة إلى نيو هاوس وكولسون، صادق على الوثيقة أحد أقوى قادة التيار الرئيسى الكاثوليكى بالولايات المتحدة، أى جون أوكونور من نيويورك، وأيضا القسيس بات روبرتسون ومايكل نوفاك من معهد أمريكان إنترابرايز المحافظ. استغرق البيان سنوات ليجد طريقه إلى النور، كما أنه ساعد، فيما بعد على توحيد صفوف حركة المحافظين التى جعلت صعود جورج دبليو. بوش إلى السلطة ممكنا. ووفقا لديمون لينكر -الذى عمل مع نيو هاوس لسنوات طويلة- فإن الموقعين "لم يقوموا فقط بتصنيع تحالف دينى سياسى تاريخى، بل إنهم أيضا وفروا رؤية لمستقبل أمريكا الدينى والسياسى. سيكون هذا المستقبل مستقبلاً دينيا يتغلب فيه تبنى الأرثوذكسية الدينية والتوجهات الأخلاقية التقليدية على عدم التوافق بين المبادئ ويتخطاها وسيكون مستقبلا سياسيا ويقرر فيه المسيحيون التقليديون الأكثر تزمتا المزاج العام والأجندة السياسية للأمة".

وبعد ست سنوات وفى وجود بوش -رئيس المحافظين اللاهوتيين الجدد- فى البيت الأبيض، كان تشاك كولسون مع صديقه منذ أيام كلية كالفين، إريك برينس فى ميشيجان يتحدثان عن السجون المؤسسة على العقيدة. وأثناء المحاضرة داعب كولسون تراث جماهير الحاضرين البروتستانت فى غالبيتهم بأن دعا إلى حركة دينية محافظة مؤسسة على الوحدة الكاثوليكية/البروتستانتية الصهيونية الصليبية. استشهد كولسون بباحث كالفينى من القرن التاسع عشر كان قد قال "ليست روما خصماً لنا، لكنها تقف فى جانبنا بقدر ما تعترف بالثالوث المقدس، ألوهية المسيح، والصليب بصفته تضحية للتعويض عن خطايانا، وبالكتاب المقدس ككلمة للرب، وبالوصايا العشر أحكاما للحياة فرضها الإله. وتصون تلك الأشياء. من ثم، دعونى أسأل إذا كان رجال اللاهوت الرومان الكاثوليك يحملون السلاح لخوض معركة شُجاعة ماهرة ضد نفس التوجهات التى ننوى نحن أن نقاتلها حتى الموت، أليس من الحكمة أن نقبل مساعدتهم القيمة؟". كان إريك برينس فى معمعان تلك الجهود اليمينية لتوحيد الكاثوليك المحافظين، البروتستانت الصليبيين والمحافظين الجدد تحت راية حرب مقدسة محافظة لاهوتية -مع وجود بلاكووتر تعمل كجناح مسلح

للحركة، وكما تصور برينس نفسه، دور مرتزقته "الجميع يحملون السلاح، تماما مثل أرميا وهو يعيد بناء المعبد فى إسرائيل، سيف فى يد وسكينة المحارة فى اليد الأخرى".

وعلاوة على دعمه للمنظمات الكاثوليكية المتطرفة، استمر برينس يساهم بمبالغ كبيرة من أجل قضايا ومؤسسات البروتستانتية الصهيونية الصليبية التى دعمها والداه، ومن بينها التبرعات لعدد من المدارس والجامعات البروتستانتية. تبرع برينس أيضا بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ دولار لمعهد هاجى بأطلانطا، جورجيا (تماشيا مع تبرعات عديدة أخرى تبلغ مئات الآلاف من الدولارات من بقية أفراد عائلته). وهاجاى هو أحد التنظيمات التبشيرية المسيحية الأساسية فى العالم، ويفخر بأنه درب أكثر من ستين ألفاً من "القيادات" المسيحية البروتستانتية الصليبية التبشيرية فى أرجاء الكوكب مع التركيز على البلدان الفقيرة والنامية. أيضا كان برينس عضوا بمجلس إدارة منظمة الحرية المسيحية الدولية التى كانت تسمى قبل ذلك التضامن المسيحى الدولى، وهى جماعة تبشيرية صهيونية صليبية نشطة تعمل فى جميع الأنحاء من السودان إلى الصومال إلى أفغانستان والعراق. يذكر بيان مهماتها أن "عدد من استشهد من المسيحيين فى المائة عام الماضية يفوق عدد من استشهدوا فى الألف وتسعمائة عام السابقة مجتمعة. يتنامى اضطهاد المسيحيين. واليوم، يُقمع المسيحيون على أساس عقيدتهم أكثر من أى وقت مضى. فى بلاد كثيرة -وفى اللحظة الراهنة- يُنتهك المسيحيون، يُعذبون، يُسجنون، وحتى يستشهدون لإيمانهم بيسوع المسيح". يدير جيم جاكبسون، مساعد جارى بوير سابقا فى بيت ريجان الأبيض -المجموعة التى اتخذت مواقف معلنة ضد عمل الأمم المتحدة، وأسمت بعض وكالاتها "تجار البؤس"، واحتجت ضد منح العراقيين حق تقرير المصير لأنه قد يؤذى المسيحيين. أعلن جاكبسون، فيما كان يطالب بأن تهاجم الولايات المتحدة أفغانستان فى أعقاب ٩/١١ أن "الضربات العسكرية التى لا تردد فيها هى فقط التى ستُعبر عن التزامنا بعالم من السلام وسلطة القانون". يضم مجلس إدارة المجموعة بول بهرندز، من لوبى بلاكووتر، ودون نيكلز السناتور

الجمهورى السابق والمدير السابق لإذاعة صوت أمريكا والذى بدأ حياته الوظيفية بتولى الدعاية لميليشيات الكونترا بنيكاراجوا من البيت الأبيض أيام ريجان، وعمل، لفترة وجيزة، مع شركة SAIC لمقاولات الحرب فى مشروعها المنحوس لإقامة وزارة إعلام عراقية جديدة.

فى عام ٢٠٠٠ تحدث إريك برينس، إبان حملة لجمع الأموال لأحد المشروعات المفضلة لدى المحافظين اللاهوتيين الجدد، تحدث إلى صحيفة وول ستريت جورنال قائلاً إن عائلته وعشيرة ديفوس تؤمنان بالمُثل المحافظة المسيحية وبالسوق الحرة، وأن برينس والده الراحل -المسئول عن إقامة مجلس أبحاث الأسرة وغيره- كان هو "الماكينة التى ولّدت النقود التى استخدمها فى الأشياء الخيّرة"، وإن شقيقته بتسى تستخدم نفس "الطاقات والأنشطة".

فى ذلك الوقت، كان برينس البالغ من العمر ثلاثين عاما قد امتلك آلته الخاصة الصغيرة لتوليد الأموال، والتى كانت على وشك أن تصبح أكبر كثيرا كثيرا. وفيما استمر برينس، وفقا لتقاليد الأسرة، فى دعم الحركة المسيحية اليمينية، كانت إمبراطوريته، بلاكووتر، تتنامى باطراد فى أراضى المستنقعات بكارولاينا الشمالية. لم يتضح مدى سرعة تناميها حتى اصطدمت الطائرتان بمركز التجارة العالمى بعد ذلك بعام، وحدثت المأساة التى زودت صعود إريك برينس النيزكى بالوقود، وذلك الصعود الذى وضع إريك على رأس أحد أقوى الجيوش الخاصة بالعالم: سرعان ما اعتمد برينس على مُثُل والده وأمواله لينشئ جيشا من الجنود يعملون فى الصفوف الأمامية بمعركة كوكبية تشن، إلى حد كبير، على الأراضى الإسلامية، والتى عرّفها الرئيس الذى ساعد برينس على الإتيان به إلى البيت الأبيض وبصلافة أنها "حرب صليبية". ■

2

الفصل الثانى

بلاكووتر تبدأ

الجيش. البحرية. القوات الجوية. المارينز. بلاكووتر.

ربما يرى إريك برينس الآن إمبراطوريته على أنها الفرع الخامس للقوة العسكرية الأمريكية، لكن خططه لبلاكووتر كانت أكثر تواضعا بكثير فى بدايتها، بل إنها، حتى، لم تكن خططه هو. حينما كان يعمل على إنشاء بلاكووتر، لم تأت الاقتراحات بشأن الموقع، الخطط، وكل التفاصيل الأخرى للشركة من برينس بل من أحد مرشديه فى فرقة السيلز البحرية: آل كلارك، الذى قضى سنوات رئيسا للمدربين على الأسلحة بتلك الفرقة النخبوية. قال كلارك فى حوار معه، إنه فى عام ١٩٩٢ حينما كان برينس فى بداية عمله بالجيش، كان هو قد بدأ بالفعل فى رسم الاسكتشات لبلاكووتر . نمت الفكرة من خبرات كلارك كمدرب أسلحة بالبحرية، حينما تعرف مباشرة على ما رآه أنه بنية تحتية غير كافية لتدريب أفراد الفرقة التى تزهو بها الآلة العسكرية الأمريكية. "لم يكن ثمة مرافق. لم يكن لدينا أى شئ. لم تمتلك البحرية أبدا ميادين رماية، كان عليهم استعارتها من المارينز أو القوات المسلحة"

لكن كان ثمة بعد جوهرى مفقود فى خطة كلارك: الأموال. لم يكن كلارك على علم بأنه فى غضون سنوات قليلة سيكون هو مدرس أحد أكثر الأشخاص ثراء ممن انضموا إلى جيش الولايات المتحدة. فى عام ١٩٩٦، نُقل كلارك إلى فرقة سيلز الثامنة كى يدير برنامج تدريبها التكتيكى. كان الملازم إريك برينس ضمن أول فصيلة يقوم كلارك بتدريبها هناك، لكن كلارك قال فيما بعد "لم أكن أعلم أن لديه ملايين لا تحصى من الدولارات". أتم برينس تدريبه مع كلارك رغم أن الاثنين لم يناقشا أبدا أية شراكة فى البيزنس. وفيما بعد ذهب برينس إلى أماكن للانتشار مع فرقة سيلز. وبعد سبعة أشهر كان آل كلارك قد عرف، ليس فقط أن تلميذه كان يملك أموالا طائلة، بل أنهما أيضاً كانا يتقاسمان اهتماما مشتركا بعالم التدريب المخصخص البازغ. حينما عاد برينس إلى الولايات المتحدة، وكما يتذكر كلارك "فتحتُ الموضوع معه بطلب من شخص آخر. وجوهريا بدأنا الحوار من هناك".

بالنسبة لبرينس كانت تلك الفترة زمنا حلوا/مُراً. كان والده قد توفى عام ١٩٩٥،

وكـانت كل المؤشـرات توحى بأن برينس كـان يريد البـقـاء فى السـيلز بدلا من الانخراط فى بيزنس عائلته. لكن وفاة والده، وسوء حالة زوجته المصابة بالسرطان واحتياجات أطفالهما الأربعة لم تترك لبرينس خيارا. بيد أن العائلة باعت شركات الوالد. ساعدت تلك الصفقة التى بلغت ١.٣٥ بليون دولار نقدا إريك برينس على إقامة مملكته الخاصة، تلك المملكة التى وجد فيها مجالا لتفعيل عواطفه الدينية، السياسية، والعسكرية. زعم برينس عام ٢٠٠٦: "أردتُ أن أظل مرتبطا بالقوات المسلحة، من ثم، أقمت مرفقاً رفيع المستوى لتزويد الولايات المتحدة والجيوش الأجنبية الصديقة بما يحتاجونه من مقاتلين، وكذلك فرق فرض القوانين، الشرطة... إلخ، والمنظمات التجارية والحكومية، بمقاتلين مستعدين للذهاب إلى مناطق الخطر. كان لدى كثير ممن يعملون فى العمليات الخاصة نفس الأفكار عن الاحتياج لمرافق تدريب متقدم خاصة. انضم القليل منهم إلىّ حينما كونت بلاكووتر. كنت فى وضع غير عادى بعد بيع بيزنس العائلة لتمويل ذلك المشروع ذاتيا".

لكن محاولة برينس أن يزعم أن له الفضل الوحيد فى إنشاء بلاكووتر تستحث ردود أفعال حادة من زملائه القدامى. ووفقا لمصادر عديدة شاركت فى تأسيس بلاكووتر، وفى تاريخها المبكر، لم تكن قصة تكوين الشركة محل جدل أبدا حتى صعود نجم بلاكووتر بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣. كان آنذاك أن بدأ برينس فى الترويج لتاريخ مُعدَّل للشركة. ظهر التالى على موقع الشركة الإلكترونى "إن مؤسسنا هو ضابط سابق فى فرقة السيلز البحرية. أوجد بلاكووتر من منطلق اعتقاده أن القوات المسلحة ومؤسسات فرض القوانين ستكون بحاجة إلى قدرة إضافية لتدريب رجالنا ونسائنا الشجعان الذين يعملون الآن بالقوات المسلحة أو الذين تركوا الخدمة تدريبهم على المعايير الكاملة المتطلبة للحفاظ على بلدنا آمنا". زعم برينس أن فكرة بلاكووتر قد أتته أثناء فترة عمله بفريق السيلز الثامن، حينما تم نشر الفريق بهيتى، الشرق الأوسط، البوسنة، والبحر المتوسط. قال: "فيما كنت أتدرب فى جميع أرجاء العالم، تحققت مدى الصعوبة التى تقابلها الوحدات لتحصل على التدريب المتميز الذى يحتاجونه كى يضمنوا النجاح. وفى خطاب أرسلته إلى

عائلتى أثناء خدمتى بالخارج وضعت الخطوط العريضة للرؤية التى أصبحت بلاكووتر اليوم".

يجادل آل كلارك وتنفيذيون سابقون آخرون فى بلاكووتر، بغضب، تلك الرواية. يقول أحد تنفيذيى بلاكووتر السابقين "كان كلارك هو من أتى بفكرة بلاكووتر كمركز للتدريب، وذكرتُها لإريك برينس. كان كلارك هو صاحب الفكرة وأتى إريك بالأموال. والآن، يُعزَى الفضل إلى إريك لأنه المالك، لكنها كانت فى الواقع فكرة آل. كما أن زعم برينس أنه خطط "الرؤية التى أصبحت اليوم بلاكووتر" عام ١٩٩٦ هو أمر مشكوك فى صحته إذا أخذنا فى الاعتبار الرابطة الوثيقة بين "الحرب على الإرهاب" ونجاح الشركة. لكن إريك وبسبب نشأته والتدريب الذى تلقاه على أيدى والده وأصدقاء الأسرة وحلفائها المحافظين، كان تلميذا ملتزما بالنظرية الاقتصادية للسوق الحرة والخصخصة؛ فهم بوضوح العوامل التى أدت بكلارك لأن يتصور مرفق تدريب شامل جامع للحكومة الفدرالية وبأساليب عديدة، لم يكن يتأتى للمشروع أن يأتى فى وقت أفضل –حيث تلاقى مع احتضان الحكومة لبعض السياسات التى كانت عائلة برينس قد تبنتها ودعت إليها منذ وقت طويل.

وُلدت بلاكووتر فى ذات الوقت الذى كانت فيه القوات المسلحة فى خضم مسيرة للخصخصة على نطاق هائل غير مسبوق كانت قد بدأت تُفعَّل أثناء الفترة الذى كان فيها ديك تشينى وزيرا للدفاع بين عامى ١٩٨٩ و١٩٩٣ فى إدارة بوش الأب. ذكر دان برويدى فى كتابه "أجندة هاليبرتون" أن تشينى فى "العام الأول لتوليه منصبه قلص الإنفاقات العسكرية بمقدار ١٠بليون دولار. ألغى عددا من أنظمة الأسلحة المعقدة ذات التكلفة العالية، وقلص عدد القوات من ٢.٢مليون إلى ١.٦مليون فرد. وعاما بعد عام، من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٣، أثناء تولى تشينى الوزارة، تقلصت الميزانية العسكرية. لم يكن الجيش يعتمد سوى بالقدر القليل على المقاولين المدنيين فى بداية التسعينيات، وعزم تشينى على تغيير ذلك. كانت الفكرة أن تتفرغ القوات للقتال فيما يتولى المقاولون الخاصون الشئون اللوجستية. كانت أيضا فكرة ذكية لمعالجة

كابوس العلاقات العامة الذى كان يظهر فى كل مرة كانت ترسل فيها الولايات المتحدة القوات للخارج. كان زيادة عدد المقاولين يعنى عددا أقل من القوات، عددا مقبولا سياسياً. وفى نهاية فترته أوكل تشينى إلى براون آند رووت، فرع هاليبرتون، القيام بدراسة سرية عن كيفية خصخصة القوات المسلحة لمعظم خدمات الدعم والمساندة -الإسكان، الطعام تنظيف الملابس... إلخ- لعمليات جيش الولايات المتحدة الدولية. تلقت براون آند رووت ٣.٩مليون دولار رسوما لكتابة التقرير الذى كان سيخلق واقعيا سوقا ذا أرباح هائلة لها من خلال التوسيع الكبير لبرنامج الزيادة اللوجستية المدنية للبنتاجون (LOGCAP). وحقا، ففى نهاية أغسطس ١٩٩٢، اختار سلاح المهندسين الأمريكى هاليبرتون، التى تولى تشينى نفسه إدارتها بعيد ذلك، للقيام بجميع أعمال المساندة للجيش للخمس سنوات التالية. دفع عقد هاليبرتون الأول بالباب مفتوحا على مصراعيه لخصخصة سريعة بلغت ذروتها فى اكتشاف منجم التعاقدات بالعراق، أفغانستان وأنحاء أخرى والتى بدأتها "الحرب على الإرهاب".

فى الوقت الذى بدأ فيه آل كلارك، إريك برينس وحفنة من الآخرين التخطيط الجاد لما سيصبح بلاكووتر فى أواسط التسعينيات، كان حجم الجيش قد تقلص منذ سنوات، وكانت مرافق التدريب ضمن ضحايا هذا التوجه. كانت تلك المرافق بعض أكثر المكونات قيمة فى الآلة العسكرية. لكن مسيرة القانون الأساسى لإعادة ربط وإغلاق القواعد التى كانت قد بدأت أثناء فترة ريجان/بوش، بزعم أنها عملية توفير للنقود، تسارعت خطاها فى ظل كلينتون، وتركت القوات المسلحة بما رأى كثيرون من مجتمع القوات الخاصة أنه عدد غير كاف من مواقع التدريب. زود هذا التقليص بلاكووتر بأرض خصبة للتبرعم والنمو السريع. قال بيل ماسيانجلو أول رئيس لبلاكووتر: "وبما أنهم كانوا يفتقدون أماكن للتدريب، ولم يكن لدى أحد مرفق عسكرى حديث، كانت تلك هى كل الفكرة خلف بلاكووتر" حينما تم التفكير فيها فى البداية. قال آل كلارك فى وقت إنشاء بلاكووتر إنها لم تكن "فكرة مبتكرة. كان الجميع يعلمون منذ عشرين عاما أن مكانا كهذا يجب أن يقام". ولم يمض وقت

طويل على طرح كلارك الفكرة على برينس عام ١٩٩٦ إلا وأبلغه تلميذه السابق قائلا "فلنمض قدما" وفقا لما قاله كلارك.

فى تلك الأثناء كانت الولايات المتحدة وسط إحدى أكثر اللحظات قتامة فى التاريخ الحديث بالنسبة للحزب الجمهورى واليمين الدينى. كانت هزيمة بيل كلينتون لبوش الأب فى الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٩٢ تعنى انتهاء اثنى عشر عاما ذهبية للإدارة العليا المحافظة، التى شكلتها إلى حد بعيد سياسات بيت رونالد ريجان الأبيض. وفيما نجح جهاز السياسة اليمينية الذى كان إدجار برينس لاعبا رئيسيا فيه، فى الدفع عام ١٩٩٤ بالثورة الجمهورية، وبصعود نووت جينجريتش إلى رئاسة مجلس النواب، كان المحافظون اللاهوتيون ينظرون إلى إدارة كلينتون على أنها نظام يسارى متطرف يحاول فرض أجندة مؤيدة للإجهاض، والمثليين، ومعادية للأسرة، والدين على البلاد. فى نوفمبر ١٩٩٦، العام الذى سحق فيه كلينتون بوب دول وفاز بالانتخابات- نشرت دورية ريتشارد نيوهاوس "فيرست ثينجز" الناطقة بلسان المحافظين اللاهوتيين ندوة بعنوان "نهاية الديموقراطية؟" تساءلت فيها دونما مواراة "عما إن كنا وصلنا، أو فى سبيلنا إلى أن نصل إلى نقطة لم يعد باستطاعة المواطنين من ذوى الضمائر الحية منح النظام الموجود موافقتهم الأخلاقية". أثارت سلسلة من المقالات احتمال حدوث مواجهة كبرى بين الكنيسة و "النظام"، وأحيانا، كان بعضها يتنبأ بسيناريو حرب أهلية أو تمرد مسيحى ضد الحكومة، ويتفحص إمكانيات "تتراوح بين عدم الإذعان والمقاومة والعصيان المدنى والثورة المُبررة أخلاقيا". كان تشاك كولسون صديق إريك برينس الحميم، والمتعاون معه سياسيا، والمستفيد منه، كاتب واحدة من تلك المقالات الرئيسية الخمس بهذا العدد، وكذلك القاضى المتطرف روبرت بورك الذى كان ريجان قد حاول تعيينه، دونما نجاح، فى المحكمة العليا عام ١٩٨٧. بينت مقدمة الندوة، غير المُوقّعة، أن "الأمريكيين لم يعتادوا الحديث عن النظام. فالأنظمة هى مالدى الأمم الأخرى. تتساءل هذه الندوة عما إن كنا نخدع أنفسنا، وإن كان هذا صحيحا، فما هى تضمينات خداع النفس. نعنى بتعبير "النظام" النظام الفعلى القائم للحكم. إن التساؤل الذى هو عنوان لهذه

الندوة ليس من قبيل المغالاة. الموضوع الذى أمامنا هو نهاية الديموقراطية". أعلنت المقدمة أن "حكومة الولايات المتحدة لم تعد تحكم بموافقة المحكومين... ما يحدث الآن هو إحلال نظام حكم سياسى ليس له، ولن يحصل علي، ولا يستطيع أن ينتزع إجماعا من الشعب إحلاله محل الترتيبات الدستورية. استشهدت الافتتاحية بقول قاضى المحكمة العليا أنطونين سكاليا "لا يجوز للمسيحى أن يدعم حكومة تقمع العقيدة، أو حكومة تصادق على إنهاء حياة بشرية بريئة".

كان عنوان مقالة كولسون "ممالك متصارعة". كتب يقول: "بلغت الأحداث فى أمريكا حدا أصبح فيه الإجراء السياسى الوحيد الذى يستطيع المؤمنون القيام به هو نوع من المواجهة المباشرة خارج نطاق السياسية مع نظام حكم مُهيمنُ عليه قضائيا". ثم أضاف "أن المواجهة بين الكنيسة والدولة قد تكون حتمية وليس هذا شيئاً يمثل أمل المسيحيين. لكنه شئ يجب أن يُعد له". ثم أكد على أن "العقد الاجتماعى الذى شمل المؤمنين الإنجيليين عقلانيى التنوير كان أساس إنشاء الولايات المتحدة. وإذا نُقضت بنود العقد، فقد يضطر المواطنون المسيحيون إلى إجبار الحكومة على العودة للفهم الأصلى للعقد... ويمكن استدعاء كتابات توماس جفرسون الذى تحدث علنا عن ضرورة الثورة، من أجل دعم العقد". ورغم أن كولسون لم يناد صراحة بإعلان التمرد، فمن الواضح أنه كان يرى مثل ذلك التمرد إمكانية/ضرورة فى المستقبل القريب، حيث قال "بدأتُ أعتقد، وأنا أرتعد خوفا، أنه فيما يجتمع شمل المسيحيين ليحققوا ما أجمعوا عليه، فإننا نقترب سريعا من تلك النقطة".

أشعلت ندوة "أولى الأشياء" نقاشا خلافيا كبيرا -حتى فى أوساط حركة المحافظين المتدينين. كان من بين من تصدوا للدفاع عن كولسون، بورك نيو هاوس وجماعته، صديق إدجار برينس القديم وحليفه جيمس دبسون. كتب يقول "أشعر بالامتنان العميق لمحررى" "أولى الأشياء" للاضطلاع بما قد يبرهن التاريخ على أنه أهم ندوة. إن الشرعية الأخلاقية لحكومتنا الحالية ومسئولية المسيحيين تجاهها أمور ملحة بدرجة هائلة. أعجب ما إن كنا نملك الشجاعة لتنفيذ ما نصل إليه من استنتاجات

من تلك الحوارات؟" قال دبسون إن المقالات "محققة دونما جدل بشأن عدم شرعية النظام الموجود الآن والذى يتظاهر بأنه ديموقراطى: "ثم أضاف "إننى ضمن موروث طويل من المسيحيين الذين يؤمنون أن الحكام يفقدون تفويضهم الإلهى حينما يعترضون منهجيا سبيل القانون الإلهى الأخلاقى... قد نكون الآن نقترب سريعا من مرحلة يكون علينا فيها اتخاذ قرار خطير لا سبيل للرجوع عنه مثلما فعل أسلافنا الروحيون: أن نختار بين قيصر والله. لا يروق لى هذا الاحتمال، أُصلّي كى لا يحدث. لكن من المفيد أن نبين أن مثل تلك الأوقات قد عملت، تاريخيا، على تجديد شباب العقيدة".

وعلى تلك الخلفية -إعلان الحرب السياسية والدينية من قبل قادة محافظين ذوى نفوذ من الذين ساندهم برينس وعائلته وعززوهم -وُلِدت بلاكووتر. بعد شهر من تفحص تلك الندوة إمكانية حدوث "مواجهة بين الكنيسة والدولة" و "ثورة مُبرّرة أخلاقيا" بدأ برينس يراكم أحد أكبر مخزونات الأسلحة ذات الملكية الخاصة فى الولايات المتحدة. وفى نفس الوقت قوّى برينس روابطه مع أعضاء الكونجرس الجمهوريين من ذوى السطوة وقادة حركة المحافظين اللاهوتيين، وأصبح من أكبر ممولِيهم، تماما مثل والده. بعد ثلاثة أشهر من تركه الخدمة فى فرقة السيلز البحرية، أى فى ٢٦ديسمبر١٩٩٦، قام بتسجيل شركة بلاكووتر ومركز التدريب. وفى العام التالى، اشترى أكثر من أربعة آلاف فدان بإقليم كاريتاك، بكارولاينا الشمالية نظير ٧٥٦٠٠٠ دولار وحوالى ١٠٠٠فدان أخرى بإقليم كامدن نظير ٦١٦٠٠٠ دولار. أُنشئت مملكة برينس الجديدة بالقرب من المستنقعات الكئيبة العظمى The Great Dismal Swamp. كانت الفكرة المنصوص عليها خلف إنشاء بلاكووتر هى "الوفاء بالطلب المتوقع من الحكومة للتعاقدات الخارجية على أسلحة نارية وعلى التدريبات الأمنية".

وبالرغم من النفوذ الحالى الذى تتمتع به بلاكووتر يو إس إيه على بعض أكثر العاملين سطوة الذين يجوبون أروقة واشنطون دى سى، إلا أن الشركة، لدى

إنشائها، جاهدت كى تُقنع لجنة التخطيط بإقليم كاريتاك -يبلغ عدد سكانه ٢١٠٠٠نسمة- بالسماح لبلاكووتر بأن تعمل هناك. فى عهد كلينتون، أى فى أمريكا قبل ٩/١١، لم يكن مفوضو التخطيط قلقين بشأن الإرهاب الدولى، ولم يكونوا حتى يستوعبون نوع الشركة التى ستكونها بلاكووتر. بدلا من ذلك، فقد كانوا يهتمون بقيمة الملكية، وأحكام الضوضاء، وإمكانية قدوم مجموعات ميلشياوية من النوع الذى ارتبط فى أذهانهم بتيموثى ماكفى مفجر أوكلاهوما سيتى لتلقى التدريبات. حينما توسل إريك برينس إلى مفوضى التخطيط، وُصف مشروعه بأنه "ميدان رماية مقام فى الخلاء قيمته ٢مليون دولار" آنذاك، كان تقدير برينس أن المرفق سيخلق ٣٠وظيفة جديدة فى المنطقة ويساعد على تدريب العاملين مع قاضى التحقيق هناك. لكن قبل حصول برينس على الموافقة على إقامة المرفق، كان عليه إقناع لجنة التخطيط بوضع أحكام جديدة تسمح بإقامته، وأن يبين بالتفصيل أنواع الحماية التى ستُنفَّذ للحفاظ على هدوء المنطقة، والحيلولة دون وصول الطلقات الضالة إلى السكان.

كانت المعارضة المحلية لمشروع بلاكووتر قويه. قبل عام من آنذاك، كان الغضب قد تملك السكان حينما أصابت طلقات أحد الصيادين الضالة شاحنة ومبنى بالمدرسة الإعدادية أثناء ساعات الدراسة. من ثم، أثار المسئولون فى الإقليم أسئلة خطيرة من بينها أن حزام الأمن المقترح والذى يبلغ عرضه ٩٠٠قدم بين الملكيات القريبة ومنطقة إطلاق النار لن يكون كافيا. قال ويليام روم، المدّعى العام بالإقليم "إن ٩٠٠ قدم ليس حزام أمن على الإطلاق". قال أحد السكان الذى كان يشيد منزلا قريبا من الموقع المقترح" لن يريد أحد أن يعيش فى أى مكان قريب من ميدان الرماية" فيما أكد آخر "لم أجد أى أحد يوافق على المشروع". قالت امرأة فى أحد الاجتماعات المبكرة إنها "لن تفكر أبدا فى شراء أى شئ بالقرب من ميدان رماية بهذا الحجم". كان من الواضح أن اللجنة لا توافق على الفكرة. وبعد شهر رفضت اقتراح برينس بوضع أحكام جديدة. قال برينس آنذاك "نشعر ببالغ الإحباط. فهذا الإقليم يزعم أنه فردوس الصيادين، لكن موقف ساكنيه غير مُبشِّر بالنسبة

لرياضـات الرمـاية الآمنة". وبعـد رفض كـاريتـاك لمشروعـه، توجـه برينس إلى إقليم كامدن الذى وافق سريعا على المشروع.

فى يونيـو ١٩٩٧، بُدِئ فى إقـامـة مـجـمـع بلاكـووتر، وفى مـايو ١٩٩٨، افـتَتـحت الشـركة، رسمـيـا، البيزنس. ورغم أن اسم الشركة يبدو منذرا، فإنه مستوحى من المياه السوداء للمستنقعات الكئيبة العظمى -١١١٠٠٠ فدان من المستنقعات تمتد من جنوب شرق فرجينيا إلى شمـال شرق كارولاينا الشمـالية- القريبة من موقع تشـييد بلاكـووتر. وعلى الرغم من الروايات اللاحقة لتنفيذيى الشركة وغيرهم التى تُصور الأيام المبكرة للشركة على أنها كـانت بطيئة الخطى، فإن حجـم التعـاقدات "السوداء" السرية يجعل من الصعب تصديق ذلك. وكما يتذكر كلارك، فقد هبطت الشركة على الأرض وهى تعدو "أتت إلينا مـجموعة السيلز لأننا أتينا منها، وكانوا على علم بوجـودنا. أتوا إلينا على الأقل، لاستـخـدام مـيـادين الرمـاية للتـدريبـات. تسربت المعلومات عنا لكثير من هيئات فرض القوانين؛ أتى إلينا الإف بى آى أيضا حينما سمـع بوجـودنا. جذب المرفق الكثـير منهم لأنه كان شيئا جديدا، متسعاً، وقريبا". وعلى حين أن بلاكووتر أقيمت على مستنقع، فإنها كانت استراتيجيا، تقع على مسافة نصف ساعة من أكبر قاعدة بحرية فى العالم، أى محطة نوفوك البحرية ومسـاحـتـها ٤٣٠٠٠ فدان، وغيـر بعيدة عن مركـز استـخـبـارات الولايات المتحدة وهيئات فرض القوانين الفدرالية. أيضا، أتاح ذلك المرفق لوكالات حكومية متنوعة - على مستوى الولايات، الحكومة الفدرالية، والحكومـات المحلية- موقعا قصياً آمنا لتـدريب القوات بعـيدا عن الأنظار. يتذكـر كـلارك "السـبب الرئيـسى لقـدوم كل تلك الوكـالات كـان هو الرغـبـة فى الابتـعـاد عن الجـمـيع، عن أعـين الجـمـهـور وعن الصحافة". ولأن المتدربين كانوا يرتدون أزياء سوداء، "أراد الجميع القدوم ليروا ما يفعلونه".

قال كلارك إن مرفق تدريب بلاكووتر الجديد قدّم لقوات العمليات الخاصة الأمريكية مـيـزة أخرى لا تملكها مرافق إطلاق النار الخاصة الأخرى التى يدير الكثير منها

الحاصلون على جوائز فى القنص. "فى بلاكووتر منحت التدريبات التى كنا نُعلمهم إياها– أساسا تلك التدريبات التى كنت أشرف عليها حينما كنت هناك –شيئا جديدا. أخيرا كان يُعلِّم المتدربين مدرب لا تتملكه روح المنافسة والفوز بالجوائز، ولا يحدثهم إلا عن نفسه".

فى عام ١٩٩٨ كانت بلاكووتر تقوم ببيزنس نشط فى تدريب العملاء الحكوميين والخاصين على استخدام تنويعة عريضة من الأسلحة بدءا من المسدسات وحتى المدافع الآلية. كانت أيضا تؤجر المرفق لفرقة السيلز ليتدربوا هناك. سجل ضباط شرطة من فرجينيا الشمالية وكندا ببرامج تدريب بلاكووتر، وبدأت الشركة تتلقى استطلاعات من الحكومات الأجنبية. كانت الحكومة الإسبانية مهتمة بتفاصيل تدريب رجال الأمن الذين يحرسون المرشحين للرئاسة، فيما أبدت البرازيل اهتماما بالتدريبات المضادة للإرهاب. قال أحد العملاء المبكرين لصحيفة فيرجينيان پايلوت فى سبتمبر ١٩٨٩ "إنهم أفضل الأفضل... إنه لأمر مدهش أن تذهب إلى مدرسة يدربك فيها أفضل المدربين فى العالم. إنه لشرف أن يكون الفرد هناك".

وفيما كانت الأخبار تنتشر عن تدريبات بلاكووتر، أراد برينس والمدراء الآخرون التأكد من أن تكتسب بلاكووتر صيتا بصفتها المرفق الأول والأفضل من نوعه. قال ماشيانجلو أول رئيس للشركة فى حوار معه "كنت ضابط مارينز متقاعد وكنت قد ظللت أمارس بيزنس الفنادق لخمسة عشر عاما. وكانوا هم يبحثون عن شخص لديه هذا التوازن. كانت بلاكووتر تؤدى أكثر من مجرد التدريب. كانت خدمة العملاء برمتها، الجو المحيط، المشهد والمرافق والمعدات، كان ذلك هو السبب الذى من أجله تعاقدوا معى". وفى عام ١٩٩٨، تباهت بلاكووتر بمقر مساحته ٩٠٠٠ قدم مربع به قاعات مؤتمرات، فصول دراسية، صالونات، محل تجارى وقاعة طعام. كانت بعض ما قدمته المؤسسة فى بداياتها تنويعة كبيرة من مجالات الرماية من بينها واجهة شارع مدينى، وبحيرة للتدريب على الرماية من البحر إلى الأرض.

زار ستيف ووترمان، وكان كاتبا مكلفا من دورية سولدجر أوف فورشن، بلاكووتر

عام ١٩٩٩ ووصف المرفق الموجود بمويوك بتعبيرات متوهجة. قال: "في وجود مثل صالة الطعام هذه، وقنوات فضائية تليفزيونية في الغرف، ومياه ساخنة للاستحمام، لا أملك سوى أن أقول إن بلاكووتر تأتي في مقدمة مواقع التدريبات المدنية أو العسكرية التي زرتها. حينما تنعطف حول آخر ناصية وتشهد المباني، سرعان ما يتضح أن مشغّلي هذا المركز جادون في جهودهم وأنهم لم يدخروا جهدا لجعله مرفقا من الدرجة الأولى. المباني جديدة تماما... وتخطيط المكان جيد ومنظم. على اليمين توجد مرافق النوم والمبنى التكتيكي. وإلى الأمام مباشرة يوجد المبنى الرئيسي الذي يضم الفصول الدراسية، المحل التجاري، المكاتب الإدارية، الكافتريا، مستودع الأسلحة، وقاعات المؤتمرات، والصالون. ثمة دب طويل أسود فوق رف المدفئة، وحيوانات عديدة أخرى تحملق فيك بأعينها البلاستيكية. تتفرع منطقة تنظيف الأسلحة من الطريق الذي يوجد به المبنى الرئيسي. البنشات مرتفعة حتى الصدر وهناك فوهات هواء مضغوط لطرد التراب والقانورات خارج الأسلحة. تحوي كل من غرف النوم جيدة الإضاءة أربعة أسرّة مع وجود دولاب متسع لكل شخص في الغرفة. هناك عديد من أكشاك الأدشاش للاستحمام. على جانبي مبنى غرف النوم ثمة غرفة متسعة بها أريكة وعدد من الكراسي. وفي كل صالون هناك تليفزيون تُغذّيه أنظمة الأقمار الاصطناعية. تحوي كل غرفة ثلاجة ومُبرّد مياه. كما توجد المجلات ليقرأها الضيوف". في عام ١٩٩٨ استضافت بلاكووتر مسابقة لرجال الشرطة والجيش في الأسلحة النارية، وكانت تلك هي الأولى من نوعها في سلسلة المسابقات تقيمها بلاكووتر، والتي تجتذب الناس من جميع أنحاء العالم إلى مويوك. لكن سرعان ما برهنت بلاكووتر على قدرتها على استثمار المآسي والخوف. منذ عام ١٩٩٩ شهدت الولايات المتحدة معدلا سنويا عاليا من أعمال العنف بُثت على تليفزيونات العالم ونتج عنها مزيد من البيزنس والتنامي في الأرباح لشركة بلاكووتر.

في ٢٠ إبريل ١٩٩٩ دخل دايلان كلبولد وإريك هاريس إلى مدرستهما، مدرسة كولومباين الثانوية، ليتلتون، كلورادو، يرتديان معطفين أسودين يقيان من المطر،

وكانا مسلحين حتى الأسنان بأسلحة شبه أوتوماتيكية وطبنجات. مضى الاثنان يطلقان النار عشوائيا وقتلا اثنى عشر من زملائهما وأحد المدرسين. سرعان ما أطلق على الحادث اسم "مذبحة كولومباين". ورغم حقيقة أن عدد حوادث إطلاق النيران في المدارس كان قد انخفض من ٣٢ أثناء العام الدراسي ١٩٩٢-١٩٩٣ إلى ١٩ أثناء العام ١٩٩٨-١٩٩٩ إلا أن ما حدث بكولومباين أثار حالة من الهلع من انتشار مثل تلك الحوادث في أنحاء البلاد. أيضا تسببت في أن تراجع جميع وكالات فرض القوانين بجميع مستوياتها قدرتها على الاستجابة لمثل تلك الأحداث. أنذاك، قال رون واطسون، المتحدث باسم جمعية الضباط التكتيكيين القومية (NTOA) "لم يعتقد أحد أن حادث كولومباين كان بالإمكان أن يقع. لقد غيرت كولومباين أسلوب التفكير. لقد أضافت معلومة جديدة عن أهمية التدريب".

وفي سبتمبر ١٩٩٩ توافد حوالي ٤٠٠ من العاملين بأمن المدارس إلى مويوك للتدريب في الوحدة الجديدة التي أنشأها بلاكووتر باسم "RU Ready High School" أسهمت NTOA بمبلغ ٥٠٠٠٠ دولار لتشييد مدرسة صورية على مساحة ١٤٧٤٦ قدم مربع لكن من المحتمل أن يكون المشروع قد كلف بلاكووتر مبلغا يفوق هذا كثيرا. وكما هو الحال في المشروعات المستقبلية فقد كان لدى برينس الوسائل والدوافع لإنفاق الكثير إذا اعتقد أن المشروع سيعود عليه بكثير من الأرباح لاحقا. قال كلارك "كان لدى إريك المال الكافي للإنفاق على ما تحتاجه مختلف الجبهات كي يستطيع تحقيق الأرباح، كان لديه رأس مال كبير. من المحتمل أنه ورث ٥٠٠ مليون دولار، من ثم كان لديه مال كاف لمختلف المشروعات". استخدمت في تلك المدرسة الصورية مؤثرات صوتية لتلاميذ يصيحون، رشاشات للدماء المتناثرة، جراح للطلقات النارية وهمية، وذخائر للتدريب. قال آل بيكر، المدرب ورئيس وحدة الطوارئ المتقاعد من شرطة نيويورك "أنتم تتعاملون مع حالة من الفوضى- قدر هائل من التشوش. جميعهم صبية وغير معروفين في هذا المكان المتسع. ثمة قدر هائل من الضوضاء. لا تعرفون من يطلق النيران. نحاول تعليم السيطرة على بيئة معادية. ثمة دماء كثيرة تسيل. هذا وضع لا يحتمل الانتظار".

تشييد بلاكووتر السريع لوحدة "..R U Ready High" وإدارتها لها، أقنعت رابطة NATOA، وهى مؤسسة تقوم بتدريب أربعة آلاف ضابط شرطة، أن تُوزِّع مؤتمرها السنوى السادس عشر بين فرجينيا بيتش ومجمع بلاكووتر بمويوك. جذبت المناسبة فرقا تكتيكية وضباط شرطة من جميع الولايات، كندا، هيتى، بلجيكا وإنجلترا. وبحلول إبريل من عام ٢٠٠٠، كانت NTOA قد أرسلت أكثر من ألف ضابط للتدريب فى "R U Ready"، فيما وصل صيت بلاكووتر بتزايد إلى جميع مصالح الشرطة فى أرجاء البلاد. وفى أمسية نظمتها NTOA آنذاك، قال برينس إن أحداث كولومباين هى "تذكرة لنا بأن اليقظة هى ثمن الحرية، وأننا بحاجة إلى قوات لفرض القوانين، وقوات جيش مدربة تدريبا جيدا. فالعالم ملئ بالأشرار".

فى ١فبراير ٢٠٠٠، ومع انتشار اسمها فى جميع أوساط هيئات فرض القوانين، قفزت بلاكووتر قفزة هائلة بتوقيعها أول عقد لها مع إدارة الخدمات العامة GSA، وأوجدت بذلك قائمة تُوافق عليها الحكومة من الخدمات والسلع التى بإمكان بلاكووتر بيعها للوكالات الفدرالية والأسعار التى يمكنها المطالبة بها رسميا. فتح فوز بلاكووتر بجدول للأعمال مع GSA الطريق أمامها للحصول على عقود طويلة الأجل من جميع أجهزة الحكومة. وضع الجدول الخطوط العريضة لقائمة بأسعار استخدام مرافق بلاكووتر أو مدربيها للتدريب المتخصص. كانت تكلفة استخدام منطقة التدريب التكتيكى هى ١٢٥٠دولار لليوم الواحد لأقل من عشرين متدرباً. أما استخدام منطقة تدريبات المدن التى كانت "R U Ready" إحدى مكوناتها، فكان يتكلف ١٢٥٠دولار فى اليوم لأقل من ثلاثين شخصا و١٥٠٠ دولار إذا زاد العدد. كان بإمكان الوكالات الحكومية استئجار أحد ميادين الرماية نظير ٥٠ دولار فى اليوم عن كل شخص وبحد أدنى مقداره ٥٠٠ دولار. أيضا أتاح الجدول استئجار مدرسين من بلاكووتر نظير ١٢٠٠ دولار فى اليوم للتدريس فى دورات لحراسة التنفيذيين، حماية القوات، الالتحام فى مكان ضيق، حركة الصعود إلى الطائرات والسفن، وإنقاذ الرهائن. وسُمح لبلاكووتر ببيع (أنظمة الرماية الخاصة التى تطورها لأغراض محددة ومعدات التدريب الأخرى لأية وكالة تطلبها. قد لا تبدو

هذه الأشياء مدرة لأرباح كبيرة لكن التعاقد مع GSA فتح أبواب الحكومة الفدرالية بجميع هيئاتها أمام بلاكووتر، ووفقا لما تستطيعه الشركة من مناورات للحصول على عقود. قال جيمي سميث، العضو السابق في سي أي إيه والذى قضى سنوات يعمل مع بلاكووتر "الحصول على عقد مع GSA يسمح للحكومة بشراء أي شئ من الشركة دون إجراء مناقصات". إن التأثير الحقيقي للحصول على عقد مع GSA هو تيسير العمل مع وكالات الحكومة الأخرى وإقناعهم باستخدام خدمات الشركة دائما وعلى نطاق واسع. وهنا يظهر تأثير الروابط السياسية للشركة. لقد طورت هاليبرتون نموذجا سارت على نهجه بلاكووتر وشركات أخرى. كان أول دفعة تلقتها بلاكووتر من تعاقدها مع GSA هو ٦٨٠٠٫٠٠ دولار نظير "آليات تدريب على السلاح". وكما تصادف، كان هذا تحديدا هو المبلغ الذى تبرع به إريك برينس نهاية العام ذاك للجنة الجمهورية لانتخابات الولاية، وهي الانتخابات التى أتت بجورج دبليو بوش إلى السلطة.

كانت قيمة العقد الأول لبلاكووتر مع GSA عن فترة السنوات الخمس الأولى ١٢٥٠٠٠ دولار فقط. وفي عام ٢٠٠٥، حينما مُدد العقد خمس سنوات أخرى أصبحت قيمته ٦مليون دولار. لكن كل تلك التقديرات كانت هينة مقارنة بما كان باستطاعة بلاكووتر كسبه في ظل التعاقد مع GSA. بحلول عام ٢٠٠٦، كانت بلاكووتر قد تلقت ١١١مليون دولار عملا بجدول الأعمال مع GSA. قال المتحدث باسم GSA جون أندرسون "هذا جدول ذو قيمة متضاعفة، مبالغ غير محدودة، عقد تسليم بلا حدود. حينما يُمنح العقد لأول مرة، لا نعرف ما إن كانت الوكالات الأخرى ستتقدم بطلبات للمقاول (المتعاقد معه) أم لا، إذ إن على المقاول أن يتنافس... مع مقاولين آخرين على طلبات المهام، من ثم نحدد قيمة دولارية تقديرية للعقد قيمتها ١٢٥٠٠٠ دولار. من الواضح أن بلاكووتر نجحت نجاحا كبيرا بالوصول بمبيعاتها إلى ١١١مليون دولار في مدى ست سنوات".

عام ٢٠٠٠، وفيما كان بيزنس بلاكووتر يزدهر، لم تكن الأمور على ما يرام في

مجمع مويوك. وجد آل كلارك، ذلك الرجل الذي يعزو إليه الكثيرون فضل إبداع فكرة بلاكووتر، نفسه في منازعات مع برينس وآخرين في الشركة. يقول كلارك: "فيما مضى الوقت، حدثت أشياء لم ترقني هناك، من ثم، غادرت المكان لأبدأ بيزنس آخر. في عام ٢٠٠٠ أسس شركة "الأنظمة التكتيكية الخاصة" مع أحد العاملين السابقين في بلاكووتر، وزميله السابق في وحدة السيلز ديل ماكليلان. يضيف كلارك "كان بين الأشياء التي حدثت أن إريك أراد بلاكووتر أن تكون ملعبا لأصدقائه الأثرياء. وُجِّهت إليَّ تساؤلات حول سبب تدريبي شخصا عاديا بالجيش بنفس المستوى الذي أدرب به شخصا من فرقة السيلز. وكانت إجابتي عن هذا هو سؤالي عن السبب الذي نؤسس عليه قيمة حياة شخص على نوع الزي العسكري الذي يرتديه، لأنه حينما تتطاير القذائف فهي لا تميز بين هذا وذاك. لكنني أخبرت أن معاييري كانت أعلى من اللازم".

يقول كلارك إنه خلال فترة التدريب "كنت أعطي الجميع كل شئ لدي" لكن مدراء الشركة "اعتقدوا أن ذلك سيعمل على عدم وجود حوافز لدى العملاء لأنني أعطيهم كل شئ، كنت أتحاجج بالقول إننا يجب أن ندربهم على كل شئ لأنهم قد لا يجدون فرصة للعودة إلينا... كان كثير من رجال الشرطة يدفعون نفقات التدريب من أموالهم الخاصة، ويحرمون أنفسهم من قضاء إجازاتهم مع عائلاتهم لكي يذهبوا إلى مدرسة يعتقدون أنها ستمنحهم ما لا توفره لهم الجهات التي يعملون معها".
ورغم أن كلارك لم يكن متحمسا للدخول في تفاصيل الخلاف بينه وبين برينس إلا أنه أوجز شعوره حول تركه بلاكووتر قائلا "دعني أعبر عن الموقف كالتالي: أردتها أن تكون مكانا ينشئه المهنيون من أجل المهنيين، وأردت المكان أن يكون مهنيا، ولم أشعر أن هذا هو ما كانته الشركة". كانت بلاكووتر قد سارت في طريقها إلى النجاح حينما غادرها كلارك عام ٢٠٠٠، وكانت قد اقتنصت حوالي مائتي ألف دولار من عقد GSA وأشياء أخرى، لكن لم تحقق طفرة حقيقية في البيزنس سوى بعد أكثر من عامين. كان هذا بفضل الهجمات الإرهابية التي تُنسب إلى أسامة بن لادن.

بعيد الساعة الحادية عشرة من صباح ١٢ أكتوبر ٢٠٠٠ اقترب قارب صغير من المدمرة كول التابعة للبحرية الأمريكية والتى كانت راسية فى ميناء عدن. كانت قد فرغت لتوها من توقف روتينى للتزود بالوقود. وفيما اقترب الزورق من جانب الميناء الذى ترسو فيه المدمرة، انفجر وأحدث فجوة أبعادها ٤٠×٤٠ قدما بالسفينة هائلة الحجم. فيما بعد، أعلن أسامة بن لادن مسئوليته عن التفجير الانتحارى الذى نتج عنه ١٧قتيلا من البحارة الأمريكيين و٣٩جريحا. كانت هذه هى الكارثة التى أعقبت مذبحة كولومباين عام ١٩٩٩ بعام واحد. واستفادت منها بلاكووتر: عقدا بمبلغ ٧ ,٣٥مليون دولار مع البحرية للقيام بتدريبات لـ"حماية القوات". تقليديا، لم يكن ضباط الصف بالبحرية يتلقون تدريبات للقيام بدور فى المعارك، لكن مع زيادة فى التهديدات للأسطول، بدأ ذلك فى التغير. قال الأميرال ڤيرن كلارك، رئيس عمليات الأسطول أمام لجنة الخدمات المسلحة بمجلس الشيوخ فى مايو ٢٠٠١ "إن الهجوم على السفينة كول كان مأساة مروعة ونموذجا دراماتيكيا لنوع الأخطار التى تواجهها قواتنا المسلحة فى جميع أنحاء العالم على مستوى يومى، مما يؤكد على أهمية حماية القوات الآن وفى المستقبل. اتخذت البحرية الإجراءات فى الداخل والخارج. حيث نقوم بتغييرات فى البحر فى الأسلوب الذى نخطط به للدفاع عن النفس، وننفذه، لقد عززنا التزود بالجند، التدريب وتجهيز القوات البحرية كى يُعَدّ المقاتلون في الحرب بأفضل نهج من حيث الأمن الجسدى،....". وفى ذاك الوقت كانت البحرية قد ألزمت نفسها بالفعل لتبنى "خطة شاملة لتقليص نفقات البنية الأساسية من خلال التنافس، الخصخصة، والتعاقدات مع جهات خارجية". كان بين مشاريعها إعادة النظر فى حوالى ٨٠٥٠٠ منصب للتعاقد عليها من الخارج. وعلى حين أن تفجير المدمرة كول كان قد عمل على ازدهار بيزنس بلاكووتر إلى حد كبير، فإن هذا الازدهار الذى حققته سيزوى مقارنة بالجائزة الكبرى التى كانت بانتظارها بفضل أكبر عملية إرهابية نُفذت على أرض الولايات المتحدة.

فى صباح ٢٠٠١/٩/١١، تحولت طائرة أمريكان إيرلاينز رقم ١١ والتى كانت تحمل اثنين وعشرين راكبا من بوسطن إلى لوس أنجيليس، تحولت عن مسارها

فجأة واتجهت مباشرة باتجاه نيويورك سيتى. فى الساعة ٩:٤٦ دقيقة صباحا، اصطدمت الطائرة مباشرة بالبرج الشمالى لمركز التجارة العالمى وبعد حوالى سبع عشرة دقيقة، اصطدمت طائرة يونايتد إيرلاينز رقم ١٧٥بالبرج الجنوبى. وفى الساعة ٩:٣٧صباحا اصطدمت طائرة أمريكان إيرلاينز رقم ٧٧بالبنتاجون. وفيما اندلعت النيران فى اثنين من أكثر المبانى الأمريكية شهرة وتصاعد منها الدخان، سارعت تلك الهجمات بأسلوب كاد أن يكون فوريا من أجندة الخصخصة التى سعى إليها لوقت طويل أشخاص كثيرون كانوا قد استولوا على البيت الأبيض منذ أقل من نصف عام. أشرف وزير الجيش فى إدارة بوش، توماس هوايت، الذى كان من مدراء إنرون السابقين، على التفعيل السريع لأجندة الخصخصة التى كان قد بدأها ديك تشينى منذ عقد. وسرعان ما أدى هذا البرنامج إلى انفجار فى أرباح الصناعات العسكرية الكوكبية بلغ ١٠٠بليون دولار. كانت بلاكووتر التى يملكها إريك برينس بين أعظم المستفيدين من "الحرب على الإرهاب" التى أعلنتها الإدارة. وكما عبر عن ذلك كلارك "لقد حوّل بن لادن بلاكووتر إلى ما هى عليه اليوم".

قال نائب رئيس بلاكووتر، كريس تايلور فى خطاب له ألقاه بكلية القانون بجامعة جورج واشنطون عام ٢٠٠٥ "بعث تفجير المدمرة كول بعدن بموجات فى أنحاء أسطول الولايات المتحدة، ثم حدثت هجمات ٩/١١ وبعثت بموجات فى جميع أنحاء العالم. استجابت البحرية كما يجب حيث أدركت أنه من أجل مجابهة خطر الإرهاب اليوم، سيحتاج جميع البحارة إلى تدريب فى تقنيات حماية القوات الأساسية والمتقدمة. تحركت البحرية سريعا لإنشاء برنامج تدريب صحيح، والذى تنفذ معظمه اليوم، وتديره بلاكووتر فى أنحاء البلاد. والبحارة فى جميع الأنحاء اليوم مُعدّون الآن بأسلوب أفضل للتعرف على ما سيوجّه من هجمات إلى السفن البحرية والاشتباك معها وهزيمتها فى الموانئ أو أثناء الرحلات. وحتى اليوم دربت بلاكووتر حوالى ٣٠٠٠٠ بحار". فازت بلاكووتر رسميا بعقد قيمته ٣٥.٧مليون دولار "للتدريب على حماية القوات الذى يشمل التدريب الأساسى على حماية القوات... والتدريب على الحراسة أثناء الرحلات". كان معظم العمل يؤدّى بنوفوك، فيما يؤدى

بعضه بسان دييجو وسان أنطونيو. علق أحد مدربي بلاكووتر وكان قد أشرف على العقد بُعيد بدئه عام ٢٠٠٢ أن المدرسين الذين يعملون معه ذُهلوا حينما وجدوا أن بحارة كثيرين "لم يحملوا أية أسلحة نارية أبدا إلا في معسكرات تدريب مجندي الأسطول البحري".

منح مناخ ما بعد ٩/١١ إريك برينس وزملاءه في بلاكووتر لوحة بيضاء ناصعة ليبدعوا عليها مستقبل الشركة المربح، الذي بدا وأنه لا يحده سوى الخيال والعاملين. كان رمسفلد، وزير الدفاع، قد تولى منصبه وهو عازم على توسيع الدور الذي ستلعبه الشركات الخاصة مثل بلاكووتر في حروب الولايات المتحدة بشكل دراماتيكي، وكانت هجمات ٩/١١ قد وضعت تلك الأجندة على أسرع طرق التنفيذ. في ٢٧سبتمبر، وعقب ٩/١١بأسبوعين، شوهد إريك برينس في ظهور نادر له بالإعلام، حيث استضافته قناة فوكس الإخبارية في أحد برامجها الرئيسية The O'reilly Factor. قال برينس "لقد ظللت أعمل في بيزنيس التدريب لمدة أربع سنوات، وكنت قد بدأت أتشكك في مدى إدراك الناس لأهمية الأمن. والآن لا يتوقف رنين التليفون". كان سبب ظهور برينس على قناة فوكس هو مناقشة برنامج تدريب مارشالات الطيران والتدريب الذي سيتلقونه، وكان بعضه ستضطلع به بلاكووتر. وفي الشهر ذلك وقّعت بلاكووتر عقوداً مع الإف بي أي قيمتها ٦١٠٠٠٠دولار على الأقل. وسرعان ما كانت تقوم بتدريب العاملين في جميع أجنحة الحكومة، بدءا من مركز الخدمات الإدارية للأمن النووي القومي التابع لوزارة الطاقة وحتى شبكة مكافحة الجرائم المالية بوزارة الخزانة إلى مكتب مساعد وزير وزارة الصحة والخدمات الإنسانية.

لكن، وعلى حين أن أرباح بلاكووتر ارتفعت وراج صيت برامجها التدريبية في أعقاب ٩/١١، فإن شهرتها وثروتها الحقيقية لم تتحقق حتى شكّلت فرعها "بلاكووتر للاستشارات الأمنية" عام ٢٠٠٢ واقتحمت عالم الجنود المعروضين للإيجار. وكما كان الحال بالنسبة لإنشاء بلاكووتر، فقد قام إريك برينس مرة أخرى

بتقديم الوسائل المادية والتقنية لتحقيق فكرة شخص آخر. وفى هذه المرة كانت الرؤية من بنات أفكار جيمى سميث من منسوبى السى أى إيه السابقين. كان آل كلارك قد تعاقد مع سميث لتدريس حصص فى الأسلحة حينما كان طالبا فى كلية القانون بجامعة ريجنت "كبرى الجامعات المسيحية الأمريكية" بفرجينيا بيتش، على مسافة غير بعيدة من بلاكووتر.

قال سميث فى حوار معه إنه فكر للمرة الأولى فى إمكانية إنشاء شركة أمن خاصة حينما كان يعمل لحساب السى أى إيه أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١. قال "لا أحاول القول إننى كنت أقرأ الطالع منذ عقد قبل حدوث هذا كله، لكنها كانت فكرة طفولية، وبدت وأنها تُكْمِل توجهات الخصخصة. كانت هناك بالفعل شركات تقوم بهذا. ولم تكن ثمة معلومات معروفة عنها. كانت هناك Dyncorp وSAIC، تقومان بعمل شئ على غرار هذا". قال إنه أدرك أن القوات المسلحة كانت قد بدأت فى استخدام قوات خاصة لحراسة المرافق العسكرية، وتلك ممارسة تعرف باسم "حماية القوات" ومن ثم، تتفرغ قوات أكثر لخوض المعارك. كان هذا توجهاً سائداً. ثم قال سميث إنه "لم يعتقد أن ذلك شئ بالإمكان كبحه أو الإقلال منه لأن طبيعة القوات المسلحة تقوم على الخدمة التطوعية. هل تريد حقا أن تقف قوة متطوعيك تحرس البوابة الخارجية فى الوقت الذى يمكنها القيام بأعمال أكثر نفعا بكثير لك؟ من ثم، اعتقدتُ أن الأمر لن يتغير (لا تَوقّف لاستخدام القوات الخاصة) وأن من المحتمل له أن يستمر".

ومثل آل كلارك قبله، لم يكن لدى جيمى سميث الأموال لبدء شركة أمنه الخاصة به، وعلى حين أن الطلب كان موجودا، فلم يكن كبيرا. يقول سميث "ثم بعد ٩/١١، اتصل برينس وقال، أود منك أن تفكر فى وظيفة دائمة وأن تعود لتعمل معنا، وقلت له إن هذا مثير للاهتمام وأننى سأفكر فى قبول الاقتراح على أساس من التفاهم أننا سننشئ شركة أمن". وافق برينس لكن سميث يزعم أن برينس لم يتحقق آنذاك من جدوى ما سرعان ما سيصبح أكبر مشروع مدر للأموال لشركة بلاكووتر.

يضيف سميث "قال لي ليس بإمكانك تكريس كل وقتك لهذا المشروع لأنه لن ينجح. بإمكانك تكريس ٢٠٪ من وقتك فقط له، ليس أكثر من ذلك، عليك التكريس لما تفعله الآن". التحق سميث ببلاكووتر في ديسمبر٢٠٠١، وسُجلت شركة بلاكووتر للاستشارات الأمنية بدلاوير في ٢٢ يناير٢٠٠٢. وفي غضون أشهر، وحينما احتلت الولايات المتحدة أفغانستان ومضت تخطط لغزو العراق، كانت بلاكووتر للاستشارات الأمنية قد بدأت بالفعل تدر الأرباح، وتُدخل مئات آلاف الدولارات شهريا من تعاقد مُربح مع السي آي إيه.

أحد اللاعبين الرئيسيين في منح هذا العقد الأول لبلاكووتر للاستشارات الأمنية كان إيه. بي. كرونجارد، المدير التنفيذي لسي آي إيه، وهو المركز الثالث في الوكالة. عُين كرونجارد في هذا المنصب في مارس ٢٠٠١، وكانت خلفيته شبحية حيث قضى جل حياته الوظيفية كمستثمر مصرفي. جعل من مؤسسة ألكس. براون، أقدم مؤسسة استثمارات مصرفية أحد أنجح المؤسسات من نوعها، ثم باعها في النهاية إلى بانكرز تراست التي استقال منها عام ١٩٩٨. كان ثمة إيماءات أن كرونجارد كان يعمل سراً من وراء حجاب للسي آي إيه لسنوات طويلة قبل أن ينضم رسميا للوكالة عام ١٩٩٨ كمستشار خاص لجورج تنت. لكنه رفض أن يكشف كيف قابل مدير السي آي إيه، وكان يكتفي بالقول إن هذا حدث من خلال "أصدقاء مشتركين". يفاخر كرونجارد خريج برينستون وأحد فريق لعبة اللاكروس بها وضابط المارينز السابق بأنه وجه لكمة لفك أحد أسماك القرش البيضاء، وأنه يحتفظ بأسنانه حول سلسلة يرتديها، وبصورة له في مكتبه. وبالرغم من تبجحه بشأن بطولاته، فإن بعض من يعملون بالسي آي يعتقدون أنه مُدّعٍ، لكنه لا يأبه بتلك الأقوال إذ صرَّح لمجلة النيوزويك بعيد تعيينه في منصبه "مُدّعٍ؟ ربما كنت كذلك. وربما أنني لست بمُدّعٍ. وهذا كل ما سأقوله".

ظل منظرو المؤامرة لما حدث في ٩/١١ مهتمين بكرونجارد لوقت طويل، لأن البنك الذي ترأسه حتى ١٩٩٨، والذي اشتراه بنك دويتش بعد أن تركه، كان مسئولا عن

عدد كبير غير طبيعى من سندات شراء حقوق البيع الآجلة بأسعار محددة لأسهم يونايتد إيرلاينز قبيل ٩/١١، وهى حقوق لم تُحصَّل أبدا. ليس ثمة دليل على أنه كان على علم مسبق بالهجمات. فيما كان يعمل بالسى آى إيه تحت رئاسة جورج تنت انحصر نشاط كرونجارد داخل الوكالة وأقسامها، لكنه كان أحيانا يتحدث فى العلن. فى أكتوبر ٢٠٠١، أعلن قائلا "إننا سنكسب الحرب إلى حد بعيد من خلال قوات لا تعرفون عنها شيئا، عمليات لن تشاهدوها وبأساليب قد تفضلون عدم معرفتها، لكننا سنهيمن".

وبعد حوالى ثلاث سنوات، فى يناير ٢٠٠٥، اجتذب كرونجارد الوسائط الإخبارية لأنه أصبح أكبر شخصية فى الإدارة يتحدث علنا عن فوائد عدم قتل أسامة بن لادن أو إلقاء القبض عليه. قال "يمكن القول إننا فى وضع أفضل مع وجوده طليقا لأنه إذا حدث شئ لبن لادن فقد نجد أفراداً كثيرين يتنافسون على موقعه ويبرهنون على شجاعتهم، بإطلاقهم سلسلة من العمليات الإرهابية... لقد بدأ بن لادن يتحول إلى قائد كاريزمى أكثر من كونه عقلا مُدبرا". وصف كرونجارد بن لادن أيضا بأنه "ليس تنفيذيا رئيسيا لكنه يماثل أكثر رأسمالياً يقوم بمشاريع مشتركة. فلنقل مثلا إننى وأنت نريد تفجير ميدان ترافالجر بإنجلترا. نذهب إلى بن لادن، فيقول، حسنا، هاكم بعض الأموال وبعض جوازات السفر. إذا كنتم بحاجة إلى السلاح، اذهبوا إلى فلان".

من غير الواضح تحديدا نوعية الروابط الفعلية بين برينس وكرونجارد. يزعم البعض أن كرونجارد كان يعرف والد برينس. وفى الحوارات الهاتفية التى تُجرى معه، يكتفى كرونجارد بالقول إنه "يعرف" برينس وبلاكووتر. بيد أن أحد المدراء التنفيذيين السابقين ببلاكووتر أكد قائلا "أعلم أن إريك وكرونجارد كانا صديقين حميمين". وأيا كانت درجة تورط كرونجارد، فقد كانت السى آى إيه هى التى سلمت بلاكووتر أول عقد أمنٍ لها فى إبريل ٢٠٠٢. زار كرونجارد كابول وقال إنه أدرك أن موقع الوكالة الجديد كان بحاجة ماسة إلى الأمن. تلقت بلاكووتر عقدا

قيمته ٥.٤ مليون دولار لمدة ستة أشهر وبدون طرح مناقصة، لتزويد موقع السى آى إيه بكابول بعشرين من حراس الأمن. قال كرونجارد إن العرض الذى تقدمت به بلاكووتر -وليست روابطه مع برينس- هو السبب فى اقتناص الشركة للعقد، وإنه قد تحدث مع برينس عن العقد لكنه غير متيقن مَنْ هاتف مَنْ، وإنه "غير متأكد مَنْ أتى فى البداية، الدجاجة أم البيضة". قال إن "شخصا آخر هو من وقع على عقد السى آى إيه مع الشركة" أضاف أيضا فى ذلك الحوار" حصلت بلاكووتر على عقد لأنهم كانوا مستعدين لإرسال الرجال فورا إلى الموقع. كنا نتعرض لإطلاق النيران، وفعلنا كل ما اقتضاه الأمر لدى عودتى من كابول... اهتمامنا الأوحد كان هو الحصول على أفضل حراسة لأناسنا. إذا اعتقدنا أن سكان المريخ كانوا سيوفرون ذلك، أعتقد أننا كنا سنتعاقد معهم".

من الواضح أن العلاقة بين كرونجارد وبرينس ازدادت حميمية بعد توقيع العقد. قال أحد مدراء بلاكووتر السابقين فى حوار معه "حضر كونجارد فى زيارة لبلاكووتر، وكان عليَّ مرافقة أسرته فى أنحاء المكان، ثم تركتهم يطلقون النيران بميدان الرماية مرات عديدة. كان هذا بعد توقيع العقد، وربما أنه أتى فقط ليشاهد الشركة التى وقع عقدا معها". ومن الواضح، أن الفرصة التى أتيحت لبرينس للمشاركة فى عمليات سرية فى الحرب على الإرهاب سيطرت عليه تماما -لدرجة أنه ذهب شخصيا مع الفرق للانتشار على الخطوط الأمامية. انضم برينس إلى سميث كجزء من الفرقة الأصلية المكونة من عشرين رجلا والتى أرسلتها بلاكووتر للوفاء بعقدها الأول مع السى آى إيه، والذى بدأ فى مايو ٢٠٠٢، وفقا لما جاء بكتاب روبرت يونج بيتون "الترخيص بالقتل". تولى معظم الفريق حراسة موقع السى آى إيه بكابول وأصولها بالمطار، بيد أن سميث وبرينس ذهبا إلى أحد أخطر الأماكن بأفغانستان، أى شكين، حيث كانت الولايات المتحدة تقيم لها قاعدة حربية على بعد أربعة أميال من الحدود الباكستانية. لكن، بعد أسبوع واحد فقط غادر برينس شكين والقلعة الطينية التى كانت قوات الولايات المتحدة تطلق عملياتها منها. مكث سميث بشكين شهرين، وأربعة أشهر أخرى فى كابول بعد مغادرته

شكين ظل برينس أسبوعا بكابول. من الواضح أن تلك التجربة راقت لبرينس لدرجة أنه حاول بعدها أن ينضم إلى السى آى إيه، لكن طلبه رفض لأنه لم ينجح فى اختبار الكذب. وبالرغم من أن برينس لم ينجح فى أن يحصل على موقع فى السى آى إيه، إلا أنه احتفظ بروابط وثيقة مع الوكالة. ومن المعروف أنه مُنِح "شارة خضراء" التى تسمح له بدخول مواقع السى آى إيه. أبلغ مصدر من السى آى إيه كِن سيلڤرشتاين الصحفى بمجلة هاربر أن برينس "يذهب بانتظام إلى المقر الرئيسى للسى آى إيه، بمعدل مرة كل شهر. يلتقى بالأشخاص فى المراتب العليا، خاصة فى إدارة العمليات".

وبما أن عقود السى آى الأمنية، والعقود الأخرى مع مختلف وكالات الاستخبارات عقود "سوداء" فمن الصعب تحديد كم من النقود بدأت تنهال على بلاكووتر بعد عقدها الأول لمهمتها فى أفغانستان، إلا أن سميث وصف تلك الفترة بأنها فترة نمو سريع لبلاكووتر. وفيما بعد أمد عمل الشركة مع السى آى إيه والجيش، بالإضافة إلى روابط برينس السياسية والعسكرية، أمد بلاكووتر برافعة قوية فى سعيها لكسب الجهة التى أصبحت فيما بعد أهم عميل مؤكد لديها، أى وزارة الخارجية. قال سميث، "بعد بدء تنفيذ ذلك العقد الأول حدث كثير من الغزل مع وزارة الخارجية.. ومن ثم، سافرنا كثيرا إلى كابول وحاولنا من خلال الكلام المعسول أنِ يسمحوا لنا بركوب السفينة معهم. وبمجرد أن اقتنعت وزارة الخارجية ومُنحنا عقدا، فتح ذلك لنا أبوابا مختلفة. بمجرد أن تدخل بقدمك إلى إحدى الجهات الحكومية التى لها مكاتب فى جميع أرجاء العالم يصبح الأمر- ولو أن هذا قياس بشع- مثل انتشار نمو سرطانى، بمجرد أن تدخل إلى مجرى الدم ستنتشر فى أنحاء الجسد فى بضعة أيام. من ثم، بمجرد أن تدخل إلى خط الأنابيب هذا، ستكون لك فرصة فى أى مكان لديهم مكتب فيه أو تواجههم مشكلة به".

بالنسبة لبلاكووتر، واتتها فرصة عمرها حينما دخلت قوات الولايات المتحدة بغداد فى مارس٢٠٠٣. ومع وجود جدول عمل له مع GSA (إدارة الخدمات العامة)،

وروابط سياسية ودينية عميقة، حصل برينس على عقد بالغ الأهمية فى العراق يصبح بمقتضاه رجاله الحراس الخاصين لأكبر شخصية لإدارة بوش فى بغداد، أى إل. بول برمر، الذى كان يُشار إليه بصفته "المندوب السامي" أو "البروقنصل".

كان برمر من المؤمنين المتعصبين بالسوق الحر، ومثل برينس، كان قد تحول إلى الكاثوليكية، واعتنق بحماس أجندة المحافظين الجدد لاستخدام القوة العسكرية الأمريكية الهائلة لإعادة صنع العالم وفقا للمصالح الأمريكية -وكل هذا باسم الديموقراطية. كان عقد برمر يعنى أن برينس سيصبح على دفة قوة نخبوية خاصة تنتشر فى الخطوط الأمامية لحرب سعت إليها طويلا القوى المكوِّنَة لحركة المحافظين اللاهوتيين الجدد. أصبحت الشركة الآن، بعد أن قفزت خطوات واسعة متخطية وضعها كميدان رماية فى مستنقعات كارولاينا الشمالية، ذلك الوضع الذى كانت تحتله منذ سنوات قلائل، أصبحت مُعترفاً بها من قبل إدارة بوش كجزء جوهرى من "أرمادا" حربها على الإرهاب. وسرعان ما كان جارى جاكسون، رئيس مجلس إدارة الشركة، وأحد أفراد فرقة السيلز، يتفاخر بأن بعض عقود بلاكووتر على درجة من السرية بحيث لم يكن بإمكان الشركة إبلاغ وكالة فدرالية عن نوع البيزنس الذى تقوم به مع وكالة أخرى. كانت العراق هى اللحظة المفصلية لبلوغ المرتزقة سن الرشد، وسرعان ما بزغت بلاكووتر بصفتها الجهة التى رسّخت أسس هذا التوجه. بيد أنه، لم يكد ينقضى عام على انتشار قوات برينس بالعراق، إلا ووجد أربعة من رجال الشركة أنفسهم فى مهمة مصيرية داخل المثلث السنى، تلك المهمة التى ألحقت ببلاكووتر العار وسوء السمعة على المستوى الدولى، وغيرت إلى الأبد مسيرة احتلال الولايات المتحدة للعراق، والمقاومة العراقية له. حدث هذا فى مدينة تسمى الفلوجة.■

3

الفصل الثالث

الفلوجة قبل بلاكووتر

"على الغريب أن يكون مهذباً"

-مثل دارج بالفلوجة

منذ وقت طويل قبل انتشار بلاكووتر بالعراق ، قبل ذلك بما يربو على عقد من الزمان كانت ثمة أحداث غير متعلقة بإريك، برينس وزملائه قد بدأت فى الدفع بالحركة فى الاتجاه الذى بلغ ذروته فى الكمين الملحمى الذى نُصب فى ٣١مارس ٤ ٢، حينما قتل رجال المقاومة العراقية أربعة من مقاولى **بلاكووتر فى وضح** النهار بوسط الفلوجة. عمل مقتل هؤلاء الأربعة على تغيير مجرى **الحرب بالعراق**، وتنفيذ عمليات حصار متعددة من قبل الولايات المتحدة للفلوجة، وعلى تشجيع حركة المقاومة المعادية للاحتلال.

لكننا إذا بدأنا قصة ما حدث لرجال بلاكووتر ذاك اليوم بالتفاصيل المحددة التى أحاطت بالكمين الذى نُصب لقافلتهم، أو حتى بالأحداث التى وقعت فى الأيام والأسابيع التى سبقت عملية القتل، فهذا يعنى تجاهل أكثر من عقد من التاريخ الذى أدى إلى الحادث. قد يقول البعض إن ذلك التاريخ يعود إلى ما قبل ذلك بكثير، إلى مقاومة الفلوجة الضارية للاحتلال البريطانى عام ١٩٢٠، حيث حصدت الثورة

المعادية للاحتلال حياة حوالى ألف جندى بريطانى قبل ما يقرب من قرن من غزو الولايات المتحدة للعراق. وبغض النظر عن هذا، فليس ثمة شك فى أن الفلوجة قد عانت أكثر من أية مدينة عراقية أخرى منذ الغزو الأمريكى عام ٢٠٠٣. هاجمت القوات الأمريكية المدينة فى مناسبات عدة وقتلت الآلاف، واقتلعت مئات الآلاف، وأطلقت قوات الاحتلال النيران على المتظاهرين العُزّل مرات عديدة. ومنذ الغزو، سعى المسئولون الأمريكيون، بوحشية، لأن يجعلوا الفلوجة نموذجا لما يُحاق بالمدن المتمردة. ظلت الصحافة الأمريكية، والباحثون المترفّعون، وصناع السياسات، والقادة العسكريون يصورون الفلوجة بصفتها مُستنبتاً للمقاومة المؤيدة لصدّام، ومقر المقاتلين الأجانب الذين غضبوا للإطاحة بالنظام، والمعادين بضراوة للاحتلال الأمريكى. لكن هذا تصوير ضيق جدا، ومضلل للتاريخ، لا يخدم سوى أجندة واشنطون. بَيّن أنطونى شديد، مراسل الواشنطون بوست، والحائز على جائزة بوليتزر أن "روابط الفلوجة مع الحكومة السابقة لا تشكل سوى جزء من القصة.

فتلك منطقة أيضا شكلتها التقاليد الريفية، وقومية المشاعر، والتى خاطها معا تأويل خاص للإسلام، واليقين الذى يأتى به مثل هذا التأويل. وهذه الهوية الأساسية والقيم الملازمة لها اكتسبت أهمية أكبر فيما غرقت المجموعة السكانية بعمق أكثر فى حس بالحرمان من الحقوق والامتيازات ذلك الحس الذى كثيرا ما يتردد فى تلك البقعة من الأرض السنية". ما لا يكاد يذكر فى الإعلام هو أنه قبل أن تدخل القوات الأمريكية إلى العراق، قبل عملية قتل رجال بلاكووتر وما نتج عنه من عمليات حصار للمدينة، وقبل أن تصبح رمزا للمقاومة العراقية، عرف أهالى الفلوجة المعاناة على أيدى الولايات المتحدة وحلفائها.

أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١، كانت الفلوجة موقع إحدى كبريات المذابح التى نُسبت إلى القنابل "التى ضلت طريقها" أثناء حرب تم تصويرها على أنها فجرُ عصر الأسلحة "الذكية". بعيد الساعة الثالثة من عصر ١٣فبراير ١٩٩١، رَعَدت طائرات الحلفاء الحربية فوق المدينة، وقصفت الكوبرى الفولاذى العملاق عبر نهر الفرات والذى يصل الفلوجة بالطريق الرئيسى لبغداد، قصفته بالصواريخ. وبعد أن فشلت فى تدمير الكوبرى، عادت الطائرات إلى الفلوجة بعد ساعة. قال شاهد عيان "رأيت ثماني طائرات. كانت ستٌ منها تدور وكأنما تغطى الطائرتين الأخريين. ونفّذت الاثنتان الأخريان الهجوم". أطلقت طائرات تورنيدو الحربية البريطانية عددا من الصواريخ "الدقيقة" الموجهة بالليزر، والتى هى موضع التفاخر، على الكوبرى. لكن، ثلاثة منها، على الأقل، أخطأت هدفها، وسقط واحد منها فى منطقة سكنية تبعد ثمانمائة ياردة عن الكوبرى، واصطدمت بمجمع سكنى مكدّس، وانحرف الصاروخ مخترقا سوقا شعبيا مزدحما. وفى النهاية، قال مسئولو المستشفى المحلى إن ما يربو على ١٣٠شخص قد قُتلوا وأصيب ثمانون آخرون. الكثير من الضحايا كانوا أطفالا. قال الكابتن دافيد هندرسون، من قادة القوات المتحالفة إن نظام الليزر بالطائرات تعطل. ثم أضاف مخاطبا المراسلين الصحفيين "بقدر ما يعنينا الأمر، فقد كان الكوبرى هدفا مشروعا. ولسوء الحظ، يبدو، وعلى الرغم من جهودنا، أن القنابل أصابت المدينة". اتهم، هو ومسئولون آخرون، الحكومة العراقية

باستخدام القنبلة "الضالة" في الدعاية الحربية، وقال "علينا أن نتذكر البشاعات التى ارتكبتها العراق ضد إيران باستخدامها الأسلحة البيولوجية وضد مواطنيها الأكراد". وفيما كان عمال الإغاثة والناجون يقومون بالحفر في أنقاض المجمع السكنى والمحال التجارية المجاورة، صاح أحد أهالى الفلوجة "انظروا إلى ما فعله بوش! بالنسبة له، فإن الكويت تبدأ هنا".

وسواء كانت القنبلة "ضالة" أم لم تكن، فطوال العقد الذى تلى، تذكّرها العراقيون بصفتها مذبحة شكلت الأسلوب الذى نظر به أهالى الفلوجة، فيما بعد، إلى قوات الولايات المتحدة الغازية تحت قيادة بوشٍ آخر. كان سكان الفلوجة، وغالبيتهم من السنة، بين أكثر السكان ولاءً لصدام حسين في العراق، وكانت الفلوجة موطن كثير من حرسه الجمهورى النخبوى. تذكرت كاثى كيلى، ناشطة حقوق الإنسان السابقة، ومؤسسة جمعية "أصوات في البرية"، أنه "على الرغم من أن صدام حسين كان يعتبر الفلوجة إحدى المدن المؤازرة لنظامه، فلم تتمكن الحكومة العراقية من تأمين مستشفيات الفلوجة ومستوصفاتها ضد الآثار المدمرة للعقوبات التى تقودها الولايات المتحدة. قمنا بزيارة عنابر بمستشفيات بالفلوجة قبل الغزو والتى كانت تماثل "صفوفا تنتظر الموت" للأطفال حديثى الولادة نظرا لنقص الاحتياجات الأساسية نتيجة للعقوبات". زارت كيلى العراق عشرات المرات منذ زيارتها الأولى لها عام ١٩٩١. وفى زيارة لها قبل غزو ٢٠٠٣، قالت إنها، ومعها بعض الناشطين الحقوقيين البريطانيين كانوا بالمدينة في محاولة للاعتراف بمسئولية أمريكا/بريطانيا عن قصف السوق الشعبى عام ١٩٩١ أمام أهل المدينة، ولإجراء حوار مع الناجين. انفصلت كيلى عن المجموعة، وتذكرت أن "أحد الأشخاص بدأ يصيح فىّ بالإنجليزية قائلا" أنتم أيها الأمريكيون أنتم أيها الأوربيون، تعالوا إلى منزلى وسأريكم مياهاً لن تقدموها لحيواناتكم لتشربها. وهذا كل ما لدينا. والآن، تريدون قتل أطفالنا مرة أخرى. لن تستطيعوا قتل ابنى. لقد قُتِل ابنىَ في حرب بوش الأول". تتذكر كيلى أن الرجل بعد أن تصايح في وجهها، هدأ وقدم لها الشاى بمنزله. بالنسبة لها، كان هذا دليلا على أنه "حتى في الفلوجة، فقد يكون ثمة فرصة

لإقامة علاقة منصفة ودية، على الرغم من المعاناة التى حاقت بالعراقيين العاديين. لكن تلك الفرص كانت تُهدَر بشكل متزايد من خلال الإبقاء على العقوبات الاقتصادية وقصف مناطق "حظر الطيران". حينما دخلت القوات الأمريكية إلى العراق فى إبريل ٢٠٠٣، لم يستغرق الأمر منهم وقتا طويلا قبل أن يصبحوا الجازولين على حنق معاداة أمريكا المتفجر بالفعل والذى وُلِد بالفلوجة منذ اثنى عشر عاما على الأقل.

استولت القوات الخاصة الأمريكية على الفلوجة فى إبريل، فى وقت مبكر من الغزو، ثم غادروا المدينة سريعا. يقول العراقيون المحليون إنهم وافقوا على استسلام الفلوجة دونما قتال شريطة ألا تحتلها القوات الأمريكية لأكثر من يومين. وكما حدث فى أوساط مجموعات سكانية عراقية كثيرة بدأ أهالى الفلوجة فى تنظيم أنفسهم وفى استيعاب تبعات التطورات المُزلزِلة فى بلدهم، حتى أنهم قاموا بتشكيل مجلس جديد للمدينة. وفيما انتشر الاحتلال وتمروح القادة العسكريون الأمريكيون فى المناطق المختلفة بالعراق، انتقلت الفرقة الثانية والثمانون المحمولة جوا إلى الفلوجة. ومثل مواطنيهم فى الأنحاء الأخرى، لم يقاوم أهالى الفلوجة، على الفور، القوات المحتلة. بدلا من ذلك، راقبوا الأمور وانتظروا. لم يمض وقت طويل حتى تراكم الاستياء، فيما كان الأمريكيون يقطعون الشوارع ذهابا وعودة فى سياراتهم الهامفى. أذلت نقاط التفتيش السكان المحليين وغزت خصوصياتهم، واشتكى البعض من أن بعض الجنود كانوا يحملقون فى النساء المحليات بأسلوب غير لائق. كانت هناك مزاعم أيضا من أن الجنود كانوا يبولون بالشوارع. تراكم إجماع واضح فى الفلوجة على وجوب انسحاب الأمريكيين إلى تخوم المدينة، على الأقل. ولم يمض يومان حتى اتخذ الوضع فى المدينة منحى حاسما ودمويا. سرعان ما انتشر المئات من الفرقة الثانية والثمانين فى أرجاء الفلوجة، وفى يوم الجمعة الموافق ٢٥ إبريل، قبل أيام قليلة من عيد ميلاد صدام حسين، احتلت تلك القوات مدرسة القائد بشارع حى النزّال، وحولوا المجمع المكون من طابقين إلى مقر رئيسى للاحتلال بالفلوجة.

ومباشرة، أشعل الاستيلاء على المدرسة، التى يؤمها تلاميذ فى المرحلتين الابتدائية والثانوية، الغضب فى المدينة لعدة أسباب. من بين تلك الأسباب، أن أولياء الأمور والمدرسين كانوا يحاولون العودة بأطفالهم إلى حالة شبه سوية، وكان ينظر إلى المدرسة بصفتها مركزية فى تحقيق هذا. لكن أيضا، تفشت الشائعات من أن الجنود الأمريكيين كانوا يستخدمون مناظير الرؤية الليلية للتلصص من خلال النوافذ على النساء العراقيات من فوق سطح المدرسة أثناء تواجدهن فى خصوصية أفنيتهن وحدائقهن الخلفية. التقى القادة العراقيون المحليون بالجنود الأمريكيين طوال عطلة نهاية الأسبوع وحاولوا حفزهم على مغادرة المدرسة. مرت نهاية الأسبوع، وفى يوم الإثنين، الموافق ٢٨ إبريل، عيد ميلاد صدام السادس والستين، كان حوالى ١٥٠جندى مازالوا يحتلون المدرسة.

وفى تلك الليلة، ومع تصاعد التوترات حول وجود القوات، خطب إمام محلى أثناء صلاة المغرب من على منبر المسجد ضد الاحتلال الأمريكى، وشجب الاحتلال المستمر للمدرسة. وبعد انتهاء الصلاة، بدأ الناس فى التجمع ليشكلوا أول تظاهرة منظمة ضد الولايات المتحدة منذ أن احتلت القوات الفلوجة. قبل ذلك بأسبوع، كانت قوات الولايات المتحدة قد قتلت عشرة متظاهرين فى مدينة الموصل، لكن ذلك لم يردع أهالى الفلوجة. فى حوالى السادسة والنصف مساء ٢٨إبريل، بدأ الناس فى التجمع خارج المقر الرئيسى السابق لحزب البعث، الذى كانت القوات الأمريكية قد استولت عليه أيضا وحولته إلى موقع قيادة. كان مكتب عمدة المدينة، الذى تدعمه الولايات المتحدة، بجانب المقر، وكان القائد الأمريكى المحلى يعقد اجتماعا هناك. بدأ الحشد يردد شعارات مثل "الله أكبر، محمد رسول الله" و"لا لصدام، لا للولايات المتحدة". يزعم المسئولون العسكريون أن بعض المتظاهرين كانوا يطلقون النيران فى الهواء، وهذه ممارسة شائعة فى التظاهرات العراقية. يقول الأهالى إن هذا غير حقيقى ويؤكد كثير من شهود العيان العراقيين أنه لم تُطلَق أية عيارات نارية. قال قائد القوات الأمريكية بالفلوجة، المقدم إريك نانتز، إن قواته حذرت المحتجين وطلبت منهم التفرق، وأعلنت، كما يزعم، من مكبر للصوت بالعربية أنه يمكن "اعتبار

التظاهرة فعلاً معادياً يواجه باستخدام القوة المميتة". تحرك الجمع من أمام مكتب العمدة واتخذوا سبيلهم فى شوارع الفلوجة فيما تزايد زخم التظاهرة وحجمها. وحينما وصلوا إلى المدرسة كان عددهم قد بلغ المئات من الأفراد. رفع شخص وسط الحشد صورة كبيرة لصدام، التى يقول الأهالى عنها إنها كانت أوضح رمزاً على معارضة قوات الاحتلال. أخذوا يهتفون فى شارع حى النزّال "لا إله إلا الله، أمريكا عدو الله"، فيما كان الأمريكيون يُطلّون عليهم من مواقع القناصة على سطح المدرسة.قال محمد عبدالله، المحاسب المتقاعد، "لا نريد صدام، ولا نريد بوش. على الأمريكيين العودة من حيث أتوا بعدما أكملوا مهمتهم".

يظل ما حدث تلك الليلة موضع جدل كبير بين قوات الاحتلال وأهالى الفلوجة. ووفقا للعشرات ممن حاورهم رجال وسائل الإعلام الكبرى، لم يُطلق أى عراقى النيران على المدرسة أو على القوات. فيما يصف بعض المحليين طلقات عشوائية فى الهواء، وينكر آخرون أن أى عراقى فى التظاهرة أطلق النار، ويُجمع جميع الشهود العراقيين على أنه لم تُطلق أية نيران على قوات الولايات المتحدة. قال جميع الشهود العراقيين الذين استجوبتهم هيومان رايتس ووتش، فيما بعد، إن جميع من فى التظاهرة كانوا عزّلا. قال البعض إنه كان ثمة إطلاق نيران فى أحياء أخرى من الفلوجة، لكن ليس بالقرب من المدرسة. زعم نانتز أنه فيما استمرت التظاهرة غدت الحشود "عدائية، وألقوا بالحجارة، وكانت ثمة طلقات فى الهواء". قال نانتز إن أحد الجنود الأمريكيين أصابه حجر. ثم، هكذا يقول، هجم بعض المسلحين من الحشد على المدرسة. يقول العراقيون الذين كانوا موجودين تلك الليلة إن تلك المزاعم غير حقيقية. يقول قادة القوات الأمريكية إن جنودهم ألقوا قنابل دخان ثم صدرت لهم الأوامر بإطلاق النيران. وخلال لحظات انهالت الطلقات على الحشود. يقول الأمريكيون إنهم ارتدَوْا مناظير رؤية ليلية ولم يطلقوا سوى وميض من فوهات البنادق. ويقول العراقيون إن إطلاق النار لم يكن له مبرر، وكان غير متحكم به. يتذكر أحمد كريم من أهالى الفلوجة ويقول "كنا نهتف" لا إله إلا الله. وصلنا إلى مبنى المدرسة على أمل التحدث إلى الجنود لكنهم أخذوا يطلقون النيران بأسلوب

عشوائى. أعتقد أنهم كانوا يعلمون أننا عُزّل، لكنهم أرادوا أن يستعرضوا القوة لمنعنا من التظاهر".

قال حسن الذى يبلغ التاسعة عشرة من العمر "لم يكن لدينا سوى صورة واحدة لصدام. كان ثمة طلقات فى الهواء فى المنطقة، لكن هذا كان بعيدا جداً. لا أدرى لماذا بدأ الأمريكيون فى إطلاق النيران. حينما فعلوا ذلك، هرولنا مبتعدين". قال أحمد الصاوى، صَبىٌ، فى الخامسة عشرة، أُصيب فى ذراعه وساقه "كنا جميعا نحاول الهرب. أطلقوا علينا النيران مباشرة. كان الجنود خائفين جدا. لم يكن ثمة طلقات تحذيرية، ولم أسمع أية تحذيرات عبر الميكروفونات".

وفى لحظات، تحولت التظاهرة فى شارع حى النّزال إلى حمام دم. وصف أناس كثيرون مشهدا مروعاً لأشخاص مصابين -بينهم أطفال- يرقدون فى الشوارع فيما مضت القوات الأمريكية تُطلق النيران على من كانوا يحاولون إسعافهم. تذكّر فَلاَح نوار ضاهر الذى قُتل شقيقه فى ذاك اليوم" فجأة بدأوا فى إطلاق النيران علينا. استمر إطلاق النيران حتى هرَب الناس جميعهم. أطلقوا النيران حينما أتى الناس لأخذ المصابين. ثم مضوا يطلقون النيران على أشخاص بعينهم، بأسلوب القناصين". رأى معتز فهد الدليمى ابن عمه سمير على الدليمى يتعرض لإطلاق النيران من القوات الأمريكية: "كان هناك أربعة جنود أمريكيين على السطح- رأيتهم بعينى. كان هناك مدفع آلى ثقيل. استمر إطلاق النيران الأتوماتيكية لعشر دقائق. سقط البعض على الأرض. حينما وقفوا، أُطلقت عليهم النيران ثانية. "أيضا، قال سائقو سيارات الإسعاف إن قوات الولايات المتحدة قالوا لهم "عودوا من حيث أتيتم".

قالت ابتسام شمس الدين، ٢٧عاما، والتى تسكن بجوار المدرسة وأصابتها قذيفة فى ساقها "كنا نجلس بمنزلنا. حينما بدأ إطلاق النيران، حاول زوجى إغلاق الباب لمنع الأطفال من الخروج حينما أُطلقت عليه النيران". أصيب أكثر من خمسة وسبعين شخصا تلك الليلة، وقُتِل ستون على الأقل. كان بين القتلى ستة أطفال.

قال نانتز "كان الاشتباك حادا ودقيقاً. رد الجنود على من أطلقوا عليهم النيران، وإذا كان أشخاص آخرون قد أصيبوا، فهذا أمر مؤسف". سرعان ما أصبحت رواية الولايات المتحدة بشأن الأحداث موضع تحدٍ خطير حينما زار الصحفيون المنطقة. كتب فيل ريفز، مراسل الإندبندانت في تقرير له لصحيفته:

"لا توجد ثقوب طلقات نارية على واجهة مبنى المدرسة، أو علامات تدل على اشتباك بالأسلحة النارية. لا توجد أية علامات في المكان. وبالتقابل.. فثمة ثقوب طلقات مدافع آلية على جدران المنازل المواجهة للمدرسة. أسقطت تلك الطلقات كُتَلاً إسمنتية بحجم اليد وأحدثت ثقوبا بعمق طول قلمٍ جافٍ. حينما سُئل المقدم نانتز عن تفسيرٍ لعدم وجود ثقوب طلقات قال إن نيران العراقيين مرت من فوق رءوس الجند. رافقنا أحدهم لنرى ثقبي طلقات نارية بنافذة في الدور العلوي وبعض العلامات على الحائط، لكنها كانت في الجانب الآخر من مبنى المدرسة.

"ثمة أسئلة مقلقة أخرى. قال المقدم نانتز. إن الجنود تعرضوا لإطلاق النيران من منزل في الجهة المقابلة من الشارع، أرانا الأمريكيون عدة بنادق أوتوماتيكية خفيفة قالوا إنهم وجدوها في الموقع. وإذا كان هذا صحيحا، فإن العملية ترقى لكونها مهمة انتحارية عراقية -لن يكون لأحدٍ يهاجم موقعا من وضع ثابت على بعد ٤٠ ياردة فرصة للنجاة.

"زعْمُ الأمريكيين وجود ٢٥بندقية مع المتظاهرين يدل أيضا على أن المتظاهرين كان لديهم رغبة في الموت، أو أنهم كانوا أغبياء. لقد تعلم العراقيون في الأسابيع القليلة الماضية أنهم إذا لم يوقفوا سيارتهم بالسرعة الكافية لدى نقاط التفتيش التي يديرها الأمريكيون، ستُطلق النيران عليهم".

وجدت منظمة هيومان رايتس ووتش في تحقيقها الذي أجرته على أرض الواقع "أن الأدلة الفيزيقية بالمدرسة لا تدعم المزاعم بوقوع هجوم على المبنى بالأسلوب الذي وصفته القوات الأمريكية". أكد باحثو هيومان رايتس ووتش أن هذا "يتناقض بحدة" مع حال البيوت الموجودة في الجهة المقابلة من الشارع، والتي كانت تحمل

"علامات على أكثر من مائة من الإطلاقات الجماعية من قبل الجنود الأمريكيين- طلقات من أسلحة خفيفة ومدافع آلية ثقيلة على جدران محيط واجهات سبعة منازل من بين المنازل التسعة المواجهة للمدرسة أحدثت دمارا شديدا من بينها منازل أصيب كل منها بأكثر من دستة من الطلقات... لم تكن ثمة آثار للطلقات على الجدران العليا للمنازل، هذا على الرغم من مزاعم الجنود الأمريكيين بأنهم استهدفوا مسلحين على أسطح المنازل فى الجهة المقابلة".

مُحيت كل آمال الولايات المتحدة فى "كسب عقول وقلوب" الأهالى، ذلك الخطاب الذى ظلت تردده الإدارة بالفلوجة، محت الآمال تلك الليلة المخضبة بالدماء. فى اليوم التالى، سارت مواكب تشييع القتلى وفقا للتقاليد الإسلامية. عُلِّق علمُ عراقى مخضّب بالدماء خارج غرفة الطوارئ بالمستشفى المحلى، الذى كان يناضل من أجل علاج الجرحى، فيما انتشرت الأخبار سريعا فى أنحاء الفلوجة وأنحاء البلاد عن المذبحة. قال أحمد حسين، فيما كان يجلس بمستشفى الفلوجة مع ابنه ذى الثمانية عشر ربيعا، والذى تنبأ الأطباء بموته نتيجة إصابته "لن نسكت على هذا. عليهم مغادرة الفلوجة، أو سنجبرهم نحن على الرحيل". قارنت بعض الصحف الدولية الحدث بمذبحة "الأحد الدموى" عام ١٩٧٢، حينما فتحت القوات البريطانية النيران على المحتجين الأيرلنديين الكاثوليك، ذلك الحادث الذى ساعد على ازدياد شعبية الجيش الجمهورى الأيرلندى وحَشْدِه للمقاومة.

وفى يوم الأربعاء التالى للمذبحة، تدفق حوالى ألف شخص على شوارع الفلوجة للاحتجاج على أعمال القتل وللمطالبة برحيل القوات الأمريكية من المدينة. تجمعوا أمام المقر الرئيسى القديم لحزب البعث الذى كانت القوات الأمريكية قد استولت عليه مثلما فعلت بالمدرسة. قالت وكالة اليونايتد برس إنترناشونال إن "مشهد الشارع كان فَوضوياً، فيما كانت قوات الولايات المتحدة تصوب الأسلحة على الحشود من مبان تستخدمها الولايات المتحدة كمعسكر قاعدى، وكانت طائرتان شراعيتان من ماركة آباتشى تدوران فوق الرءوس وتطلق مدافعها النيران على

الجموع طوال الصباح". ومرة أخرى، انتهى الاحتجاج بسفك الدماء، حيث أطلقت القوات الأمريكية النيران وقتلت أربعة من المحتجين وأصابت ١٥ آخرين، على الأقل. وكما فى حادث المدرسة، زعم القادة الأمريكيون أن قواتهم كانت فى حالة دفاع عن النفس. لكن صحفيي التيار الرئيسى ناقضوا هذا. قال مراسل اليونايتد برس بالفلوجة، پ. ميتشل بروتيرو فى تقرير له عن الواقعة "لم يبدُ وأن أحدا من الموتى أو المصابين فى حادث يوم الأربعاء كان مسلحا، ولم يُظهر أى من المحتجين المتجمعين أية أسلحة من أى نوع. أنكر العراقيون، فى حوالى اثنى عشر حوارا مع شهود العيان أنه قد تم إطلاق النيران على القوات الأمريكية. إن الطلقات الفارغة الوحيدة التى وُجدت فى المنطقة هى تلك التى استخدمتها القوات الأمريكية، أى طلقات عيار 5.56mm لا طلقات عيار 6.62mm، التى يستخدمها العراقيون فى أسلحتهم المُفضلة".

قال شهود العيان إن رجلا تلقى طلقات فى وجهه وصدره. قال أصدقاؤه إنه أب لأربعة أطفال. قال الذين حاورتهم الواشنطون پوست إن دوريات قوات الولايات المتحدة تجوب أحياء الفلوجة "وتطلق النيران دونما اهتمام بحياة المدنيين". قال أستاذ الجغرافيا الدكتور أحمد جابر صعب والذى أصيب ابنا أخيه بطلقات القوات الأمريكية: "إن هذا يماثل تماما ما يحدث بفلسطين. لم أُصدِّق حتى رأيته بنفسى". سخر الشيخ تليد العيسوى، رجل الدين السنى، فيما كان يُجهز جثة للدفن، سخر من خطاب الولايات المتحدة "فهمنا معنى الحرية ومن ثم تظاهرنا. لكن إطلاق النيران الذى قوبلنا به لم يكن حرية. أثمة نوعان من الحرية، أحدهما لكم، والآخر لنا؟". انتشر هذا الإحساس فى المدينة. قال أحد الأهالى "هل هذه هى حرية بوش وتحريره؟" كان الرجل يسير بين مئات المشيعين لاثنين من القتلى. أضاف "لا نريد بوش. لا نريد أن نُحرَّر. سيُحرِر العراقيون أنفسهم".

وبعد ساعات قليلة من دورة القتل الثانية، هبط وزير الدفاع، رونالد رمسفلد فى مطار البصرة، وكان آنذاك أكبر مسئول يزور العراق. قال رمسفلد "المهم هو أن

أعدادا كبيرة من البشر الأذكياء النشطاء قد حُرِّروا. إنهم أُخرِجوا من تحت كعوب نظام وحشى شرير، وهذا أمر طيب". وفى الفلوجة، غادرت القوات الأمريكية مدرسة القائد، ورسّخوا مقرهم الرئيسى فى مراكز مكاتب حزب البعث سابقا. وعلى مقربة من المبنى علَّق أحدهم لافتة كُتب عليها "أيها القتلة الأمريكيون، سنطردكم من هنا".

أيضا، فى هذا اليوم تم نشر خطاب من صدام -الذى كان مازال مختبئا- يدعو فيه العراقيين لنسيان كل شئ ومقاومة الاحتلال. أعلن الخطاب أنه ليس ثمة أولويات سوى طرد المحتل الجبان المجرم الكافر. وأن الأيدى الشريفة لن تصافح أيدى المحتلين، بل تصافحها أيدى الخونة والعملاء. وفى تلك الأثناء، صرح البيت الأبيض أن الرئيس بوش سيعلن، فى اليوم التالى، نهاية العمليات الكبرى للقتال فى العراق من على ظهر البارجة الأمريكية إبراهام لينكولن -أى لحظة إعلانه "المهمة أنجزت" سيئة السمعة.

وفى الواقع، كانت الحرب الحقيقية قد بدأت لتوها، وكان مُقدَّرا لحوادث الفلوجة فى الثمانى وأربعين ساعة السابقة أن تلعب دورا حاسما فى تلك الحرب. فى تلك الليلة، أُلقيت قنبلة يدوية داخل المقر الرئيسى للقوات الأمريكية بالفلوجة، وأصيب سبعة جنود. وبعد لقاء لجماعة من أهالى الفلوجة بممثلين للولايات المتحدة فى محاولة لتحاشى مزيد من سفك الدماء، قال إمام المسجد الكبير بالفلوجة، الشيخ جمال شقير محمود، إن الأمريكيين قد تحاججوا بأن ثمة حاجة لوجود القوات الأمريكية للحفاظ على الأمن "لكن أهالى الفلوجة قالوا لهم إن الأمن مستتب لدينا". بالنسبة لأهالى الفلوجة، كانت مدينتهم محتلة رسميا. قال القائد المحلى محمد فرحان "بعد المذبحة، لا نصدق أن الأمريكيين أتوا لتحريرنا، لكن لاحتلالنا، نهب ثرواتنا، وقتلنا".

لم يستغرق الأمر كثيرا من الوقت حتى انتشرت أنباء المذبحتين اللتين ارتكبتهما الولايات المتحدة بالفلوجة فى أنحاء العراق والعالم العربى. فى غضون أسابيع

قليلة، بُثت أغانى شعبية فى الإذاعة، يُمتدح فيها أهالى الفلوجة لمجابهتهم قوات الاحتلال بشجاعة.

ظهرت أقراص ديفيديهات DVD فى الأسواق عليها صور من المذابح، تتخللها صور من عمليات المقاومة ضد قوات الاحتلال ومشاهد من الأفلام العربية الملحمية. فى إحدى الدفيديهات تظهر صور من فيلم "سقوط الصقر الأسود" تصور مذبحة الجنود الأمريكيين فى الصومال ويرافقها صوت المطرب الفلوجى صابح الهاشم الذى يقول فى أغنيته ما معناه: يا فلوجة، هاجمى قواتهم ولن يستطيع أحد إنقاذ جنودهم الجرحى. من أتى بك إلى الفلوجة يا بوش. سنَسقيك من نفس كأس الموت". ويُعلن فى أغنية أخرى أن أهالى الفلوجة كالذئاب حينما يهاجمون العدو.

سيبرهن هذا كله، بأسلوب غرائبى مخيف، على أنه نبوئى في غضون أقل من عام، حينما وجد أربعة جنود من بلاكووتر أنفسهم يقودون مركباتهم فى وسط مدينة الفلوجة. وفى نفس الوقت، وفى ضواحى واشنطون دى سى، كان خبير الإرهاب إل. بول برمر، الذى ينتمى للمحافظين الجدد يعد نفسه ليترأس بغداد، ويدير الاحتلال لإدارة بوش. وسرعان ما كان إريك برينس يُعدّ جنوده الخاصين ليعملوا حراسا شخصيين نخبويين لرجل بوش بالعراق.■

4

الفصل الرابع

حراسة رجل بوش في بغداد

وصل إل. بول برمر إلى بغداد فى ١٢مايو ٢٠٠٣، وانتقل ليحتل قصر صدام الجمهورى على ضفاف دجلة. ربما كان أهم إرث خلّفه برمر بالعراق، حيث عمل بروقنصلا لما يربو على العام، هو الإشراف على تحول البلد إلى بؤرة المقاومة المعادية للولايات المتحدة فى العالم بالإضافة إلى ترأسه لنظام فى العراق أنتج فسادا وابتزاز أموال متفشيا فى عالم التعاقدات الخاصة المُدرّة للأموال الهائلة. بنهاية مدة برمر، كان ثمة ٩بليون دولار من تمويلات إعادة التعمير قد اختفت دونما وجود وثائق عن أوجه صرفها وفقا للمراجعة المالية الشاملة التى قام بها مفتش عام أمريكى فى العراق. كانت إجابة برمر أن المُراجع المالى طبّق "معايير غير واقعية" على سلطة التحالف المؤقتة.

ومثل إريك برينس، فإن برمر تحول عن مذهبه وأصبح كاثوليكيا محافظا، ونَمتْ أسنانه فى الحكومة وهو يعمل للإدارات الجمهورية، ونال احترام البروتستانت الصليبيين الصهيونيين اليمينيين والمحافظين الجدد معا. فى منتصف السبعينيات، كان مساعد هنرى كيسنجر وزير الخارجية آنذاك. وأثناء إدارة ريجان، عمل سكرتيرا تنفيذيا

ومساعدا خاصا لألكسندر هيج وزير الخارجية القوى فى إدارة ريجان. وفي ذروة حروب ريجان الدموية بأمريكا الوسطي ترقي برمر لمرتبة سفير لجميع شئون الإرهاب. ترك برمر الحكومة فى نهاية الثمانينيات وانضم إلى القطاع الخاص كمدير عام لمنشأة كيسنجر الاستشارية "كيسنجر وشركاؤه". ويصفته "خبير إرهاب" مُفضّلاً فى أوساط المحافظين الجدد، كان برمر فاعلا فى تطوير المفاهيم لما سيصبح "الحرب على الإرهاب" ووزارة الأمن الداخلى. وقبل ٩/١١ بعام، احتج على خطوط السى آى إيه الإرشادية التى كانت "لا تشجع استئجار جواسيس إرهابيين" وتحاجج أنها يجب أن تُلغى تلك التعليمات من أجل السماح للسى آى إيه "بتجنيد مخبرين سريين والتعاقد معهم. حينما حدثت هجمات ٩/١١، كان برمر بالفعل أحد المعالم الثابتة فى أوساط "مكافحة الإرهاب" بعد أن كان رئيس مجلس النواب دنيس هاسترت قد عيّنه عام ١٩٩٩ رئيسا للمجلس القومى للإرهاب. فى وقت الهجمات،كان برمر مستشاراً رفيع المستوى للسياسة والمخاطر لشركة التأمين الكبرى مارتن وماكلينان. كان للشركة مقار رئيسية

بمركز التجارة العالمى يعمل بها ١٧٠٠شخص، توفى ٢٩٥منهم فى الهجمات.

بعد ٩/١١ بثمانٍ وأربعين ساعة كتب برمر فى وول ستريت جورنال "لابد أن يذهب قصاصنا أبعد كثيرا من الهجمات المترنحة العرجاء التى ظللنا نشنها طوال العقد الماضى، أى تلك العمليات التى قُصِد بها بعث "الإشارات" للإرهابيين بأننا جادون دون أن نزل بهم دمارا حقيقيا. وبالطبع، فقد برهن ضعفها (هجماتنا) على عكس ما أردناه. لابد من سحق الإرهابيين ومَن يدعمونهم هذه المرة. سيعنى هذا الحرب على بلد أو أكثر من بلد. وستكون حربا طويلة وليست حرباً تُصنع من أجل برامج المنوعات التليفزيونية. وكما فى كل الحروب، ستكون هناك إصابات مدنية. سنكسب بعض المعارك ونخسر أخرى. سيموت المزيد من الأمريكيين. وفى النهاية، سيكون بمقدور أمريكا أن تهيمن، بل إنها ستهيمن، كما نفعل دائما". انتهى برمر إلى التالى: "علينا أن نتحاشى السعى الغبى إلى "إجماع" دولى لعملياتنا. اليوم تُعبّر كثير من الأمم عن دعمها وفهمها للجراح الأمريكية. وغدا سنعرف من هم أصدقاؤنا الحقيقيون". أيضا، قال برمر فى ظهور له على قناة فوكس الإخبارية "آمل أن نتوافق على أن أية دولة تورطت بأى أسلوب، منحت أى نوعٍ من الدعم أو الملاذ الآمن لتلك المجموعة ستدفع الثمن النهائى".

وبعد شهر من أحداث ٩/١١، ترأس برمر قسما جديدا فى شركة مارش ومكلينان متخصصاً فى "التأمين ضد الإرهاب" للشركات عبر القومية. سُمِّى القسم "ممارسة استشارات الأزمات" وعرض على الشركات "خدمات شاملة مضادة للإرهاب". كتب ناعومى كلاين فى مجلة نيشن يقول "كى يبيع برمر هذا التأمين الباهظ إلى الشركات الأمريكية، كان عليه أن يصطنع روابط صريحة بين الإرهاب والاقتصاد الكوكبى المتردى، تلك الروابط التى كان النشطاء يوصفون بالجنون حينما يقولون بوجودها. يُبين برمر فى ورقة بحثية بعنوان "المخاطر الجديدة فى البيزنس الدولى" فى نوفمبر ٢٠٠١، أن سياسات التجارة الحرة تتطلب الاستغناء عن كثير من العاملين. كما أن فتح الأسواق أمام التجارة الأجنبية يضع ضغوطا هائلة على تجار التجزئة التقليديين وعلى الاحتكارات التجارية. وبدوره، يؤدى هذا إلى فجوات فى الدخول وتوترات اجتماعية، مما يؤدى إلى هجمات من

الإرهابيين على مرافق الولايات المتحدة وشركاتها، وحتى إلى محاولات الحكومات عكس مسيرة الخصخصة أو تقليص حوافز التجارة". شبه كلاين برمر بهاكر الحاسوبيات الذى "يُعوّق مواقع الشركات على الشبكة ثم يُسوّق نفسه بصفته متخصصا فى أمن الشبكات." وتنبأ أنه "فى خلال أشهر معدودة سيبيع برمر التأمينات ضد الإرهاب إلى ذات الشركات التى رحب بها داخل العراق". وبعيد وصول برمر إلى بغداد، أعلن جفرى جرينبرج، رئيسه السابق بشركة مارش ومكلينان أن "عام ٢٠٠٢ كان رائعا بالنسبة للشركة؛ وصل نقل ناتج التشغيل إلى ٣١٪... كما أنه كان ثمة طلب هائل على خبرة الشركة فى تحليل المخاطر ومساعدة العملاء لتطوير برامج إدارة المخاطر... لم تشهد فرصنا المستقبلية وقتا أفضل أبدا".

فى أواسط إبريل ٢٠٠٢، اتصل رئيس العاملين لدى ديك تشينى، أى. لويس ليبى، وبول وولفويتز نائب وزير الدفاع ببرمر حول توليه "وظيفة إدارة الاحتلال بالعراق". وبمنتصف مايو كان برمر قد وصل إلى بغداد. على الفور وُجِه تعينه مديرا لإعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية، ورئيسا لسلطة التحالف المؤقتة بجدل خلافى، حتى بين هؤلاء الذين كانوا قد عملوا معه. وصفه مسئول سابق كبير فى وزارة الخارجية كان قد عمل معه بأنه "انتهازى ضارٍ، وطموح شَرِه "وأضاف" إن ما يعرفه عن العراق لا يملأ كُستبان". قال كلاين، إن إدارة بوش لا تبحث عن متخصص فى العراق فى شخص برمر، لكن الأحرى أنها اختارته لأنه "خبير فى التربح من الحرب على الإرهاب، وفى مساعدة الشركات عبر/القومية لجمع الأموال فى أماكن بعيدة لايحظون فيها بشعبية ولا يلقون ترحيبا. بتعبير آخر إنه الرجل المثالى لهذا المنصب". وبالتأكيد، يبدو أن هذا كان رأى هنرى كيسنجر الذى قال، آنذاك، عن برمر "لا أعرف أى أحد يفضله فى تأدية تلك المهمة".

حل برمر محل الجنرال جاى جارنر، الذى بدا عازما على إنشاء حكومة عميلة بالأسلوب الأفغانى والحفاظ على مظهر خادع لإدارة عليا ذاتية عراقية، فيما يمضى فى العمل على ضمان التواجد الدائم للولايات المتحدة بالعراق. كان جارنر، الذى استمر فى منصبه ثلاثة أسابيع، موضع انتقادات شديدة، لكن، من المؤكد أنه كان أقل طموحا من خليفته فيما

يتعلق بجعل العراق معملا للسوق الحرة كما تخيله الكثيرون فى الإدارة الأمريكية وإنتلجنسيا المحافظين الجدد. كان جارنر، وفقا لمعظم التقارير، رجلا عسكريا، وليس شخصا مؤدلجا ملتزما. وصفت الواشنطون تايمز برمر بأنه "صقر صلب المنقار مُقرّب من جناح المحافظين الجدد بالبنتاجون". تأكد هذا أكثر من حقيقة أن ديك تشينى أرسل مساعده الخاص، بريان ماكروماك إلى بغداد كى يعمل مساعدا لبرمر. وكما هو معروف، فقد اعتمد برمر اعتمادا كبيرا على أحمد جلبى، المنفى العراقى الموصوم، من أجل النصائح فيما يخص السياسات الداخلية العراقية. وبمجرد وصوله إلى العراق، نظرا إليه بعض العراقيين بصفته صدّاما جديدا، فيما أخذ يصدر المراسيم مثل إمبراطور، ويسحق آمال العراقيين فى إدارة شئونهم بأنفسهم. لدى وصوله إلى هناك قال برمر "إن الاحتلال لفظ بغيض. لكنه حقيقة".

وأثناء السنة التى قضاها فى العراق كان برمر "نائب ملك" مولعا بالمجابهات، جاب البلاد وهو يرتدى بذلات كاملة ماركة برووكس برادرز النخبوية وأحذية ماركة تيمبرلاند الأرستوقراطية. وصف نفسه بأنه "الشخص الوحيد الذى عرفه العراقيون ذو السلطة اللامحدودة- باستثناء الديكتاتور صدام حسين". كانت أول مبادرة رسمية لبرمر، قيل إنها من بنات أفكار رمسفلد، ودوجلاس فيث نائبه الذى ينتمى للمحافظين الجدد، هى حل الجيش العراقى وبدء عملية "اجتثاث البعث"، الأمر الذى كان يعنى فى العراق إقصاء بعض أفضل عقول البلد عن عملية إعادة التعمير ونفيهم من الحياة السياسية لأن عضوية البعث كانت متطلبا لتولى كثير من الوظائف فى عهد صدام. نتج عن "المرسوم رقم واحد" الذى أصدره برمر فصل آلاف من المدرسين، الأطباء، الممرضات وغيرهم من العاملين فى الدولة، فيما أشعل (مزيدا من مشاعر الغضب) والإحباط. رأى العراقيون أن برمر كان يتبنى الأسلوب الذى حكم به صدام وتكتيكاته فى مطاردة المعارضين السياسيين. وعلى المستوى العملى، بعثت خطوات برمر برسالة حاسمة إلى عراقيين كثيرين بأنهم لن يكون لهم رأى فى مستقبلهم، وهو مستقبل بدا، ويتزايد، كئيبا ومألوفا. أما قرار برمر "رقم اثنين" -حل الجيش العراقى- فكان يعنى إجبار ٤٠٠ ألف جندى عراقى على ترك العمل وتسريحهم دونما إعطائهم معاشات تقاعد. قال أحد المحللين العرب "كان الجندى العراقى

يتقاضى ٥٠ دولاراً شهريا. والإبقاء على إطعام هؤلاء الرجال وعائلاتهم لمدة عام يتكلف ما يتكلفه الاحتلال فى ثلاثة أيام. إذ جوّعت رجلا، يصبح مستعدا لإطلاق النيران على المحتل". كتب أنطونى شديد، الحائز على جائزة بوليتزر ومراسل الواشنطون بوست، فى كتابه عن العراق بعنوان "الليل يقترب" والنتيجة النهائية لقرار برمر بإلقاء أكثر من ٣٥٠٠٠٠ ضابط ومجند فى الشارع، رجال لديهم بعض التدريب العسكرى على الأقل، هو الخلق الفورى لمستودع من المجندين المحتملين لحرب العصابات (لديهم ما يقارب مليون طن من الأسلحة والذخائر من جميع الأنواع متاحة دونما قيود فى أكثر من مائة مستودع، دونما حراسة فى غالبيتها، فى جميع أرجاء البلاد)". ذكر مسئول أمريكى أن عدد الجنود العراقيين المُسّرحين كان أكبر كثيرا حيث قال لنيويورك تايمز مجازين "كان هذا هو الأسبوع الذى صنعنا فيه ٤٥٠٠٠٠عدو على الأرض فى العراق". وتبعا لأوامر برمر، مُنح بعض الجنود مرتب شهر كمكافأة نهاية خدمة، فيما لم يحصل القادة على أى شئ. وبعيد إصدار مرسوم برمر بدأ الجنود العراقيون فى تنظيم مظاهرات حاشدة خارج مكاتب الاحتلال -كثير منها فى قصور صدام. قال المقدم أحمد محمد الذى قاد احتجاجا بالبصرة "إذا أتيح لنا أن نقاتل لاستمرت الحرب حتى الآن. ولما تمكن البريطانيون والأمريكيون من دخول قصورنا أو السير فى شوارعنا. لقد سمحنا لهم بالدخول". ثم وجّه التحذير التالى" لدينا أسلحة فى المنازل. إذا لم يدفعوا مستحقاتنا، إذا تسببوا فى معاناة أطفالنا، ستصلهم رسائلنا". وتعهد الرائد عصام حسين النعيم فى تحذير منذر آخر "سنشرف نحن على الهجمات الجديدة على المحتلين. نعلم أن الشعب العراقى سيؤيدنا".

وفى تلك الأثناء، فاقم برمر الأوضاع حينما أخمد المطالب العراقية بانتخابات مباشرة، وبدلا من ذلك أنشأ مجلس "شورى" عراقى من خمسة وثلاثين عضوا خاضعا لتحكمه الكلى، ويملك هو حق استخدام الفيتو على قراراته. حظر برمر إشراك جماعات سنية كثيرة فى هذه الهيئة، وأيضا أتباع القائد الشيعى مقتدى الصدر، هذا بالرغم من حقيقة وجود أتباع كثيرين لهم فى العراق. قال إبراهيم الجعفرى، الذى تولى رئاسة الوزراء فيما بعد إن إقصاء هؤلاء "أدى إلى وضع أصبحوا فيه عناصر عنف". وفى غضون شهر من وصول برمر، بدأ الحديث عن انتفاضة قومية. أعلن رياض الأسدى، أحد شيوخ العشائر، بعد

مقابلة مع المسئولين الأمريكيين الذين عرضوا خطة برمر للعراق "الشعب العراقى بكمله قنبلة موقوتة ستنفجر فى أوجه الأمريكيين إذا لم يُنهوا احتلالهم. لم يقاتل كثير من الشعب العراقى الأمريكيين فى الحرب، رجال صدام فقط هم من قاتلوهم. لكن إذا قرر الشعب قتالهم الآن سيجد الأمريكيون أنفسهم فى وضع خطير". تجاهل برمر بإصرار تلك الأصوات العراقية، وفيما أخذت التبعات الدموية لقرار حله الجيش تنتشر، عظّم من خطاباته الملتهبة. أعلن "سنحاربهم ونفرض إرادتنا عليهم، وسنقوم باعتقالهم، ويقتلهم إذا اقتضى الأمر، حتى نفرض القانون والنظام على هذا البلد".

وبحلول يوليو ٢٠٠٣، بدأ برمر يشير إلى العراق باستخدامه صيغة الجمع من ضمير المتكلم قال "سنصبح فى النهاية بلدا غنيا. لدينا نفط، لدينا مياه، لدينا أرض خصبة، ولدينا أشخاص رائعون". ووفقا لما جاء بتايم مجازين، قام برمر بجولة فى المتحف الوطنى العراقى بعد عملية النهب الكبيرة لكنوز العراق الوطنية -الذى شارك فيها عسكريون وصحفيون أمريكيون. وفيما كان مسئولو المتحف يُرونَ برمر مجموعة من الذهب والمجوهرات القديمة طلب برمر بتَورية "أيها يمكننى أخذها معى لإهدائها لزوجتى؟". ولدى قوله هذا، وفقا للتايمز "قاطعه أحد أفراد فرقة أمن المتحف مُبلغا إياه تقارير عن أربع هجمات بالقنابل قرب مقره الرئيسى بالقصر. وبعيد دقائق، استقل برمر السيارة SUV التى كانت تنتظره وتوجه إلى قصره، بعد أن صافح مسرعا عددا قليلا من الأفراد قبل رحيله. وفى وقت متأخر من ذلك اليوم قُتِل جندى أمريكى بإطلاق النار عليه فيما كان يقوم بحراسة المتحف".

أيضا، لم يجد أى حرج فى الحديث عن توجهاته الدينية. قال للمتعصب الدينى الجنرال جيرى بويكين، وهو يتحدث عن تلقيه توجيهاته من الرب "ليس لدى أى شك فى إمكانية نجاحى فى هذه المهمة بمساعدة من الرب". قال برمر بعد شهر من وصوله إلى بغداد "إن المهمة ببساطة أكبر وأعقد من قدرات شخص واحد، أو مجموعة من الأشخاص، لتنفيذها بنجاح.. نحن بحاجة إلى مساعدة الرب وإرشاده، ونسعى إليها باستمرار". ويبدو أن هذا منظور عائلى. ترشح دانكان، شقيق برمر، للكونجرس فى دائرة جيمس دوبسون مؤسس

"بؤرة على الأسرة" بكلورادو. قال "أريد أن أكون رجل الرب بواشنطون". ترشح على برنامج اليمين المتطرف الانتخابي، وعارض أية استثناءات لحظر الإجهاض لضحايا الاغتصاب أو زنا المحارم. قال "في هذه الحالة، فإننا نقتل الشخص الخطأ". وفي أثناء حملته الانتخابية الفاشلة، استعرض دانكان برمر دور شقيقه في العراق كدليل على خبرته هو في السياسة الخارجية، قائلا إنه قد زار العراق حينما كان بول برمر على رأس الاحتلال هناك. أعلن دانكان أثناء حملته "على حين أنني أفضل أن يتحول الجهاديون الإسلاميون إلى اعتناق نظرتي الخاصة للعالم (عقيدتي الدينية) ويجنوا فوائدها، فإن هدفي هو وجوب تخليهم عن نظرتهم إلى العالم ونسختهم الخاصة من الإسلام كي يمكننا تحقيق عالم سلام. ومن وجهة نظر جيوسياسية، فليس من المهم أن يتحولوا إلى "إسلام مسالم"، إذا وُجد هكذا دين، أو إلى البوذية، أو أي شئ آخر المهم أن ينبذوا أيديولوجيتهم الدينية". أخبرت فرانسي، زوجة بول برمر، التي أسماها دوبسون "مقاتلة من أجل الصلاة" أبلغت إصداراً مسيحيا أن زوجها "ينظر إلى مهمته في العراق بصفتها فرصة للإتيان بالنور والحرية المسيحية الصليبية إلى شعب العراق بعد عقود من الظلام".

لكن حماس برمر وتعصبه لم يقتصرا على الدين. لدى وصوله، تحرك سريعا كي يبدأ في تأسيس رؤية المحافظين الجدد في العراق، مبشرا بما صنفه ناعومي كلاين على أنه "سنة صفر في بغداد". وفي وفاء منه لالتزاماته وعقيدته، أعلن برمر أن العراق كان "مفتوحا للبزنيس". كان الجزء الأهم في خطته هو خصخصة الصناعة النفطية بالعراق على وجه السرعة. كتب كلاين، الذي سافر إلى العراق أثناء فترة برمر، بالتفصيل عن حكمه، ووصف تبعات إدارته العليا القائمة على إصدار المراسيم:

"سن برمر قائمة من القوانين الراديكالية غير المسبوقة في سخائها إزاء الشركات متعددة/الجنسية. كان هناك المرسوم رقم ٣٧ الذي خفض معدل الضريبة الشركاتية بالعراق من حوالي ٤٠٪ إلى ١٥٪. ثم كان المرسوم رقم ٣٩ الذي سمح للشركات الأجنبية بتملك ١٠٠٪ من الأصول العراقية خارج قطاع الموارد الطبيعية. أما الأفضل، فكان السماح للمستثمرين بأخذ ١٠٠٪ من أرباحهم التي حققوها بالعراق إلى خارج البلد، لم

يُتطلب منهم إعادة الاستثمار أو دفع ضرائب عن أرباحهم. وفى ظل المرسوم رقم ٣٩، سُمِح لهم بتوقيع عقود إيجارات وعقود أخرى مدتها أربعون عاما. رحب المرسوم رقم ٤٠ بالبنوك الأجنبية بالعراق بنفس الشروط المواتية. أما ما تبقى من سياسات صدام حسين الاقتصادية فكانت هى القوانين التى تُقيد النقابات التجارية والتصافقات الجماعية.

"وإذا بدت هذه السياسات مألوفة، فإن هذا يرجع إلى أنها هى ذاتها التى تضغط الشركات متعددة الجنسية فى أنحاء العالم على الحكومات القومية لتنفيذها، ومن أجل تحققها فى صورة معاهدات التجارة الدولية.

"وعلى حين أن تلك "الإصلاحات" تنفذ عادة جزئيا فقط، أو على نحو متقطع، فقد أتى برمر بها جميعها دفعة واحدة. وبين عشية وضحاها، تحولت العراق من وصفها كالبلد الأكثر عزلة فى العالم، إلى السوق الأكثر انفتاحا، على الورق".

وبعيد تولى برمر السلطة ببغداد، كتب الاقتصادى جِف مادريك بالنيويورك تايمز: "بأى معيار اقتصادى سائد، فإن الخطة التى وافق عليها بالفعل بول برمر، الأمريكى الذى يتولى شئون سلطة التحالف المؤقتة، هى خطة متطرفة -وحقا مذهلة. ستعمل سريعا على جعل الاقتصاد العراقى من أكثر الاقتصادات المفتوحة أمام التجارة الأجنبية وتدفق الأموال فى العالم، وتضعه بين الأقل خضوعا للضرائب فى العالم، سواء فى الدول الفقيرة أم الغنية... يبدو أن المخططين للعراق، ومن بينهم إدارة بوش، يفترضون أن بإمكانهم محو جميع ما تراكم من سياسات عراقية". ثم يقرر بجسارة أن خطة برمر "ستتيح لحفنة من البنوك الأجنبية الاستيلاء على النظام المصرفى المحلى".

بدا من الملائم إذن ألا توكل حراسة، برمر، المسئول الأمريكى الأول بالعراق، ووجه الاحتلال العلنى، إلى قوات حكومة الولايات المتحدة، أو رجال الأمن العراقيين، بل إلى شركة مرتزقة خاصة -شركة أسسها شخص يمينى مسيحى أغدق عشرات ألوف الدولارات على خزائن الحملات الانتخابية للجمهوريين.

بمنتصف أغسطس، أى بعد ثلاثة أشهر من وصول برمر إلى العراق، غدت هجمات

المقاومة على قوات الولايات المتحدة والمتعاونين (العملاء) العراقيين شأنا يوميا. قال برمر في ١٢أغسطس "نعتقد أن لدينا تهديدا إرهابيا كبيرا في البلد، وهذا أمر جديد. ننظر إليه بجدية كبيرة". ومثلما كان الحال في ظل أوضاع العنف في السنوات السابقة بأمريكا، فقد كان من المحتم أن تُحوِّل الفوضى في العراق إلى نجاح مالي لبلاكووتر. في ٢٨ أغسطس ٢٠٠٣، فازت بلاكووتر بعقد قيمته ٢٧.٧ مليون دولار، دونما مناقصة، كي تكون المصدر الوحيد لتوفير ضباط مهمات خاصة، وطائرتين شراعيتين لتأمين الحراسة الشخصية لبول برمر أثناء تنفيذه عمله، كليّ الأهمية، لترسيخ برنامج المحافظين الجدد بالعراق. يتذكر جاري جاكسون، رئيس مجلس إدارة بلاكووتر "ذهب مخبر سري إلى هناك، وقام بتقدير للأوضاع ثم قال" أتعلمون، إنها أوضاع أشد خطورة، كثيرا كثيرا مما توقعه أي منا؛ من ثم، أتوا إلينا". كتب برمر يقول "إن وجود بلاكووتر أكد الحس بأن العراق قد أصبح أكثر خطورة". كان الرجل الذي أنيط به رئاسة فريق بلاكووتر لحراسة برمر هو فرانك جالاجر، الذي عمل رئيسا للفرقة الخاصة لحراسة أمن هنري كيسنجر في التسعينيات حينما كان برمر يعمل معه. قال برمر "عرفتُ فرانك وأحببته. وثقت به بشكل كلي".

جعلت السياسات النيوليبرالية التي تبناها برمر ودعا إليها طوال حياته الوظيفية، والتي كان يطبقها في العراق، جعلت من الممكن له استخدام مرتزقة بلاكووتر حرسا شخصيا له. كانت تلك لحظة انطلاق فاصلة في العملية التي كان ديك تشيني، وزير الدفاع آنذاك، قد أطلقها في بداية التسعينيات حينما استأجر براون آند رووت "لدراسة التعاقدات الخارجية على الأنشطة اللوجستية". مثلت أيضا نقلة كبيرة بعيدا عن المبدأ الذي ظل يُعمل به والذي كان ينص على أن "الجيش الأمريكي لا يُحوِّل مهام عملياتية حساسة إلى المقاولين الخاصين" وفقا لما يقوله بيتر سينجر في كتابه "المحاربون الشركاتيون". ثم يضيف "كما أنك لا تضع المقاولين في مواقف يحتاجون فيها إلى حمل السلاح.... والآن، فالمقاول الخاص المسلح مناط به مهمة الإبقا على حياة برمر –لا يمكن أن توجد مهمة حساسة عملياتياً أكثر من هذه". مثلت خصخصة فرقة حماية برمر، مباشرة، لحظة فاصلة بالنسبة لشركات المرتزقة.

قالت مجلة فورتشن فى تقرير لها "كانت الأجور المعيارية لعضو فريق الأمن الخاص PSD بالعراق سابقا حوالى ٣٠٠ دولار فى اليوم. وبمجرد أن بدأت بلاكووتر فى إبرام التعاقدات لمهمتها الكبيرة الأولى، قفز هذا الرقم ليصبح ٦٠٠ دولار فى اليوم عن كل فرد". وصفت بلاكووتر مشروعها لحماية برمر على أنه "عقد تسليم مفاتيح (أمن شامل متكامل)." قال كريس تايلور نائب رئيس الشركة أن المهمة "لم تكن تطلب حماية تنفيذية عادية: كانت عبارة عن حل هجين من مهمات فرق الأمن الخاصة PSD الذى كان مقررا لهم أن يستخدموا فى أى مكان. وفى استجابة لهذا، طورت بلاكووتر برنامج PSD قتالى جديد لضمان سلامة السفير برمر وسلامة أى سفير يأتى بعده". زودته الشركة بستة وثلاثين "من المتخصصين فى "حماية الأفراد"، وفريقى K-9، وثلاث طائرات بوينج هليكوبتر MD-530 بطياريها لانتقالاته فى أنحاء البلد.

قال المتحدث باسم الشركة إن بلاكووتر كان لديها فى أكتوبر ٢٠٠٣ ثمانية وسبعون من العاملين في العراق، لكن سرعان ما انفجر هذا الرقم. فبعد شهر من فوزها بعقد برمر، سجلت بلاكووتر قسم أمن جديداً مع وزير خارجية كارولاينا الشمالية. تخصص قسم الاستشارات الأمنية LLC هذا فى "توفير متخصصين مؤهلين فى الأمن الوقائى PSS لمكتب الأمن الدبلوماسى التابع لوزارة الخارجية الأمريكية بهدف القيام بعمليات أمنية وقائية فى العراق". رفع عقد برمر، رسميا، مكانة بلاكووتر إلى نوع من "الحارس الإمبراطورى" فى الحرب على الإرهاب، وهى مكانة ستفتح أبواباً كثيرة فى عالم التعاقدات العسكرية الخاصة. لم يمض وقت طويل حتى فازت بلاكووتر بعقد هائل مع وزارة الخارجية لتوفير الأمن لكثير من مسئولى الولايات المتحدة بالعراق، وليس فقط لجناب السفير برمر. وسرعان ما ازدانت الشارة العليا لموقع قسم الأمن لبلاكووتر على الشبكة الإلكترونية بصورة بول برمر مثلما ازدان الموقع، فيما بعد، بصور مرتزقة بلاكووتر وهم واقفون حول كولن باول وطونى بلير.

أتى رجال بلاكووتر معهم بسمات اليانكى إلى مهمة برمر، ووفقا لغالبية التقارير، جسدوا الوجه القبيح للشخصية الأمريكية لدرجة الكمال. نُحت حراسها كهؤلاء الذين يحترفون

تطوير كمال الأجساد، وكانوا يرتدون نظارات شمس فظة تَلُف محيط الرأس. كان للكثيرين منهم لحى صغيرة ويرتدون بزات عسكرية كاكي عليها صدريات واقية، أو تى شيرتات بلاكووتر عليها علامة مخلب الدب التجارية، والأكمام مشمرة. بدا بعضهم مثل الكاريكاتورات، شخوص أفلام أكشن حية، أو مصارعين محترفين. شعورهم قصيرة، ويضعون سماعات أمن فى آذانهم، ويحملون بنادق آلية خفيفة. مضوا يصدرون الأوامر للصحفيين، ويأمرون السيارات العراقية بعدم السير فى الطرق، أو يطلقون النار عليها إن هى اعترضت طريق موكب لبلاكووتر. قال كيلى كيبهارت مقاول سابق كان يعمل مع بلاكووتر "ترى صور رجال بلاكووتر فى الإعلام محملين حتى الذقون بالمسدسات، مدافع M-4، وأيديهم ممدودة لخطف الكاميرات. ثمة سبب لهذا. لا أريد أن يظهر وجهي على شاشة الجزيرة. آسف". كان كيبهارت يتولى حراسة جون نجروبونتى، خليفة برمر فى العراق.

تحوم المروحيات، والقناصون فوق وسائل نقل أفراد بلاكووتر، كتحذير منذر لكل من هو أسفل. يقول الكولونيل توماس إكس. هامس، المسئول العسكرى الأمريكى الذى أنيط به إنشاء جيش عراقى جديد، بعد أن سرح برمر الجيش القديم" خلقوا لأنفسهم أعداء فى كل مكان. كنت أركب الشاحنات العراقية مع العراقيين، وكان مرتزقة بلاكووتر يأمروننى أن أغادر الطريق. كانوا يهددوننا ويخيفوننا. لكنهم كانوا يقومون بمهامهم، تلك التى كانوا يتقاضون أجورهم عنها تماما، وبالأسلوب الذى كانوا يتقاضون عنه الأجور، وكانوا يخلقون الأعداء فى كل ممر إلى خارج المدينة". قال هامس إن سلوك بلاكووتر الزاعق فى حراسة برمر كان خرقا لـ"القاعدة الأولى" لمحاربة التمرد– التى تقول. "إنك لا تصنع أعداء أكثر". كانوا يحصلون على عقدنا وينفذونه تماما كما طلبنا منهم، وفى نفس الوقت كان يُلحقون الضرر بجهودنا لمكافحة التمرد". أبلغ ضابط استخبارات مجلة تايم "رجال بلاكووتر هؤلاء... يتجولون بسياراتهم وهم يرتدون نظارات شمس ماركة أوكلى ويُصوبون مدافعهم من نوافذ السيارات. صوبوا مدافعهم نحوى وأصابنى هذا بالغضب والإحباط. تخيل ما يعتقده أهالى الفلوجة". ساعد آل كلارك، أحد مؤسسى بلاكووتر، على تطوير إجراءات التدريب بالشركة. قال كلارك "فى الولايات المتحدة يُقلقنا من يصدمون الآخرين

بسياراتهم ويهربون لكن عليك التخلص من هذا الشعور فى بغداد. باستطاعة سيارتك أن تكون سلاحا وزنه ٣٠٠٠ رطل حينما تحتاجه. اضرب واجر. ثق بى. لن تأتى الشرطة إلى منزلك لأنك غادرت مشهد الحادث".

حدثت حالة بينة للإفلات من العقوبة رغم تورط حراس بلاكووتر فيها فى مايو ٢٠٠٤. حقق تى كريستيان ميلر مراسل لوس أنجيليس تايمز فى الواقعة بدقة وكتب تقريرا عنها. كان روبرت جيه. كالاهان المتحدث باسم السفارة الأمريكية فى بغداد فى سبيله لإنهاء دورة عمله وكان يقوم بجولات لتوديع بعض الصحفيين والمنظمات الإعلامية فى العاصمة العراقية. ووفقا لميلر "وكما هو المعتاد لمسئولى وزارة الخارجية اعتمد كالاهان على بلاكووتر فى توفير مواصلاته فى أنحاء بغداد". وفى طريق عودته من أحد المجمعات الإعلامية "انعطف موكب كالاهان، المكون من خمس مركبات إلى طريق رئيسى عريض يتخلل حى مسبح، وهى منطقة بها مبانى من خمسة طوابق تضم مكاتب ومحلات تجارية بالطوابق الأرضية". ووفقا لميلر، كان محمد نورى حطب، ٣٢عاما، يقود شاحنته الصغيرة الذى يعمل عليها فترة مسائية إلى جانب وظيفته، ينقل راكبين كانا قد استقلا شاحنته لتوهما. يقول ميلر "نظر حطب ورأى موكب كالاهان أمامه ينثنى بسرعة من الشارع الجانبى. أبطأ سيارته كى يتوقف على بعد خمسين قدما من الموكب حينما سمع دوى إطلاق نار، كما قال اخترقت الرصاصات كبوت سيارته، وأصابت كتفه، واخترقت صدر ياس على محمد ياسيرى، ١٩عاما، الذى كان يجلس فى المقعد الخلفى وأردته قتيلا" قال حطب "لم يكن ثمة تحذير، كان هجوما مفاجئا".

قال ميلر فى تقرير له "إن مسئولاً فى السفارة الأمريكية قال إن المسئولين راجعوا حادث إطلاق النيران وقرروا أن رجلى بلاكووتر اللذين كانا بالموكب ذاك اليوم لم يتبعا الإجراءات الصحيحة بتحذير حطب بالتوقف بعيداً، بدلاً من ذلك فتحا النيران قبل التحذير". قال المسئول إن الرجلين فُصِلا ورُحِّلا. لكن حتى وقت كتابة هذا لم يُقدَّم الشخصان للمحاكمة. حصل ميلر على مئات الصفحات من تقارير عن الحوادث التى تورط فيها المقاولون العسكريون الخاصون بالعراق. قال "حوالى ١١٪ من تقارير عن مائة حادث تورط فيها

مقاولون أطلقوا النيران على سيارات مدنيين وفى غالبية الحالات لم تطلق السيارات العراقية النيران على المقاولين".

يتوافق أسلوب بلاكووتر مع مهمة برمر بالعراق إلى حد الكمال. وحقا، فمن الممكن القول إن برمر لم يتلق فقط الحماية من مرتزقة بلاكووتر نوي الإعداد الفائق، لكن أيضا من وقائع معمل السوق الحرة كلى القوة الذى كان يديره بالعراق. وحقا، فيبدو أن تلك القوات هى ما كان برمر يراهن عليه لبقائه حياً حتى ينجز مهمته بالعراق -إذا حدث ومات هو، فإن سمعة بلاكووتر ستُطلق عليها النيران. تساءل الكولونيل هاس "إذا فقدت بلاكووتر مسئولاً فى هامة برمر، سيكون مصيرها الإفلاس، أليس كذلك هل تستطيع تخيل بلاكووتر، وهى تحاول الحصول على العقد التالى وتقول إن أداءها كان جيدا بالعراق لمدة أربعة أشهر ثم قُتِل (برمر). سيجيب العميل بأنه سيحاول البحث عن شركة أخرى.. مشكلة بلاكووتر هى أنه إذا قُتِل الشخص المهم الأول المناط بها حمايته، فَستُغلق أبوابها. أما بالنسبة للجيش، فإذا حدث وقُتِل الشخص المهم الأول، سيعتبر هذا أمرا سيئا، وستحيث مراجعات بعد العملية لكن لن يتوقف بيزنس أحد".

كان الإبقاء على بول برمر حياً يوفر لبلاكووتر حملة تسويقية خيالية: إذا كان باستطاعتنا توفير الحماية لأكثر شخصية مكروهة فى العراق، فبإمكاننا حماية أى شخص فى أى مكان. وحقا، ففى غضون أقل من عام نشر أسامة بن لادن شريط ڤيديو يقدم فيه جائزة لقتل برمر. قال فيه إن أمريكا قد وعدت بجوائز كبرى لمن يقتل المجاهدين، ثم أعلن أن تنظيم القاعدة سيمنح ١٠٠٠٠ جرام من الذهب لأى شخص يقتل برمر المحتل، أو القائد العام الأمريكى أو نائبه فى العراق. أيضا، أعلنت المقاومة عن جائزة ٥٠٠٠٠ دولار لمن يقتل أيا من حراس بلاكووتر. قال كيبهارت مقاول بلاكووتر السابق "كانت ثمة أثمان للحصول على رءوسنا هناك. وكنا جميعا نعلم ذلك".

قال برمر إنه بعد أن اضطلعت بلاكووتر بمهمة أمنه "قامت الخدمة السرية للولايات المتحدة، وبناء على طلب رمسفلد، بعمل مسح أمنى عنى، وانتهت إلى أننى أكثر مسئول أمريكى مهدَّد فى العالم.. ذكر أحد التقارير، الذى أخذته بلاكووتر على محمل الجد، أنه قد تم

استنجار أحد الحلاقين العراقيين بالقصر لقتلى وهو يقص لى شعرى". وبعد ذلك نقلت بلاكووتر برمر إلى فيلا فى أراضى القصر كانت مخصصة لحماة قصّى، نجل صدام.

فى ديسمبر ٢٠٠٣، وبعد ثلاثة أشهر من اضطلاع بلاكووتر بحراسة برمر، وقعت أول هجمة مقاومة، أُعلن عنها رسميا، على حياة البروقنصل. حدثت ليلة ٦ ديسمبر، بُعيد توديع برمر لرمسفلد فى مطار بغداد الدولى. قال برمر "كانت الساعة بعد الحادية عشرة مساء حينما ركبتُ مع بريان ماكورماك (مساعده) فى سيارتى SUV المصفحة للعودة إلى المنطقة الخضراء. كان الموكب يتألف -كالمعتاد من سيارتىْ هامفى مصفحتين ومغلفتين بألواح دباغية من الفولاذ المقوى، وسيارة سابربان مصفحة بالزنك، وسيارتان ومركبة مصفحة أخرى تتبعنا، وسيارتين أخريين ماركة هامفى. وكان ثمة طائرتان هليكوبتر تتزلان فوقنا وبكل منها قناص من بلاكووتر". كان برمر وماكورماك يتناقشان داخل الـSUV ما إن كان على برمر حضور المنتدى الاقتصادى العالمى بداڤوس، سويسرا. كان برمر يفكر فى منتجعات التزلج بسويسرا حينما صم آذانهما انفجار مُدوٍّ تبعه إطلاق نار من أسلحة آلية. تفجر إطار السيارة التى كانت تقود الموكب بواسطة عبوة ناسفة، وأخذ مقاتلو المقاومة يهاجمون الموكب بمدافع AK-47. ووفقا لبرمر، أصابت طلقة زجاج نافذة جانبية من مركبته. قال "عُمِل لنا كمين، غاية فى التنظيم.. محاولة اغتيال نُفِذت بمهارة، استدرتُ سريعا ونظرتُ خلفى. تحطم الزجاج الخلفى للسيارة السابربان بعبوة ناسفة. والآن، كانت طلقات الـAK تندفع من خلال الجزء المكسور". وفيما كانوا يسرعون نحو القصر الآمن، يقول برمر "كانت رائحة المتفجرات الكريهة مازالت تملأ السيارة. فكرت: داڤوس، كل تلك الوجبات الشهية، بإمكانى وفرانسى أن نطير إلى هناك ونذهب للتزلج. كانت تلك أطول مسافة يمكن أن تفصلنى عن طريق مطار بغداد وعن العبوات الناسفة".

أخفى مكتب برمر، عن عمد، أخبار الهجوم لمدة أسبوعين، حينما تسرب خبر الكمين إلى صحافة الولايات المتحدة وواجهه بها الإعلاميون فى مؤتمر صحفى له بالبصرة. قال للمراسلين "نعم، هذا صحيح. وكما ترون، لم تنجح المحاولة. ومازلت حيا، موجودا أمامكم الآن". وعلى الرغم من وصف برمر، فيما بعد، لخطة الهجوم عليه بأنها كانت جيدة التنظيم،

إلا أن المتحدث باسمه عمد، آنذاك إلى تنفيهها بأن قال إنها كانت هجمة "عشوائية" ومن المحتمل أنها لم تكن موجهة لبرمر شخصيا، وكان ذلك من أجل التقليل من شأن تلك المقاومة المتطورة. وبعد الكشف عن الهجوم، أثنى المتحدث باسم برمر، دان سنور، على بلاكووتر قائلا "لدى السفير برمر قوات أمن على قدر عالٍ من الدقة، قوات شاملة، وآليات جاهزة لدى أي تحرك، ولدينا ثقة كبيرة في العاملين بتلك القوات، وفي الآليات. وفي تلك الحالة المحددة المشار إليها، فقد نجحوا".

وفيما كان برمر يجوب أنحاء العراق، تسببت سياسته، سلوك "حراسه الشخصيين" والمقاولين الآخرين الذين منحهم حصانة ضد أية محاسبة، تسبب كل هذا في إثارة عظيم غضب وحنق العراقيين. وفي تلك الأثناء، مضى يدعم وصف العراقيين له بأنه صدّام جديد، فيما كان يُنفذ تجديدات باهظة في قصر بغداد. في ٢٣ ديسمبر، أنفق برمر ٢٧٠٠٠ دولار للتخلص من أربعة تماثيل، أكبر من الحجم الطبيعي، لرأس صدام كانت بالقصر. قال برمر فيما كان الرأس الأول يُزال "ظللت أنظر إلى تلك التماثيل لستة أشهر. حان الوقت كي تتدحرج تلك الرءوس على الأرض". وفي وجود معظم البنية الأساسية المدنية العراقية مُدمَّرة، بدا هذا الاستخدام للأموال محل تساؤل، لكن المتحدث باسم برمر وصف هذا التصرف على أنه إذعان للقانون. وقال تشارلس هيتلي، نائب برمر "وفقا لأحكام اجتثاث حزب البعث والبعثيين، كان لابد من الإطاحة بتلك التماثيل. وفي الواقع، فإنها غير قانونية".

وفي معظم الوقت الذي كانت بلاكووتر تقوم فيه بحمايه برمر، ظلت الشركة غير مرئية. لم يكد يكون ثمة ذكر لبلاكووتر في التقارير الإعلامية؛ وبدلا من ذلك كان رجالها يشار إليهم بصفتهم أعضاء فرقة الأمن الخاصة لبرمر، أو حراسه الشخصيين وأحيانا، كانوا يُعرَّفون بصفتهم عملاء مخابرات سرية. إلا أنه في أوساط تلك الصناعة، كان ينظر لرجال بلاكووتر على أنهم النخبة، من يقومون بإرساء التوجهات وتحديدها بين جيش المرتزقة الآخذ في التوغل سريعا في البلد.

وفي حوالي الوقت الذي فازت فيه بلاكووتر بعقد برمر، تواقد المرتزقة سريعا على العراق. بدأت الشركات من أمثال كونترول ريسك جروب، دينكورب، إرينيز، إيجيس، أرمور جروب،

هارت، كرول، وستيل فاونديشن، وكان لكثير منها تواجد بالفعل فى العراق، بدأت تنشر آلافا من المرتزقة فى العراق، وتتعاقد معهم بشراسة، من جميع أنحاء العالم. وفى تأسل لزمن حرب فيتنام، كان يُشار إلى المرتزقة فى البداية بصفتهم "مستشارى أمن خاصين" فى لائحة الوظائف. فازت بعض الشركات، مثل بلاكووتر، بعقود مدرة للأرباح مع وزارة الخارجية، سلطة الاحتلال الأمريكى والحكومة البريطانية، وقامت شركات أخرى بحراسة المشاريع النفطية، السفارات الأجنبية، أو المبانى الحكومية، فيما عملت أخرى بموجب عقود حرب كبرى مثل هاليبرتون، كيه بى آر، جنرال إلكتريك وبكتل، كجزء من قوات المهمات الخاصة لأمن الصحفيين. كان أكبر من يحصلون على أجور عالية هم أفراد القوات الخاصة السابقون: فرق السيلز البحرية، قوة دلتا، البيريهات الخضراء، رينجرز والمارينز، وإس إيه إس البريطانية، والرينجرز الأيرلنديين، والإس إيه إس الأسترالية. تلاهم فى قيمة الأجور فرق الجوركا النيبالية، الكوماندوز الصربيون، وقوات جزر فيجى. وفى تلك الأثناء، فإن فرص الأرباح الهائلة نضّبت القوات الرسمية الوطنية فيما سعى الجنود للحصول على وظائف مدرّة للأرباح مع الشركات الخاصة، التى أخذت بدورها تقتنص رجال القوات الخاصة للعمل بالعراق. قال كيلى كيبهارت، المقاول السابق ببلاكووتر "بالنسبة لكثير من هؤلاء الرجال كنا أكبر حجما من الحياة. كان باستطاعتك رؤية ذلك فى أعينهم حينما كانوا ينظرون إلينا –أو يتهامسون عنا. كان كثيرون منهم يحقدون علينا. كانوا يشعرون أنهم يقومون بنفس المهام التى نقوم بها لكنهم يتلقون أجورا متدنية مقارنة بأجورنا".

وعلاوة على هؤلاء "المهنيين" كان ثمة عناصر كثيرة من الجنود شاركوا فى العمليات وطالبوا بأجور أقل من زملائهم الشركاتيين، وكانوا يقومون بعملياتهم دونما مبالاة، بدرجة تفوق نظراءهم الشركاتيين. كان بين هؤلاء قوات الأبارتايد جنوب الإفريقية السابقة الذين دخلوا إلى العراق مع خرقهم قوانين جنوب إفريقيا الحالية التى تحظر العمل كمرتزقة. وفى نوفمبر ٢٠٠٣، كانت الولايات المتحدة تخبر الشركات التى تريد القيام ببيزنس بالعراق، بوضوح أن عليها إحضار قوات أمنها المسلحة الخاصة إلى البلد.

حينما غادر برمر العراق فى يونيو ٢٠٠٤، كان يوجد أكثر من عشرين ألف جندى خاص

داخل حدود العراق، وأصبحت العراق تُعْرَف بالغرب الضارى (فى إشارة إلى غرب الولايات المتحدة قبل إخضاعه للقانون) لكن دون وجود "عُمَد" محليين. وصلت تكاليف التعاقد من قبل الاحتلال مع المرتزقة لأكثر من ٢بليون دولار للأعمال الأمنية فى نهاية "سنة برمر"، ويلغ هذا ٣٠٪ من ميزانية "إعادة إعمار" العراق التى اقتُطِعت منها تلك التكاليف. أيضا، لا يشمل هذا، بالطبع، الكيانات الخاصة التى كانت تستأجر المرتزقة فى العراق على نطاق واسع. ووفقا لمجلة الإيكونوميست رفع احتلال العراق عوائد دخول الشركات العسكرية البريطانية من ٣٢٠مليون دولار قبل الحرب إلى ١.٦بليون دولار فى بداية ٢٠٠٤، "مما جعل الأمن أكثر صادرات بريطانيا إلى العراق إدرارا للأرباح منذ انتهاء الحرب". قدّر مصدر استشهدت به المجلة أنه يوجد جنود خدمات جوية خاصة (SAS) سابقون يعملون كمرتزقة بالعراق أكثر من الجنود النظاميين الذين شاركت بهم بريطانيا فى الغزو. فى غضون سنة، كانت شركة إرنيز البريطانية الخاصة قد راكمت جيشا خاصا من ١٤٠٠جندى بالعراق، يعمل به عراقيون -بينهم أفراد قوات أحمد الجلبى المسماة قوات "تحرير العراق"- ويقيادة أجانب من الشركة بعضهم من مرتزقة جنوب إفريقيا العنصرية" جاء فى تقرير للتايمز اللندنية أن "الطلب الهائل الجماعى على الحماية، والخوف من القتل شبه اليومى للعاملين الأجانب، مطّ المعروض فى السوق من المؤهلين للقيام بتلك المهام إلى أقصى حد، وأدى ذلك إلى زيادة هائلة فى مقاولى الكاوبويز، والاعتماد على موردين لأشخاص يجيدون استخدام الأسلحة معروضين للإيجار، وهؤلاء الموردون لا التزامات لهم تجاه هؤلاء الأشخاص أو العراقيين، أو عملائهم".

يظل ما فعلته تلك القوات بالعراق، وأعداد الذين قاموا بقتلهم، وعدد الموتى والجرحى منهم أسئلة دونما إجابة لأن أحداً لا يُشرف على أنشطتهم بالبلد. وحتى كتابة هذا، لم يُدَن مقاول عسكرى أمريكى واحد عن الجرائم التى ارتُكبت بالعراق. إلا أن القصص تتسرب إلى خارج العراق، أحيانا من خلال تبجحات المقاولين أنفسهم. مثلا، تباهى مقاول من بلاكووتر باستخدامه نخائر "غير معيارية" (محظورة) لقتل أحد العراقيين.

فى منتصف سبتمبر ٢٠٠٣، بعد شهر من فوز بلاكووتر بعقد برمر، كان فريق أمن من

بلاكووتر مكون من أربعة أشخاص يتجة إلى الشمال من بغداد على طريق غير ممهد بسيارة SUV حينما واجههم كمين لرجال مسلحين فى قرية صغيرة. ذاك الصباح، كان بن توماس، أحد مقاولى بلاكووتر، قد حمّل مدفعه الآلى M4 بنخيرة قرية تجريبية لم تكن القوات الأمريكية قد أجازتها للاستخدام. كانت تلك طلقات تسمى APLP ولها القدرة على اختراق المدرعات لمسافة محدودة. أنتجت تلك الطلقات شركة اسمها RBCD بسان أنطونيو، وصنّعتها باستخدام ما يسمى عملية "المعدن المخلوط". ووفقا لدورية أرمي تايمز فإن تلك الطلقات "تخترق الفولاذ والأهداف الصلبة الأخرى لكنها لا تمر من جذع الإنسان أو حتى من طبقات عديدة من الجدران الجافة". تقوم شركة بأركنساو تدعى لو ماس بتوزيع تلك الطلقات، واعترفتِ تلك الشركة أنها أعطت توماس بعض تلك الطلقات بعد أن اتصل بها. وأثناء معركة الطبنجات التى وقعت ذاك اليوم، قال توماس إنه أطلق إحدى تلك الطلقات على مهاجم عراقى وأصابه فى عجُزه. قال لدورية أرمى تايمز إن الطلقة قتلت الرجل على الفور: "دخلت عجزه ودمرت كل شئ فى الجزء الأيسر من أحشائه... كل شئ تمزق إربا. الأسلوب الذى أفسر به ما حدث للأشخاص الذين لم يكونوا فى الموقع... هو أن ما حدث كان مثل تفجير نخيرة متفجرة صغيرة داخل شخص. لم يصدق أحد أن الرجل مات من طلقة فى عجزه". قال توماس، من فريق السيلز البحرى سابقا، إنه قد أطلق ذخائر من أنواع عديدة على أشخاص كثيرين لكن "ليس ثمة وجه للمقارنة بإطلاقه.. لا مقارنة" بين التدمير الذى أحدثه طلقة APLP فى أحشاء ضحيته العراقى فى اليوم ذاك، وبين ما يُتوقع من الذخائر المعيارية. يقول توماس إنه بعد أن عاد لمقره بعد إطلاق النار بدأ زملاؤه المرتزقة "يتعاركون مع بعضهم" للحصول على الطلقات، "وفى نهاية اليوم، أخذ كل منا خمسا منها. كان ذلك كل ما تبقى لنا".

جرى جدل خلافى بالكونجرس حول هذه الذخائر، وظلت جماعات الضغط التى تعمل لحساب المُصنعين تحاول الحصول على موافقة قوات الولايات المتحدة عليها بدعوى أن المسألة "قضية أمن قومى". وحقا، يقول توماس إنه واجه تهديدا بمحاكمته عسكريا لاستخدامه ذخائر غير مُجازة بعد أن اعتقد مسئول البنتاجون أنه جندى نظامى فى الجيش الأمريكى. كان ذلك أول قتل سُجِّل باستخدام تلك الطلقات التى كانت قد اختُبِرت

لسنوات عديدة فى مهرجانات آرمد فورسيس جورنال السنوية "لإطلاق النيران ببلاكووتر" فى مجمع الشركة بمويوك. وبعد أن قتل توماس ضحيته العراقى باستخدام طلقات APLP أصبح يتكلم كمتحدث باسم المُصنّعين فى إعلانات تجارية عنها. قال توماس لأحد محاوريه بينما كان يقضى إجازة من عمله بالعراق فى الولايات المتحدة "سآخذ ذخائر لوماس معى لدى عودتى للعراق، لقد وعدت كثيرين من رفاقى الذين كانوا معى ذاك اليوم وكثيراً من أصدقائى الآخرين أيضا. هذه الذخائر مخصصة لقتل الأشرار. لكن ليس للعمليات جميعها. أما فى العمليات الخاصة، فلن أستخدم سواها". سجلت دورية القوات المسلحة، بحماس، تفاصيل ذخيرة توماس فى استخدام تلك الطلقات وقالت إن ذلك يجب أن يكون "سببا كافيا لأن يصر مسئولو البنتاجون أن تبدأ قيادة العمليات الخاصة فورا الاختبارات العملية لتلك الذخائر". بعد ذلك نشر توماس على موقعه الإلكترونى مقالا عن استخدامه الطلقات التى تخترق المدرعات بالعراق.

وفيما كان المرتزقة يجوبون أنحاء البلاد بحرية، لم يتلق العراقيون أية توضيحات حول تلك القوات شديدة التسلح التى غالبا لا يرتدى أفرادها أزياء عسكرية. مر عام قبل أن يصدر برمر مرسوما يحدد فيه مكانتهم -محصنون ضد المحاكمات لا سبيل للجوء للعدالة بشأن من تقتله تلك القوات أو تصيبه بجراح من العراقيين. اعتقد عراقيون كثيرون -وبعض الصحفيين- خطأ- أنهم كانوا يعملون لحساب السى آى إيه والموساد، وهو انطباع أثار حنق من التقوهم. أيضا أغضب سلوك المرتزقة وسمعتهم ضباط الاستخبارات الأمريكية الذين شعروا أن المرتزقة ربما عرضوا أمنهم داخل العراق للخطر. وفيما أوشك عام ٢٠٠٣ على الانتهاء، كان معظم العراق قد أصبح أنقاضا، فيما كانت مشاريع ما أُسمى "إعادة الإعمار"، التى كان من المفترض تمويلها من عائدات النفط العراقى، لا وجود لها، أو فاشلة. أما بالنسبة لشركات المرتزقة فقد شهدت طفرة ازدهار فى البيزنس فى بداية ٢٠٠٤، فيما هوى الوضع فى العراق إلى مزيد من الفوضى، الأمر الذى أتى معه بمزيد من البيزنس للشركات العسكرية الخاصة.

فى فبراير ٢٠٠٤، تورط مكتب برمر فى فعل كان إما نتيجة خطأ فادح فى الحسابات، أو

تجاهل ساذج (مميت) للواقع. وفقا لتقرير فى الواشنطون بوست آنذاك، "يصر المسئولون الأمريكيون الذين يحاولون اجتذاب الشركات للاشتراك فى إعادة البناء، يصرون على أن الأمن العراقى ليس فى أيدى المقاولين، وأن التقارير مبالغ فيها. أبلغ طوم فولى مدير المحاسبين القانونيين المسئول عن تطوير القطاع الخاص مئات من المستثمرين المستقبليين فى مؤتمر بوزارة التجارة بواشنطون فى ١١فبراير أن المقاولين الغربيين ليسوا أهدافا. وقال إن الإعلام ضخم القضية". وعلى العكس أكد فولى أن "المخاطر ليست أكثر من مخاطر الغطس أو ركوب الموتوسيكل، والتى تمثل للكثيرين مخاطر مقبولة". وبمنتصف مارس، كانت شركات المرتزقة فى ذروة تمتعها بما أصبح "سوق بائعين" هائلاً بالعراق. قال مايك باتلز، مؤسس شركة كاستر باتلز الأمريكية والتى فازت بعقد حراسة مطار بغداد "إن تكلفة استئجار عاملين أمن مؤهلين كما كانت فى يونيو ٢٠٠٣ هى مجرد كسر مما تكلفه اليوم".

فى ١٨مارس ، سرت الشائعات فى الشوارع بأن الولايات المتحدة كانت فى سبيلها لعرض عقد قيمته ١٠٠مليون دولار لاستئجار رجال أمن خاصين لحراسة المنطقة الخضراء التى تبلغ مساحتها أربعة أميال مربعة وقاطنيها البالغ عددهم ثلاثة آلاف شخص. ذُكِر فى مبررات العقد أن "التهديد الحالى والمتوقع، والتاريخ المتأخر للهجمات ضد قوات التحالف، وقوات الجيش التى تمددت حتى ضعفت، كل هذا يتطلب قوة أمن تجارية مكرسة لتوفير الحماية". وبما أن فرق بلاكووتر لحراسة برمر نجحت فى الإبقاء على "اسم علمٍ عظيم القيمة حياً"، اقتنصت إدارة الشركة الفرصة وسط فوضى العراق. فتحت عديداً من المكاتب الجديدة فى بغداد، عمان، ومدينة الكويت، وأيضا مقرا فى ماكلين، فرجينيا، مركز تجمع جماعات الاستخبارات الأمريكية، ذلك المقر الذى ضم قسم علاقات الحكومة الجديد. مضت الخطط فى سبيلها لتوسيع بزينس بلاكووتر المدر للأموال فى منطقة الحرب بدافع من الأرباح، دافع سينتهى بموت أربعة مقاولين أمريكيين بالفلوجة، واشتعال ألسنة اللهب بالعراق، ومستقبل مبهر لبلاكووتر.■

5

الفصل الخامس

سكوتي يذهب للحرب

في مطلع عام ٢٠٠٤، كانت بلاكووتر قد أضحت متخندقة بصلابة فى العراق، فيما كان إريك برينس، جارى جاكسون، وآخرون من تنفيذيى بلاكووتر يمضون، بشراسة، فى محاولتهم لفتح أسواق جديدة لبيزنس بلاكووتر والفوز بمزيد من التعاقدات. كان رجالها يحرسون رأس الاحتلال الأمريكى وعديداً من مكاتب الشركات الخاصة فى أنحاء العراق، الأمر الذى منح بلاكووتر موقعا مركزيا للحصول على العقود الرئيسية، وغدت قواتها موضع حسد بيزنس الأمن الخاص الآخر فى الازدهار بالعراق. أصبح هذا ممكنا من خلال الوضع الأمنى المتدهور بالبلد. فى يناير ٢٠٠٤، نشرت الفاينانشيال تايمز التقرير التالى:- "يقول المقاولون إن أكثر من خمسمائة هجوم وقع على مواكب السيارات المدنية والعسكرية فى غضون الشهرين الماضيين. فى ذلك الشهر، "نصح" المدير التنفيذى ببلاكووتر، باتريك تووهى، البيزنسات التى تنوى العمل بالعراق قائلا "عليكم أن تضيفوا ٢٥٪ من النفقات لأغراض الأمن". بدأ البعض يقارن سوق المرتزقة بالعراق بالهجمة على

الذهب فى ألاسكا. عبّرت التايمز اللندنية عن ذلك بالقول "فى العراق، فإن طفرة بيزنس ما بعد الحرب ليس هو النفط، بل الأمن". وبين عشية وضحاها، أخذت تلك الصناعة، التى كانت موضع احتقار، فى الظهور من الظلال إلى الازدهار، وكانت بلاكووتر على رأس القطيع. وفى حماسها لتوسيع أعمالها وزيادة أرباحها، سرعان ما بثت الشركة الأنباء عن أنها تبحث "عن أفراد قوات خاصة سابقين مؤهلين تأهيلا عاليا لنشرهم بالعراق". قزّمت الأجور التى عرضتها الشركة على "المؤهلين" الرواتب العسكرية الأساسية -بل وربما راتب أى وظيفة أخرى. كان بإمكان المتعاقد مع بلاكووتر الحصول على ما بين ٦٠٠دولار إلى ٨٠٠ دولار فى اليوم. بالإضافة إلى ذلك فإن العقود قصيرة الأجل التى كانت تقدمها الشركة -شهرين- كانت تعنى أن بإمكان الفرد أن يراكم ثروة صغيرة سريعة خلال عدد محدد من الأيام. وفى حالات كثيرة، كان بإمكان الأشخاص تمديد العقد إن هم أرادوا. أيضا،كانت المرتزقة يتمتعون بمهلٍ ضريبية كبيرة.

أتاحت خصخصة هذا العمل أيضا الفرصة لكثير من عشاق المعارك، الذين تقاعدوا من الخدمة، وجدوا أنفسهم مغروسين فى الحياة اليومية المملة، أتاحت لهم العودة إلى أيام مجدهم بميادين القتال تحت راية الحرب على الإرهاب الدولى. قال ستيف ناش، من فرقة السيلز البحرية سابقا، "إنه نوع ما تفعله. لنقل إنك تقضى عشرين عاما تقوم بأشياء مثل ركوب الزوارق فائقة السرعة، والقفز من الطيارات. ثم فجأة، تجد نفسك تبيع بوالص تأمين. يصبح الأمر غير محتمل". ذهب دان بويلنز، ضابط الشرطة السابق الذى يبلغ الخامسة والخمسين من العمر، والذى يصف نفسه بأنه خبير أسلحة، ذهب إلى العراق مع بلاكووتر، لأنه، كما يقول "كانت تلك الفرصة الأخيرة فى حياتى لأقوم بعمل مثير. أحب الضغط العصبى واندفاع الأدرينالين الذى يرافقه".

قال ديل ماكليلان، عضو السيلز السابق، وأحد المنشئين الأصليين لبلاكووتر يو إس إيه".. على أية حال، ظل غالبيتنا يتعرضون لإطلاق النيران عليهم معظم حياتهم". أضاف قائلا إن خبراتهم -حرب المدن، القنص، المعارك من مسافة قصيرة "ليس لها قيمة فى العالم المدنى . علاوة على ذلك، فثمة مكافأة إضافية يسميها ماكليلان ممارسة اللعب ببرود.. فلنواجه الأخطار". ثم أضاف "الجبناء يتخندقون".

أما كيزنس ويليامز، عضو السيلز السابق فيقول "لست مؤهلاً للكثير سوى ذلك. إن تدفق الأدرينالين يؤدى إلى الإدمان. لا يختفى هذا أبدا". أيضا، شعر كثير من جنود القوات الخاصة الذين خدموا أثناء "زمن السلم!" فى التسعينيات أنهم قد حُرِموا من حقهم فى خوض المعارك العلنية التى كان يخوضها زملاؤهم ورأوا أن الحرب على الإرهاب هى فرصتهم لتحقيق المجد. قال ويليامز "نحن مدربون على خدمة بلدنا بأسلوب نخبوى. نود أن نعود كى نقتل الأشرار. إن هذا هو من نحن". اعترف أحد المقاولين الذين خدموا بأفغانستان أن المال كان عاملا كبيرا، ثم قال "لكن هذا لم يكن كل ما فى الأمر. بعد ٩/١١ كنت أريد نوعا من الثأر". بين هؤلاء الذين أغواهم عرض بلاكووتر، كان أحد أفراد السيلز السابقين، يدعى سكوت

هلفنستون ويبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاما.

كان من نوع الرجال الذين لفحتهم الشمس، له قوام ممثلى أفلام الآكشن، من ثم كان حرفياً مثّل إعلان متحرك عن الجيش. زينت صورته ذات مرة -وقد خلع قميصه، وكان يجرى على الشاطئ فى مقدمة فريق من السيلز يمارسون رياضة الجرى- غلاف رزنامة دعائية أصدرتها البحرية. أتى من أسرة من الجمهوريين تفخر بأبنائها، كان عم جده إليهو رووت وزير حرب الولايات المتحدة وفاز بجائزة نوبل للسلام عام ١٩١٢. توفى والد هلفنستون حينما كان فى السابعة، وساعد على تربية شقيقه الأصغر جيسون. كان سكوت هلفنستون، حسب جميع التقارير، جنديا ورياضيا نموذجيا. قضى اثنى عشر عاما بالسيلز، أربعة منها كمدرس. قال هلفنستون عن برنامج مدرسة التدمير تحت الماء لفرقة السيلز "إنه أطول برنامج تدريب وأكثر تلك البرامج مشقة فى العالم الحر. حينما تُكمله تقول إننى بوسعى أن أنجز أى شئ". لكن هلفنستون، مثل كثير من أفراد القوات الخاصة السابقين، حاول جاهدا أن يقرر ما يفعله بحياته بعد أن ترك الخدمة عام ١٩٩٤. كان من الصعب نقل مهاراته الحربية إلى "العالم الواقعى"، ولم يكن لديه أى ميل لأن يصبح رجل شرطة معروضا للإيجار لأى شخص. كان ولعه الحقيقى هو اللياقة البدنية. قام بعمل عدة أشرطة فيديو لتدريبات اللياقة من خلال شركة عمل بها، أمفيبيان أثلتيكس، وكان يطمح إلى إقامة مركز لياقة بدنية خاص به.

ولفترة محدودة فى التسعينيات جرب هلفنستون حظه مع هوليوود. درب ديمى مور فى فيلمها عن فرقة السيلز بعنوان G.I.Jane وعمل مستشارا فى فيلم جون ترافولتا Face/Off، وعمل كدوبلير فى بعض الأفلام. أيضا لعب أدوارا فى برامج تليفزيونية واقعية من بينها دور البطولة فى برنامج واقعى عن القوات الخاصة بعنوان Combat Missions الذى أنتجه منتج فيلم Survivor مارك بيرنت. وصفه أحد النقاد بأن له "مزاجا غضوبيا" فى ذلك العرض، ورآه كثيرون بصفته الشخص الشرير فيه. قال عنه بيرنت "إنه عاطفى جدا، ويفهم الأشياء

بطريقته ويهمه رأى الناس فيه. لكن أتَعلمْ؟ أعطه بندقية وأرسله إلى المعركة. ستريده إلى جانبك. إنه سيل بحرية عظيم، وأحد أفضل الرياضيين فى الولايات المتحدة. وفى مسلسل تليفزيونى آخر" الرجل ضد الوحش" كان هلفنستون المتسابق الوحيد الذى هزم الوحش حيث تغلب على مناورات الشمبانزى فى سباق الحواجز.

وبدون أى تقصير منه، لم يكن العمل بالتمثيل مجزيا لهلفنستون وكان يناضل كى لا يتخطى إنفاقه حدود دخله. قالت كاتى هلفنستون -وتنجل والدة سكوت "كان دخله جيدا لكنه لم يكن كافيا أبدا". كان مُطلقاً من زوجته باتريشيا، لكنه استمر فى الإنفاق عليها وعلى طفليهما المراهقين، كايل وكلزى. كان أيضا دائنا، وحينما بلغه من مصدر له فى السيلز أنه يمكن كسب الكثير من الأموال إذا عمل حارسا شخصياً معرضا لمخاطر كبيرة، بدأ فى البحث. عرضت عليه شركة دينكورب مهمة حماية حميد كرازاى الرئيس الأفغانى، لكنه رفضها لأنها تطلبت التزاما مدته سنة كاملة ولم يكن يريد ترك طفليه. ثم حينما سمع فى نهاية عام ٢٠٠٣ أن بلاكووتر كانت تستأجر أفرادا -وأنه بإمكانه الانتشار شهرين فقط- راقته الفكرة على الفور. تقول والدة سكوت إنه رآها فرصة لتغيير حياته. قال "سأذهب هناك ، أجمع بعض النقود، وربما أُحدث فرقا، ثم أعود وأبدأ وظيفتى الجديدة. سأبتعد على طفلىّ لشهرين فقط". ولهذا اختار بلاكووتر، كما تقول والدته.

حينما كان يتحدث عن ذلك مع عائلته وأصدقائه، كان يقول لهم إنه سيقوم بحراسة سفير الولايات المتحدة بالعراق. فبعد كل شئ فكان المعروف فى أوساط عالم الأمن الخاص هو أن ذلك كان ما تقوم به الشركة هناك. إضافة إلى ذلك، فقد كانت الشركة يديرها أفراد سيلز سابقون مثل هلفنستون. "سيشعر بالألفة وسطهم بالعراق". قال صديقه مارك دفاين الضابط الاحتياطى بالسيلز والذى دربه هلفنستون "كان لسكوت ذهنية مقاتل"، وكان يخطط لجمع ٦٠٠٠٠ دولار بالعراق، لكنه كان يتطلع أيضا لنوع العمليات التى أُعدّ من أجلها لكنه لم يمارسها خلال

سنوات "زمن السلام!" بفرقة السيلز. قال ديفاين حينما تكون خارج اللعبة تشعر وأنك مثل حيوان محبوس بقفص. كما لو أنك تدربت طوال حياتك لتكون لاعب كرة قدم محترفاً لكنك لا تُمنح فرصة للمشاركة فى مباراة". قال جيسون، شقيق سكوت إن شقيقه، ورغم أنه شارك فى عمليات سرية وهو فى فرقة السيلز، لم يشعر أن أياً منها كان على درجة من الخطورة يتحقق معها طموحه. قال جيسون "شعر أنه لم يخدم بلده أبدا لأنه لم يواجه خطرا كافيا، ولهذا السبب ذهب إلى العراق". تحدث ديفاين عن اليومين اللذين سبقا رحيل سكوت إلى العراق "كانت تلك آخر مناسبة حماسية لسكوت. كانت آخر فرصة له للعودة إلى مجاله". أما عن المخاطر الجدية التى تحيط بالانتشار فى العراق، فقال ديفاين "كان يشعر أنه إذا انتهى عمرك، ستُوجه إليك طلقة عليها اسمك".

لو أن الأمر كان قد تُرِك لقرار كاتى هلفنستون -وتنجل، ما ذهب ابنها إلى العراق أبدا. قالت "ناقشنا موضوع ذهابه هناك. أعتقد أنه كان علينا الذهاب إلى أفغانستان، لكننى لم أعتقد أبدا أننا يجوز لنا أن نذهب إلى العراق. لكن سكوت انطلت عليه كل تلك القصة عن روابط صدام حسين مع القاعدة، وكل تلك الأكاذيب. كان يؤمن بما يفعله". هذا باستثناء أن حماية "السفير الأعظم" -ناهيك عن أى مسئول أمريكى آخر- لم يكن ما سيفعله سكوت هلفنستون بالعراق.

فى بداية مارس ٢٠٠٤، وصل هلفنستون إلى مركز تدريب بلاكووتر فى قفار مويوك، كارولاينا الشمالية؛ حيث كان من المقرر أن يقضى أسبوعين يُعَدُّ فيهما للانتشار بالعراق. كان يحيطه أفراد سابقون فى فرقة السيلز، وأفراد عمليات خاصة آخرين. أيضا، كان بالمجمع بعض من المجموعة الأولى من المرتزقة غير الأمريكيين الذين استأجرتهم بلاكووتر -كوماندوز من شيلى- بعضهم تدرب فى ظل أوجستو بينوشيه- والذى كانت بلاكووتر قد تولت نقلهم إلى نورث كارولاينا قبل ذلك بأيام قليلة. ومثل هلفنستون، كان من المقرر لهم أيضا أن ينتشروا بالعراق كجزء من القوات المخصخصة الآخذة فى التوسع سريعا. آنذاك، قال جارى

جاكسون، رئيس مجلس إدارة بلاكووتر "نحن ننقب فى أقاصى الأرض بحثا عن مهنيين. إن الكوماندوز الشيليين مهنيون جدا جدا، كما أنهم يناسبون نظام بلاكووتر .

وبعيد وصول سكوت هلفنستون إلى كارولاينا الشمالية، بدأت المتاعب. كان أحد الرجال الذين يترأسون التدريبات رجل يسميه الجنود شرك، ربما تشبيها له بالغول الأخضر، أحد شخصيات أفلام الكارتون. تقول جميع التقارير إن هلفنستون كان شديد الحماس للعمل مع بلاكووتر ولخوض العمليات المرتقبة بالعراق. لكنه بُعيد التدريب، زعم في إيميل أرسلها إلى إدارة بلاكووتر أن ثمة صراعا تطور بينه وبين شرك. وبين أشياء أخرى، زعم هلفنستون أن شرك كان مديرا "غير مهنى"، وصوّره بأنه كان يتخذ موقفا دفاعيا حينما كان هلفنستون يوجه إليه أسئلة أثناء التدريبات. قال سكوت "أثناء مناقشاتى فى الفصل، حاولت أن أصوغ تعليقاتى بأسلوب لا يُضمر أن شرك كان مخطئا، لكن هذا كان انطباعى عنه أثناء كورس التأهيل لعمليات وزارة الخارجية"، وأضاف قائلا إن رد فعل شرك على تعليقاته ومقترحاته جعله يتوقف عن توجيهها. وبعد فترة التدريب فى كارولاينا الشمالية، انتهى المطاف بهلفنستون وشرك بالانتشار فى الكويت معا، حيث استقلا الطائرة إلى هناك فى منتصف مارس مع فريق الكوماندوز الشيلى الذى كانت بلاكووتر قد تعاقدت معه مؤخرا.

وبالرغم مما رآه هلفنستون على أنه صراع مع شرك، فإن الانتشار بدا وضعا مقبولا له، خاصة أن صديقين له من أيام الفيلم التليفزيونى الواقعى Combat Missions كانا يساعدان فى إدارة عمليات بلاكووتر، أى: جون وكاثى بوتر. تقولى كاثى بوتر، التى كانت تدير عمليات بلاكووتر بالكويت، فيما كان زوجها يعمل ببغداد "قضيت أسبوعا مع سكوت بالكويت، قبل ذهابه إلى العراق مباشرة. كانت لنا أحاديث رائعة عن أسرته، حياته، والدروس التى تعلمها. كان سكوت قد تغير بالكامل عن آخر مرة رأيته فيها". وصفت هلفنستون بأنه "كان مصدر بهجة لمن

حوله! لم يمض يوم دون أن أمازحه حول شخصيته وتعليقاته". كتبت بوتر تقول "كانت مقولته المفضلة (والتي لم يكف عن استغلال كل مناسبة لترديدها) هي، اللعنة، إنني جد مسرور لوجودي هنا". كان هذا يضحكني، ويأتي بابتسامة إلى وجوهنا جميعا حينما كان يرددها". وصفت هلقنستون بأنه كان يدعمها في مواجهة "جنود آخرين من بلاكووتر كانوا يأتون إلى هناك بمواقف سلبية تنم عن عدم الاحترام، وسلوك شوفيني مُتحدٍ. لكن لم تمض إلا بضعة أيام حتى بدأت الأمور تسوء جدا بالنسبة لهلقنستون.

حينما رحل إلى الشرق الأوسط، اعتقدت أسرة سكوت هلقنستون أنه كان ذاهبا إلى هناك لحماية بول برمر. لكن، وكما تكشفت الأمور، فقد كان قد اختير لتنفيذ مهمة أقل شأنا بكثير. وكجزء من حافز بلاكووتر نحو مزيد من البيزنس، كانت الشركة قد انخرطت مؤخرا مع بيزنس كويتي يُسمى فندق ريجنسي وشركة المستشفيات، ومعا، فازت هاتان الشركتان بعقد أمن مع يورست سبورت سيرفيسز (ESS)، التي تعمل مقاولا من الباطن لهاليبرتون، تقوم بحراسة قوافل المركبات التي تنقل معدات المطابخ إلى جيش الولايات المتحدة. كانت بلاكووتر وريجنسي قد انتزعتا، جوهريا العقد من شركة أمن أخرى هي كونترول ريسكس جروب، وكانتا تتوقان للفوز بعقود مربحة أخرى من ESS التي كانت تصف نفسها بأنها "أكبر شركة خدمات طعام في العالم". في قسم خدماتها الآخر لمشاريع الإعمار بالعراق، كانت بلاكووتر تحاول، سريعا، تكوين فرق للبدء فورا في مرافقة قوافل المركبات، وتم إناطة إحدى تلك المهمات إلى فرقة خاصة يشارك فيها هلقنستون بالعراق. وفي تلك الأثناء وبدون علم منه، كانت ثمة صفقات بيزنس سرية يتم عقدها خلف الكواليس.

وفقا للعقود، وللتقارير المنشورة في نيوز أند أوبزرفر، كانت بلاكووتر تمنح كل جندي ٦٠٠دولار يوميا. وتتقاضى عنه من ريجنسي ٨١٥دولار. أضافت الصحيفة "علاوة على ذلك، قدمت بلاكووتر لريجنسي فواتير منفصلة عن إنفاقاتها العامة

وغير المباشرة، وتكاليفها فى العراق: التأمين، الإقامة والأكل، التنقلات، الأسلحة، الذخائر، المركبات، مساحات المكاتب وتجهيزاتها، الدعم الإدارى، الضرائب والرسوم". وبعد ذلك، كانت ريجنسى تُرسل فواتير إلى ESS بمبالغ غير معلومة عن هذه الخدمات. أبلغت كاثى بوتر صحيفة نيوز آند أوبزرفر أن ريجنسى كانت "تتقدم إلى ESS بعرض أسعار، ولنقل ١٥٠٠ دولار عن الرجل يوميا، ثم تُبلَغ بلاكووتر أنها تقدمت إلى ESS بمبلغ ١٢٠٠دولار عن الرجل". فى عقدها مع بلاكووتر/ريجنسى، كانت ESS تشير إلى عقدها مع KBR، فرع هاليبرتون، مُدلّلة بذلك على أن بلاكووتر كانت تعمل وفقا لعقد من KBR من الباطن مع ESS. قالت نيوز آند أوبزرفر، أيضا، إن ESS كانت ترسل فواتير مطالبة إلى KBR عن خدمات بلاكووتر وكانت KBR، بدورها، تتقاضى مبالغ غير معلومة على نفس تلك الخدمات. تقول KBR/Haliburton، التى تتبع سياسة عدم الإفصاح عن أسماء مقاوليها من الباطن، إنها "لم تكن على علم بأى خدمات" قدمتها بلاكووتر إلى ESS. وفيما بعد، أصبح هذا الجدل بؤرة لتحقيق من قبل الكونجرس.

اعترف العقد الأصلى الذى وُقّع فى ٨ مارس ٢٠٠٤، بين /Blakwater Regency وESS، "أن التهديد الراهن على مسرح العمليات بالعراق سيظل متسقا وخطيرا" ودعا إلى وجود ثلاثة رجال على الأقل فى كل مركبة فى المهمات الأمنية "مع وجود ثلاث مركبات مدرعة، على الأقل، لدعم تحركات ESS". لكن، فى ١٢مارس ٢٠٠٤، وقعت بلاكووتر وريجنسى عقدا من الباطن حدد شروطا أمنية متطابقة مع العقد الأصلى باستثناء كلمة واحدة: "مدرعة". مُحيت الكلمة من العقد، وبذلك، وُفر لبلاكووتر مبلغ ١٫٥ مليون دولار.

يقال إن جون بوتر لفت انتباه إدارة بلاكووتر وريجنسى إلى ذلك الحذف. كان بالإمكان أن ينتج عن أية تأخيرات أن تفقد بلاكووتر/ريجنسى أرباحا وذلك من خلال تعويق البدء فى مهمة ESS، وكانت الشركة تتطلع بشغف لأن تبدأ المهمة

وذلك كى تحوز إعجاب ESS وتفوز بمزيد من العقود. زعمت كاثى بوتر "إن كل ما كانت تهتم به ريجنسى هو المال. لم يهتموا بأرواح الناس . لكن كان على بلاكووتر، وحدها، أن تطلق الدعوة إلى المضى قدما فى المهمة بدون مركبات مدرعة. ووفقا لنيوز أند أوبزرفر "يعطى العقد بلاكووتر كافة أنواع التحكم فى كيفية تحركة القوافل وموعد تحركاتها، تأسيسا على حكمها وعلى مستوى التهديد. قالت كاثى بوتر إن بلاكووتر أوقفت بدء المهمة". فى ٢٤مارس، استغنت بلاكووتر عن جون بوتر كمدير للبرامج، وعينت مكانه جستين ماكوان، الذى يقول عنه محاميو أسرة هلفنستون إنه كان هو ذاته "شرِك" الذى تصادم معه هلفنستون أثناء التدريبات بكارولاينا الشمالية. رفض، ماكوان، من خلال محاميه، إجراء أى حوار معه. وصلت الأنباء إلى هلفنستون، بالكويت، أنه قد تم الاستغناء عن كاثى وجون بوتر. كتب هلفنستون يقول "الأمر الوحيد المتأكد منه هو أن كلا من كاثى وجون كرّسا نفسيهما قلبا وروحا لتلك الوظيفة. أعتقد أنه أيا ما كان الخطأ الذى ارتكباه فلم يكن من الجائز أن يُفصلا".

وفى تلك الأثناء، كان هلفنستون قد تنقل فى أنحاء الكويت قبل أن يتم إلحاقه بفريق بلاكووتر الذى تشكل للانتشار فى العراق فى غضون بضعة أيام من آنذاك. فى ٢٧مارس ٢٠٠٤، كتب يقول "قضينا اليومين الماضيين نعمل، نخرج لتناول الوجبات، نتعرف أكثر على بعضنا، وفي إقامة مزيد من الروابط بيننا. أُبلغنا أن موعد رحيلنا من هنا سيكون فى غضون يومين من الآن لمرافقة حافلة إلى بغداد". كتب هلفنستون أنه وفريقه خرجوا لتناول العشاء ذاك المساء بالكويت لكى يستمروا فى تقوية روابطهم، ثم إلى مقهى للشيشة حينما بدأت سلسلة من الأحداث المصيرية تتكشف، بدأت بمهاتفة على موبايل هلفنستون "فى حوالى العاشرة مساء اليوم ذاك، أتلقى مكالمة تطلب منى ما إن كان بإمكانى الرحيل فى الخامسة فجرا مع قائد فريق آخر "وبحق الله.. جالس أنا هناك وأمامى كوب عصير وفى فمى خرطوم الشيشة، وأشعر.. حسنا.. بالدوار، وبعض الغثيان وكانت إجابتى لا. لم أكن قد أعددت حقائبى، ولم أشعر أننى مستعد لهذا". قال هلفنستون إنه عاد إلى

حجرته بالفندق بالكويت، وذهب قائد فريقه "ليتحدث إلى جستين. قال بصراحة إنه لا يريد أن يفقدنى كأحد أفراد فريقه، وأعتقد أنه شعر أن هناك أجندة خفية. قال "فلنر إذا كان بالإمكان التلاعب بسكوت".

ووفقا للإيميل التى أرسلها هلفنستون، بدأت الأمور تتخذ شكلا قبيحا. ذهب شرك وشخص آخر إلى فندقه "ليتحدياني. لا لا يواجهاني. يتحدياني!" و"يقف شرك وكأنما يريدنا أن نتعارك، وكذلك يفعل جستين. أُخرِج مسدسي الصغير وأجد هذا الجبان يتراجع. كان لدى إحساس بأن هذا سيحدث. يتدخل زميلى فى الغرفة ويوقف الشجار ويقول جستين إننى مفصول وسأستقل الطائرة غدا. نتبادل الدعابات والنتيجة هى أنه يستعير ماكوان مسدسي الذى كان قد سمح لى بالاحتفاظ به فى غرفتى. زعمت أسرة هلفنستون فيما بعد أن ماكوان "هدد بفصل هلفنستون إن لم يرحل فى الصباح الباكر مع الفريق الجديد". وبغض النظر عما زُعم من صراع فى تلك الليلة، فسرعان ما وجد هلفنستون نفسه بالعراق. قال محامى ماكوان إن موكله "لم يتورط بإطلاقه فى التخطيط للمهمة أو تنفيذها"، تلك المهمة التى أُرسل هلفنستون لتنفيذها بعد بضعة أيام. الإيميل التى أرسلها هلفنستون فى الليلة السابقة على انتشاره فى العراق كانت موجهة إلى "مالك ورئيس مجلس الإدارة، والإدارة العليا" لشركة بلاكووتر. كان موضوعها "انعدام مفرط للمهنية". كانت تلك آخر إيميل بعث بها هلفنستون وإلى الأبد■

6

الفصل السادس

الكمين

فى الوقت الذى وصل فيه سكوت هلفنستون إلى الشرق الأوسط فى منتصف مارس ٢٠٠٤، كان الوضع فى الفلوجة قد وصل إلى مرحلة مشتعلة. بعد المذبحة التى وقعت خارج المدرسة بشارع حى النزّال فى إبريل ٢٠٠٣، انسحبت القوات الأمريكية إلى الحدود الخارجية للمدينة. كان أهالى الفلوجة، مثلهم مثل أتباع مقتدى الصدر بحى مدينة الصدر ببغداد، قد نظموا أنفسهم، وكانوا قبل دخول القوات الأمريكية إلى المدينة، قد أنشئوا نظام إدارة علُياً محلى -عينوا مجلس إدارة مدنى له مدير وعمدة- فى تحدٍ مباشر لسلطة الاحتلال، التى شعرت بالإهانة. ووفقا لهيومان رايتس ووتش، "تحملت العشائر المختلفة المسئولية عن أصول المدينة وموجوداتها، مثل البنوك والمكاتب الحكومية. وفى مثال لافت، سارعت العشيرة المسئولة عن المستشفى بالفلوجة بتنظيم فريق من المسلحين لحراسة أراضيها من أى هجوم وشيك. حث الأئمة المحليون الناس على احترام القانون والأنظمة. نجحت هذه الاستراتيجية، ويرجع ذلك جزئيا إلى الروابط الأسرية المتماسكة. لم يظهر فى

الفلوجة، مثلا، أى من أعمال النهب أو التدمير مثل تلك التى حدثت فى بغداد". كانوا أيضا على درجة هائلة من الضراوة فى رفضهم أى تعاون مع الولايات المتحدة وحلفائها العراقيين. فى يناير ٢٠٠٤، قال اللواء تشارلس سواناك، قائد الكتيبة الثانية والثمانين المحمولة جوا إن المنطقة كانت "فى طريقها إلى النجاح" وأعلن قائلا "إننا انعطفنا حول الزاوية (خرجنا من حالة الخطر)، ونستطيع الآن أن نسرع فى الطريق المستقيم". لكن قوات سواناك لم تكن تعمل، إلى حد كبير، سوى عند تخوم المدينة، تلك المدينة التى ظلت شبه مستقلة ذاتيا تحرسها ميليشيات محلية، مما سبب ذعرا شديدا لبرمر ومسئولى الولايات المتحدة الآخرين. قال سعد حلبوس، صاحب محل تجارى، فى الأسابيع التى تلت المذبحة التى وقعت عند مدرسة القائد، وبعد انسحاب القوات الأمريكية إلى الحدود الخارجية للمدينة "يعتبر العراقيون هذه الفترة مجرد هدنة. سينفجرون كالبركان فى نهاية الأمر. لقد استبدلنا مستعمرا بديكتاتور". فى فبراير، وفى غارة على قدر عالٍ من التنظيم،

قامت قوات المقاومة بهجمة شرسة على مقر الشرطة العراقية التي تدعمها الولايات المتحدة بالفلوجة، وقتلوا ثلاثة وعشرين ضابطا وحرروا عشرات من المسجونين. وفى بداية الشهر التالى. وفى وجود دوريات المليشيات تجوب علنا شوارع الفلوجة، ومع تصاعد المشاعر المعادية للاحتلال فى جميع أرجاء العراق، قررت الولايات المتحدة أن تجعل من المدينة أمثولة. أعلن برمر "لن يتحسن الوضع حتى نُفرِغ الفلوجة. من الأهمية القصوى أن نُوضح فى فترة التسعين يوما القادمة (قبل تسلم العراقيين السيادة!) أننا جادون"

فى ٢٤مارس، تسلمت فرقة المارينز الأولى المسئولية عن المدينة من الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوا، ثم حاولت مباشرة فرض هيمنة الولايات المتحدة على سكان الفلوجة المعادين للاحتلال. قبل ذلك بأيام، كان قائد المارينز اللواء جيمس ماتيس قد وضع الخطوط العريضة لاستراتيجيته للتعامل مع الفلوجة والمناطق الأخرى ذات الغالبية السنية مثل الأنبار. أثناء مراسيم التسلم قال "نتوقع أن نكون أفضل الأصدقاء للعراقيين الذين يحاولون لملمة شمل بلدهم. أما بالنسبة لهؤلاء الذين يريدون القتال مثل المقاتلين الأجانب ورجال النظام السابق، فسيأسفون على مواقفهم. سنعاملهم بقسوة شديدة.. إذ أرادوا القتال فسنقاتلهم". وبعد أقل من عام، تحدث ماتيس عن الفترة التى قضاها بأفغانستان والعراق، قائلا للحضور "فى الواقع، إن محاربتهم مُتعة، كما تعلمون.. إنها لمتعة أن تطلق النيران على بعض الناس. سأكون معكم هناك أحب المعارك الصاخبة".

وفيما استولت قوات ماتيس على الفلوجة قالت الأسوشيتد برس فى تقرير لها من داخل المدينة "لايترك المارينز الذين وصلوا حديثا أى شك فى أذهان الناس عن عزمهم على هزيمة المتمردين. يشعر السكان بالرهبة من استعراض القوة لكنهم يظلون على قناعة أن المارينز سيفشلون فى القضاء على المقاومة". وفى رسالة إلى القوات التى كانت فى سبيلها إلى الذهاب هناك، قارن ماتيس مهمة الفلوجة بمعارك الحرب العالمية الثانية وفيتنام سنعود إلى المعارك الصاخبة... سيكون هذا

اختبارنا.. إنكم ستكتبون التاريخ". أبلغ خميس حسناوى، شيخ عشائر الفلوجة، الواشنطون بوست "إذا كانوا يريدون منع إراقة الدماء عليهم أن يظلوا خارج المدينة وأن يسمحوا للعراقيين بإدارة مسائل الأمن داخل المدينة". وبعد يومين من وصولهم، اشتبك المارينز فى معارك بالشوارع مع العراقيين بحى العسكرى الذى تسكنه الطبقة العاملة. استمر اندلاع المعارك لساعات. فى النهاية، قُتِل واحد من المارينز وجُرِح سبعة. توفى خمسة عشر عراقيا -بينهم مصور محطة إيه بى سى الإخبارية وطفل فى الثانية. أيضا، وضع تحرك المارينز العدوانى إلى داخل الفلوجة سكانا عديدين أمام خيارات عدة قاسية: الاستسلام للاحتلال الأجنبى، الهرب من منازلهم أو المقاومة. وفيما اختار البعض الرحيل، فقد كان كلما زاد عدد القتلى من المدنيين، ازدادت جرأة شعب الفلوجة.

وقعت حادثة هامة فى تلك الفترة زادت من لهيب المقاومة السنية. لم تحدث تلك فى العراق بل فى فلسطين. اغتالت إسرائيل علناً الشيخ أحمد ياسين القائد الروحى لحماس بغزة. فيما كان يُدفع فى كرسيه المتحرك عودة إلى منزله بعد صلاة الفجر ٢٢مارس ٢٠٠٤، قصفت مروحية مدفعية إسرائيلية الشيخ أحمد ياسين ومرافقيه بصاروخ من نوع هلفاير (نار جهنم) قتله ومعه دستة، على الأقل، من مرافقيه. أغضب "الاغتيال المستهدف" المسلمين فى أنحاء الكوكب، خاصة أهل السنة من أمثال سكان الفلوجة. وبعد الاغتيال مباشرة، تجمع أكثر من ١٥٠٠شخص فى المدينة لصلاة الغائب على روح ياسين، حيث قال رجال الدين إن الاغتيال يُمثّل محاجة قوية للجهاد ضد جميع قوات الاحتلال" أُغلقِت جميع المحال التجارية، المدارس، والمبانى الحكومية كجزء من الإضراب العام بالفلوجة. بالنسبة للكثيرين فى العراق، كان احتلال الولايات المتحدة لبلدهم جزءا من الأجندة التى تنفّذ لصالح إسرائيل،وكان يُنظر لاحتلال إسرائيل لفلسطين وغزو الولايات المتحدة للعراق بصفتهما وثيقىْ الصلة. قال رجل فى الرابعة والستين من أهالى الفلوجة اسمه مصلح المدفعى "إن اغتيال رجل مسن فى كرسى متحرك لا يملك سلاحا سوى رغبته الضارية لتحرير أرضه لفعل جبان يبرهن على أن الإسرائيليين والأمريكيين

لا يريدون السلام . تزامن الاغتيال مع بداية استيلاء المارينز على الفلوجة، وأشعل هذا الاعتقاد أن الأمريكيين والإسرائيليين كانوا يعملون بالتنسيق مع بعضهم. ووفقا لهذا، اعتقد أناس عاديون كثيرون فى العراق أن مقاولى الأمن الخاصين إما موساد أو سى آى إيه.

وفيما بدأ المارينز يتمروحون فى أنحاء الفلوجة، بدأ السكان يتحدثون عن غارات من منزل إلى منزل واعتقالات عشوائية. قال خالد جميلى، من الفلوجة "حينما يجدون أكثر من شخص ذكر بأى منزل يعتقلون واحدا. هؤلاء المارينز يدمروننا. إنهم يجثمون بثقلهم على الفلوجة". يوم السبت الموافق ٢٧مارس، أصدر المارينز بيانا يقول إنهم سيقومون بعمليات هجومية... من أجل ضمان بيئة آمنة مستقرة للناس . مضى البيان يقول "اختار البعض أن يقاتل. وبما أنهم اختاروا مصيرهم، فسنشتبك معهم ونُدمرهم". سد المارينز مدخل المدينة بالدبابات والمركبات المدرعة وحفروا حفر مناوشات بطول الطرق. بدأت الكتابات الجدارية تظهر على المبانى بحى العسكرى بشعارات مثل "تحيا المقاومة العراقية"، "يحيا شرفاء المقاومة" و"ارفعوا رءوسكم، إنكم أهالى الفلوجة". بدأ الكثيرون بالمدينة يتكتلون ويتحدون فيما صاعدت القوات الأمريكية حملتها للاستيلاء على الفلوجة. قال سعدى حمادى، ٢٤عاما، خريج قسم اللغة العربية من جامعة المستنصرية "نعانى مما تفعله القوات الأمريكية، لكن لن يسلب هذا كبرياءنا، وفخرنا بالمقاومة. بالنسبة لنا، لا يختلف الأمريكيون عن الإسرائيليين فى شئ". بدأ التوتر يتصاعد فى الفلوجة فيما بدأ الأمريكيون يحذرون الأهالى -باستخدام دوريات بأبواق- من أن أحياءهم ستتحول إلى ميادين قتال إذا لم يغادرها "الإرهابيون". آنذاك، كانت بعض العائلات قد بدأت بالفعل تهرب من منازلها.

آنذاك، قال مراسل النيويورك تايمز المحنك جون بيرنز "كانت القوات الأمريكية قد انسحبت من الفلوجة فى الشتاء قائلين إنهم سيعتمدون على رجال قوات الأمن العراقيين فى تأدية المهمة نيابة عنهم، كى لا يستفزوا الأهالى. غيّر المارينز الذين

استلموا السلطة فى الفلوجة من الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوا معيارَ العمل هذا. قرروا أن يدخلوا بقواتهم وأن يسحقوا بعض هؤلاء المتمردين. نتج عن هذا سلسلة من المعارك المستمرة. فى الأسبوع الماضى، قُتِل فيها عدد من المارينز. قُتِل عدد من المدنيين العراقيين، ١٦ فى يوم واحد، الجمعة الماضى". كان جزء من استراتيجية المارينز هو اجتذاب المقاومين خارج مخابئهم. سأل كلارك لثين رئيس عمليات فرقة المارينز الأولى هل تريد أن يكون لهؤلاء الملاعين ملاذ آمن؟ أم أنك تريد أن تستثيرهم ليخرجوا إلى العلن؟". ووفقا لتوماس ريكس، مراسل الواشنطون بوست لشئون الدفاع "كانت دوريات المارينز تُسيّر بهدف أن يتعرف الأهالى عليها، ولمصاعدة الموقف عمدا. وفى داخل المدينة، كان المتمردون يُعدون أنفسهم للرد - حذروا المحال التجارية أن تغلق أبوابها، أقاموا حواجز طرق وكمائن بالسيارات الواقفة". وبالرغم من هذا، أبلغ البريجادير جنرال مارك كيميت الصحفيين أن "المارينز راضون جدا عن سير الأمور بالفلوجة، وهم يتطلعون إلى تقدم مستمر لترسيخ بيئة آمنة مستقرة وإعادة بناء هذا الإقليم العراقى". وفى واقع الأمر، كانت الولايات المتحدة توجه ضربة إلى عش دبابير بالفلوجة، عش سيجد سكوت هلفنستون وثلاثة آخرون من مقاولى بلاكووتر أنفسهم داخله فى غضون أقل من أربع وعشرين ساعة، مثل "شياه مذبوحة":

كان جيرى زوفوك عسكريا مجنداً قبل أن تبدأ "الحرب على الإرهاب". التحق بالجيش الأمريكى عام ١٩٩١ فى سن التاسعة عشرة، وشق طريقه إلى القوات الخاصة ليصبح فى النهاية أحد أفراد فريق الرينجرز بالجيش الأمريكى. انتشر ذلك الكرواتى الأمريكى، وفقا لرغبته، فى يوغسلافيا، موطن والديه أثناء الحرب الأهلية هناك فى أواسط التسعينيات، حيث اشترك فى عمليات سرية، كما تقول عائلته. كان ذا تفكير مستقل، عنيدا وطموحا، وبعد يوغسلافيا تلقى تدريبات تؤهله للالتحاق بفرقة البيريهات الخضر النخبوية، لكنه لم يُنط إليه أبدا مهمة بالفريق. فى عام ١٩٩٧، ترك زوفكو الجيش. تقول والدته "قام بمهمة للحكومة لم يكن بإمكانه الإفصاح عنها لنا. لا نعرف ماكانته. تعلم، لم أعرف أبدا ما كان يفعله. وليومنا

هذا، لا أعرف . تقول إن ولدها أراها يوما بعض القطع النحاسية الصغيرة "تذكارات في حجم الدولار الفضة، وقال إنها ستبرهن على ما كان يفعله لهؤلاء الذين يهمهم معرفة ذلك. تتذكر أنه قال لها أثناء حديث معه "ماما، من السهل أن يكون الشخص رينجر بالجيش -هذا جهد جسدى لكن الالتحاق بالقوات الخاصة، فهذا مجال الذكاء"

عام ١٩٩٨ اتجه زوفكو إلى عالم الأمن الخاص، الذى لا يعرف غالبية الجمهور شيئا عنه. استأجرته إحدى كبرى الشركات، دينكورب، وتموضع فى قطر، وعمل بالسفارة الأمريكية حيث تعلم العربية. تطورت هذه المهمة إلى أن أصبحت وظيفته جنديا للإيجار. سافر كثيرا، وقام بمهمة محددة فى الإمارات. كانت والدته، دانيكا زوفكو كلما سألته عما يفعل فى كل تلك الأماكن الغريبة، تتلقى نفس الإجابة. قالت بنغمة متشككة "كان يقول لى إنه كان يعتنى بالسفارة ويعمل بالمطبخ. يعنى، طوال حياته فى الجيش -سبع سنوات كاملة- كان دائما بالمطبخ. والآن، اكتشفتُ أنه لم يكن حقا بالمطبخ". حينما ترسخ الاحتلال فى العراق ، حصل زوفكو على وظيفة مع شركة مليتارى برفوشونال رسورسز، ومقرها فرجينيا، ليقوم بتدريب الجيش العراقى الجديد. سألته والدته قبل بضعة أشهر من رحيله "هل تريد أن تكون حارسا أجيرا لشخص آخر؟ لماذا تُعرِّض حياتك لكل تلك الأخطار من أجل شخص آخر؟" قال "أمى، لن أفعل. سأدرب العراقيين". لم تدم الوظيفة طويلا، لأن معظم المجندين العراقيين لم يعودوا بعد إجازة رمضان التى بدأت بعد شهرين من وصوله. من ثم، التقطته بلاكووتر فى حملتها الشرسة للتعاقدات من أجل الانتشار فى العراق. كانت مهمة مناسبة لزوفكو، وبخاصة لأن رفيقه وس باتالونا، رينجر سابق بالجيش من هاواى، والذى كان فى بناما فى ١٩٨٩ والصومال ١٩٩٣، كان إلى جانبه أصبح الاثنان لصيقين أثناء مهمتهما الوجيزة فى تدريب الجيش العراقى، ثم فى النهاية،، وفى فبراير ٢٠٠٤، اجتذب زوفكو صديقه باتالونا إلى العراق للعمل مع بلاكووتر، بعد أن تهاوت مهمة التدريب: تتذكر والدة جيرى "فى تلك الفترة، هاتفنى جيرى. كان جادا. قال إن علىَّ أن أكتب شيئا وسألته عما علىَّ

أن أكتبه. قال إن ذلك كان رقم بوليصة تأمينه، وأخبرته أنه إذا كان عليَّ أن أكتب رقم بوليصة تأمينه فهذا يعنى أن عليه العودة فورا. ووضعت السماعة. "أعطت دانيكا زوڤكو التعليمات لابنها الآخر، طوم، أن يُبلغ جيرى نفس الرسالة إذا اتصل ثانية. تقول "كانت تلك هى المرة الأولى التى نناقش فيها جيرى أو نطلب منه العودة. وفى المرة التالية التى طَلبنا فيها وعد زوجى أنه سيكون موجودا لتناول عشاء عيد الفصح معنا، وأننا سنذهب إلى الكنيسة معا، وأنه سيتولى شئون بيزنس العائلة"

لكن قبل أسابيع قليلة من عيد الفصح، فى صباح ٣٠مارس، انضم زوڤكو وباتالونا ليشكلا فريقا مع مقاول آخر من بلاكووتر، مايك كيج من ولاية تنسى، فى الثامنة والثلاثين من العمر، وعضو سابق فى فرقة عمليات الطيران الخاصة المائة والستين، المسماة "الطوافون ليلا" (بحثا عن الطرائد). كان أصدقاؤه يسمونه "الرجل الثلجى ، وكان قد تقاعد من الجيش منذ اثنى عشر عاما، وخدم فى پناما وجرينادا قبل أن يصبح من ضباط الاحتياط. كان مؤخرا قد مُنح النجمة البرونزية عن أنشطته بأفغانستان بعد ٩/١١. عاد إلى الولايات المتحدة بعد أفغانستان وعمل بوظيفة أمنية متواضعة المرتب قبل أن ينضم إلى العمل المربح مع بلاكووتر بالعراق. قال صديقه جون منيش لمجلة تايم "كان هذا نوع العمل الذى أحبه مايك. كان جنديا ومحاربا". وفى ذاك اليوم بالعراق، كان مايك قد أرسل إيميل إلى صديق له يقول فيها إنه أحب العراق ووظيفته ذات المرتب الكبير. كان العضو الرابع فى ذلك الفريق المختلط هو وجه لم يره زوڤكو وباتالونا أبدا ببغداد، عضو سابق بالسيلز يدعى سكوت هلڤنستون. كانت المهمة، التى أُنيطت بهم هى مرافقة بعض الشاحنات لإحضار بعض تجهيزات المطابخ من مكان قرب الفلوجة ليسلموها فى قاعدة عسكرية. كانت تلك إحدى أولى المهمات التى تقوم بها بلاكووتر وفقا لعقدها الجديد لتزويد قوافل إمدادات ESS بالأمن. قبل بدء المهمة اشتكى باتالونا لصديق له أن أعضاء الفريق لم يعملوا معا أبدا. وفق كل هذا، انطلق الفريق فى غياب رجلين يُزْعم أنهما تعطلا حيث كان عليهما إتمام مهمات مكتبية بمُجمع بلاكووتر. ثم إنه، وبدلا من شاحنات مدرعة، زُوِّد الرجال بسيارتى جيب كانتا قد جُهزتا، بأسلوب

مرتجل، مؤخرا بلوح فولاذى فى المؤخرة.

فى ٣٠مارس ٢٠٠٤، يوم العمل الأول لسكوت هلفنستون بالعراق، وجد سكوت نفسه خلف عجلة قيادة سيارة جيب ميتسوبيتشى باجيرو حمراء يسرع قاطعا صحراء غرب العراق الخالية المخيفة. كان تيج يجلس إلى جانبه. كان هلفنستون قد التقى الآخرين لتوه، فى اليوم السابق –لم يكن ذلك إجراء مثاليا بالنسبة لرجال على وشك الانتشار فى واحدة من أكثر المناطق خطورة بالعراق. كان يتبع الجيب الحمراء عن قرب جيرى زوفكو، ضخم الجثة، يقود جيب باجيرو سوداء؛ وإلى جواره باتالونا –الذى يبلغ الثامنة والأربعين، وأكبرهم سنا. لم يكن للمهمة التى أنيطت بهم ذاك اليوم علاقة ببول برمر أو الأمن الدبلوماسى. كانوا حرفيا يُعرضون أنفسهم للموت من أجل بعض الشوك والملاعق والحلل والطاسات. إلا أن الرجال لم يكونوا يتقاضون ٦٠٠دولار فى اليوم كى يفرضوا أولوياتهم، أو يسائلوا المشهد الأكبر، فقط ليؤدوا مهمتهم كما يجب ولحماية من يُناط بهم حمايته. واليوم كان المطلوب منهم حماية تجهيزات مطابخ، وغدا قد يطلب منهم حماية "سفير السفراء".

وبنظرة ارتجاعية، نجد أن هناك الكثير من الأسباب التى من أجلها كان لايجوز أن يذهب هؤلاء الرجال لقضاء تلك المهمة. قالت السى آى إيه ووزارة الخارجية إنهم لم يكونوا ليرسلوا أربعة رجال فقط فى مهمة داخل منطقة معادية كتلك التى ذهب إليها هؤلاء. ستة هو الحد الأدنى. مهمة الرجل الغائب من كل مركبة كانت هى تصويب مدفع ثقيل آلى ماركة SAW لحصد أى مهاجم، خاصة من الخلف. كان هلفنستون قد قال فى إيميل أرسلها إلى تريشيا زوجته قبل أيام قليلة فى رحلته إلى الفلوجة "أنيطت بى مهمة قيادة السيارة، من ثم فإننى أعتمد على رفاقى لمراقبة مجال إطلاق النيران". وبدون الرجل الثالث كان الأمر يعنى أن على الراكب وحده توجيه السيارة والدفاع عنها ضد الهجمات فى آن. كما أنه كان من الواجب أن يكونوا فى سيارات أكثر أمنا من مجرد سيارات SUV، التى يشار إليها، على

نطاق واسع، بصفتها "مغناطيسات للطلقات النارية" بالعراق لأن المقاولين الأجانب يستخدمونها كثيرا. كان من المفترض أيضا أن يتمكن الرجال من إجراء تقدير استخباري قبل العملية لمراجعة مستوى التهديد بطول الطريق الذى سيقطعونه، لكن، وكما تقول التقارير فقد تم التخطيط للمهمة بتسرّع مفرط. وفوق هذا كله، تم إرسال هلفنستون ذاك اليوم دونما خريطة ملائمة لتلك المنطقة الخطرة التى كانوا سيقطعونها. من السهل، بعد الواقعة، أن يقول أحدهم إنه كان بإمكان الرجال رفض الذهاب فى تلك المهمة. فبعد كل شئ، فلم يكونوا يخدمون فى الجيش ولم يكن بالإمكان إخضاعهم لمحاكمة عسكرية لرفضهم تنفيذ الأوامر، وإن كل ما كانوا سيفقدونه هو سمعتهم وربما رواتبهم. أبلغت كاثى بوتر، صديقة هلفنستون وأحد العاملين السابقين ببلاكووتر، صحيفة نيوز آند أوبزرفر "لم يكن ليجوز لنا الذهاب فى تلك المهمة. لكن هؤلاء الأشخاص مغامرون مرتزقة، يكتفون بما يحصلون عليه".

من ثم، انطلقوا فى صحراء العراق الغربية الساكنة من الصعب تخيل أن هؤلاء الرجال لم يتحدثوا عن المخاطر التى كانوا على وشك مجابهتها. كان الاقتراب من الفلوجة فى تلك الأيام شأنا مرعبا لغير العراقيين، ولم يكونوا بحاجة لأن يخبرهم أى أحد بذلك. كان المارينز وسط هجمة هائلة شاملة على المدينة، ولم يكن يجوز لأى أحد من الجيش أن يتوجه إلى داخل الفلوجة بأربعة رجال فقط وبدون أسلحة مناسبة. كانت إدارة بلاكووتر تعلم هذا تماما. فى عقدها مع ESS، بيّنت بلاكووتر هذا، حيث نصت على أنه "فى وجود التهديد الحالى على مسرح العمليات العراقى كما تدل عليه الأحداث التى وقعت مؤخرا ضد كيانات مدنية بالفلوجة، الرمادى، التاجى والحلة، فثمة مناطق بالعراق ستتطلب وجود ثلاثة من العاملين بالأمن، على الأقل، فى كل مركبة. سيظل التهديد فى الوقت الراهن والمستقبل المنظور متسقا وخطيرا. من ثم فمن أجل تزويد المهمات بقوات حماية أمنية خاصة سليمة تكتيكياً وقادرة على الوجه الأكمل، لابد أن يكون فريق الحراسة مكونا، على الأقل، من ستة من العاملين.

فى الأيام التى سبقت تلك المهمة المحددة، كان الوضع بالفلوجة يتلولب خارج نطاق التحكم. كان جنود الولايات المتحدة قد سقطوا فى كمائن بالمدينة، وتم قتل مدنيين، وانتشرت الأنباء عن أن "مدينة المساجد" كانت تتحول سريعا إلى "مدينة المقاومة". فى اليوم السابق على توجه رجال بلاكووتر الأربعة إلى الفلوجة، اصطدمت قافلة مارينز بعبوة ناسفة. وفى لحظات صعد رجال المقاومة إلى المركبة وفتحوا عليها نيران مدافع AK-47، وقتلوا أحد أفراد المارينز وأصابوا اثنين آخرين. وفى صباح اليوم التالى، فيما توجه هلفنستون والآخرون إلى الفلوجة، أغلق المارينز الطريق السريع الرئيسى من المدينة إلى بغداد. بعد أشهر من الهدوء النسبى، كان ثمة عملاق ينهض من بين أنقاض "الصدمة والترويع"، وسرعان ما وجد هلفنستون ورجال بلاكووتر الآخرين أنفسهم وسط هذا كله.

وكما أراد حظهم (أو ربما لعدم وجود خريطة معهم)، ففى ليلة ٣٠ مارس، ضل هلفنستون والثلاثة الآخرون طريقهم. مضوا يقودون سياراتهم على غير هدى فى المثلث السنى قبل أن يتمكنوا من الاتصال بجيش الولايات المتحدة بالمنطقة. شقوا طريقهم إلى قاعدة للمارينز كان أطلق عليها مؤخرا اسم "كامب فلوجة"، ورتبوا أمر قضاء ليلتهم هناك قبل أن يبدأوا رحلتهم ثانية. وكما هو معروف بالعراق، فإن كثيرا من الجنود الميدانيين بجيش الولايات المتحدة يكنون الاستياء من المرتزقة. كان معظم الجنود يعلمون أن الأشخاص من أمثال هلفنستون وزملائه الثلاثة يتقاضون عن اليوم الواحد ما يتقاضونه هم عن أسبوع عمل. دعا أحد الضباط من القاعدة الأمريكية هؤلاء الرجال غاضبا "كاوبويز" وقال إن رجال بلاكووتر رفضوا إخبار القيادات -أو أى أحد فى القاعدة العسكرية- أى شئ عن طبيعة مهمتهم. وفى الصباح التالى، وقبل رحيلهم، هاتف هلفنستون والدته التى كانت قد قالت له إنها مريضة من قلقها لوجوده هناك. لكن حقيقة أنه لم يكن قد هاتفها لأيام عديدة زادت من قلقها. كان الوقت منتصف الليل بفلوريدا، وكان جرس هاتف والدته مغلقا، من ثم ترك لها هلفنستون رسالة تقول "كل شئ بخير يا والدتى. فضلا، لا داعى للقلق. سأعود سريعا. وسأرعاك.

وبعيد هذا، جلس سكوت هلفنستون خلف عجلة القيادة بالسيارة الباجيرو يقودها في الطريق السريع رقم ١٠، متجها نحو أخطر مدينة بالعالم كان بإمكان الرجال الأربعة، الذين يحملون أسلحة خفيفة، ويبدون مثل رجال السي أي إيه ويرتدون نظارات شمس تلتف حول الرءوس، أن يجدوا أنفسهم بها. كانت التاسعة صباحا، وكانت مدينة المساجد مستيقظة تنتظر.

الشارع الرئيسي الذي يخترق الفلوجة عبارة عن شريط طويل ضيق مختنق تحفه المطاعم، المقاهي، الأسواق، وأعداد كبيرة من المشاة. ووفقا لشهود عيان، كان عدد من الرجال الملثمين قد فجروا آلية صغيرة، قبل وصول الرجال إلى الفلوجة ذاك الصباح، مما تسبب في إخلاء الشوارع وإغلاق المحال التجارية أبوابها. منذ اللحظة التي دخلت فيها القافلة حدود المدينة، برز الرجال. وحقا، فمن الممكن جدا أن الأمر برمته كان مُعداً من البداية. زعم رجال المقاومة في شريط فيديو تم تصويره في هذه المناسبة بواسطة مجموعة من المقاومين أنهم كانوا قد زُوِّدوا بمعلومات سرية عن تحركات موكب بلاكووتر، والذي كانوا يعتقدون أنه مكون من عملاء للاستخبارات الأمريكية. قال أحد الملثمين على الفيديو "وصل مجاهد موالٍ كان يتجسس لحساب جيش الجهاد الإسلامي. قال لقائدنا إن مجموعة من السي آي إيه ستمر من الفلوجة في طريقهم إلى الحبانية". أضاف الرجل "إنهم لن يرافقهم حراس شخصيون وإنهم سيكونون في ملابس مدنية -ليتحاشوا الإمساك بهم من قبل المجاهدين، لأن كل مُسلّح أمريكي يمر من الفلوجة، يُقتل". زعم ممثلو بلاكووتر، فيما بعد، أن وحدات من الشرطة العراقية التي عينتها الولايات المتحدة رافقوهم، لهذا الهدف، إلى داخل المدينة. فيما بعد، أبلغ مسئول رفيع المستوى من الاستخبارات الأمريكية "تُتاَح له المعلومات مباشرة" الصحفي توماس ريكس أن أنباءً تسربت من داخل المنطقة الخضراء عن تحركات موكب بلاكووتر.

وفقا لمجريات الأمور، فقد سار زوفكو باتالونا -اللذان كانا قد مضى عليهما بالبلد وقت أطول كثيرا من هلفنستون -في المقدمة، تبتعهما شاحنتان مسطحتان

مكشوفتان فارغتان يقودهما عراقيون، واللتان كانتا ستُحمّلان بتجهيزات المطابخ فى الطرف الآخر من الفلوجة. وفى المؤخرة، سارت العربة الباجيرو الحمراء وبداخلها هلفنستون وتيج، وبُعيد دخولهم المدينة، بدأ الموكب يُبطئ. إلى يمينهم كانت المحال والأسواق، وإلى اليسار كانت مساحة مفتوحة. وحينما توقفت المركبات، يقول الشهود إن قنبلة يدوية أُلقيت على عربة هلفنستون الجيب. قبل أن يستوعب هو أو تيج ما كان يحدث، دوّى صوت طلقات النيرانِ في أنحاء شوارع الفلوجة. اخترقت الطلقات جانب الباجيرو مثل الملح وهو ينفذ من الثلوج.

كان أسوأ شئ بالإمكان حدوثه لجندى قوات خاصة هو الإحساس بأنه فى مصيدة. لا يعرف أحد، يقينا، آخر ما رآه هلفنستون قبل أن تصعد أنفاسه الأخيرة، لكن مما لاشك فيه أن ما رآه كان مُروّعا. قد يكون قد ظل على قيد الحياة فترة كافية عرف فيها أنه سيموت ميتة بشعة. وفيما كان جسده المصاب بجراح قاتلة يرقد بالجيب، والدم يندفع منه، قفز حشد من الرجال على كبوت الباجيرو، وأطلقوا ذخائر أسلحتهم واخترقوا طريقهم إلى الداخل من خلال زجاج السيارة الأمامى الذى حطموه. وبجوار هلفنستون، رقد مايك تيج والدماء تندفع من رقبته. ملأت الهواء صيحات "الله أكبر". كان المهاجمون قد تحركوا سريعا مثل الصقور التى تحط على فريسة جريحة تحتضر. وسرعان، ما انضم إلى المذبحة أكثر من دستة من الشبان الذين كانوا يتسكعون أمام محل للكباب. ووفقا لشهود العيان، ظل أحد رجال بلاكووتر على قيد الحياة بعد إطلاق النار على صدره، ليجذبه الرجال خارج العربة وهو يتوسل حياته. قال أحد الشهود، "قتله الأشخاص بإلقاء الحجارة عليه والتواثب على جسده حتى مات. ثم بتروا ذراعه، ساقه ورأسه، وكانوا يهللون ويرقصون".

وحينما دمرت الطلقات النارية سيارة هلفنستون الجيب، أدرك جيرى زوفكو ووِس باتالونا أن كميناً قد نصب لهم. ضغط باتالونا على البنزين وحاول أن يُنقذ الاثنين الآخرين أو ينجو بنفسه. ووفقا لأحد العاملين السابقين فى الشركات الخاصة، فإن

بلاكووتر تدرب رجالها على عدم مساعدة السيارة الأخري إن وقعت إحدى المركبات فى كمين. حاوِلْ الخروج منه. إن نجاتك هى الغايه النهائية". لكن فى عدم وجود سوى القليل من الفولاذ المصفح على الجيب، وشخص مسلح واحد مكلف بإطلاق النيران، أدرك باتالونا وزوفكو أنهما هالكان لا محالة. وفى غضون دقائق، وجدا نفسيهما وسط وابل من الطلقات واصطدمت سيارتهما الجيب بمركبة أخرى. فُجِّر رأس زفكو وانتُزِع. كان قميص باتالونا الهاوايى ممتلئا بثقوب الطلقات؛ وسقط رأسه أماما. وعلى مسافة، كان الغوغاء يحطمون سيارة هلفنستون ويفككون أجزاءها. نُهبت أسلحتهم وعتادهم؛ أحضر أحدهم الجازولين وأغرق المركبات والجثث. وسرعان ما اندلعت فيها ألسنة اللهب. أما خلفية الأصوات التى التقطها شريط الفيديو الذى سجله رجال المقاومة فقد كانت عبارة عن مزيج من أبواق السيارات التى انطلقت، وصيحات عشوائية تهتف "الله أكبر

وفى وسط المذبحة، وصل الصحفيون والتقطوا صورا سرعان ما اكتسبت سمعة سيئة. تضخم الحشد حتى وصل إلى أكثر من ثلاثمائة شخص واختفى المهاجمون الأصليون فى الشوارع الجانبية بالفلوجة. سُحبت الجثث المتفحمة من السيارتين المحترقتين، وقام الرجال والصبية بتمزيقها إرباً، كل طرف على حدة. مضى الرجال يضربون الجثث بنعال أحذيتهم، فيما قام آخرون بتقطيع أشلاء الجثث المحترقة بأنابيب معدنية ومجاريف. حمل أحدهم، أمام الكاميرات، لافتة صغيرة عليها شعار جمجمة وعظمتين مكتوب عليها "الفلوجة مقبرة الأمريكيين". تعالت الهتافات "بالروح بالدم، نفديك يا إسلام!". وسرعان ما ربط الغوغاء جثتين إلى الجزء الخلفى من عربة أوبل حمراء غامقة وسُحِلتا حتى الكوبرى الرئيسى الذى يعبر الفرات. رُبطت جثة أخرى إلى عربة عليها بوستر للشيخ أحمد ياسين الذى اغتالته إسرائيل. وفى الطريق، ربط أحدهم قالبا من الطوب إلى ساق يُمنى مفصولة ودَفع بها أعلى سلك للكهرباء. وعند الكوبرى، تسلق بعض رجال العوارض الفولاذية وعلقوا بقايا هلفنستون وتيج المحترقة فوق النهر، مكوِّنة صورة أيقونية. تدلت جثتاهما فوق الفرات لحوالى عشر ساعات –مثل "النعاج المذبوحة" بتعبير أحد أهالى الفلوجة.

وفيما بعد، أنزل بعض الأشخاص البقايا ووضعوها على كومة من إطارات السيارات، وأشعلوا بها النيران مرة أخرى. وحينما خمدت النيران، ربط الأشخاص ما تبقى منها إلى ظهر عربة رمادية يجرها حمار واستعرضوها فى أنحاء الفلوجة، ثم ألقوا بها فى النهاية أمام مبنى البلدية. تبع عشرات العراقيين العربة فى موكب مروع وهم يهتفون "ما الذى أتى بك يا بوش إلى هنا لتعبث فى شئون أهالى الفلوجة؟". حذر أحد الرجال "هذا مصير جميع الأمريكيين الذين يأتون إلى الفلوجة".

كانت تلك هى لحظة مقديشو فى حرب العراق، لكن مع وجود فريقين رئيسيين: لم يكن المقتولون من الجيش الأمريكى، بل مرتزقه؛ وخلافا لما حدث بالصومال عام ١٩٩٣، لم تكن الولايات المتحدة تنوى الانسحاب. وبدلا من ذلك، فقد أشعلت وفاة جنود بلاكووتر الأربعة، هؤلاء، حصارا أمريكيا عنيفا، وبدأت فترة من المقاومة غير المسبوقة للاحتلال، بعد حوالى عام، بالتحديد، من سقوط بغداد■

7

الفصل السابع

تنظيف الفلوجة

كانت الجثث المحترقة مازالت معلقة من كوبرى الفلوجة حينما انتشرت أخبار الكمين فى أنحاء الكوكب. قال الكابتن دوجلاس زمبياك فيما كان ينظر إلى المشهد على شاشة التليفزيون بقاعة الطعام فى قاعدة عسكرية خارج الفلوجة من المحال أن يفعلوا هذا بأمريكيين لكن لم تحدث استجابة مباشرة من **آلاف المارينز الموجودين** على مقربة من الفلوجة. ربما كان هذا بسبب أن خمسة من **المارينز كانوا قد قُتلوا،** ذاك الصباح، على مقربة من الفلوجة بعد انفجار عبوة ناسفة. وقد يُعزى هذا إلى أن رجال بلاكووتر لم يكونوا من قوات الولايات المتحدة "الرسمية" على أية حال، ظلت جثث المقاولين متدلية فوق الفرات ساعات عديدة كتذكرة كئيبة على أنه بعد عام من سقوط بغداد، وأحد عشر شهرا من إعلان الرئيس بوش انتهاء العمليات الحربية الرئيسية، وقبل تسعين يوما من "تسلم العراقيين "السيادة" رسميا، كانت الحرب تبدأ لتوها. فى البداية، حاول المتحدث العسكرى باسم القوات الأمريكية، العميد مارك كيميت التقليل من أهمية الكمين، وأسماه حالة منعزلة" صغيرة فى نطاق

محلى"، جزءا "من تصاعد طفيف فى الاشتباكات المحلية". قال كيميت إن الفلوجة "تظل إحدى تلك المدن فى العراق التى لا تستوعب الوضع. وفيما كانت تلك الحادثة تقع بالفلوجة، كنا نفتح مدارس فى أنحاء العراق. نقوم بفتح مستوصفات. نزيد من مخرجات الكهرباء. ومن مخرجات النفط" أعلن كيميت هذا فى مؤتمر صحفى يوم الحادث. "من ثم، هل هذا مأساوى؟ إنه مأساوى بإطلاقه. هناك أربع عائلات فى العالم سيتلقون طرقات على أبوابهم. ولا يريد أحد أن يكون على أى من جانبى تلك الأبواب حينما يحدث هذا، ليتلقى الأنباء أو يوصلها. لكن لن يثنينا هذا عن القيام بمهمتنا. وحقا، فإننا إذا أُثنينا عن القيام بالمهمة، سيلحق هذا الخزى بموت هؤلاء الأشخاص". قال المتحدث باسم برمر، دان سنور، للصحفيين، إن الناس الذين سحبوا تلك الجثث واشتركوا فى الهجوم على المقاولين "ليسوا هم الأشخاص الذين أتينا إلى هنا لنساعدهم. علينا أن نأسرهم أو نقتلهم بحيث يستطيع هذا البلد التحرك قُدُماً". قال سنور إن من نفذوا الكمين ودعموه "هم نسبة ضئيلة" من

العراقيين إن الغالبية الساحقة من العراقيين يشعرون بالامتنان للتحرير –حوالى ٩٥٪ إلى ٩٨٪ من الشعب

وفى تلك الأثناء، وعلى بعد آلاف الأميال فى واشنطون دى سى، كان الرئيس بوش، فى حملة حشد التأييد، يتحدث فى فندق ماريوت ووردمان بارك الفخم. قال لداعميه مازلنا نواجه فتوات وإرهابيين بالعراق يفضلون المضى فى قتل الأبرياء على قبول تقدم مسيرة الحرية. تحاول هذه الفئة من القتلة زحزحة إرادتنا. لن يخيف الفتوات والسفاحون أمريكا أبدا. نحن نهاجم الإرهابيين بشراسة بالعراق. سنهزمهم هناك كى لا يكون علينا مواجهتهم فى بلدنا". وفى الصباح التالى، استيقظ الأمريكيون على أنباء أحداث القتل بالفلوجة. تصايح عنوان الصفحة الأولى الرئيسى بشيكاغو تريبيون "الغوغاء العراقيون يشوهون ٤ مدنيين أمريكيين"، وأعلنت الواشنطون بوست "تشويه أربعة مدنيين أمريكيين فى هجوم بالعراق"، وزعق عنوان ميامى هرالد الرئيسي "الأمريكيون يُدنِّسون". تواتر ذكر الصومال كثيرا.

بعد تقليل كيميت من شأن الكمين فى البداية، تحقق البيت الأبيض –وبول برمر– أن التمثيل العلنى المستطال بجثث رجال بلاكووتر هو صفعة كبرى للحرب الدعائية التى تكذّب الظهور السريع للمقاومة المعادية للولايات المتحدة بالعراق. ذهب البعض إلى حد الاعتقاد أن الكمين كان محاولة لإعادة خلق صومال ١٩٩٣، حينما أسقط الثوار هليكوبتر بلاكهوك أمريكية وقتلوا ثمانية عشر جنديا أمريكيا وسحلوا بعض الجثث فى شوارع مقديشو مما دفع إدارة كلينتون إلى الانسحاب من البلد. واجهت إدارة بوش، قبل أقل من ثلاثة أشهر من "تسليم" العراقيين السلطة الذى كثرت الدعاية له والمبالغة فى أهميته الحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها عن وجود مقاومة جريئة للاحتلال الذى أصبح، بتزايد، غير متقبل بالداخل الأمريكى وفى العراق. كتب برمر قائلا "سرعان ما أصبحت الصور أيقونات لحقيقة التمرد الضارية، مؤكدة على أن جيش التحالف لم يكن يتحكم فى الفلوجة". يقول برمر إنه أبلغ اللواء ريكاردو سانتشز، قائد القوات الأمريكية بالعراق إن "علينا أن نرد على

هذا الاعتداء الوحشى، وإلا سيعتقد الأعداء أننا مترددون". أجاب سانتشز، وفقا لما قاله برمر "إننا نزيل الغبار عن العملية التى خططنا لها الخريف الماضى... خطط تنظيف الفلوجة وإخلائها"

وسرعان ما وُضعت خطط سحق "مدينة المساجد" على طريق التنفيذ السريع. أعلن سكوت ماكللان، المتحدث باسم البيت الأبيض "لن يخيفنا أحد. إن الديموقراطية تتجذر ولا سبيل إلى العودة إلى الوراء". وافقه السناتور جون كيرى -المرشح الديموقراطى للرئاسة آنذاك- قائلا "تُذكرنا هذه الهجمات المروعة بوحشية أعداء مستقبل العراق وخبثهم. ومثلما وحّدنا الحزن، فإننا موحدون أيضا فى قرارنا بأن هؤلاء الأعداء لن يهيمنوا". أما النائبة نانسى بيلوسي، قائدة الديموقراطيين بمجلس النواب فقالت "لن نهرب من المدينة لأن بعض الناس خرجوا على القانون بالفلوجة". وفى تلك الأثناء، دعا المنظرون والمحللون السياسيون على شاشات الفضائيات إلى إراقة الدماء. تحدث بيل أوريلى من قناة فوكس الإخبارية عن "الحل النهائى" (الإبادة) قائلا "لا يهمنى أهل الفلوجة. لن تكسبوا عقولهم وأفئدتهم. سيقتلونك إلى النهاية. لقد برهنوا على ذلك. من ثم علينا تدمير ذلك المكان والتخلص منه".

وفيما بعد، وفى دعوته للولايات المتحدة إلى "استخدام الحد الأقصى من القوة لإنزال العقاب بإرهابيى الفلوجة" أعلن أوريلى "بإمكان الخوف أن يكون أمرا طيبا. لابد من قتل الإرهابيين القتلة ومن يُمكّنونهم أو احتجازهم. ولابد أن يكون عقابهم أمثولة للآخرين. كيف تظن أن صدام تمكن من التحكم فى العراق لعقود؟ إنه فعل ذلك من خلال الخوف". وفى تلك الأثناء، قال المرشح الديموقراطى السابق لرئاسة الجمهورية الجنرال ويزلى كلارك على شاشة إن بى سى "إن المقاومة لا تتراجع بالفلوجة، بقدر معلوماتى. إنها تتراكم وتتنامى. وليس من المسموح وجود هذا التحدى لسلطتنا"

تساءل الكثيرون عن سبب إمكان حدوث مثل هذا التمثيل المستطال بجثث مقاولى بلاكووتر -فى وجود أربعة آلاف من المارينز متمركزين حول الفلوجة- ولماذا تُركت

جثثهم المتفحمة متدلية من على الكوبرى. قالت وكالة يونايتدبرس فى تقرير لها حتى فيما كانت المركبتان تحترقان وترسلان زخات الدخان السميك الأسود فوق محال المدينة المغلقة، لم تُرسل أية عربات إسعاف، أو عربات مطافئ، أو رجال أمن إلى المدينة فى محاولة لإنقاذ الضحايا. وفى هذه المرة لم تكن ثمة طائرات بلاكهوك تحاول الإغاثة. بدلا من ذلك، هُجِرت شوارع الفلوجة وتُرِكت للحشود المهللة، الفوضوية العنيفة التى أبدت مظاهر الابتهاج وسط الأشلاء الآدمية المشوهة". قال الكولونيل مايكل ووكر، المتحدث باسم المارينز. "أكان علينا إرسال دبابة لاسترداد أربع جثث ميتة، مع احترامى لأصحابها؟ ماذا كان ذلك ليفيد؟ إن الغوغاء هم الغوغاء. كنا فقط سنستثيرهم. من الذكاء أن تُترك الأمور تخفت".

وفى رد عنيف منه على سؤال أحد المراسلين عما إن كان المارينز لم يدخلوا الفلوجة عقب الكمين لمواجهة الغوغاء الذين كانوا يهاجمون رجال بلاكووتر نظرا "للخطر الداهم ، قال كيميت "لا أعتقد أن ثمة مكاناً فى ذلك البلد تعتقد قوات التحالف أنه أخطر من أن تقتحمه . وفى اليوم ذاك، قال تاكر كارلسون مضيف برنامج كروسفاير بالسى إن إن "أعتقد أن علينا قتل كل من هو مسئول عن موت هؤلاء الأمريكيين. إن هذا لدلالة على الضعف. إن هذا ما أدى إلى ٩/١١. كان هذا بسبب أننا تركنا أمورا كتلك تمر دون استجابة. هذا أمر خطير".

وفى غضون ٢٤ساعة تغيرت نبرة كيميت. أعلن فى مؤتمر صحفى ببغداد "سنرد. لن نقوم باندفاع متهور داخل المدينة. سيكون مخططا له، محددا وساحقا. سنقتحم الفلوجة مرة أخرى، وسيكون الموعد والمكان من اختيارنا. سنقتنص المجرمين. سنقتلهم، أو نأسرهم. سنأتى بالسلام إلى الفلوجة ونُرضيها".

أعلن برمر فى أول تعليقات له عن أعمال القتل أثناء خطاب له أمام ما يقرب من خمسمائة خريج من أكاديمية الشرطة العراقية ببغداد، أعلن قائلا "إن أحداث الفلوجة أمس نموذج دراماتيكى عن الصراع القائم بين الكرامة الإنسانية والبربرية" ثم حذر من أن قتل رجال بلاكووتر "لن يمر دونما عقاب". قال إن

المقـاولين الموتـى "أتوا إلى هنا لمسـاعـدة العـراق على التـعـافى من عـقـود من الديكتاتورية، لمساعدة شعب العراق على أن يصبح لديه الانتخابات، والديموقراطية والحرية التى ترغب فيها الغالبية الساحقة من الشعب العراقى. إن هؤلاء القتلة إساءة مؤلمة لنا فى قوات التحالف. إنهم لن يعيقوا المسيرة إلى الاستقرار والديموقراطية بالعراق. إن الجبناء والغيلان الذين ارتكبوا تلك الفعلة أمس يمثلون أسوأ ما فى المجتمع"

وُصفت الفلوجة، فى التقارير الأمريكية عن الكمين بصفتها معقل المقاومة السنية مليئة بالمقاتلين الأجانب وبالموالين لصدام . أضحت الرواية السائدة هى أن رجال بلاكووتر مقاولون مدنيون أبرياء كانوا يقومون بتسليم الأطعمة، وذبحهم جزارو الفلوجة". ولدى نقطة ما بعد الحادث، أبلغ كيميت الصحفيين أن رجال بلاكووتر كانوا هناك "لتقديم المساعدة، لتقديم الطعام إلى تلك المنطقة المحلية" كما لو أنهم كانوا ناشطين إنسانيين يعملون بالصليب الأحمر. لكن الكمين نُظِر إليه بأسلوب مختلف داخل الفلوجة وفى أنحاء العراق الأخرى. ولم تُغير الأنباء بأن الرجال لم يكونوا فنياً من قوات الولايات المتحدة الميدانية حقيقة أنهم كانوا أمريكيين كاملى التسلح سافروا وسط الفلوجة فى الوقت الذى كانت القوات الأمريكية تقتل المدنيين العراقيين وتحاول الاستيلاء على المدينة بالقوة. قالت النيويورك تايمز فى تقرير لها "قال كثيرون بالفلوجة إنهم يعتقدون أنهم حققوا نصرا هاما يوم الأربعاء. أصروا على أن الرجال الأربعة الذين كانوا يقودون سيارتين SUV ليس عليها علامة مميزة كانوا يعملون لسى آى إيه. قال سلام الدليمى، ٢٤عاما، من أهالى الفلوجة: "هذا ما يستحقه هؤلاء الجواسيس". قال بيتر جنينجز، منسق أخبار إيه بى سى، فى برنامج لارى كينج بالسى إن إن، وكان قد عاد من العراق قبل بضعة أيام من الحادث "ثمة نوع من جيش ثان من الأمريكيين هناك على شكل الأفراد العاملين بالأمن، الذين يكاد الإنسان يراهم فى أى مكان بالبلد به عضو من التحالف يقوم بعمل ما. ولفتوا نظرى لأنهم أهداف منظورة. مسلحون حتى أسنانهم. الكثيرون منهم يبدون وأنهم شخصيات من أفلام لسلفستر ستالونى. وهم يجوبون أنحاء

البلد. وأعتقد أن المتمردين، أيا من كانوا، يضمرون لهم الشر، وقد كانوا يتعقبونهم. من ثم، حينما وقع ما وقع بالفلوجة، وبالرغم من بشاعته، فلم تصبنى الدهشة"

وصف آخرون الكمين بأنه استجابة لأعمال القتل الأخيرة التى قام بها الأمريكيون ضد المدنيين بالفلوجة، خاصة معركة إطلاق النيران التى وقعت فى الأسبوع السابق وقُتِل على إثرها أكثر من دستة من العراقيين. قال إبراهيم عبدالله الدليمى "قُتِل الأطفال والنساء. كانوا أبرياء. يشعر أهالى الفلوجة بعظيم الغضب من الجنود الأمريكيين". بدأ توزيع منشورات بالفلوجة تقول إن أعمال القتل نُفِذت انتقاما من اغتيال إسرائيل للشيخ أحمد ياسين. قال عامل بأحد المحال التجارية هناك يسمى أمير "قد يعتقد الأمريكيون أن هذا غير معتاد، لكن هذا ما عليهم أن يتوقعوه. إنهم يظهرون فى كل مكان ويقتلون المدنيين، من ثم فلماذا لا يُقتلون؟" ترددت هذه المشاعر حتى بين صفوف قوة الشرطة الجديدة التى أنشأتها الولايات المتحدة. قال الماجور عبد العزيز فيصل حامد محمدى، من أهالى الفلوجة والذى انضم إلى قوات الشرطة فى ٢٠٠٣ بعد سقوط بغداد "استولوا على البلد ولم يعطونا أى شئ. جاءوا من أجل الديموقراطية ومساعدة الناس، لكننا لم نَرَ أيا من هذا، القتل والعنف فقط"

قال مسئول من الفلوجة يسمى سامى فرهود المفراجى، والذى كان يساند الاحتلال "لا يوفى الأمريكيون بوعودهم لبناء هذا البلد... كنت أساند الجيش. لكنهم خيبوا أملى ووضعونى فى موقف شديد الصعوبة مع أناسي. والآن، يطلبون منا تسليم هؤلاء الأشخاص؟ "قال إن الوضع الإنسانى المتردى وعنف الاحتلال "أصاب الناس بالاكتئاب والغضب" قال "الجوعى يأكلون أى أحد. والناس هنا جياع". بدا هذا السياق واضحا حتى لبعض أفراد القوات الأمريكية. قال الملازم إريك ثورتليفسون من المارينز، والذى كان متموقعا على حدود الفلوجة "من ارتكبوا هذه الجريمة البشعة كانوا يسعون للثأر" ثم أضاف "سنستجيب باستخدام القوة".

وفيما أدان المسئولون الأمريكيون التمثيل العلنى بالجثث، رفضوا الإجابة عن أسئلة تتعلق بتوزيع صور بشعة لجثث مشوهة لأشخاص عراقيين لهم "قيمة عُليا" قتلتهم القوات الأمريكية مثل عدى وقصى ابنى صدام؛ فى يوليو ٢٠٠٣ كبرهان على موتهما.

ومثلما شعرت واشنطون بالحنق والإهانة من التمثيل بجثث مقاولى بلاكووتر، شعر العراقيون بعظيم الغضب من أسلوب الدعاية الأمريكية. سُئل ماكللان، بالبيت الأبيض، فى يوم الحادث عما إن كانت الإدارة "لا ترى نفاقا حينما يُدان عرض الجثث المحنطة كبرهان على الموت، لكنها تترك عرض سحل جثث الأمريكيين فى الشارع دونما إدانة".

أجاب مكلان متجاهلا السؤال "إنه لشائق.. إن الأسلوب الذى عومل به هؤلاء الأفراد حقير خسيس. ونأمل أن يتصرف الجميع بمسئولية فى تغطيتهم للحادث". وحقا، فإن معظم صور الكمين وما أعقبه التى بُثت على الشبكات الأمريكية وظهرت فى الصحف خضعت للمنتجة أو شوِّشت. وبالرغم من هذا، فقد كانت الرسالة واضحة ومع تزايد المقارنات بالصومال فى الإعلام الدولى، ردت الإدارة بعنف. أبلغ كولن باول وزير الخارجية، وكان أول مسئول رفيع المستوى فى إدارة بوش يعلق مباشرة على قتل رجال بلاكووتر، أبلغ التليفزيون الألمانى "لن ننسحب. لن نُطرَد. لأمريكا القدرة على البقاء ومحاربة العدو وهزيمة العدو. لن نهرب".

فى تلك الأثناء، بدأ المراسلون يتساءلون عمن كان هؤلاء المقاولون الأربعة وماذا كانوا يفعلون فى وسط الفلوجة. قال دان سنور، المتحدث باسم الاحتلال فى بغداد "سأدع المقاولين يتحدثون بأنفسهم عن عملائهم بالداخل العراقى. أعتقد أن بلاكووتر لديها أكثر من عميل. لكن، مرة أخرى، من الأفضل لكم الاتصال بهم للحصول على معلومات. ليس لدىَّ أى منها بالتأكيد. إنهم- لدينا عقد مع بلاكووتر، مع- له علاقة بأمن برمر. يشاركون فى حماية السفير برمر". سُئل سنور على شاشة سى إن إن" مع كل الاحترام الواجب لكل من فقدوا حياتهم، هل ثمة قلق من

ألا تكون تلك الشركة أهلا للمهمة؟"

أجاب سنور بعنف "إطلاقا. لدينا أقصى درجات الثقة فى بلاكووتر ومؤسسات الأمن الأخرى التى تحرس مستر برمر وتوفر الأمن فى أرجاء البلاد"

وفى تلك الأثناء، لم يتوقف رنين تليفونات بلاكووتر بكارولاينا الشمالية بعدما أُعلن عن هويات هؤلاء "المقاولين المدنيين". رفضت الشركة التصديق رسميا على أسماء الأموات، وهى سياسة لبلاكووتر. قال جامى سميث، نائب رئيس مجلس إدارة بلاكووتر السابق "إذا بدأتم بالإفصاح عن الأسماء هناك -أى أسماء- ويدأوا هم يكتشفون من هم أصدقاؤكم، ويطرحون الأسئلة، فبالإمكان أن يصبح هذا مشكلة أمنية"

وفى اليوم التالى للكمين، استأجرت بلاكووتر مؤسسة أعمال الضغط Lobbying وحشد التأييد الجمهورية ذات السطوة والصلات القوية، أى ألكساندر استراتيجى جروب (التى أسسها وأمدها بالعاملين المسئول عن اختيار العاملين لقائد الغالبية بمجلس النواب آنذاك، طوم ديلاى)، لمساعدة الشركة على الحفاظ على الصيت الذى كانت قد اكتسبته مؤخرا. أصدرت الشركة بيانا موجزا للصحافة جاء به "إن الصور الحية للهجوم غير المبرر وما أعقبه من سوء معاملة بشعة لأصدقائنا، يبين الأحوال غير العادية التى نقوم بعملنا التطوعى فى ظلها للإتيان بالديموقراطية والحرية للشعب العراقى. تعمل قوات التحالف والمقاولون المدنيون والإداريون جنبا إلى جنب كل يوم مع الشعب العراقى لتزويد المواطنين العراقيين بالسلع الأساسية والخدمات مثل الطعام، المياه، الكهرباء والأمن الحيوى للعراقيين ولقوات التحالف. إن مهامنا صعبة، وفيما نشعر بالحزن على زملائنا الذين سقطوا، نشعر أيضا بالكبرياء والرضا من أننا نصنع فرقا لشعب العراق". قال عضو الكونجرس وولتر جونس الابن، الذى يمثل إقليم كوريتوك، كارولاينا الشمالية (حيث يقع المقر الرئيسى لبلاكووتر) إن المقاولين "ماتوا باسم الحرية". أثنى جون وولتر، السناتور الجمهورى، ورئيس لجنة الخدمات المسلحة بمجلس الشيوخ، أثنى على رجال

بلاكووتر فى جلسة استماع قائلا "هؤلاء الأفراد أساسيون للعمل الذى نؤديه فى العراق، ولإعادة بناء البنية الأساسية".

وفى جزء "رُكن الأسقف" من النشرة الأسبوعية التى تصدرها بلاكووتر باسم "بلاكووتر تاكتيكال ويكلى" مضى الأسقف دى. آى ستاتون فى الوصف التضليلى لرجال بلاكووتر بصفتهم عاملين "فى المجالات الإنسانية" حضروا إلى العراق من أجل "إنقاذ الناس". كتب يقول هؤلاء الأمريكيون الأربعة كانوا هناك لأنهم تم التعاقد معهم لضمان أمن قوافل الطعام التى توصل الحياة وتُشبع سكان العراق المحليين... ويبين هذا الحادث بمفرده كراهية القتاليين الإسلاميين لأى شخص ليس قتاليا إسلاميا، وبخاصة هؤلاء الذين يسمونهم الشياطين البيض أو "الشيطان الأعظم" أو ببساطة "الكفرة". هل تأملت هؤلاء الأفراد الغوغائيين الذين عرضهم علينا التليفزيون؟ هل لاحظت مواقفهم وأعمارهم؟ إنهم يتعرضون منذ الميلاد لعمليات غسيل مخ كى يكرهوا من ليس معهم... وخاصة نحن!!!... والإسرائيليين!". كتب ستاتون يقول إن رسالة المهاجمين هى "إثباط قواتنا من دخول الفلوجة والمنطقة المحيطة بها التي يزعمون ملكيتها!!! إن الرسالة ستأتى بنتيجة عكس المرجوة منها!!!. "أنهى ستاتون وعظته بمناشدة قرائه "فلتجعلوا العدو يدفع ثمنا باهظا لكل فعل قام به ضدنا فيما نحن ندافع عن الحرية والعدالة!!!".

لكن لم يكن لجميع العاملين فى بلاكووتر نفس الرأى. قال مارتى هفستيكر، وهو يعمل كهربائيا لبعض الوقت للشركة بمويوك "أعتقد أنهم يموتون دونما سبب. لا أوافق على ما يحدث هناك. لا يريدنا الشعب (العراقى) هناك".

أما بالنسبة للمارينز، الذين كانوا قد تولوا لتوهم الأمور بالفلوجة، فقد رأوا أن الكمين لم يكن ليحدث فى لحظة أسوأ من تلك لأنه غيّر مسار استراتيجية اللواء جيمس ماتيس. كان القادة المحليون يريدون التعامل مع حادث القتل بصفته قضية لفرض القوانين، ودخول المدينة، وإلقاء القبض على الفاعلين وقتلهم. لكن الحادث كان يُنظر إليه فى البيت الأبيض كتحدٍ خطير لما صممت الولايات المتحدة عليه

بشأن العراق -تحدٍ بإمكانه تعرض كل مشروعها فى البلد للمخاطر. سرعان ما استدعى الرئيس رمسفلد وكبير قادة الولايات المتحدة بالمنطقة، الجنرال جون أبى زيد وطلب منهما خطة عمل. ووفقا للوس أنجيليس تايمز: "كان رمسفلد وأبى زيد مستعدين بالحل، قال أحد المسئولين هجوم محدد ساحق للاستيلاء على الفلوجة". كان هذا ما أمل بوش أن يسمعه، كما قال أحد مساعديه فيما بعد. مالم يُبلَّغه الرئيس هو أن المارينز الموجودين هناك عارضوا بحدة الهجوم الشامل علي المدينة. فيما بعد، قال الفريق جيمس تى. كونواى قائد المارينز "شعرنا... أن علينا أن نترك الوضع يستقر كي لا نظهر أننا نهجم من أجل الثأر . مرّر كونواى هذا الرأى أعلى السلسلة، حتى بلغ رمسفلد، كما قال أحد المسئولين. لكن رمسفلد وكبار مستشاريه لم يوافقوه، ولم يعرضوا (تحفظات كونواى) على الرئيس. قال المتحدث باسم البنتاجون، لورانس دى ريتا فيما بعد: إذا كنت ستُهدِّد باستخدام القوة، فعليك أن تبرهن لدى نقطة معينة على استعدادك الفعلى لاستخدام القوة". وافق بوش، مباشرة على الهجوم

بالفلوجة، وصلت أنباء موافقة الرئيس على الهجوم إلى قاعدة المارينز المتموقعين على تخوم المدينة. قال سانتشز لضباط القاعدة العسكرية "يعرف الرئيس أنه سيكون دمويا، وهو يقبل هذا". وصف أحد الضباط الأوامر بأنها تقول "اقتحموا المدينة واسحقوا أهلها". وبحلول ٢ إبريل ٢٠٠٤، أى بعد ثمان وأربعين ساعة من الكمين وُضِعت عملية الحسم اليقظ" على خط التنفيذ السريع.

بدأ الرقيب راندال كارتر بالمارينز ينفخ فى قواته لفتح شهيتهم للمهمة. أعلن "يمتلئ المارينز بالدافع الحماسى فى مناسبتين، أحدها حينما نخاطر من أجل الحرية، والأخرى حينما ننوى قتل البعض. نحن لسنا نناضل هنا من أجل الحرية.. إننا هنا لهدف واحد: ترويض الفلوجة وتدجينها. هذا ما سنفعله". أما فى داخل المدينة، فكان الأهالى أيضا يستعدون لمعركة اعتقد الكثيرون أنها حتمية.

قبل أن تشن الولايات المتحدة الهجوم الشامل على المدينة، أُرسِل جيم ستيل، نائب

برمر، والمستشار رفيع المستوى فى شئون قوات الأمن العراقية، أُرسل سرا إلى الفلوجة مع فريق صغير من القوات العراقية الذين دربتهم الولايات المتحدة وأُناس آخرون أشار إليهم ستيل بصفتهم مستشارى الولايات المتحدة". كان ستيل إلى وقت قريب أحد تنفيذيى إنرون قبل أن يُقَاربه بول وولفويتز بشأن المنصب بالعراق. وقد يكون ما حبب ستيل إلى الإدارة هو أن له تاريخا عميقا فى "الحروب القذرة" التى شنتها الولايات المتحدة بأمريكا الوسطى. حينما كان كولونيل بالمارينز فى أواسط الثمانينيات، كان ستيل مسئولا رئيسيا، عن "مقاومة التمرد فى الحرب الدموية بإل سلفادور التى زودتها الولايات المتحدة بوقودها، حيث قام بتنسيق مجموعة الولايات المتحدة العسكرية هناك، وأشرف على مساعدة فرق الموت بالجيش السلفادورى وتدريبها، تلك الفرق التى كانت تقاتل ضد فدائيى FMLN اليسارية. وفى نهاية الثمانينات استُدعى للإدلاء بالشهادة أثناء التحقيق فى إيران/كونترا عن دوره فى خط أنابيب إمدادات الأسلحة السرى الذى أمد به أوليفرنورث فرق الموت النيكاراجوية باحتياجاتها من الأسلحة، والذى كان يخترق قاعدة القوات الجوية السلفادورية فى إلوبانجو. كان أيضا قد عمل مع الشرطة البنامية بعد أن أطاحت الولايات المتحدة بمانويل نورييجا عام ١٩٩٠

لعب ستيل دورا مماثلاً مع القوات العراقية التى دربتها الولايات المتحدة فى الأيام الأولى للاحتلال وكان ذا دور مركزى فى البرنامج الذى أسماه البعض "سلفدرت العراق . وفى ظل استراتيجيته، كما كتب بيتر ماس فى النيويورك تايمز مجازين "فإن جنود الولايات المتحدة يتحركون بتزايد باتجاه دور استشارى بالأسلوب السلفادورى. وفى تلك العملية، يقومون بدعم القوات المحلية التى لا يُجفلها العنف، مثلما كان حال الجيش بإل سلفادور. ليس من قبيل الصدفة أن تلك الاستراتيجية الجديدة، أصبحت مرئية بالقدر الأكبر فى وحدة مظلات يعمل ستيل مستشاراً لها؛ وبما له من خبرة كمشارك مركزى فى الصراع بالسلفادور، فإن ستيل يعرف كيف ينظم حملة مضادة للتمرد تقودها قوات محلية".

زعم ستيل، بعد كمين بلاكووتر، أن مهمته "السرية" بالفلوجة فى إبريل ٢٠٠٤ كانت لاستعادة جثث رجال بلاكووتر "ولتقييم وضع العدو . وبعيد تلك المهمة، خطط لما اعتقد أنه يجب أن يحدث. قال "فى الفلوجة، يصبح إستخدام القوة المفرطة أمرا منطقيا . إنه الشئ الوحيد الذى يفهمه البعض هناك. وأيضا بالجنوب (حيث كانت الولايات المتحدة تواجه ثورة شيعية متصاعدة)ـ لا يُمكن أن يُنظر إلينا على أننا ضعفاء. وإلا، لوقعت مثل تلك الأحداث فى جميع الأنحاء". وسرعان ما وجدتْ مدينة المساجد نفسها تحت الحصار حينما وجدت أحلام برمر بـ"تنظيف المدينة" مبررها . وفيما أعد قادة الولايات المتحدة قواتهم للهجوم، ارتفعت أسهم بلاكووتر بواشنطون، وسرعان ما وجد رجال بلاكووتر أنفسهم وسط ثانى جبهة رئيسية للمقاومة تتفجر ضد الاحتلال –وكانت هذه المرة فى مدينة النجف المقدسة الشيعية.■

8

الفصل الثامن

النجف، العراق
04.04.04

فيما بدأ المارينز الإعداد لاجتياح الفلوجة، كانت أسهم إريك برينس ترتفع بأسلوب دراماتيكي بواشنطون دى سي. وفى غضون أيام، تم الترحيب بإريك برينس، وتنفيذيين آخرين من بلاكووتر، فى مقر الكونجرس بكابيتول هيل، بصفتهم ضيوفا متميزين على عدد من أقوي المُشرعين الجمهوريين وأكثرهم نفوذا -هؤلاء الذين كانوا، حرفياً، يديرون مقاليد الأمور بالكونجرس- حيث نودى ببلاكووتر بصفتها "شريكا صامتا" فى الحرب على الارهاب. وفيما جدول أعماله يمتلئ، وجد برينس نفسه يرصد مأزقا آخر لمرتزقته فى العراق. لكن وبخلاف ما حدث بالفلوجة، فإن مقاتلى بلاكووتر أصبحوا هذه المرة مقاتلين ميدانيين، يشتركون فى معركة دامت يوما كاملا ضد مئات من أتباع رجل الدين الثورى مقتدى الصدر بالنجف الأشرف حيث كان قد تم التعاقد مع بلاكووتر لحراسة المقار الرئيسية لسلطة الاحتلال.

فى الأسابيع التى سبقت كمين الفلوجة فى ٣١مارس، كانت إدارة بوش تعد العدة

لهجمة شرسة على الصدر، الذى كان ينظر إليه برمر والبيت الأبيض بصفته عقبة تعترض سبيل تحقيق هدف الولايات المتحدة المركزى آنذاك -أى ما يُدعى "تسليم السيادة" الذى كان مقررا له يونيو ٢٠٠٤. ظهر مقتدى الصدر -ابن عالم الدين المبجل الذى اغتالته قوات صدام- فى العراق المحتل كقائد لجيش المهدى، بل ربما بصفته القائد الأعلى صوتا والأكثر شعبية المعادى للاحتلال الأمريكى. اعتقدت الإدارة، وبرمر، أنه يجب قمع الصدر ومعه حركة المتمردين الشيعة، تماما مثلما يجب قمع الثوار السنة بالفلوجة. فى إبريل ٢٠٠٤، شنت الولايات المتحدة حروبا متزامنة ضد التمرد بالعراق استهدفت بها الحركات السنية والشيعية الرئيسية المقاومة، ولعبت بلاكووتر دورا مفصلياً فى ما قد ينظر إليه كأكثر اللحظات حسما فى احتلال العراق، وهى فترة غيرت مسار الحرب دونما رجعة، وسُجِّلت بصفتها اللحظة التى انفجر فيها التمرد المعادى للولايات المتحدة.

وفيما استحوذ قتل رجال بلاكووتر بالفلوجة على العناوين الرئيسية الدولية لأيام،

ويتذكره الناس الآن بصفته اللحظة الأيقونية فى الحرب، فإن الدور الرئيسى لقوات بلاكووتر بالنجف أثناء الانتفاضة الشيعية بعد ذلك بخمسة أيام كاد ألا يلحظه أحد بإطلاقه. وبالرغم من ذلك، فإن تلك الواقعة التى حدث فيها أن تولى مرتزقة بلاكووتر قيادة جنود الولايات المتحدة الميدانيين الرسميين، جسدت بوضوح وبلا خجل المدى غير المسبوق لاعتماد إدارة بوش على التعاقدات الخارجية لإدارة الحرب. ومثل الكمين بالفلوجة، فإن مصير بلاكووتر بالنجف أرشده التاريخ.

أثناء ذلك العام، أشرف برمر على تنفيذ سياسات متنوعة للولايات المتحدة صاعدت إلى درجة هائلة ظهور حركات مقاومة متعددة للاحتلال. فى إبريل ٢٠٠٤، انفجر هذا كله. قال روبرت فيسك من الفلوجة "استغرق الأمر أعواما ثلاثة ليحوِّل البريطانيون الشيعة والسنة إلى أعداء لهم عام ١٩٢٠، لكن الأمريكيين أنجزوا هذا فى أقل من عام". كان تسريح الجيش العراقى وفصل آلاف العاملين بالدولة بمقتضى برنامج واشنطون لـ"اجتثاث البعث" قد جعل عشرات الآلاف من العراقيين ممن هم فى سن القتال عاطلين، ومن ثم انضموا للمقاومة. ظل العراقيون فى وضع المراقبة، فيما كانت الشركات الأجنبية -مقار معظمها بالولايات المتحدة- تتمروح فى أرجاء بلادهم لتجنى أرباحا هائلة فيما حُكِم على العراقيين العاديين أن يعيشوا وسط القذارة وانعدام الأمن. الأكثر من هذا، هو أن ضحايا جرائم الولايات المتحدة لم يجدوا أية جهة يلجأون إليها لأن المقاولين كانوا محصنين ضد المحاكمة بالعراق، مما أدى إلى اكتسابهم، وبأسلوب قاهر، مظهر الحصانة الكلية.

وفى تلك الأثناء، فتح الوضع الإنسانى المتردى بالبلاد، وأعمال القتل، واختفاء المدنيين العراقيين الباب أمام القادة الدينيين لتقديم الأمان والخدمات الاجتماعية نظير الولاء. أصبحت تلك الظاهرة مرئية بأوضح صورها فى صعود مقتدى الصدر إلى مكانة بطل للمقاومة الوطنية. وسط الشواش والرعب الذى تلا عملية "الصدمة والترويع" كان الصدر بين الشخصيات القلائل فى البلد ممن تعاملوا على أرض الواقع مع الفقر المدقع والمعاناة المفرطة، حيث أقام شبكة كبيرة من المؤسسات الاجتماعية فى منطقة

نفوذه، ومن بينها مدينة الصدر العشوائية الشاسعة ببغداد التى كان نظام صدام قد أهمل سكانها البالغ عددهم مليونين لوقت طويل. وفى الوقت الذى كان برنامج برمر لاجتثاث البعث يقوض المؤسسات والحصانات الاجتماعية، كانت شبكة الصدر تقيم بدائل وتكسب آلافاً من الأتباع الجدد. جاء فى تقرير للنيويورك تايمز "بعد الغزو مباشرة، نشر الصدر أتباعا له مدثرين بالسواد لتسيير دوريات فى شوارع أحياء الشيعة الفقيرة ببغداد. وزع رجاله الخبز، الماء والبرتقال. أيضا، وفروا الأمن الذى كان السكان فى أمس الحاجة له. رأى الصدر فراغا فملأه". وفيما كانت الشخوص الدينية والسياسية الأخرى تتنافس على السلطة فى المؤسسات الجديدة التى أقامتها الولايات المتحدة، رفض الصدر جميع مكونات نظام الولايات المتحدة وداعميه. فى أغسطس ٢٠٠٣ بلغ عدد ميلشيته حوالى خمسمائة رجل. وبحلول إبريل ٢٠٠٤ كان العدد قد تضخم ليصبح حوالى ١٠٠٠٠شخص.

سرعان ما أُلصِق بمصداقية الصدر المتصاعدة وشعبيته ومعهما خطابه الضارى ضد الاحتلال -ضد برمر بخاصة- تصنيف فرضته الولايات المتحدة عليه، أى "خارج على القانون". ومع اقتراب يونيو ٢٠٠٤ "الموعد النهائى" (لتسليم السلطة)، اعتقدت الولايات المتحدة أنه من الواجب قمع الصدر.

كانت واشنطون، ومنذ وقت طويل، قد ظلت تعتبر الصدر عدوا رئيسيا فى العراق "الجديد" وكان كبار مسئولى الولايات المتحدة، من بيهم بول وولفويتز، نائب وزير الدفاع، والجنرال ريكاردو سانتشز، القائد رفيع المستوى بالعراق، قد ناقشوا على مدى أشهر خططا لتحييده. أبلغ مسئول أمريكى رفيع المستوى الواشنطون بوست "كنا قد وصلنا إلى نتيجة منذ وقت مبكر بأن هذا الشخص كان مصدرا للمتاعب ومن الواجب احتواؤه. لكن لم يكن ثمة خطة واضحة لتنفيذ هذا". لكن الوضع تغير فى مارس ٢٠٠٤، حينما شن برمر حربه الشاملة على الصدر، مؤسساته، وأتباعه. وفيما اشتركت إدارة بوش وبرمر فى حملة دعائية هائلة للترويج لـ"تسليم" السلطة للعراقيين، كان الصدر يشجب الاحتلال وأتباعه داخل العراق. كان يدعو لانسحاب الولايات المتحدة من

العراق وأعلن أن جيش المهدى هو "عدو الاحتلال". لم يكن الصدر مجرد شخصية دينية، بل كان أيضا قوميا عراقيا يتحدث بلغة الشارع، وكثيرا ما كان "يُتبِّل" خطبه بالعامية العراقية والإشارات الثقافية.

ووفقا للواشنطون بوست، ظلت، ولوقت طويل، ثمة مخاوف من أن محاربة الولايات المتحدة للصدر ستزيد من شعبيته المتصاعدة بالفعل وربما جعلت منه شهيدا. وفى مارس، هكذا قالت الواشنطون بوست، كانت "حسابات برمر قد تغيرت. فى ٢٨مارس، أغارت قوات الولايات المتحدة على مكتب بغداد لصحيفة الصدر الأسبوعية المعادية للاحتلال "الحوزة" وطردت العاملين بها ووضعت قفلا كبيرا على الباب. وفى خطاب كُتِب بالعربية، يحمل الختم الرسمى لسلطة التحالف المؤقتة، اتهم برمر الصحيفة بانتهاكها المرسوم رقم١٤، واتهم الحوزة "بعزمها على قلقلة الأمن العام وإثارة العنف". وفيما لم يستطع المسئولون الأمريكيون الاستشهاد بمثال على تشجيع الصحيفة للهجمات على قوات الاحتلال، أتى برمر بمثالين على ما وصفه بأنه تقارير زائفة. كان أحدها بعنوان برمر يتبع خطى صدام". نُفِّذ التحرك ضد الصدر بمساندة كاملة من كبار مسئولى إدارة بوش. قال دان سنور، المتحدث باسم برمر "نؤمن بحرية الصحافة. لكن إذا تركنا هؤلاء طلقاء، فسيقع ضحايا وقتلى. ثمة خطاب يهدف إلى إثارة العنف، ولن نسمح به". وفيما بعد، برهن الهجوم الشامل على أنه خطأ حسابات كارثى من جانب برمر. كان قد أُطلِق على صحيفة تيار الصدر اسم المدارس الدينية الشيعية أى "الحوزة" التى يعود إنشاؤها لأكثر من ألف عام، والتى شجعت تاريخيا الثورة على المحتلين الأجانب وبخاصة ضد البريطانيين عام ١٩٢٠. كتب محمد البازى، المراسل السابق لصحيفة نيوزداى بالعراق "فى الأشهر الأخيرة، كان الصدر يفقد بعضا من شعبيته. لكن بعد أن أغلق جنود الولايات المتحدة صحيفة الصدر الأسبوعية ببغداد فى ٢٨مارس، متهمين إياها بإثارة العنف، اكتسب رجل الدين الشاب دعما جديدا ورسّخ نفسه كرجل الدين الشيعى الأكثر ضراوة فى نقده للاحتلال الأمريكى. سرعان ما أشعل إغلاق "الحوزة" احتجاجات جامحة، وغذى التوقعات بأن برمر كان ينوى اعتقال الصدر. وفى النهاية، انتشرت الاحتجاجات حتى أبواب المنطقة الخضراء حيث هتف

المتظاهرون "قُلها يا مقتدى وسنعيد ثورة العشرين".

وحتى قبل أن تبدأ الولايات المتحدة هجماتها ضد الصدر، كان ثمة دمدمات في أنحاء العراق تُنذر باندلاع انتفاضة قومية للسنة والشيعة. قبل يومين من إغلاق "الحوزة" كانت قوات الولايات المتحدة قد أغارت على حى بالفلوجة وقتلت خمسة عشر من السنة، على أقل تقدير، مما أشعل غضب الكثيرين من السنة. وعندما نُصِب الكمين لمقاولى بلاكووتر الأربعة بالفلوجة فى ٣١مارس كان الجنوب على حافة الثورة بالفعل، مع توافد عشرات الآلاف من الشيعة وخروجهم إلى الشوارع. أعلن الصدر فى ٢إبريل فى صلاة الجمعة "إننى ذراع حزب الله وحماس الضارب، هنا فى العراق". وفيما استعدت القوات الأمريكية لحصار الفلوجة، صب برمر الجازولين على الوضع الملتهب بأن أمر باعتقال الشيخ مصطفى يعقوبى، النائب الأول لمقتدى الصدر، الذى احتُجز يوم السبت، ٣ إبريل ٢٠٠٤، كانت تلك هي القشة الأخيرة بالنسبة للصدر. حث أتباعه علنا، وبضراوة، على الثورة ضد الاحتلال.

بعد إلقاء القبض على اليعقوبى، استقل آلاف من أتباع الصدر الغضبى الحافلات باتجاه المقر الروحى لزعيمهم بالكوفة، المجاورة للنجف الأشرف، حيث اعتقد الكثيرون أن اليعقوبى كان معتقلا هناك. وفى طريقهم إلى هناك، واجهتهم شوارع مختنقة مليئة بآلاف الرجال الذين يُعِدُّون للمعركة. قال فؤاد طرفى، المتحدث باسم الصدر فى النجف "لم نَختر وقت الانتفاضة، بل تخيرته قوات الاحتلال". وبعيد فجر يوم الأحد ٤إبريل، بدأ جيش المهدى فى الاستيلاء على المبانى الإدارية فى المنطقة. ومباشرة، تخلى قادة الشرطة المحليون، والإداريون فى مبنى حكومى آخر، عن مسئوليتهم. إلا أن الجماهير الحاشدة بدأت فى التحرك نحو الهدف الفعلى -المقر الرئيسى لقوات الاحتلال بالنجف الذى كانت تحرسه بلاكووتر.

04/04/04

فى صبيحة ٤ إبريل ٢٠٠٤، فيما كانت الشمس تشرق على مدينة النجف الأشرف الشيعية، كان حفنة من رجال بلاكووتر يقفون أعلى سطح مقر سلطة التحالف المؤقتة

التى أنيط بهم حمايتها. وفى الوقت ذاك، كان التواجد الفعلى لجيش الولايات المتحدة محدودا جدا بسبب التفاوضات مع زعماء الشيعة الدينيين الذين طالبوا برحيل قوات الولايات المتحدة عن المدينة. وكجزء من عقدها، كانت بلاكووتر تحرس برمر وأيضا توفر الحماية لخمسة على الأقل، من المقار المناطقية لقوات الاحتلال، ومن بينها المقر الموجود بالنجف. ومثل معظم العالم، كان حراس بلاكووتر على علم بمصير زملائهم بالفلوجة. والآن، ومع بدء انتفاضة قومية، وقفوا يُراقبون فيما كانت التظاهرة من أتباع مقتدى الصدر الغاضبين تصل إلى كامب جولف، الذى كان سابقا حرم جامعة الكوفة، والذى تحول إلى مقرٍ للاحتلال. فى اليوم ذاك، كان لبلاكووتر ثمانية رجال فقط يحرسون تلك المنشأة ومعهم حفنة من القوات من السلفادور. كما تصادف وجود بعض مارينز الولايات المتحدة بالمجمع.

كان العريف بالمارينز لونى يونج قد ظل بالعراق منذ يناير ٢٠٠٤. كان فى الخامسة والعشرين من مدينة دراى ريدج كنتاكى، التى يبلغ عدد سكانها ألفين. كان قد نُشر بالعراق كإدارى بنظام دفاع الرسائل. فى صباح ٤ إبريل، كان بالنجف لتركيب تجهيزات اتصالات بكامب جولف. فى روايته الرسمية لفرقة المارينز عن ذاك اليوم، تذكر يونج أنه "فيما كنا ندخل من البوابة الأمامية، لاحظت مجموعة صغيرة من المحتجين بالشوارع. وفما كنا نتقدم داخل القاعدة كان ثمة عدد كبير من جنود التحالف يرتدون زى مكافحة الشغب بالقرب من البوابة الأمامية. "التقى يونج وزملاؤه بقائد الاحتلال المحلى، مسئول إسبانى، ثم مضوا فى طريقهم إلى السطح لتركيب أجهزة الاتصالات. وبعد حوالى خمس وعشرين دقيقة، كان يونج قد فرغ من مهمته. ورغم بدايات الاحتجاج بالمعسكر، حاول يونج اقتناص عشر دقائق نوم فى الجزء الخلفى من شاحنته "لأنه كان مازال أمامنا حوالى عشرين دقيقة على موعد الطعام"، كما قال يونج "ارتديت ملابسى، وأمسكت بسلاحى، وكنت على وشك مغادرة الحافلة حينما سمعت صوت طلقات مدفع AK-47 التى لايمكن إخطاؤها فى الشارع أمام القاعدة العسكرية". قال يونج إنه أمسك بمعداته سريعا واتجه إلى داخل مبنى سلطة التحالف المؤقتة، ووصل إلى السطح فى النهاية، حيث انضم إلى مرتزقة بلاكووتر

الثمانية والقوات السلفادورية. اتخذ يونج موقعا على السطح وأعد -سلاحه M249 Squad Automatic. نظر من خلال مهداف مدفعه وهو يلاحظ العملية تتكشف أسفل بانتظار الأوامر. قال يونج "بعدما بدا وأنه وقت لا نهائي، والذى ربما لم يكن يتعدى ثواني معدودة، أمكنني رؤية أناس يخرجون من حافلة ويبدأون في الجرى. وسرعان ما اتخذ أحد العراقيين وضع انبطاح وصوب عدة طلقات باتجاهنا. أخذت أصرخ بأننى أبصر أحدهم وأسأل ما إن كان بإمكانى الاشتباك". لكن لم يكن ثمة ضابط من جيش الولايات المتحدة يُصدر الأوامر وبدلا من ذلك، وجد العريف لونى يونج الجندى الميدانى بفرقة مارينز الولايات المتحدة نفسه يتلقى الأوامر، ذاك اليوم، من مرتزقة بلاكووتر يو إس إيه.

تذكر يونج أنه صاح قائلا "بعد إذنك يا سيدى. يوجد هدف فى مداى، هل أُطلق النيران؟ وأخيرا أصدر جنود أمن بلاكووتر الأوامر ببدء إطلاق النيران" قال يونج "آنذاك سددت المهداف على هدفى وضغطت على الزناد. كان بإمكانى أن أرى أنه كان يرتدى زيا أبيض ويحمل مدفعا AK-47 فى يده اليمنى. بدا وأنه يجرى بأسرع ما فى استطاعته حينما أطلقت طلقات قصيرة المدى من عيار 5.56mm. ومن خلال مهدافى استطعت أن أرى الرجل يسقط على الرصيف. توقفت لثانية، ورفعت رأسى عن مدفعى لأرى الرجل وهو يرقد فى الشارع دونما حراك".

قال يونج "حينئذ، غمرنى إحساس غريب. تملكتنى عواطف كثيرة متصارعة فى ذات الوقت. شعرت بحس بالهدف، السعادة، والحزن، تملكتنى كلها فى آن".

وعلى حين زعم يونج وبلاكووتر أن العراقيين هم من بدأوا إطلاق النار فى ذاك اليوم، فقد قال شهود عيان آخرون حاورهم الصحفيون إن الأمر حدث بأسلوب مختلف؛ زعموا أن المعركة بدأت حينما أطلقت القوة التى تحرس المقر الرئيسى النيران من أعلى السطح فيما كان المحتجون يتجمعون "وحينما انزعجوا لدى رؤية الحشود التى كانت مازالت تتحرك، أطلقت القوات الموجودة على السطح طلقات قصد بها تفريق الحشود، التى اشتبكت معهم بدلا من ذلك؛ "هكذا كتب أنطونى شديد مراسل الواشنطون بوست.

"ثم بدأت القوات بإطلاق الذخيرة الحية بدلا من الطلقات التحذيرية. بادلهم المسلحون من المتظاهرين إطلاق النيران من الأسلحة الصغيرة وقنابل يدوية تدفع بالصواريخ، من مدافع المورتار . تراوحت التقارير عن عدد المحتجين خارج مقر الاحتلال بين سبعمائة، وأكثر من ألفين.

وبغض النظر عن كيفية بدء المعركة، فبمجرد أن بدأ إطلاق النيران مضى رجال بلاكووتر، والسلفادوريون، والعريف يونج يُفرغون أمشاط الذخيرة المشط تلو الآخر، ويصوبون آلاف الطلقات ومئات من القنابل عيار 40mm باتجاه الحشد. أطلقوا ذخائر كثيرة لدرجة أنه كان على بعضهم التوقف عن إطلاق النيران كل خمس عشرة دقيقة. كي تبرد مواسير مدافعهم. رد رجال الصدر بقنابل يدوية تدفعها الصواريخ ومدافع AK-47. قال شديد في تقريره "لدى نقطة معينة، رأى شهود العيان مركبة تحمل أربعة جنود سلفادوريين خارج البوابة. تجمع المتظاهرون بأعداد كبيرة حول ركاب المركبة المذعورين وأمسكوا بأحدهم وأعدموه في الحال بواسطة وضع قنبلة يدوية في فمه وتفجيرها. ثم اقتيد جنديان آخران كان وجهاهما مغطيين بالكمات نتيجة ضربهما، اقتادهما رجال مسلحون إلى داخل المسجد".

وفي وسط القتال، انضم عدد من رجال الشرطة العسكرية الميدانيين إلى القوة الموجودة على السطح والتي كان يديرها رجال بلاكووتر. وأثناء المعركة، التي تواصلت قرابة الأربع ساعات. بدأ مقاول من بلاكووتر في تصوير العملية بكاميرا فيديو. وفيما بعد، وجد هذا الفيديو طريقه إلى الإنترنت ليصبح توثيقا تاريخيا لافتا لأحداث ٤ إبريل ٢٠٠٤. يبدأ هذا الفيلم بإطلاق نيران يصم الآذان على المتظاهرين فيما مضى رجال بلاكووتر، العريف يونج وجنديان آخران على الأقل في بزات تمويهية يطلقون النيران جماعيا، الطلقة تلو الطلقة. يصيح أحد المقاولين في الجنود "إنكم تصوبون أعلى مما يجب".

يصيح الصوت هل ترون رجلا على الأرض؟" "أربي جيه" "أين؟"

"أمام الشاحنة مباشرة، على الحائط مباشرة!"

بوم، بوم، بوم، طخ، طخ، طخ. تندفع طلقات النيران المتفجرة لمدة ثلاثين ثانية. يصيح أحدهم "ألديك مزيد من الذخيرة؟". ثم: "الشاحنة فارغة، الشاحنة فارغة".

يتوقف إطلاق النيران فيما يقيِّم الرجال الوضع أسفل. يأمر صوت "تمكنوا مما تحت أيديكم.. تفحصوا قطاعاتكم. تفحصوا قطاعاتكم من يحتاج إلى ذخائر؟"

"لدينا مخزون منها، لدينا مخزون هنا"

"الزنوج الملاعين" يقول صوت آخر فيما يبدأ الرجال فى إعادة حشو أسلحتهم. ثم تدور الكاميرا باتجاه المصور -مقاول من بلاكووتر ذو لحية قصيرة ويرتدى نظارة شمسية- ينظر فى الكاميرا ويبتسم. تدور الكاميرا مرة أخرى نحو العملية فيتمازح ضاحكا. ثم تتجه الكاميرا إلى رجل يبدو وأنه جندى فى جيش الولايات المتحدة ويسأله المصور عن سلاحه.

"أمضيت كل هذه المدة بفرقة المارينز اللعينة- لم أطلق سلاحا أبدا" يجيب الجندى. يصيح صوت آخر "صوب على هدفك" أيضا، بالإمكان رؤية رجال يبدو أنهم قوات سلفادورية على السطح؛ يعطى مقاول من بلاكووتر يرتدى تى شيرت أزرق وكاب بيسبول أحد السلفادوريين تعليمات عن كيفية موضعة سلاح ثقيل. "أمسك بإحكام، أمسك بإحكام، أمسك بإحكام"، يقول آخر ذو لحية قصيرة وهو يشهر مدفعا آليا ويرتدى تى شيرت، وصدرية مضادة للطلقات، وكاب بيسبول أزرق، يقول صوت آخر "هاى، كل هؤلاء الملاعين هنا"

"أيوه، مُؤخِرات المهدى!"

ثم يبدأ إطلاق النار الثقيل مرة أخرى فيما يُفرِغ الرجال ذخائرهم من على السطح. وبالمواكبة، مع نيران المدافع الآلية، ثمة بووم بووم بووم بووم رتيبة من الأسلحة الثقيلة. يصيح أحدهم فيما تتفجر أصوات الطلقات النارية التى تصم الآذان فوق النجف "هاى، اقتل عددا منهم. يبدو أحد رجال بلاكووتر وأنه يعطى الأوامر للجنود الثلاثة الذين يرتدون الزى التمويهى ويطلقون النار من أعلى السطح.

وفيما توالى اشتعال المعركة، أصاب أحد القناصة العراقيين الرجال الثلاثة القائمين على حراسة مقر الاحتلال. ووفقا ليونج، أصيب أحد مقاولي بلاكووتر واندفعت الدماء لمسافة ثلاثة أقدام من وجهه. قال العريف يونج "كان بإمكاني رؤية ثقب بحجم ربع الدولار في فكه. كان الرجل قد فقد حوالي لتر من الدم. حاولت الضغط على الجرح ومنع النزيف بهذا الأسلوب، لكن الدماء كانت تتسرب من بين أصابعي". قال يونج إنه وضع أصابعه داخل الجرح وأغلق الشريان السباتي. ثم حمله وأوصله إلى طبيب بلاكووتر قبل أن يعود لموقعه على السطح. توضح صور التُقطت ذاك اليوم يونج أعلى السطح وهو يصوب على الجموع ومعه رجال فائقو التسلح من بلاكووتر بنظارات شمس متموقعون خلفه وإلى جانبه مباشرة. قال يونج "حدقت في الشوارع بعينيّ المجهدتين، لأرى مئات من الموتى العراقيين يرقدون في جميع الأنحاء. كان منظرا غير مُصدّق، وعلى الرغم من كل هؤلاء الموتى كان العراقيون ما يزالون يتدافعون نحو البوابة الأمامية. فتحت النيران، وأخذت أفرغ المشط تلو الآخر، راقبت الناس في أثوابهم البيضاء وعباءاتهم السوداء يتساقطون على الأرض فيما كان مهدافي يمر عليهم. كل ما استطعت التفكير فيه هو أنني إما أن أقتُل أو أُقتل. شعرت أننا كنا نتراجع. وبمعانٍ كثيرة، فقد كنا نتراجع. جعلني هذا الإحساس أطلق النيران بعنف أكثر"

فيما بعد، قالت بلاكووتر إن رجالها، طوال المعركة، كانوا يحاولون الاتصال بقيادات الجيش الأمريكي لكنهم لم ينجحوا. قال باتريك توولي، المدير التنفيذي رفيع المستوى ببلاكووتر، للنيويورك تايمز، إن الحشود كانت ولدي نقطة ما تندفع مسرعة على المُجمّع، وكانت ذخيرة رجال بلاكووتر تكاد تنفد "كان لدى كل رجل أقل من عشر طلقات". وأخيرا، اتصل المُحاصرون بالمقر الرئيسي لبلاكووتر ببغداد. وفي غضون لحظات، أعطى العاملون بمكتب برمز الإذن لبلاكووتر بأن تبعث بثلاث من طائرات الشركة الهليكوبتر -المعروفة باسم مؤخرة القرد -نفس النوع الذى كان يُستخدم لأمن برمر- لتسليم مزيد من الذخائر. أيضا، أنقذ طواقم الطائرات العريف يونج قبل أن يصاب بالجراح. قال يونج "هرولنا إلى الخارج ورأينا ثلاثا من طائرات بلاكووتر الهليكوبتر

رابضة هناك. هرولتُ إلى أبعد واحدة منها ودخلتُ إلى المقعد الأمامى للركاب. كنت أشعر بعظيم التوتر فيما كنا نُقلِع. نظرت حول القاعدة العسكرية ورأيت الجميع يُطلقون نيران أسلحتهم ... شعرت أننى شبه عاجز وأنا هناك . وفى النهاية، نقلتْ طائرة بلاكووتر رجل المارينز إلى بر الأمان. قال تووهى "لم ير برمر بأسا فى أن يذهب (رجال بلاكووتر) لينقذوا حياة بعض الأمريكيين".

وفى فيلم ڤيديو التُقِط على سطح مقر سلطة التحالف المؤقتة بالنجف، تظهر طائرات بلاكووتر وهى تُسقِط الإمدادات. ثم تُركز الكاميرا، عن قرب، على ما يبدو وأنه مقاول من بلاكووتر يُصوب سلاح قنص كبير. يقول رجل لا يظهر فى الصورة "لقد تسلل إلى داخل المبنى" يسأل القناص "الرجل الذى يجرى على الجدار؟". وقبل أن يجيب الرجل الذى لا يظهر فى الصورة "نعم" يضغط القناص على الزناد بهدوء. تدوى الطلقات. يعيد شحن سلاحه.

يقول الرجل الذى لا يظهر فى الصورة "واو، لدينا الكثيرون من – أترى الشخص الذى يرتدى الثوب الأبيض؟ إنه يتحرك بأسرع مما يجب– إنهم يتحركون". يُعدِّل القناص مهدافه. يعلن بهدوء "لدينا مجموعة كبيرة قادمة– على الجدار.." ثلاث طلقات أخرى. "واو، لقد أصبت مجموعة كاملة منهم" يقول الرجل الذى لا يظهر فى الصورة والذى يبدو وأنه يقوم بدور البصاص.

طلقة أخرى. يقول من خلال جهاز الراديو:

"لدينا مجموعة من الأشرار، الساعة الثانية عشرة، على بعد ٨٠٠متر، يتحركون مسرعين هناك" يسأل صوت فى الطرف الآخر البصاص عن موقع "الأشرار" فيما يستمر القناص فى إطلاق النيران. إلا أن ذلك لم يكن ضروريا. يجيب "سلبى. لقد قتلهم جميعا"

وبعيد ذلك يشير القناص إلى أن قوات الولايات المتحدة قد دخلت المعركة وأنها قد ألقت ذخيرة هجوم مباشرة مشتركة (JDAM)– أى صاروخ متحكم فيه جو/أرض

يشار إليه أحيانا باسم "القنبلة الذكية"– فى المنطقة. يسأل القناص زميله "من ألقى الـ JDAM؟"

"المارينز"

يقول القناص "أيوه، كنا نطير هناك حينما أُلقى الصاروخ". يعنى القناص بتلك الجملة أنه بالإضافة إلى إطلاق الذخائر، كانت بلاكووتر قد نشرت المزيد من رجالها بالنجف أثناء القتال.

يقول البصاص "سيارة أخرى–مرسيدس زرقاء" يسدد طلقة "أوكيه، لقد أصبت السيارة أمامه مباشرة". طلقة أخرى. تُسمع طلقات عديدة على شريط الڤيديو، ثم تعود الصورة إلى القناص الذى يسأل "الرجل الذى يحمل العلم الأخضر؟" يقول شريكه "أيوه. أطلق النيران . تدوى طلقة أخرى. "إنه جيش المهدى. العلم الأخضر هو جيش المهدى. لابد من الاشتباك معهم فى أول فرصة". ثلاث طلقات أخرى. يسأل البصاص "أوكيه أترى هذا الطريق المتفرع المستقيم؟ ذاك الطريق؟"

"أيوه"

"اتبعه للنهاية –للنهاية– حوالى ٨٠٠ متر" هكذا يعطى تعليماته للقناص. يعيد القناص شحن سلاحه، يصيح شريكه "اللعنة– انظر إلى كل أولاد العاهرات هؤلاء". ثم إلى القناص "حسنا. صوب نحوهم". يبدأ القناص فى توجيه النيران إليهم. يقول البصاص "تصويباتكم مضبوطة". ثلاث طلقات أخرى. يعلن القناص فيما يطلق النيران "يايسوع. إنه مثل اصطياد الديوك الرومى . طلقتان أخريان. يقول البصاص "إنهم يختبئون". طلقة أخرى. ثم يقول رجال بلاكووتر إنهم يتلقون طلقات مضادة ويبدأون فى زيادة سرعة نيرانهم. ثم يظهر مشهد طلقات نيران عنيفة على العراقيين. يصيح أحدهم "أطلق على ابن العاهرة هذا حينما يظهر من على الناصية. أصبْه الآنَ".

قال بن توماس –مقاول بلاكووتر الذى اعترف باستخدام طلقات غير مجازة لقتل أحد العراقيين فى سبتمبر ٢٠٠٣– إنه كان على السطح ذاك اليوم، وبعد سنتين من إطلاق

النيران بالنجف، وحينما بدأ تداول أفلام الفيديو تلك على الإنترنت على نطاق واسع، هاجم توماس، بضراوة نقاد سلوك قوات بلاكووتر ذاك اليوم. كتب على الموقع الإلكتروني لمنتدى المقاولين الخاصين العسكريين، الذى يساهم فيه كثيرا، يقول "تريدون أن تعرفوا ماذا يعنى أن تكون لصيقا لفريق مكون من ٨ رفاق فيما كان ١٢٠٠فرد من جيش المهدى يقتحمون الأسلاك بطول ٣٠٠متر من ثلاثة أجنحة؟ ثم تنتقدون عمليات رفاقى مؤسسين نقدكم على فيلم ڤيديو مشبوه؟ إن رفاقى السبعة والقوات السلفادورية هم فقط من رأوا ما حدث. إن الحرب يؤرخ لها وتُدْرس. إن النجف مجرد معركة أخرى صغيرة فى التاريخ، لكن بالنسبة لنا فهى مكان وقعت فيه أحداث قتل وموت كثيرة. إنها ليست موضوعا خفيفا للتجاذب على مائدة العشاء". ثم كتب عن الرجل الذى سُمِع وهو يستخدم لفظ زنوج "لم يشترك رفيقى أبدا قبل ذلك فى معركة مباشرة ونادرا ما يستخدم السباب. ثم سمعناه يستخدم بذاءة عرقية. هذه ليست طبيعية. إنه رجل كان قد قتل لتوه ١٧ من قوات العدو. حينما أوقف صديقى تقدم الجبهة الأمامية، وحده وتحت النيران المباشرة، كان أسوأ تعبير خطر له كى يصيح به على أولاد العاهرة الذين قتلهم هو "زنوج". حينما رأى فيلم الڤيديو بكى. إنه ليس عنصريا. ما تسمعونه يأتى من رجل مرعوب ومنتصر. لكنكم لا ترون ذلك فى فيلم الڤيديو".

وفى النهاية، انتقلت القوات الأمريكية الخاصة إلى داخل النجف وفَرقت الحشود. وفى نهاية المعركة كان عدد غير معروف من العراقيين قد قُتِلوا فى الشوارع. ووفقا للعريف يونج بلغ هذا العدد "المئات. أما التقديرات الأخرى فتقول إن العدد يتراوح ما بين العشرين والثلاثين قتيلا، ومائتى مصاب. ولأن بلاكووتر كانت هى التى تحرس المبنى وتنسق الدفاع عنه، فليس ثمة تقارير عسكرية رسمية بشأن كيفية بدء العملية. اعترفت بلاكووتر أن رجالها صوبوا آلاف الطلقات على الحشود، لكن نائب رئيسها، باتريك تووهى أبلغ النيويورك تايمز أن "رجاله قاتلوا كل محارب واشتبكوا معهم بإطلاق نار دقيق". ثم بعد ذلك، أصر تووهى فى حديثه للتايمز على أن "رجاله لم يشتبكوا فى معركة بإطلاقه" وقال "لقد كنا نقوم بعملية أمنية". ثم قال فى النهاية "على أية حال فإن الخط الفاصل قد أصبح ضبابياً". وفى نهاية أحد أفلام الڤيديو تلك ظهر العراقيون

محملين على ظهر شاحنة فيما كانت أوجههم مقنعة بأكياس سوداء وأيديهم مصفدة. يظهر رجل وكأنما يبكى خلف قناعه ويداه ممسكتان بجبهته.

أما ما أوضحه الفيديو ومعه ذكريات العريف يونج عن ذلك اليوم فهو أن بلاكووتر كانت تدير العملية، بل وتصدر التعليمات إلى جندى مارينز ميدانى. قال كريس تايلور من بلاكووتر "حينما يُطلق عليك الرصاص من أسفل، يتضامن الجميع للقيام بما هو ضرورى" ثم أثنى على العريف يونج بعد أن سمع أنه أعاد تزويد رجال بلاكووتر على السطح بالذخائر. قال تايلور "له أن يفخر بما فعله". ثم وصل فى عصر ذلك اليوم كبير القادة العسكريين الأمريكيين بالعراق الفريق ريكاردو سانتشز ومعه نائبه العميد مارك كيميت إلى المشهد. حينما تحدث كيميت، فيما بعد، عن المعركة لم يذكر بلاكووتر بالاسم لكنه امتدح العملية التى قادها رجالها، قال "أعلم أنه من أعلى سطح مبنى بالنجف، ومع مجموعة صغيرة من الجنود الأمريكيين وجنود التحالف... الذين كانوا قد خاضوا لتوهم معركة دامت ثلاث ساعات ونصف الساعة، نظرتُ فى أعينهم ولم يكن ثمة مأزق. كانوا يعلمون سبب وجودهم هنا. جُرِح منهم ثلاثة أفراد. كنا نجلس هناك بين الرصاصات والذخائر الفارغة، وبصراحة، وسط دماء رفاقهم، لكنهم كانوا واثقين بإطلاقه. كانوا واثقين لأسباب ثلاثة: واحد، لأنهم على درجة هائلة من التدريب الراقى؛ اثنين، لأنهم يتقنون عملهم إلى أقصى درجة، ثلاثة، لأنهم كانوا يعرفون سبب تواجدهم هناك". انتهى تووهى، رجل بلاكووتر بعد اعترافه بتنامى استخدام المقاولين العسكريين الخاصين، إلى التالى: "إنها مسألة جديدة تماما فى الشئون العسكرية. فكروا فيها. إنكم فى الواقع تتعاقدون مع مدنيين للقيام بمهمات تشبه مهمات الجيش".

أما بالنسبة للعراقيين، ولأتباع الصدر بخاصة، فإنم يذكرون ٤ إبريل بصفته مذبحة فى إحدى أكثر المدن قداسة للمسلمين الشيعة -وحقا فقد كان رجال الدين بين من سقطوا ضحايا. وبالنسبة لبلاكووتر والعريف يونج فقد كان ذلك هو اليوم الذى فيه -وخلافا لكل الأرجحيات- قاموا بالتصدى لحشود من رجال الميليشيات المسلحين الغاضبين العازمين على قتلهم والاستيلاء على مبنى أناطت الحكومة بهم حمايته. فيما بعد، أخبر

العريف يونج صحيفة فيرجينيان بايلوت "اعتقدتُ أن ذلك كان آخر أيام حياتى، وأننى كنت سأغادرها بطلقة كبيرة. إذا كان من المحتم أن أموت فلابد أن يحدث هذا وأنا أدافع عن بلدى". وبالرغم من مقتل عشرات عديدة من العراقيين ومن أن بلاكووتر أبقت على التحكم بالمبنى فإن المعركة أمدت قوات الصدر ومؤيديهم بالجرأة والشجاعة. ووفقا للواشنطون بوست، فقد أعلنت مكبرات الصوت من مسجد الكوفة عصر ذلك اليوم "أن قوات المهدى تسيطر على الكوفة، النجف، الناصرية، وعشوائية مدينة الصدر المكدسة بالسكان ببغداد. وقف شباب جيش المهدى لدى نقطة التفتيش التى تتحكم فى الكوبرى الموصّل إلى الكوفة والنجف. كما أن كثيرا من ضباط الشرطة العراقيين الذين دربتهم قوات التحالف وكانوا يتقاضون رواتبهم منها انضموا إلى الهجوم على مبنى سلطة التحالف المؤقتة". أعلن بول برمر، عصر ذاك اليوم، أنه قد عين وزيرين عراقيين للدفاع والاستخبارات. وفى إعلان هذا، تطرق برمر لقتال النجف "هذا الصباح، تجاوزت مجموعة من الناس بالنجف الحدود وانتقلوا إلى العنف. لن يسمح بهذا".

وقبيل أن تغرب الشمس على النجف، أصدر مقتدى الصدر نداء عاما لإنهاء جميع الاحتجاجات وحث أتباعه على الثورة: "ارهبوا أعداءكم. سيجزيكم الله خيرا على ما يُرضيه... ليس من الممكن الصمت على الانتهاكات". وفى تلك الليلة، بدأت قوات الولايات المتحدة فى الدخول إلى مدينة الصدر ببغداد. قال متحدث باسم الجيش الأمريكى إن طائرات الولايات المتحدة المقاتلة وطائرات الهليكوبتر المدفعية تقصف المدينة ردا على الصدام بالنجف، وعرض فيلم تليفزيونى لوكالة رويترز صورا للدبابات وهى تدمر السيارات المدنية بالمنطقة. انتشرت بين أتباع الصدر أوامره لنصب الكمائن لقوات الولايات المتحدة، في العديد من المناطق بما فى هذا مدينة الصدر، حيث قُتل كيسي، ابن سيندى شيهان –وكان خبيرا فى جيش الولايات المتحدة.

كانت الحصيلة موت ثمانية جنود أمريكيين وجرح ستين فى مدينة الصدر يوم ٤ إبريل، ومعهم عدد غير معروف من العراقيين. وفيما بعد، أسمى الفريق مارتين دمبسى قائد الفرقة الأولى المدرعة، القتال فى مدينة الصدر ذاك اليوم "أكبر قتال بالأسلحة النارية

منذ سقوط بغداد قبل ذلك بعام . كانت المحصلة هى تسع انتفاضات قام بها أتباع الصدر فى ثماني مدن، على الأقل، فى أنحاء العراق.

فى يوم الإثنين ٥ إبريل صنّف بول برمر مقتدى الصدر رسميا بأنه خارج على القانون، أعلن "إنه يحاول أن يرسخ سلطته مكان السلطة الشرعية. لن نتسامح مع هذا. سنعيد فرض القانون والنظام، وهذا ما يتوقعه العراقيون". وبعد ساعات، أعلنت سلطة التحالف أنه صدر أمر بإلقاء القبض على مقتدى الصدر. وفيما بعد، برهن هذا على أنه قرار كارثى عزز مكانة الصدر وزاد شعبيته بدرجة مهولة. كما أن الهجوم الشرس على الصدر ومعه الوضع فى الفلوجة، عمل، لفترة وجيزة، على توحيد الشيعة والسنة فى حرب فدائية ضد الاحتلال.

أما فى الولايات المتحدة، فقد أخذ الجدل يحتدم حول الاستخدام المتزايد للمقاولين الخاصين -وكان هذا تطورا سببه تورط بلاكووتر بالفلوجة والنجف. وفى افتتاحية بدون توقيع، أشارت النيويورك تايمز لكمين الفلوجة كدليل على "اعتماد أمريكا المقلق على القتلة المأجورين" وإلى قتال النجف كدلالة على أن "البنتاجون يبدو وأنه يتعاقد من الخارج لإيكال جزء على الأقل من مسئولياته الرئيسية للسيطرة على العراق إلى متعاقدين بدلا من مواجهة احتياجاته لمزيد من الجنود". قالت افتتاحية التايمز "تعهد دونالد رمسفلد، وزير الدفاع، أن البنتاجون سيظل يبحث عن أساليب "للتعاقدات الخارجية والخصخصة". لكن حينما يتعلق الأمر بالأمن الأساسي وأدوار المعارك فهذا قرار خاطئ. على البنتاجون تجنيد مزيد من الجنود وتدريبهم بدلا من المخاطرة بخلق سلالة جديدة من المرتزقة". ووسط هذا النقد المتزايد لاستخدام الجنود الخاصين، أتى تكريم بلاكووتر والاحتفاء بها فى بعض الدوائر، خاصة بين قيادات الكونجرس من الجمهوريين. وإذا كان ثمة شكوك من قبل، فقد أصبح من الواضح الآن أن بلاكووتر لاعب أساسى فى الحرب. فى ليلة القتال بالنجف، وعلى بعد مئات الأميال إلى الشمال الغربى، قام أكثر من ألف من المارينز بحصار الفلوجة وأعدوا عدتهم للثأر لمقتل أربعة من مقاولى بلاكووتر قبل ذلك بخمسة أيام.■

9

الفصل التاسع

"من أجل مقاولى بلاكووتر الأمريكيين"

حتى فيما انتشرت الانتفاضة الشيعية فى أنحاء العراق ظل البيت الأبيض مصمّماً على سحق السنة بالفلوجة. وفَّر كمين بلاكووتر للإدارة- التى شجعها بول برمر بعظيم الحماس- الذريعة المُثلى لشن هجوم كبير على مجموعة من السكان كانت تغدو سريعا رمزا قويا يوحى بأن الولايات المتحدة ووكلاءها العراقيين **لم يكونوا** يتحكمون حقا فى البلد. تحاججت الإدارة بأن التراجع فى وجه التمرد الأكثر جرأة، حتى آنذاك، بين السنة والشيعة المعادين للاحتلال، والحديث عن انسحاب على غرار مقديشو كان يعنى رسالة بأن الولايات المتحدة كانت فى سبيلها إلى خسارة حرب كان الرئيس بوش قد أعلن عن أنها مُهمة أُنجِزت كانت حسابات برمر والادارة قد جعلتهم يعتقدون أنهم بإخضاعهم السُنة بالفلوجة وبجعل مقتدى الصدر، الزعيم الشيعى، أمثولة، يستطيعون القضاء على المقاومة المنظمة بالعراق بعملية جراحية. وفيما نتج عن سياسات واشنطون الكارثية موت آلاف العراقيين ومئات الجنود الأمريكيين. فإنها أتاحت، فى ذات الوقت، فرصة بيزنس غير عادية لبلاكووتر

وأصدقائها المرتزقة (التى سنناقشها بالتفصيل فيما بعد).

بدأ أول حصار للفلوجة يوم ٤ إبريل ٢٠٠٤، يوم القتال الذى خاضته بلاكووتر بالأسلحة النارية بالنجف. كان اسمه الكودى "عملية الحسم اليقظ". وفى تلك الليلة، أحاط أكثر من ألف من المارينز وكتيبتان عراقيتان الفلوجة، البالغ عدد سكانها ٣٥٠٠٠٠ نسمة. موضعت قوات الولايات المتحدة الدبابات، المدافع الآلية الثقيلة، ومركبات هامفى المدرعة فى معظم الطرق التى تؤدى إلى خارج المدينة. أقاموا حواجز بأسلاك كونشرتينية شائكة، واحتجزوا الناس، عمليا، بالداخل، فيما أقام المارينز "معسكرات" للموقوفين. استولت القوات الأمريكية على محطة الإذاعة المحلية ومضت تبث إذاعات دعائية تُخبر الناس أن يتعاونوا مع قوات الولايات المتحدة للتعرف على مقاتلى المقاومة ومواقعهم. وزعت الشرطة العراقية منشورات على المساجد تُعلن حظرا على الأسلحة ومنع التجول من السابعة مساء وحتى السادسة صباحا، كما عُلِّقت ووزعت بوسترات عليها صور للرجال الذين زُعِم أنهم اشتركوا

فى الهجوم على بلاكووتر. وعلى تخوم المدينة، حفر المارينز الخنادق بالقرب من مقبرة للمسلمين فيما اتخذ القناصة مواقع لهم على سطح أحد المساجد. أعلن الملازم جيمس فانزانت، من قوة المارينز الخاصة الأولى أن "المدينة محاصرة. نبحث عن الأشرار فى المدينة". وأعلن القادة العسكريون الأمريكيون أنهم عازمون على القيام بغارات من منزل إلى منزل داخل الفلوجة للعثور على قاتلى رجال بلاكووتر. قال المتحدث باسم المارينز، الملازم إريك ناب "هؤلاء مستهدفون بخاصة للأسر أو القتل . أرسل قادة جيش الولايات المتحدة وكلاءهم العراقيين إلى داخل المدينة ليُصدروا التعليمات للأهالى بعدم المقاومة حينما تدخل القوات الأمريكية بيوتهم وأن يتجمعوا جميعهم فى غرفة واحدة أثناء الغارة، وأنهم إذا أرادوا الحديث إلى القوات الغازية فعليهم رفع أياديهم أولا. هرب الآلاف من السكان من المدينة قبل الهجمة الأمريكية الوشيكة.

وفى الصباح التالى، قامت القوات الأمريكية بأولى اقتحاماتها للمدينة -بعد أن أرسلوا أولاً عملاء خاصين لاصطياد "الأهداف كبيرة القيمة". ثم بعد ذلك، وقعت الهجمة الشاملة التى نفذها ٢٥٠٠ من المارينز من ثلاث كتائب تساندهم الدبابات. سرعان ما وجدت القوات الأمريكية نفسها فى خضم معارك إطلاق نيران ضارية مع المقاومين. وفيما احتدم القتال، طلب المارينز مساندةً جوية. فى ٧ إبريل، وقع هجوم بهليكوبتر AH-IW على مُجمّع مسجد عزيز السمرائى، الذى قالت الولايات المتحدة إنه كان يُؤوى رجال المقاومة الذين كانوا يشنون الهجمات على القوات الغازية. أُطلق صاروخ هلفاير على قاعدة مئذنة المسجد. ثم بعد ذلك ألقت طائرة حربية F-16 قنبلة زنتها خمسمائة رطل على مُجمع المسجد، فى انتهاك لاتفاقيات جنيف التى تحظر استهداف المواقع الدينية. أصدر المارينز بيانا يدافعون فيه عن الهجوم قائلين إن وجود المقاومين داخله "يُفقد المسجد حصانته، ومن ثم يصبح هدفا عسكريا مشروعا". قال شهود عيان إن حوالى أربعين عراقيا قتلوا فى الهجوم على المسجد، فيما قُتل حفنة من الأمريكيين فى قتال ذاك اليوم.

وفى تلك الأثناء، استولت القوات الأمريكية على مستشفى الفلوجة الرئيسى ومنعت علاج الجرحى به. فيما بعد، قال الصحفى راهول ماهاجان "قصفت قوات الولايات المتحدة محطة الكهرباء عند بدء الهجوم". كان ماهاجان أحد قلائل الصحفيين غير الملحقين بالقوات الذين دخلوا الفلوجة آنذاك، أضاف ولمدة عدة أسابيع تالية، أضحت الفلوجة مدينة يعمها الظلام، وكانت الأماكن الحساسة فقط مثل المساجد والمستوصفات تضاء من خلال المولدات الكهربائية. كان الطعام ينفد من المدينة سريعا. وقال طبيب من المدينة إن ستة عشر طفلا وثمانى نساء قتلوا فى غارة جوية على أحد الأحياء يوم ٦ إبريل.استمر حصار الفلوجة. قال قائد من المارينز المقدم برنان بيرن "إننا متخندقون جيدا بالمدينة، وتُحكم وحداتى قبضتها. سنكسر ظهورهم، سنطردهم من هنا". قال بيرن إن الفلوجة قد أصبحت ملاذا للمقاومين والمُهربين لأن أحدا لم يكرس وقتا كافيا لتنظيفها كما يجب . قال بينج وست، الكاتب العسكرى الذى كان ملحقا بالقوات الأمريكية المتموقعة حول الفلوجة إن كتيبة بيرن كانت هى "أول من أقنع فرق الحرب النفسية بالجيش الأمريكية بالقيام بحرب تدنيسية داعرة. تنافست فصائل الجند فى اختراع أقذر الإهانات للمترجمين كى يتصايحوا بها من المايكروفونات. حينذاك، كان يندفع العراقيون، وقد تملكهم الغضب إلى خارج المسجد وهم يطلقون مدافعهم الـAK، فيقتلهم المارينز. انتشر تكتيك اشتم –و– اقتل بين جميع القوات .

وفيما بدأت صور ما يحدث داخل الفلوجة تظهر، بشكل أساسى من خلال صحفيى شبكات التلفزة العربية، وتُصور مأزقا إنسانيا رهيبا داخل المدينة، بدأت الاحتجاجات تجتاح أنحاء العراق، فيما استخدمت القوات الأمريكية العنف لإخراسها. بدأت المساجد فى بغداد والأنحاء الأخرى تنظم قوافل إغاثة إنسانية، وتجمع التبرعات بالدم. وبحلول ٨ إبريل، رسم مسئولو المستشفيات المحلية داخل المدينة صورة مُروعة للمعاناة الإنسانية هناك وقالوا إن أكثر من ٢٨٠مدنى قد قتلوا وأصيب أكثر من ٤٠٠شخص. قال الدكتور طاهر الصاوى "نعلم أيضا بوجود مرضى وجرحى تحت الأنقاض ولا يمكننا الوصول إليهم بسبب القتال". أنكر جيش

الولايات المتحدة قتله للمدنيين، واتهم المقاومين بأنهم يحاولون الاختفاء وسط السكان. قال الماجور لارى كيفش من الصعب التمييز بين المتمردين والمدنيين. من الصعب الحصول على صورة صادقة. من ثم عليك أن تتبع مشاعرك الداخلية".

ووفقا للواشنطون بوست فقد "قال بيرن إن الجثث هى جثث متمردين". قدّر أن ٨٠٪ من أهالى الفلوجة كانوا حياديين، أو يؤيدون الوجود العسكرى الأمريكى. إلا أن هذه المقولة المتفائلة لم تتناسب مع ضراوة المقاومة التى نجحت -بتكلفة بشرية غير مصدقة- فى أن تمنع قوات الولايات المتحدة من التحكم فى المدينة بشكل كلى. قال توماس ريكس مراسل الواشنطون بوست المُحنك "كانت استعدادات العدو أفضل عما أُبلغ المارينز أن عليهم توقعه". ثم استشهد بملخص تقرير داخلى عن المعركة كتبه المارينز نص على التالى "يفاجئ المتمردون قوات الولايات المتحدة بتنسيق هجماتهم: منسّقة، مشتركة، وابل من قذائف مدافع آربى جيه، استخدام فاعل للنيران غير المباشرة. ناورْ العدو بفعالية، واصمد، وحارب".

وفيما قارب الحصار على نهاية أسبوعه الأول، بدأت الجثث تتراكم فى المدينة، ووفقا لشهود عيان، انتشر نتن الموت فى أنحاء الفلوجة. فيما بعد، قال طبيب من بغداد و كان قد نجح فى دخول المدينة فى صحبة وفد للسلام "لم يكن بإمكان أى شئ أن يُعدّنى لما شاهدته بالفلوجة. ليس ثمة قانون على الأرض يمكنه تبرير ما فعله الأمريكيون بالمدنيين الأبرياء . وفى تلك الأثناء، نجح الصحفيان الأمريكيان المستقلان، ضاهر جميل وراهول ماهاجان فى الدخول إلى الفلوجة، دون أن يُلحقا بقوات الاحتلال- بعد بداية الحصار بأسبوع. ولدى دخول المدينة مع قافلة إغاثة إنسانية وصف جميل المشهد فى غرفة طوارئ مؤقتة بأحد المستوصفات الصغيرة. قال "فيما كنت هناك، كان يُدفع إلى المستوصف القذر بتدفقات لامنتهية من النساء والأطفال الذين أصابتهم طلقات القناصة الأمريكيين، كانت السيارات تسرع أعلى الرصيف بالخارج فيما كان أفراد عائلاتهم المنتحبون يحملونهم إلى الداخل. أصيبت امرأة وطفل بطلقات فى العنق. أخذ الطفل الصغير، الذى كان كمن يحملق

فى الفراغ بعينين غير مبصرتين، يتقيأ دونما توقف فيما سارع الأطباء فى محاولة منهم لإنقاذ حياته. وبعد ثلاثين دقيقة، بدا أن الاثنين لن تكتب لهما النجاة. "قال جميل إنه رأى الضحايا، الواحدة تلو الأخرى يُدخلون إلى المستوصف" كانوا أن يكونوا جميعا من النساء والأطفال . أسمى جميل الفلوجة سرايبقو الفرات".

وفى تلك الأثناء كتب مـاهاجـان فى تقـريره. "بالإضـافـة إلى المدفـعيـة والطائرات الحـربيـة التى مـضت تُسـقط القنابل من زنة ٥٠٠، ١٠٠٠ ٢٠٠٠رطل، وطائرات المدفعية الشبح AC-130 التى باستطاعتها تدمير مجموعة كبيرة من المبانى المتلاصقة فى أقل من دقيقة، كان القناصة من المارينز يُمطرون جميع أنحاء المدينة بطلقاتهم. ولأسابيع، غدت المدينة سلسلة من الجيوب، غير المتاحة أحيانا، بأسلوب تبادلى، تقسمها مناطق مشاع من ممرات طلقات القناصين. أطلق القناصون النار عشوائيا، عادة، على كل ما يتحرك. من بين عشرين شخصا رأيتهم يُدخلون إلى المستوصف الذى راقبته لساعات قليلة، خمسة فقط كانوا ذكورا فى "سن القتال". رأيت نساء عجائز، شيوخا، طفلا فى العاشرة أُطلقت النيران على رأسه؛ أبلغنى الأطباء أن لا أمل فى إنقاذه، رغم أنه كان من الممكن إنقاذه فى بغداد. شئ وحيد كان القناصون حريصين عليه جدا ألا وهو ثقوب الطلقات النارية على كل سيارة إسعاف. تفحصتُ اثنتين منها وكانتا تحملان دلائل واضحة على القنص الدقيق المُتعمد. أُطلقت النيران على أصدقاء لى خرجوا لإحضار الجرحى". قال جميل فى تقرير له إن "السكان حوّلوا ملعبين لكرة القدم إلى مقابر"

الحرب على قناة الجزيرة:

وفيما فهم معظم العالم أن حصار الفلوجة كان تطورا مُزلزِلا فى مسيرة الاحتلال، فإن قصة مدى المعاناة الإنسانية التى تحملّها العراقيون قُلِّل من شأنها فى صحف التيار الرئيسى الأمريكى. كتب الصحفيون الشركاتيون الذين أُلحِقوا بقوات الاحتلال تقاريرهم من منظور قوات الولايات المتحدة الغازية، واعتمدوا، دونما تناسب، على المتحدثين العسكريين ووكلائهم العراقيين. غاب من التقارير الحَشْو

التصويرى النابض المثير الذى كان يُتبِّل المشهد الإعلامى بعد الكمين وقتل رجال بلاكووتر منذ أيام قليلة، وكذلك تبعات الهجوم على المدنيين. وفيما استمرت المعارك، وأخذت تنتشر حتى خارج حدود الفلوجة، كتب جفرى جتلمان مراسل النيويورك تايمز -وقد تحاشى نهائيا أى ذكر للكارثة الإنسانية- يقول إن القتال الضارى "أوضح، ليس فقط زخم المقاومة، بل الاستعداد الهائل للموت بين المتمردين". بدا مثل هذا التقرير الذى كتبه مراسل صحيفة، لها وزنها، ملحق بالقوات، ومعه مزاعم الجيش الأمريكى بأن ما بين ٩٠٪ إلى ٩٥٪" من القتلى بالفلوجة كانوا محاربين، غير متمايز عن الدعاية العسكرية الرسمية للولايات المتحدة. استشهد جتلمان فى تقريره بمقولة للماجور تى. فى. جونسون، المتحدث باسم المارينز، جاء بها "إنها ملعبهم السوبر. إن الفلوجة هى المكان الذى تذهب إليه إذا أنت أردت أن تقتل أمريكيا"

لكن، وفيما ركزت الصحافة الملحقة بالقوات الأمريكية. على قصة "حرب المدن"، فإن الصحفيين العرب، غير الملحقين بالقوات -وكان أبرزهم من شبكة الجزيرة التى تحظى بشعبية كبيرة -كانوا يرسلون تقاريرهم على مدار الساعات الأربع والعشرين من داخل المدينة المحاصرة. رسمت تقاريرهم صورا حية لسحق المدنيين وتدميرهم، وكذّبت مقولات القادة الأمريكيين عن الضربات الدقيقة المحددة. بثت الجزيرة والعربية صورا للجثث بالشوارع، ولتدمير بنية المدينة الأساسية. وحقا، وحينما كان العميد مارك كميت يجرى حوارا هاتفيا على شاشة الجزيرة ويصر على أن الولايات المتحدة كانت ملتزمة بوقف إطلاق النيران، كانت الشبكة تذيع فى نفس الوقت بثا حيا لصور للغارات المستمرة التى تقوم بها الطائرات الحربية على أحياء الفلوجة السكنية. لم تُبث الصور التى التقطتها كاميرات الجزيرة على نطاق واسع على شاشات التليفزيونات العربية فقط بل أيضا فى أنحاء الكوكب. كان أحمد منصور، الصحفى المحنك بقناة الجزيرة ومعه مصور القناة ليث مشتاق قد دخلا الفلوجة فى ٣ إبريل وأصبحا المصدر الرئيسى للأفلام التليفزيونية عن سحق المدنيين وتدمير المدينة. صوّرا، بانتظام، أفلاما لمشاهد النساء والأطفال الذين

قضوا فى هجمات القوات الأمريكية -فى إحدى الحالات، قصة إخبارية مصورة عن عائلة قُتلت بأكملها فى حى الجولان بالفلوجة فى هجمة جوية. قال مشتاق فيما بعد "قصفت الطائرات هذا المنزل، مثلما قصفت الحى بأكمله، وأُخذت الجثث والجرحى إلى المستشفى. ذهبتُ إلى المستشفى ولم أستطع أن أرى أى شئ سوى بحر من الجثث، جثث أطفال ونساء، لكن غالبيتهم كانوا أطفالا، لأن الفلاحين والمزارعين ينجبون الكثير من الأطفال، عادة. من ثم، كانت تلك هى المشاهد التى لا يمكن تصديقها، تخيلها. كنت ألتقط الصور، أجبر نفسى على التقاط الصور، فيما كنت أبكى فى الوقت ذاته"

قال منصور، وهو من شخصيات الجزيرة الأكثر شهرة، إنه أدرك منذ وقت مبكر أن ثمة حفنة فقط من الصحفيين فى الفلوجة، واعتقد أن من واجبه البقاء هناك، رغم المخاطر الهائلة "أردت أن أسجل التقارير عن هذا الواقع ليشاهدها العالم أجمع. أردت العالم أجمع أن يعرف ماكان يحدث لهؤلاء المحاصرين. لم أكن أفكر فى مغادرة المدينة بإطلاقه قررتُ البقاء، وأن يكون مصيرى هو نفس مصير هؤلاء الناس إذا ماتوا مت معهم، وإذا نجوا سأكون معهم. قررت ألا أفكر فى الإمكانيات، ماذا ستفعله قوات الولايات المتحدة بى إذا أمسكونى، وألاّ أفكر فى عائلتى أو فى أى شئ. كنت أفكر فقط فى هؤلاء الناس". فى خضم الحصار، كان منصور يبعث بتقارير حية، من الفلوجة مباشرة. "أمس، استهدفتنا بعض الدبابات، مرتين.. لكننا هربنا. تريدنا الولايات المتحدة أن نغادر الفلوجة، لكننا سنمكث هنا" وبالرغم من إحكام قبضتها على الصحفيين الملحقين بالقوات، كانت واشنطون تخسر حرب الدعاية الكوكبية. فى ٩ إبريل، طلبت واشنطون أن تغادر الجزيرة الفلوجة كشرط لوقف إطلاق النار. رفضت الجزيرة. كتب منصور يقول إنه "فى اليوم التالى قصفت الطائرات المقاتلة محيط موقعنا الجديد، وقصفت المنزل الذى كنا قد قضينا به الليلة الماضية مما تسبب فى موت مالك المنزل، الأستاذ حسين سمير. ونظرا للتهديدات الجادة الخطيرة كان علينا التوقف عن البث لبضعة أيام، لأنه، فى كل مرة كنا نحاول فيها البث، كانت الطائرات المقاتلة تحدد مكاننا وتطلق

النيران علينا"

فى ١٢ إبريل طلب كميت مَن الناس، بعد أن واجه أسئلة عن فيلم كان يُعرض على الجزيرة يصور الكارثة المدنية بالفلوجه، طلب منهم قائلا "غيروا القناة. غيروا القناة، حوِّلوا إلى محطة شرعية صادقة مطلعة". ثم أعلن "إن المحطات التى تصور الأمريكيين يقتلون الأطفال والنساء عمدا ليست، مصادر مشروعة. هذه بروباجندا، هذه أكاذيب". أكد دان سنور، كبير مستشارى برمر، أن الجزيرة والعربية" تضللان فى تقاريرهما عن الوقائع على الأرض، وتَسهمان فى تنامى مشاعر الغضب والإحباط، وأنه من الواجب أن توجه تلك المشاعر إلى الأفراد والجماعات داخل الفلوجة الذين يُمثلون بجثث الأمريكيين، وينبحون العراقيين، وليس إلى قوات التحالف . فى ١٥ إبريل، ردد وزير الدفاع، دونالد رمسفلد، هذه التعليقات بتعبيرات أكثر حدة، حيث أسمى تقارير الجزيرة "خبيثة، شريرة، غير دقيقة، لا تُغتفر . سأل أحد المراسلين رمسفلد عما إن كان لدى الولايات المتحدة إحصاء عن عدد "الإصابات المدنية". أجاب رمسفلد بعدوانية "بالطبع لا. إننا غير موجودين بالمدينة. لكنك تعرف ما تفعل قواتنا، إنهم لايتجولون هناك ويقتلون مئات المدنيين... ما تفعله تلك المحطة مُخزٍ". فى اليوم التالى مباشرة، ووفقا لمذكرة حكومية بريطانية مختوم عليها سرى للغاية"، كتبت عنها صحيفة الديلى ميرو تقريرا، أبلغ الرئيس بوش، رئيس الوزراء، طونى بلير، برغبته فى قصف الجزيرة. قال مصدر للديلى ميرور "جعل بوش من الواضح أنه يريد قصف الجزيرة بقطر والأماكن الأخرى. ليس ثمة لبس حول ما أراد بوش فعله". قال أحمد منصور إنه يعتقد أن تقارير الجزيرة من داخل الفلوجة كانت تمثل توازنا مع القصة التى تُروى قصريا من منظور المراسلين الصحفيين الملحقين بقوات التحالف والمتحدثين العسكريين الأمريكيين -تساءل منصور "هل من المهنية فى شئ أن يرتدى المراسلون البزات العسكرية الأمريكية ويتحركون معهم فى طائراتهم ودباباتهم لتغطية هذا، وكتابة التقارير عن ذاك؟. لابد من تغطية المعارك من الجانبين. كنا بين المدنيين، وسجلنا تقاريرنا، وكان لديهم صحفيون بالقوات مع هؤلاء الذين شنوا ذلك الهجوم من قوات

الولايات المتحدة التى احتلت العراق وسجلوا التقارير التى أرادوها. كنا نحاول خلق توازنا كى لا تضيع الحقيقة".

العقاب الجماعى:

شجع الرعب المتكشف بالفلوجة، المَقرون بفشل الولايات المتحدة فى السيطرة على المدينة ومقاومة أهالى الفلوجة الجسورة، شجع العراقيين الآخرين على الثورة. وفيما تواصل الحصار، بدأ الناس من أنحاء العراق يتوافدون على الفلوجة للمساعدة فى الدفاع عن المدينة. قال حارث الضارى من رابطة علماء المسلمين، لآلاف المصلين يوم الجمعة وسط الحصار "فلتنتقم يا رحمن يا رحيم للدماء المراقة، للمذابح. أرسل جندك ضد المستعمرين. أهلكهم أجمعين، ولا تُبق منهم أحدا". وفى الوقت الذى بدأ فيه ما أسماه المسئولون الأمريكيون "وقفا لإطلاق النار" فى نهاية الأسبوع، كان حوالى ثلاثين من المارينز قد قتلوا. لكن كان العراقيون هم من تكبدوا أفدح الخسائر. بعد أسبوع من حصار الفلوجة كان ستمائة عراقى قد قتلوا بالفلوجة، بينهم مئات من النساء والأطفال. فى ١٣إبريل، ألقى بوش خطابا فى وقت الذروة بثه التليفزيون القومى للولايات المتحدة. أعلن من الغرفة الشرقية بالبيت الأبيض "تسلل الإرهابيون من بلاد أخرى إلى العراق ليحرضوا على الهجمات وينظموها. إن العنف الذى نراه هو محاولة من قبِل تلك الجماعات المتطرفة التى لا ترحم للاستيلاء على السلطة... وليس انتفاضة شعبية"

لكن وعلى بُعد نصف الكوكب، وفيما فر الآلاف من أهالى الفلوجة من مدينتهم إلى أماكن أخرى بالعراق، أتوا معهم بحكايات عن الرعب والإرهاب وموت المدنيين لم يكن باستطاعة أية بروباجندا مجابهتها. وبالرغم من خطاب الولايات المتحدة عن تحرير الفلوجة من "المقاتلين الأجانب والبعثيين، فلم يخف على العراقيين أن التبرير لتدمير الفلوجة وقتل مئات الناس كان هو مقتل أربع من مرتزقة الولايات المتحدة -الذى نَظر إليهم العراقيون بصفتهم مقاتلين أجانب.

تساءل هيثم ساحا، فيما كان فى موقع ببغداد للمعونات الإنسانية "مقابل أربعة

أفراد فقط، قتل الأمريكيون الأطفال، النساء، المسنين، والآن، فالمدينة بأكملها تحت الحصار أبلغ رجل دين مراسلا صحفيا "نعلم من قتل المقاولين الأمريكيين، لكن بدلا من أن يتفاوض معنا، قرر برمر أن يأخذ بالثأر . وحتى أعضاء مجلس الحكم العراقى الذين عينهم الأمريكيون عبروا عن غضبهم. قال عدنان بتشاتشي رئيس مجلس الحكم، الذى كان قبل ذلك بثلاثة أسابيع قد جلس بجوار لورا بوش السيدة الأولى كضيفها الخاص، أثناء خطاب حالة الاتحاد بواشنطون دى سى "لم يكن من الصواب معاقبة كل أهالى الفلوجة. نعتبر تلك العمليات التى قام بها الأمريكيون غير مقبولة وغير مشروعه . وفيما استمرت عملية "الحسم اليقظ" تُنزل أكبر قدر من الموتى والمصابين بين أهالى الفلوجة، بدأ أفراد قوة الشرطة العراقية التى أوجدتها الولايات المتحدة يهجرون مواقعهم؛ والتحق بعضهم بالمقاومة ضد الحصار وأخذوا يهاجمون قوات الولايات المتحدة حول المدينة. ووفقا لأنطونى شديد "وبشكل إجمالى بلغ معدل من تركوا وظائفهم، وانضموا إلى الجانب الآخر، أو امتنعوا عن العمل فى الجيش العراقى الجديد، والدفاع المدنى والشرطة واحداً من بين كل أربعة". وحينما حاولت الولايات المتحدة، بتسرع، تسليم المسئولية عن الفلوجة إلى قوة عراقية، انتهى الأمر بحوالى ٨٠٠ مدفع هجوم AK-47، وسبع وعشرين شاحنة صغيرة، وخمسين جهاز لاسلكى كان المارينز قد سلموها للكتيبة العراقية، انتهى أمرهم إلى أيدى المقاومة. فيما بعد، اعترف الفريق جيمس كونواى قائلا "حينما صدرت إلينا الأوامر بالهجوم على الفلوجة، أعتقد أننا بذلك رفعنا مستوى العداء الموجود تجاهنا". ووسط كارثة العلاقات العامة بالنسبة للولايات المتحدة، والتى ازدادت سوءا، قال كميت "بإمكانى القول إن العقاب الجماعى الواقع على أهالى الفلوجة يُنزله بهم هؤلاء الإرهابيون، هؤلاء الجبناء الذين يتحصنون داخل المساجد، المستشفيات والمدارس ويستخدمون النساء والأطفال دروعاً ليختبئوا خلفها من المارينز الذين يحاولون فقط تحرير الأهالى من هؤلاء الجبناء داخل مدينة الفلوجة".

إلا أنه، وبالنسبة لمعظم العالم، فقد كانت الولايات المتحدة هى المسئولة عن "العقاب الجماعى -وهو تعبير يستدعى لدى العرب السياسة الإسرائيلية ضد

الفلسطينيين- عقاب أهالي الفلوجة. وحقا فقد كان ذلك هو التعبير ذاته الذى استخدمه مبعوث الأمم المتحدة إلى العراق، الأخضر الإبراهيمى حينما أعلن بالتأكيد، فإن العقاب الجماعى غير مقبول، وحصار المدينة غير مقبول بإطلاقه". تساءل الإبراهيمى حينما تحاَصر المدينة، تُقصف المدينة، حينما لايستطيع الناس الوصول إلى المستشفيات، ماذا تسمى هذا؟"

وفى النهاية، تُوفى حوالى ثمانمائة عراقى نتيجة للحصار رقم واحد من حصارات الفلوجة العديدة التى ستتبعه. هرب عشرات آلاف المدنيين من بيوتهم، وسُوِّيت مبانيها بالأرض. وعلى الرغم من ذلك، فشلت الولايات المتحدة فى سحق الفلوجة. وكأبعد ما يكون عن ترسيخ هيمنة الولايات المتحدة على العراق، برهنت الفلوجة على فعالية تكتيكات حرب العصابات ضد المحتلين. كتب باتريك كوكبيرن، مراسل الشرق الأوسط المتمرس فى شئونه، فى رسالة له من العراق فى نهاية إبريل، كان يُنظر إلى المدينة بصفتها إسلامية، عشائرية، مرتبطة، عن كثب، بالنظام السابق. ربما كان مجموع الفدائيين فيها لايتعدى الأربعمائة من مجموع السكان البالغ عددهم ٣٠٠٠٠٠. لكن بهجومهم الشامل على المدينة، وكأنما هى الفردان أو ستالينجراد، تمكن مارينز الولايات المتحدة من أن يحولوها إلى رمزٍ قومى .

دافع الجنرال ريتشارد مايرز رئيس الأركان المشتركة، فى شهادة له أمام الكونجرس فى ٢٠إبريل، عن العملية. قال "كما تتذكرون فقد دخلناها بسبب البشاعات التى ارتُكبت ضد فريق أمن بلاكووتر، هؤلاء الأربعة الذين قُتلوا ثم أُحرقوا، ثم علِّقوا من أعلى الكوبرى. دخلناها لأنه كان علينا العثور على الفاعلين. وما وجدناه، كان عبارة عن عش فئران ضخم، مازالت تتوالد حتى اليوم -ويجب التعامل معها". وبعد عدة أشهر أى فى نوفمبر ٢٠٠٤، تبع صراع الفلوجة فى إبريل، هجوم أكبر كثيرا، أوقع مئات الموتى العراقيين، وأجبر عشرات الآلاف من الأهالى على ترك منازلهم، وأحدث غضبا هائلا فى أنحاء البلاد. وككل، نفّذت قوات الولايات المتحدة حوالى سبعمائة غارة جوية، ودمرت ثمانية عشر ألف مبنى من

مباني الفلوجة البالغ عددها تسعة وثلاثين ألف مبنى. قُتل حوالى ١٥٠جندى أمريكي في العمليات. وفى تلك الأثناء، "لم يُعثر أبدا" على منفذى كمين بلاكووتر، كما كان المسئولون السياسيون والعسكريون قد أقسموا، الأمر الذى أكد أكثر على الطبيعة الثأرية لمذبحة الولايات المتحدة بالفلوجة. أطلق المارينز على الكوبرى سيئ السمعة اسم "كوبرى بلاكووتر" وكتب أحدهم بالإنجليزية بقلم فلوماستر أسود على دعائمه "هذا من أجل أمريكيي بلاكووتر الذين قُتلوا هنا عام ٢٠٠٤، Semper Fidelis P.S F...K You. فيما بعد، انتهى الصحفي ضاهر جميل إلى أنه "في إبريل ٢٠٠٤، وفيما اقتُحمت المدينة، وكان سكانها يهربون، يختبئون، أو يُذبحون، كان ثمة وعي عام كبير في الولايات المتحدة ببضعة أشخاص تم التمثيل بجثثهم في العراق، والفضل يرجع إلى إعلامنا الإخباري. لكن بين الآلاف العديدة من المرات التي ذُكر فيها التمثيل بالجثث هذا الشهر، مازال علينا أن نبحث عن أي شئ كُتب يتعلق بذكر ما حدث بعد ٣١مارس... التمثيل بالجثث هو أمر يذكر على أنه يحدث لمرتزقة بلاكووتر والقتلة الأمريكيين المحترفين الآخرين، لا للأطفال العراقيين الذين انتُزعت رءوسهم".■

10

الفصل العاشر

مستر برينس يتوجه إلى واشنطون

قبل غزو العراق، حينما سمع غالبية الناس تعبير "المقاولين المدنيين" لم يتراء لهم صور لرجال يحملون المدافع والبنادق، ويرتدون صدريات مضادة للطلقات ويجوبون المكان بسيارات جيب. فكروا فى عاملين بالإعمار. أيضا، بالنسبة لعائلات الجنود الخاصين الذين تم نشرهم بالعراق وأفغانستان لم يكونوا يتصورون أن أحباءهم مقاولون خاصون، لكنهم كانوا يعتقدون، أنهم "قوات خاصة" أو أفراد "مُلحقون بالجيش" وكانوا يشيرون إليهم فى أحاديثهم بصفتهم هكذا. لم يروا ثمة أهمية لصاحب العمل الفعلى الذى يشغّلهم، أو لألقابهم، لأن ما كانوا يقومون به فى العراق أو أفغانستان كان ذاته هو ما ظلوا يفعلونه دائما -يقاتلون من أجل بلدهم أو هكذا اعتقدت تلك الأسر. قال والدا أحد مقاولى بلاكووتر الذين قُتلوا بالعراق "إن ما أدى بابنهما إلى العمل بالعراق هو حسه العميق بالوطنية والتزامه القوى بالعقيدة المسيحية". وتلك مشاعر شائعة فى أوساط جماعات الجنود الخاصين. ومن ثم، ففى ٣١ مارس ٢٠، حينما بدأت الأنباء تصل الولايات المتحدة بأن أربعة "مقاولين

مدنيين" وقعوا فى كمين فى الفلوجة، لم تر عائلات الرجال أية علاقة لهذا بأبنائهم. فبعد كل شئ، فلم يكن أعزاؤهم مدنيين -كانوا عسكريين. فى أوهايو، سمعتْ والدة جيرى، دانيكا زوفكو ، من الإذاعة أنباء عن مقتل "مقاولين أمريكيين". وبعد أن رأت الصور الآتية من الفلوجة، كتبت إيميل إلى ابنها تطلب منه الحذر. قالت "إنهم يقتلون أناسا بالعراق مثلما فعلوا بالصومال".

كانت كاتى هلفنستون -وتنجل، والدة سكوت، تعمل بمكتبها بالمنزل، والتليفزيون مفتوح خلفها، قالت فيما بعد "كنت جالسة هنا إلى مكتبى أقوم ببعض الأبحاث، وكان التليفزيون مفتوحا على شبكة سى إن إن. وفجأة لفتت أنباء الظهيرة انتباهى، ونظرتُ إلى الشاشة لأجد مركبة مشتعلة وفكرت "يا إلهى". لم يخطر ببالها آنذاك أن الفيلم الذى كانت تشاهده كان يصور ميتة ابنها البشعة. قالت "حينما قالوا مقاولين، كنت أفكر فى عمال الإنشاءات الذين يشتغلون على خطوط الأنابيب أو شئ من هذا القبيل. غيرتُ القناة لأننى فكرت أن هذا كان جنونا، ولم أستطع مشاهدته لوقت

أطول . استمرت هلفنستون وتنجل فى عملها، ثم سمعت فى الأخبار وصفا للرجال بأنهم كانوا "مقاولى أمن" الأمر الذى تسبب فى توترها. أضافت "قلت يا إلهى، إن سكوتى مقاول أمن، لكنه ليس بالفلوجة. إنه يحرس بول برمر فى بغداد". اتصلت بابنى الآخر، جيسون وأخبرنى ألا أقلق بأكثر من اللازم. على أية حال، قالت لنفسها إن ابنها كان قد وصل لتوه إلى العراق قبل ذلك ببضعة أيام، "لم يكن من المفترض أن يكون قَد أُرسِل فى أية مهمة". خرجت هلفنستون -وتنجل عصر ذلك اليوم لحضور اجتماع وحينما عادت إلى المنزل فى السابعة مساء وجدت ثمانى عشرة رسالة جديدة على آلة تسجيل الرسائل الهاتفية. قالت "الأربع الأولى كانت من جيسون. كانت تقول "أمى، بلاكووتر. من وقعوا فى الكمين كانوا رجال بلاكووتر". اتصلت هلفنستون- وتنجل بالمقر الرئيسى لبلاكووتر وأجابتها امرأة. قالت "أنا كاتى هلفنستون، والدة سكوتى. هل سكوتى بخير؟" قالت ممثلة بلاكووتر إنها لاتدرى. صاحت هلفنستون -وتنجل "لقد مر اثنتا عشرة ساعة. ماذا تعنين بأنك لا تدرين؟" قالت إن ممثلة بلاكووتر أبلغتها أن الشركة كانت تقوم بعملية إستدعاء لمقاوليها الميدانيين إلى مقرها بالعراق: "قالت إن ثمة ٤٠٠منهم هناك وإن ٢٥٠منهم قد وصلوا إلى المقر. سألتها إن كان سكوتى بينهم وأجابت بالنفى". قالت هلفنستون - وتنجل إنها مضت تتصل كل ساعة ببلاكووتر: "وأنا شبه يائسة وفى حاجة لأية معلومات". وفى تلك الأثناء وجدت موقع الفلوجة على الخريطة وأدركت أنها ليست بعيدة عن العراق وبمنتصف الليل، كان أمر موته قد استقر فى وجدانها. "كان سكوت مواظبا على مهاتفتى وإرسال الإيميلات، ومضيت أفكر أنه كان سيتصل إن لم يكن قد أصيب بأذى، لأنه يعلم مدى قلقى. عرفت أنه قد مات".

وفيما كانت الأسر قد بدأت فى استيعاب صدمة وترويع ما حدث لأعزائها بالفلوجة كان العالم -من بينهم مسئولون منتخَبون كثيرون بواشنطن- قد بدأ يتكشف لهم المدى الذى وصلت إلى خصخصة الحرب، ومدى رسوخ دور المقاولين الخاصين، مثل رجال بلاكووتر، الآن، فى عملية استعمار العراق. فى حرب الخليج عام ١٩٩١، كان واحد من بين كل ستين ممن نشرتهم قوى التحالف، من المقاولين. أما فى احتلال

٢٠٠٣، فقد ارتفع المعدل ليصل إلى ١:٣. بالنسبة لإريك برينس، وفّر مقتل المقاولين بالفلوجة، والقتال الذى وقع بالنجف فرصة لم تكد تكون متخيلة -فإنه، وبذريعة الحد من الأضرار سيستطيع إريك برينس وبطانته لقاء سماسرة السلطة فى واشنطون، وسيتمكنون من أن يبيعوا لهم رؤية بلاكووتر عن خصخصة الجيش فى ذات اللحظة التى كان قد بدأ فيها أعضاء الكونجرس يدركون ضرورة المرتزقة فى الحفاظ على احتلال العراق (وأرباح الشركات هناك). وفى توقيت لم يكن باستطاعة أحد أن يُبدِع أفضل منه، دُفِع برجال بلاكووتر إلى موقع وكأنما قد أصبحوا ممثلين لشركة أدوية محظوظة يعرضون مُسكِّناً جديدا على مريض اشتدت عليه وطأة المرض، فى اللحظة التى كان فيها أقسى أنواع الألم قد بدأ يدهمه.

لوبيهات بلاكووتر:

فى اليوم التالى لكمين الفلوجة، لجأ إريك برينس إلى صديق عمره، بول بهرندز، وهو شريك فى مؤسسة اللوبيهات الجمهورية ذات السطوة اسمها "ألكساندر ستراتيجى جروب التى أنشأها كبار من يُعيِّنون الموظفين فى مكتب زعيم الغالبية آنذاك، طوم ديلاى. كان بهرندز، اللواء الاحتياطى فى فرق المارينز، مستشارا رفيع المستوى للأمن القومى لعضو الكونجرس الجمهورى عن كاليفورنيا، دانا روهرباتشر، الذى عمل أيضا مساعدا للرئيس ريجان. كان لبرينس وبهرندز تاريخ طويل من الصداقة والشراكة -عمل الشاب برينس بين عامى ١٩٩٠ و١٩٩١ لحساب روهرباتشر مع بهرندز. كان ذلك بداية شراكة سياسة، ودينية وثيقة بالإضافة إلى شراكة البيزنس بين الرجلين والتى قويت فيما تنامت بلاكووتر.

سُجِّل بهرندز رسميا لأول مرة للقيام بأعمال اللوبيهات من أجل بلاكووتر فى مايو ١٩٩٨ وبدأ يروج للشركة فى مجالات تراوحت بين التخطيط للمناطق المنكوبة وحتى العلاقات الدولية. فى ذلك الشهر، قامت مؤسسة بهرندز "بولاند آند ماديجان" بتوصيل النائب روهرباتشر ومعه المُدافع الشرس "عن التعديل الدستورى الثانى"، أى النائب جون دولتيل، إلى مجمع برينس بمويوك لحضور الاحتفال الكبير بافتتاح

بلاكووتر- على نفقة الشركة.

وفيما شيّد برينس -بمساعدة جهود لوبى بهرندز- إمبراطورية بلاكووتر، كان بهرندز قد أصبح، فى ذات الوقت، يشارك مشاركة عميقة فى مجالات لسياسة الولايات المتحدة الخارجية والتى أصبحت فيما بعد الخطوط الأمامية فى الحرب على الإرهاب أضحت تلك أيضا مجالات دخل كبير لبلاكووتر. بين تلك كانت خطة "النقط الكبيرة"، عالية المخاطر، التى قادتها شركة يونوكال العملاقة، لمدّ خط أنابيب يخترق أفغانستان التى كانت تحكمها طالبان. عمل بهرندز بصفته لوبيا لشركة دلتا أويل، شريكة يونوكال فى الخطة، ضاغطا من أجل اعتراف الولايات المتحدة الرسمى بحكومة أفغانستان. كان برينس، وروهرباتشر، رئيس بهرندز السابق، مهتمين بأفغانستان منذ وقت طويل، منذ كان يعمل بها ككاتب خُطب رفيع المستوى ببيت ريجان الأبيض، حينما كانت الولايات المتحدة تساند المجاهدين بأسلوب عدوانى، ضد الاحتلال السوفييتى للبلد. سافر روهرباتشر، الذى عُرف عنه ولعه بجماعات مختلفة من "المقاتلين من أجل الحرية" (المجاهدين) الذين تساندهم الولايات المتحدة، سافر إلى أفغانستان عام ١٩٨٨، وانضم، شخصيا، إلى المجاهدين فى قتالهم ضد القوات السوفيتية، قبل أن يُقسِم، رسميا، اليمين الدستورية بالكونجرس. لم يكن من المستغرب أن تصبح بلاكووتر واحدة من أوائل الشركات العسكرية الخاصة التى ارتبطت بعقد للقيام بعمليات داخل أفغانستان بعد ٩/١١.

عمل برينس وبهرندز معاً. ومنذ وقت طويل، فى مجلس إدارة منظمة "الحرية المسيحية الدولية" وهى منظمة بروتستانتية صليبية صهيونية تبشيرية أسسها وأدارها أعضاء سابقون فى إدارة ريجان -عدد كبير منهم لاعبون أساسيون فى فضيحة إيران/كونترا. نما مؤسسها ورئيسها، جيم جاكبسون، سياسيا وهو يعمل تحت رئاسة صديق إريك برينس وراعيه جارى باوير، حينما كان باوير يعمل رئيسا لمكتب "تطوير السياسة" فى إدارة ريجان. عمل جاكبسون أيضا فى إدارة جورج إيتش. بوش. كانت منظمة "الحرية المسيحية الدولية" من أشد المتحمسين لحرب

إدارة بوش على الإرهاب، ووجدت أن الخطأ الوحيد لحروب البيت الأبيض فى العراق وأفغانستان هو أنها لم تقم بما فيه الكفاية للدفاع عن المسيحيين.

فى وقت كمين الفلوجة كانت "ألكساندر استراتيجى"، الأكثر نفوذا على الكونجرس بين جماعات الضغط وكانت مؤسسات اللوبيهات تلك "تجمع مبالغ هائلة من عملائها لضمان أن يظل الجمهوريون يُشكلون الغالبية بالكونجرس. ونظير هذا الولاء، كانت (القيادات) "تُسهل على جماعات الضغط الوصول إلى صناع القرار، وتوفر مزايا تشريعية لعملائها". وفقا لجماعة "بابليك سيتزن" لحراسة الكونجرس. لم يُضع بهرندز ورفاقه أى وقت للعمل لصالح برينس وبلاكووتر. قال كريس برتيلى، المتحدث باسم "ألكساندر استراتيجى" والذى أُنيط به العمل من أجل بلاكووتر بعد مقتل الرجال بالفلوجة،: "لم تذهب بلاكووتر إلى هناك بحثاً عن الدعاية، ولم تسع إلى كل ما حدث لهم. نريد أن نبذل جهدنا لتثقيف الإعلام والكونجرس فيما تفعله بلاكووتر".

وبعد أسبوع، على وجه التحديد، من الكمين، كان إريك برينس يجلس مع أربعة، على الأقل، من كبار أعضاء "لجنة مجلس الشيوخ الخاصة بالخدمات المسلحة"، ومن بينهم رئيسها جون وورنر. رافق باتريك تووهى عضو فرقة السيلز البحرية سابقا، والذى كان قد أصبح المدير التنفيذى لبلاكووتر، إريك برينس فى اجتماعاته بقيادات الكونجرس، وكذلك فعل بهرندز. رتب السناتور ريك سانتورم للاجتماع، الذى ضم وورنر وعضوين. جمهوريين رئيسيين آخرين بمجلس الشيوخ -رئيس لجنة الاعتمادات تدْ ستيفنز عن ولاية ألاسكا، والسناتور جورج آلن عن فيرجينيا. أتى هذا الاجتماع بعد سلسلة اجتماعات سابقة، وجها لوجه، عقدها برينس مع أعضاء جمهوريين نافذين بمجلس النواب كانوا يشرفون على التعاقدات العسكرية. كان من بينهم: طوم ديلاى، زعيم الغالبية بالمجلس، وراعى "ألكساندر ستراتيجى"؛ بورتر جوس، رئيس لجنة الاستخبارات بالمجلس (ومدير السى آى إيه فيما بعد)؛ دانكان هنتر، رئيس لجنة الخدمات المسلحة بالمجلس؛ والنائب بيل يونج رئيس لجنة الاعتمادات بالمجلس. يظل ما بُحِث فى تلك الاجتماعات سرا لم يناقشه رجال

الكونجرس أو بلاكووتر علناً. لكن الأمر الذى لم يكن ثمة لبْس حوله هو أن: لحظة الشركة قد واتتها.

وفى وجود عملاء "ألكساندر ستراتيجى" يوجهون إريك بريتس (الذى كان يتحاشى الإعلام) وتنفيذيى الشركة، كانت بلاكووتر تُموقع نفسها للتربح من الصيت الذى اكتسبته مؤخرا فيما كانت تُراهن على دور رئيسى فى تشكيل اللوائح التى ستحكم وضع المرتزقة فى عقود حكومة الولايات المتحدة. قال برتيلى من "الكساندر استراتيجى": بسبب أحداث ٣١ مارس العامة، ارتقى التواجد المرئى لبلاكوتر وكذلك حاجتها إلى توصيل رسالة متسقة (إلى المسئولين والجمهور) هنا فى واشنطون. توجد الآن أحكام عديدة فدرالية تنطبق على أنشطتها، لكنها، وبعامة، ذات طبيعة غير مُحددة. أحد الأشياء، غير الموجودة حاليا هو معيار لتلك الصناعة الأمنية. وهذا شئ نريد بالتأكيد أن نعمل عليه". وبحلول شهر مايو، كانت بلاكووتر، تقود حملة من خلال اللوبيهات ومعها شركات الأمن الخاصة والمقاولون الآخرون فى محاولة للحيلولة دون جهود الكونجرس والبنتاجون لإخضاع شركاتهم والعاملين بها لنفس "قوانين العدالة" التى يخضع لها الجنود الميدانيون الرسميون. قال برتيلى، إنه "لا يجوز تطبيق القوانين العسكرية الموحدة على المدنيين، لأن من يلتحقون بالقوات المسلحة يتخلون عن حقوقهم الدستورية. ويخضعون لنظام قانونى مختلف عما تخضعون له إذا كنتم مدنيين". وفى يونيو، تسلمت بلاكووتر أحد أعلى عقود الأمن الحكومية الدولية قيمةً أُنيط بها، بمقتضاه، حماية الدبلوماسيين ومنشآت الولايات المتحدة بالخارج. وفى الوقت ذاته، مُنحت بلاكووتر الحصانة الخاصة بها، حينما مَنَح برمر حصانة شاملة لعملياتها بالعراق.

لكن فيما كان تنفيذيو بلاكووتر يُطوِّعون النخبة من أعضاء الكونجرس، بدأ بعض الأعضاء الآخرين يتساءلون عما كان يفعله رجال بلاكووتر بالعراق، ناهيك عن مهمتهم بالفلوجة ذاك اليوم. وبعد أسبوع من حدوث الكمين، كتب ثلاثة عشر عضوا ديموقراطيا بمجلس الشيوخ، يقودهم جاك ريد من رود أيلاند، خطابا إلى دونالد

رمسفلد يطالبون البنتاجون بنشر "إحصائية دقيقة" عن المسلحين الخصوصيين "غير العراقيين الذين يعملون بالعراق. كتب أعضاء مجلس الشيوخ يقولون" مقاولو الأمن هؤلاء مسلحون، ويعملون بأسلوب من الصعب تمييزه عن أسلوب قوات الجيش، وخاصة قوات العمليات الخاصة. إلا أن الشركات الأمنية تلك لا تخضع للجيش ولا للأحكام التى تُرشد سلوك العاملين بالجيش الأمريكى، إذا سمحت الولايات المتحدة بوجود جيوش خاصة تعمل خارج نطاق تحكم سلطة الحكومة ومسئولة فقط أمام من يدفع لها ستكون تلك سابقة خطيرة". أكد الأعضاء على أن الأمن فى "منطقة القتَال المعادية هى مهمة كلاسيكية للجيش، ويثير إيكالها إلى المقاولين الخاصين أسئلة خطيرة". لم يَرُد رمسفلد على الخطاب. وبدلا من ذلك فُتحت أبواب إعادة التعمير بالعراق على مصراعيها وتدفقت التعاقدات على المرتزقة. عبرت النيويورك تايمز عن ذلك دونما مواراة "أطلق مزيج من التمرد القاتل وبلايين دولارات المساعدات قُوى سوقٍ نافذة فى منطقة الحرب. تتنافس شركات أمن جديدة بضراوة للحصول على العقود المُدرة للأرباح وسط جنون من إبرام الصفقات".

وبعد أسبوعين من أحداث القتل بالفلوجة، أعلنت بلاكووتر عن خططها لإقامة منشأة هائلة جديدة -مبنى إدارى مساحته خمسة وعشرون ألف قدم مربع -على الأرض المملوكة لها فى مويوك. بلغت مساحة المشروع النهائى أربعة وستين ألف قدم، أى ما يربو على ضعف مساحة المشروع الأصلى. كان هذا تطورا كبيرا بالنسبة لبلاكووتر، التى كان قد رُفِض السماح لها بإقامة المشروع لمدة ست سنوات بسبب معارضة الحكومة المحلية. فى الأيام التى تلت الكمين، عمل المسئولون بالإقليم على تعديل القوانين المحلية من أجل السماح بتوسّع بلاكووتر. وإضافةً إلى تلك التصاريح الجديدة، مُنِحت بلاكووتر تصاريح أخرى لإقامة وتشغيل ساحات لإطلاق الأسلحة النارية، ومناطق لهبوط البارشوتات، والقيام بتدريبات على المتفجرات، وأيضا على معارك الاشتباك المتلاحم، والأسلحة الحارقة، وأسلحة الهجوم الأتوماتيكية. قال رئيس مجلس إدارة الشركة، جارى جاكسون "سيكون هذا مَقرنا الدولى".

وفى تلك الأثناء وبعد أسبوعين فقط من أحداث القتل بالفلوجة، أصدرت بلاكووتر بيانا صحفيا بأنها ستستضيف أول "منتدي عالمي لتحدى الأسلحة والتكتيكات الخاصة SWAT". قال التقرير "لم يسبق فى تاريخ العالم أن كانت ثمة حاجة لرجال ونساء يستطيعون الرد بفعالية على أكثر أحداثنا خطورة. قامت بلاكووتر يو إس إيه، أكبر مؤسسة للتدريب على الأسلحة النارية والتكتيكات بعمل الترتيبات لعقد منتدي للوفاء بما يقتضيه ذلك الاحتياج منتدي لم يعُقد له مثيل من قبل". تفاخرت الشركة بعقد ورش عمل لمواضيع عدة من بينها "حسم المواقف فى حالة احتجاز الرهائن، التصدى للمفجرين الانتحاريين، وسيكولوجية القيام بعمليات حاسمة حساسة والنجاة منها". وبعد أعمال المنتدي، قالت الشركة إنه سيكون ثمة أوليمباد للأسلحة والتكتيكات الخاصة SWAT، تتنافس فيه فرق من أرجاء الولايات المتحدة وكندا على سلسلة من العمليات فى مناسبات مختلفة يجرى تصويرها تليفزيونيا. رفض جارى جاكسون فى مؤتمر صحفى عن المناسبة الإجابة عن أية أسئلة متعلقة بكمين الفلوجة، وأدار جميع المناقشة عودة إلى تحديات SWAT. لم يأت ذكر الفلوجة إلا حينما بارك جاكسون المناسبة، وأضاف قائلا عند افتتاح ألعاب الأولمبياد "كانت تلك لا تتعدى نزهة مقارنةً بما يحدث خلال أى أسبوع عادي".

فى المؤتمر، خاطب دافيد جروسمان، الضابط المتقاعد ومؤلف كتاب "عن القتل"، وأيضا، مؤسس مجموعة أبحاث علم القتل، خاطب المشاركين، هو ينتقل بينهم حاملا مايكروفونا. تحدث عن "عصر الظلام الجديد" المملوء بإرهاب القاعدة وإطلاق النيران بالمدارس. أعلن أن "الأشرار فى طريقهم بمدافعهم وأدرعتهم". قال "سيدمرون حياتنا فى يوم واحد"

قال أيضا إن العالم ملئ بالحملان، ومهمة المحاربين –أىْ نوع الرجال المجتمعين فى منتدي بلاكووتر– هى أن يحموهم من الذئاب. ثم صاح "آمنوا بروح المقاتلين! نحن بحاجة إلى مقاتلين يؤمنون بذلك اللفظ الكريه المكون من أربعة أحرف، أى "اقتل". فى تلك الأثناء أرسل جارى جاكسون إيميلات لمن هم على قائمة بلاكووتر البريدية

يشجعهم على ألا تفوتهم الوجبة "المدهشة" فى المؤتمر، حيث سيتحدث أحد أكثر الجواسيس شهرة فى التاريخ الحديث للولايات المتحدة، وهو جيه. كوفر بلاك، الذى كان آنذاك رئيس قسم مكافحة الإرهاب بوزارة الخارجية. كان بلاك فى أعقاب ٩/١١، وكرئيس لقسم مكافحة الإرهاب بالسى آى إيه، قد قاد عملية الإدارة الأمريكية لاقتناص بن لادن. ثم بعد عام من كمين الفلوجة، التحق ببلاكووتر كنائب رئيس مجلس إدارة الشركة -وكان واحدا من بين عديد من كبار المسئولين السابقين الذين أخذت الشركة تستأجرهم وهى ترسخ إمبراطوريتها ونفوذها.

وفيما خططت بلاكووتر لتوسعها الهائل بالداخل الأمريكى، أخذ نفوذها يتنامى فى إرساء توجهات صناعة المرتزقة. كتبت دورية العلاقات العامة التجارية پى. آر. ويك تقول "ركز تزايد العنف هذا الشهر الضوء على جيش شركات الأمن الخاصة الأمريكية الصغير الذى يعمل كميلشيات غير نظامية فى العراق بمقتضى عقود مع البنتاجون. وفيما تتزايد النداءات بوضع أحكام تنظم عمل تلك الشركات، نجدها تتسلق طريقها إلى المسئولين فى واشنطون لإسماع صوتها.. فى مقدمة تلك الشركات تأتى بلاكووتر، يو إس إيه، من كارولاينا الشمالية والتى فقدت أربعة من العاملين بها فى هجوم بالفلوجة فى ٣١مارس". وبعد ما بدأت بلاكووتر فى استخدام جماعات الضغط ذات الصلات الجيدة للدعاية لخدماتها، حذت شركات المرتزقة الأخرى حذوها. بدا وأنها جميعها بدأت تتسابق فى التدافع للحصول على ذهب التزّق فى العراق. استأجرت شركة ستيل فاونديشن، من كاليفورنيا، وكانت إحدى أوائل شركات الأمن الخاصة التى انتشرت بالعراق، استأجرت فى ١٣إبريل ٢٠٠٤ السفير السابق روبرت فرويك، وكان أحد اللاعبين الرئيسيين فى صراعات البلقان، لمساعدتها فى إدارة "العلاقات الاستراتيجية مع الحكومة"، بواشنطون. وفى تلك الأثناء استأجرت شركة جلوبال ريسك ستراتيجيز التى تعمل بالتزويد بالمرتزقة، ومقرها لندن، مكتبا فى واشنطون دى سى فى ذلك الشهر لجعله قاعدة للوبيهاتها. قال تشارلى أندروز، مدير الشركة التنفيذى "نعلم تماما أن واشنطون دى سى تعمل بأسلوب جد مختلف. ما نحتاجه لمساعدة شركتنا هو جماعة ذات نفوذ تقودنا خلال

إجراءات بروتوكولات واشنطون دى سى". ووسط فورة أنشطة اللوبيهات التى تعمل لصالح الشركات الخاصة، أخبر السناتور وورنر النيويورك تايمز برأيه فى المرتزقة "إننى أشير إليهم بصفتهم شركاءنا الصامتين فى ذلك الصراع".

فى اليوم التالى للقاء برينس مع وورنر وأعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين الآخرين، تفاخر المتحدث باسمه الجديد من شركة "الكسندر ستراتيجى جروب" (ASG)، كريس برتيللى بالزيادة الضخمة فى الطلبات المقدمه من الجنود السابقين للعمل ببلاكووتر. قال "إنهم غاضبون، يقولون "دعونا نذهب هناك". قال برتيللى إنه مع وجود الصور المثيرة لكمين الفلوجة "فمن الطبيعى أن يفترض المرء أن بإمكان الوجود الجلى للمخاطر أن يرفع الرواتب للأشخاص الذين يقفون فى طريق الطلقات". وبنهاية إبريل، كانت النيويورك تايمز تقول فى تقرير لها "يُعبر بعض القادة العسكريين عن تذمرهم من أن إغراء الأجور التى تتراوح بين ٥٠٠دولار و١٥٠٠ دولار يوميا للفرد الواحد يُفرِّغ الوحدات الخاصة من أفضل عناصرها وأكثرها خبرة فى الوقت الذى توجد به حاجة ماسة إلى خدماتهم".

وفى العراق، كان الوضع يتدهور سريعا. فى ١٣إبريل، وفى رسالة لهما من بغداد، قال المراسلان الحربيان البريطانيان روبرت فيسك وباتريك كوكبيرن "قُتل على الأقل ثمانون من المرتزقة -جنود أمن متعاقَد معهم من الولايات المتحدة، أوروبا وجنوب إفريقيا ويعملون فى شركات أجنبية، قُتلوا فى الأيام الثمانية الماضية". أوقف العنف الذى كان يزلزل البلاد "الكثير من أعمال إعادة الإعمار"، وتعرض المقاولون للقتل وأعمال الخطف بأرقام قياسية. تم خطف حوالى خمسين منهم فى الشهر الذى تلا كمين بلاكووتر. أصبح استهداف المقاولين الأجانب (الذين أوتى بهم لدعم الاحتلال وعمليات إعادة الإعمار)، العاملين فى شئون للمساعدات والصحفيين الأجانب مصدر تمويل لذات القوات التى تقاتل الولايات المتحدة بالعراق. وعلى الرغم من سياسة الولايات المتحدة بعدم دفع فدية، فقد قدّر تقرير سرى أن منظمات المقاومة كانت تتلقى حوالى ٣٦مليون دولار سنويا من عمليات دفع الفدية. وفى إبريل ٢٠٠٤،

سحبت روسيا حوالى ثمانمائة من العاملين المدنيين بالعراق، وتبعتها ألمانيا، فيما قال مسئول عراقى رفيع المستوى أن أكثر من ١٥٠٠من المقاولين الأجانب غادروا العراق ذاك الشهر. وجاء فى تقرير لفورتشن مجازين أن "الزيادة الهائلة فى العنف تأتى فى الوقت الذى كانت الحكومة تمنح فيه عقودا جديدة قيمتها ١٠بليون دولار، وفيما كانت شركات من أمثال هاليبرتون وبكتل تحاول زيادة وجودها هناك". كانت الولايات المتحدة تحاول جاهدة أن تجذب اهتمام مزيد من شركاء البيزنس ونظمت سلسلة من المؤتمرات الدولية لاجتذاب بيزنسات جديدة. قال جوزيف فينسنت، نائب رئيس مجلس إدارة "قوة مهمات الاستثمارات وإعادة الإعمار بأفغانستان والعراق": "كان ثمة ما يزيد على ٢٠٠ شركة (بمؤتمر) روما وكان الاهتمام كبيرا لدرجة أن كان علينا استخدام غرفة إضافية". تفاخر بحضور ٥٥٠ شركة إلى مؤتمر مماثل بدبى، و٢٥٠ إلى مؤتمر آخر بفلادلفيا. أيضا، قامت الغرفة التجارية بتوزيع ورقة بحثية توضيحية بعنوان "خوض البيزنس بالعراق" فى جميع أرجاء العالم، من سيدنى وحتى سيئول ولندن.

وفى مؤتمر عُقِد بدبى بعد ثلاثة أسابيع من كمين الفلوجة، ووصفته الصحافة المحلية بأنه "فرصة لكسب بلايين الدولارات من أعمال مقاولة من الباطن بالعراق"، أبلغ شوان المقاولين المحتملين أن "العراق تمثل فرصة العمر". لكن الأمن كان ضرورة للتربح من تلك الفرصة، وكانت شركات المقاولة تُشجَّع على إضافة تكاليف إضافية على فواتيرها نظير استئجار المرتزقة. وكخدمة عامة، تضمنت ورقة "خوض البيزنس بالعراق" قائمة بأسماء شركات المرتزقة الذين يُستأجرون هناك.

وفى تلك الأثناء أوضح المفتش العام الذى عيّنته الولايات المتحدة خصيصا للعراق، ستوارت بُوين الابن، مدى الطلب الجديد على خدمات المرترقة بالعراق. قال "كان الاعتقاد هو أن من المتوقع أن توفر قوات التحالف الأمن الداخلى الكافى وبذلك تقضى على حاجة المقاولين لاستئجار من يحفظ أمنهم. لكن الوضع التهديدى الجديد الآن يقتضى تخصيص نسبة كبيرة غير متوقعة من دولارات المقاولين لشركات الأمن

الخاصة". وكنتيجة لتزايد الطلب الذى لايتوقف على خدمات الأمن الخاص من شركات مثل بلاكووتر، بدأت الشركات التى تقوم بالأعمال الخدمية للاحتلال تزيد قيمة الفواتير التى ترسلها لسلطة التحالف المؤقتة بدرجة كبيرة نظير تكلفة حمايتها. قال بوين إن "الأرقام التى سمعتها تزيد ٢٥٪" مقارنة بالتقديرات المبدئية المقدرة للزيادة والتى كانت ١٠٪ من ميزانية إعادة الإعمار وتخصص تلك المبالغ لتغطية نفقات أمن الشركات الخاصة من أمثال هاليبرتون. أيد مسئول البنتاجون المختص المسئول عن تزويدات الجيش تقديرات بوين.

جاء فى تقرير للتايمز اللندنية أن "جيش الولايات المتحدة قد خلق الكثير من الطلب على حراس الأمن الخاصين فقد تعاقد مع مقاولين خاصين على وظائف كثيرة كانت سابقا من اختصاص الجيش، وهؤلاء المقاولون، بدورهم، بحاجة إلى حماية". ولأن الولايات المتحدة خصخصت كثيرا من تلك الخدمات الضرورية -تزويد القوات بالأكل، الوقود، المياه والإسكان- وجعلت الشركات الخاصة مكوناً ضروريا من مكونات الاحتلال، لم تفكر إدارة بوش فى عدم استخدام المقاولين حتى حينما أصبحت الأوضاع فائقة الخطورة. وكما عبر عن ذلك بروس كول، أحد مسئولى الاحتلال "لن نتوقف لمجرد أن تكلفة الأمن تتزايد". وبدلا من ذلك، تعمقت الإدارة أكثر فى حُفرة الخصخصة، ودفعت مزيدا من النقود لشركات أخرى وشجعت النمو الكبير فى صناعة المرتزقة. وطبقا لما ذكرته فورتشن مجازين "فى البداية، حينما وصلت إلى البلاد فرق هاليبرتون التى تعمل على إعادة بناء خطوط أنابيب النفط، كان لديها حماية عسكرية. لكنها الآن عليها أن تستأجر أمنا خاصا. ومع ارتفاع أسعار العربات المصفحة لأكثر من ١٠٠٠٠٠ دولار للواحدة، وارتفاع أجور الحراس الخاصين إلى ١٠٠٠ دولار للشخص الواحد عن كل يوم عمل، فإن شركات المقاولات الكبرى مثل بكتل وهاليبرتون تنفق مئات ملايين الدولارات لحماية للعاملين بها. وهذا يعنى مبالغ أقل تنفقها الحكومة على أعمال إعادة الإعمار". وأيضا مبالغ أكثر كثيرا تذهب إلى خزائن الشركات العسكرية الخاصة.

ما أصبح واضحا بعد كمين الفلوجة والقتال بالنجف هو أن المرتزقة قد أصبحوا جزءا ضروريا من الاحتلال. قالت النيويورك تايمز "ومع كل أسبوع من التمرد فى منطقة حرب ليس بها جبهة للقتال، تغدو تلك الشركات أعمق تغلغلا فى أعمال القتل، وفى بعض الحالات تُطمس أية تمايزات بين القوات الرسمية المهنية، وفرق الكوماندوز الخاصة. وأكثر فأكثر، تعطى الانطباع بهيمنة الميلشيات الخاصة التى تقاتل نظير التربح". وبعد عام من غزو العراق، كان عدد المرتزقة بالعراق قد تفجر. زادت "جلوبال ريسك ستراتيجى" إحدى أولى شركات المرتزقة التى نشرت مقاوليها بالعراق، عدد من استخدمتم هناك من تسعين إلى ألف وخمسمائة جندى، وارتفع عدد رجال ستيل فَاونديشن" من خمسين إلى خمسمائة. فيما ازدهرت شركات لم تكن معروفة من قبل مثل "إرينيس -استأجرت ١٤٠٠٠عراقى ليعملوا جنودا خاصين. استأجرت شركة Fluor الهندسية -من أكبر شركات الهندسة والإنشاءات الأمريكية- حوالى ٧٥٠من الحراس الخاصين ليحرسوا ٣٥٠ من عامليها الذين كانوا يُنفّذون مهمات تعاقداتها بالعراق والتى بلغت قيمتها ٢بليون دولار. قال جارى فلاورز، نائب رئيس مجلس إدارة Fluor "فلنقل فقط إن ثمة أناساً يحملون السلاح ويقومون بالحراسة أكثر من هؤلاء الذين يديرون مفاتيح الربط". بدأت شركات المرتزقة "الراسخة"- أو تلك التى تربطها علاقات بسلطة الاحتلال - تشكو من العمليات المتداعية التى تُقدِّم خدمات أمن بالعراق نظير تكلفة أقل كثيرا وبمقاولين أقل "تأهيلا" بكثير. أيضا، كان ثمة جدل حول قوات الأمن جنوب الإفريقية التى كانت تعمل فى ظل نظام الآبارتايد، والتى كُشف عن وجودها بعد مقتل عدد منها. قال ريتشارد جولد ستون، قاضى المحكمة العليا بجنوب إفريقيا المتقاعد، والذى عمل أيضا كبيرا للمدعين فى محاكم جرائم الحرب التابعة للأمم المتحدة ليوغسلافيا وروآندا "إن المرتزقة الذين نتحدث عنهم عملوا بقوات أمن كانت مرادفة للقتل والتعذيب. كان رد فعلى هو الرعب من عمل مثل هؤلاء الأشخاص فى وضع كان ما يجب أن يُشجَّع فيه هو نشر الديموقراطية. ليس هؤلاء أناسا يمكن استخدامهم فى وضع هكذا". أبلغ مسئول بالبنتاجون تايمز مجازين "تستأجر هذه

الشركات أي شخص تستطيع الحصول عليه. بالتأكيد، كان بعضهم ينتمى إلى القوات الخاصة، لكنْ بعضهم ملائمون، والآخرون غير ملائمين".

فى ٢٨ إبريل ٢٠٠٤، تفجرت فضيحة سجن أبو غريب عَلى الملأ حيثما بث برنامج "ستون دقيقة" على قناة سى بى إس صورا حية لجنود الولايات المتحدة وهم يعذبون المعتقلين العراقيين ويمتهنونهم. وسرعان ما اتضح أن مقاولين خاصين من شركتين أمريكيتين- تايتان كوربوريشن ومقرها سان دييجو وشركة كاسّى ومقرها فيرجينيا -كانوا متورطين فى التعذيب لأنهم زودوا الاحتلال بمستجوبين لاستخدامهم بالسجن أثناء فترة الانتهاكات والتعذيب. وجد تقرير تحقيقى للجيش كتبه اللواء أنطونيو تاجوبا أن مُستَجوِباً تابعاً لشركة كاسى ومترجما من شركة تايتان كانا "مسئولَيْن بأسلوب مباشر أو غير مباشر عن انتهاكات أبو غريب". أنكرت الشركتان الاتهامات. أوضحت كاسى أن أحد مديريها السابقين كان هو ريتشارد أرميتاج نائب وزير الخارجية، ومسئول رئيسى بالإدارة عن الحرب على الإرهاب. اتهمت دعوى أقامها مركز الحقوق الدستورية، نيابة عن الضحايا، تايتان وكاسى بالتآمر مع مسئولى الولايات المتحدة "لامتهان وتعذيب وانتهاك أشخاص" للحصول على مزيد من العقود لـ"خدماتها الاستجوابية". ورغم تسليط ضوء أقوى كثيرا على المقاولين الخاصين، فلم ينتج عن هذا أى تأثير غير موات على هذا البيزنس.

فى العراق، قامت بلاكووتر، بما لديها من عاملين سابقين بالقوات الخاصة وصلاتها السياسية، بإرسال الفواتير لبعض عملائها مطالبة بمبلغ يتراوح بين ١٥٠٠دولار و٢٠٠٠دولار يوميا عن كل من رجالها، وفقا لما أوردته تايمز مجازين. وفى تلك الأثناء استغلت الصناعة العسكرية الخاصة كمين الفلوجة من أجل الحصول على الموافقة الصريحة من الولايات المتحدة بأن يستخدم الجنود الخاصون أسلحة أثقل بالعراق. وحتى بالرغم من تنامى الجدل، والمشاكل المتعلقة بصورة الشركات الخاصة وصورة الولايات المتحدة، كانت تلك لحظة لا تصدق فى تاريخ شركات المرتزقة، تدفع بباب المشروعية مفتوحا، وهو أمر كان من الصعب تخيله قبل شن الحرب على

الإرهاب. بعد سنة من غزو العراق، ارتفعت أسهم إحدى أكبر شركات الأمن الخاصة الأمريكية، أى شركة كرول -التى زودت وكالة التنمية العامة الأمريكية بالعراق بالأمن- ارتفعت بنسبة ٣٨٪، فيما زادت أرباحها فجأة، زيادة صاروخية قدرها ٢٣١٪ وتضاعفت مبيعاتها لتبلغ ٥ ٤٨٥مليون دولار. قال رئيس مجلس إدارة كرول، مايكل تشركاس، مُحذِّرا "اسمعوا، هذه هجمة أخرى على منجم جديد للذهب. هذا ما يحدث: إن الأشخاص الذين لايعِون تماما ما هم فاعلون، سيصابون بالضرر". من الصعب قياس القدر الهائل لأرباح تلك الصناعة لأن كثيرا من الشركات، مثل بلاكووتر، تتسم بالسرية المفرطة ولا تعلن عن أرباحها أو تتبادل المعلومات علنا. لكن بعض الخبراء بدأوا يقدرون قيمة الصناعة بـ١٠٠بليون دولار سنويا. تفاخر جارى جاكسون من بلاكووتر قبيل أحداث القتل بالفلوجة قائلا "لدينا سوق نخبوى صغير جدا، نعمل جاهدين لعرض زبد المحصول، أى الأفضل".

وفى أعقاب الفلوجة والنجف، بدأت بعض الشركات العسكرية الخاصة فى التنسيق، غير الرسمى، فيما بينها وفى تشارك المعلومات والاستخبارات. قال مسئول حكومى أمريكى لصحيفة الواشنطون بوست "يقدِّر المقاتلون فى كل شركة من تلك الشركات بكتيبة جند من الجيش. والآن فقد بدأوا فى الانضمام كى ينشئوا أكبر منظمة أمنية فى العالم" . أضحى الأمر مثل تجربة فرانكنشتاين فى التعاقدات الخارجية بالجيش والاستخبارات وأصبح العراق هو المعمل. كتب روبرت فيسك من بغداد يقول "ظلت سلطة المرتزقة وقوتهم تتنامى. إن فتوات بلاكووتر يدفعون ويلكمون العراقيين الذين يلتقونهم فى طريقهم. غادر صحفيون أكراد، مرتين، مؤتمرا صحفيا لبرمر نظرا لسوء معاملتهم على أيدى هؤلاء. ينشط فى بغداد غربيون يلتحفون العتاد، يصيحون فى العراقيين فى الشوارع وينتهكونهم، ويشربون حتى الثمالة فى فنادق المدينة ذات الحراسة الضعيفة أصبحوا بالنسبة للعراقيين صورة لكل ما هو خطأ ومعيب فى الغرب يحلو لنا أن نسميهم "مقاولين"، لكن التقارير المقلقة تتزايد بكثرة حول أعمال القتل بإطلاق النيران التى يمارسها المرتزقة ضد العراقيين الأبرياء بحصانة تامة".

نحن هنا لنبقى:

بدأت الولايات المتحدة، فى الصيف ذاك، فى تمويل مركز استخباراتى وعملياتى كبير للمرتزقة، قُصد به أن يكون نوعا من المنطقة الخضراء المخصخصة داخل المنطقة الخضراء الأم. بدأ الأمر فى مايو ٢٠٠٤ بعقد كبير قيمته ٢٩٣ مليون دولار لمدة ثلاث سنوات حصلت عليه الشركة البريطانية التى كانت قد تكونت مؤخرا وهى إيجيس دفنس سرفيسز، التى أسسها ومولها طوم سبايسر أكثر المرتزقة سوء سمعة فى العالم، وضابط القوات الخاصة البريطانية سابقا. كانت شركة سبايسر السابقة، ساندلاين، قد استأجرتها الفصائل المتحاربة فى بابوا بغينيا الجديدة، وفى سييراليون فى نهاية التسعينيات، الأمر الذى أثار جدلا كبيرا فى بريطانيا حول استخدام المرتزقة. بدأ سبايسر مؤسسته الجديدة فى سبتمبر ٢٠٠٢ لتغيير الصورة التى أوجدتها ساندلاين عن المرتزقة. قال "أريد أن تكون إيجيس حيوانا جديدا مختلفا كليا". أصبح سبايسر الأب الروحى للحملة لإعادة قولبة شركات المرتزقة بصفتها "شركات عسكرية خاصة". كان فوز سبايسر بأكبر عقد أمن حتى تاريخه فى العراق المحتل رمزا مُنذِرا لبزوغ فجر عهد جديد. الأكثر من هذا هو أن مدى العقد وتوقيته كان بمثابة بيان وقح عن نوايا الولايات المتحدة الحقيقية، وقبل شهر من "تسليم السلطة" للعراقيين، أى: نحن، ومرتزقتنا، هنا لنبقى. كان أيضا تعليقا ساحقا على خداع جزء رئيسى من خطاب "التسليم" - أى أن العراقيين سيتولون مسئولية الأمن بالبلاد. ومثل النهج الذى استخدمته هاليبرتون لتضمن لنفسها أرباحا باهظة من خلال عقودها مع الحكومة، عقد سبايسر اتفاقا على سعر التكلفة مضافا إليه ربح معين. كتب بيتر سينجر، خبير بروكينجز إنستيتيوشن فى شئون التعاقدات العسكرية الخاصة قائلا "واقعيا، تمنح هذه الصفقة الشركات أرباحا أكثر كلما أنفقت أكثر، ومن ثم فهذه صفقة ناضجة للانتهاك وعدم الكفاءة. لا نظير لها فى أفضل ممارسات عالم البيزنس، وذلك تحديدا لأنها تعمل بأسلوب مضاد لكل ما كتبه آدم سميث عن السوق الحرة".

كان المقصد الرسمى للعقد مزدوجا: تُنسّق إيجيس أنشطة وحركات العشرات العديدة من الشركات العسكرية الخاصة، التى تقوم على خدمة للاحتلال فى البلد، ومن بينها تسهيل الاستخبارات والتقارير الأمنية، والإشراف عليها. من ثم، سرعان ما قامت إيجيس بانشاء ستة مراكز تحكّم فى أنحاء العراق. وبمقتضى العقد، أُنيط بإيجيس توفير عدد قدره خمس وسبعون "فرقة حماية عن قرب" لحراسة العاملين بمكتب إدارة البرامج التابعة لسلطة الاحتلال ضد "الاغتيال، الخطف، الإصابة والإحراج". دفعت الصفقة بإيجيس من مركزها كشركة غير مربحة إلى إحدى أنجح الشركات التى تعمل فى الحرب على الإرهاب. قال سبايسر أكبر حامل أسهم مفرد فى إيجيس" نقلنا العقد من وضعنا كمنظمة شديدة الصغر إلى منظمة كبيرة. والآن، نريد ترسيخ أنفسنا. سنذهب إلى حيث تأخذنا التهديدات". أشعل منح سبايسر العقد الغضب فى قطاعات متنوعة –من بينها الشركات العسكرية الخاصة الأخرى. تقدمت شركة دينكورب، ومقرها تكساس، وكانت من بين الشركات الست الأصلية التى تقدمت بعطاءات، باحتجاج إلى مكتب المحاسبات الحكومى الأمريكى. لم تكن إيجيس حتى على قائمة الشركات العسكرية الخاصة بالعراق التى زكتها وزارة الخارجية. احتج حتى المشرّعون الجمهوريون على الصفقة. كتب بيت سشافز خطابا إلى وزير الدفاع دونالدرمسفلد، يدعم دينكورب ويقول "إنه من غير المتخيل أن تكون الشركة المناط بها مسئولية التنسيق لأمن كل الأفراد والشركات التى تقوم بأعمال إعادة الإعمار، هى شركة لم تدخل البلد أبداً"

ثم كان هناك أيضا ماضى سبايسر. بُعيد الإعلان عن عقد إيجيس، طالب أعضاء مجلس الشيوخ: جون كيرى، إدوارد كينيدى، هيلارى كلينتون، كريستوفر دودو تشارلس شومر، طالبوا فى خطاب لهم إلى رمسفلد أن يأمر المفتش العام بإعادة النظر فى العقد. ونعتوا سبايسر بأنه "شخص له تاريخ فى دعم استخدام القوة المفرطة ضد السكان المدنيين"، وأنه يدافع بشدة عن انتهاكات حقوق الإنسان". وكدليل، استشهد أعضاء مجلس الشيوخ بمقال فى بوسطون جلوب يتهم سبايسر بأن "له صيتا فى صفقات الأسلحة المحظورة فى أفريقيا، ولقيادته وحدة عسكرية

من القتلة فى أيرلندا الشمالية". ومن الواضح أن اعتراضات أعضاء مجلس الشيوخ لم تلق آذانا مصغية، لأن الولايات المتحدة جددت العقد مع سبايسر مرتين فى العامين التاليين. كتب بيتر سينجر، الأكاديمى ببروكينجز، فى النيويورك تايمز "العقد هو حالة للدراسة فى ما لا يجوز فعله". وبعد أن استشهد بغياب التنسيق، الإشراف والإدارة عن مجال عمل المرتزقة بالعراق أكد سينجر "أن إناطة هذه المشكلة تحديدا إلى شركة خاصة أخرى له منطق بيز فى عبثيته ذلك الموجود بروايات كافكا. علاوة على ذلك، فهو ينقل هذه الشركات خارج حدود أية رقابة عامة".

فى نهاية ٢٠٠٥، ثار الجدل حول إيجيس مرة أخرى حينما عُرض شريط فيديو على موقع يديره أحد العاملين السابقين بإيجيس يصور المقاولين الخاصين يُطلقون النيران على السيارات المدنية بالطرق السريعة بالعراق. بدا الفيديو وأنه قد صوِّر بوضع الكاميرا فى النافذة الخلفية لسيارة SUV . ووفقا للواشنطون بوست "ضم الفيديو عددا من الكليبات القصيرة لسيارات تُقصف بنيران المدافع الآلية على أنغام موسيقى أغنية إلفيس بريسلى "قطار الأسرار Mystery Train" وحوت نسخة أخرى من الشريط ظهرت فى الموقع بعد ذلك بأشهر أصوات رجال يتمازحون مع بعضهم أثناء القصف. بُثَّ الشريط على نطاق واسع على الفضائيات العربية، وأدى إلى شجب عدد من أعضاء الكونجرس له". قضى تحقيق لاحق أجرته وحدة التحقيق الجنائى بالجيش الأمريكى أنه "لا يوجد سبب معقول للاعتقاد أن ثمة جريمة ارتُكِبَت". وقضى أيضا أن الأحداث المسجلة كانت "ضمن أحكام استخدام القوة".

قام المفتش العام الأمريكى الخاص بالعراق بإجراء مراجعة محاسبية لدفاتر إيجيس عام ٢٠٠٥ ووجد "أنه لا يوجد ما يؤكد أن إيجيس كانت توفر أفضل الأمن والأمان للحكومة، أو العاملين مع مقاولى إعادة الإعمار، أو للمنشآت". ورغم الجدل الخلافى هذا، فما كان يهم تلك الصناعة حقا هو أن "الشركات العسكرية الخاصة" كانت تقترب أكثر من الجماعة وتكتسب المشروعية. قال تيم سبايسر فى نهاية ٢٠٠٦ حدثت تغيرات كثيرة فى الأسلوب الذى تعمل به هذه الصناعة فى السنوات العشر

الأخيرة. ما كنت أفعله منذ عشر سنوات كان سابقا لزمانه. كانت المادة الحافزة هى الحرب على الإرهاب. أكدت الفترة منذ ٩/١١، كلها، على الحاجة إلى قطاع الأمن الخاص". وبحلول أكتوبر ٢٠٠٦، كان ثمة ٢١٠٠٠ من المرتزقة يعملون للشركات البريطانية بالعراق، مقارنة ٧٢٠٠ من أفراد الجيش الميدانى النظامى البريطانى.

كمين آخر:

فى صيف ٢٠٠٤، تدفق على العراق المزيد من الجنود الخاصين، فيما استمر الوضع على الأرض فى التدهور. وفى يونيو، وقع رجال بلاكووتر مرة أخرى ضحايا كمين ترددت فيه أصداء الفلوجة. فى صباح يوم السبت الموافق ٥يونيو، وفى حوالى العاشرة والنصف صباحا كانت عربتان SUV فى طريقهما إلى مطار بغداد. قال كريس برتيللى، المتحدث باسم بلاكووتر/ألكساندر ستراتيجى أن الرجال كانوا فى مهمة تتعلق بعقد بلاكووتر مع يورست سبّورت سرفيسز ESS -مثل ذاك الذى كان يعمل بمقتضاه الرجال الذين قُتلوا بالفلوجة. عرَّفه برتيللى بأنه عقد من الباطن مع KBR فرع هاليبرتون. كان رجال فرقة بلاكووتر المناط بها تلك المهمة الخاصة مزيجا من المقاولين الأمريكيين والبولنديين. كان أحد الأمريكيين، كريس نيدريتش، قد عمل قبل ذلك فى فريق موكب سيارات برمر. كان نيدريتش، فى إحدى آخر إيميلاته التى أرسلها قبل المهمة قد تمازح مع أصدقائه قائلا إن عليه القيادة بسرعة ٩٠ميلا فى الساعة فى العراق لتفادى العبوات الناسفة. كتب يقول "حينما أعود سيكون علىّ ألا أقود سيارة فى الولايات المتحدة لمدة شهرين لا أتذكر آخر مرة قدت فيها ببطء، ووقفت لدى إشارة مرور، أو لافتة توقُّف أو حتى تفاديا لشخص". كان البولنديون فى فريق بلاكووتر ذاك اليوم أعضاء سابقين فى قوات بلدهم النخبوية "الرعد وكانوا قد تركوا الفرقة العسكرية البولندية الرسمية بالعراق والتحقوا بالعمل فى بلاكووتر. قال الجنرال سلاڤومير بيتليكى قائد "رعد" السابق إن بلاكووتر عرضت على الكوماندوز البولنديين ١٥٠٠ دولار شهريا بالإضافة إلى التأمينات.

وفيما أسرعت قافلة بلاكووتر فى الطريق السريع المكون من أربع حارات مرورية، فى

طريقها إلى المطار، بدأ رجال المقاومة فى اقتفاء أثرهم بمركباتهم الخاصة. قال برتيللى "كانوا مقسمين فى أربع أو خمس مركبات، مليئة بالمسلحين بأسلحة آلية. كان كمينا شديد السرعة". وكما قالت التقارير، أطلق رجال المقاومة قنبلة يدوية من صاروخ على المركبة التى تتبع مركبة بلاكووتر، وأصابت تلك البنزين وأشعلت النيران فى المركبة. انعطفت مركبة بلاكووتر الثانية للمساعدة، وتبع ذلك معركة إطلاق نار. قال كيه. سى. بولين، مالك شركة كرتيكال إنترفنشن سرفيسز، وهى شركة أمن خاص كان نيدريتش قد عمل لديها لسنوات بالولايات المتحدة "كانت معركة إطلاق نار جهنمية. اشتبكوا مع المعادين فى عدد من المركبات. فرغت ذخيرتهم أثناء القتال. كان الهجوم جيد التخطيط. لم يكونوا من نوع الإرهابيين العاديين". قالت بلاكووتر إن عدد المهاجمين كان أكثر من عدد رجالها بنسبة ٧:٢٠ وفى النهاية، قُتِل نيدريتش وأمريكى آخر واثنان من المقاولين البولنديين. قالت التقارير إن رجال بلاكووتر الثلاثة المتبقين تمكنوا من الفرار، بمشقة، إلى الجانب الآخر من الطريق، وأشاروا إلى مركبة مارة وهربوا.

وقع الكمين فى الطريق الرئيسى المؤدى من المنطقة الخضراء إلى مطار بغداد، ومرة أخرى احتلت بلاكووتر العناوين الإخبارية الرئيسية. قال توماس فريدمان كاتب الأعمدة فى النيويورك تايمز عن الكمين "أتتذكرون منذ عام، حينما زعم المتحدث باسم صدام أن القوات الأمريكية لا تتحكم فى مطار بغداد؟ ما كان يجوز لنا أن نضحك. فبعد عام كامل لازلنا لا نتحكم بالكامل فى الطريق الرئيسى من بغداد إلى المطار. ليس بالإمكان بناء أى شئ فى ظروف كهذه". ومن المفارقات، أنه لم يمض وقت طويل حتى أصبحت بلاكووتر المورِّد الرئيسى للتاكسيات، مرتفعة الأجرة، التى تسير فى هذا الطريق الخطر- وأصبحت تتولى نقل العملاء فى مركبات مدرعة. وفى اليوم التالى للكمين، ظهر إياد علاوى رئيس الوزراء الذى اختارته الولايات المتحدة لتولى المنصب، ومع تصاعد الفوضى بالعراق والذى كان عميلاً للسى آى إيه، على فضائية الجزيرة كى يلقى بمسئولية العنف على سياسة الولايات المتحدة. أخبر الجزيرة أن الولايات المتحدة ارتكبت أخطاء جسيمة عندما "حلت الجيش"، والشرطة،

وقوات الأمن الداخلى". طالب علاوى. بإعادة تشكيل الجيش العراقى. إلا أن الدمار كان قد وقع، وكانت الشركات العسكرية الخاصة أكثر المستفيدين من العنف.

تسلل بول برمر سرا إلى خارج العراق فى ٢٨يونيو ٢٠٠٤، قبل يومين من الموعد المقرر لـ"تسليم السلطة". وفيما كان برمر يقوم بجولاته الأخيرة ببغداد مودعا حلفاءه العراقيين، أصر فرانك جلاجر، رئيس فرقة أمن برمر الخاصة على زيادة الإجراءات الأمنية للبروقنصل. كتب برمر فيما بعد يقول "من ثم، خُصّصت سبع عشرة سيارة هامڤى إضافية لتغطية طريق قافلتنا، وأمر جلاجر أن تُحلِّق ثلاث من طائرات بلاكووتر الهليكوبتر فوق موكب السيارات مباشرة، وعمل الترتيبات مع الجيش لتحليق طائرتين أباتشى على الجانبين وقاصفات F.16 المقاتلة للتحليق وتغطية كل الآليات". كانت بين آخر إجراءات برمر الرسمية هى إصدار مرسوم يُمنح بمقتضاه بلاكووتر والمقاولون الآخرون الحصانة التامة ضد المحاكمة على أية جرائم محتملة تُرتكب بالعراق. فى ٢٧يونيو، وقّع برمر المرسوم رقم ١٧ الذى نص على أن "المقاولين سيكتسبون حصانة ضد الإجراءات القانونية العراقية فيما يتعلق بالأفعال التى يرتكبونها تنفيذاً لبنود وشروط أى عقد معهم أو أى عقد آخر من الباطن". وفى ذات الشهر، حاول باتريك ليهى، عضو مجلس الشيوخ أن يُلحق تعديلا "معاديا للتربح من الحرب" إلى قانون تفويضات الدفاع، والذى، بيْن بنود أخرى، كان يهدف إلى إيجاد "ولاية قضائية خارج حدود الدولة على الجرائم والمخالفات التى تُرتكب بالخارج"وإخضاعها للقانون. لكن التعديل رُفض من قبل المجلس.

تركت سياسات بول برمر بلاكووتر ملتحقة بقوة بقطار العقود المربحة، والتى لم يكن أقلها عقد الشركة بالغ القيمة لحراسة كبار المسئولين الأمريكيين بالعراق. وسرعان ما أصبحت بلاكووتر مسئولة عن حماية خليفة برمر، السفير جون نجروبونتى، وهو رجل سيئ السمعة اشتهر بدوره المركزى فى "الحروب القذرة" التى قامت بها الولايات المتحدة فى أمريكا الوسطى فى ثمانينيات القرن العشرين. حينما كان سفيرا للولايات المتحدة فى هندوراس بين عامى ١٩٨١ و١٩٨٥ كان يُعرف

بالبروقنصل، وساعد على الإشراف على مساعدات الولايات المتحدة إلى فرق الموت التابعة للكونترا التى قاتلت من أجل الإطاحة بحكومة السنديندستا اليسارية فى نيكاراجوا- وهو برنامج كان نجروبونتى يشير إليه بقوله "مشروعنا الخاص". اتُهم نجروبونتى أيضا بالتغطية على انتهاكات حقوق الإنسان على نطاق واسع من قبل طغمة هندوراس الحاكمة المدعومة أمريكيا. ومثل مسئولين آخرين عديدين ينتمون إلى فترة إيران/كونترا، عيَّنت إدارة بوش نجروبونتى فى منصب رئيسى. فى العراق، أصبح مسئولا عن أكبر سفارة فى العالم، وأكبر محطة للسى آى إيه فى الكوكب.

حينما غادر برمر العراق، كان ثمة صورة أكبر كثيرا تتكشف فهمتها بلاكووتر بأفضل ما فهمته أية شركة عسكرية خاصة أخرى فى الكوكب: لحظة حظ سماوية تهل على الجنود المرتزقة. خرجت بلاكووتر من مذبحة الفلوجة وهى تقود صناعة المرتزقة باتجاه مستوى من الشرعية كان يبدو منذ سنوات غير متخيل. كان بين الأهداف الأكبر لحملة إضفاء السمة الجديدة على المرتزقة الجدد هى قبولهم كقوات شرعية فى أجهزة الدولة القومية الدفاعية والأمنية. بالنسبة لبلاكووتر، كان عقد برمر بالعراق، دونما شك، ذا قيمة أكبر كثيرا كثيرا من البطاقة التى تحدد سعره المربح بدرجة تفوق الخيال. كان العقد آلية تسويقية ذات أهمية كبرى وقيمة لا تقدر بالمال لكسب عملاء أكثر وعقود حكومية ذات قيمة كبيرة. كان بإمكان الشركة أن تتفاخر بأن حكومة الولايات المتحدة قد وثَقت بها لحماية أكبر كبار مسئوليها على أكثر جبهات "الحرب على الإرهاب" سخونة. أيضا، أعطى هذا انطباعا لايمكن إخطاؤه بأن عمليات بلاكووتر تحمل ختم موافقة حكومة الولايات المتحدة.

وفيما كانت الشركات العسكرية الخاصة الموجودة على الأرض بالعراق تصارع بعضها للحصول على التعاقدات، كوفئت بلاكووتر، بهدوء بإلحاق قيمة فاتورة مولها دافعو الضرائب الأمريكيون بمقر الشركة بمويوك. فى يونيو ٢٠٠٤، وفى نهاية فترة عمل برمر، استلمت بلاكووتر أحد أكثر عقود الحكومة الأمريكية قيمة وأهمية فى

السوق من خلال برنامج وزارة الخارجية غير المعروف والمسمى "خدمة الوقاية الشخصية فى جميع أنحاء العالم WPPS". تصف وثائق الخارجية برنامج WPPS بأنه مبادرة "أمن دبلوماسية لحماية المسئولين الأمريكيين و"مسئولين رفيعى المستوى بالحكومات الأجنبية لدى الحاجة". وفى وثائق الحكومة يوصف العمل بأنه "توفير قوات مهمات خاصة مؤهلة ومسلحة لخدمات الحماية" و، لدى الطلب "فرق مضادة للهجمات وفرق رماة مدى طويل . أيضا، قد يطلب من الشركات التزويد بمترجمين للقيام بالأعمال الاستخبارية. حذرت وزارة الخارجية الشركات أن تتأكد من أن "أفراد فرق الحماية الخاصة الذين يعينهم المقاولون يجب أن يكونوا مستعدين للعيش، والعمل فى ظل ظروف تقشفية، وأحيانا غير مستقرة فى أى مكان بالعالم". نص العقد أيضا على أنه لدى الضرورة "سيمنح العاملون الذين يحملون المواطنة الأمريكية جوازات سفر مناسبة رسمية أو دبلوماسية". فُوِّض إلى المقاولين الخاصين أيضا تجنيد الأجانب وتدريبهم و"القيام بعمليات أمن وقائية خارج البلاد معهم

وفيما كانت وزارة الخارجية تجتذب عروضا للأسعار، نصّت على الحاجة التى نجمت عن "الاضطراب المتواصل فى الشرق الأوسط، وجهود ما بعد الحرب لدعم الاستقرار التى تبذلها حكومة الولايات المتحدة فى البوسنة، أفغانستان، والعراق". قالت إن الحكومة "لا تستطيع توفير خدمات حماية طويلة المدى من مجموعتها الخاصة من العملاء" من ثم، "فهناك حاجة لدعم تعاقدى .

تم تقسيم عقود WPPS بين حفنة من شركات المرتزقة ذات الصلات الجيدة، من بينها دينكورب وترايبل كانوبى. فى البداية، تعيّن دفع ٢٢٩.٥مليون دولار لبلاكووتر لمدة خمسة أعوام، وفقا لقائمة عقود وزارة الخارجية. لكن، وبدءا من ٣٠ يونيو ٢٠٠٦، وبعد عامين فقط من بداية العقد، كان مجموع ما حصلت عليه هو ٣٢١٧١٥٧٩٤دولار. فيما بعد، قال متحدث باسم وزارة الخارجية إن القيمة المقدرة للعقد حتى نهاية سبتمبر ٢٠٠٦ هى ٣٣٧مليون دولار. اتهم تقرير محاسبى بتكليف

من الحكومة لدراسة عرض عقد بلاكووتر الخاص بـWPPS، الشركة أنها ضمنت أرباحا فى التكاليف الإضافية وفى إجمالى التكاليف، ينجم عنها "ليس فقط مضاعفة الربح، بل مراكمة الأرباح بشكل هرمى، بما أن بلاكووتر، واقعيا، تطبق ربحا على ربح". وكان هذا التقرير، فى صورته النهائية، قد تم تنقيحه بشدة. زعم التقرير المحاسبى أيضا أن الشركة حاولت تضخيم أرباحها بتمثيل أقسام بلاكووتر المختلفة على أنها شركات مستقلة تماما.

بالنسبة لبلاكووتر، كان عقد WPPS مَعْلَماً هاما رسخ دور الشركة بصفتها مؤسسة المرتزقة المفضلة لدى حكومة الولايات المتحدة، والحارس الخصوصى النخبوى لحرب الإدارة الكوكبية. فى أواخر نوفمبر ٢٠٠٤، أرسل جارى جاكسون، رئيس مجلس إدارة بلاكووتر، إيميلاً جماعية احتفاءً بإعادة انتخاب بوش وبعقد بلاكووتر الجديد، جاء بها: "حسنا، انتهت الانتخابات الرئاسية. قالت الجماهير كلمتها، يقف الليبراليون صفوفا أمام المستوصفات لتلقى العلاج لصدمة ما بعد الانتخابات، وستستمر حرب الرئيس بوش على الإرهاب فى تحركها قُدما للسنوات الأربع القادمة. يقوم مقاتلونا بأداء مذهل فى الحرب على الإرهاب، كما هو واضح من الانتصار الأخير فى معركة الفلوجة. وفيما يتواصل الاستقرار فى العراق، ستقوم وزارة الخارجية بإرسال المزيد من مسئولى الحكومة الأمريكية لمساعدة العراق على أن يصبح ديموقراطية. ورغم أن أغلبية العراقيين يريدون الديموقراطية، إلا أنه يظل يوجد هؤلاء الإرهابيون الذين لايريدونها، وهم يمثلون مخاطر عالية على أمن مسئولينا. يحتاج هؤلاء المسئولون الحماية المهنية، وقد اختار مكتب الأمن الدبلوماسى بلاكووتر للاستشارات الأمنية للمساعدة فى ترتيباتهم لتوفير تلك الحماية، وتعاقد معها". ثم أعلن جاكسون بعظيم الحماس أن على المرشحين المؤهلين "للاشتراك فى العمل على استقرار العراق ودعم حرب الرئيس بوش على الإرهاب.. معرفة أن الوقت قد حان للالتحاق ببلاكووتر"!■

11

الفصل الحادى عشر

أحلام خط الأنابيب القزوينى

على الرغم من أن اسم بلاكووتر عُرِف، عام ٢٠٠٤، وبشكل كاد يكون حصريا من ارتباطه بكمين الفلوجة ومن خلال دور الشركة بالعراق، إلا أن هذا لم يكن خط الجبهة الأمامى الوحيد فى "الحرب على الإرهاب الذى أرسلت إدارة بوش إليه الشركة. بدءا من يوليو ٢٠٠٤، كان قد تم التعاقد مع قوات **بلاكووتر للعمل فى قلب** منطقة بحر قزوين الثرية بالنفط والغاز، حيث أُنيط بهم، بسرية، تدريب قوة مُنمذجة على قوة السيلز البحرية الخاصة، وإقامة قاعدة عسكرية متاخمة لحدود إيران الشمالية كجزء من تحرك كبير للولايات المتحدة باتجاه ما يُسميه المحللون الخبراء بالمنطقة "اللعبة الكبرى . وفيما فازت بلاكووتر بمزيد من التعاقدات بالعراق وجدت الشركة نفسها، فى ذات الوقت، تساعد فى الدفاع عن مشروع عالى المخاطر، أُثير على نفوس بعض أقوى الشخصيات النافذة فى مؤسسة الأمن القومى، بمن فيهم هنرى كيسنجر، جيمس بيكر، وديك تشينى.

بالتأكد، فإن مسعى الولايات المتحدة للهيمنة على احتياطيات النفط فى العالمَ لم تبدأ بحرب الخليج الأولى عام ١٩٩١ أو بغزو العراق الذى تلاها عام ٢٠٠٣. وفيما كانت العراق والحرب على الإرهاب تختطف العناوين الإخبارية الرئيسية، كانت حكومة الولايات المتحدة والمصالح الشركاتية الأمريكية قد ظلت منذ وقت طويل مشتبكة، بهدوء، فى حملة موازية للفوز بجائزة كبرى أخرى، وكانت هذه تقع فى أراضى الاتحاد السوفييتى السابق: أى بحر قزوين، تلك المنطقة التى يُعتَقد أنها تضم أكثر من ١٠٠بليون برميل من النفط. بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، عام ١٩٩١، أبصرت الولايات المتحدة وحلفاؤها فرصة لاختطاف التراكمات الهائلة من الموارد الطبيعية القيمة من قبضة موسكو. حشدت شركات النفط متعدية الجنسية قواها بهدف الانقضاض على الفريسة مثل الجوارح، فيما تحركت الولايات المتحدة وحلفاؤها سريعا لدعم النُظم القامعة لجمهوريات الاتحاد السوفييتى الساحلية فى منطقة بحر قزوين. أمضت يونوكال معظم سنوات التسعينيات محاولةً مد خط

أنابيب من طاجكيستان عبر أفغانستان، وهو مشروع كان قد عمل عليه بول برهندز، صديق إريك برينس (والذى يتولى أمور لوبى بلاكووتر)، لكن أيضا، كان ثمة اهتمام كبير بكازاخستان وأزبيجان، وأيضا بجورجيا ذات الأهمية الاستراتيجية. ورغم أن الطريق الذى يمر عبر طاجكيستان برهن على كونه شديد التعقيد، فلم يكن هو الوحيد الذى كانت تدرسه شركات النفط الكبرى، البيت الأبيض، وشخصيات ذات نفوذ من اللاعبين السياسيين من إدارات الولايات المتحدة السابقة.

الأمر الآخر الذى عقَّد هيمنة الولايات المتحدة السريعة على موارد منطقة قزوين المدفونة فى الأرض، كان هو حقيقة أن البلدين القويين المتاخمين للبحر -إيران وروسيا- كانا يريان غزو الولايات المتحدة للمنطقة تهديدا عدائيا. وبحلول عام ١٩٩٧، كان اتحاد شركاتى أمريكى قوى يتفحص عدة أساليب للوصول إلى الموارد القزوينية. قالت النيويورك تايمز فى تقرير لمراسلها ستيفن كينزر من أزربيجان "استثمرت شركات نفط أمريكية -من بينها أموكو، يونوكال، إكسون، وبنزويل- بلايين الدولارات فى أزربيجان وتُخطط لاستثمار بلايين أخرى. من ثم، فقد طورت وضعا مؤيدا لأزربيجان بقوة. تبدو قائمة المواطنين الأمريكيين الخاصين الذين يسعون لمراكمة الثروة من نفط أزربيجان أو لتشجيع الاستثمار هنا مثل أسماءٍ على قائمة مؤسسة الأمن القومى. بين أبرز الأسماء (على القائمة) وزيرا الخارجية السابقان هنرى كيسنجر وجيمس إيه. بيكر، وزير الدفاع السابق ديك تشينى، السناتور ووزير المالية السابق لويد بنستن، رئيس العاملين بالبيت الأبيض السابق جون إيتش. سونونو، ومستشارون سابقون للأمن القومى، برنت سكوكروفت، وزينجيو برجنسكى.

وعلى حين أن إدارة كلينتون عملت بأسلوب محموم للاستيلاء على الموارد القزوينية، واستضافت الرئيس الأزربيجانى فى البيت الأبيض لاجتماع دام ساعتين فى أغسطس ١٩٩٧، وتوددت إليه كى يتعاون معها، لم تصبح "أحلام خط الأنابيب" تلك

واقعا حتى أتت إدارة بوش إلى السلطة. فى مايو ٢٠٠١، قدرت قوة مهمات الطاقة التى شكلها ديك تشينى أن احتياطات النفط الثابتة بقطاعى أزربيجان وكازاخستان وحدهما من منطقة قزوين تساوى (حوالى ٢٠بليون برميل، أى أكثر قليلا من بحر الشمال، وأقل قليلا من الولايات المتحدة). قدّرت مجموعة تشينى أنه إذا استطاعت الولايات المتحدة مد خط أنابيب رئيسى يصب غربا -بعيدا عن تحكم موسكو- فإن الصادرات اليومية من قزوين إلى أسواق العالم يمكن أن تصل إلى ٦ ٢مليون برميل يوميا بحلول ٢٠٠٥. "فيما تعمل الولايات المتحدة عن كثب مع الشركات الخاصة وبلدان المنطقة لتطوير قنوات تصدير قابلة للحياة". وبالتقابل، ففى ٢٠٠٥، بلغت الصادرات اليومية لإيران ٦ ٢مليون برميل يوميا، وفنزويلا ٢ ٢مليون برميل، والكويت٣ ٢مليون برميل، ونيجريا ٣ ٢مليون برميل، والعراق ٣ ١مليون برميل.

ومنذ انهيار الاتحاد السوفييتى، برهن الوصول إلى نفط منطقة قزوين على أنه بالغ الصعوبة بالنسبة لواشنطون. ومنذ إدارة كلينتون، فكرت الولايات المتحدة وحلفاؤها فى خطة تقتضى جوهريا، دعم النظام القمعى فى أزربيجان، وترسيخ عملية استغلال للنفط بالقرب من شاطئ عاصمة أزربيجان، باكو، وهى شبه جزيرة ناتئة فى الناحية الغربية من بحر قزوين. ومن هناك، يتدفق النفط من خط أنابيب هائل يمتد من باكو، إلى تيليسى بجورجيا ويخترق تركيا حتى يصل الميناء المتوسطى سيهان. ومن هناك، يصبح من السهل نقل النفط الى الأسواق الغربية. كان المشروع يعنى، واقعيا، إنهاء احتكار موسكو لنقل النفط القزوينى، وفى نفس الوقت يوفر لواشنطون فرصة لا نظير لها لفرض نفوذها على المناطق السوفييتية "سابقا". حينما بدأ المشروع عام ١٩٩٤، هلّل له بعض المحليين بصفته "الخليج (العربى) الجديد"، تنبأت التقديرات بحوالى ٢٣٠بليون برميل أى ثمانية أضعاف احتياطى الولايات المتحدة الثابت.

بيد أنه فى السنوات الأخيرة لإدارة كلينتون، أصبح يُنظر للمشروع بصفته فيلا

أبيض من المحتمل فشله. كان يحكم بلاد منطقة قزوين أنظمة فاسدة غير مستقرة ظلت تحت هيمنة موسكو بالرغم من استقلالها الاسمى. كما أن خط الأنابيب سيكون باهظ التكلفة إلى أبعد الحدود ومُعرّضا لأعمال التدمير. وعلاوة على كل هذا، قدمت الحفريات الغربية المبكرة فى منطقة قزوين تقديرات للموارد الممكنة أقل تواضعا بكثير من التنبؤات السابقة. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة ظلت ملتزمة بمشروعاتها فى منطقة قزوين، تحرك البرنامج بُخطى بطيئة. لكن هذا تغير حينما تولى بوش ولقى تنفيذيو النفط الترحيب فى البيت الأبيض مثل أولاد عم فى لقاء عائلى لجمع شمل الأسرة.

وفى سبتمبر ٢٠٠٢، كانت أعمال الإنشاءات على خط الأنابيب القزوينى الهائل الذى يبلغ طوله ١١٠٠ميل تُنفَّذ. وصفه البى بى سى بصفته مشروعا ينحاز له المسئولون الأمريكيون لأنه "سيُضعِف قبضة روسيا على شبكة خطوط أنابيب المنطقة، ويترك إيران فى وضع هامشى".

كانت إحدى المشاكل المحتملة فى المشروع تكمن فيما رآه البيت الأبيض على أنه جغرافيا المناطق المجاورة الخطيرة -حيث لا يبعد كثيرا عن الشيشان وإيران. من ثم، اتخذت إدارة بوش عدة إجراءات نجم عنها، فيما بعد، تغيير نظام واحد على الأقل فى المنطقة ونشر قوات من بلاكووتر وشركات أخرى تقوم بالأعمال الخدماتية للحرب لحماية ما سيصبح أحد أكبر اختطافٍ للسلطة من الاتحاد السوفييتى السابق طموحا.

فى ٢٠٠٣، ساعدت إدارة بوش على الإطاحة بحكومة رئيس جورجيا، إدوارد شفرنادزة، الذى كان قد ظل حليفا للولايات المتحدة لفترة طويلة. كان شفرنادزة، الذى كان ذات يوم يُعتبر ألصق شركاء واشنطون الاستراتيجيين بالمنطقة، وكان المسئولون الأمريكيون مثل جيمس بيكر يُدلّلونه باسم "شيفى-تشيفى"، كان قد أصبح سريعا محل ازدراء إدارة جورج دبليو. بوش، فيما مضى هو، بتزايد يقيم علاقات بيزنس مع موسكو، بعد سنوات من رعاية الولايات المتحدة له. كان من بين

خطاياه: منح الشركات الروسية امتيازات جديدة للتنقيب ومد خطوط الأنابيب، وتعويق خطة واشنطون الهائلة لخطوط الأنابيب القزوينية. وبعد تلك الخطايا، سرعان ما أجبُر على الاستقالة فى نوفمبر ٢٠٠٣، فيما أتت ما سُمِّى بـ"الثورة الوردية" بنظام بالغ الوفاء والموالاة للولايات المتحدة. كانت أول مكالمة هاتفية أجرتها القائمة بأعمال رئاسة الجمهورية الجديدة، نينو بردزهاناده حينما استولت على مقاليد الأمور من شفرنادزة، كانت مكالمة إلى شركة النفط العملاقة BP "لطمأنتهم على أن العمل على خط الأنابيب سيسير وفقا للخطة". أعلن ميخائيل ساكا شيفيلى الذى كانت الولايات المتحدة تسانده، قبيل تقلده السلطة بجورجيا "أن جميع التعاقدات الاستراتيجية بجورجيا، وبخاصة عقود خط الأنابيب القزوينى، هى مسألة حياة لدولة جورجيا"، نشأ عن تغيير النظام هذا، إغلاق للقواعد العسكرية الروسية بجورجيا، وزيادة مساعدات الولايات المتحدة العسكرية للبلد. ووفقا للجارديان فإنه فى بدايات ٢٠٠٤، نشر رمسفلد، وزير الدفاع مقاولين عسكريين خاصين من شركه كيوبيك بواشنطون، بمقتضى عقد مدته ثلاث سنوات وقيمته ١٥مليون دولار، نشرهم بجورجيا، "لتجهيز جيش الجمهورية السوفييتية السابقة جورجيا المتهاوى وتقديم الاستشارات له، في محاولة لتجميل التوسع شرقا الذى تسبب فى عظيم غضب موسكو. قال مسئول أمنى جورجى إن فريق كيوبيك سيحاول أيضا تقوية حماية خط الأنابيب الذى سيحمل النفط القزوينى من باكو إلى تركيا، مخترقا جورجيا. وكانت جورجيا قد عبرت بالفعل عن امتنانها بإرسال ٥٠٠ من قواتها إلى العراق".

كانت إدارة بوش تعلم أن خط الأنابيب الخلافى سيكون بحاجة، إلى حماية فى كل بلد يمر منه. وعلى حين زادت واشنطون من مساعدتها العسكرية لأزربيجان، واجهت حظرا من الكونجرس على المساعدات العسكرية لأزربيجان كان قد استمر لعشر سنوات، حيث سيُستخرج النفط. فى عام ١٩٩٢. حظر الكونجرس مثل هذه المساعدات بسبب صراع أزربيجان الدموى الإثنى والمناطقى مع أرمينيا فى إقليم ناجورنو -كاراباك. لكن فى ٢٥يناير ٢٠٠٢، "تخلى" بوش عن ذلك الجزء من قانون

الكونجرس، وأتاح بذلك استئناف مساعدات الولايات المتحدة العسكرية إلى أفغانستان. قال البيت الأبيض إن هذا التخلى كان "ضروريا لدعم الاستعداد العملياتى للولايات المتحدة لمجابهة الإرهاب الدولى ولمساندة استعداد قوات الولايات المتحدة أو شركائها فى التحالف لمجابهة الإرهاب الدولى أيضا" -أى بتعبير آخر، لحماية المصالح النفطية. فى خريف ٢٠٠٤، أطلقت الإدارة رسميا مشروعا أسمته "حارس قزوين" الذى بمقتضاه ترفع الولايات المتحدة إلى حد كبير القدرات العسكرية لكازاخستان وأزربيجان. ومثل خطة الولايات المتحدة بجورجيا، كان هذا البرنامج الذى بلغت تكلفته ١٢٥مليون دولار، يهدف إلى خلق شبكة قوات كوماندوز وقوات عمليات خاصة تحمى استغلال النفط والغاز المخطط له من قبل كبرى شركات النفط وتحرس مشروع خط الأنابيب الهائل الذى سيتيح تدفقا سهلاً لموارد منطقة بحر قزوين من الهايدروكاربونات إلى الأسواق الغربية.

لكن النفط والغاز كانا فقط جزءا من القصة. ففيما كانت واشنطون تنظر، دونما شك، إلى تلك الموارد بصفتها جائزة كبرى يجب اقتناصها، كان قُرب أزربيجان الجغرافى من مركز الخطة الكبرى للإدارة لغزو الشرق الأوسط ذا قيمة مهولة. وفى وجود حديث علنى عن إمكانية شن هجوم من جانب الولايات المتحدة على إيران، وتقارير عديدة بتفاصيل خطط مثل تلك العمليات كجزء من "الحرب على الإرهاب"، أبدى عدد من جيران طهران، خاصة البلدان الواقعة على حدودها مباشرة مثل أزربيجان مقاومة شديدة للتواجد العلنى لقوات الولايات المتحدة على أرضها. كانت إيران قد أوضحت أنها ستثأر من أية دولة تدعم الولايات المتحدة فى هجومها. وفيما بدأ برنامج "حارس قزوين" يدخل حيز التنفيذ عام ٢٠٠٤، قالت شبكة يوراسيانت الإخبارية أن "البرلمان الأزربيجانى تبنى قانونا يحظر تموقع القوات الأجنبية على أرض البلاد، وهى خطوة، يُعتقد على نطاق واسع، أنها إيماءة باتجاه موسكو وطهران، وكلاهما يعارض تقوية الروابط العسكرية بين أزربيجان والولايات المتحدة". لكن، وبالرغم من إيماءاتها باتجاه أعداء واشنطون، كان الواقع هو أن أزربيجان كانت تتلقى مساعدات عسكرية هائلة مرتبطة، بخط الأنابيب الجديد.

وهنا تَدْخُل بلاكووتر:

فى بدايات ٢٠٠٤، ومع تصاعد خطاب الولايات المتحدة ضد إيران، عضو "محور الشر"، تعاقد البنتاجون مع بلاكووتر بمقتضى مشروع "حارس قزوين" للانتشار فى أزربيجان، حيث أُنيط ببلاكووتر مهمة إنشاء وتدريب قوة أزرية نخبوية خاصة منمذجة على فرقة السيلز البحرية الأمريكية تتولى فى النهاية حماية مصالح الولايات المتحدة وحلفائها فى منطقة معادية. أشار عقد الجيش الذى بلغت قيمته ٢٫٥ مليون دولار ومدته سنة واحدة، إلى أنه مفتوح للتنافس لكن بلاكووتر هى الشركة الوحيدة المسموح لها بتقديم عرض أسعار. ظلت طبيعة عمل بلاكووتر فى أفغانستان غامضة فى وثائق البنتاجون -لم يُذكر سوى "مساعدات تدريبية" و"آليات تدريب تسلح". ورغم هذه السرية، كان ثمة أمر وحيد واضح: وجدت بلاكووتر نفسها فى الجبهة المتقدمة لأحد مشاريع إدارة بوش الأثيرة. قال تايلور، من بلاكووتر "طُلِب إلينا إنشاء فرقة سيلز فى أزربيجان من أجل مساعدة البلد على حماية مصالحها النفطية بأزربيجان، وأيضا لرصد ما يحدث فى منطقة بحر قزوين أثناء ساعات الليل الصغيرة.... وتلك قضايا حساسة جدا جدا.. سياسياً". انضمت بلاكووتر إلى مشهد شركاتى أمريكى فى باكو ضم شركات أمريكية أخرى مرتبطة بإدارة بوش مثل بكتل، هاليبرتون، تشفرون/تكساكو، يونوكال، وإكسون موبيل.

رأى بعض المحللين فى مشروع حارس قزوين وعقد بلاكووتر بابا خلفياً للانتشار العسكرى الأمريكى. قال إريك برينس، مؤسس بلاكووتر فى مؤتمر عسكرى أمريكى عام ٢٠٠٦ "تم التعاقد معنا للدخول إلى البلد، ومن خلال حكومة الولايات المتحدة، لبناء قدرة عمليات خاصة بحرية فى أزربيجان. استولينا على قاعدة سوفييتية قديمة للقوات الخاصة، وأسسنا وحدة أزرية من حوالى اثنين وتسعين شخصا فائقة التدريب". وبدلا من إرسال كتيبة ميدانية من الجيش الأمريكى إلى أزربيجان، نشر البنتاجون "مقاولين مدنيين" من بلاكووتر وشركات أخرى للقيام بعملية تخدم هدفاً مشتركا: حماية استغلال الغرب الجديد لنفط منطقة "ظلت،

تاريخيا، تحت الهيمنة الإيرانية والسوفييتية، وإمكانية إقامة قاعدة عمليات متقدمة هامة للهجوم على إيران. علق ناثان هودج، مراسل آسيا الوسطى بقوله "مقارنة بجهود الولايات المتحدة لتدريب وتجهيز القوات فى جورجيا المجاورة، مضى العمل فى تدريب كوماندوز أزربيجان بسرية نسبية. وهذا مفهوم: فإن البلد محصور بين روسيا وإيران، وإرسال فرقة مدربين عسكريين أمريكية ببزات الجيش لابد وأن تكون خطوة مستفزة. يساعد المقاول الخاص على الإبقاء على الأمور بعيدا عن الأنظار"

يبرز أحد الأدلة على الأهمية الاستراتيجية لأزربيجان من قائمة الأسماء المرتبطة بغرفة الولايات المتحدة/أزربيجان التجارية، وهى منظمة تشكلت عام ١٩٩٥ "لتسهيل وتشجيع التجارة والاستثمار بأزربيجان" و"كى تعمل كحلقة اتصال بين الشركات الأجنبية والبيزنسات والمسئولين الأزربيجيين". يبدو "مجلس مستشاريها" وأنه قائمة تعريفية بصقور زمن ريجان/بوش: جيمس بيكر، هنرى كيسنجر، جون سونونو، وبرنت سكوكروفت. يضم مجلس إدارتها كبار المدراء التنفيذيين من إكسون موبيل، تشفرون، كونوكو فيليبس وكوكاكولا، بالإضافة إلى ريتشارد بيرل من كبار المحافظين الجدد. ذُكِر بين مسئولى المنظمة "السابقين" ديك تشينى وريتشارد أرميتاج. علق المحقق الصحفى تيم شوروك بالقول "هؤلاء الرجال هم السلطة التى تقف خلف العرش بأزربيجان"، ثم أضاف أن نشر بلاكووتر لابد وأن يكون "من المحال تخيله.... بدون إيماءة من أحد هؤلاء الأشخاص الرئيسيين".

نُشِر إعلان لبلاكووتر فى مارس ٢٠٠٤ يطلب مديرا للإشراف على عقد "لتدريب، تجهيز وإنشاء وحدة بحرية للعمليات الخاصة بالقوات المسلحة الأزربيجانية". كان الراتب الذى نص عليه الإعلان هو مبلغ يتراوح بين ١٣٠٠٠٠ و١٥٠٠٠٠دولار سنويا. أشارت بلاكووتر إلى المشروع بصفته جزءا من برنامج "تعزيز قوات الكوماندوز البحرية". قال كريس تايلور، نائب رئيس مجلس إدارة بلاكووتر فى مؤتمر عن التعاقد عام ٢٠٠٥، استخدم فيه عمل بلاكووتر بأزربيجان كدليل على

تعاقدات الولايات المتحدة الناجحة لمساعدة الحكومات الحليفة على تطوير قواتها، قال بحر قزوين منطقة تهم الكثيرين لأسباب كثيرة كثيرة. إنها ليست لعبة حاصل صفرى. نحن لا نحاول الاستيلاء على أكبر جزء من الفطيرة ولانترك شيئا للحكومة بحيث يمكننا الحصول على أكبر قدر مستطاع من الأموال. فهذا أسلوب غير مُجدٍ. إذا أردت بيزنس أخذ وعطاء، إذا أردت أن تكون لك سمعة راسخة، (فإن هذا يتوقف على) التأثير الفعلى فى التوازن الاستراتيجى فى منطقة ما لصالح الحكومة، أو المساعدة على ذلك، وفى هذه الحالة عليك أن تكون جزءا من هذا الأخذ والعطاء. من جانبنا، فنحن نميل إلى الاعتقاد بأن هذا هو ما نفعله على المستوى اليومى .

ظهر مشروع حارس قزوين كجزء من استراتيجية أعلنها على الملأ وزير الدفاع دونالد رمسفلد فى زيارة له للمنطقة فى بداية عام ٢٠٠٤. كشف رمسفلد، فى مؤتمر صحفى له بأوزبكستان فى ٢٤فبراير من ذاك العام، عن أنه ومسئولين أمريكيين كبار آخرين كانوا يناقشون إنشاء "مواقع عملياتية" فى المنطقة، أسماها مرافق، "لن تكون دائمة مثل القواعد العسكرية، لكنها ستكون أمكنة يصبح بالإمكان أن تكون متاحة ومساندة للولايات المتحدة وحلفائها بأسلوب دورى متقطع.. المهم لنا هو تنفيذ هذا فى أماكن ترحب بنا، حيث تتوفر لنا مرونة استخدام تلك المرافق". وفى جورجيا، حيث قام البنتاجون أيضا بنشر مقاولين عسكريين خاصين، أبلغ دبلوماسى غربى صحيفة الجارديان أن الولايات المتحدة كانت تفكر فى "إنشاء منطقة عملياتية متقدمة، بالإمكان تخزين التجهيزات والوقود بها، تماثل بُنى الدعم فى الخليج . ووفقا للصحيفة فإن "الخطوتين معا ستعملان على منح واشنطون، عملياً، قاعدة عسكرية" -مخزونات أجهزة وجيش جورجى موالٍ- بدون إثارة المتاعب الدبلوماسية التى تنجم عن إقامة قاعدة عسكرية دائمة".

اتضح أن تلك أيضا كانت استراتيجية بلاكووتر بأزربيجان. قامت بلاكووتر بتجديد وتحديث قاعدة التدريب على العمليات الخاصة البحرية السوفيتية القديمة، بمدينة باكو ذات الأهمية الاستراتيجية، والتى تَصوَّرها مخططو البنتاجون مركزا للقيادة

منمذجا على المراكز التى تستخدمها وزارة الأمن الداخلى. أيضا، وكجزء من مشروع حارس قزوين، تعاقدت الولايات المتحدة مع "واشنطون جروب انترناشونال، شركة الدفاع العملاقة، ومقاول حرب العراق، لإقامة مرفق مراقبة بالرادار فى أسترا، إلى الشمال فى الحدود الإيرانية، وهو أحد مرفقين متماثلين أنشئا بمقتضى هذا المشروع. أما الآخر، فأنشئ على قمة جبل جنوب حدود روسيا الشمالية من منطقة القوقاز، وقريبا من الشيشان. أيضا قامت واشنطون بتجديد مطار ناخشوان القريب ليستوعب الطائرات العسكرية ومن بينها طائرات الناتو. وفى تلك الأثناء، زادت أزربيجان، وقد شجعتها علاقاتها المريحة الودودة مع واشنطون، إنفاقاتها العسكرية عام ٢٠٠٥ زيادة دراماتيكية قدرها ٧٠٪، حيث بلغت الإنفاقات ٣٠٠مليون دولار. ثم وصلت فى نهاية عام ٢٠٠٦ إلى ٧٠٠مليون دولار، مع تعهد رئيس الجمهورية بأنها سرعان ما ستصل إلى بليون دولار سنويا.

فى حالة شن الولايات المتحدة حربا على إيران، ستلعب أزربيجان دورا مركزيا؛ وبالنسبة لطهران، كانت التعزيزات العسكرية التى خططت لها الولايات المتحدة على شواطئ قزوين تهديدا منذرا. وبالفعل، استجابت إيران إلى أنباء تورط بلاكووتر فى المنطقة بإعلانها عن إنشاء قوة شُرطتها البحرية الخاصة لحراسة منطقة سواحل قزوين. كتب أرييل كوهن من جماعة هريتدج فاونديشن اليمينية فى الواشنطون بوست عام ٢٠٠٥ أن حارس قزوين كان "شديد الأهمية.. فى أى صراع مستقبلى مع إيران".

ووفقا لتقرير صحيفة جينز دفنس ويكلى، فإن وجود الولايات المتحدة بالقرب من بحر قزوين يتيح لواشنطون "الفوز بموطئ قدم فى منطقة ثرية بالنفط والغاز الطبيعى، والمتاخمة أيضا لإيران، يقول مايك أندرسون، الكولونيل بالجيش الأمريكى، ورئيس وحدة أوربا للخطط والسياسات بالقيادة الأمريكية الأوربية (EUCOM)، يقول إنها مصالح الولايات المتحدة القديمة، وهذا نوع من الأنانية. من المؤكد أننا تخيرنا مساعدة دولتين ساحليتين، أزربيجان وكازاخستان، لكن

وكما هو الحال دائما، تقبع مصالحنا الأنانية تحت هذا"

فى إبريل ٢٠٠٥، كان رمسفلد قد زار أزربيجان، ذلك البلد الصغير التى يبلغ مجموع سكانه ٥ ٨مليون نسمة، ثلاث مرات على الأقل. أحيطت الزيارات بالسرية، ولم يكن المسئولون الأمريكيون والأزربيجيون يتحدثون سوى عن عموميات ما كان رمسفلد يفعله فى زيارته المتكررة تلك. وبعد زيارته الثالثة، ظهر فى صحيفة إكو، اليومية ذات الشعبية، العنوان الرئيسى التالى: "رمسفلد مهتم بالبترول!". وحقا، فقد كان توقيت هوجة الأنشطة الأمريكية المتعلقة بالجيش فى أزربيجان، ومن بينها نشر بلاكووتر، متزامنا مع إطلاق إحدى أكثر العمليات الدبلوماسية إثارة للجدل على أرض الاتحاد السوفيتيى السابق منذ سقوط حائط برلين: خط أنابيب النفط الهائل الذى كان سينقل، وللمرة الأولى، النفط خارج منطقة بحر قزوين بسلوك ممر يلتف حول إيران وروسيا ويتحاشاهما تماما -وهو تطور نظرت إليه طهران وموسكو بصفته تعديا خطيرا على مجاليها من قبل الولايات المتحدة. قام البنك الدولى، بنك التصدير والاستيراد الأمريكى، أوفرسيز. وبرايفت أنفستمنت كوربوريشن بتمويل مشروع خط الأنابيب الذى بلغت تكلفته ٦ ٣بليون دولار، ودعمه الاتحاد الشركاتى الذى تقوده شركة النفط العملاقة BP، ومعها الشركات الأجنبية يونوكال، كونكوفيليبس، وهس. وكما كان مخططا فى البداية، كان خط الأنابيب يتجه من باكو بأزربيجان مخترقا تبليس بجورجيا إلى الميناء التركى سيهان حيث ينقل النفط للاستهلاك الغربى.

نظر المحللون الروس المحنكون إلى خط الأنابيب الذى كان يسمى بحروفه الأولى BTC على أنه "جولة جديدة فى اللعبة الكبرى واعتبروه جزءا من خطة أوسع لعزل موسكو. قال المحلل الروسى فلاديمير راديوهين إن "خط الأنابيب عنصر رئيسى فى استراتيجية الولايات المتحدة لإعادة رسم الخريطة الجيوسياسية للاتحاد السوفييتى السابق والتفوق على روسيا كقوة مهيمنة فى بلدان الاتحاد السوفييتى السابق. لقد دفعت الولايات بهذا المشروع من أجل كساد خطوط

الأنابيب الأكثر فائدة التى تمر عن طريق روسيا وإيران من أجل خلق خط تصدير بديل للنفط المُنتَج فى أزربيجان، كازاخستان، تركمنيستان، وأوزبكستان، تلك الدول التى ظلت تعتمد على خطوط الأنابيب الروسية لتصدير نفطها إلى أوربا". قال راديوهين إن برنامج "حارس قزوين" الأمريكى ومعه تحالف GUVAM الذى تعززه الولايات المتحدة بين جورجيا، أوكرانيا، أوزبكستان، أزربيجان، ومولدوفا، سيُمكِّن واشنطون من ممارسة التحكم فى غالبية مطلقة من دول ما بعد الاتحاد السوفييتى، ومن أن تخلق نطاقا مُحصنًا حول روسيا". قال ميخائيل مارجلوث، رئيس اللجنة الدولية بمجلس الدومة الروسى إن" روسيا ستعارض دائما وجود أية قوات عسكرية أجنبية داخل حدود منطقة بحر قزوين... فأولا وقبل كل شئ، فهذه مسألة أمن قومى روسى

وقبل افتتاح خط أنابيب ETC، كانت الولايات المتحدة قد استثمرت فى الاتحاد الشركاتى لخط الأنابيب القزوينى الذى تتحكم فيه روسيا، وهو مشروع كانت تكلفته قد بلغت ٦ ٢بليون دولار وطوله ٩٢٥ميل لنقل النفط الخام، ويبدأ من حقل بترول تنجيز فى كازاخستان ويصل إلى ميناء نوفوروسيسك الروسى على البحر الأسود. قال عنه البيت الأبيض إنه "أكبر استثمار مفرد للولايات المتحدة بروسيا" فى نوفمبر ٢٠٠١، حينما دُشِّنت أول ناقلة بترول محملة بالنفط من منطقة قزوين فى ظل المشروع، علق دون إيفانز، وزير التجارة بالقول "إن الناقلة تُبلِغ العالم أن الولايات المتحدة، روسيا، ودول وسط أسيا تتعاون لإقامة الازدهار والاستقرار فى هذه المنطقة من العالم". لكن، بمجرد أن بدأ خط أنابيب BTC الجديد يعمل فى ٢٠٠٥، شجع بوش علنا "الشركات المنتجة للبترول فى كازاخستان والأنحاء الأخرى من منطقة قزوين على تبنى BTC بوابة إلى الأسواق الكوكبية". وبدا وأن هذه كانت الخطة منذ البداية. وحقا، فقد كانت قوة مهمات الطاقة التى كان تشينى يشرف عليها قد تصورت خطة تتيح للشركات متعدية/الجنسية العملاقة مثل تشفرون وإكسون التى تعمل فى كازاخستان تحت خط الأنابيب الروسى أن تعيد توجيه النفط ليمر من خلال خط أنابيب BTC، وبذلك تُقلِّص عمليا، أرباح روسيا.

كان ذلك كله قد خُطِّط له فى مايو ٢٠٠١ فى توصيات مجموعة البيت الأبيض لتطوير سياسة الطاقة القومية التى ترأسها تشينى. أوصت المجموعة أن يعطى الرئيس بوش "التعليمات لوزراء التجارة، الخارجية والطاقة بأن يواصلوا العمل مع الشركات والبلدان ذات العلاقة لترسيخ ظروف تجارية تتيح لشركات النفط التى تعمل فى كازاخستان خيار تصدير نفطها عبر خط أنابيب BTC" بدلا من خط الأنابيب التى تتحكم فيه روسيا. طالبت الإدارة "بتعميق حوارها التجارى مع كازاخستان، أزربيجان والدول القزوينية الأخرى لإتاحة مناخ بيزنس قوى، شفاف ومستقر لمشاريع الطاقة ومشاريع البنية الأساسية الأخرى ذات العلاقة".

افتُتح خط أنابيب BTC فى مايو ٢٠٠٥، وأرسل الرئيس بوش صامويل بودمان وزير الطاقة الجديد لتمثيله فى مراسم الاحتفال. قال بوش فى خطاب له قرأه بودمان فى الاحتفال يفتح BTC عهدا جديدا فى تنمية حوض قزوين. يضمن أن يصل النفط القزوينى إلى الأوربيين والأسواق الأخرى بأسلوب قابل للحياة تجاريا، وسليم بيئيا". كان الخطاب موجًها لديكتاتور أزربيجان الذى امتدحه بوش. أضاف بوش فى خطابه "وفيما تُعمّق أزربيجان من إصلاحاتها الديموقراطية واقتصاد السوق، يمكن لخط الأنابيب أن يساعد على توليد نماء اقتصادى متوازن، ويوفر أساسا لمجتمع مزدهر عادل يدفع قدما بقضايا الحرية". لكن وكما كتب دافيد سانجر مراسل النيويورك تايمز فى تقرير له قبل قراءة خطاب بوش فى الاحتفال بأيام "ضربت الشرطة الأزربيجانية المتظاهرين المطالبين بالديموقراطية بالهراوات حينما هتفت أحزاب المعارضة مطالبة بالانتخابات الحرة وتحدت حظر الحكومة للاحتجاجات ضد الرئيس إلهام آليف. ومستر آليف هو أحد حلفاء الرئيس بوش فى الحرب على الإرهاب، حتى بالرغم من أنه فاز فى انتخابات تحيط بها شكوك قوية ليخلف والده، أحد رجال الاتحاد السوفييتى الأقوياء سابقا"

سِجل حقوق الإنسان بأزربيجان مُزر. ووفقا لهيومان رايتس ووتش فإن "التعذيب، وانتهاكات الشرطة، واستخدام قوات الأمن للعنف المفرط أمور شائعة". وفى تلك

الأثناء صنّفت وزارة الخارجية الأمريكية سجل أزربيجان لحقوق الإنسان على أنه سيئ" وقالت إن الرئيس أليف، حليف كيسنجر، بيكر، تشينى وشركائهم، حصل على السلطة من خلال انتخابات "لاتتوافق مع المعايير الدولية للانتخابات الديموقراطية بسبب تجاوزات عديدة خطيرة" واتهمت وزارة الخارجية أزربيجان بوجود "قيود على حق المواطنين فى تغيير سلمى لحكومتهم: وبتعذيب وضرب المحتجزين؛ والاعتقال والاحتجاز العشوائى- خاصة للأعداء السياسيين. أوضاع سجون قاسية تمثل خطورة على حياة المعتقلين، استخدام القوة المفرطة لتفريق المتظاهرين، ومنح الشرطة حصانة قانونية".. قررت وزارة الخارجية أيضا أن "أفرادا من قوات الأمن قد ارتكبوا انتهاكات عديدة لحقوق الإنسان". وعلى الرغم من هذا، أنفقت الولايات المتحدة ملايين الدولارات لنشر بلاكووتر فى البلد وأُعلِن بصراحة أن الهدف هو تحسين قدرات أزربيجان العسكرية بما فى هذا خلق وحدات منمذجة على أرفع قوات الولايات المتحدة الخاصة النخبوية، أى السيلز البحرية. وكما هو الحال مع حلفاء الإدارة المواتين الآخرين، كانت قيمة أزربيجان تتمثل فى نفعها لضمان أرباح النفط، وكموقع عمليات محتمل للحروب المستقبلية. قوى عقد بلاكووتر موطئ قدم الولايات المتحدة فى منطقة ستتعاظم أهميتها فى سياسة الولايات المتحدة، وقد أعلنت الشركة عن عملها بأزربيجان على الملأ كنموذج تكتسب من خلاله مزيدا من البيزنس. انتهى الصحفى تيم شوروك إلى أن "مشروع بلاكووتر فى أزربيجان دليل واضح على أن المقاولين قد عبروا الخط من موقعهم كمجرد مرتزقة ليصبحوا شركاء استراتيجيين فى المجمع العسكرى/ الصناعى".■

12

الفصل الثانى عشر

رجل بلاكووتر فى شيلى

مع المحاولات الفاشلة لإدارة بوش لإقامة "تحالف الراغبين" بين دول مستعدة لغزو واحتلال العراق، إذا بها تستعين بالشركات العسكرية الخاصة فى واشنطن وتكتريها لمساندة عملياتها فى العراق، وإذا بهذه الشركات تتحرك بصورة محمومة عبر العالم لتجنيد عناصر غالبا ما تنتمى لدول عُرِفت مؤسساتها العسكرية والأمنية بسجلاتها البشعة والسمعة السيئة جراء انتهاكاتها الجسيمة لحقوق الإنسان.

وهكذا اكتسب الاحتلال فى العراق طابعه "الدولى" أو المتعدد الأطراف إلى حد كبير فى ضوء جلب عاملين من شتى أنحاء العالم النامى وأغلبهم من دول تعارض بشدة هذه الحرب ليعملوا فى خدمة هاليبرتون وبكتل وفلور وغيرها من شركات "إعادة البناء والإعمار" العملاقة والتى تعمل فى الأراضى العراقية جنبا إلى جنب مع شركات المرتزقة.

لم يكن فى مقدور الولايات المتحدة إقناع العديد من حكومات الدول بنشر قوات فى العراق لكنها بالتأكيد كانت قادرة على إغواء مواطنين من هذه الدول بوعود خلابة بأجور

أعلى كثيرا مما يتقاضونه فى بلادهم.وخلافا لبعض الشركات العسكرية الخاصة الأخرى التى تعمل فى العراق وتعاقدت مع عمالة عراقية رخيصة لاستخدامها فى مشاريعها ومهامها الأمنية، كان يُنظر إلى شركة بلاكووتر كشركة أمنية نخبوية ورفيعة المستوى فى ضوء العقد الهام والجذاب الذى أسنِد لها لحراسة كبار المسئولين الأمريكيين والعديد من المقار الإقليمية لقيادة الاحتلال . ولئن شجعت بلاكووتر هذه الصورة سواء فى بغداد أو فى واشنطن كشركة ذات مستوى مهنى رفيع مفعمة بالروح الوطنية الأمريكية التى تدفعها لوضع إمكاناتها تحت إمرة بلادها ورهن إشارتها فى الحرب، فإنها شرعت بهدوء وصمتٍ فى جلب مرتزقة من جهات مشبوهة لاستخدامهم فى تنفيذ تعاقداتها الأمنية التى راجت بصورة غير مسبوقة وحققت طفرة فى العراق.

سيكون من قبيل التزيد اعتبار التدريب الأمريكى لقوات أجنبية لدعم عمليات سرية وسياسات قمعية مُعلنة بمثابة تطور جديد وخاصة فى أمريكا اللاتينية.فعلى مدى وجودها منذ ستة عقود قامت مدرسة الجيش الأمريكى لكل الأمريكيين "والتى أعيد

تسميتها فى عام ٢٠٠١ بمعهد نصف الكرة الغربى للتعاون الأمنى" بتدريب أكثر من ٦٠ ألف جندى أمريكى لاتينى على "تكتيكات قمع حركات التمرد ومهارات وأساليب القناصة والكوماندوز والحرب النفسية والاستخبارات العسكرية والاستجوابات والتحقيقات .

ووفقا لمنظمة العفو الدولية فإن هذه المدرسة العسكرية الأمريكية "قد ملأت سمعتها السيئة الآفاق لقيامها بتدريب وتعليم عسكريين أمريكيين لاتينيين يعودون لارتكاب انتهاكات لحقوق الإنسان فى بلادهم..فالمدرسة تستخدم كتُيبّات إرشادية تدافع عن التعذيب والاغتصاب والخطف والإعدام".وعلى مدى عقدى الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين أشعلت الولايات المتحدة "حروبا قذرة" بقيامها سرا بتسليح وتمويل وتدريب فرق الموت أو مؤسسات عسكرية قمعية لسحق حركات شعبية تعتبرها واشنطن خطرا على مصالحها.

احتلال العراق اقترن بتعاظم استخدام وتدريب قوات أجنبية بواسطة القطاع الخاص.وها هى دول أمريكية لاتينية كانت ضحايا لفرق الموت والسياسات القمعية التى تحظى برعاية أمريكية التى عارضت شعوبها وحكوماتها غزو العراق عام ٢٠٠٣ تتحول على الرغم من ذلك كله إلى الساحة الجديدة لمراكز التجنيد والتدريب للمرتزقة الذين انخرطوا فى حرب العراق.ومن بين أكبر التشكيلات للجنود غير الأمريكيين الذين جلبتهم شركة بلاكووتر للعراق هذه المجموعة الشيلية من رجال الكوماندوز السابقين وبعضهم تدرب أو خدم فى ظل الحكم الديكتاتورى العسكرى الوحشى للجنرال أوجيستو بينوشيه.

الواقع أن قصة توجه نحو ألف شيلى إلى العراق هى إلى حد كبير قصة شخص يدعى إيريك برينس كما أنها قصة ضابط سابق فى الجيش الشيلى تعاقدت معه شركة بلاكووتر ليكون وكيلها المكلف بعملية تجنيد واختيار العناصر البشرية فى شيلى.وهذا الضابط اسمه الكامل: خوزيه ميجويل بيزارو أوفاليه.وبيزارو هذا من المدافعين بحماس عن بينوشيه وقد عمل مترجما لحساب الجيش الأمريكى فى أمريكا اللاتينية إبان العقد

الأخير من القرن العشرين قبل أن يصبح همزة الوصل بين أكثر من ١٢ حكومة أمريكية لاتينية وأصحاب مصانع أمريكية للأسلحة. وعندما بدأ الغزو الأمريكي للعراق في عام ٢٠٠٣ أكتشف بيزارو بلاكووتر يو اس ايه" وتحول بين عشية وضحاها إلى الكشاف الذي لا يكل ولا يمل في تجنيد المئات من المرتزقة الأمريكيين اللاتينيين ذوي الأجور المنخفضة للعمل لحساب شركة بلاكووتر وغيرها من الشركات العسكرية في العراق. "من وجهة نظر أمريكية لاتينية فإن قصتي لا تعقل ولا يمكن تصديقها أما من وجهة نظر أمريكية فإن قصتي قصة نجاح وهي قصة النجاح الأمريكية "..هكذا تحدث بيزارو في مقابلة امتدت لساعتين ونصف الساعة.وبيزارو الذي يفضل مناداته "بمايك" شخص مزدوج الجنسية فهو يحمل الجنسيتين الشيلية والأمريكية لأنه وُلد في لوس أنجليس عام ١٩٦٨ حيث كان والده يعمل رساما للرسوم المتحركة في شركة "بارامونت بيكتشرز".والده عمل أيضا كسائق لدى "يو بي إس" أما والدته فعملت صرافة ببنك أوف أميركا.وبعد فترة قصيرة من فوز المرشح الرئاسي الاشتراكي سلفادور الليندي بمنصب الرئاسة في شيلي عام ١٩٧١ ليصبح أول رئيس دولة ماركسي منتخب بصورة ديمقراطية في نصف الكرة الغربي، عادت عائلة بيزارو الى سانتياجو حيث مسقط الرأس وأرض الأجداد، وبعد ذلك بعامين كان لحكومة الليندي أن تسقط بانقلاب عسكري مدعوم أمريكيا ليضع في سدة السلطة ديكتاتورا هو من أبشع الطغاة الذين عرفتهم الدنيا. إن فهم أهمية ومغزى الدور الذي لعبته بلاكووتر في تجنيد مرتزقة شيليين للعمل بالعراق والاستعانة في هذا السياق برجل يدافع عن بينوشيه ليكون رجلها في شيلي يتطلب بالضرورة فهم الدور الذي قامت به الإدارة الأمريكية في شيلي على مدى العقود الأربعة السابقة على غزو العراق في عام ٢٠٠٣

عندما أطلق سلفادور ألليندي حملته الانتخابية للفوز برئاسة شيلي كان قد شغل مقعدا كسناتور بمجلس الشيوخ في هذا البلد على مدى ربع قرن وطرح مع حزبه "حركة الوحدة الشعبية" تعهدات بتحسين ظروف الحياة ومستوى المعيشة لملايين من الشيليين المعوزين والمحرومين.في الرابع من سبتمبر عام ١٩٧٠ فاز الليندي بأغلبية ضئيلة ولكن في سباق انتخابي رئاسي حر ونزيه احتدمت فيه المنافسة ووقفت فيه الأحزاب اليمينية

ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية "سي آي ايه" والشركات الكبيرة المتعدية الحدود بقوة خلف خصم سلفادور الليندي في هذه الانتخابات الرئاسية.

كان ألليندي قد تحدى "جهدا سريا هائلا" استمر على مدى عقد كامل يستهدف، بكلمات وزير الخارجية الأمريكي دين راسك، "الحد من فرص أن تكون شيلي أول دولة أمريكية ينتخب فيها رئيس يجهر بماركسيته ويعلنها على رءوس الأشهاد".كان فوز الليندي لحظة تاريخية في عالم السياسة الأمريكية اللاتينية دقت أجراس الخطر في مؤسسات السلطة بواشنطن وانزعجت شركات أمريكية كبيرة مثل بيبسي كولا وآناكوندا كوبر وآي تي تي وكلها وقفت مع خصم ألليندي وساندته في الانتخابات الرئاسية.هكذا سارعت إدارة الرئيس ريتشارد نيكسون بتنفيذ خطة سرية ذات مسارين للحيلولة دون تولي سلفادور ألليندي منصب الرئاسة رسميا أو للإطاحة بحكومته إذا ما أمسكت بمقاليد السلطة.

لكن الكونجرس الشيلي صادق بأغلبية ساحقة على تولي سلفادور ألليندي منصب الرئاسة وتحرك الزعيم الاشتراكي بسرعة لتنفيذ برنامجه الذي عرف باسم "لافيا شيلينا أل سوسياليزمو" أي الطريق الشيلي للاشتراكية.وتضمّن هذا البرنامج تأميم صناعات كبيرة وتنفيذ برامج حكومية للرعاية الصحية والمنظومة التعليمية فضلا عن إعادة توزيع الأراضي وحملات لمكافحة الأمية وتوزيع اللبن الحليب مجانا للأطفال.كما استأنف الليندي العلاقات الدبلوماسية مع كوبا في تحد لواشنطن ووثق علاقته بالزعيم الكوبي فيدل كاسترو الذي قضى شهرا في شيلي سلفادور ألليندي.

طوال الفترة القصيرة التي قضاها ألليندي في منصب الرئاسة تحركت إدارة نيكسون بصورة محمومة بالتعاون مع شركات أمريكية كبيرة ومؤسسات إعلامية قوية في سانتياجو لتغذية الاضطرابات وعدم الاستقرار في شيلي وعزلها اقتصاديا.في برقية لواشنطن يتحدث السفير الأمريكي إدوارد كوري عن أنه قال لمسئولين شيليين "سنقطع أسباب الحياة عن شيلي مادامت تحت رئاسة ألليندي ولن نسمح بوصول أي شيء لها وسنبذل قصارى جهدنا وكل ما في استطاعتنا ليتضور هذا البلد جوعا ونجعل شيلي

والشيليين في الدرك الأسفل من الحرمان والفقر". وفي الوقت ذاته أصدر نيكسون توجيها جاء فيه أن الولايات المتحدة لابد وأن "تجعل الاقتصاد الشيلي يصرخ". ويحلول عام ١٩٧٣ كان التضخم المفرط بتأثير أمريكي والإضرابات قد أمسكا بخناق شيلي فيما راحت واشنطن تشجع حملة إعلامية داخل هذه الدولة بغرض إلقاء اللوم على حكومة ألليندي توطئة لخلعها من السلطة.

في صباح الحادي عشر من سبتمبر ١٩٧٣ نهض الجنرال بينوشيه قائد الجيش بمهمة التنسيق لعملية عسكرية كبيرة ضربت حصارا على قصر لامونديا الرئاسي. وفي تسجيل إذاعي لبينوشيه وهو يوجه قواته أثناء الانقلاب سُمِع صوت الجنرال وهو يقول: "اقتلوا ابن العاهرة واقضوا على أتباعه الحثالة". وبعيد الساعة التاسعة صباحا وعلى خلفية من هدير الطلقات والقنابل خاطب ألليندي الأمة عبر إحدى المحطات الإذاعية القليلة التي كانت مازالت تعمل وقال: "أمام خيار تاريخي نصنعه فإنني سأضحي بحياتي وفاء لشعبي.. وأؤكد لكم بكل الثقة أن البذور التي غرسناها في الوعي النبيل للآلاف والآلاف من الشيليين لن تموت ولن يكون في مقدور أحد أن يمنعها من النمو". في غضون ساعات قُتل ألليندي فيما زعم البعض أنه انتحر لتبدأ واحدة من أحلك المراحل في تاريخ شيلي.. ذكرت برقية سرية صادرة عن غرفة إدارة الأزمات بالبيت الأبيض بعد يومين من هذا الانقلاب أن حكومة الولايات المتحدة تود أن تعبر بوضوح عن رغبتها في التعاون مع مجموعة العسكريين وأن تقدم المساعدة بأي صورة مناسبة. وإننا نرحب بتصريح الجنرال بينوشيه عن رغبة العسكريين في تعزيز العلاقات بين شيلي والولايات المتحدة".

وبتأييد من واشنطن سارعت الطغمة الانقلابية بحل الكونجرس الشيلي وتنصيب بينوشيه رئيسا للدولة وتعرّض الآلاف من أنصار ألليندي والمشتبه في أنهم من "المتعاطفين الشيوعيين" لملاحقات واعتقالات من جانب قوات الانقلابيين. سيق الآلاف لاستاد شيلي الوطني "استاديو ناسيونال دي شيلي" بين شهري سبتمبر ونوفمبر عام ١٩٧٣ . مئات أُعدموا وآلاف عُذبوا. عدد الشيليين الذين قُتلوا في الأيام الأولى لنظام

بينوشيه لن يعرف أبدا لكن محطة المخابرات الأمريكية فى سانتياجو ذكرت أنه بحلول العشرين من سبتمبر كان "أربعة آلاف شخص قد قُتلوا فى غمار الانقلاب وعمليات التطهير التالية". وبعد ذلك بأربعة أيام قدرت السى آى إيه العدد ما بين ٢٠٠٠ و١٠٠٠٠ شخص. وحسب تقرير موجز سرى أعد فى شهر أكتوبر ١٩٧٣ لوزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر بعنوان" إعدامات شيلى" فإن الطغمة الانقلابية ارتكبت مذابح فى حق ما يقرب من ١٥٠٠ مدنى وأعدمت ما بين ٣٢٠ و٣٦٠ شخصا منهم دون محاكمة . "على مدى الديكتاتورية الوحشية التى استمرت ١٧ عاما كانت المؤسسة العسكرية الشيلية مسئولة عن اغتيال واختفاء والموت تعذيبا لنحو ٣١٩٧ مواطن فيما تعرض الآلاف لانتهاكات بشعة مثل التعذيب والاحتجاز التعسفى والنفى القهرى وغيرها من صور وألوان الإرهاب الذى ترعاه الدولة" كهكذا كتب الباحث المحقق بيتر كورنبلوه فى كتابه الرائد "ملف بينوشيه" مضيفا:"وفى غضون أسابيع من الانقلاب استحدث بينوشيه قوة شرطة سرية مكلفة بتصفية أى أعداء وكل أعداء لنظامه".وبلغت الطغمة العسكرية الانقلابية من الوقاحة والثقة فى مساندة الولايات المتحدة لها إلى حد اغتيال مواطنين أمريكيين فى شيلى واستهداف معارضين شيليين مثل أورلاندو ليتلير وزير خارجية ألليندى فى واشنطن.نعم قُتل ليتلير ومساعده الباحث الأمريكى رونى كاربين موفيت فى حادث انفجار سيارة ملغومة عام ١٩٧٦ على مسافة قريبة من البيت الأبيض.

وعلى الرغم من الأدلة الدامغة على وحشية الطغمة العسكرية الشيلية استمر خوزيه ميجويل بيزارو الرجل القائم على التجنيد فى شيلى لحساب شركة بلاكووتر فى دفاعه المستميت عن بينوشيه وانقلابه.وذهب بيزارو فى سياق هذا الدفاع عن بينوشيه إلى القول بأن انقلاب شيلى "لا يختلف أبدا عن الحرب على الإرهاب التى تخوضها إدارة بوش" وها هو يقول:"أعتقد أن جهدا كبيرا بذله الجيش وسلاحى البحر والجو فى شيلى لإخلاء سبيل أغلب المعتقلين فيما بقت قلة قليلة محتجزة بعد الأسابيع الثلاثة أو الأربعة الأولى من استيلاء العسكريين على الحكم".ببساطة يُنكر بيزارو حدوث عمليات إعدام جماعى، وهو وإن كان لا ينفى أن شيلى خضعت "لنظام حكم عسكرى" فإنه يعود ليطعن

فى ‑صحة القول بأنه" كانت هناك ديكتاتورية عسكرية بالفعل فى شيلى معتبرا هذه المقولة "محض كذب تماما كمن يتحدث عن وجود فساد وانتهاكات لحقوق الإنسان"

شب بيزارو عن الطوق معتدا بنفسه فى شيلى بينوشيه فيما كانت تداعبه أحلام الخدمة فى الجيش الشيلى، وهو يستعيد هذه المشاهد بقوله:" لدى صورة وأنا فى السابعة من العمر وأحمل بندقية بلاستيك..أنها صورة طريفة فأنا لم أرغب فى أى شىء إلا أن أكون ضابط جيش".وعلى الرغم من الجرائم الموثقة بإحكام والتى ارتكبت فى ظل نظام بينوشيه بشيلى فان بيزارو يقول:"شىء رائع أننى عشت هذه الأعوام السبعة عشر من نظام الحكم العسكرى فى سانتياجو ..لم أر أبدا جنودا بالجيش يطلقون النار أو يعتقلون الناس ويقتلون أو يفعلون أى شىء خطأ مهما كان وبأى صورة من الصور". وها هو يقول أيضا :إن الادعاءات بأن بينوشيه سهر على "انتهاكات لحقوق الإنسان على مستوى مؤسسى ليست سوى أكذوبة سخيفة".

وهكذا جنح بيزارو ليرسم لبينوشيه صورة رجل استعاد الديمقراطية فى شيلى وسحق الشيوعية وحمل على الكوبيين من حكومة فيدل كاسترو الذين تقاطروا على شيلى "كمستشارين" بعد انتخاب ألليندى.ينفى بيزارو صحة الادعاءات بحدوث عمليات تعذيب جماعى مضيفا أن التعريف الشيلى للتعذيب هو تعريف ليبرالى.وعندما سئل عما إذا كان قد عرف أى شخص تعرض لتعذيب استعاد بيزارو قصة رواها صديق للعائلة اقتيد والده فى عام ١٩٧٣ أثناء حفل شواء..اقتحم الجنود الحفل وأخذوا والده للسجن ولكنهم ألقوه بعد ٤٨ ساعة فى طريق عام.ويقول بيزارو إن الوثائق الرسمية للحكومة تقرر أن ٢٨٧١ شخصا قُتلوا فى ظل الحكم الديكتاتورى لكن "بعد ثلاثة أعوام من الحرب فى العراق هناك نحو ثلاثة آلاف قتيل".وعندما يضطر للاعتراف بأن "ثمة انتهاكات لحقوق الإنسان حدثت" فى شيلى فإنه يؤكد على أن هذه الانتهاكات ارتكبتها "الشرطة السرية وشرذمة من المسئولين الفاسدين".يجادل بيزارو بقوله:"بالمعايير الشيلية هناك انتهاكات لحقوق الإنسان أما بالمعايير الكولومبية فإن ما حدث فى شيلى قد يكون مجرد نزهة".

بينوشيه كما يراه بيزارو "وطني عظيم لكنه تلقى نصائح سيئة من مستشارين مدنيين وعسكريين دون المستوى وكانت نصائحهم ضارة سواء بمنظور العلاقات العامة أو الصورة الدولية.وهو رجل لم يفعل إلا كل ما هو صائب من بناء الجسور لتشييد المدارس واستحداث أنشطة اقتصادية وخلق فرص عمل جديدة.إنه يستنسخ النموذج الأمريكي ويعزز علاقاتنا مع الولايات المتحدة.إنه يحارب الشيوعية والفساد والإرهاب..إنه يفعل بالضبط ويعين الصواب ما ينبغي على أي رئيس أن يفعله.ومع ذلك فإنه لم يتلق نصائح تخدمه في مجال العلاقات العامة حتى أنه لم يُدرك أهمية الاستفادة من الصحافة وامتطاء الميديا.لم يفهم معنى الشفافية وأنه ليس لدينا ما نخفيه".تلك فحسب كانت المآخذ التي يأخذها بيزارو على بينوشيه وتقييمه السلبي له.

ومع أن ألليندي فاز في انتخابات ديمقراطية ومعترف بها دوليا فإن بيزارو يؤكد على أن انقلاب بينوشيه كان ضروريا لاستعادة الديمقراطية في شيلي.."الجنرال بينوشيه قرر إعادة بناء الأمة وتقسيم البلاد لمناطق وابتعاث المدنيين لدراسة الاقتصاد في شيكاغو وتغيير النموذج الاقتصادي التقليدي لشيلي اعتبارا من عام ١٩٧٣ ليجعلها صورة من الولايات المتحدة الأمريكية وقد فعلها ونجح في ذلك بالفعل".هكذا يتحدث بيزارو بفخر مُضيفا: "وبين عشية وضحاها.. وبحساب الزمن والأيام في أقل من عشرة أعوام تحولت شيلي من إحدى جمهوريات الموز الصغيرة في العالم الثالث لا يحسب لها حساب إلى القدوة والنموذج وبقت حتى اليوم النموذج الاقتصادي والسياسي في المنطقة..إنها الدولة الأكثر استقرارا بين الدول الناطقة بالإسبانية في أمريكا اللاتينية".

ويقول بيزارو إن الحكومات المدنية التي توالت بعد نظام بينوشيه تخشى من أن يتحرك الجيش الشيلي مرة أخرى ليمسك بزمام السلطة كما فعل في عام ١٩٧٣ إذا ما انزلقت الحكومة لمستنقع الفساد.ونتيجة لهذا الشعور انهمك قادة مدنيون في عملية مراجعة تاريخية لعصر بينوشيه بمنظور تحريفي من أجل شيطنة القوات المسلحة الشيلية "لتدمير صورة العسكريين وتصويرهم كأناس فاسدين وأغبياء وسدنة جمهوريات الموز والهدف تسويد صورتهم في الأذهان للتأكد من عدم عودتهم للسلطة مرة أخرى".

"هذا تاريخ فُرِض فرضا ويقى لأن الأحزاب اليمينية في شيلى لم تحرك ساكنا ولم تنبس ببنت شفة وبدت وكأنها في أفضل حال وراضية كل الرضا دون أن تعكر صفوها بأى محاولة جادة ومسئولة للدفاع عما جرى بالفعل وأن تُخبر الشعب عما حدث على أرض الواقع في شيلى أثناء هذه الأعوام السبعة عشر".هذا ما ذهب إليه بيزارو في دفاعه عن مرحلة بينوشيه.

فى عام ١٩٨٧ عندما كان بينوشيه يُحكِم قبضته على شيلى تخرج بيزارو فى المدرسة العليا ليتوجه مباشرة إلى الأكاديمية العسكرية الوطنية حيث تخرج فيها بعد أربعة أعوام برتبة ملازم ثان وفى حفل التخرج صافحه الجنرال بينوشيه ليبدأ مسيرته فى القوات المسلحة الشيلية.تنقل بيزارو بين عدة تشكيلات وعمل كمترجم للجيش وكان يترجم لجنرالات شيليين أثناء اجتماعاتهم مع نظرائهم الأجانب وقاده عمله كمترجم لاتصالات مع عسكريين فى السفارة الأمريكية بسنتياجو.وفى عام ١٩٩٥ توثقت عرى الصداقة بين بيزارو وضابط أمريكى من بين هؤلاء الضباط لكنه لم يكشف عن اسم هذا الضابط .كان يستمع وينصت لصديقه الأمريكى الجديد ورفاقه وهم يتحدثون عن مغامراتهم فى صفوف الجيش الأمريكى حول العالم من بنما وحتى حرب الخليج. شاهد بيزارو أشرطة فيديو لهم ودخل بيوتهم ملبيا دعوات لولائم ومشاركا فى عزومات وها هو يقول:"انبهرت بمستواهم المهنى كعسكريين محترفين وبروحهم الجماعية وفخرهم بالانتماء لجيش واحد وبطريقتهم فى الحديث ونشر الأنباء الطيبة وتداول كل ما هو مفيد كما انبهرت بطريقتهم فى العمل.هؤلاء الأولاد كانوا محاربين.يذهبون للحرب وينتصرون فى الحرب ثم يعودون للوطن.قد يظن أحدكم أنهم أناس مجانين أو لا يمكن التعويل عليهم وأخذهم على مأخذ الجد لكننى أؤكد لكم أنهم أشخاص أسوياء ولا يمكن وصفهم بأنهم غير طبيعيين وهذا ما أثار فى نفسى أمنية عزيزة وهى أن أكون واحدا منهم ..هكذا بدأ بيزارو يفكر فى ترك الجيش الشيلى للانضمام للقوات الأمريكية.

يستعيد بيزارو ما حدث بقوله:"إننى أحب الجيش الشيلى.لكن ثمة فرصة بفضل ازدواج جنسيتى للانضمام لجيش دولة لها نفس أهداف الديمقراطية فى مجتمع غربى كما هو

الحال فى شيلى لكنهم هناك يستخدمون قواتهم ويحركونها ويستفيدون منها حقا وصدقا أما هنا فى شيلى فأشعر بأننى مثل طبيب درس لثلاثين عاما لكنه لم يجر أبدا أية عملية لإنسان واحد وأنا رجل مهنى محترف أريد العمل فى مهنتى".وبعد نحو شهر واحد من إبلاغه الأمر لرؤسائه فى شيلى، انخرط بيزارو فى صفوف مشاة البحرية الأمريكية "المارينز" مع تأكيدات بإدخاله فى واجب العمليات بهذه القوات فى غضون ٩٠ يوما ليقول بيزارو: "أحببت ذلك وكنت أسعد إنسان".

بدأ بيزارو مسيرة تدريبه كعسكرى أمريكى محترف فى "جزيرة باريس" الواقعة بكارولاينا الجنوبية ثم فى مدرسة المدرعات الأمريكية بفورت نوكس فى كنتاكى حيث تخرج عام ١٩٩٦ ويقول إن قائد مفرزة المارينز فى فورت نوكس بكنتاكى استدعاه لمكتبه ليدور الحوار التالى: "خوزيه..هل صحيح أنك كنت ضابطا بالجيش الشيلى؟..نعم سيدى..وهل تتحدث الإسبانية؟..نعم وبصورة أفضل من الإنجليزية". اختتم القائد الحوار بقوله لبيزارو: "لعلنا ننجح فى تأمين مستقبل مهنى مشرق لك".وبعد فترة قصيرة من هذا الحوار أرسل بيزارو لقاعدة "كامب ليجونى" فى كارولاينا الشمالية ثم ألحقته قوة المارينز الثانية لعمليات الانتشار السريع بوحدة من وحداتها المتخصصة فى العمليات العسكرية بأمريكا الجنوبية والتى تسمى "اليونيتاس" وذلك لمدة ثلاثة أعوام من عام ١٩٩٦ وحتى عام١٩٩٩.

ويقول بيزارو إنه راح يتنقل على مدى ثلاثة أعوام تالية عبر أمريكا اللاتينية حيث عمل مع القيادة الجنوبية الأمريكية كمترجم لضباط حملوا رتب الليفتنانت كولونيل والكولونيل والأميرال وهم ضباط من البحرية وتشكيلات المارينز كانوا يجوبون أمريكا الجنوبية.وها هو يستعيد تلك الأيام بقوله: "إذا ما كانوا بحاجة لمهمة تستمر ٤٨ ساعة للتباحث مع قائد قوات المارينز البرازيلية فإننى أصحبهم كمترجم وإذا ما كانوا بحاجة لإجراء تدريب عسكرى يستمر ثلاثة أسابيع فى كولومبيا فإننى أذهب هناك بصحبة ليفتنانت كولونيل كمترجم..لقد أحببت ذلك.كانت تجربة رائعة وممتعة للغاية.وزرت كل دولة من دول أمريكا اللاتينية باستثناء بوليفيا.ذهبت للبرازيل والأرجنتين وشيلى والأكوادور

وكولومبيا وفنزويلا وتجولت فى دول كثيرة.وعشت متعة دراسة سبل عرض وتقديم السياسة الخارجية للولايات المتحدة وأجواء سياساتها العسكرية للقوات المسلحة فى أمريكا اللاتينية".

بعد ثلاثة أعوام من العمل مع "اليونيتاس والقيادة الجنوبية الأمريكية قرر بيزارو الانتقال بخبرته للقطاع الخاص.وفى عام ١٩٩٩ كما يقول "عرض خدماته" على شركة الأسلحة الأمريكية "جنرال ديناميكس .وحسب ما يقوله فإن الاتصالات التى كونها أثناء عمله مع العسكريين الأمريكيين فى أمريكا اللاتينية أتاحت له وضعا ممتازا لمساعدة جنرال ديناميكس على زيادة مبيعاتها وتعظيم قدراتها التسويقية فى المنطقة ..."كنت أعرف أن هناك حكومات أمريكية لاتينية بحاجة لطائرات هليكوبتر ومنظومات أسلحة وغير ذلك..اعتقدت أننى استحوذت على درجة معينة من فهم احتياجاتهم ومعرفة موازناتهم واعتماداتهم المالية وإدراك ثقافة الاستهلاك والمصروفات فى هذه الدول وما إلى ذلك من أمور .

تعاقدت جنرال ديناميكس مع بيزارو ووضعته فى منصب رئيس قطاع الشركة الخاص بأمريكا اللاتينية.ويقول بيزارو:"كنت مسئولا عن مبيعات مارك ١٩ وإم كيه ١٩ وجى أو إيه ١٩ وهى قاذفات قنابل أوتوماتيكية وقذائف صاروخية وأنظمة جوية وطائرات هليكوبتر ومدافع محملة على هذه الطائرات".عمل بيزارو فى شركة جنرال ديناميكس لعام ونصف العام ويقول إنه حصل على الكثير من المال سواء من راتبه أو المكافآت والحوافز التى يتقاضاها من الشركة مقابل ترويج مبيعاتها من الأسلحة لحكومات أمريكا اللاتينية حتى أصبح بمقدوره أن يؤسس شركته الخاصة.. وبكلماته المنتشية:"أدركت أن لدى ما يكفى من المال لتأسيس شركتى الخاصة لأعمل لحسابى ولنفسى بدلا من العمل لحساب الآخرين".وفى عام ٢٠٠١ أسس بيزارو شركة "رد تاكتيكا" والتى سميت أيضا "بالشبكة التكتيكية" وهى شركة قُدِّر لها أن تعمل كحلقة اتصال بين حكومات أمريكية لاتينية وبين شركات الأسلحة الأمريكية.ويقول بيزارو:"لأن كل حكومة أمريكية لاتينية لها ملحق عسكرى وملحق بحرى وملحق جوى

وملحق أمني ويعمل كل منهم بمعزل عن زميله وفي مقر منفصل عن الآخر فإن الحساب الفعلي يكون محصلة ١٦ دولة مضروبة في أربعة ملحقين عسكريين وهذا يمثل سوقا كبيرة للغاية بالنسبة لي.وهكذا فإننا نذهب على سبيل المثال إلى السفارة الأرجنتينية ويدور الحوار التالي:صباح الخير أنا مايك بيزارو.مواطن أمريكي كما أنني مواطن شيلي.فأنا صاحب لغتين وثقافتين وأعرف تماما ياسيدي الأدميرال ما تبحثون عنه.تريدون غواصات وطوربيدات ورادارات وأنظمة اتصال إلكترونية ...الخ".

وفي نهاية المطاف أقام بيزارو علاقات ونسج روابط بمعني الكلمة مع كل ملحق دفاعي وعسكري لدول أمريكا اللاتينية "الصديقة" واكتسب صيتا وسمعة حسنة كرجل قادر على إنجاز طلبات دول أمريكا اللاتينية من منظومات الأسلحة المتخصصة التي تنتجها كبريات شركات الصناعات العسكرية.لكن بيزارو ينكر بشدة أنه كان تاجر أسلحة بل ويتهكم على هذا الوصف ويذهب إلى أنه كان يعمل في مجال تجارة المعلومات ويبيع معلومات حيوية" لمسئولين أمريكيين لاتينيين وهي معلومات لاغنى عنها حتى يتسنى لهؤلاء المسئولين أداء مهامهم وهم يدفعون له المقابل..ويشرح بيزارو الأمر بقوله:"إن وظيفة ملحق عسكري هي بحكم تعريفها هدية ومنحة ومكافأة وترقية ثم إنها إجازة في واشنطن فلا أحد يفترض في عالم أمريكا اللاتينية أن الملحق العسكري سيعمل هنا بالفعل.فبالنسبة لنا نحن الأمريكيين اللاتينيين إذا كنت تحمل رتبة الفريق فإنك بإرسالك كملحق عسكري لواشنطن تكون قد رقيت إلى رتبة الفريق أول مع حصولك على إجازة لمدة عام..إنها إجازة مدفوعة الأجر ويصحبتك كل أفراد عائلتك وهكذا فلا بد وأن تستأجر شخصا ما يقوم بأداء عملك بالفعل وبالإنابة عنك مقابل حفنة آلاف من الدولارات كل شهر وهذه ميزة عظيمة وهي بالفعل فكرة جذابة للغاية لمعشر الملحقين العسكريين القادمين من أمريكا اللاتينية".

يقول بيزارو إنه عمل مع الملحقين العسكريين لكل دولة أمريكية لاتينية لتعزيز مكانة هذه الدول لدى الولايات المتحدة.. "أبيع المعلومات لهم حول الأماكن التي يمكن أن يشتروا منها منظومات أسلحة متعددة ومعدات عسكرية ورادارات وقطع غيار وحتي بنادق". كما

با ع بيزارو خدماته لشركات أسلحة وصناعات عسكرية سواء فى الولايات المتحدة أو فى أوروبا وهى شركات تريد أن تنفذ للأسواق فى أمريكا اللاتينية..إنه يقول لهذه الشركات حسنا دعونا نقول إنكم ستدفعون لى عشرة آلاف دولار شهريا ولمدة ثلاثة أشهر وفى المقابل سأزودكم بمعلومات وبيانات كافية حتى يعرف رجال مبيعاتكم أى أبواب يطرقونها وإلى أى ضباط يتوجهون وكيف ومتى وبكم ولأى مدى؟"

يقر بيزارو بأنه راكم الكثير من المال من بيع "معلومات لازمة للعمل" حتى أنه قرر فى بداية عام ٢٠٠٣ أن يبتعد بمسافة عن الشركة ليتمتع بثروته ويعيش متعة خلو البال وأوقات الفرا غ وأن يترك تفاصيل العمل اليومى لشركائه فى رد تاكتيكا".وشر ع بيزارو فى الكتابة بمجلة ألمانية تركز على قضايا التكنولوجيا العسكرية. وفى شهر فبراير ٢٠٠٣ وبينما الولايات المتحدة تستعد لغزو العراق اتصل منتج فى القناة الناطقة بالإسبانية فى شبكة سى إن إن التليفزيونية ببيزارو وطلب منه الحضور لمكتب الشبكة فى واشنطن للتقدم بطلب العمل كمعلق للشبكة حول الحرب.ويقول بيزارو إنه بعد اختباره "عرضوا على العمل فى وظيفة بدوام كامل أثناء الحرب.وهكذا وضعونى فى فندق.نعم فى فندق السى إن إن بالمقر الرئيس للشبكة فى أطلانطا علاوة على الشهر السابق الذى قضيته فى ضيافتهم بواشنطن بالقرب من منزلى.ما أقصده هو أنه كان علىَّ الظهور عدة مرات يوميا ومن هنا فإنهم رأوا أن أقيم فى مكان يسهل عليهم استدعائى منه أى أن أكون تحت الطلب ولذا فقد منحونى راتبا كاملا"

أما شركة رد تاكتيكا" فكانت حسب تعبير بيزارو "تطير أوتوماتيكيا" وها هو يقول إنه أثناء الفترة التى قضاها فى أطلانطا مد جسور الصداقة مع الجنرال المتقاعد ويسلى كلارك القائد الأعلى السابق للقوات المتحالفة التابعة لحلف شمال الأطلنطى "الناتو" والذى سيرشح نفسه فى عام ٢٠٠٤ لاختياره كمرشح للحزب الديمقراطى فى انتخابات الرئاسة الأمريكية فيما كان يقوم أيضا بتقديم تعليقات وتحليلات لشبكة سى إن إن.."إننى فى غاية الحرج لقول ذلك لكنها الحقيقة.فعندما كنت أحتاج لأى استفسار أو مساعدة فى سؤال هام علىّ أن أجيب عنه أتوجه فورا للكوفى شوب الخاص بشبكة

سى إن إن الناطقة بالإنجليزية لأطلب العون من كلارك حول ما ينبغى على أن أقوله من تحليلات على الهواء". ويعترف بيزارو بأنه كان يستخدم تحليلات كلارك فى تعليقاته على شبكة سى إن إن الناطقة بالإسبانية ثم يردد عبارات الإطراء لكلارك المحبوب أو على حد قوله: "ما أحلاه من رجل .

استمر بيزارو فى العمل بدوام كامل فى السى إن إن الناطقة بالإسبانية حتى نهاية شهر أبريل عندما عاد ليركز اهتمامه على شركة رد تاكتيكا. ومع احتلال العراق بدأ يرتاد المعارض العسكرية والمنتديات التسويقية للأسلحة بحثًا عن صفقات جديدة وفى شهر يوليو ٢٠٠٢ توجه بيزارو إلى معرض المعدات البحرية المتطورة فى كوانتيكو بفيرجينيا حيث لفتت "امرأة جميلة للغاية" اهتمامه وهى تقف فى أحد الأكشاك. وتبين أنها ممثلة "بلاكووتر يو إس إيه". وكما يقول بيزارو فإنها كانت ضابطة سابقة بالشرطة ومسئولة عن مبيعات منظومات بلاكووتر للرماية. لم يكن بيزارو قد سمع أبدا من قبل عن بلاكووتر ودخل فى حوار مع السيدة الجذابة التى تمثل هذه الشركة بالمعرض حول إمكانية قيام رد تاكتيكا بتسويق منظومات بلاكووتر.

يستعيد بيزارو ما حدث ويصف منظومة بلاكووتر بأنها "رائعة وبديعة حقا" ويقول إنه أخبرهم بأن بمقدوره مساعدتهم ببيعها فى أمريكا اللاتينية. وبعد السؤال والاستفسار عن أوراق اعتماده اقترحت ممثلة شركة بلاكووتر عليه أن يتوجه لمجمع الشركة فى مويوك.. هكذا ستتغير حياة بيزارو بما سيراه فى هذه الرحلة. وعندما يصف رحلته الأولى لبلاكووتر فى صيف ٢٠٠٢ وفى وقت انتعشت فيه أنشطة المرتزقة ومضت على قدم وساق فى العراق فانه يتحدث بحماس طفل وهو يصف هدايا الكريسماس لأصدقائه فى المدرسة.. ولك أن تسمعه وهو يقول: "شد ما كانت دهشتى وعجبى. هذا جيش خاص فى القرن الحادى والعشرين. شركة خاصة لها تدريبها الخاص وقواتها الخاصة لحماية منشآت الحكومة الأمريكية فى منطقة عمليات حربية.. إنها أشبه بسينما العجائب. هذا كيان هائل ذو تكوينات وتضاريس عسكرية حضرية. نموذج لمدينة كاملة يمكنك أن تتدرب فيها بالذخيرة الحية أو تلهو بالمركبات والطائرات العمودية. ياالله ما

أروعها وما أحلاها.نعم ما أروعها حقا"

حسب بيزارو أنه ذاهب فى الواقع إلى مجرد ميدان متطور ومتعدد الإمكانات لضرب النار والتدريب لكنه يقول عندما وصلت هناك "وجدُت أناسا من كل أنحاء العالم يتدربون..أشخاص من المدنيين والعسكريين وأفراد من الجيش والقوات البحرية والجوية والمارينز والمظليين ورجال الإنقاذ..إنها حقا أشبه بقاعدة عسكرية خاصة..هكذا تخليت فى خمس ثوان عن فكرة مساعدتهم فى بيع منظومات الرماية" وبدأ يحلم كيف يجد لنفسه مكانا داخل هذا الكيان العجائبى.يقول بيزارو إنه لم يكن يريد أن يهدر فرصته مضيفا "ولهذا لم أنبس ببنت شفة والتزمت الصمت . ومع أنه فكر فى إمداد شركة بلاكووتر بعناصر من القوات الشيلية فإن هذه الفكرة لم ترق له لأنه لا يحب القيام بدور ساعى البريد أو الحقيبة المتحركة "فهى مسألة لا أحبها كثيرا. انتابنى حس باطنى، مثلا، لو أننى تمكنت من اختيار عدد كاف من الضفادع البشرية والمظليين ورجال الصاعقة البحرية فى القوات الشيلية وأن أعرف مدى احترافهم ومستوياتهم المهنية وأنهم قد تقاعدوا مؤخرا ومازالوا بكامل عافيتهم ولياقتهم، ولم يتقاعدوا إلا مؤخرا وبعد خدمة ميدانية فى العمليات استمرت لمدة ٢٠ او ١٥ عاما عملوا بعدها رجال أمن فى السوبر ماركت.ما أقصده أنه من المتوجب على نظرياً أن أكون خلاقا وأُبدِع شيئا ما"

يقول بيزارو إنه قضى بضعة أسابيع بعد زيارته لبلاكووتر يتحدث عبر الهاتف مع أناس فى شيلى ..."كنت أتحدث معهم من واشنطن..ارتبطت ببضعة ضباط من حاملى رتبة الليفتنانت كولونيل فضلا عن قلة من الضباط المتقاعدين الذين كانوا يحملون رتبة الميجور وكنت أوجه لهم أسئلة من قبيل:هل بمقدوركم أن تتحصلوا علىَ مائة من رجال الكوماندوز؟..هل يمكنكم تجهيز مائة من المظليين؟..هل بوسعكم تقديم عناصر من الضفادع البشرية وأن تجهزوهم لى فى غضون أسبوعين على أن تكون هذه العناصر من هؤلاء الذين يجيدون الحديث بلغتين؟.وتكون الردود:نعم أو لا أو أوكيه.قد تكون الإجابات:بمقدورى تجهيز ٢٠ شخصا أو:يمكننى الحصول على سبعة أشخاص وقد يقول لى أحدهم :لعل بمقدورى أن أتحصل على ٢٥ شخصا".

أفضت الاتصالات الهاتفية لاجتماعات فى سانتياجو مع مسئولين عسكريين ولكن بيزارو يقول إن المقابلات لم تكن مشجعة بما يكفى فقد استمع لنفس الأقوال مرارا وتكرارا: "هذا الأمر يبدو غير مشروع ومخالف للقانون..لا نحن غير معنيين بهذا الأمر ولا علاقة لنا به..لن يكتب لك النجاح فى مسعاك هذا". غير أن بيزارو يقول إن هذه الردود كانت تشعل حماسه وتحفزه أكثر وتزيده اقتناعا بأنه يفعل الشىء الصحيح.وأحد الأسباب الرئيسية لهذا الاقتناع يرجع إلى أنه كان يتحدث بانتظام مع دوج بروكز رئيس الرابطة الدولية لعمليات السلام"(IPOA) وهو تجمع للشركات العسكرية الخاصة أضحت شركة بلاكووتر من أعضائه البارزين .

"بروكز لم يدخل فى روعى أننى وغد وشرير أمارس أنشطة غير مشروعة وإنما أوحى لى بأننى رجل شاب أعمل بصورة مهنية وأنشطتى مشروعة تماما".هكذا يتذكر بيزارو ويستعيد ما حدث بقوله: "أعنى أننى عقدت اجتماعات لا تحصى مع أصدقائه بمكتبه.كلانا يعيش بواشنطن وأقصد أنه بعد هذه اللقاءات العديدة اقتنعت بأن ما أفعله مشروع وصائب وحق ومن ثم فقد عقدت عزمى على ألا يوقفنى أى شىء".وفى رسالة عبر البريد الإلكترونى اعترف بروكز بأنه التقى بيزارو ولكن "فى مرات قليلة" وقال إنه غير قادر على "تذكر النقاش حول شرعية" خطة بيزارو .

أخيرا وبعد "مئات الاجتماعات" يقول بيزارو إنه وجد أناسا من الجماعة العسكرية الشيلية يؤمنون بفكرته فى تزويد شركات أمريكية بقوات شيلية وها هو يقول: "التقيت بالكولونيل المناسب وبالليفتنانت كولونيل المناسب وبالأميرال المناسب وبالعسكريين المتقاعدين المناسبين".

استعان بيزارو ورفاقه بخدمات شركة شيلية خاصة للموارد البشرية للمساعدة فى تجنيد رجال لتنفيذ خطتهم وعندما شعر بيزارو بأن الخطة تسير للأمام عاد للولايات المتحدة ليعرض ما فعله على شركة بلاكووتر فى شهر أكتوبر ٢٠٠٢، ويقول إنه تحدث مع جارى جاكسون رئيس بلاكووتر ويتذكر أن "جارى لم يستسغ هذا المشروع".."أستطيع أن أقول إنه طردنى من مكتبه وهو يصيح فى وجهى:لن نفعل ذلك

فهذا جنون مطبق..اخرج من هنا". وبعد ذلك ذهب ليجس نبض إريك برينس ويلتقيه فى مكتبه بفرجينيا. وعلى حد قوله ما أن دخل عليه فى المكتب حتى بادره بالسؤال:"من أنت بحق الجحيم؟!" "اسمى مايك بيزارو وأطمع فى خمس دقائق من وقتك ياسيدى"..ورد برينس بجفاء:"ثلاث دقائق فقط"..لكن الموقف تغير بعد أن عرض بيزارو فكرته بوضوح جذاب حول تزويد شركة بلاكووتر بقوات شيلية. فسرعان ما رحب برينس بالفكرة وراح يتأملها بإعجاب وهو الذى خدم أثناء عمله بالقوات البحرية الأمريكية فى شيلى ويحترم كثيرا رجال القوات المسلحة الشيلية ويعرف بالضرورة رجال القوات البحرية والسيلز فى هذا البلد.وكما يقول بيزارو فإن برينس كون صداقات أثناء فترة عمله بشيلى ويعرف مستوانا المهنى الجيد وتوجهات التدريب وإجادة جنودنا لأكثر من لغة فضلا عن النوعية الراقية لضباطنا".يستعيد بيزارو مرة أخرى وقائع اللقاء عندما قال له برينس:"اسمع يابيزارو لقد أقنعتنى.وحتى إذا أحضرت لى رجلاً. نعم مجرد رجل واحد من القوات البحرية الشيلية ليعمل معى فإن الأمر يستحق الاهتمام.فلتمض قدما ولك كل إعجابى".وعند مغادرته مكتب فرجينيا قال له برينس:"عندما تكون مستعدا للعرض اتصل بنا هاتفيا وسأرسل حفنة من خبراء التقييم لشيلى".وفى الصباح التالى كان بيزارو على متن طائرة ليقفل عائدا لسانتياجو.

لدى عودته لشيلى تحرك بيزارو بسرعة وقام مع شركائه فى العمل بتأسيس شركة تحت اسم جروب تاكتيكو" كما استأجر مزرعة فى كاليرا دى تانجو جنوب سانتياجو ليعاين فيها الجنود المرشحين.كان المدير التجارى لبيزارو هو هيرمان برادى ماكيافيلو ابن هيرمان برادى روشيه وزير الدفاع السابق لبينوشيه.وفى الثانى عشر من أكتوبر ٢٠٠٣ نشرا إعلانا فى صحيفة الميركوريو وهى صحيفة يومية مرموقة وجاء فى هذا الإعلان:"شركة دولية تطلب ضباطا سابقين بالقوات المسلحة للعمل بالخارج.كما تطلب مساعدين وجنودا سابقين يفضل أن يكونوا ممن خدموا فى القوات الخاصة ويشترط الحالة الصحية الجيدة واللياقة البدنية العالية وإجادة اللغة الإنجليزية.لن ينظر فى أى طلبات غير مصحوبة بشهادات التقاعد وستجرى المقابلات يوميا من الساعة الثامنة و٤٥ دقيقة صباحا وحتى الخامسة بعد الظهر اعتبارا من العشرين إلى الرابع والعشرين من

شهر أكتوبر .

ومع بدء المقابلات التى أجراها بيزارو ورفاقه مع أصحاب الطلبات أشيع أن الراتب سيصل لثلاثة آلاف دولار أمريكى شهريا وهو مبلغ يتجاوز بكثير الراتب الشهرى الذى يتقاضاه الجندى فى شيلى والذى لا يزيد عن ٤٠٠ دولار. وقال جندى سابق من بين المتقدمين للحصول على وظيفة لجريدة لاتيرسيرا الشيلية :"أبلغنا بأن شركة أمن أجنبية بحاجة لنحو ٢٠٠ شخص من العسكريين السابقين للعمل كحراس فى العراق". وقال شخص آخر:"وددت لو فزت بهذه الوظيفة فهم سيدفعون لى ٢٥٠٠ دولار وأخبرونى فى حصنهم بأن الوظيفة تستلزم السفر للعراق لحراسة العديد من المنشآت وآبار النفط"..لم يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى انهمر سيل من أصحاب الطلبات على بيزارو ولم يقتصر الأمر على العسكريين المتقاعدين وإنما أبدى عسكريون عاملون رغبتهم فى التقاعد حتى يتسنى لهم الالتحاق بهذه القوة الأمنية الخاصة.

سرعان ما تراكم أكثر من ألف طلب أمام بيزارو ليفاضل بينها ويختار من يروق له من المتقدمين ولكن قبل أن يهنأ بهذه البداية بدأت الصحافة الشيلية تتحدث عن أنشطته وذكرت تقارير أن قائدا بالقوات البحرية الشيلية يقال إنه انتهك الإجراءات العسكرية وأعلن عن وظائف خاصة للجنود فيما اتهم نواب اشتراكيون رفاق بيزارو باقتناص الجنود. وبعد أيام من نشر الإعلان بالصحيفة بدأ نواب بالبرلمان يطالبون بالتحقيق مع بيزارو ويقولون إن وزارة الدفاع -لا شركة خاصة- هى الجهة الوحيدة المخولة وبناء على طلب الأمم المتحدة باختيار أفراد عاملين بالجيش لمساندة عمليات حفظ السلام بهذا البلد ومن ثم فإن أية طريقة أخرى خلاف ذلك تُعَد غير مشروعة كما ذكرت صحيفة لاتيرسيرا بُعيد الإعلان عن مشروع بيزارو .

ردَّ بيزارو حينئذ بأن أنشطته "مشروعة تماما وتتسم بالشفافية الكاملة". وتعرضت الصحافة الشيلية أيضا لجدل حدث فى شهر يوليو عام ٢٠٠٢ عندما نسبت صحيفة دو برازيل البرازيلية لبيزارو قوله إن أكاديمية الحرب الشيلية تدرس خطة تقضى بمشاركة ٢٦٠٠ جندى من الولايات المتحدة وشيلى والأرجنتين وأرجواى والإكوادور وبيرو فى

معارك كولومبيا ضد متمردي جماعة فارك على أن يكون ذلك تحت مظلة الأمم المتحدة.وهكذا وجدت وزارة الدفاع الشيلية نفسها مضطرة لإصدار بيان نفى لمعالجة الموقف المحرج بين شيلى وكولومبيا والناجم عما ذكره بيزارو.كما أثير لغط فى شيلى وقيل إن بيزارو يعمل مع السى آى ايه.."الظاهر أن مايك بيزارو عميل للسى آى إيه ومدعوم من الإف بى آى والقوى الإمبريالية فى الولايات المتحدة ويبدو جليا أنه يعمل لصالح الرئيس بوش ..هكذا يستعيد بيزارو بسخرية بعض الأقاويل فى سياق اللغط حوله ويستشهد بما قيل حول تردده على مزرعة الرئيس بوش فى تكساس للتأكيد على أن هذه الأقاويل محض هراء وجهل مطبق على حد وصفه.

ووسط ذلك كله مضى بيزارو فى طريقه وراح يعمل بصورة محمومة مع رفاقه فى المزرعة لتصفية أصحاب الطلبات من الرجال الذين سيقدمونهم للقائمين على التقييم فى بلاكووتر وخفض عددهم من ألف متقدم إلى ٣٠٠ شخص فحسب.وفى هذا السياق اشتروا عدة بنادق لعب مصنوعة من السيراميك والمطاط والمدهونة باللون الأسود.وبحلول نهاية شهر أكتوبر كان بيزارو قد اختار رجاله ال٣٠٠ واتصل بإريك برينس ليقول له:"نحن جاهزون..أرسل رجالك"..أبلغه برينس بأنه مسافر لسويسرا لكنه أعطاه رقم الهاتف الخلوى لجارى جاكسون.ولأنه على علم بتوجه جاكسون حيال المشروع فقد طلب برينس من بيزارو الانتظار لعدة دقائق قبل أن يهاتف جاكسون حتى يكون قد تمكن من إحاطة رئيس شركة بلاكووتر علما بالموضوع

يستعيد بيزارو ما حدث بقوله:"ثم اتصلت هاتفيا بجارى ولم يكن سعيدا فيما يبدو وقال لى:حسنا..لقد تحدثت لتوى مع إريك..أحسب أن هذا وقت ضائع وعلى أى حال سأرسل المقيمين الثلاثة.لكن عليك مايك أن تفى بوعدك وكفى إهدارا لوقتى".يقول بيزارو:"كان سلبيا للغاية ولكن هذا هو جارى وهذه هى طريقته".

ولدى عودته للمزرعة فى شيلى طلب بيزارو ورفاقه من الرجال ال٣٠٠ الذين اختاروهم للعرض على مُقيمى بلاكووتر الاستعداد لمقابلة المُقيّمين الأمريكيين وخاطبهم بقوله:"سيوجهون لكم أسئلة أساسية وسيختبرون مستوى مهاراتكم القيادية وقدرات

الذكاء والتدريب واللياقة البدنية وما إلى ذلك.سيتم تقسيمكم على ثلاث مجموعات ليكون هناك مُقوم أمريكى لكل مائة شخص وسيستغرق ذلك يوما بأكمله ولذا عليكم التحلى بالصبر..ليس لى أن أقدم وعودا لكننى أقول لو استطعنا أن نترك انطباعات طيبة لدى هؤلاء الناس فلعلهم يتعاقدون معنا للعمل فى العراق لحماية السفارة والقنصليات الأمريكية".

وفى الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر عام ٢٠٠٣ وصل فريق المُقيمين التابع لشركة بلاكووتر إلى شيلى ويقول بيزارو عن هؤلاء المُقيمين:"كان الرجال الثلاثة من السيلز السابقين فى البحرية الأمريكية وبدوا كأشخاص رائعين يصل طول كل منهم لستة أقدام وقد وهبوا بسطة فى الأجسام ووسامة وكانوا محترفين بمعنى الكلمة وكل منهم يتحدث بأكثر من لغة ..الحقيقة أنهم فى غاية الروعة وقاموا بتقييم رجالنا الثلاثمائة فى غضون ثلاثة أيام ثم عادوا للولايات المتحدة لأعيش أطول أسبوعين فى حياتى لأنه لم تصل أى أخبار من بلاكووتر على مدى ١٤ يوما"

وفى الوقت ذاته كان الجدل يتصاعد فى شيلى حول أنشطة بيزارو الذى يقول إنه قبيل ساعات قليلة من وصول المُقيمين الثلاثة للمزرعة عرضت محطة تليفزيونية لقطات لما يحدث داخل هذه المزرعة.. واتهمت محطة التليفزيون الوطنية فى شيلى بيزارو "بتدريب جيش خاص" تحت إشراف عسكريين أمريكيين.ويضيف بيزارو:"قدمنى السبق الإخبارى كما لو كنت النسخة الأمريكية اللاتينية من أرنولد شوارزينجر وكان هذا عبثاً ومحض سخف.وراحت عائلتى تصرخ عبر الهاتف وتطلبنى أمى لتقول لى:مايك:ما الذى تفعله؟.سنذهب للسجن..لا يا أمى هذه بندقية وهمية .لكنها تبدو حقيقية كما تبدو أنت فى طريقك للضياع..وحتى صديقتى تخلت عنى .وعلى الرغم من الجدل المتصاعد والصمت من جانب بلاكووتر فإن بيزارو لم يتخل عن الأمل فى أن خطته سيكتب لها النجاح.

وجاء يوم الثامن عشر من ديسمبر ليتلقى بيزارو رسالة عبر البريد الإلكترونى من جارى جاكسون يقول فيها:نحن جاهزون.عليك أن تُحضِر مائة رجل فى شهر فبراير

للولايات المتحدة لنقوم بتقييمهم، ويقول بيزارو إنه اختار "أفضل مائة رجل" واستعد للتوجه إلى كارولاينا الشمالية فيما عُزِل الجنود الشيليون لمدة ٤٨ ساعة بشيلي قبيل الرحيل ولم يسمح لهم بالاتصال بعائلاتهم ثم توجهوا للسفارة الأمريكية في سانتياجو التي منحتهم بسرعة تأشيرات دخول متعددة المرات .وفي الرابع من شهر فبراير عام ٢٠٠٤ وصل بيزارو ومعه ٧٨ رجلا من الجنود الشيليين إلى مويوك "للتقييم" وهي الكلمة التي يُصر عليها بيزارو بدلا من التدريب، لأن التدريب في هذه الظروف أمر غير مشروع.وهكذا فهو يقول إنه جرى تقييم مهارات كل فرد من هؤلاء الرجال في اللغة الإنجليزية والخدمات الطبية والإسعافات والرماية بالبندقية والطبنجة وقيادة السيارات والاتصالات الهاتفية والقدرات القيادية.

وشعر بيزارو بإعجاب إزاء تمرين استخدم فيه مقيمو بلاكووتر لعب عرائس في صورة جنود لعرض سيناريوهات متعددة يمكن أن تحدث في العراق وهم يوجهون الأسئلة للشيليين حول كيفية تعاملهم مع الموقف في كل حالة.كان الأمر كما يصفه بدهشة المعجب:"في غاية الذكاء وغير مكلف أبدا لكنه يختبر قدرات رجالي على الوجه الأكمل".وعلى أي حال فقد قضت الدفعة الأولى المكونة من ٧٨ شيليا عشرة أيام في بلاكووتر ويذهب بيزارو إلى أن المُقيمين "كانوا في غاية الإعجاب" برجاله ولم يعد منهم لشيلي سوى رجل واحد لأنه يعاني من مشكلة في توجهاته ومواقفه. وفي الرابع عشر من فبراير ٢٠٠٤ قامت شركة بلاكووتر بترحيل المجموعة الأولى من رجال الكوماندوز الشيليين جوا من كارولاينا الشمالية لبغداد "وجرى نشرهم فورا" على حد قول بيزارو ليتعاقد على مجموعة جديدة مكونة من ٧٨ رجلا في غضون ٢٤ ساعة.

"هكذا طرت مجددا لبلاكووتر في نهاية شهر فبراير ومعي المجموعة الثانية".ذلك ما يقوله بيزارو وهو يستعيد باعتزاز بالغ أن جاري جاكسون الذي تشكك في المشروع منذ البداية قد تحدث لصحيفة شيلية في ذات اليوم الذي توجهت فيه المجموعة الأولى من الشيليين للعراق وقبل الموعد المحدد للسفر وفقا للجدول الزمني.قال جاكسون لصحيفة لاتيرسيرا:"لقد أظهروا قدرات مدهشة وكانوا محترفين بالفعل ولهذا فقد غادروا اليوم

على متن طائرة توجهت صباحا للشرق الأوسط".ونكر جيم سيراوسكى مدير التدريب فى بلاكووتر أن عملية الانتشار تمت بسرعة لأن رجال الكوماندوز الشيليين لم يكونوا بحاجة لتدريب إضافى يتجاوز ما تلقوه فى القوات المسلحة الشيلية "فمعرفتهم توفر لهم المهارات الضرورية لأداء مختلف المهام. أما بيزارو فيقول إن الرجال الشيليين من المجموعة الأولى كانوا على مستوى رفيع من التدريب وبلغ متوسط أعمارهم ٤٣ عاما "وكانوا رجال كوماندوز محنكين وناضجين حقا".

بمجرد وصولهم للعراق كُلفوا بواجبات "حراسة ثابتة" لمنشآت ومبان مثل مقر وزارة الخارجية وسلطة التحالف المؤقتة. ويوضح بيزارو أن المجموعة الأولى من القوات الشيلية نشرت فى السماوة لحماية مبان مثل المقر الإقليمى فى الديوانية ومكاتب سلطة التحالف المؤقتة.وتوجهت الدفعة الثانية مباشرة لفندق فى مدينة الحلة تحول إلى مبنى للاحتلال كما تولت حراسة مقر سلطة التحالف المؤقتة فى مدينة كربلاء المقدسة عند الشيعة.وقال كارلوس فامجينت الضابط السابق بالجيش الشيلى لصحيفة لاتيرسيرا: "كنا واثقين من أنفسنا فهذه المهمة ليست جديدة علينا وهى فى نهاية المطاف امتداد لمسيرتنا كعسكريين محترفين". أما جون ريفاس رجل المارينز السابق فقال للصحيفة: "لم أشعر بأننى من المرتزقة".

سافر بيزارو إلى العراق مرتين لمتابعة رجاله المتعاقدين مع بلاكووتر وبقى هناك لمدة شهر وتجول فى كل المواقع "من بغداد للبصرة" حيث انتشر الشيليون.وها هو يقول: "كنا ناجحين.فنحن لا نتربح من الموت ولا نقتل الناس..لا نطلق الرصاص ولا نعمل فى الشوارع المفتوحة.نحن نقدم خدمات حراسة أمنية ثابتة ولا نتعامل مع العراقيين كما لا نقوم بدوريات فى الشارع العراقى ..أبدا لا نتماس ولا نتحدث ولا نتدخل أو نشتبك بأى شكل أو صورة مع المدنيين فى العراق". ولكن الصحفى لويس إى فى نقير ذكر فى تقرير على إثر وصول الشيليين للعراق: "حسب تقديرات صحف فى شيلى فإن هناك نحو ٣٧ شيليا فى العراق من العسكريين المخضرمين من حقبة بينوشيه.وشعر مسئولون بالحكومة فى سانتياجو بالتوجس لأن أشخاصا حصلوا على

حصانة من الملاحقات القضائية فى شيلى شريطة تقاعدهم واعتزالهم وانفصالهم عن أنشطتهم العسكرية التى عرفها ماضيهم هم الآن فى العراق .

يقول بيزارو إن بلاكووتر أُعجبت بالشيليين لدرجة أنها كفت عن جلبهم بصورة جماعية للتقييم فى كارولاينا الشمالية.وبدلا من هذه الطريقة قال بيزارو إنه سيحضر معه ٢٠ رجلا كل شهر لُجمع بلاكووتر فيما يطير باقى الرجال مباشرة من سانتياجو للأردن ليجرى تقييمهم فى عمان من جانب مسئولين بشركة بلاكووتر هناك قبل نشرهم فى العراق.."لقد خلقنا مستوى من الارتياح والاحتراف والثقة حتى اعتادت بلاكووتر علينا وأصبحنا مألوفين لدى الشركة" .هكذا يتحدث بيزارو ويضيف:"بالثمن الذى يدفعونه فى بلاكووتر لعسكرى أمريكى سابق أصبحوا يحصلون على أربعة وأحيانا خمسة من رجال الكوماندوز الشيليين".ويصف نهم بلاكووتر لمزيد من الشيليين بأنه "كالعطشان الذى لايُروَى ظمؤه أبدا أبدا"

والحاصل أن بيزارو زود شركة بلاكووتر وشركات أخرى بـ٧٥٦ جنديا شيليا على مدى عامين وشهر واحد.وبحلول شهر مارس من عام ٢٠٠٤ كان جارى جاكسون يجهر على رءوس الأشهاد بتبنيه للقوات الشيلية ومراهنته على هؤلاء الجنود القادمين من شيلى.وفى مقابلة مع جريدة الجارديان أوضح جاكسون أن شيلى هى الدولة الأمريكية اللاتينية الوحيدة التى تستأجر بلاكووتر منها رجال كوماندوز للعمل فى العراق.وقال فى هذا السياق:"طفنا ننقب بين أربعة أركان المعمورة وفى أقاصى الأرض للعثور على محترفين وها نحن نخرج برجال الكوماندوز الشيليين ونجد أنهم رجال يُجسدون معنى الاحتراف وينسجمون مع نظام بلاكووتر ويتوافقون مع معاييرها..لم نُدِر الأمور بصورة عشوائية ونختار أى أشخاص وإنما خضع من اخترناهم للعمل معنا لفحص دقيق فى شيلى وكانوا من أصحاب الخبرات والخلفيات العسكرية فهم ليسوا من فتيان الكشافة".

وردا على اتهامات مشرعين شيليين بأن أنشطته غير مشروعة والرجال الذين يُجندهم هم "مرتزقة"-قام بيزارو بتسجيل شركته فى أرجواى لتفادى التعرض لمشاكل قانونية فى شيلى وهكذا فإن العقد أُبرم فى نهاية المطاف بين بلاكووتر وشركة واجهة فى

أرجواى حملت اسم نيسكوين ورغم ذلك ادعى بيزارو فى شهر أبريل عام ٢٠٠٤ أنه" التزم بالقانون تماما و٢٤ قيراطا. فنحن صامدون أمام أى هجمات وليس بمقدورهم أن يرغمونا على التوقف". ولكن مع انتشار قصص عن الاستعانة برجال كوماندوز شيليين تلقوا تدريباتهم فى ظل نظام بينوشيه هبت عواصف من الانتقادات الحادة فى شيلى التى كانت كعضو مناوب فى مجلس الأمن الدولى التابع للأمم المتحدة تعارض الحرب على العراق .

"أثار وجود قوات شبه عسكرية شيلية فى العراق استنكارا عارما بين الشعب الشيلى الذى كانت نسبة تصل إلى ٩٢ فى المائة منه قد رفضت قبل عام واحد بالضبط تدخل الولايات المتحدة فى هذا البلد ، كما قال الكاتب الشيلى روبيرتو ماركيز فى شهر يونيو عام ٢٠٠٤ وهو يتحدث أيضا عما تسبب فيه ذلك من إثارة الحنق والاشمئزاز بين ضحايا نظام بينوشيه. وقال تيتو تريكوت وهو أستاذ شيلى فى علم الاجتماع تعرض للسجن والتعذيب أثناء النظام الديكتاتورى :"إنه لأمر مثير للغثيان والاشمئزاز أن يُنظر لضباط شيليين كجنود من معدن جيد بسبب الخبرات التى اكتسبوها فى سنوات الديكتاتورية". فرجال الكوماندوز الشيليون الذين يعملون لحساب بلاكووتر "ثُمنوا لخبراتهم فى الخطف والتعذيب وقتل المدنيين العزل. وما كان لابد وأن ينظر له كعار قومى تحول إلى ميزة فى السوق بسبب خصخصة الحرب العراقية وكان كل ذلك ممكنا ليس فحسب بسبب ازدراء الولايات المتحدة المطلق لحقوق الإنسان وإنما أيضا لأن العدالة لم تتحقق فى شيلى. ومن هنا فإن عسكريين كان من الواجب أن يكون مكانهم هو السجن للجرائم البشعة التى ارتكبوها فى ظل النظام الديكتاتورى راحوا يتجولون بحرية فى شوارع بلادنا وكأن شيئا لم يحدث.. لا بل إنهم يُكَافَئون الآن على ماضيهم الإجرامى".

ويقول الصحفى جوستافو جونزاليز إن بعض الشيليين الذين يعملون لحساب شركة بلاكووتر "هم من العسكريين الذين سُرحوا من الخدمة العاملة بمقتضى خطة لتحديث القوات المسلحة سهر على تنفيذها فى الجيش القائد العام الحالى الجنرال لويس اميليو

تشيرى. ومثلما فعل سلفه الجنرال ريكاردو إيزوريتا الذى حل محل بينوشيه فى عام ١٩٩٨ كقائد عام للجيش قام تشيرى بحملة تطهير حذرة لكنها فاعلة وأرغم فى سياقها عددا من الضباط وضباط الصف على التقاعد لضلوعهم فى القمع الديكتاتورى الذى أسفر عن مقتل أو اختفاء نحو ثلاثة آلاف شخص.

على الرغم من الجدل المتصاعد فى شيلى حول تصدير "مرتزقة شيليين" لخوض الحرب، ومعارضة الغالبية العظمى من الشيليين-بما فى ذلك الحكومة المنتخبة-فإن الأمور سارت بسلاسة بالنسبة لبيزارو حتى أنه توقع فى صحف شيلية أنه بحلول عام ٢٠٠٦ سيكون قد نشر ثلاثة آلاف شيلى فى العراق. وفى شهر سبتمبر عام ٢٠٠٤ قامت شركة جلوبال جاردز الجديدة لبيزارو والتى قال عنها إنها منمذجة على شركة بلاكووتر بنشر إعلان آخر فى جريدة إل ميركوريو يطلب هذه المرة طيارى هليكوبتر وفنيين ميكانيكيين لتشغيل رحلات تاكسى جوية" لرجال الأعمال الذاهبين والقادمين من العراق. وذكرت صحيفة لاتيرسيرا أن الطيار سيتقاضى ١٢ ألف دولار أمريكى شهريا بينما سيتقاضى الميكانيكى نحو أربعة آلاف دولار. وفى غضون ساعات تقدم ٤٠ طيارا و٧٠ ميكانيكيا بطلبات مشفوعة بخبراتهم العملية. لكن بيزارو ارتكب حينئذ خطأ كبيرا فى حساباته.

فى ذروة عمليته فى أواخر عام ٢٠٠٤ قام بيزارو بتغيير مساره بعيدا عن شركة بلاكووتر وبدأ فى الوقت ذاته يعمل مع الشركة التى تنافسها مباشرة وهى شركة ترايبل كانوبى. ويستعيد بيزارو ما حدث بقوله: "بدأت ترايبل كانوبى تطلب منى مئات ومئات من المظليين الشيليين السابقين لأداء مهام أمنية ثابتة فى العراق". ولأنه يتوق لتوسيع نطاق نشاطه وأعماله فهو كما يقول زود هذه الشركة بـ٤٠٠ حارس شيلى وأضاف: "وكانت هذه خلطة سيئة فأنا لم أكن أعرف أبدا مدى الكراهية التى تكنها كل من الشركتين للأخرى. وعندما نما لعلم شركة بلاكووتر ما يحدث والصفقة التى أبرمها مع ترايبل كانوبى أبلغه جارى جاكسون بأن بلاكووتر قررت إنهاء الشراكة.

"جارى قال لى إنه يشعر بأنه تعرض لخيانة وأن ما فعلته لا يُغتفر.. لا يستطيع أن ينسى

أو يغفر أو يصفح عنى لأننى خنت ثقته. ثم أنه -وهذا صحيح- هو الشخص الذى ساعدنى أساسا لتأسيس شركتى"..هكذا يكشف بيزارو عما حدث ويقول إنه شعر بندم بالغ لأن تعاقداته توقفت مع بلاكووتر موضحا أن الرجال الذين كان يزود بهم هذه الشركة كانوا "جنودا من الطراز الممتاز وعلى أعلى مستوى" ويجيدون تماما الحديث بلغتين وهم من الرجال الذين خدموا من قبل فى القوات الخاصة أما شركة ترايبل كانوبى فهى مهمومة برخص الأسعار ولا تريد أن تدفع كثيرا ومن هنا فهى تريد "رجال درجة ثانية وأسعارهم رخيصة" أى من جنود المشاة العاديين الذين تقاعدوا وليس لديهم سوى مهارات لغوية محدودة وأيضا خبرات عملياتية محدودة.

وهكذا قررت بلاكووتر عدم تجديد تعاقداتها مع بيزارو ليقول بخيبة أمل واضحة: "انتهى الأمر بخسارتى لبلاكووتر. خسرت هذه الشركة المدهشة". وحتى تزيد بلاكووتر من آلامه وإهانته عمدت للتعاقد مباشرة مع بعض رجال الكوماندوز الذين كانوا تابعين لبيزارو. ورغم خيبة أمله من مسلك شركة بلاكووتر وشعوره بالإخفاق فقد ذهب إلى أن "الأنباء الطيبة هى حصول شيليين على كثير من المال".

وبعد أن خسر تعاقداته مع بلاكووتر استمر بيزارو فى تقديم جنود لترايبل كانوبى وبووتس آند كووتس وهى شركة فى تكساس متخصصة فى إخماد حرائق آبار النفط. وعرف جنود الكوماندوز الشيليون التابعون لبيزارو "بالبلاك بنجوينز" وهو الاسم الذى اختارته بلاكووتر كما يقول لرجاله "ذلك أننا جئنا من أرض من المنطقة القطبية الجنوبية. من أرض الثلوج.. لأننا رجال قصار القامة ومن أصحاب اللون الداكن ونمشى بتؤدة مع الاستعداد الكامل لأداء مهامنا على خير وجه فقد أطلقوا علينا اسم البنجوينز" أى طيور البطريق التى تتخذ من المنطقة القطبية الجنوبية موطنا لها. واتخذ بيزارو من هذا الاسم علامة لقواته ليستحدث شيئا أقرب للوجو لرجاله. وها هو يضيف أن "البلاك بنجوينز" كانت أيضا محاولة" لمحاكاة بلاكووتر والتشبه بهذه الشركة".

واعتبارا من شهر يوليو عام ٢٠٠٥ بدأت بلاكووتر، كما يقول بيزارو، فى عملية إحلال جنود أردنيين من ذوى الأسعار الرخيصة محل جنوده الشيليين ويصف هؤلاء الجنود

الأردنيين بأنهم جنود درجة ثالثة على وجه اليقين..لا يتحدثون الإنجليزية ولا يتمتعون بخبرات عسكرية يعتد بها..إنهم مجرد مجندين أردنيين".وعندما توترت علاقته ببلاكووتر باتت المنافسة على حد قوله منهكة ومضنية لأن "مشاريع إعادة إعمار العراق" حُبِست في قمقم ومُنعت من الانطلاق الأمر الذى يعنى أن هناك قلة من المشاريع يمكن للشركات الخاصة حراستها.وبدأت شركات عدة فى استئجار جنود أقل تدريبا وأرخص ثمنا وها هو يقول:"كنا نتنافس مع جنود من السلفادور وبيرو ونيجيريا والأردن وفيجى.لكن لم يكن بمقدورنا أن نفوز فى المنافسة فأسعارنا ثلاثة أضعاف أسعارهم".

خطة بلاكووتر لكولومبيا..

فى غضون ذلك وشأنها شأن العديد من الشركات العسكرية الخاصة، راحت بلاكووتر تُدّول قواتها فى العراق وتُوسع نطاق اختياراتها ولا تكتفى بالشيليين بل تستأجر جنودا كولومبيين لنشرهم فى الأراضى العراقية.وفى شهر يوليو عام ٢٠٠٥ شرع جيفرى شيبى الذى عمل من قبل لحساب شركة داين-كورب الأمنية الأمريكية الخاصة فى تحرك لتسويق قوات كولومبية لشركات تعمل بالعراق..."هذه قوات ظلت تحارب الإرهابيين على مدى ال٤١ سنة الأخيرة"..هكذا كتب شيبى على موقع إلكترونى فى شبكة الإنترنت للإعلان عن مزايا استئجار قوات كولومبية.وقال فى إعلاناته :"هؤلاء الجنود دُربوا على أيدى رجال البحرية الأمريكية فضلا عن عناصر إدارة مكافحة المخدرات فى الولايات المتحدة للقيام بعمليات لمكافحة المخدرات والإرهاب فى غابات وأحراش كولومبيا وأنهارها"

وعندئذ عرض شيبى خدمات ما يربو على الألف رجل من الجنود السابقين وضباط الشرطة فى كولومبيا الذين تلقوا تدريبات أمريكية.وكأحد رجال سلاح الجو الأمريكى المحنكين كما يصف نفسه-خلص شيبى لهذا التصور بعد زيارة بغداد ومعاينة السوق وها هو يقول:"إن وزارة الخارجية الأمريكية مهتمة للغاية الآن بتوفير المال وترشيد الإنفاق بشدة على أغراض الأمن.ولأنهم هبطوا بالأسعار فإننا نبحث عن أناس من العالم الثالث لملء الفراغ وشغل الوظائف".وحينئذ كما ذكرت صحيفة لوس أنجيليس

تايمز أرسلت بلاكووتر نحو ١٢٠ كولومبيا للعراق وإن كان جارى جاكسون قد أحجم عن تأكيد ذلك للصحيفة فإن الأمر لم يعد بالوسع إنكاره بعد عام عندما كشف جنود كولومبيون المستور وتحدثوا عما اعتبروه غشا تعرضوا له من جانب شبركة بلاكووتر فى الرواتب التى تقاضوها ببغداد.

فى أواخر شهر أغسطس عام ٢٠٠٦ ادعى ٣٥ جنديا كولومبيا من الذين تعاقدت معهم بلاكووتر للعمل بالعراق فى مقابلات مع مجلة سيمانا الكولومبية أن هذه الشركة اتبعت أسلوب الغش معهم وكانت تدفع للفرد منهم ٣٤ دولاراً أمريكيا يوميا فحسب مقابل وظيفة يتقاضى عنها نظرائهم الأمريكيون رواتب أعلى كثيرا. وقال ايستيبان أوزوريو الكابتن المتقاعد بالجيش الكولومبى إن القصة بدأت فى كولومبيا فى شهر سبتمبر ٢٠٠٥ وحسب روايته: "هذا ما كان عندما التقيت بجاويش قال لى: سيدى. إنهم يجندون أناسا لإرسالهم للعراق وهم يدفعون جيدا. يدفعون شهريا ما يصل إلى ستة آلاف أو سبعة آلاف دولار أمريكى دون استقطاعات أو ضرائب. لم لا نذهب ونقدم لهم أوراقنا". يقول أوزوريو لمجلة سيمانا: "هذا الرقم أدار عقلى". أما خوان كارلوس فوريرو الميجور السابق بالحرس الوطنى فيقول: "لم أتخيل فى حياتى أبدا أن أتقاضى كل هذا المال. ومن الذى لا يسيل لعابه لوظيفة مأمولة يمكن أن يحصل فيها على ستة أو سبعة أضعاف ما يتقاضاه فى وظيفته هنا"؟!.

بعد أن سمع عن فرص العمل بمال وفير فى العراق ذهب فوريرو إلى مكتب تجنيد فى بوجوتا ليقدم أوراقه. وهو يستعيد الوقائع بقوله: "الشركة كان اسمها إى دى سيستمز. وهذه الشركة تمثل شركة أمريكية اسمها بلاكووتر وهى من أكبر مقاولى الخدمات الأمنية الخاصة فى العالم وتعمل لحساب حكومة الولايات المتحدة". يقول فوريرو إنه عندما وصل الى إى دى سيستمز شعر بسرور لرؤية العديد من الضباط السابقين من بينهم الكابتن أوزوريو الذى كان يعرفه. ويتذكر أوزوريو أن نقيبا متقاعدا بالجيش يدعى جونزالو جيفارا وجه التحية للرجال ورحب بهم.. "قال لنا إننا سنذهب أساسا لتأمين منشآت عسكرية فى العراق وسيكون الراتب الشهرى نحو أربعة آلاف

دولار .هكذا تبددت شائعة راتب السبعة آلاف دولار لكن بصرف النظر عما قيل فإن الراتب المعروض كان جيدا جدا"

وفي أكتوبر ٢٠٠٥ قال الرجال إنهم أُخطروا بمراجعة معسكر تدريب في إسكولا دي كاباليريا "مدرسة الخيالة" الواقعة شمال بوجوتا حيث قدم لهم عسكريون أمريكيون متقاعدون برامج ومناهج تتنوع ما بين معلومات وملخصات عن العراق و"العـر واستخدام الأسلحة والرماية.وقال مسئول بالحكومة الكولومبية لمجلة سيمانا إن الجيش "مد يد العون" بإعارة إحدى قواعده لعملية التدريب "فهذه شركة مدعومة من الحكومة الأمريكية التي ناشدت الجيش للتعاون وهو ما يتضمن السماح باستخدام منشآت عسكرية شريطة عدم تجنيد أفراد ميدانيين عاملين".

وعلى إثر انتهاء التدريب تم إبلاغ الرجال، كما يقولون، بالاستعداد للانتشار لحظة تلقي الإخطار.ولم يحدث ذلك إلا في في شهر يونيو عام ٢٠٠٦ عندما أبلغتهم شركة إي دي سيستمز بأن بلاكووتر مستعدة لاستقبالهم في العراق ولكن بدلا من راتب الأربعة آلاف دولار شهريا ها هم يقولون لهم بأن الراتب لن يتجاوز ٢٧٠٠ دولار.ورغم شعورهم بالإحباط فإن هذا الراتب الشهري كان مازال يتجاوز بكثير ما يتقاضاه أيٌ منهم في كولومبيا.ويقول الميجور فوريرو :"ذات مساء وبحلول منتصف الليل قدموا لنا العقود لنوقع عليها وأبلغونا بأن نكون في المطار في غضون أربع ساعات.. لم نحصل على فرصة لقراءة العقد.فقط وقعنا العقود وانطلقنا لأنهم أبلغونا بأن نكون في المطار في غضون أربع ساعات ولأن كل شيء جرى بسرعة رهيبة فلم تُتَح لنا سوى فرصة محدودة للغاية لنودع عائلاتنا ونحزم حقائبنا ونتوجه لإلدورادو" (مطار بوجوتا).

في الرحلة لبغداد أخذوهم لفنزويلا وألمانيا والأردن حيث تسنى للرجال أخيرا قراءة العقود التي وقعوها .وهنا يقول فوريرو:"عندئذ أدركنا أن ثمة خطأ ما لأن العقد يقول إنهم سيدفعون لنا ٣٤ دولارا يوميا أي أن الراتب الشهري سيكون نحو ألف دولار لا ٢٧٠٠ دولار .وعندما وصل الكولومبيون لبغداد سرعان ما أثاروا مسألة الراتب مع مشرفيهم غير أنهم أُبلغوا بتأجيل الأمر لوقت لاحق.في بغداد عرفوا إنهم سيحلون محل

مجموعة من الجنود الرومانيين المتعاقدين مع بلاكووتر ـ "حينما التقينا بهؤلاء الرومانيين سألونا عن الراتب الذى تعاقدنا عليه فقلنا لهم إنه يبلغ ألف دولار فصعق الرومانيون لأنه لا يوجد أحد يأتى لبغداد مقابل ألف دولار فقط وقالوا لنا إن راتب الواحد منهم يبلغ أربعة آلاف دولار مقابل نفس الوظيفة". وقال الكولومبيون إنهم اشتكوا لكل من بلاكووتر وإى دى سيستمز وإذا لم يحصل الواحد منهم على راتب شهرى يبلغ ٢٧٠٠ دولار كما قيل لهم فإنهم يريدون العودة لكولومبيا».. هكذا يستعيد الكابتن أوزوريو ما جرى.

وهكذا أيضا يقول: "عندما دخلنا القاعدة أخذوا منا جميعا تذاكر العودة. جمعونا معا وأبلغونا بأنه إذا كنا نريد العودة فعلينا أن ندبر ذلك بوسائلنا الخاصة. قالوا لنا: من يريد العودة يمكنه ذلك ولكن لن يحصل على بيزو واحد ولم يكن معنا أى مال لشراء تذكرة العودة بالطائرة لكولومبيا. ووجه لنا المشرفون التهديدات بطردنا من القاعدة لشوارع بغداد لنكون عرضة للقتل أو فى أفضل الأحوال الخطف". وبدافع اليأس اتصل الرجال بمجلة سيمانا التى تحدثت عما يجرى وقال فوريرو للمجلة: "إننا نرغب فى أن يعرف الناس الذين يجندونهم فى كولومبيا الحقيقة وألا يسمحوا لأنفسهم بأن يتعرضوا للخداع" وقال رجل آخر: "خدعتنا الشركة بوهم أننا سنراكم الكثير من المال".

أكد كريس تايلور نائب رئيس شركة بلاكووتر أن الكولومبيين يتقاضون رواتب أقل كما يقولون ولكن ذلك نتيجة لما حدث مؤخرا من مراجعة لشروط التعاقد وأضاف: "حدث تغيير فى العقود وثمة شروط تعاقدية جديدة بعد انتهاء أجل التعاقد القديم ولهذا اختلف الوضع. كل كولومبى وقّع على عقد ينص على تقاضى ٣٤ دولارا يوميا قبل أن يجىء للعراق". وقالت بلاكووتر إنها عرضت إعادة الرجال الذين اشتكوا بشأن رواتبهم.

بزينس كالعادة

عندما أزيح الستار عن السوق الدولية المرتزقة التى تخدم الحروب الأمريكية فى العراق وأفغانستان انتشرت بين عشية وضحاها فى أمريكا اللاتينية قصص عن خبايا وأسرار معسكرات التدريب وعمليات مثل التى قام بها بيزاور فى شيلى. وفى شهر سبتمبر ٢٠٠٦ خرج سيل من الأنباء ليفضح أسرار ومغاليق معسكر سرى للتدريب فى

منطقة ليباتيركيو الجبلية النائية بالهندوراس وعلى مسافة ١٥ ميلا غرب تيجوسيجاليا..أدير هذا المعسكر بواسطة شركة اسمها "يور سوليوشنز" يقع مقرها الرئيسى فى شيكاغو وقيل إن رئيسها هو عسكرى سابق فى الولايات المتحدة يدعى إنجيل مينديز.

فى سنوات الثمانينات من القرن العشرين كانت قاعدة الجيش فى ليباتيركيو تُستخدم كمعسكر لتدريب عناصر الكونترا فى نيكاراجوا على أيدى رجال السى أى إيه كما كانت مقرا للكتيبة ٣١٦ سيئة السمعة وهى من فرق الموت فى الهندوراس المدعومة أمريكيا والتى كانت مسئولة عن عمليات قتل وتعذيب واسعة النطاق للمعارضين السياسيين على مدى عقد الثمانينات عندما كان جون نيجروبونتى هو سفير الولايات المتحدة لدى الهندوراس.وبعد ذلك بعقدين استخدمت شركة أمريكية خاصة هذه القاعدة لإعداد جنود هندوراسيين للعمل لحساب شركات أمريكية للمرتزقة فى العراق.

يقول أحد المتدربين فى هذه القاعدة:المدربون "شرحوا لنا أننا ذاهبون إلى بلد كل مَن فيه عدونا وعلينا أن ننظر لهم النظرة ذاتها فهم يريدون قتلنا.علينا أن نحرص على ألا يصيبنا أذى وألا نتردد فى سبيل ذلك فى قتل أى شخص حتى لو كان طفلاً".كان العديد من الهندوراسيين الذين جندتهم شركة يور سوليوشنز هم من الجنود الذين سبق وأن أرسلتهم بلادهم للعراق فى عام ٢٠٠٣ وقد سحبت حكومة الهندوراس هؤلاء الجنود وسط معارضة شعبية واسعة النطاق للحرب على العراق، وكان ذلك بعيد الإعلان عن أن نيجروبونتى سيكون السفير الجديد للولايات المتحدة لدى العراق.وفى شهر سبتمبر كُشِف النقاب عن أن شركة يور سوليوشنز لم تتعاقد مع جنود هندوراسيين فحسب وإنما هناك أيضا فى معسكر التدريب أكثر من ٢٠٠ شيلى على أهبة الاستعداد للانتشار فى العراق.

من بين الشيليين الذين عملوا مع شركة يور سوليوشنز للإشراف على عملية الهندوراس رجل اسمه أوسكار أسب وهو شريك أعمال ليزارو وتولى رئاسة واحدة من الوحدات الشيلية فى بغداد وفقا للتعاقد مع بلاكووتر فى عام ٢٠٠٤ . ويتحدث أسب رجل المارينز

والصاعقة البحرية السابق فى شيلى عن أيامه فى العراق فيقول:"كنت أشعر بخطر أكبر فى شيلى حيث قمت بعمليات بالغة الخطورة". وفى شيلى قيل إن أسب كان ضالعا فى اغتيال مارشيلو باريوس طالب الجامعة والناشط فى عام ١٩٨٩ وقال مدافعون عن حقوق الإنسان إنها كانت عملية اغتيال سياسى على الرغم من عدم إدانة أحد .

عندما علمت السلطات الهندوراسية عما يحدث فى المعسكر فى سبتمبر ٢٠٠٥ وأن الشيليين دخلوا البلاد بتأشيرات سياحة-أمر دانيل راموس وزير الخارجية الهندوراسى هؤلاء الشيليين بمغادرة البلاد وقال إن دستور الهندوراس يحظر التدريب الأمنى والعسكرى للأجانب على أراضيها وأعلن فى مؤتمر صحفى "إنه من الأفضل لأولئك الأجانب أن يغادروا البلاد. وإذا لم يبادروا بالرحيل من تلقاء أنفسهم سنضطر لاتخاذ ما يلزم من الإجراءات الجادة ". لم تكن هناك مؤشرات توحى بوجود علاقة عمل بين شركتى يور سوليوشنز وبلاكووتر وأفادت تقارير أن الرجال الذين تقرر نشرهم فى العراق إنما يعملون مع شركة ترايبل كانوبى فى إطار تعاقدها لتوفير الأمن لمنشآت أمريكية.

ودافع بنجامين كاناليز المدير العام ليور سوليوشنز، وهو عسكرى سابق فى الهندوراس عن التدريب فى بلاده بقوله:"هؤلاء الرجال ليسوا مرتزقة كما يدعى البعض هنا وينعتونهم بهذه الصفة وهو أمر مؤلم ومؤذى للنفوس لأنهم أناس شرفاء ولم يضايقوا أى مخلوق" ومضى كاناليز ليقول إن الشيليين يجرى تدريبهم "كحرس خاص وليس كجيش رسمى". .عندئذ كانت شركة يور سوليوشنز قد أكملت بنجاح إرسال ٣٦ هندوراسيا للعراق وراحت تخطط لإرسال مجموعة أخرى تضم ٣٥٢ هندوراسى إلى جانب ٢١١ شيلى. وقيل إن كل رجل سيتقاضى نحو ألف دولار أمريكى شهريا وهو ما يقل كثيرا عما يتقاضاه الشيليون من رجال بيزارو .

اتخذ أسب موقفا متحديا لمسألة طرد شركة يور سوليوشنز من الهندوراس ومضى يردد:"مهمتنا هى الوصول للعراق سواء طُردنا أم لم نطرد من الهندوراس". وبحلول شهر نوفمبر قيل إن يور سوليوشنز أرسلت ١٠٨ من السلفادوريين و٨٨ شيليا و١٦

نيكاراجويا للعراق فى يوم واحد.وتحدثت تقارير عن عمليات مشابهة تجرى فى نيكاراجوا وبيرو.وفى شهر نوفمبر ٢٠٠٦ فرضت حكومة الهندوراس غرامة تعادل ٢٥ ألف دولار أمريكى على شركة يور سوليوشنز لانتهاكها قوانين العمل فى البلاد..وقال سانتوس فلوريز المتحدث باسم حكومة الهندوراس "فُرِضت هذه الغرامة لأن تدريب المرتزقة والعمل فى هذا المجال أمر يشكل انتهاكا لحقوق العمالة فى أى بلد .حينئذ كان بنجامين كاناليز قد فر بالفعل من الهندوراس.

أما بالنسبة لخوزيه ميجويل بيزارو فإن فالدو مارتينيز المدعى العسكرى فى شيلى قد اتهمه فى شهر أكتوبر عام ٢٠٠٥ "بتنظيم تشكيلات وجماعات قتالية مسلحة والقيام على نحو غير مشروع بانتحال وظائف ومهام لنفسه هى من اختصاصات القوات المسلحة والشرطة". وتصل أقصى عقوبة فى حالة الإدانة للسجن لمدة خمس سنوات.ردَّ بيزارو علانية محتجا بأن كل أنشطته كانت مشروعة وأنه حصل على تفويض من وزارة الخارجية الأمريكية للعمل فى العراق وقال :"لسنا مرتزقة إنما نحن شركة خاصة للأمن على المستوى الدولى أما المرتزقة فأنشطتهم مجرَّمة فى كل أنحاء العالم"..اتهم بيزارو الساسة الاشتراكيين بأنهم يقفون وراء ما وصفه "بحملة التشهير وتشويه السمعة" واشتكى من "الافتقار لقانون كافٍ هنا فى شيلى لمقاضاة مرتكبى جرائم التشهير"..أصر بيزارو على أنه لم يخرج عن أى قانون ولم يُدن فى أية جرائم أو انتهاكات.

وبحلول نهاية عام ٢٠٠٦ قال بيزارو إنه لم يُتخذ أى إجراء فى حقه وبدا غير مكترث بإمكانية تعرضه لمتاعب قانونية فى المستقبل وواصل أنشطته فى شركة جلوبال جاردز ومازال يقدم جنودا لشركة ترايبل كانوبى وغيرها من الشركات العاملة فى العراق. ولكن يصعب القول بأنه مازال "يغرف من كنز الذهب" ويعيش فى النعيم الذى عرفه إبان الأيام الخوالى مع شركة بلاكووتر والتى انتهت فى ديسمبر ٢٠٠٥ عندما انتهى آخر عقد له مع هذه الشركة.وفى عام ٢٠٠٦ عمل رجال بيزارو المعروفون "بالبلاك بنجوينز" فى مقار إقليمية أمريكية بالبصرة

وكركوك فضلا عن قيامهم بحماية مكاتب ترايبل كانوبى فى بغداد.

قال بيزارو إنه "استكشف أيضا إمكانية العمل فى باكستان وأفغانستان" وهو مستعد للحظة التى تُخطره فيها بلاكووتر باستئناف شراكتها معه. ويصف ما يقوم به بأنه "أجمل وأروع طريقة للحياة "فيما ينتظر بلهفة وشوق إعلان الولايات المتحدة عن استئناف عملياتها الخاصة "بإعادة الإعمار" فى العراق والتى يقول عنها إنها ستعيد الكرة لملعب شركات الأمن الخاصة.."إننا نقف فى وضع الانتباه وننتظر البيئة السياسية المواتية التى تهيؤها حكومة الولايات المتحدة لإعادة بناء العراق ونؤمن بشدة بأنها مسألة أشهر معدودة لا سنوات حتى يدرك الشعب الأمريكى ضرورة قيام الولايات المتحدة بإعادة بناء هذه البلاد" هذا ما قاله بيزارو فى شهر أكتوبر عام ٢٠٠٦ مُضيفا أن "إعادة البناء تعنى تحرك ٤٠٠ شركة مدنية لتنشط فى العراق وكلها بحاجة لخدمات أمنية ضرورية من شركات مثل شركتى".

وبالنسبة لتيتو تريكوت السجين السياسى الشيلى السابق وضحية التعذيب فإن استخدام شيليين وجنود من دول أخرى ذات سجلات بشعة فى انتهاك حقوق الإنسان من جانب الولايات المتحدة" أمر ليس بالجديد" ولكنه يقول" إن هناك شيئا ما ينطوى على انحراف بالغ ومسخ بشع فيما يتعلق بخصخصة الحرب فى العراق واستثمار المرتزقة..إنه هذا اللجوء للخارج طلبا للخدمات أو محاولات التعهيد من أجل خفض النفقات.فمرتزقة العالم الثالث يتقاضون رواتب أقل من نظرائهم فى العالم المتقدم ومن ثم تزداد المكاسب بينما يخوض الآخرون الحرب بالإنابة عن الأمريكيين وفى كل الأحوال فإن الشعب العراقى لا يدخل فى أية حسابات..إنه بالضبط "نزع الجوهر الإنسانى عن العدو" هذا هو الذى ساعد الشركات الخاصة والحكومة الأمريكية على تجنيد المرتزقة.وهذه بالضبط هى الاستراتيجية التى استخدمتها الطغمة العسكرية الشيلية لتدريب أفراد من الشرطة السرية ليكون من السهل إبادة خصوم الديكتاتورية.وبكلمات أخرى فإن المرتزقة الشيليين فى العراق هم بيزنس كالعادة" ■

13

الفصل الثالث عشر

عاهرات الحرب

بينما كانت شركة بلاكووتر تخطط لتوسيع نطاق أنشطتها بعد كمين الفلوجة وتدويل قواتها فى العراق كانت عائلات الرجال الأربعة الذين قُتلوا هناك فى الحادى والثلاثين من مارس ٢٠٠٤ ينتظرون إجابات..إنهم بحاجة لمعرفة كيف هلك أحباؤهم فى ذاك الصباح بقلب هذه البلدة المتفجرة، ناهيك عن أسئلة أخرى **مثل قصة المركبات التى** تفتقر للحماية والتسليح الكافى ...كل هذه العائلات تعتبر أنفسها من الأمريكيين الوطنيين وهى عائلات لأناس عسكريين ورجال يخدمون فى القوات الخاصة.وبالنسبة لعائلة زوفكو فإن الحياة منذ ما حدث فى الفلوجة تحولت إلى سعى بلا هوادة لفهم وقائع حياة الابن وموته.

دانيكا زوفكو والدة جيرى قضت شهورا فى جمع ولملمة التفاصيل والذكريات ووضعها جنبا إلى جنب..إنها تتذكر ما جرى فى أسبوع من أسابيع صيف ٢٠٠٣ عندما زارها جيرى قبل أن يتوجه للعراق..كانت أزمة الطاقة فى البلاد قد تركت عائلتها بلا كهرباء

فى منزلها بكليفلاند فى أوهايو وهاهى تقول: "كان لدينا الكثير من الوقت لنقضيه داخل المنزل بلا تليفزيون أو راديو ..لا شىء..فقط نجلس فى الخارج ونتحدث معاً".وتستعيد دانيكا حديثا مع ابنها عن عمله وسفرياته وتقول: "فيما كنا نجلس هناك قال لى محبوبى جيرى إن أفضل شىء يفعله المرء فى حياته هو أن يغرس البنور فى الأرض ويغلق باب بيته على نفسه ويجلس ليرى ما سيحدث بعيداً عن هذا العالم الحافل بالشرور.وعندما أجلس الآن وأفكر فيما حدث وأتذكر أحاديثنا أعرف أنه كان على حق".

فى بادىء الأمر لم تكن دانيكا زوفكو تلقى باللوم على أى شخص فى حادث الموت البشع لابنها إلا على كاهل المتمردين فى الفلوجة.وغداة مقتل ولدها لم تكن بقادرة على قراءة أى قصص إخبارية أو مشاهدة أى صور حية ولم يكن عقلها يحمل سوى قليل من الشكوك حول المسئول عن مقتل ابنها.ومنذ البداية بدت بلاكووتر فى صدارة المشهد وعلى قمة الموقف.فى الساعة الثامنة من مساء يوم الحادى والثلاثين من

مارس ٢٠٠٤ جاء إريك برينس بنفسه لمنزل العائلة فى كليفلاند يرافقه مندوب التجنيد فى الولاية كما تقول دانيكا ليخبرنا بأن جيرى كان من بين الرجال الذين قُتلوا اليوم.."تجمدنا من هول الكارثة ولم ننبس ببنت شفة" .قال لى أيضا إنه فيما يتعلق بمشاعره فإنه كان يعتقد إذا كُتِب لأحد أن يبقي على قيد الحياة فى حرب العراق فلن يكون هذا إلا جيرى..لقد رأى جيرى والتقاه. وكان معه فى بغداد وأحبه من قلبه.تتذكر دانيكا أيضا أن برينس ناولها استمارة لملئها حتى تحصل على ثلاثة آلاف دولار كمصاريف جنازة ووعدها بأن جثمان جيرى سيعود بسرعة للوطن وسيحضر بنفسه الجنازة.

يوم السادس من إبريل وجّه بول برمر رسالة لآل زوفكو جاء فيها: "أود أن أؤكد لكم بصورة شخصية أن جيرى كان يخدم قضية نبيلة.. وسينجح الشعب العراقى فى رحلته الطويلة نحو مجتمع ديمقراطى وحر.جيرى كان شخصا مخلصا نذر نفسه للقضية وسيبقى مصدر إلهام لنا جميعا فى العراق سواء كنا مدنيين أو عسكريين ولم يدخر جهدا فى جبهة الواجب حتى ضحى بروحه ذاتها.أريدكم أن تطمئنوا لأن سلطاتنا تُجرى تحقيقات جادة حول مقتل جيرى ولن يهدأ لنا بال حتى يُعاقَب هؤلاء المسئولون عن هذه الجريمة الخسيسة..أنتم كعائلة ستبقون فى فكرنا وصلواتنا فيما تواجهون مأساة مروعة فى أيام صعبة قادمة وسأبذل من جانبى كل جهدى حتى نتأكد من أن إسهامات جيرى لهذا البلد ستبقى للأبد فى ذاكرة الشعب العراقى"..وبعد ثلاثة أيام عاد ما تبقى من أشلاء جيرى زوفكو للولايات المتحدة فى صندوق من الألمنيوم حط فى قاعدة دوفر الجوية بديلاور.وتقول دانيكا زوفكو أن إريك برينس أوفى بعهده وجاء ليستقبل الجثة ويشارك فى الجنازة.

أثناء ذلك كانت منطقة تامبا بولاية فلوريدا تشهد عائلة سكوت هلفنستون وهى تقيم جنازة فى مقابر فلوريدا الوطنية.ورثى الجد ويليام ليفينز وهو قاضى بسيركويت حفيده سكوت وراح يؤبنه "كمحارب يريد السلام...السلام فى قلبه والسلام فى العالم .وفى النعى الذى نشر بالصحيفة كتبت عائلة هلفنستون:"سكوت قدم روحه

وضحى بحياته كبطل من أجل بلاده .وبعد ذلك بأسابيع قليلة سمع رفاق سكوت هلفنستون فى المدرسة العليا عن مناسبة فى بلدته وينتر هيفن بفلوريدا ينظمها باكستر تروتمان النائب الجمهورى للولاية وجاءت هذه المناسبة فى صورة احتفالية للتأبين... احتفالية التأبين التى أقيمت بعنوان"عملية تحية القوات" تستهدف تكريم العسكريين من النساء والرجال الذين نشروا فى منطقة العمليات الحربية ويحضرها ثمانية آلاف شخص من بينهم السيدة الأولى لورا بوش وجيب بوش شقيق الرئيس وحاكم فلوريدا.

رفاق سكوت هلفنستون وزملاؤه تمنوا ذكر اسم زميلهم الراحل والمقاتل السابق على منصة الاحتفالية تكريما لخدماته فى العراق ولكن تروتمان منظم احتفالية التأبين رفض وقال لهم :"لا" لأن سكوت كان يخدم هناك بعقد خاص وليس كجندى فى الخدمة العسكرية الميدانية..قال تروتمان:"هذه الاحتفالية لتأبين وتكريم العسكريين من النساء والرجال الذين لم يذهبوا للعراق بمحض اختيارهم.وهناك فرق.فإذا كنت أعمل فى شركة ولم يرقنى ما يحدث لى ولم تعجبنى ظروف العمل يمكننى أن أعود لبلادى "..ونزل ما قاله تروتمان كالصاعقة على أصدقاء سكوت وقال إد تويفورد صديقه فى المدرسة العليا:"إذن لو كان يخدم بالجيش لكانوا قد أطلقوا اسمه على الشوارع".

كاتى هلفنستون-وتنجل عرفت أنه لا توجد تقريبا أى مصادر متاحة لعائلات القتلى من ذوى العقود الخاصة فى الحرب وقررت أن تصل لواحدة من قلة من الناس بمقدورها أن تتفهم ظروفها ومعاناتها.وقع اختيارها على دونا زوفكو واتصلت بها وامتدت روابط الصداقة بينهما فى رحلة البحث المشترك عما حدث لابنيهما..تقول كاتى هلفنستون-وتنجل:"فى أول شهرين رحنا نضرب على غير هدى ونذهب هنا وهناك وتحاول كل منا أن تشد أزر صاحبتها.لم أكف عن النحيب على مدى عام تقريبا.كنت أنتحب كل يوم فقد كنت أفتقد الولد بشدة..أعرف أنه رجل لكنه فى نظرى ولدى الصغير .

ومع ظهور المزيد من التفاصيل حول كمين الفلوجة في وسائل الإعلام انتقلت العائلات الثكلى من البكاء إلى السؤال عما حدث.وها هو توم زوفكو شقيق جيري يتساءل:"لماذا لم يوفروا لهم حماية..لا أصدق أن شقيقي يمكن أن يتصرف بهذه الطريقة فهو لم يكن أبدا بالشخص الغافل أو المهمل .وعندما عرفت دانيكا زوفكو تفاصيل مهمة الرجال الذين كانوا في الفلوجة قالت:"لا أصدق هذا..لا أصدق أن ابني يرافق مركبات ويحرسها..هذا ليس ابني لا أصدق أنه جيري..لابد وأنه شخص آخر..لا أتصور أنه يمكن أن يقبل ذلك ويفعله.حتى لو كنا قد دفنا تابوته دون أن أرى الجثة مكتفية بكلمات الناس من هؤلاء الساسة والنهمين للمال بأن جيري داخل التابوت..أحيانا مازلت أحلم بأن جيري في مكان ما لكنه غير قادر على الاتصال بنا أو أنه لا يمتلك كمبيوتر يمكنه من الاتصال.رغم كل شيء أتنزع بالأمل".

ذكرت دانيكا زوفكو أن الأمور بدت غريبة عندما استعادت شركة بلاكووتر متعلقات جيري وبعض أغراضه التي كانت مفقودة وقالت إن محاولاتها للحصول على بعض هذه الأشياء أو معلومات بشأنها أثارت حرجا غريبا لدى بلاكووتر.وبدأت دانيكا تقرأ بعض المواضيع والمقالات الصحفية حول الحادث وبلاكووتر أو هذه الشركة الغامضة التي استخدمت ابنها..ها هي تقول"عندما تريد أن تعثر على شيء ما وتصل لحقيقتها وتسأل نفسك عنها ثم لا تجد إجابة مقنعة فإن يد الله تتدخل وعنايته تنير بصيرتك لتصل للحقيقة". وتضيف دانيكا:"اكتشفتُ أنه لا توجد قواعد أو قوانين تحكم طبيعة ما كان يفعله ابني..هذا مجال مفتوح لا تحده قيود وهو يعمل لحساب شركة تفعل أي شيء تريده بالطريقة التي تحلو لها"..وبدأت دانيكا زوفكو تفكر أكثر في هذا الكمين..وما الذي كانوا يفعلونه أصلا في الفلوجة؟

لم تكن العائلات وحدها هي التي تشعر بأن هناك خطأ ما.فالحقيقة أنه في يوم واقعة الكمين ثارت أسئلة حول "المسئول عن المركبات التي لا تتمتع بحماية في العراق".وقال الكولونيل المتقاعد رالف بيترز في شبكة فوكس نيوز:"سأقدم لكم إجابات مؤلمة حول هذا الموضوع. فالمسئول إما أكثر الشركات حمقا في تاريخ

البشرية أو بصراحة قد يكونوا من رجال المخابرات وهم يمارسون عملهم الاستخباري..لا أعرف..لكنني كنت أتحدث اليوم عن هذا الموضوع مع كولونيل من أصدقائي وهو مازال يخدم بمنطقة الخليج وقال لي:إذا كانوا هم المتعهدون فإن الأمر يكون بمثابة انتقاء دارويني في العمل".وفي اليوم التالي ظهر جفري جتلمان مراسل صحيفة نيويورك تايمز في الفلوجة ليطرح نفس الأسئلة:"ماذا يحدث بالضبط وما هذا الغموض؟..كيف تتحرك مركبتان تفتقران لأي دروع ودون حماية في قلب إحدى أكثر مدن العراق خطورة وفي غياب أي وسائل حماية جادة"؟.وقال جتلمان:"إذا كان ذلك قد حدث لرجال نعرف أنهم تلقوا تدريبات جيدة ولديهم الكثير من الخبرات في التعامل مع أمور مثل هذه فإن لنا أن نستنتج ما يمكن أن يحدث مع أشخاص عاديين مثلي يتجولون في أماكن كالفلوجة وليس لديهم خلفية عسكرية".ولم تُفوّت شركات أخرى للمرتزقة الفرصة للدعاية نفسها..وخرج فرانك هولدر من شركة كرول ليقول على شاشة فوكس نيوز:"لدينا سياسة لقطاعنا الخاص بالأمن الدولي تتطلب استخدام مركبات مدرعة في كل الأوقات..لا نقبل القيام بأي مهمة مالم تكن هناك مركبات مدرعة".

بعد أيام قليلة نشرت جريدة الأوبزرڤر اللندنية قصة خبرية تعرضت لكمين الفلوجة تحت عنوان:"خطر مبطن..لماذا تُعد مركبة SUV هي المركبة الأكثر خطورة الآن في العراق ؟".ووصفت هذه المركبة بأنها مركبة الاحتلال وأشار مراسل الأوبزرڤر إلى أن "الفلوجة في قلب المقاومة ضد الأمريكيين وهي مدينة لا تقف فيها حتى الشرطة مع الأمريكيين الذين لا يتحرك جنودهم كثيرا هناك، وإذا ما اضطروا لذلك فإنهم يستعينون بدعم الطائرات العمودية والدروع الثقيلة..وذكر أحد رجال البحرية السابقين:أكاد أقول إن كل أجنبي يُقتل هنا هو من الحمقى.فالجنود لايكترثون كثيرا بهؤلاء الذين يسقطون قتلى لعدم التزامهم بالقواعد الصحيحة والتعليمات الواجبة"

وفي تقرير حمل ردود الأفعال من عمان وبغداد-كتب البروفيسور مارك ليفاين في صحيفة الكريستيان ساينس مونيتور:"كثير من الناس هنا ينظرون لمذبحة الأمريكيين

بالفلوجة فى الأسبوع الماضى بشك وارتياب.فإرسال مقاولين أجانب للفلوجة فى مركبات SUV مع حراس مسلحين للسير فى شوارع يختنق فيها المرور يمكن أن يفسر بأنه تحريض أمريكى متعمد على العنف لاستخدامه كذريعة للعقاب من جانب القوات الأمريكية".ووسط الصور النابضة ببشاعات الأجساد المشوهة وصيحات الانتقام المدوية من البنتاجون والبيت الأبيض كانت الأسئلة الواضحة حول مهمة بلاكووتر فى ذلك اليوم تخيم عليها ظلال لكنها بالتأكيد لم تتبدد وتختفى وكانت الشركة تعرف بوضوح أن عليها أن تقدم تفسيرا ما.

وبعد أسبوع واحد من واقعة الكمين قدمت شركة بلاكووتر رواية قالت عنها صحيفة النيويورك تايمز إنها "قد تُبعِد مسار اللوم فى الحادث عن كاهل بلاكووتر". وصرح باتريك تووهى نائب رئيس شركة بلاكووتر وهو عسكرى محترف وحاصل على أوسمة للصحيفة :"الحقيقة أننا أُستُدرِجنا لهذا الكمين.كنا ضحية".وحسب رواية بلاكووتر للأحداث كما أوردتها التايمز فإن الرجال الأربعة الذين قُتِلوا فى الفلوجة "استُدرجوا فى الحقيقة بطعم خلاب وسقطوا فى كمين أُعِد بعناية من جانب أشخاص ظن رجالنا أنهم أصدقاء ومن عناصر قوة الدفاع المدنى العراقى الصديقة وكانوا قد وعدوا بقيادة آمنة لقافلة بلاكووتر ومرور سريع عبر المدينة الخطرة ولكنهم قاموا فجأة وبعد السير لعدة كيلومترات قليلة بإغلاق الطريق وحالوا دون الهروب من خلال مسلحين كانوا فى الانتظار".

وعلى الرغم من الأعمال العدائية المتصاعدة آنذاك فى الفلوجة فإن التايمز سارت في ركاب الشركة وذكرت أن قافلة بلاكووتر "لم يكن لديها سوى أقل القليل من أسباب الشك" وفى هذه القصة الخبرية لم تطرح التايمز تساؤلات حول نقص المركبات المدرعة أو الحقيقة المتمثلة فى أنه كان هناك أربعة رجال فقط يقومون بالمهمة بدلا من العدد اللازم وهو ستة رجال.وفى سياق منح صدقية لقصة بلاكووتر-ذكرت التايمز أن "المعطيات الأولية للشركة تتوافق مع الشكاوى التى صدرت مؤخرا عن مسئولين أمريكيين كبار بشأن قوات الأمن العراقية".

وفى شهادته أمام لجنة القوات المسلحة بمجلس الشيوخ-تحدث الجنرال جون أبى زيد وهو أعلى قائد عسكرى أمريكى فى الشرق الأوسط، بصراحة ودون مواربة عن شعوره بالقلق إزاء قوات الأمن والشرطة العراقية التى يتجاوز عدد أفرادها الآن ٢٠٠ ألف فرد وقال"لا شك أن الإرهابيين والمتمردين سيحاولون اختراق قوات الأمن.نحن نعرف أن ذلك يحدث وحدث ونسعى لبذل قصارى جهدنا فى الفحص الأمنى والتحرى الدقيق عن هؤلاء الذين يلتحقون بقوات الأمن".كما تلقى البنتاجون تقارير استخبارية جديدة تُحذر من أن جماعات مسلحة سنية وشيعية تقوم بنهب مراكز شرطة عراقية فى بعض المدن ثم توزع غنائم الأسلحة وأزياء الشرطة على غوغاء من الساخطين على حد تعبير مسئولين بالحكومة.

غير أن هذه الرواية سرعان ما نُقضت من جانب أحد أهم المسئولين الأمريكيين فى العراق حينئذ وهو جيم ستيل نائب برمر الذى أرسل خفية للفلوجة لاستعادة الجثث والتحقيق.وبعد أن التقى ستيل جون لى أندرسون مراسل مجلة النيويوركر فى بغداد-ذكر أندرسون أن ستيل :"خلص إلى عدم وجود دليل يفيد أن الشرطة العراقية خانت المقاولين" وقد أيد ذلك مالكولم نانس وهو ضابط سابق فى المخابرات البحرية عمل كمستشار للإف بى آى فى مجال مكافحة الإرهاب وتولى رئاسة شركة أمنية خاصة فى العراق آنذاك..وقال نانس:"فى الفلوجة على وجه الخصوص لا يوجد أى تأثير لوحدات الدفاع المدنى العراقى ولا يمكن الاعتماد على هذه القوة هناك فى كثير أو قليل، وأى ضمانات من الدفاع المدنى لا قيمة لها على الإطلاق..إنها صفر..لا شيء.وليس بمقدورك الاعتماد والاتكال على كلمة من قوات محلية فى مكان كهذا وخاصة إذا كنت تقود قافلة هي محط الأنظار كما حدث".

أما ريتشارد بيرى وهو بدوره ضابط مخابرات بحرية سابق وعمل مع سكوت هلفنستون عندما كان فى الخدمة العسكرية فيقول:"كل شيء حدث فى الفلوجة فى ذاك اليوم كان خطأ جسيما..إننى ببساطة لا أستطيع أن أفهم لماذا دُفعوا لأخطر منطقة فى العراق بمركبتين فحسب دون حراسة عسكرية كافية.كان أفراد المركبتين

لا يحملون سوى أسلحة خفيفة وعليهم أن يتصدوا لأناس يُغيرون باستمرار على الجيش الأمريكى .وذكرت مجلة تايم أن "أحد المشغلين السابقين للشركات العسكرية وهو على علم ودراية بالتكتيكات العملياتية لبلاكووتر قال إن هذه الشركة لم تقدم لكل المقاتلين المتعاقدين فى أفغانستان تدريبا كافيا على أساليب دوريات الاندفاع الهجومى رغم أن المهام تتضمن واجبات قيادة مركبات وحراسة شخصيات هامة..لكننى أكرر أن تدريبات الشركة لم تشتمل على فنون المناورة أثناء قيادة المركبات وتكتيكات الكمائن".

وفى الوقت ذاته-ذكرت صحيفة سان فرانسيسكو كرونيكل فى تقرير من بغداد أن مجموعة السيطرة على المخاطر التى تعاقدت معها شركة بلاكووتر كانت قد حذرت الشركة حينئذ من أن الفلوجة ليست بالمكان الآمن الذى يمكن المرور عبره.."ووفقا لمتنفذين كبار يعملون مع شركات أمنية أخرى فى بغداد فإن قرار بلاكووتر بالمضى قدما أيا كان الوضع، كان نابعا من رغبة فى خلق انطباعات طيبة عن الشركة لدى عملائها الجدد وأن ثمة جدلاً صاخباً حول هذه المسألة". كما يقول أحد هؤلاء التنفيذيين الكبار طالبا عدم ذكر اسمه مضيفا:"قبل وقت ليس بالطويل على مغادرة القافلة قالت مجموعة السيطرة على المخاطر:لا تذهبوا للفلوجة فهى ليست آمنة ولكن بلاكووتر أرادت الاستعراض وأن تثبت أنه لا يوجد أى مكان خطر بالنسبة لها"..وفى سياق التعقيب-صرح برتيللى المتحدث باسم بلاكووتر "لا حاجة للقول بأن بعض منافسى بلاكووتر لن يتورعوا عن استخدام هذا الحادث المأساوى كفرصة سانحة لإلحاق أضرار بسمعة شركتنا والفوز بعقود لهذه الشركات المنافسة"...

وجاء البيان الأكثر شمولا لبلاكووتر عن هذا الحادث فى تصريحات أدلى بها برتيللى للكرونيكل وقال فيها:فيما تستمر تحقيقاتنا الداخلية فإننا لا نعلم شيئا عن أى تحذيرات محددة من أى جهة بما فى ذلك شركات أمنية خاصة أخرى حول عدم أمان الطريق الذى سلكته قافلتنا يوم الحادى والثلاثين من مارس..إن الرجلين اللذين قادا القافلة كانا من ذوى الخبرات العريضة فى العراق قبل هذه الرحلة التى انتهت

بالكمين وكلنا على علم بالمناطق التى تعتبر عالية الخطورة..هؤلاء الرجال تلقوا تدريبات رفيعة المستوى وكانوا من المقاتلين السابقين فى البحرية والقوات الخاصة الأمريكية وقد وقع الكمين بطريقة تدل على أن تقديم المزيد من الحراسة للقافلة لم يكن ليغير من الأمر والنتائج شيئا».

وفي تلك الأثناء بدأ صحفيون محليون فى كارولينا الشمالية فى الحفر للوصول إلي إجابات من الفناء الخلفي لبلاكووتر..بعد أشهر قليلة من صك البراءة الذى منحته النيويورك تايمز لبلاكووتر ونشر هذه الصحيفة لرواية من شأنها إفلات الشركة من العقاب-قام جوزيف نيف ووجاى برايس من صحيفة " رالي نيوز آند أوبزرفر" بإلقاء شكوك جديدة على رواية بلاكووتر.وكتبا فى الصحيفة:"هناك مقاولون يعملون مع بلاكووتر فى العراق يتشككون فى مسألة تكليف وحدات من الدفاع المدنى العراقى بتوفير الحماية".وذكرت الصحيفة فى الأول من أغسطس عام ٢٠٠٤ أن "قوات الأمن العراقية ببساطة لا يمكن الثقة بها كما يقول مقاولون طلبوا عدم الكشف عن أسمائهم حتى لا يفقدوا وظائفهم .والأكثر أهمية أن الصحيفة فازت بمصادر داخل الشركة أثارت تساؤلات خطيرة حول الظروف التى أُرسل فيها الرجال الأربعة للفلوجة.

وقال المقاولون أيضا إن فرق الأمن المنصوص عليها فى عقد بلاكووتر ليس لديها قوة نيران كافية وإن الفريق الذى وقع فى كمين الفلوجة كان من المفترض أن يضم ثلاثة رجال فى كل عربة وليس اثنين فقط..وبعد أيام على هذا الكمين حصلت عائلة هلفنستون على نسخة من رسالة أرسلها شخص ما يوم الثالث عشر من ابريل عام ٢٠٠٤ بالبريد الإلكترونى وأطلق على نفسه اسم سيدة هى كاثى بوتر من ألاسكا وكانت تساعد فى إدارة مكتب بلاكووتر بالكويت عندما كان هلفنستون هناك..الجانب الأكبر من الرسالة كان عزاءً ولكن بوتر قالت أيضا فى رسالتها إن الفريق المعتاد لهلفنستون يعمل فى ظروف آمنة نسبيا بجنوب العراق وإن عدد أعضاء هذا الفريق في المعتاد هم ستة أفراد لا أربعة كما كان حال المجموعة التى دخلت الفلوجة.وكتبت أن هلفنستون ساعد فى الحصول على "مركبات دعم وإمدادات هامة لهذه المركبات

وهذا هو المفترض أصلا كما تقضى خطة المركبات المدرعة لكن هذا لم يُنفّذ". وأحجم مسئولون بالشركة عن ذكر سبب عدم توفير مركبات مدرعة لتنفيذ عقد ESS.

فى فلوريدا كانت كل أنواع الأسئلة تطن فى رأس كاتى هلفنستون-وتنجل والدة سكوت. وأخيرا قررت أن تتحدث مع إريك برينس مباشرة. وتقول إنه كان من المثير لدهشتها أن تصل إليه بسهولة عبر الهاتف..."قلت له أريد تقريرا عن حادث ولدى سكوت وأريد صورة من عقده الذى وقعه معك...قال لى إريك:لماذا؟. فقلت له:أريد فقط أن أعرف ماحدث. فقال لى:سأقدم لك ما تطلبينه فى غضون الأسابيع القليلة المقبلة. وكان ردى:حسنا ولكنك كتبت بالفعل التقرير فلماذا لا أحصل عليه غدا؟. وقلت:هل ستعيد صياغته لى فقط؟. وتقول:لم أحصل أبدا على هذا التقرير. تلقيتُ بعد ذلك فقط بعدة أيام قليلة مكالمة هاتفية عن الاحتفالية العظيمة التى قررت بلاكووتر إقامتها فجأة للضحايا"

الواقع أن هذه الاحتفالية كان من المقرر إقامتها فى منتصف شهر أكتوبر عام ٢٠٠٤ بمجمع بلاكووتر فى كارولينا الشمالية ولكن قبل أسبوع من احتفالية إحياء الذكرى نظمت بلاكووتر نوعا مختلفا من المراسم الاحتفالية لافتتاح مصنع جديد لإنتاج مستلزمات أهداف الرماية وتألق جارى جاكسون رئيس الشركة بالسعادة وتاه فخرا وهو يتحدث عن التوسعات السريعة لبلاكووتر..."الأرقام تدعو حقا للذهول. فى الأشهر ال١٨ الأخيرة حققنا معدل نمو يتجاز ال٦٠٠ فى المائة" هكذا تحدث جاكسون وقال إن القوة العاملة فى بلاكووتر بكارولينا الشمالية ستتضاعف فى القريب العاجل. كما فتحت الشركة مكاتب فى بغداد والأردن وأضاف وهو يشير للبيزنس المستهدف :"هذه صناعة بمليارات الدولارات ونحن لم نطرق سوى بابها ولم نخدش إلا سطحها فقط". ولاحظت الأسوشيتد برس أن «حاكم الولاية مايك إيسلى نوّه بأن "وجود المقر الرئيسى لهذه الشركة الأمنية العالمية فى كارولينا الشمالية يتلائم مع ماوصفه بحقيقة أن هذه الولاية هى أكثر الولايات الأمريكية صداقة للعسكريين".

وبعد ذلك بأيام قليلة وفى يوم السابع عشر من أكتوبر نقلت الشركة أغلب عائلات

متعاقدى الفلوجة بطائرات كارولينا الشمالية حيث يقيم برينس احتفالية بلاكووتر لإحياء ذكرى هؤلاء الذين قُتلوا فى العمليات.وبالإضافة لذوى هؤلاء القتلى كانت هناك ثلاث عائلات أخرى لمتعاقدين مع بلاكووتر قُتلوا أيضا على خط الواجب والشرف..وضعت الشركة العائلات فى فندق وكانت فى انتظارهم بالغرف سلال الهدايا من الأجبان والمكسرات والتسالى..وتقول دانيكا زوفكو:من اللحظة التى أرسلونا فيها لكارولينا الشمالية" لم أشعر بأى ارتياح. فالأمر كان أشبه بمن يتفرج عليك وأنت تشعر بذلك لكنك لا تعرف من يكون هذا المتفرج..هذا كان شعورى وكنت متوترة ولم أشعر باسترخاء أبدا".وتتذكر دانيكا أن بلاكووتر خصصت مندوبا لكل عائلة يرافقها فى كل مكان ويحضر كل المناقشات ويسمع كل الأحاديث وأحيانا يتدخل لتغيير مجرى الحديث إذا ما اتجه لاتجاه محدد وخاض فى موضوع بعينه..تقول كل من دانيكا زوفكو وكاتى هلفنستون إنهما شعرا بالغريزة أن الشركة كانت تحاول إبعاد العائلات عن الحديث مع بعضها عن تفاصيل حادث الفلوجة.

أقيمت الاحتفالية وزُرعت الأشجار وألقيت شواهد حجرية صغيرة تحمل أسماء الرجال حول بِركة فى مجمع الشركة.ويقول آل زوفكو إنهم أبلغوا يوم الثامن عشر من أكتوبر بأنهم سيحضرون لقاء بمقدورهم فيه أن يطرحوا أسئلتهم حول حادث الفلوجة..تقول دانيكا:"كنا نظن أن الجميع سيحضرون هذا اللقاء ولكن فى نهاية المطاف اكتشفتُ أنه لا يوجد سواى وزوجى جوزو وابنى طوم.كانت هناك كحوليات على الغداء وعُرِض علينا التنزه للترويح عن أنفسنا.كانت بلاكووتر حريصة للغاية على أن نرى مجمعها ومركز تدريبها"

ووجد آل زوفكو من اصطحبهم لمبنى فى الشركة رأوا فيه علمين كبيرين أحدهما يحمل أسماء جيرى ورفاقه الثلاثة وقال لهم ممثل الشركة إن فريق العاملين فى بلاكووتر بالعراق هو الذى صنع هذا العلم.وقال آل زوفكو أنهم أُخِذوا لقاعة اجتماعات فى الطابق الثانى حيث جلسوا لمائدة اجتماعات ضخمة تسع عشرين شخصا ولم يكن إريك برينس بالقاعة.تتذكر دانيكا أنه على رأس المائدة جلست شابة

شقراء تدعى أن كما كان هناك مايك راش المسئول التنفيذى فى بلاكووتر ورجل أشيب قدموه للعائلة باعتباره "أسرع رجل مسلح فى العراق".رجل قالوا عنه أنه عاد لتوه للولايات المتحدة لينهى إجراءات طلاقه ويبيع منزله ثم يعود للعراق..تقول دانيكا إن أياً منهم لم يقل إنه يعرف جيرى و"الشخص الوحيد فى بلاكووتر الذى اعترف بأنه يعرف ولدى جيرى هو إريك برينس".

تقول دانيكا إنها بدأت الحديث بالسؤال عن المتعلقات المفقودة لابنها وأبلغوها بأنه أخذ كل متعلقاته معه للفلوجة فى ذاك اليوم وأنها دمرت.وأخيرا بدأ آل زوفكو يوجهون أسئلة حول الحادث ذاته .."أنى ممثلة بلاكووتر لم تكن حتى حاضرة أثناء هذه النقطة التى سألت فيها دانيكا عن العقود وسألت عن التوقيت الدقيق الذى مات فيه ولدها.تقول دانيكا: سألت :كيف مات وتساءلتُ عن متعلقاته الشخصية .."لم تكن الأجواء على ما يرام أثناء اللقاء ولم تكن الأعصاب هادئة.نعم كانت التصرفات متحضرة لكنها لم تكن لطيفة وحميمة..أقصد مثلا أنهم لا يقولون لك ما تريد سماعه ومعرفته كما أنهم لا يبدون سعداء عندما تسأل، ولامرتاحين لما تسأل عنه..إنما أنى وقفت وهبت من مقعدها الذى كان على رأس المائدة وقالت إن هذه الأمور سرية وإذا كنا نريد أن نعرفها فلا طريق سوى المحاكم والقضاء.قلت لهم إن هذا ما سنفعله"..لم تكن دانيكا زوفكو حينئذ تقصد بالضبط ما تقوله لكنها الآن مقتنعة تماما بأن بلاكووتر أخفت أشياء وأشياء خطيرة عن موت ابنها.

أسبوعان يمضيان ثم يخرج جورج بوش ليُعلن النصر فى الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤ . ويصب مدراء بلاكووتر بقيادة برينس أوراق البنكنوت والمال صباً على بوش ويضخون الأموال فى خزائن الحزب الجمهورى وهم ينظرون بوضوح للانتخابات كحدث عظيم للبيزنس وأنشطتهم وخطوة ضرورية للتوسع غير المسبوق فى صناعة المرتزقة.ويوم الثامن من نوفمبر بعث جارى جاكسون ببطاقة احتفالية ذات صبغة دينية عبر البريد الإلكترونى وتحت العنوان الزاعق:"بوش يفوز بأربعة أعوام أخرى..ما أحلاها من لحظة.. فليباركه الرب"..كانت القوات الأمريكية قد فرضت لتوها ثانى

حصار كبير على الفلوجة وراحت تقصف المدينة وتخوض قتالا عنيفا من بيت لبيت لِيُقتل مئات آخرين من العراقيين وبرغم الآلاف منهم على ترك منازلهم فيما المقاومة الوطنية ضد الاحتلال تتصاعد وتزداد قوة ويتسع نطاقها.

وعلى الرغم من الهجمات الشرسة على المدينة فإن قتلة رجال بلاكووتر لم يُقبض عليهم .وفى الرابع عشر من نوفمبر قامت عناصر المارينز بعمل رمزى وهو إعادة فتح الجسر السيىء السمعة فى الفلوجة والذى يمتد على نهر الفرات..إنها اللحظات التى كتب فيها رجال المارينز بحروف سوداء بارزة:"هذا من أجل الأمريكيين فى بلاكووتر الذين اغتيلوا هنا فى عام ٢٠٠٤ "Semper Fidelis P.S. F...K You".ووضع جارى جاكسون رابطا لهذه الصورة على الموقع الإلكترونى لبلاكووتر ولم ينس أن يضع عبارات مفعمة بالنشوة تقول "هذه الصورة قيمتها أكبر كثيرا مما تصور رجال المارينز".ومع ذلك فإن عائلات الرجال القتلى لم يجدوا سوى القليل من العزاء فى الهجمات الانتقامية أو الشعارات الشامتة.

عندما بدأت كاتى هلفنستون-وتنجل فى الشكوى من مسلك بلاكووتر وافتقارها للشفافية فى كمين الفلوجة اتصل بها جد سكوت القاضى ويليام ليفينز وعرَّفها بمحام قال عنه إنه سيساعدها فى الحصول على إجابات.وأخيرا تمكن صديق لسكوت كان هو الآخر متعاقد مع بلاكووتر ويعمل مثله كمشرف من وضع القضية تحت نظر شركة كالاهان بلاين الناجحة للاستشارات القانونية فى سانتا آنا بكاليفورنيا وهى شركة كان مالكها دانيل كالاهان قد نجح مؤخرا فى استصدار حكم قضائى بالحصول على تعويض يشكل رقما قياسيا حيث بلغ ٩٣٤ مليون دولار فى قضية غش وتدليس.وقفز كالاهان فرحا بالقضية الجديدة..وفى كارولينا الشمالية استعان بمحام آخر معروف هو دافيد كيربى وكان الشريك القانونى السابق لجون إدواردز مرشح الحزب الديمقراطى لمنصب نائب الرئيس فى الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٤ . وشرع الفريق القانونى الجديد فى جمع الأدلة والاتصال بمقاولين آخرين من بلاكووتر واقتناص كل تقرير إخبارى يتحدث عن أية جزئية تتعلق بتفاصيل الكمين

ومشاهدة اللحظات القليلة والثمينة للحادث فى اللقطات التى بثها المتمردون وكاميرات شبكات التلفزة الإخبارية.

وضع الفريق القانونى يده على عقود لبلاكووتر مع عاملين لديها ومع شركاء لها فى العمل بمنطقة الشرق الأوسط.لم يستغرق الأمر سوى بضعة أسابيع حتى أدرك الفريق أن لديه ما يكفى لتحريك القضية..وفى الخامس من يناير ٢٠٠٥ رفعت عائلات سكوت هلفنستون وجيرى زوفكو ووس باتالونا ومايك تيج دعوى قتل خطأ ضد شركة بلاكووتر أمام المحكمة العليا فى ويك كاونتى بكارولينا الشمالية..وقال دان كالاهان:"إن ما توصلنا له حتى الآن خطير ويكشف عن أن الأمور تجرى بصورة خاطئة تماما فى العراق..إن بلاكووتر بمقدورها العمل هناك فى العراق دون أى حسيب أو رقيب وأن تفعل ما يحلو لها دون أى رقابة يعرفها أى مجتمع متحضر.وإذا كنا نكشف النقاب عن بلاكووتر فى هذه القضية فإننا أيضا نزيح اللثام عن نظام فاسد وعديم الكفاءة هناك ومازال يفعل أفاعيله فى العراق".وذهبت الدعوى إلى أن هؤلاء الرجال "كان يمكن أن يبقوا أحياء اليوم" لو لم ترسلهم بلاكووتر دون استعدادات لهذه المهمة المهلكة. "والحقيقة أن هؤلاء الأمريكيين الأربعة وجدوا أنفسهم فى مدينة الفلوجة ذات المخاطر العالية والتى تمزقها الحرب دون مركبات مدرعة ودون أسلحة أتوماتيكية كما أنه لا يمكن التغاضى عن أن عددهم كان أقل من الحد الأدنى للعدد اللازم من الأفراد فى هذه المهمة.وبدلا من توفير هذه المتطلبات أرسل القائمون على الأمور فى بلاكووتر هذا الفريق دون المعدات الضرورية والعدد الكافى من الأفراد

بعد رفع الدعوى أمام المحكمة-شعرت العائلات بأن لها الآن أن تجهر علانية بغضبها من الشركة..وخرجت كاتى هلفنستون-وتنجل لتقول:"بلاكووتر أرسلت ابنى والثلاثة الآخرين للفلوجة وهى تعرف أن هناك إمكانية كبيرة فى أن يحدث لهم ما حدث.من الناحية المادية فإن العراقيين هم الذين فعلوا ذلك ولاغرابة فيما فعلوه ولكننى أُحمل بلاكووتر مسئولية ما حدث بنسبة ألف فى المائة".

لأول وهلة تبدو الدعوى مطاطة فهؤلاء الرجال الأربعة من مقاولي مع بلاكووتر هم في حقيقتهم مرتزقة وذهبوا بمحض إرادتهم للعراق حيث يتقاضون رواتب جيدة ويعرفون أن هناك احتمالات عالية لأن يقتلوا أو يشوهوا .والواقع أن ذلك كله مذكور بإسهاب وتفصيل ممل في عقودهم مع بلاكووتر حيث حملت العقود عبارات تتحدث عن احتمالات ومخاطر الإصابة والتعرض لعاهات مستديمة أو تشوهات دائمة فضلا عن القتل بالأسلحة النارية والعتاد أو جراء حوادث تحطم الطائرات والهليكوبترات وبنيران القناصة والألغام الأرضية ونيران المدفعية والقنابل والقذائف الصاروخية والشاحنات أو العربات الملغومة إلى جانب الزلازل والكوارث الطبيعية الأخرى والتعرض للتسميم والهبات الشعبية والأنشطة الإرهابية ومخاطر القتال المتلاحم والأمراض والأوبئة وما إلى ذلك إضافة لإمكانية الموت أو التشوه أثناء رحلات الطائرات العمودية أو الطائرات ذات الأجنحة الثابتة واحتمال فقد السمع أو الإصابة في العين وفقد البصر واستنشاق أو التعرض للوثات بيولوجية أو كيماوية سواء كانت محمولة جوا أم لا، والركام المتطاير».

وفي دعواها المضادة-أوردت بلاكووتر عبارات ومقتبسات من عقودها وتمسكت بأن هؤلاء الذين وقعوا العقود "كانوا يقدرون تماما المخاطر وقبلوا عن طيب خاطر التعرض لهذه المخاطر بل وأي مخاطر أخرى سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة مرتبطة بطبيعة مهامهم"..كالاهان وفريقه القانوني لم ينكروا أن الرجال كانوا على علم بالمخاطر التي تنتظرهم لكنهم اتهموا بلاكووتر بأنها رفضت عمدا تزويدهم بوسائل وضمانات للحماية من بينها المركبات المدرعة التي لابد وأن يكون في كل مركبة منها ثلاثة رجال هم:السائق والملاح ورامي المؤخرة وهذا الرامي يتوجب تسليحه بسلاح أتوماتيكي ثقيل مثل Mach 46 SAE الذي يستطيع إطلاق مايصل لـ٨٥٠ طلقة في الدقيقة وبما يتيح للضارب صد أي هجمات من الخلف.ولكن شيئا من ذلك لم يحدث كما يقول كالاهان فكل مركبة حملت رجلين فحسب ولم تزود إلا بقدرة نيرانية محدودة قيل إنها مدافع Mach 4 لم يمنح الرجال حتى الفرصة لاختبارها وأضاف كالاهان:"دون المدفع الكبير ودون الرجل الثالث ودون مركبة

مدرعة فإن هؤلاء الرجال كانوا مثل البط المنبطح".

نزاعات العقود..

العقد الذى عمل بموجبه الرجال الأربعة الذين قتلوا فى الفلوجة كان قد أُبرِم مؤخرا بين بلاكووتر وشركة مسجلة فى قبرص باسم شركة ايروسيت سبورت سيرفيسيز "ESS" لخدمات المساندة وهى فرع لشركة كومباس جروب البريطانية.وكما ذُكر من قبل فإن بلاكووتر تكاتفت مع مجموعة كويتية تسمى ريجينسى أوتيل وشركة هوسبيتال وفازوا معا بتعاقد يسند لهم وظيفة حماية قوافل تنقل معدات المطابخ للجيش الأمريكى.بلاكووتر وريجينسى فازتا بعقد "ESS" عبر شركة أمنية أخرى هى كونترول ريسكس جروب وذهبت الدعوى القضائية إلى أن بلاكووتر كانت متلهفة على الفوز بعقود مغرية من شركة ESS لقطاعها الآخر الذى يخدم مشاريع إعادة البناء فى العراق.

والمهمة المنكودة فى الحادى والثلاثين من مارس ٢٠٠٤، كانت محاولة من بلاكووتر لتُثبت لشركة ESS أنها قادرة على تقديم خدمات أمنية شاملة قبل موعدها المحدد وحتى لو كانت لوازم المهمة من مركبات ومعدات والخدمات اللوجيستية الضرورية غير متوافرة..هكذا ذكرت الدعوى.وشأنها شأن العديد من عمليات الشركات الخاصة فى العراق كانت مهمة الرجال الأربعة فى الفلوجة فى ذاك اليوم محاطة بطبقات من مقاولى الباطن والمقاولين الفرعيين..الواقع أن تحديد الجهة التى يعملون لحسابها فى نهاية المطاف ستبقى مسألة مثيرة للجدل والشقاق لأعوام بعد هذا الكمين.

فى بادىء الأمر بدا أن الرجال الأربعة يعملون فى مهمة لحساب عقد من الباطن بين شركة ESS وK B R وهى شركة تابعة لهاليبورتون والتى قيل إنها تُحول أموالا للحكومة الفدرالية مقابل الخدمات الأمنية لبلاكووتر..لكن فى العقد الابتدائى بين بلاكووتر /ريجينسى وESS احتفظت شركة ESS لنفسها "بالحق فى إنهاء هذا الاتفاق أو أى جزء أو قسم منه فى غضون ٣٠ يوما وقبل إخطار مكتوب فى حالة ما إذا تلقت ESS إخطارا مكتوبا من كيلوج براون &رووت(K B R) بشأن إلغاء

تعاقدات ESS لأى سبب أو إذا ما تسلمت ESS إشعارا خطيا من كيلوج براون &رووت يفيد بأن ESS لم تعد مخولة ولا مسموحا لها باستخدام أى صيغة خاصة من صيغ وأشكال الخدمات الأمنية الخاصة".وبعد كمين الفلوجة لم تؤكد K B R/هاليبورتون أى علاقة لها بشركة ESS على الرغم من الإشارة الواضحة لـK B R فى العقد.

القصة باتت أكثر تعقيدا فى شهر يوليو ٢٠٠٦ عندما وجه وزير الجيش فرانسيس هارفى رسالة لكريستوفر شايز النائب الجمهورى فى الكونجرس وعضو لجنة الإصلاح الحكومى فى مجلس النواب يقول فيها: "استنادا إلى المعلومات المتوافرة لدى الجيش من كلوج براون وروت K B R فإن K B R لم تستأجر أبدا بصورة مباشرة خدمات مقاول أمنى خاص وذلك كدعم لتنفيذ إعلان العمل بموجب التكليف المسند لها وبنوده.وبالإضافة لذلك استعلمت K B R من شركة ESS ولم يكن لدى هذه الشركة أى علم عن خدمات قدمتها بلاكووتر يو إس إيه فى ظل التعاقد المرموز له بـLOGAD ...إن الجيش الأمريكى يزود K B R بكل الحماية من القوات المسلحة إلا إذا صدرت تعليمات أخرى".

وذكر هارفى فى رسالته أن قائد مسرح العمليات لم "يفوض K B R أو أى مقاول من الباطن بموجب هذا العقد بحمل أسلحة.وأوضحت K B R أنها لا علم لها بوجود أى مقاول من الباطن يستخدم عناصر أمنية خاصة ومسلحة فى ظل التعاقد"..وفى سياق شهادتها أمام لجنة الأصلاح الحكومى بمجلس النواب فى شهر سبتمبر عام ٢٠٠٦ قالت تينا بالارد مساعدة وزير الجيش:إن الجيش هو الذى يحتج بأن بلاكووتر لم تقدم أى خدمات لـ K B R..ومن جانبها أبلغت K B R منتجى برنامج خط الجبهة الذى تقدمه شبكة بى بى إس :"بمقدورنا أن نخبركم بأن موقفنا يتمثل فى أن أى جهود من جانب شركة ESS أو بلاكووتر أثناء الهجوم الذى وقع يوم الحادى والثلاثين من مارس ٢٠٠٤ لاعلاقة لها بأنشطتنا فى العراق.فلا علاقة لما حدث بمهمة K B R".

وقالت K B R ايضا إنها غير مسئولة عن تزويد معسكر ريدجواى بمعدات المطابخ وهو المعسكر الذى كان يشكل الوجهة النهائية لمتعاقدى بلاكووتر عندما قُتلوا فى الفلوجة.وينبغى النظر لتأكيدات K B R فى ضوء ما توصل له مراجعو البنتاجون بشأن ممارسات هذه الشركة فى العراق.وجاء بتقرير فى أكتوبر ٢٠٠٦ للمراقب العام المختص بإعادة البناء فى العراق"اعتادت K B R أن تميز كل معلوماتها تقريبا للحكومة بعلامات تفيد بأنها بيانات تمتلكها الشركة وتنطبق عليها حقوق الملكية وهو أمر يشكل انتهاكا لإجراءات لوائح حقوق الملكية الفدرالية كما أنها تحول دون شفافية الأنشطة الحكومية واستخدامات أموال دافعى الضرائب.فى الواقع K B R حولت الشروط التعاقدية لآلية تمنع بها الحكومة من نشر معلومات عادية بشفافية ومن ثم فإن ما تفعله هذه الشركة ينطوى على إعاقة للتنافس والرقابة".

فى العراق كانت هاليبورتون/K B R كتومة للحد الذى لم تبُح فيه بأسماء مقاوليها من الباطن.وصرحت ميليسا نوركروس المتحدث باسم هاليبورتون فى شهر ديسمبر ٢٠٠٦ "كل المعلومات المتاحة لK B R تؤكد أن عمل بلاكووتر لحساب شركة ESS لم يكن لصالح شركتنا وكان هذا العمل خارج نطاق التعاقد مع K B R.بلاكووتر تقدم خدمات لمكتب K B R الإقليمى فى الشرق الأوسط وهذا المكتب غير مرتبط بأى عقد حكومى..هذه الخدمات تقدم خارج المنطقة الخضراء ولاتموّل مباشرة بأى عقد حكومى ...هذا كله يثير أسئلة هامة:لمن كانت تعمل بلاكووتر فى نهاية المطاف عندما أرسلت هؤلاء الرجال الأربعة فى هذه المهمة القاتلة بالفلوجة؟.وماذا عمّا قيل عن مهمة رسمية هناك من هو مسئول عنها ومسجلة ولها علاقة بالقوات الأمريكية؟.

كانت هناك أسئلة يبحثها هنرى واكسمان نائب كاليفورنيا الذى قاد تحقيقا فى الكونجرس منذ شهر نوفمبر عام ٢٠٠٤ عندما بدأت التقارير تظهر حول طبقات مقاولى الباطن الذين ارتبطوا بمهمة الفلوجة.وفى السابع من ديسمبر ٢٠٠٦ اتخذت القصة مسارا آخر ملتويا عندما كشف واكسمان النقاب عن أنه تلقى فى الثلاثين من نوفمبر من العام ذاته مذكرة قانونية من كومباس جروب وهى الشركة الأم فى

بريطانيا لشركة ESS تؤكد فيها أن ESS حصلت على عقد من الباطن في ظل العقد الرئيس لهاليبورتون واستخدمت بلاكووتر "لتقديم خدمات أمنية" بموجب هذا العقد الفرعي.

"إذا كانت مذكرة ESS صحيحة فإنه يبدو أن هاليبورتون دخلت في ترتيبات تعاقد من الباطن يحظرها العقد الرئيسي ذاته"..هذا ما أكده واكسمان في رسالة لرمسفلد مضيفا أن المذكرة تبدو متعارضة مع ماذكره وزير الجيش هارقي في رسالته في شهر يوليو ٢٠٠٦ فضلا عن الشهادة التالية التى أدتها مساعدته بالارد تحت القسم في الكونجرس..هذه المذكرة أيضا تزج بمقاول رئيس آخر للحرب في المعمعة ..فوفقا لما ذكره واكسمان فإن مذكرة ESS تكشف عن أن بلاكووتر كانت تعمل بموجب عقد من الباطن مع شركة منافسة لـ K B R هي شركة فلور وأن هذا حدث عندما قُتِل موظفو بلاكووتر الأربعة في شهر مارس ٢٠٠٤ بالفلوجة".وهكذا اتهم واكسمان شركة بلاكووتر بأنها "تقدم خدمات أمنية بموجب العقد الرئيسي مع الحكومة الفيدرالية بما يشكل انتهاكا لبنود هذا العقد ودون علم أو موافقة البنتاجون".

عاهرات الحرب...

بغض النظر عن الجدل الذى ثار حول الصلات مع K B R وفلور والجيش الأمريكي فإن العقد الأصلي بين بلاكووتر/ريجينسي وشركة ESS الموقّع في الثامن من مارس عام ٢٠٠٤ ينص على:" مركبتين مدرعتين كحد أدنى للإسناد لتحركات ESS" وأُضيف تأكيد على وجود ثلاثة رجال على الأقل في كل مركبة بسبب "التهديدات الراهنة في مسرح العمليات بالعراق وهي تهديدات مازالت"مستمرة وخطرة".ولكن في الثاني عشر من مارس ٢٠٠٤ وقّعت بلاكووتر وريجينسي عقدا من الباطن ينص على شروط أمنية مطابقة للعقد الأصلي باستثناء كلمة "مدرعة" فقد حذفت هذه الكلمة من العقد.

"عندما أخرجوا كلمة مدرعة من العقد كان بمقدور بلاكووتر أن توفر مليون ونصف

المليون دولار بعدم شراء مركبات مدرعة وأن تضع هذا المبلغ فى جيبها"..هكذا قال محام آخر للعائلات هو مارك ميليز فيما أردف قائلا: "هؤلاء الرجال أبلغوا بأنهم سيعملون فى مركبات مدرعة ولو أن ذلك حدث فإننى أجزم بأنهم كانوا لايزالون أحياء بيننا الآن..لقد قُتلوا بواسطة متمردين تقدموا مترجلين بمعنى الكلمة فأطلقوا النار عليهم من أسلحتهم الصغيرة ..هذه ليست عبوة ناسفة ولا أى نوع آخر من المتفجرات..إنما هى مجرد أسلحة صغيرة تطلق نيرانها وكان يمكن صدها من مركبات مدرعة".

قبل إرسال هلفنستون وتيجو زوفكو وباتالونا للفلوجة لفت جون بوتر صديق هلفنستون نظر إدارة بلاكووتر لحذف كلمة "مُدرعة" وكان هذا الصديق يشرف على عقد شركة ESS وفقا للدعوى القضائية.وتمسك بوتر بأن العقد من الباطن ينص على مركبات مدرعة ليس فقط التزاما بالعقد الابتدائى وإنما أيضا، وهو الأمر الأكثر أهمية، لحماية المقاولين الذين سيعملون فى المنطقة.ولكن جلب مركبات مدرعة لم يكن مكلفا فحسب لبلاكووتر وإنما سيؤخر أيضا بدء عملياتها.وهكذا فى الرابع والعشرين من مارس ٢٠٠٤ طردت بلاكووتر بوتر من وظيفته كمدير برامج ووضعت بدلا منه موظفا آخر يدعى جوستين مكاون..إنه الرجل الذى قال سكوت إنه شرك وأنه تشاجر معه فى نورث كارولينا الشمالية و الكويت.

ذهبت الدعوى القضائية إلى أن ستة حراس كانوا جاهزين للتوجه للفلوجة والمشاركة فى المهمة لكن مدراء بلاكووتر أمروا بأن يذهب أربعة رجال فقط "فى انتهاك مباشر لكل سياسات بلاكووتر واتفاقاتها".وقيل إن المقاولين الآخرين لزما منشأة بلاكووتر فى بغداد لأداء واجبات كتابية".وفيما بعد تفاخر مسئول بشركة بلاكووتر بأن الشركة أنقذت حياة شخصين بعدم إرسال ستة رجال للفلوجة على حد ما ورد فى الدعوى التى ذكرت أيضا أن الرجال لم يزودوا بخريطة مفصلة لمنطقة الفلوجة.وقال مسئول ببلاكووتر لهلفنستون:"إن الوقت قد مر وفات الأوان للخرائط وعليك أن تؤدى مهمتك فحسب بما تعرفه وبما لديك"..وتضيف الدعوى:"لم يكن الفريق يعرف شيئا

عن وجهته ..لا خرائط يهتدون بها ولا أى شىء يرشدهم ويوجههم لمقصدهم .

حسب كالاهان كان هناك طريق بديل أكثر أمنا يلتف حول المدينة لكن الرجال لم يعرفوا شيئا عن هذا الطريق بسبب سوء مسلك وتصرفات بلاكووتر وفشلها فى إعداد "تقدير للمخاطر" قبل الرحلة كما ينص العقد على ذلك بصورة ملزمة.وذهبت الدعوى إلى أن الرجال الأربعة كان لا بد وأن تتاح لهم فرصة جمع معلومات استخبارية والتأقلم مع الطرق الخطرة التى كُتِب عليهم أن يمروا بها ولكن هذا لم يحدث فيما رأى المحامى ميلز أن الأمر كان استعراضا يتسم بالحمق قدمته بلاكووتر لانتزاع إعجاب شركة ESS بكفاءتها من أجل الفوز بعقود جديدة.

واتهمت الدعوى أيضا بلاكووتر "بتعمد حرمان مقاوليها الأمنيين من القيام بجولات مشتركة مع " فرق شركة كونترول ريسكس جروب التى سيحلون محلها.واحتجت الدعوى بأن بلاكووتر قامت "باصطناع وفبركة وثائق خطيرة واختلاق تقديرات موقف للمخاطر قبل الرحلة" بعد حدوث هذا الكمين القاتل بغرض "التغطية على الحادث".وذكر المحامى دان كالاهان أنه إذا فعلت بلاكووتر فى الولايات المتحدة ما يقال بأنها تفعله فى العراق "لتعرضت لاتهامات جنائية".

رفضت بلاكووتر التعليق على الدعوى لكن كريس تايلور نائب رئيس الشركة قال فى شهر يوليو ٢٠٠٦ "إننا لم نُقصر فنحن نسعى لإعداد رجالنا بأفضل السبل الممكنة للتعامل مع الظروف والبيئة التى سيجدون أنفسهم فيها".وذهب ويليام كرينشاو محامى جوستين مكاون إلى أن هناك أخطاء عدة خطيرة فى وقائع الدعوى وتمسك بأن مكاون لم يكن له" أى دور يعتد به فى التخطيط للمهمة أو تنفيذها".وفى رسالة بالبريد الإلكترونى قال كرينشاو:"دعونا نؤكد على مأساوية ما حدث من قتل لفريق بلاكووتر فى الفلوجة وألا نقلل أبدا من ذلك.وبالإنابة عن السيد مكاون فإننا نقدم خالص التعازى وأخلص المواساة لعائلات هؤلاء الأعزاء الذين قضوا نحبهم.لكن من المؤسف وغير الدقيق الإيحاء بأن السيد مكاون لعب أى دور فى هذه المأساة المفجعة".

فى بيان من بياناتها العلنية القليلة حول الدعوى-قال كريس برتيللى المتحدث باسم بلاكووتر: "كانت قلوبنا وصلواتنا معهم ومع عائلاتهم كما هى معهم الآن ...إن بلاكووتر تأمل فى ألا تخدش كرامة وشرف رفاقنا الراحلين بإجراءات الدعوى القضائية". واعتبرت كاتى هلفنستون وتنجل هذا البيان "محاولة للابتزاز بمعنى الكلمة" وقالت إن العائلات لم تقرر اللجوء للقضاء إلا بعد أن قوبلت بآذان صماء ومراوغات ومحاولات للتضليل والكذب من جانب الشركة وأضافت :"أن بلاكووتر لا تفهم سوى لغة المال..هذه هى اللغة الوحيدة التى تفهمها هذه الشركة فيما يبدو..إنها لا تعرف القيم ولا المثل..إنهم مجموعة من العاهرات..إنهم عاهرات الحرب".

وبعد رفعها فى شهر يناير ٢٠٠٥ مضت الدعوي تتحرك ببطء عبر النظام القضائى والإجراءات القانونية وتثير معارك شتى حول الاختصاص القضائى.منذ البداية حظت بلاكووتر بتمثيل قانونى من جانب فريق من المحامين نوى الكفاءة العالية والاتصالات الجيدة وهو ما ينطبق أيضا على شركات الاستشارات القانونية فى الولايات المتحدة التى استعانت بها شركة بلاكووتر.كان محاميها الأساسى فى قضية الفلوجة هو فرد فيلدينج والذى كان مستشارا قانونيا للرئيس رونالد ريجان ومن بين مساعديه أيامئذ جون روبرتس الذى سيصبح فيما بعد رئيسا للمحكمة العليا.

وعمل فيلدينج أيضا كرئيس لفريق المحامين الذين استعان بهم الرئيس ريتشارد نيكسون وكان أحد أعضاء لجنة ١١ سبتمبر .وكمؤشر يُظهر مدى قوة وعمق اتصالات فيلدينج فمن المناسب الإشارة إلى أن الرئيس جورج بوش اختاره فى مطلع عام ٢٠٠٧ ليكون مستشاره القانونى فى البيت الأبيض بدلا من هارييت مايرز.كما دافع عن بلاكووتر فى هذه القضية شركة جرينبرج تراووريج وهى شركة قانونية قوية فى واشنطن دى سى استخدمت فى وقت ما جاك إبراموف الرجل السيىء السمعة فى عالم جماعات الضغط.واتهم محامو العائلات بلاكووتر بأنها سعت بعد رفع الدعوى للمراوغة وعرقلة العملية القضائية.

ومع أن بعض ما فعلته بلاكووتر يدخل فى باب التكتيكات الدفاعية المشروعة فإن فريق المحامين عن العائلات قالوا إن بلاكووتر تحول دون أن تأخذ شهادات الشهود مجراها أمام المحكمة وأن هذا المسلك يتضمن أفعالا لمنع شاهد رئيس من الإدلاء بشهادته..هذا الشاهد هو جون بوتر الرجل الذى قيل إنه كشف عن حذف كلمة "مدرعة" من العقد الفرعى كما أنه الرجل الذى قالت الدعوى إنه أُبعد عن وظيفته نتيجة لكشفه النقاب عن مسألة الحذف..وذكر المحامى مارك ميلز أنه بعد فترة قصيرة من رفع الدعوى طلب من المحكمة فى كارولاينا الشمالية إصدار أمر عاجل بسماع شهادة جون بوتر وحدد ميعادا لذلك فى الثامن والعشرين من يناير ٢٠٠٥ وطار ميلز الى ألاسكا حيث يعيش بوتر. غير أنه قبل ثلاثة أيام من الموعد المحدد لسماع الشهادة كما يقول ميلز "قامت بلاكووتر بالتعاقد مع بوتر براتب مجز ونقلته جوا إلى واشنطن حيث فهمتُ أنه التقى هناك بممثلى الشركة ومحاميهم ثم وضعوه على طائرة توجهت للأردن ليستقر فى نهاية المطاف بمنطقة الشرق الأوسط".ويتهم ميلز بلاكووتر بأنها "أسكتت صوت شاهد وأخفت وجوده المادى باستئجاره كمستخدم لديها ونقله خارج البلاد". وبذلك كما يقول ميلز فإن بلاكووتر سعت لجعل أمر سماع شهادة بوتر فى حكم العدم وإن كانت محكمة فدرالية قد قالت:لا..وفى شهادته أمام الكونجرس فى يونيو ٢٠٠٦ قال كريس تايلور نائب رئيس بلاكووتر:"لا أعتقد أن جون بوتر يعمل موظفا عندنا الآن".

قصة بوتر اتخذت مسارا آخر فى شهر نوفمبر عام ٢٠٠٦ عندما اكتشف ميلز أنه عاد للولايات المتحدة وبعد أن تمكن من الاتصال به هاتفيا فى مقر إقامته بألاسكا قدم ميلز أوراقا للمحكمة يطلب فيها مجددا سماع شهادة بوتر الأمر الذى أثار رد فعل سريع وقوي من بلاكووتر.وفى حافظة أوراقها التى تطعن فى طلب سماع هذه الشهادة احتجت بلاكووتر بأن "القضية تتضمن مسائل ذات صلة بالأمن القومى ومعلومات سرية تتعلق بالعمليات العسكرية للولايات المتحدة فى العراق ومن ثم فإن أى شهادة يدلى بها بوتر ستكشف بالضرورة عن أسرار ومعلومات سرية".

رد ميلز وزملاؤه بأن ما ذكرته بلاكووتر جدير بأن يدخل في مجال قصص الجاسوسية المشوقة بدعاويها حول المعلومات السرية وأسرار الدولة والتهديدات للأمن القومي .والواقع أنهم ذكروا أن "مقاولي بلاكووتر لا يقومون بعمليات سرية مثل رجال السي آي ايه وإنما يعملون بموجب عقد مع شركة فنادق أجنبية لحراسة معدات وتجهيزات المطابخ". وهكذا فقد أكدوا على أن الأمن القومي والتجسس أمر "لا علاقة له بهذه القضية".وكعلامة على أهمية الدعوى ومؤشر أهم على نفوذ بلاكووتر لدى الحكومة تقدم مكتب المدعي العام الأمريكي بطعن يعترض فيه على إدلاء بوتر بشهادته ويطلب قليلا من التأجيل حتى يتسنى للحكومة الاستيثاق والتحقق من مسألة استحواذ بوتر على وثائق أو معلومات سرية.

وتحدث المدعي العام الأمريكي عن الحاجة "لحماية مصالح الأمن القومي للولايات المتحدة" كما تقدم المدعي العسكري الأمريكي بطلب مشدد وتحت القسم للمحكمة "بعدم الكشف عن أية معلومات سرية وحساسة قد يكون السيد بوتر قد اطّلع عليها بحكم تعاقده مع الحكومة"..والأمر المثير للاهتمام تلك السرعة التي تمكنت بها بلاكووتر من تعبئة الحكومة وحشد الجيش ليتحولا الى مصدٍ واق لها ويتحركا في اليوم التالي للكريسماس ليزودا عنها ويساعدا على الأقل حتى اللحظة الراهنة في منع سماع شهادة هامة وربما تكون حاسمة.

أما العائلات فتصر على أن مصالحها في مقاضاة بلاكووتر ليست مسألة المال أو الحصول على تعويضات ولكن الأمر هو محاسبة هذه الشركة ومساءلتها ..تقول دانيكا زوفكو:"لا مال أيا كان في هذه الدنيا يمكن أن يعوضني عن ولدي جيري...ليس بمقدور أحد في هذا العالم مهما قدّم لي من مال أن يعوضني عن ابني" وتضيف:"ليتهم وضعوا بعض القواعد والتزموا بها وتعاملوا مع أرواح البشر مثلما أتعامل أنا مع قطع الحديد في السيارات حيث أعمل في مدينة كليفلاند. فهنا يبدو أن هناك قوانين وقواعد أكثر دقة حول التعامل مع سيارة وفك أجزائها وتركيبها بالمقارنة مع هؤلاء الذين يتعاملون مع أرواح بشر..المال مهما بلغ لن يفعل شيئا ولن

يعوضني عن موت ولدى..إنهم حمقى بالفعل إذا كانوا يفكرون بهذه الطريقة".

فى الأشهر التالية لرفع الدعوى أمام المحكمة لم تقدم بلاكووتر نقضا وتفنيدا للادعاءات المحددة من جانب العائلات فى هذه الدعوى القضائية وإن كانت الشركة قد نفت بصورة عامة صحة الادعاءات.وعمدت بلاكووتر للتأكيد على أن الأمر الخطير فى هذه الدعوى هو غلُّ يد رئيس الولايات المتحدة عن إدارة الشئون الخارجية بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة.واحتج محامو الشركة بأن الجنود العاملين تحت لواء بلاكووتر قد اعتبرهم البنتاجون جزءا جوهريا من "القوة الكلية" الأمريكية التى تشكل إجمالى "الطاقات الحربية والقدرات القتالية للأمة فى آلاف الاماكن والمواقع حول العالم وتؤدى عددا هائلا من الواجبات لإنجاز مهام حيوية" ومن ثم فإن السماح بمقاضاة بلاكووتر عن سقوط قتلى فى منطقة عمليات حربية لن يكون إلا هجوما وطعنا فى الصلاحيات السيادية للقائد الأعلى للقوات المسلحة الأمريكية.

وذهبت بلاكووتر فى حافظة من حوافظ أوراقها للمحكمة إلى أن" الفصل الدستوى بين السلطات يحول دون تدخل السلطة القضائية فى موضوع يتعلق بتدريبات وتسليح ونشر مكّون تعاقدى ضمن مكونات القوات الأمريكية المتمركزة فى العراق بناء على سلطة الرئيس وصلاحياته".وإذا مانجحت هذه الحجة فإنها تضيف ميزة تُحصّن بها بلاكووتر مسبقا من أى محاسبة عندما تنشر قواتها فى مناطق للعمليات الحربية الأمريكية.جاهدت الشركة لرفض الدعوى على أساس أن بلاكووتر تخدم عمليات عسكرية أمريكية وبالتالى لايمكن مقاضاتها عن مقتل أو إصابة عاملين لديها وأن المسئولية كلها تقع على عاتق الحكومة.

وفى دفاعها لرفض الدعوى فى محكمة فدرالية ذكرت بلاكووتر أن عائلات الرجال الأربعة القتلى فى الفلوجة يحق لها فحسب التمتع بمدفوعات التأمينات الحكومية.والواقع أنه بعد كمين الفلوجة قال محامو العائلات إن الشركة تحركت بسرعة لمساعدة هذه العائلات فى إجراءات الحصول على مزايا مقررة فى القانون الأساسى للدفاع الفدرالى والانتفاع بتأمينات حكومية تشمل بعض المتعاقدين الذين

يعملون فى خدمة عمليات عسكرية أمريكية.وضمن حافظات أوراقها المودعة فى قضية الفلوجة طلبت بلاكووتر من القضاء إقرار أن القانون الأساسى للدفاع الفدرالى هو المصدر الوحيد لتعويضات الرجال الذين قتلوا فى الفلوجة.وبمقتضى هذا القانون فإن الحد الأقصى من المزايا المتاحة لكل عائلة من عائلات القتلى من المقاولين لا يزيد عن مبلغ قدره أربعة الاف و١٢٣ دولار و١٢ سنتا شهريا

"كانت بلاكووتر تحاول وضع كل تصرفاتها الخاطئة على كاهل القانون الأساسى للدفاع الفدرالى كما يقول المحامى ميلز.."إن مايفعلونه يرمى لإثبات قدرتهم على فعل أى شيء دون محاسبة وكأنهم يقولون:بمقدورنا إرسال رجالنا للموت فداء لصالح الشركة واذا ما تحدث أى مخلوق معنا فلدينا التأمينات..فجوهر المسألة التأمين على القتل".غير أن الحجة الأساسية لبلاكووتر تمركزت حول ما تُصوّره كمضاعفات وتداعيات فى المشهد الكبير لمستقبل العمليات العسكرية فى حروب أمريكا..وهكذا ذهبت بلاكووتر فى ملخص دعوى استئناف يوم الحادى والثلاثين من أكتوبر ٢٠٠٥ إلى أن" السؤال عما إذا كان بالوسع مقاضاة شركات فى أى محكمة عن خسائر حربية بينما لا ينطبق ذلك على العسكريين النظاميين فى القوات المسلحة إنما من شأنه تقويض قدرة الرئيس باعتباره القائد الأعلى على نشر القوة الكلية لعقود قادمة ولعشرات الأعوام فى المستقبل".

وفى دعوى تالية بعد شهرين-استشهدت بلاكووتر بما ورد فى المرسوم رقم ١٧ لپول برمر والذى منح رسميا حصانة للشركات المتعاقدة فى العراق وذهبت الشركة إلى أنه "بما أن هذا المرسوم يعبر عن قرار من قرارات السياسة الخارجية التى اتخذتها الولايات المتحدة أو على الأقل ساندتها فإن بلاكووتر لا بد وأن تكون "محصنة فى مواجهة الادعاءات الواردة فى الدعوى القضائية".وتمسك محامو الشركة بأن السماح باستمرار الدعوى ضد بلاكووتر ينطوى على خطر تهديد القدرات القتالية للأمة فى الحرب "ومن أجل مقاولين فدراليين مسئولين يرافقون القوات المسلحة الأمريكية فى ساحة العمليات الحربية فإنه من الضرورى بصورة جوهرية أن تكون

الحصانة الممنوحة لهم فيما يتعلق بالمسئولية عن خسائر العمليات متمتعة بحماية فدرالية ومؤيدة رسميا بقرارات المحاكم الفدرالية...لا شيء يمكن أن يكون مدمرا لعموم المتطوعين ومفهوم القوة الكلية الذى يشدد على مبدأ القوة البشرية العسكرية الأمريكية أكثر من تعريض المكونات الخاصة لهذه القوة لأنظمة المسئولية بمتاهاتها وأوجه الزلل بها فى ٥٠ ولاية عندما تنتقل عبر البحار لتطبق على ساحات وميادين القتال فى الخارج...إن السبل التى يشرف بها الرئيس على هذه العمليات العسكرية ويقودها متضمنة قراراته عبر سلسلة القيادة فيما يتعلق بالتدريب ونشر القوات والتسليح والمهام وتركيبة القوات والتخطيط والتحليل والإدارة -والإشراف على شركات عسكرية خاصة ومهامها إنما تقع خارج نطاق واختصاصات المحاكم الفدرالية وبالضرورة هى خارج اختصاصات محاكم الولايات".

احتجت بلاكووتر بأن المحاكم لا يحق لها التدخل فى عملياتها لأنها بذلك تتدخل فى جوهر الأمر فى وظائف القوات المسلحة وهو ما يحظره" مبدأ المسألة السياسية" وهو من بين مجموعة المبادىء التى تُحصن من المساءلة القضائية قرارات يتخذها قادة مدنيون من الساسة عبر سلسلة القيادة العسكرية وهى ما تتضمن فى هذه الحالة قرارات اسئجار واكتراء مقاولين لحماية خطوط الإمدادات العسكرية من هجمات العدو.وفى الفلوجة ذهبت بلاكووتر إلى أن رجالها كانوا "يؤدون مهمة عسكرية كلاسيكية تتمثل فى توفير حراسة مسلحة لقافلة إمدادات بمقتضى أوامر للوصول إلى قاعدة للجيش وبتفويض من مكتب وزير الدفاع".ولهذا فقد احتجت بلاكووتر بضرورة تحصينها من أية مساءلة "وإلا فإن الأمر يعنى تدخلا قضائيا فى قدرة الرئيس على نشر قوة كلية تتضمن مقاولين".

وفى مؤشر يؤكد مدى الأهمية التى اتسمت بها نظرة مقاولى حرب آخرين للمخاطر التى تنطوى عليها الدعوى القضائية الخاصة بكمين الفلوجة-قامت شركة K B R، وهى أكبر مقاول للبنتاجون فى العراق ويصل حجم إيراداتها من العمل هناك الى ١٦,١ مليار دولار برفع دعوى فى شهر سبتمبر ٢٠٠٦ أمام المحكمة تتضامن فيها

مع بلاكووتر.وفى سياق تقديم دعوى التضامن هذه عرفت K B R نفسها باعتبارها "أكبر مزود مدنى لوزارة الدفاع بخدمات الدعم والإسناد اللوجيستى فى عمليات حفظ الاستقرار حول العالم .

ساندت K B R حجة بلاكووتر حول القوة الكلية مؤكدة على أن الغرض من برنامج تعاقدات البنتاجون مع المقاولين هو "تيسير عمليات الاستقرار بدمج مقاولى خدمات الإسناد اللوجيستى العسكرى مثل شركة K B R فى القوة الكلية العسكرية للولايات المتحدة..و K B R تعمل كمضاعف قوة بأداء خدمات تتعلق بمهام حرجة وخطيرة مثل قيادة قافلات الإمدادات العسكرية وهى خدمات كان يؤديها من قبل عسكريون نظاميون دون سواهم فيما تجرى كل عملياتنا وتتم بتوجيه وإشراف وسيطرة قادة عسكريين أمريكيين".

منذ البداية-نُظِر لقضية بلاكووتر باعتبارها القضية التى سيضع الحكم فيها سابقة تُحدد الدور والإطار الشرعى الذى يحكم أنشطة الشركات العسكرية الخاصة فى مناطق العمليات الحربية الأمريكية وجندت بلاكووتر ما لا يقل عن خمسة من بيوت الخبرة القانونية الشهيرة لمساعدتها فى مساعيها لرفض الدعوى او إحالتها لمحكمة فدرالية.واعتقد محامو العائلات الأربع أن فرصتهم فى التحرك بالملعب القانونى المواتى ستكون أفضل لو نظرت القضية فى محكمة الولاية حيث لا توجد قيود على التعويضات ولن تكون العائلات بحاجة لقرار بالإجماع لتفوز فى قضيتها.وفى شهر أكتوبر ٢٠٠٦ استعانت بلاكووتر بواحد من أقوى وألمع حيتان المحاماة فى أمريكا وهو كنث ستار ليمثل الشركة وكان قد عمل كمستشار مستقل فى قضية التقصير الخاصة بالفضيحة الجنسية للرئيس بيل كلينتون مع مونيكا لوينسكى فى عام ١٩٩٩ وظهر اسم ستار لأول مرة فى سياق قضية بلاكووتر يوم الثامن عشر من أكتوبر ٢٠٠٦ وهو يلتمس من جون روبرتس قاضى القضاة فى الولايات المتحدة رفع يد محكمة الولاية عن هذه القضية فيما كانت شركة بلاكووتر تستعد لرفع دعوى لاستصدار أمر قضائى لإحالة القضية لمحكمة فدرالية على أمل رفض دعوى العائلات

فى المحكمة الأمريكية العليا التى يهيمن عليها سدنة الجمهوريين،

أكد ستار ورفاقه على أن بلاكووتر "محصنة دستوريا" من مثل هذه الدعاوى وذهبوا إلى أنه إذا سُمح لدعوى الفلوجة بأن تستمر فإن "بلاكووتر ستعانى من خسائر جسيمة". وفى الالتماس المكون من ١٨ صفحة للمحكمة العليا-احتجت بلاكووتر بأنه لا توجد أية دعاوى ضد شركات عسكرية/أمنية خاصة فى محاكم الولايات "بسبب الترتيبات اللائحية الشاملة التى سنها الكونجرس والرئيس لتمنح مقاولين عسكريين مثل بلاكووتر حصانة من قضاء محاكم الولايات". ويوم الرابع والعشرين من أكتوبر كتب القاضى روبرتس ببساطة كلمة "مرفوض" على طلب بلاكووتر دون أن يقدم تفسيرا لقراره.

وفى أواخر شهر نوفمبر ٢٠٠٦ وبعد النظر فى طعن محاميى بلاكووتر فى أمر القاضى دونالد ستيفينس رئيس المحكمة العليا فى واك كاونتى باستمرار النظر فى الدعوى المرفوعة ضد شركة بلاكووتر فى محاكم الولاية. وبعد ذلك بشهر التمس ستار وزملاؤه من المحكمة الأمريكية العليا النظر فى سماع الدعوى التى ذهبت إلى أن السماح باستمرار تداول القضية فى محكمة من محاكم الولايات "يعرض مقاولين مدنيين أمريكيين ينهضون بمهام وواجبات مُلزمة لصالح عمليات وزارة الدفاع فى مناطق معادية للاضطراب وعدم الاستقرار فى متاهة الإجراءات القانونية ما بين ٥٠ ولاية فى هذه البلاد.. كما أن ذلك من شأنه تشتيت مقاولين مدنيين يخدمون فى ظروف بالغة الخطورة ما بين نزوات وأهواء نظام مُبَلقن يتضمن اتجاهات قانونية متضاربة ومتعارضة ما بين عديد من الولايات». فى شهر ديسمبر ٢٠٠٦ وبعد عامين من رفع دعوى التسبب فى الموت الخطأ ضد بلاكووتر-رفعت الشركة دعوى ضد ورثة الرجال القتلى الأربعة فى الفلوجة تطلب فيها تعويضا قدره عشرة ملايين دولار بسبب انتهاكهم لعقود أحبائهم مع بلاكووتر والتى تنص على عدم أحقية المتعاقدين فى مقاضاة الشركة. ووصف المحامى كالاهان هذا الإجراء بأنه "دعوى لا قيمة لها تستهدف عرقلة العائلات وإعاقة سعيهم للعدالة"

ومع عشرات الآلاف التى لا تحصى من العراقيين والذين ماتوا منذ الغزو والحصارات الأمريكية المتعددة التى فُرضت على الفلوجة بعد حادث بلاكووتر قد يرى البعض هذه الدعوى القضائية مجرد مماحكات ومشاجرات تافهة بين دعاة الحرب والمتربحين منها فى المشهد الأكبر والشامل وأن الفضيحة الحقيقية ليست هي إرسال أربعة رجال للفلوجة بدلا من ستة رجال أو أن هؤلاء الرجال لم يستحونوا على ما يكفى من المدافع الرشاشة لقتل مهاجميهم وإنما الفضيحة حقا هى فتح الولايات المتحدة أبواب العراق أمام شركات المرتزقة لتجوس قواتها فى هذا البلد ومعها حصانة ظاهرة. وعواقب هذه السياسة كانت جلية على ما حدث لعائلات القتلى الأربعة من مقاولي بلاكووتر.

تقول كاتى هلفنستون-وتنجل: "أكثر من ألف شخص ماتوا بسبب ما حدث لولدى سكوت فى ذاك اليوم.. هناك كثير من الأبرياء ماتوا ويموتون". وفيما لم تأت الدعوى على ذكر للهجوم الانتقامى الأمريكى على الفلوجة بعد مقتل رجال بلاكووتر فإن القضية أرسلت إشارات صادمة وموجات من الصدمات لتسرى عبر مجتمع المتربحين الذين حصدوا أرباحا هائلة فى العراق وبقية مناطق الحروب.

وفى الوقت الذى رُفعت فيه الدعوى أمام المحكمة كان ما يربو على ٤٢٨ مقاول من شركات خاصة قد سقطوا قتلى فى العراق فيما يتكفل دافعو الضرائب الأمريكيون تقريبا بكل فاتورة التعويضات لعائلات القتلى.. وبحلول شهر نوفمبر ٢٠٠٦ عدلت وزارة العمل الأمريكية عدد القتلى من المقاولين ليصل الرقم الى ٦٤٧ قتيل وقال المحامى ميلز: "هذه القضية تُرسى سابقة.. تماما مثلما حدث فى قضية التبغ أو قضية الأسلحة النارية فبمجرد أن يخسروا أول دعوى يدب الخوف فى نفوسهم خشية أن تكون المزيد من الدعاوى القضائية قادمة". ■

14

الفصل الرابع عشر

تحطم بلاكووتر 61

تحسس هارلى ميلر الخبير فى الجيش الأمريكى طريقه ليخرج من وسط الحطام العاثر لبلاكووتر 61 وهى طائرة ذات محرك مروحى تربينى كانت قد اصطدمت قبل ذلك بدقائق بجبل بابا الذى يصل ارتفاعه إلى ١٤٦٥٠ قدما فى سلسلة جبال هندو كوش بأفغانستان..مر بجنديين كانا معه على متن الطائرة **وهلكا معا من شدة** الارتطام وقد بقى كل منهما مربوطا بحزام مقعده..كان ميلر البالغ من العمر ٢١ عاما يعانى من إصابات أقل قليلا من تلك التى تسببت فى قتل زميليه.

وحيدا تماما وسط وحشة الجبل المجلل بالجليد وقف ميلر على مسافة ٢٠ قدم من الذروة المخيفة..كان الطياران المتعاقدان مع بلاكووتر قد قُذفا لمسافة ١٥٠ قدما أمام الطائرة بعد أن انزلقت لمسافة ٤٠٠ قدم وماتا بدورهما من تأثير الارتطام أما جثة مهندس الطائرة فتمددت قبالة الحاجز الداخلى للطائرة بالضبط.

الخبير ميلر أشعل سيجارة وراح ينفث دخانها وتبول مرتين، مرة قرب مؤخرة الطائرة

ومرة قرب مقدمتها، وبسط حقيبتى نوم وسند سلما معدنيا على هيكل الطائرة لعله يتمكن من القفز على سطحها ويطلب النجدة أو يتسنى له تحديد مكانه..استلقى على شىء أشبه بالسرير وهو يعانى من نزيف داخلى فظيع وكسور فى ضلوعه وإصابات ورضوض فى الرئة والبطن فضلا عن إصابات طفيفة فى رأسه..إصاباته لا بد وأن تتفاقم لقلة الأوكسيجين والصقيع. وبعد أكثر من ثمانى ساعات كُتبت له الحياة فيها وحيدا على قمة جبل بابا كان له أن يسلم الروح ليكون آخر ضحايا حادث تحطم الطائرة فيما لم يعثر أحد على جثته إلا بعد ثلاثة أيام.

حادث تحطم الطائرة بلاكووتر 61 يوم السابع والعشرين من نوفمبر ٢٠٠٤، وهى طائرة خاصة تعاقدت الجهة المالكة لها مع الجيش الأمريكى، لم يحظ سوى باهتمام ضئيل من وسائل الإعلام وجاء هذا الاهتمام فى أغلبه فى صورة تأبين بصفحات النعى والوفيات بالصحف المحلية فى المناطق التى جاء منها هؤلاء القتلى. وفيما كان اسم بلاكووتر قد أضحى مألوفا بالفعل بسبب كمين الفلوجة الذى وقع قبل عدة

أشهر، فإن حادث تحطم الطائرة الذي بدا كنقطة صغيرة من حطام لا يمكن الوصول له وسط الجبال الوعرة فى أفغانستان لم يكن ليمثل قصة خليقة بشد اهتمام وسائل الإعلام..لم يكن الحادث ليتسبب بالكاد إلا فى زيادة الانطباعات السيئة وهو شىء لا يُذكر بالمقارنة بأحداث القتل الأيقونية فى الفلوجة.

لم تكن هناك صور بشعة تبثها الميديا وشاشاتها حول العالم ولا بيانات صادرة عن البيت الأبيض..إنما الأمر فى الواقع العملى لا يزيد عن كونه مجرد حادث مُحزن من الحوادث التى يعرفها الناس ويتوقعونها فى هذه الدنيا، ثم إنها فى نظر وسائل الإعلام مجرد حادث ثانوى إن لم يكن أمرا لا يُذكر فى حرب أفغانستان.ومع ذلك فإن حادث تحطم الطائرة سيتحول إلى مشكلة قانونية خطيرة لبلاكووتر، لأن هذه المرة، وخلافا لما حدث فى الفلوجة ثمة أوراق رسمية يمكن تتبعها والرجوع إليها.

أنتجت هيئة التحقيقات الأمنية بالجيش الأمريكى ومعها الهيئة القومية لسلامة وسائل النقل مئات الصفحات من الوثائق فى خضم تحقيقاتهما فى الحادث..أمسك الصندوق الأسود للطائرة باللحظات الأخيرة فى الرحلة.وخلافا لما جرى فى الفلوجة، فإن بعض ضحايا الحادث هنا كانوا من الجنود العاملين فى الخدمة بالجيش الأمريكى، أما هؤلاء الذين تسببوا فى الوفيات حتى وإن لم يكن عمدا فهم من الشركات الخاصة..على السطح يبدو أنه مع استثناء ضلوع بلاكووتر فى الحادثين لم يكن هناك سوى القليل الذى يجمع ما بين حادث تحطم الطائرة على قمة جبل بابا ومذبحة الفلوجة.

غير أن أوجه الشبه بين الحادثين بدأت تكشف عن نفسها وتتوالى بعد أن رفعت عائلات الجنود الأمريكيين الثلاثة القتلى فى حادث تحطم الطائرة دعوى قتل خطأ فى العاشر من يونيو عام ٢٠٠٥ . وفى الواقع فإن التفاصيل التى اكتنفت حادث التحطم وأحاطت به، وإن لم تجذب سوى أقل القليل من الاهتمام، لم تختلف فى الجوهر عن تلك التى اكتنفت وأحاطت بحادث الفلوجة.وها هى عائلات الجنود القتلى فى حادث تحطم بلاكووتر 61 تذهب فى دعواها إلى أن الشركة حادت عن الالتزام بإجراءات

السلامة الأساسية وتسببت باستهتارها فى موت فلذات الأكباد والأبناء الأعزاء لهذه العائلات.وفى محور القضية، وكما حدث فى دعوى الفلوجة، رددت بلاكووتر مجددا حجتها بأن قواتها محصنة من أى دعاوى قضائية لأن الشركة جزء من "القوة الكلية" للولايات المتحدة فى الحرب على الإرهاب.

قطاع الطيران فى بلاكووتر "بريزيدنشيال إيروايز" يعمل فى أغلب الأحوال بعيدا عن عيون محطات الرادار والرقابة المتعارف عليها والمعتادة بالنسبة للرحلات الجوية فيما تستخدم طائرات الشركة فى رحلاتها خارج الولايات المتحدة المطارات ذاتها التى تستخدمها وكالة المخابرات المركزية فيما يسمى ببرنامج التسليم غير العادى.وعلى طيارى بلاكووتر استخدام تصاريح أمنية مثل تلك التى تُستخدم فى رحلات هذا البرنامج الاستخبارى للسى آى إيه.

دافيد بى.دالريمبل مدير موقع باجرام لبريزيدنشيال يقول:"أنا وكل العاملين الآخرين فى طاقم بريزيدنشيال بأفغانستان نحمل تصاريح أمنية رفيعة المستوى وبالغة السرية من حكومة الولايات المتحدة، والذين لا يحملون من طاقمنا هذه التصاريح فى سبيلهم للحصول عليها".وتؤكد الشركة أيضا أنها «حائزة علي تصاريح المرافق السرية من وزارة الدفاع الأمريكية..العقد الذى عملت بموجبه بلاكووتر 61 فى أفغانستان كان قد كُتِب فى سبتمبر ٢٠٠٤ أى قبل شهرين فحسب من حادث تحطم هذه الطائرة.وبعد ثلاثة أشهر من المفاوضات وافقت القوات الجوية الأمريكية على العقد الذى يقضى بمنح ٣٤.٨ مليون دولار لبريزيدنشيال ايروايز مقابل قيامها برحلات قصيرة الإقلاع والهبوط "STOL" فى أفغانستان وأوزبكستان وباكستان.

ووافقت بريزيدنشيال على القيام بست رحلات منتظمة يوميا لقواعد جوية صغيرة منتشرة فى أفغانستان إلى جانب رحلات أخرى إذا دعت الضرورة.ووفقا للتقديرات فإن ثلاث طائرات تابعة لبريزيدنشيال كانت ستطير بموجب هذا العقد لمدة ٨٧٦٠ ساعة فى العام الواحد.. وتفاخرت بلاكووتر فى مطبوعتها الأسبوعية "تاكتيكال" لتقول فى أكتوبر ٢٠٠٤:"بمقتضى هذا العقد يمد طيران بلاكووتر أجنحته من العراق

ويقدم المساعدات المطلوبة بإلحاح للعسكريين الأمريكيين رجالا ونساء فى أفغانستان وتصل هذه المساعدات حتى الدول الجنوبية فى الاتحاد السوفييتى السابق .

أوضح جون هايت مدير عمليات بريزيدنشيال أن الشركة اعتمدت فى عطائها على خبراتها العملياتية داخل وخارج مدارج بدائية لهبوط وإقلاع الطائرات وأنشطتها فى المهام الجوية العسكرية المتعددة والمتنوعة" .بمجرد حصول الشركة على كلمة بأن الاختيار قد وقع على عطائها بدأت، كما يقول هايت فى تجنيد "طيارين متمرسين" لمهام أفغانستان فيما يتذكر أنه بعد خمسة أيام من توقيع العقد"وصلنا بأولى طائراتنا لأفغانستان .

سواء كانوا طيارين متمرسين أم لا فإن الطيران فى أفغانستان يختلف بصورة جوهرية عن الطيران فى أغلب أجواء الولايات المتحدة.فأفغانستان كلها تتقاطعها سلاسل جبلية عالية تشمخ حتى تتجاوز فى ارتفاعاتها ارتفاع أعلى ذروة جبلية قارية فى الولايات المتحدة حيث يشمخ جبل ويتنى فى كاليفورنيا ليصل ارتفاعه إلى نحو ١٤٤٥٩ ألف قدما.وفى المقابل فإن هناك جبالا فى أفغانستان يصل ارتفاعها إلى نحو ٢٥ ألف قدم.ويواجه الطيارون عقبة إضافية تتمثل فى الاتصالات المحدودة مع الطائرات الأخرى والافتقار لأطقم مراقبة جوية يمكنها أن تُرشد الطائرات عندما تواجه بالضرورة مساحات من الغيوم والسحب الكثيفة أو غيرها من الظروف الجوية السيئة التى يقول عنها الخبراء إنها فى أفغانستان متقلبة بصورة مدهشة ولاتكاد تصدق.وهذا كله يسبب مشاكل خطيرة وبسرعة مذهلة لأن الطائرات يقودها طيارون عادة ما يستخدمون "قواعد الطيران البصري" أو بكلمات أخرى فإن هؤلاء الطيارين لا يعتمدون تقريبا إلا على أنفسهم حتى يمكن القول إنهم لا يستَهدُون إلا بغريزتهم ومدركاتهم.

وكما قال أحد طيارى بلاكووتر "يعرف الطيارون وأفراد أطقم القيادة بمجرد شعورهم بأنه قد لا يكون بمقدورهم التغلب على عقبة أو مشكلة ما أن عليهم أن يستديروا ويعودوا من حيث أتوا..لا توجد ضغوط لاستكمال الرحلة"،وإذا كانت

بعض القواعد الجوية فى أفغانستان مثل تلك التى فى كابول وباجرام وشينداد بها أبراج مراقبة أرضية فإن القواعد الجوية الأخرى لا توجد بها هذه الأبراج وحقيقة الأمر كما يقول طيارون فى بريزيدنشيال أنه "بمجرد أن تصبح الطائرة على مسافة ٢٠ ميلا خارج نطاق تغطية الرادار فإن على الطيار أن يعتمد على نفسه...الطيران فى أفغانستان يعتمد على تقنيات متخلفة للحد الذى عادة ما يستعين فيه الطيارون بهواتف الساتلايت للإبلاغ عن أماكنهم عندما يهبطون فى أى مكان باستثناء الأماكن المطروقة بشدة والمعروفة تماما وحتى هواتف الساتلايت ثبت أنه لا يمكن التعويل عليها دائما"

وإلى جانب الطابع غير العملى لجداول الرحلات الجوية فإن الطيارين على حد قول رجال بلاكووتر" يخشون أيضا من الالتزام بهذه الخطوط لأسباب قاهرة تتعلق بحماية أنفسهم" فهم يتحسبون من استهدافهم بنيران القوات المناهضة للاحتلال أو "قوات العدو".وهكذا فإن وضع هذه العوامل إلى جوار بعضها البعض من ظروف جوية سيئة واعتماد على قواعد الطيران البصرية ومخاطر نيران العدو وطائرات خفيفة ذات محركات مروحية تربينية بحمولات شتى من الشحنات والأفراد مع ارتفاعات وجبال شاهقة يصنع مزيجا صعبا حتى للطيارين المتمرسين.

وجوهريا، فإن سماوات أفغانستان جبهة لا يمكن التنبؤ بما تحمله من مخاطر وفضاء من المجهول الذى لا يستطيع أحد التكهن بسلوكه.والواقع أن كل الرحلات الجوية لبلاكووتر فى أفغانستان اعتمد الطيارون فيها على قواعد الطيران البصرية..ومن هنا يقول بول هوبر مدير الموقع لبريزيدنشيال:"لهذا لم تكن هناك مسارات محددة للطيران من وإلى باجرام أو أية مواقع أخرى نقوم بعمليات إسناد لها ولم تكن هناك سوى الأساليب السليمة المتعارف عليها فى الطيران بأن يكون المسار مباشرا قدر الإمكان مع تجنب مخاطر التضاريس والظروف الجوية. ولم تفصل التعليمات أو تأتى على ذكر لهذه المخاطر بصورة محددة..الأسلوب الشائع هو الطيران عبر طريق مباشر قدر الإمكان والاستطاعة ..التضاريس والظروف الجوية

والرغبة فى تفادى نمط محدد للطيران فى بيئة تقف فيها قوات معادية على الأرض كانت من بين الأسباب التى جعلت أطقم طائراتنا يغيرون مساراتهم فى كل رحلة "

ومن بين هؤلاء الذين استأجرتهم بلاكووتر ليقودوا طائراتها فى ظل هذه الظروف الاستثنائية والخطرة اثنان من طيارى "CASA" المحنكين وهما نويل إنجليش البالغ من العمر ٣٧ عاما ولورين "بانش" هامر البالغ من العمر ٣٥ عاما. كلاهما لديه خبرات فى الطيران فى ظل ظروف صعبة وغير طبيعية ودعم أرضى محدود مع ظروف جوية متقلبة وتضاريس قاسية فضلا عن الهبوط فى أماكن غير تقليدية. إنجليش سجل قرابة ٩٠٠ ساعة طيران على طائرات "CASA 212" وكان أغلبها فى رحلات بأعماق ومجاهل ألاسكا أما هامر فقد قضى سنوات كمساعد طيار وكطيار يقود طائرات إطفاء الحرائق أثناء مواسم حرائق الصيف بالولايات المتحدة. ووفقا لما ذكره كيفن مكبرايد وهو طيار آخر من طيارى بلاكووتر وعمل من قبل مع هذا الرجل فإن هامر كان "يلقى رجال الانقضاض وسط الدخان والشحنات بالمظلات فى قلب حرائق الغابات. كان ضابطا من الطراز الممتاز نابها مطلعا وبارعا ولديه الكثير من الخبرات فى الطيران بين الجبال والرحلات الجوية ذات الارتفاعات المنخفضة".

بعد عدة أسابيع من التدريب فى ملبورن بفلوريدا لمهمة أفغانستان وصل هامر وإنجليش لهذا البلد يوم الرابع عشر من نوفمبر ٢٠٠٤ . ووفقا للجيش الأمريكى فإن بريزيدنشيال اتبعت سياسة عدم السماح لأى اثنين من الطيارين بالعمل معا كثنائى طالما أنه لم يمض عليهما شهر "فى مسرح العمليات" ومع ذلك فإنها وضعت هامر وإنجليش كثنائى رغم أن كليهما لم يمض عليه سوى أسبوعين فى أفغانستان لأنهما يمثلان الطاقم الوحيد الذى تمتلكه الشركة وبمقدوره قيادة طائرات إس إيه-٢٢٧ CSA 2271 أو الطائرة مترو التى يمكن أن تستخدم بالإضافة لطائرات CASA فى رحلات لأوزبكستان.

بريزيدنشيال استحوذت على طائرتى CASA وطائرة مترو فى مسرح العمليات

وخلال فترة التعرف على مسرح العمليات فى أفغانستان سجل كل من هامر وإنجليش ٣٣ ساعة طيران.ويوم السابع والعشرين من نوفمبر أوقظ الطياران فى الساعة الرابعة والنصف صباحا ليستقبلا يوما صحوا وصافيا فى مطار باجرام حيث السجن العسكرى الرئيسى الذى يقبع فيه هؤلاء المحتجزون من جانب القوات الأمريكية فى أفغانستان والموضع الذى يقال إن السجناء يعذبون فيه.طاقم بريزيدنشيال عليه أن يغادر القاعدة فى أقل من ثلاث ساعات لمهمة تتعلق بنقل اثنين من الجنود الأمريكيين و٤٠٠ رطل من طلقات الإشارة الخاصة بمدافع الهاون عيار ٨١ مم.مسار الرحلة الجوية سيقودهما أولا لمنطقة فاراح التى تقع على مسافة ٤٥٠ ميلا جنوب غرب باجرام ثم إلى شينداد لإعادة التزود بالوقود وبعد ذلك علي الطاقم العودة لباجرام فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر حسبما تقرر.ولم يكن هامر أو إنجليش قد طارا من قبل فى هذا المسار.

ضمن الرجال الذين قضوا الليلة السابقة على أسرّة النوم فى باجرام كان هناك طياران آخران من طيارى بريزيدنشيال عليهما المغادرة فى ذات الوقت تقريبا علي طائرة بلاكووتر 61 ويسافران فى مسار مشابه.مثل هامر وإنجليش كان على الطيارين لانس كارى وروبرت جامانش أن يحلقا غربا بطائرة CASA بلاكووتر فى هذا الصباح ثم يتوقفان فى شينداد لإعادة التزود بالوقود.كارى الذى تقاسم غرفة فى باجرام مع كل من إنجليش وهامر على مدى الأيام الثلاثة السابقة للرحلة قال:"كان كلاهما يتطلع للرحلة" أما جامانش فقد تناول فطوره مع إنجليش فى ذاك الصباح الذى شهد الإقلاع.كل من الطاقمين راجع تقرير الأرصاد الجوية وتوقعات الطقس يومئذ

"بما أن رحلة كل طاقم منا ستأخذنا فى نهاية المطاف لنفس المكان وهو شينداد وتقرير الأرصاد الجوية لا يعتد به بسبب الرؤية فقد اتفقنا فى الرأى على اتخاذ قرار جماعى بشأن القيام بالرحلتين أو عدم القيام بهما "..هكذا يستعيد جامانش وقائع ما جرى ويقول:"إذا لم تكن الظروف الجوية فى شينداد مواتية سنبقى على الأرض وإذا

لم تكن هناك مشاكل فى الطقس فسيقوم كل طاقم برحلته. وهذا ما حدث بالفعل بعد أن قيل لنا إنه لا توجد أى مشاكل..فرغم وجود مؤشرات تفيد بهبوب رياح وأتربة على فاراح وشينداد قد تجعل الهبوط صعبا فإن التوقعات الجوية فى باجرام كانت تقول إن الطقس صحو والرؤية صافية".

وهكذا كان لكل رحلة أن تبدأ.. وانضم ملفين روى ميكانيكى الطائرات البالغ من العمر ٤٣ عاما لطاقم بلاكووتر 61 وكان لراكبين الصعود لمتن الطائرة هما الخبير هارلى ميلر والمساعد أول تراڤيس جروجان.شُحِنت ال٤٠٠ رطل ذخيرة وبدأت الطائرة تتحرك عندما ركض جندى نحوها على الممر.راكب ثالث سينضم للراكبين وهو الليفتنانت كولونيل مايكل مكماهون قائد مجموعة الفرسان التى تضم ٢٥ ألف جندى وتنهض بمسئولية كل الإقليم الغربى فى أفغانستان حيث تتجه بلاكووتر 61.

مكماهون من المحاربين الذين تمرسوا فى عمليات عاصفة الصحراء وخريج أكاديمية وست بوينت فيما يقول عنه أحد موظفى بلاكووتر: كان راكبا إضافيا ظهر لنا وسأل عما إذا كان بمقدوره ركوب الطائرة.وإذا ما طلب منا ركوب الطائرة وكان الطلب فى حدود المعقول فإن طاقم الطائرة لن يعترض.وفى هذه الحالة كان بهذه الطائرة ستة أشخاص.فى الساعة السابعة وثمانى وثلاثين دقيقة صباحا أقلعت الطائرة بلاكووتر 61 من باجرام قاصدة الشمال الغربى وكان آخر ما سمعه الأشخاص الستة من أى شخص خارج الطائرة هو أن برج المراقبة فى باجرام "سيتحدث معكم فى وقت لاحق .وبعد خمس دقائق من هذه الكلمات خرجت الطائرة من نطاق الرادار وهى على مسافة تسعة أميال من المطار تقريبا.

هامر مساعد قائد الطائرة بلاكووتر 61 علق بسرعة على الرؤية بقوله:"لا يوجد ما نطمع فيه أفضل من ذلك .غير أنه بدا جليا منذ وقت مبكر فى هذه الرحلة أن الطيارين لا يعرفان بالضبط إلى أين يذهبان كما كشفت تسجيلات الصندوق الأسود التى جاءت تفريغاتها كالآتى:

-الطيار إنجليش:"آمل أن أكون فى الاتجاه الصحيح وفوق الوادى المحدد".

-مساعد الطيار هامر:""هذا أم ذاك"؟!.

-إنجليش:"سأذهب فى هذا الاتجاه

-هامر:"نحن أو على الأقل أنا لم نذهب أبدا من باجرام إلى فاراح هذه ولا أعرف شيئا عن هذا الطريق..لعل ذلك يكون الوادى الذى يتحدثون عنه"

الطيارون المستجدون فى أفغانستان ليس لديهم بوضوح قدرة السيطرة والتحكم فى مسار رحلاتهم وها هو إنجليش يقول فى نهاية المطاف:"فلننظر إلى أين يؤدى هذا الطريق .وقضى الطياران ورو عدة دقائق تالية يحملقون فى الخرائط وهم يحاولون تحديد مكانهم وطريقهم..قال هامر إنه لم يُحضر معه النظام الشامل والمحمول يدويا لتحديد المواقع والذى يطلق إنذارا إذا اقتربت الطائرة من الأرض.وبعد ثمانى دقائق من بدء الرحلة أظهر إنجليش نوعا من القلق إزاء الظروف الجوية وحالة الطقس فى غرب أفغانستان بقوله:"طبيعى...فى نهار قصير كهذا قد يتاح لنا بعض الوقت أن نلهو ولو قليلا ونستكشف بعض ما حولنا ولكن مع هذه الرياح الآتية لا أريد سوى الوصول هناك بأسرع ما يمكننا"

وعلى الرغم من المؤشرات والعلامات المبكرة حول وجود بعض التعقيدات فإن الطيارين قضيا بعض الوقت أثناء الرحلة يدردشان مع بعضهما البعض ويثرثران فى أمور فارغة..قال إنجليش:"إننى أقسم بأنهم لن يدفعوا لى إذا عرفوا كم هو الأمر طريف ومسل".وكما يبدو، فقد كان الطياران يمران من وادى باميان مع أنه بدا من تفريغ حديث طاقم الطائرة أنه إلى حد ما لم يكونا على ثقة من المكان ولم يكترثا كثيرا بموضعهما ..يقول مهندس الطائرة رو "إننى لا أرى أى شيء.. عند ١٣- ٣ تقع أعلى ذروة فى كل هذا الطريق".ويرد إنجليش:هناك كثير من السهول والوديان المفردة.حسنا سيكون بمقدورنا أن نختار طريقنا حولها وبهذه الرؤية الجيدة سنسير بسلاسة..سنسير كالحلاوة.كل ما علينا هو أن نطير بالتوازى مع جبل كبير حتى نجد طريقا نمر من خلاله..ما أحلاه من يوم..هذا أفضل يوم تمتعت فيه بهذه الرؤية الصافية من طائرة CASA..إنها ليست جيدة فحسب بل رائعة".

فى لحظة ما سأل الركاب الطيارين عما سيمرون به فى طريقهم إلى فاراح وأجاب رو صاحب الخرائط:"لا أعرف ما الذى نراه فنحن عادة لا نسلك هذا الطريق". وبعد ثوان قال إنجليش:"كل ما نريده ألا نرى صخرة والساعة تدق الثانية عشرة". ثم تحول اهتمام مساعد الطيار هامر إلى المهارة الظاهرة التى يناور بها الطيار إنجليش وهو يقود الطائرة فهتف به:"ولا طيار من طيارى حرب النجوم يفعل ما تفعله" فرد إنجليش:"حقا..هذا طريف"..فيما بدأ طاقم الطائرة يواجه بعض الجبال ويشرع فى انحرافات مفاجئة لتفادى المخاطر لم يتوقف الطياران عن المزاح وتبادل المداعبات العابرة وراحا يتحدثان عما يود كل منهما سماعه من أغان وموسيقى فى هذه الرحلة فإنجليش راغب فى سماع فيليب جلاس أو شىء مشابه وهامر يجادل فى أن المطلوب لهذه الرحلة بعض أغانى الروك الصاخبة.."شيئا مثل كوايت ريوت أو تويستد سيستر".ولكن بعد أربع دقائق من هذا المزاح وبعد مضى نحو ٢٥ دقيقة على هذه الرحلة بدأت الأمور تتخذ وجهة مزعجة لبلاكووتر 61 فعندما خرجت من وادى باميان وجد الطاقم نفسه يطير بمحاذاة سلسلة جبال بابا".

قال هامر لإنجليش وهما يتناقشان حول السبيل لعبور الجبل:"حسنا هذا صف من الجبال على يسارنا وأى جبل هنا لا يقل ارتفاعه عن ١٤ ألف قدم حسب خريطتى"..علق إنجليش بقوله:"على أية حال دعنا نتدبر الأمر ونرى إن كان بمقدورنا أن نمرق من مكان ما". وقررا بسرعة الانحراف بزاوية ١٨٠ درجة وراح إنجليش يدلل الطائرة وهو يستعد للصعود بها وتوجيهها لأعلى ويقول:"هلمى ياصغيرتى..تعالى ياحبيبتى يمكنك أن تفعليها"..وبعصبية سأل المهندس رو الطيارين:"أوكى..ياجماعة هل ما نفعله هو الأمر الصائب"؟..تمتم إنجليش:"آمل أن يكون الأمر كذلك".

ذكر تقرير الهيئة القومية لسلامة وسائل النقل أنه عند هذه النقطة كان بالوسع سماع صوت شبيه "بإشارة تحذير منغمة من عطل مفاجىء" فى تسجيلات الصندوق الأسود..وداخل الطائرة توالت المناقشات المضطربة والحوارات المشوشة حتى أخطر

رو الطيار:"الآن عليك اتخاذ قرار ..كان بالوسع سماع تنهدات ثقيلة داخل الطائرة وسرعان ما توالت الأحداث بين صياح الطيار إنجليش مستغيثا بالسماء ومستمطرا اللعنات وبين طلب العون من رو مع كلمات مضطربة مختلطة مثل:"إنها تسير بمائة وتسعين عقدة..إلغ السرعة الجوية ".وحينئذ أصبحت إشارة التحذير المنغمة أكثر ديمومة فيما تصاعد الحوار حاميا. محموما. يائسا.هاهو إنجليش يواصل السباب ورو يدلى بدلوه كمهندس ويُلقى مساعد الطيار هامر بملاحظاته ثم يعود إنجليش للسباب حتى يقول روى:"إننا نهبط" ولا يبقى سوى الاستغاثة بالسماء وتتردد كلمة "ياالله.ياالله".

أثناء محاولة الانحراف بزاوية ١٨٠ درجة بعد أن بدا واضحا أن بلاكووتر 61 ليس بمقدورها تجاوز جبل بابا بارتفاعه الذى يصل الى ١٦٥٨٠ قدما اصطدم الجناح الأيمن للطائرة بالجبل وانفصل عنها لتتداعى الطائرة وتنزلق لمئات الأقدام لينكسر هيكلها وينفصل ويتهشم الجناح الأيسر تحت الحطام.قفز طاقم الطائرة لمسافة ١٥٠ قدم من الحطام بينما قُتِل كل الركاب فى الحال من تأثير الصدمة باستثناء الخبير ميلر.

مع أن التضاريس على الطريق من باجرام لفاراح جبلية فإن بلاكووتر 61 اختارت ما يمكن وصفه بأسوأ ممر للطيران..الطائرة تخطت تقريبا وادى باميان بأكمله قبل أن يقرر الطياران الانحراف للاتجاه فى خط يكاد يكون مباشرا نحو جبل بابا.وكما قال كيفن ماكبرايد أحد طيارى بلاكووتر فى وقت لاحق :"لا أعرف حقا كيف وصل الطياران لهذا المكان وأين عثرا عليه؟!...إن خط سلسلة الجبال الذى تحطمت عنده بلاكووتر 61 هو أعلى نقطة فى خطوط السلاسل الجبلية في مسارنا"

لكن الخطوات الخاطئة التى انطوى عليها الحادث ما كان لها أن تنتهى.فلم يكن لأى نوع من إجراءات النجدة والإنقاذ أن تبدأ حتى بصورة افتراضية إلا بعد ست ساعات من وصول الطائرة لفاراح وبعد ساعة واحدة من إقلاعها فى طريق العودة لباجرام . وسرعان ما تعرضت عملية البحث عن بلاكووتر 61 لعراقيل جراء الافتقار

لأى نوع من أجهزة تحملها الطائرة وتتيح إمكانية تتبعها والتوصل لمكانها فضلا عن الغياب الواضح للمعلومات حول طريقها المزمع ناهيك عن حالة الاضطراب والفوضى التى اكتنفت حتى تحديد المسئول عن العثور على الطائرة.يقول الميجور دافيد جى فرانسيز ضابط العمليات لأسراب مجموعة العمل، التى كانت جزءا من القوة ٧٦ المختلطة للعمليات والمهام المشتركة: مع الافتقار لأى جهود منسقة للإنقاذ والأخذ فى الاعتبار باحتمال أن تكون الطائرة قد اتجهت جنوبا، استعانت وحدتى بقطاعات بحث واسعة تغطى فى الواقع أغلب أنحاء أفغانستان. وكان هناك بعض الاضطراب والغموض حول المسئول عن إدارة عملية الإنقاذ. وفى لحظة معينة طُرِح السؤال: من صاحب هذه المهمة؟..لم تكن هناك خطة منسقة للإنقاذ حتى مرت ١١ ساعة على التوقيت المفترض لعودة الطائرة إلى باجرام فى ذلك اليوم الذى تحطمت فيه

ومرت ٧٤ ساعة حتى عُثِر على الحطام وسمحت الظروف لطائرات هليكوبتر من طراز CH-47 بالوصول لمكان الحادث وجمع الجثث وحُطام الطائرة وتسجيلات الصندوق الأسود والعتاد الذى كانت تحمله.ورغم أن الخبير ميلر قد نجا من الصدمة الأولى للحادث فإنه ما كان له أن يبقى على قيد الحياة لثلاثة أيام قبل أن تصل عناصر الإنقاذ.وعندما تحطمت الطائرة وصف الحادث فى تقارير إخبارية بأنه حادث عادى أى من ذلك النوع من الحوادث الذى ينتهى بأقل الاهتمام من جانب الصحف إن تكرمت ونشرت شيئا آخر حول مثل هذه الحوادث فى حيز ضئيل.والحقيقة أنه بعد أسبوعين على تحطم بلاكووتر 61 وصفت أرملة المهندس رو الحادث بأنه "حادث عادى من الحوادث التى كثيرا ما تتعرض لها الطائرات".

ولكن مع بدء خروج المزيد من التفاصيل وشروع الجيش فى التحقيقات لم تعد عائلات العسكريين الأمريكيين الذين قُتلوا فى حادث تحطم الطائرة تنظر للحادث باعتباره مجرد قضاء وقدر .وفى العاشر من يونيو ٢٠٠٥ رفعت عائلات مايكل مكماهون وترافيس جروجان وهارلى ميلر دعوى قضائية على شركة الطيران التابعة

لبلاكووتر تتهم فيها طاقم الطائرة بالإهمال كما تتهم الشركة بالتسبب فى مصرع هؤلاء العسكريين.وذهبت الدعوى إلى"أن الانتهاكات الصارخة والجسيمة لقواعد السلامة وتدابير الأمان تُظهر بوضوح قلة الاكتراث والاستهتار عن عمد بأرواح بشر وبحقوق ركاب الشركة وسلامتهم ..كما ورد فى الدعوى أن تصرفات الشركة "تُبين استهتارا وتُظهر سوء وجور وفساد سياساتها وإجراءاتها وتخطيطها وعملياتها الجوية".

قال روبرت سبوهرر محامى العائلات إن الشركة "أخلت بما يتوجب عليها من خدمات للقوات المسلحة.وإذا ما كان عليها تعهيد خدمات فى مجال مثل نقل الأفراد حول أفغانستان فلا بد من تنفيذ ذلك بواسطة شركات تضع سلامة العسكريين من رجالنا ونسائنا فى المقام الأول قبل السعى للربح.ومن المحزن أن ذلك لم يحدث هنا".وجدت دعوى العائلات ما يعضدها فى حقيقة تمثلت فى أن هيئة التحقيقات الأمنية بالجيش الأمريكى وجدت بلاكووتر مقصرة فى حادث تحطم الطائرة وقررت بعد تحقيقات مستفيضة ومطولة أن الطاقم عانى من "انحطاط فى إدراك الأوضاع وسوء تقدير للموقف وحالة من الغفلة وتواكل وثقة فى غير محلها فضلا عن القرارات السيئة والتقديرات المعيبة والقابلية للدخول فى معمعة مخاطر لا يمكن قبولها واحتمالها "

وتوصلت التحقيقات أيضا إلى احتمال معاناة الطيارين من اضطراب الرؤية وخداع البصر والهيبوكسيا التى تتضمن أعراضها أحيانا الهلوسة وشرود الذهن وانخفاض المهارات الحركية.كما قال الجيش:ثبت بالدليل "عدم كفاية إجراءات إعادة الفحص والتدقيق والتنسيق بين أفراد الطاقم" وفى المقابل ذهبت بريزيدنشيال إيروايز إلى أن هذا التقرير "أُنجز فى أسبوعين فحسب ويتضمن أخطاء عديدة ومغالطات وافتراضات لا أساس لها من الصحة".وفى ديسمبر ٢٠٠٦ وبعد قرابة العامين على استخلاص محققى الجيش لتقريرهم أصدرت الهيئة القومية لسلامة وسائل النقل تقريرها الخاص بالحادث.وخلصت الهيئة إلى أن طيارى "بلاكووتر" تصرفا بطريقة تفتقر للاحتراف وعمدا للطيران فى طريق غير معيارى وممر غير متعارف عليه

وبصورة أقرب للتهريج . ورأت الهيئة القومية لوسائل النقل أيضا أن رؤية الطيارين وتقديراتهما ربما تكون قد جاءت معيبة لأنهما لم يستخدما الأوكسجين بما ينطويه هذا على انتهاك للقواعد الفدرالية.وذكرت الهيئة:"وفقا للدراسات فإن شخصا دون أوكسجين إضافى لن يظهر سوى علامات قليلة وقد لا تظهر عليه البتة أى أعراض ومع ذلك فإن هذا الشخص يعانى من آثار نقص الأوكسجين لكنه قد لايُدرك ما يعانيه".ولعل أحد أكثر المعطيات أهمية نتيجة لتشريح الجثث والتي لم ترد فى التقرير السابق للجيش هو أن الخبير ميلر كان لديه "فرصة على وجه اليقين فى غضون ثمانى ساعات كحد أدنى للبقاء على قيد الحياة" بعد الحادث ولو كان ميلر "قد تلقى مساعدة طبية فى هذا الإطار الزمنى يعقبها تدخل جراحى مناسب لكان على الأرجح قد بقى حيا"

ولكن الهيئة وجدت أنه بسبب ما قيل عن عدم اتباع بريزيدنشيال إيروايز للإجراءات المنصوص عليها فى القوانين الفدرالية لتتبع الرحلات الجوية "عندما بدأت عمليات البحث عن الطائرات المفقودة فإن ميلر كان قد تقطعت به السبل وبقى عالقا فى الطائرة المنكودة لنحو سبع ساعات كما أن عملية إنقاذه تأخرت أكثر عندما تركزت جهود البحث الجوى لخمس ساعات تالية على مناطق لم تمر بها الطائرة".

جوزيف شميتز المستشار القانونى العام لشركة بلاكووتر الأم، أى برينس جروب، "وهو الرجل الذى سيُبحث أمره بالتفصيل فى فصل لاحق" وصف التقرير بأنه "خاطىء وله دوافع سياسية"حسبما ذكرت صحيفة نيوز&أوبزرفر برالي "وقال إن التقرير عمد للتغطية على أخطاء الجيش ولم يذكر شيئا عن هذه الأخطاء وأضاف:من الواضح أن الهيئة القومية لسلامة وسائل النقل لم تستكمل أصول التحقيقات السليمة فى الحوادث وهو ما وصفه بأنه أمر ينال من الضحايا ومن دافعى الضرائب الأمريكيين" فيما تابع بقوله: إن الشركة ستطلب من الهيئة القومية لوسائل النقل إعادة النظر فى معطياتها.

الواقع أن الهيئة القومية لسلامة وسائل النقل وإن كانت قد ألقت باللوم على الطيارين

وبرزيدنشيال فإنها أنحت باللائمة أيضا على إدارة الطيران الفدرالى والبنتاجون لعدم توفير "إشراف مناسب . وكتبت عضوة الهيئة رأيا مطابقا أُبرِز فيه حدوث اضطراب فى الاختصاصات بشأن التحقيق فى "حادث مدنى وقع فى مسرح عمليات حربية فيما كان المشغل يدير عمليات لصالح وزارة الدفاع" ووصفت هذه العضوة وتدعى ديبورا هيرسمان الأمر بأنه محير" وهى تتحدث عن عدم نهوض وزارة الدفاع وإدارة الطيران الفدرالى بأية مسئولية أو تبعات حيال "هذه الأنواع من الرحلات الجوية" وتضيف:حتى لو كانت إدارة الطيران الفدرالى مخطئة بشأن الإشراف فإنه لا هذه الإدارة ولا الهيئة القومية لوسائل النقل لديهما أى أفراد مكلفين بالعمل فى أفغانستان...هذه النقاط مقترنة بتوصيف هيرسمان لمهمة بلاكووتر 61 باعتبارها "عملية عسكرية واضحة وتخضع لسيطرة الجيش" تقود مباشرة للمسار الملتوى الذى سلكته بلاكووتر فى الدفاع عن نفسها فى مواجهة دعوى القتل الخطأ.

استراتيجية بلاكووتر فى الرد على دعوى أفغانستان كادت أن تتطابق مع دفاعها فى دعوى الفلوجة.. فبلاكووتر والشركات التابعة لها جزء من "القوة الكلية" لوزارة الدفاع ومن ثم فهى محصنة ضد دعاوى الخطأ المدنى ورفضت بلاكووتر بصلابة الإقرار بأن للمحاكم أى اختصاص بالدعوى وتحركت لوقف عملية استكشاف الدعوى فى أى اتجاه وذهبت إلى حد القول إن السماح لموظفيها بالإدلاء بشهادات أمام المحكمة ينال من حصانتها.واحتج محامو بلاكووتر بأن "الحصانة من الدعاوى القضائية لا تعنى فقط أن الطرف صاحب الحصانة لا يجوز تحميله أية مسئولية بل والأحرى لا يمكن مقاضاته بتاتا وبأى حال من الأحوال بل ولا ينبغى أن يتجشم مشقة المشاركة كطرف فى الدعوى القضائية.وهكذا فإن الزج ببريزيدنشيال فى إجراءات دعوى لا يعنى إلا تجريدها من حصانتها"

وفى سياق محاربة الدعوى القضائية تبنت بلاكووتر توجها ثلاثى المحاور يقوم على التمسك بحصانتها من مثل هذه الإجراءات القضائية وأن عملياتها تقع فى نطاق "المسألة السياسية" التى لابد وأن تعالج إما من خلال السلطة التنفيذية أو السلطة

التشريعية لا السلطة القضائية كما أن بلاكووتر هى فى جوهر الأمر امتداد للجيش ومن ثم فلا بد وأن تتمتع بالحصانة ذاتها التى تتمتع بها الحكومة عندما يُقتل أفراد من العسكريين أو يتعرضون لإصابات ثم أنه من المتوجب تحصين بلاكووتر من الدعاوى القضائية بمقتضى استثناء من القانون الفدرالى لدعاوى الخطأ المدنى مُنح فى الماضى لمقاولين مسئولين عن تصميم وتنفيذ مكونات معقدة لمعدات عسكرية. ورصد مقاولون عسكريون آخرون عن كثب دفوع بلاكووتر فى قضيتى الفلوجة وأفغانستان لاعتقادهم أن النتائج ستكون لها بالضرورة مضاعفات وتداعيات بعيدة المدى على الصناعات الحربية بأكملها.

مبدأ المسألة السياسية...

استشهدت بلاكووتر/بريزيدنشيال فى الأوراق التى قدمتها للمحكمة "بمبدأ المسألة السياسية" الذى يرتكز على فكرة فحواها أن "القضاء ينبغى له أن يحجم عن البت فى مسائل خلافية أحالها الدستور نصا لفرع سياسى آخر وأن يرفع يده عن قضايا تقع خارج نطاق اختصاص المحاكم التي لا يمكن لها حسمها نظرا للافتقار فى هذه الحالات لمعايير متعارف عليها قضائيا". ولما كانت بلاكووتر قد أشارت فى حججها إلى أنها جزء معترف به من "القوة الكلية" للولايات المتحدة كما أنها جزء من الطاقات والقدرات القتالية" لوزارة الدفاع فقد دفعت الشركة بأن "السماح لمحاكم مدنية بالنظر فى قضايا تتعلق بمسئوليات عن عسكريين قُتلوا أو أصيبوا فى عمليات تتضمن مقاولين فى ميدان الحرب لابد وأن يقحم هذه المحاكم مباشرة فى تنظيم العمليات العسكرية".

هذا الدفع لم يلق ترحيبا من قاضى المحكمة المحلية التى تنظر القضية. وفى معرض رفضه لدفع بلاكووتر استشهد القاضى جون أنتوون بحكم صدر فى عام ٢٠٠٦ فى قضية سميث ضد شركة هاليبورتون وهى الدعوى التى تتهم هذه الشركة بالإهمال لإخفاقها فى تأمين قاعة طعام بمدينة الموصل فى العراق والتى ضُربت بمفجر انتحارى يوم الحادى والعشرين من ديسمبر ٢٠٠٤ مما أدى لمقتل ٢٢ شخصا.

ووجد القاضى أنتوون "أن التحقيق الملائم وفقا للمحكمة يتوقف على ما إذا كانت الدعوى تستلزم منها السؤال حول مهام الجيش ورد فعله على الهجوم.فإذا كان الجيش مسئولا عن تأمين المنشأة لابد وأن يتطلب البت فى الأمر "الخوض فى تفاصيل عملية صنع القرار العسكرى وتقييم تصرفات الجيش ومسلكه وهو ما يدخل فى باب المسألة السياسية ولكن إذا كان المقاول هو المسئول بصورة أساسية عن تأمين قاعة الطعام بموجب العقد فإن الدعوى تكون مقبولة.وخلص القاضى إلى" أن هناك فارقا أساسيا بين السؤال عن تنفيذ الجيش لمهمة ما والسؤال عن الطريقة التى يُنفذ بها مقاول التزاماته التعاقدية" ووضعت المحكمة استنتاجها كالتالى:"الموقف الأول يدخل فى باب المسألة السياسية أما الموقف الثانى فلا يدخل فى هذا الباب".

قرر القاضى أنتوون أنه لما كانت بلاكووتر 61 "عليها أن تطير بصورة طبيعية كما تقضى معايير وقواعد الطيران التجارى حتى ولو كان ذلك فى مناطق غريبة وذات تضاريس صعبة ووسط ظروف غير آمنة" ولما كان بالوسع رفض القيام بأية مهمة إذا استشعروا بأنها خطيرة للغاية فإنه "لا يبدو أن هذه المحكمة ستوجه أيه أسئلة تتعلق بالأوامر العسكرية التكتيكية".وفى نهاية المطاف رفضت المحكمة دفع بلاكووتر الخاص "بالمسألة السياسية" وقالت إنه "لا يشكل أساسا صحيحا لرفض الدعوى".

وتناول أنتوون أيضا الحجة التى قدمتها بلاكووتر باعتبارها جزءا جوهريا من القوات المسلحة موضحا أنه كان بمقدور الحكومة الفدرالية أن تقدم للمحكمة مايثبت تأييدها لبلاكووتر فى هذه الدعوى ولكنها لم تفعل ذلك، الأمر الذى يبين كما كتب القاضى أن "الولايات المتحدة لم تشأ التدخل لصالح المدعى عليه فى هذه القضية.فقد أعرضت عن فرصة للتدخل وشرح كيفية تأثر مصالحها بهذه الدعوى ".وفى سياق توبيخه لبلاكووتر بدا أن القاضى أراد أن يوضح أن هذه الأوضاع الحالية للمقاولين يمكن أن تتغير فى المستقبل وقال :"إن الحصانة ضد دعاوى مسئولية الضرر المدنى الممنوحة للشركات التى تعمل من أجل الربح وتؤدى وظائف عسكرية تقليدية إنما يعتبر نطاقها ومداها مسألة تهم الأفرع السياسية".

مبدأ فريز...

فى سياق دفعها بالحصانة ضد دعاوى الضرر المدنى-تعرضت بلاكووتر لمبدأ فريز الذى يقضى بأن الحكومة لها حصانة سيادية فى مواجهة دعاوى الضرر المدنى الخاصة "بإصابات العسكريين عندما تكون هذه الإصابات بسبب حوادث تقع أثناء العمليات ومرتبطة بظروف العمل والخدمة". وجادلت بلاكووتر بأن "أمر لا يعتد به فى هذا السياق إن كان الراحلون قد قضوا نحبهم فى طائرة تستأجرها القوات الجوية بدلا من طائرة تقوم القوات الجوية بتشغيلها. فالمهم هنا أنهم من العسكريين وماتوا أثناء واجب العمليات الحربية". وذهبت بلاكووتر إلى أنه حتى عائلات الجنود الموتى أقروا بأن أعزاءهم الراحلين كانوا قد نُشروا فى أفغانستان وقضوا نحبهم فى منطقة عمليات حربية وأن ذلك حدث أثناء نقلهم فى مهمة عسكرية لوزارة الدفاع بين قاعدتين جويتين فى أفغانستان".

بوضوح-دحض القاضى أنتوون تفسير بلاكووتر لحصانة ممنوحة للجيش دون غيره ومحاولتها وضع نفسها تحت مظلة هذه الحصانة فقال:إن فريق المحامين لبلاكووتر"لم يذكر سابقة قضائية طُبِّق فيها مبدأ فريز على شركات خاصة" وأردف قائلا :إن بلاكووتر/بريزيدنشيال"تحاول فى جوهر الأمر إخفاء طلبها من هذه المحكمة والتمويه عليها بمد مبدأ فريز ليطبق بعيدا عن حدوده المعترف بها والمنطقية بذكر مسائل تؤكد على وضع المشكو من أجل حقوقهم باعتبارهم جزءا من الجيش وهو ما لا ينطبق على وضع بلاكووتر وهذا ما يهمنا هنا"

وخلص القاضى إلى أن "المدعى عليهم فى هذه القضية هم بوضوح ليسوا مخولين بالحصانة بموجب مبدأ فريز لأنهم من الكيانات التجارية الخاصة..المدعى عليهم دخلوا فى التعاقد كجهة تجارية تسعى للربح وتقدم خدمات مدفوعة الثمن. وببساطة لا يمكن القول إن الخدمة التى تقدمها فى جبال أفغانستان أثناء نزاع مسلح يمكن أن تجعل المدعى عليهم أو العاملين معهم أعضاء فى الجيش أو موظفين لدى الحكومة". بكلمات أخرى، قرر أنتوون أنه حتى إذا أشار البنتاجون لمقاولين وشركات

عسكرية خاصة باعتبارها جزءا من "قوته الكلية" فإن ذلك لن يغير من وضع بلاكووتر كشركة خاصة تسعى للربح ومسئولة عن أعمالها وتصرفاتها.

استثناء من القانون الفدرالي لدعاوى الضرر

ثالث دفع من الدفوع الرئيسية التى قدمتها بلاكووتر للحصانة من دعاوى الضرر كان يتمثل فى أن الشركة كمقاول عسكرى لابد وأن تكون محصنة من هذه الإجراءات القضائية تماما مثل بعض منتجى المعدات العسكرية والأسلحة. ففى إحدى الحالات رفعت عائلة جندى راحل من رجال المارينز دعوى قضائية على شركة من شركات صناعة الأسلحة لوجود عيوب فى تصميم خاص بنظام النجاة فى طائرة هليكوبتر وخلصت المحكمة إلى أن "قانون الولاية لدعاوى الضرر يجبه ويسبقه الاهتمام البالغ والعميق للحكومة باقتناء معدات عسكرية متطورة ومعقدة" وأن للحكومة حرية التصرف والتقدير فى منح أولوية للكفاءة القتالية على اعتبارات السلامة، عندما يتعلق الأمر بتصميمات الأسلحة والمعدات العسكرية".

القاضى أنتوون قرر أنه رغم وجود الاعتبارات الخاصة بالدفاع وامتداد هذه الاعتبارات الدفاعية فى بعض الحالات إلا أنه لا يوجد "حق يخول منح هذا الدرع من الحصانة السيادية لمقاولين خاصين فى القانون وحتى يتخذ الكونجرس موقفا مغايرا ويصدر توجيهات أخرى فإن المقاولين والشركات الخاصة لا تنسحب عليها بإطلاق الاستثناءات الممنوحة لجهات مثل تلك المعنية بتصميمات الأسلحة المعقدة والمعدات العسكرية المتطورة.."والمحكمة تتشكك فى أن الاستثناء الخاص بالأنشطة القتالية الوارد فى القانون الفدرالى لدعاوى الضرر المدنى والذى يمنح للحكومة حصانة سيادية تقليدية من المسئولية يمكن تطبيقه بأى حال من الأحوال على دعاوى ضد مقاولين وشركات عسكرية خاصة. وكتب أنتوون: "وفيما يتعلق بنطاق التطبيق فإن هذه الحصانة تُمنح على أقصى تقدير لشركات عسكرية خاصة ليس لشىء إلا لحماية منتجاتها التى تتضمن معدات عسكرية معقدة ومتطورة فى زمن الحرب من دعاوى المسئولية. وهى لا تمتد أبدا لتحول دون رفع دعاوى خاصة بالإهمال الجسيم من

جانب مقاولين عاملين فى مجال تقديم الخدمات للجيش كما أنه لايجوز لهذه المحكمة أن توسع نطاق الحصانة وتطبيقاتها فى هذه الحالة".

قطاع الطيران الغامض فى بلاكووتر

فى أواخر سبتمبر ٢٠٠٦ رفض القاضى أنتوون كل طلب تقدمت به بلاكووتر لوقف النظر فى الدعوى ورفضها وكما هو متوقع شرعت الشركة فورا فى عملية الاستئناف .وفيما رفض أنتوون بحسم ادعاء بلاكووتر بأنها فى واقع الحال امتداد للجيش الأمريكى استنادا على الوضع الذى تدعيه لنفسها كجزء من "القوة الكلية" للبنتاجون فإن بلاكووتر ربما تكون قد تداخلت بشدة وتشابكت خيوطها مع أنشطة الجيش وخيوط وكالات الاستخبارات أكثر من أى وقت مضى وأكثر مما باحت به الشركة.

ومع أن قليلا من الاهتمام مُنح لقطاع الطيران فى بلاكووتر وتركز على الدعوى القضائية الخاصة بحادث أفغانستان فإن الشركة حظت بعقود متعددة مع الحكومة الأمريكية لتزويدها بطيارين وطائرات.ومن الصعوبة بمكان الحصول على معلومات حول استخدام الحكومة لطائرات بلاكووتر ولكن ثمة أدلة موثقة جيدا تفيد أن وكالات المخابرات الأمريكية فضلا عن الجيش استخدموا طائرات تابعة لشركات خاصة لـ"تسليم سجناء حول العالم وخاصة فى ظل "حرب" إدارة بوش "على الإرهاب"..بموجب هذا البرنامج السرى كان السجناء يُنقلون أحيانا إلى دول ذات سجلات مريبة أو فظيعة فى مجال حقوق الإنسان حيث يجرى استجوابهم بعيدا عن أية رقابة مناسبة أو إجراءات واجبة.

لتجنب الرقابة استخدمت الحكومة شركات طيران خاصة صغيرة- الكثير منها ذات وثائق ملكية مهلهلة وحافلة بالثغرات- لنقل السجناء.."مشبوهو الإرهاب فى أوروبا وإفريقيا وآسيا والشرق الأوسط، كثيرا مايجرى خطفهم من جانب عملاء أمريكيين ملثمين أو مقنعين ثم يجرى اقتيادهم عنوة لطائرة من طائرات فى جالف- ستريم .هكذا كتب الصحفى المحقق جان ماير فى مجلة ذى نيويوركر.. والطائرة "لديها تصريح بالهبوط فى قواعد عسكرية أمريكية.وعند الوصول لدول أجنبية فإن

المشبوهين «المُسلَّمين» غالبا ما يختفون..لا يسمح للمحتجزين بالاستعانة بمحامين وأغلب عائلاتهم لا تُخطر بأماكن احتجازهم .ورغم عدم وجود ما يربط بلاكووتر مباشرة بهذه العمليات الاستثنائية وغير العادية لنقل المشتبه فيهم فإن ثمة وفرة من الأدلة الاستنتاجية التى تضغط من أجل الفحص الدقيق والتحقيق.

برنامج «تسليم» المشبوهين لم يولد من رحم إدارة بوش وإنما فى الحقيقة ظهر لحيز الوجود أثناء إدارة كلينتون فى منتصف التسعينيات من القرن العشرين.وكالة المخابرات المركزية "سى أى أيه" وبموافقة البيت الأبيض فى عهد كلينتون وبتوجيه رئاسى بدأت فى إرسال مشبوهى إرهاب لمصر حتى يمكن استجوابهم من جانب عناصر المخابرات بعيدا عن مظلة القانون الأمريكى والإجراءات القانونية الواجبة .وفى عام ١٩٩٨ مرر الكونجرس الأمريكى مشروع قانون يقضى بأنه "ليس من سياسة الولايات المتحدة إبعاد وتسليم، فضلا عن إرغام، أى شخص على العودة لبلد توجد فيه من الأسباب الجوهرية ما يدفع للاعتقاد بأن هذا الشخص سيكون عرضة لخطر التعذيب وبصرف النظر عما إذا كان الشخص حاضرا بوجوده المادى فى الولايات المتحدة".

بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ نُحى هذا التشريع جانبا فى ظل "النموذج المعياري الجديد" لإدارة بوش الذى يجرد المشتبه فى تورطهم فى أنشطة إرهابية مزعومة من حقوقهم الأساسية..هذا الفكر عبّر عنه أفضل تعبير نائب الرئيس الأمريكى ديك تشينى عندما ذهب بعد خمسة أيام من أحداث١١ سبتمبر فى برنامج لقاء مع الصحافة على شبكة إن بى سى إلى أن الحكومة لا بد وأن "تعمل عبر نمط الجانب المظلم" وقال :"الكثير مما يتوجب عمله هنا ينبغى القيام به بهدوء ودون أية جلبة أو نقاش باستخدام موارد وأساليب متاحة لأجهزة ووكالات مخابراتنا إن كنا ننشد النجاح..هذا هو العالم الذى يعمل فيه هؤلاء الناس والأقوام ولذا فمن الحيوى لنا أن نستخدم أية سبل ووسائل تحت تصرفنا بصورة جوهرية لتحقيق هدفنا"

وترددت هذه الأفكار على لسان بوزى كرونجارد الرجل الثالث حينئذ فى السى آى

إيه– والذى قيل إنه كان مسئولا عن العقد الأمنى الأول لبلاكووتر فى أفغانستان– والذى أعلن أن الحرب على الإرهاب "سيتحقق لها الفوز إلى حد كبير بقوات لا أحد يعلم عنها شيئا وبأفعال لايراها أحد وبطرق ووسائل ربما لا يريد المرء أن يعرف عنها شيئا"

استخدام الولايات المتحدة لشركات الطيران السرية يرجع على الأقل إلى الحرب الفيتنامية ..فمن عام ١٩٦٢ وحتى عام ١٩٧٥ استخدمت السى آى إيه شركة الخطوط الجوية التى تمتلكها سرا وهى شركة "إير أميركا" –التى كانت تعمل أيضا فى الوقت ذاته كشركة للطيران التجارى–للقيام بعمليات سرية أو خفية من شأنها أن تثير لغطا وحملات عدائية ودعوات للتحقيق إذا ما تمت علانية وكُشف عنها النقاب.وطبقا لورقة بحثية وُضعت على الموقع الإلكترونى لوكالة المخابرات المركزية وكتبها البروفسور ويليام إم.ليرى أستاذ التاريخ بجامعة جورجيا فان"إير أميركا شركة الخطوط الجوية التى تمتلكها سرا السى آى إيه كانت مكوّنا حيويا فى عمليات الوكالة فى لاوس".

ويضيف :"بحلول صيف ١٩٧٠ كانت هذه الشركة تستحوذ على نحو ٢٤ طائرة من طائرات النقل ذات المحركين وزهاء ٢٤ طائرة أخرى من طائرات الرحلات القصيرة فضلا عن نحو ٣٠ طائرة هليكوبتر مخصصة للعمليات فى لاوس.وكان هناك أكثر من ٣٠٠ طيار ومساعد طيار وميكانيكى طائرات وخبير شحن جوى يطيرون فوق لاوس وتايلاند..ونقلت أطقم إير أميركا عشرات الآلاف من الجنود واللاجئين وقامت برحلات جوية عاجلة لإخلاء المصابين وإنقاذ رجال سلاح الجو الذين أُسقطوا عبر لاوس وإدخال وتخليص مجموعات مراقبة الطرق وتنفيذ مهام ليلية للإنزال الجوى على ممر هوشى منه ومراقبة المجسات وأجهزة الاستشعار على طرق الاختراق وإنجاز برنامج استطلاع للتصوير الجوى بنجاح فائق والمشاركة فى العديد من المهام السرية باستخدام أجهزة الرؤية الليلية وأحدث معدات الحرب الإلكترونية..دون وجود إير أميركا ما كان بمقدور السى آى إيه أن تواصل عملياتها فى لاوس

فى عام ١٩٧٥ بدأت «لجنة تشيرش» التحقيق فى مشروعية الممارسات والأساليب الاستخبارية الأمريكية وأبلغ رئيس هيئة الخدمة السرية والواجهات التجارية بالسى آى إيه لجنة مجلس الشيوخ بأنه إذا ما فرضت متطلبات واحتياجات عملياتية نفسها مجددا مثلما حدث فى الحرب الڤيتنامية "فإننى أحسب أن الوكالة سيكون عليها النظر فى تأسيس شركة جوية خاضعة لملكيتها وتعمل على نطاق واسع بشرط واحد هو أن تكون هناك إمكانية لإخفاء تبعيتها للسى آى إيه"

بعد عقود، فإن إدارة بوش التى تخوض حربا يشبهها الكثيرون بڤيتنام رأت بوضوح أنها بحاجة لأسطول سرى من الطائرات.وبُعيد ٩/١١ بدأت الإدارة فى برنامج لاستخدام شبكة من الطائرات الخاصة فيما راح البعض يشير لها باعتبارها "إير أميركا الجديدة".وانطلق برنامج «تسليم» المحتجزين بوتيرة عالية فيما بدأت الولايات المتحدة فى تشغيل شبكة معقدة من السجون السرية ومراكز الاحتجاز حول العالم باستخدام طائرات خاصة لنقل السجناء.وقيل إن أغلب الطائرات التى شاركت فى عمليات «تسليم» السجناء والمحتجزين فى ظل حرب إدارة بوش على الإرهاب كانت تمتلكها شركات متوارية عن الأنظار.وعلى العكس كانت بلاكووتر تمتلك مباشرة قطاع طيرانها وتزهو علانية وعلى رءوس الأشهاد بدور هذا القطاع فى دعم مشاركتها فى العمليات العسكرية.

طيران بلاكووتر وُلدت فى شهر أبريل عام ٢٠٠٣ فيما كان احتلال العراق يمضى قدما عندما استحوذت مجموعة برينس على أفياشن وورلد وايد سيرفيسيز (AWS) والشركات التابعة لها ومن بينها بريزيدنشيال إيروايز..كونسورتيوم AWS جرى تكوينه فى مطلع عام ٢٠٠١ بملكية تيم شيلدرى وريتشارد بيرى "ليركز على عمليات التدريب العسكرى والنقل الجوى لصالح الحكومة الأمريكية". بريزيدنشيال إيروايز كانت الناقل الجوى المرخص. وبالإضافة لعقد أفغانستان قسمت طائرات CASA 212 ومترو 23 فى إطار عقود للتدريب العسكرى بعضها مع قيادة العمليات الخاصة الأمريكية..أما إس تى آى أفياشن فهى شركة الصيانة

للأسطول الجوى لبلاكووتر فيما تقدم .Air Quest Inc طائرات سيسنا كارفان مزودة بأجهزة رقابة جوية وكانت قد قدمت طائرات مراقبة فى عامى ٢٠٠٠و٢٠٠١ للقيادة الجنوبية الأمريكية لعمليات فى أمريكا الجنوبية.

وقال جارى جاكسون رئيس بلاكووتر فى سياق إعلانه عن استحواذ شركته على هذه الشركات الجوية: "إلى جانب تقديم حلول للتدريب بالأسلحة النارية والأهداف الصلبة وبناء ساحات الرماية وتلبية متطلبات أمنية-تقدم بلاكووتر الآن لعملائها حلولا فى مجال الطيران والخدمات اللوجيستية"..إن قطاع النقل الجوى الجديد "يتمم هدفنا الاستراتيجى فى تقديم حل مريح للمتطلبات الأمنية والتدريبية التكتيكية لكل عملائنا".

شرعت بلاكووتر أيضا فى تطويز منطاد مراقبة يمكن استخدامه للتجسس على قوات "العدو" فى الخارج أو من جانب وزارة الأمن الداخلى لمراقبة الحدود.وفى عام ٢٠٠٤ أعلنت بلاكووتر عن خطط لنقل عمليات قطاع طيرانها إلى كارولاينا الشمالية وفى عام ٢٠٠٦ سعت للحصول على موافقة لبناء قاعدة جوية خاصة ذات مدرجين لأسطولها الجوى المكون من أكثر من ٢٠ طائرة وقال جاكسون: "لدينا أسطول من الطائرات له بالكامل زبائنه.كل طائرة لها العقد الخاص بها". وفيما لم يكن الدور الذى تقوم به هذه الطائرات فى الحرب على الإرهاب واضحا فإن جناح طيران بلاكووتر يناسب أنماط هذه الشركات الضالعة فى مهام «تسليم» المحتجزين من مشبوهى الإرهاب.

طائرات بلاكووتر قامت برحلات توقف فى مطار بينال إير بارك بأريزونا والذي كان قد استخدم لإيواء أسطول إير أميركا.وبعد عمليات فحص وتحقق علنى أرغمت السى آى إيه على تفكيك أسطولها الجوى وبيع المطار لتشتريه بالتالى شركة اسمها إيفرجرين إنترناشيونال أفياشن وكان من بين أعضاء مجلس إدارتها الرئيس السابق للعمليات الجوية فى سى آى ايه.وحتى عام ٢٠٠٦ استمرت إيفرجرين فى امتلاك وتشغيل موقف الطائرات هذا واستخدامه أساسا كمستودع للطائرات غير المستخدمة ولحد كبير لأن المناخ الصحراوى يتيح للطائرات البقاء لمدد أطول وبصيانة

أقل.ولم يكن من المثير للدهشة أن تتفاخر الشركة فى إبريل ٢٠٠٦ بأنها "حققت نموا لرابع عام على التوالى .

وفضلا عن رحلات التوقف هذه فى بينال إير بارك ترددت طائرات تمتلكها بلاكووتر باستمرار على عديد من المطارات التى قيل إنها ضالعة فى برنامج «التسليم» أى نقل المحتجزين من مشبوهى الإرهاب..إيرو كونتراكتورز التى سُلطت عليها الأضواء مؤخرا وحظيت بكثير من الاهتمام لعلاقاتها بالسى آى إيه كانت مقارها فى جونستون كاونتى بكارولاينا الشمالية حيث "اختيرت عمدا بالقرب من قاعدة بوب الجوية ومن هناك يمكن لطيارى سى آى إيه التقاط الكوادر العسكرية غير النظامية المتمركزة فى حامية فورت براج وهى قاعدة للقوات الخاصة.والتمركز بالقرب من هذه القاعدة العسكرية الهامة ملائم أيضا لأسباب أخرى "فهذا يعزز غطاءنا الأساسى على حد قول طيار سابق موضحا "أن هذا الغطاء يتمثل فى أننا نقوم بتنفيذ عقود حكومية لصالح الجيش ولمعشر القوم فى فورت براج".جيم راين كبير طيارى إير أميركا سابقا أسس ايرو كونتراكتورز لحساب سى آى إيه. ووفقا لأحد الطيارين فقد "اختار هذه القاعدة الجوية الريفية فى جونستون كاونتى لأنها قريبة من فورت براج والعديد من قدامى المحاربين فى القوات الخاصة كما لا يوجد برج مراقبة يمكن استخدامه فى التجسس على عمليات الشركة".جونستون كاونتى مجرد مطار من المطارات المستخدمة باستمرار فى الرحلات الجوية لسى آى إيه على حد قول الخبراء.ووفقا لمؤلفىْ كتاب «تاكسى التعذيب» فإن"طائرات السى آى إيه ستطير بصورة مثالية من هذه القواعد الجوية الريفية فى كارولاينا الشمالية وحتى دالاس".

* نظرة خاطفة على سجلات الرحلات الجوية للطائرات المسجلة لدى شركتين تابعتين لبلاكووتر وهما أفياشن وورلد وايد سيرفيسيز وبريزيدنشيال إيروايز تكشف عن عديد من الرحلات لطائرات تتبع هذه النماذج وتتردد باستمرار على مطارات مرتبطة بسى آى إيه.

* منذ فبراير ٢٠٠٦ قامت طائرة CASA 212 فى رحلاتها إن 964 بى دبليو

بالطيران فى المسار من جونستون كاونتى حتى دالاس واستخدمت بينال إير بارك ثلاث مرات وقاعدة بوب التابعة لسلاح الجو مرتين كما استخدمت قاعدة فيليبس التابعة لسلاح الجو وقاعدة ماكال الجوية التابعة للجيش وهبطت مرتين فى ممر الهبوط بكامب بيرى الذى يتسع لمساحة قدرها تسعة آلاف فدان تُستخدم كمنشأة تدريب للسى آى إيه وتعرف "بالمزرعة".

* قامت طائرة CASA 212 فى رحلاتها إن 962 بى دبليو برحلات عديدة بين جونستون كاونتى ودالاس واستخدمت كامب بيرى وقاعدة سيمونز الجوية التابعة للجيش فى فورت براج وقاعدة بلاكستون الجوية التابعة للجيش بالقرب من فورت بكيت وذُكِر أن آخر رحلاتها كانت فى سبتمبر ٢٠٠٦ عندما اتجهت من جووس باى فى نيوفوندلاند وهى قاعدة جوية كندية وأطلسية إلى نارسارسواك فى جرين لاند.

* طائرة مترو إس إيه 227-دى سى تحمل رحلاتها الكود إن 955 بى دبليو ومسجلة لدى أفياشن وورلدوايد لكن تبين أنها لم تقم برحلات مؤخرا وهو ما ينطبق أيضا على رحلات إن 961 بى دبليو أو إن 963 بى دبليو وكلاهما رحلات لطائرات CASA 212 وكل هذه الطائرات لها أرقام مسلسلة ولكن لم تعرف طبيعة مهامها.

* الطائرة التى تحمل رحلاتها الكود إن 956 بى دبليو اختفت من الرادار فى يناير ٢٠٠٦ بمجرد بدء رحلتها الجوية من لويزيانا إلى كارولاينا الشمالية.

* فى رحلاتها إن 965 بى دبليو تسافر طائرة CASA 212 بانتظام لبينال إير بارك والقاعدة الجوية اللوجيستية فى جنوبى كاليفورنيا التى يستخدمها الجيش. كما توقفت فى توركس&كيكوس وجمهورية الدومنيكان والباهاما وسانت كروا وترينداد وتوباجو.

* طائرة CASA 212 استخدمت فى رحلاتها المكودة إن 966 بى دبليو مطار بينال إير بارك كما توقفت فى العديد من مطارات الكاريبىَ على غرار الرحلات

المكودة إن965بى دبليو واستخدمت قاعدة بوب الجوية فيما قامت برحلات عديدة بين دالاس-جونستون.

* طائرة CASA 212 تحمل رحلاتها الرقم الكودى إن967بى دبليو سُجلت آخر مرة وهى متجهة من جووس باى إلى نارسارسواك وذلك بعد أسبوعين من الرحلة إن 962بى دبليو.

* طائرة CASA 212 تحمل رحلاتها الرقم الكودى إن 968 بى دبليو تقوم برحلات توقف بانتظام فى جونستون كاونتى ودالاس وقاعدة فليبس الجوية وكامب بيرى واستخدمت قاعدة بوب الجوية وبينال إير بارك ومحطة جوية بحرية محيطية.

وإلى جانب ذلك كله فإن طائرات بلاكووتر التى تقوم برحلات جوية دورية اعتيادية داخل أفغانستان كُلفت أيضا برحلات خارج هذه الدولة شملت أوزبكستان.وفى تقرير وكالة الطيران الفدرالى حول حادث تحطم بلاكووتر 61 نُقل عن الكابتن طيار إدوين آر.بيرنز قوله إن "إحدى الطائرات التى تدّرب إنجليش وهامر على استخدامها وهى طائرة مترو جرى استعمالها كطائرة خاصة فى رحلات لأوزبكستان ..أوزبكستان تعد أحد "المقاصد الرئيسة والوجهات المحورية" لكل من الجيش الأمريكى والسى أى إيه فى عملياتها الخاصة «بتسليم» المحتجزين من مشبوهى الإرهاب وقيل إن السجناء يساقون لهناك بغرض الاستجواب وفى سياق التسلم من أفغانستان.والحاصل أيضا أن طائرات بلاكووتر فى أفغانستان كانت تعمل من باجرام وهى القاعدة المعروفة التى تديرها الولايات المتحدة للاحتجاز والتعذيب.وبمقتضى عقد بلاكووتر/بريزيدنشيال فى أفغانستان فإن كافة الأفراد عليهم حمل تصاريح أمنية سرية".ويحدد العقد أيضا متطلبات "العمليات الأمنية" بأنها معلومات من قبيل مواعيد وجداول الرحلات الجوية والفنادق التى تقيم بها أطقم الطائرات ورحلات العودة وحقائق أخرى حول المهمة الدولية وكلها يتوجب أن تبقى طى الكتمان ولا يصرح بها إلا لأشخاص بحاجة لمعرفة هذه المعلومات.وعلى أطقم الطائرات أن يكونوا على معرفة جيدة بهؤلاء الأشخاص الذين

يطلبون معلومات حول الشركة والرحلات..الخ كما ينبغى عليهم التوارى عن الأنظار أثناء تنفيذ مهامهم .

يتطلب الأمر تحقيقا متعمقا بعيد المدى لتقرير ما إذا كان لبلاكووتر أى دور فى البرامج السرية للحكومة بشأن تسليم مشبوهى الإرهاب وتحديد ما إذا كان هناك أى دور أصلا للشركة فى هذه البرامج المعروفة ببرامج الإعادة والتسليم .جارى جاكسون رئيس الشركة كان صفيق الوجه للحد الذى تفاخر فيه بالعقود "السوداء" و"السرية" لبلاكووتر والتى لا يمكن نشرها علانية أو تتبعها وقال بجرأة:إن هذه العقود تبلغ من السرية الحد الذى لا يمكن فيه أن يتحدث مع وكالة فدرالية ويخبرها عن عمل بلاكووتر مع وكالة فدرالية أخرى.وفى ظل الحرب على الإرهاب كان العقد الأمنى الأول لبلاكووتر عقدا "أسود" مع سى آى إيه، هذه الوكالة التى ترتبط معها الشركة بروابط وثيقة .ثم حدث هذا التطور:فى مطلع ٢٠٠٥ استأجرت بلاكووتر جاسوس السى أى إيه المحترف الذى يعتقد الكثيرون أنه كان مسئولا عن إطلاق برنامج إدارة بوش بعد ١١ سبتمبر للإعادة والتسليم:إنه جى كوفر بلاك المدير السابق لمركز السى أى إيه لمكافحة الإرهاب.فى نوفمبر ٢٠٠١ عندما اعتقلت قوات أمريكية ابن الشيخ الليبى معتقدة أنه يدير معسكر تدريب القاعدة فى خالدن بأفغانستان وحينئذ قيل إن بلاك طلب تصريحا وحصل عليه من البيت الأبيض عبر جورج تنت مدير السى أى إيه لنقل الليبى وتسليمه رغم ما تردد عن اعتراضات لمسئولى إف بى آى الذين قالوا إنهم راغبون فى رؤيته والتعامل مع المسألة بمزيد من الشفافية.قال مسئول سابق فى الإف بى آى لمجلة نيوزويك:"لقد كمموه وكبلوه وشحنوه للقاهرة.فى المطار توجه ضابط الحالة بالسى آى إيه نحوه وقال:أنت ذاهب للقاهرة..هل تعرف ؟..قبل أن تذهب للقاهرة سأذهب أنا لأعثر على أمك وأضاجعها".■

15

الفصل الخامس عشر

كوفر بلاك يخلع القفاز

منذ ٩/١١، كان السفير جيه. كوفر بلاك بين القلائل المتاح لهم لقاء الرئيس بوش فى أى وقت يريده، بل والاطلاع على الخطط السرية لـ«الحرب على الإرهاب». كان بلاك الذى عمل بالسى آى إيه ثلاثين عاما، شخصية أسطورية فى عالم التجسس الدولى الغامض، وكان أسامة بن لادن قد قرر قتله فى التسعينيات. برز اسم بلاك فى عالم التجسس فى أعقاب الدور المركزى الذى لعبه بالسودان لإلقاء القبض على الإرهابى الدولى ذائع الصيت راميريذ سانتشيذ المعروف باسم «كارلوس ابن آوى». قضى كوفر سنوات حياته الوظيفية بإفريقيا والشرق الأوسط، وحينما وقعت أحداث ٩/١١، اقتنص، بحماس، دورا رئيسيا فى التخطيط للاستجابة الفورية للولايات المتحدة.

يوم ١٣/٩/١ ٢٠ بعد يومين من اصطدام الطائرات بمركز التجارة العالمى والبنتاجون -كان بلاك يجلس بالبيت الأبيض مع الرئيس بوش يُطلعه على نوع

الحملة التى أعدها منذ أن التحق بالسى آى إيه عام ١٩٧٤، لكنه حيل بينه وبين تنفيذها. كان بلاك، بعد فترة تدريب فى العمليات السرية، قد أُرسِل إلى إفريقيا حيث قضى جل فترة عمله بالسى آى إيه. عمل بزامبيا أثناء الحرب الروديسية، ثم فى الصومال، وجنوب إفريقيا أثناء حرب نظام الآبارتايد الوحشية ضد الغالبية من السود. أثناء الفترة التى قضاها بزائير عمل بلاك على برنامج الأسلحة السرى لإدارة ريجان لتسليح القوات المعادية للشيوعيين بأنجولا. وبعد عقدين بالسى آى إيه، وفترة وجيزة بلندن، وصل بلاك تحت غطاء دبلوماسى إلى سفارة الولايات المتحدة بالخرطوم، حيث عمل رئيسا لمحطة السى آى إيه من عام ١٩٩٣ وحتى عام ١٩٩٥، وهناك مضى يراقب الأوضاع فيما كان ثرى سعودى يُدعى أسامة بن لادن يُشيّد شبكته الدولية لتصبح، وفقا لوصف السى آى إيه لها لدى نهاية فترة بلاك «صندوق فورد للإرهاب الإسلامى السنى».

وأثناء معظم سنوات التسعينيات، كان العملاء الذين يقتفون أنشطة بن لادن يعملون

وفقا «لأمر إدارى عملياتى» قصر أنشطتهم على جمع الاستخبارات عن بن لادن وشبكته؛ لم يكن لهم تفويض من إدارة كلينتون بالقيام بعمليات سرية. رأى بلاك فى بن لادن رجلا كان يمثل تهديدا ومن ثم، يجب التخلص منه. بيد أن الإدارة رفضت السماح بالقيام بنوع العمليات القاتلة ضد بن لادن ورفاقه، كتلك التى كان بلاك يُفضلها. كان بعض رجال بلاك متحمسين لقتل الثرى السعودى لكنهم لم يسمح لهم القيام بذلك. ووفقا لبيل ووه، عميل السى آى إيه الذى عمل عن كثب مع بلاك فى السودان، «لسوء الحظ أنه آن ذلك كانت التفويضات بالقتل -المعروفة رسميا باسم الاستنتاجات المميتة- كانت مُحرّمة فى الجهاز. فى مطلع التسعينات أجبرنا على التمسك بالاستشارات القانونية المرائية، وأيضا وبما يقوله المتظاهرون بالتقوى». بين أفكار ووه التى رُفضت كانت مؤامرة لقتل بن لادن بالخرطوم والإلقاء بجثته فى السفارة الإيرانية لإلصاق المسئولية بطهران (وإثارة السنة ضد الشيعة) وهى فكرة قال ووه إن كوفر «عشقها».

لكن فيما كان بلاك والسى آى إيه يراقبون بن لادن، كانوا هم، بدورهم، موضوعين تحت الرقابة. فى ١٩٩٤، قيل إن مجموعة بن لادن بالخرطوم قد حسمَتْ أمرها أن بلاك، الذى كان يتخفى كدبلوماسى بالسفارة، كان حقا من السى آى إيه. كتب ستيف كول فى كتابه التعريفى بالتاريخ السرى للسى آى إيه وبن لادن وعنوانه «الحروب الشبحية» أن بن لادن ورجاله بدأوا يراقبون الطرق التى يسلكها بلاك ذهابا إلى السفارة وعودة منها. كتب كول يقول «انتبه بلاك ورجاله إلى هذا التتبع وبدأوا يراقبون من يراقبونهم. رأى عملاء السى آى إيه أن رجال بن لادن كانوا يقيمون «منطقة اقتناص» قرب السفارة. لم يكن باستطاعتهم معرفة ما إن كان الهجوم سيكون اقتناصا، تفجير سيارات أم كمينا بأسلحة هجومية. لكن كان باستطاعتهم مراقبة مجموعة بن لادن وهى تتدرب على العملية فى أحد شوارع الخرطوم. وبمرور الأسابيع ازداد زخم الرقابة والرقابة المضادة. وفى إحدى المناسبات، وجدوا أنفسهم يمارسون مطاردة بالسيارات فائقة السرعة. وفى مناسبة أخرى، وجّه ضباط السى آى إيه بنادق معبأة نحو بعض العرب الذين كانوا

يتبعونهم. وفى النهاية. بعث بلاك بسفير الولايات المتحدة بشكوى للحكومة السودانية. وحينما رحل بلاك من الخرطوم كان بن لادن قد أصبح أقوى مما كان لدى وصول الجاسوس المحنك؛ وقد ساعدت تلك الحقيقة على تنامى وترسيخ ما سيصبح «الوسواس القهرى» المهنى لبلاك لسنوات تالية.

من ثم، كان أكبر انتصار حققه بلاك بالسودان هو أسر أحد المُلاحقين الدوليين الذى ملأ صيته الآفاق قبل ظهور بن لادن بوقت طويل. وصف بيلى ووه كيف أنه، وهو فى السودان فى ديسمبر ١٩٩٣، طُلِب منه التوقف عن رصد حركات شخص «لم يكن صيدا ثميناً آنذاك» -أسامة بن لادن- ليتفرغ لـ«أثمن صيد» مطلوب. وصف ووه اجتماع بسفارة الخرطوم أعلن فيه بلاك عن هدفهم الجديد: فى هذه المدينة التى يقطنها ما يربو على المليون شخص، سنكون مسئولين عن العثور على يليتش راميريز سانتشتز ذاته، ذلك الرجل الذى يُعرف فى جميع أرجاء الكوكب باسم كارلوس ابن آوى، أكثر إرهابيى العالم شهرة». قال ووه، فيم بعد، إنه بعد الاجتماع «نحانى كوفر بلاك جانبا وقال، بيلى، هذا هو رجلنا. عليك أن تُمسك به. وفى تلك اللحظة، وحينما تبينت رصانة صوته، عرفت أن الوكالة قد وضعت الأمر على قمة أولوياتها.. وأردت أن أكون الشخص الذى يمسك بهذا اللعين». كان كارلوس مُتّهما بسلسلة من أعمال القتل والتفجيرات السياسية التى نُفِذت طوال السبعينيات والثمانينات وكان، أثناء وجود كوفر بالسودان، أكثر المطلوبين شهرة فى العالم.

تمكن بلاك، ووه، وفريق القبض على كارلوس من التقاط أحد الخيوط حينما استدعى كارلوس حارسا شخصيا موثوقا ليحميه، بعد أن دخل حارسه السجن لتهديده أحد أصحاب المحلات بمسدسه وهو ثَمِل. استطاعوا التعرف على الحارس الجديد وسيارته التيوتا حينما وصل إلى الخرطوم، ثم قاموا باقتفاء سيارته إلى منزل كارلوس. وبعد أشهر من الرصد اليقظ الدقيق من شقة مستأجرة تُطِل على منزله، نُفِّذت الخطة فى ١٩٩٤. كتب ووه قائلا إنه دخل محطة السى آى إيه ذاك

اليوم وهو غير متيقن عن مصير كارلوس: «وفورا، ناولني كوفر ومديرة المحطة الجميلة كأسا من الشمبانيا. زأر كوفر، في صحتك يابلي، يا ابن العاهرة الجميل... كارلوس أودع السجن بفرنسا». ضمن إلقاء القبض على كارلوس مكانة أسطورية لبلاك في دوائر السي آي إيه، ومازال ذلك أحد أكبر إنجازات حياته الوظيفية التي ما فتئ يزهو به. في ١٩٩٥، بعد الخرطوم، عُين بلاك رئيس قوة المهمات بالسي آي إيه بفرع الشرق الأدنى وجنوب آسيا، ثم مضى يرصد شبكة بن لادن، قبل فترة عمل وجيزة عام ١٩٩٨ بأمريكا اللاتينية كنائب رئيس قسم أمريكا اللاتينية بالسي آي إيه. عام ١٩٩٩ مُنح بلاك ترقية هامة، حيث ترأس مركز مكافحة الإرهاب CTC بالسي آي إيه.

لدى تولي بلاك، رسميا، منصبه بـCTC، كان عدوه اللدود، بن لادن، قد أصبح اسما مألوفا حتى في الأوساط المنزلية، بعد أن اُتُّهم علنا بتخطيط وتنفيذ تفجيرات سفارتي الولايات المتحدة في تانزانيا وكينيا عام ١٩٩٨، التي أدت إلى مقتل ما يربو على مائتي فرد، بينهم اثنا عشر مواطنا أمريكيا. غادر بن لادن السودان بعيد رحيل بلاك، وقيل إنه اتخذ مقرا جديدا له بأفغانستان. أصبح بن لادن، الذي كان ذات مرة اسما معروفا فقط في دوائر السي آي إيه وفي العالمْين العربي والإسلامي، أصبح على بوسترات الإف بي آي بصفته على رأس قائمة المطلوب القبض عليهم. كان بين مهام بلاك التي بدأت عام ١٩٩٩، الإشراف على وحدة بن لادن الخاصة بـ CTC، التي كانت تعرف باسم Alec Station. استغرق بلاك بحماس في التخطيط للعمليات السرية والإشراف عليها. قال دانييل بنجامين، رئيس فريق المركز القومي لمكافحة الإرهاب بإدارة كلينتون، قال في خوار مع مجلة ڤانيتي فير «كان ينطق بمقولات يقصد بها أن تكون ذات تأثير دراماتيكي، مفردات شخص شديد المراس –ليجعلك تفكر، أوه، يا إلهي، إن لهذا الرجل خصْيتين من النحاس، وهو ملم بأهوال مهامنا. كان يقول أشياء من قبيل: لم يعد ثمة مجال للهزر والسخافات، ستتدهور الأمور، وستصل أجسادكم إلى هنا في أكياس. هذا كل ما في الأمر. وعليكم أن تعلموا ذلك. كان يُحب التحدث على أكياس الجثث

طوال الوقت».

بعيد تولى بلاك مهامه فى CTC، أدلت السى آى إيه باعتراف يُدينها للبيت الأبيض فى مطلع ١٩٩٩ أكد المؤلف المحقق جيمس بامفورد فى كتابه «ذريعة للحرب: ٩/١١ وانتهاك وكالات الاستخبارات الأمريكية» أنه بعد أربع سنوات ومئات ملايين الدولارات،كان مازال على Alec Station تجنيدمصدر واحد مُطلع على عمليات بن لادن المتنامية بأفغانستان. كان الأمر أكثر من مخجل -كان فضيحة. كان وقتا خطيرا لايجوز فيه البقاء دونما استخبارات. فخلال أيام، بدأ مخططو ٩/١١ عمليتهم». وعلى حين أن بلاك كان مسئولا على المستوى الفنى، فقد كان قد عيّن فى المنصب مؤخرا فقط، واشتكى، فيما بعد، من أنه وزملاءه فى CTC لم يتلقوا الدعم الكافى للتخلص من بن لادن. أخبر بلاك لجنة ٩/١١ فى إبريل ٢٠٠٤ «حينما بدأتُ تلك الوظيفة عام ١٩٩٩، اعتقدت أن ثمة أرجحية لأكون جالسا هنا يُحقّق معى أمامكم. الأمر بإيجاز، وعلىّ أن أخبركم بهذا، وسأتحمل جزءا من المسئولية عن هذا.. هو أننى أثبطت شعبى، بأسلوب ما، رغم كل ما فعلت. لم يكن لدينا عدد كاف من الأشخاص للقيام بالمهمة، ولم يكن لدينا أموال كافية بكميات كبيرة». أكد بلاك أن CTC «كان لديها عدد من الأفراد يناظر عدد ثلاث سرايا من جنود المشاة الذين يتوقع منهم تغطية جبهة طولها بضع كيلو مترات» هذا على الرغم من «أن مركز مكافحة الإرهاب الخاص بنا لديه مسئوليات تغطى جميع أرجاء العالم». قال بلاك إنه قبل ٩/١١، وفيما يتعلق «بعدد الأفراد، الأموال، والمرونة العملياتية» كانت هذه «خيارات يتخذها غيرنا لنا. يتخذونها للسى آى إيه ولمركز مكافحة الإرهاب الذى أترأسه».

كان بالفعل ثمة اقتطاعات من الميزانية أثناء فترة عمل بلاك - واجه عام ١٩٩٩ تخفيضا بنسبة ٣٠٪ عن ميزانية نقدية CTC العاملة، ومن بينها ميزانية وحدة بن لادن. إلا أن بعض المحللين قالوا إن نقص المواد لم يكن لُبَّ المشكلة. الأحرى، كما يقولون، أن المشكلة كانت تُعزى إلى تركيز بلاك وحلفائه على العمليات الميليشياوية

السرية أكثر من المهمات الملة لاختراق القاعدة أو دائرة بن لادن. فى ١٩٩٩، اعترفت مذكرات وثائقية كان مكتب بلاك قد أعدها لبيت كلينتون الأبيض أنه «بدون اختراق المنظمة» ستواجه السى أى إيه المشاكل. قالت مذكرة بـرن إنه ثمة حاجة «لتجنيد مصادر» لكنها أضافت «إن تجنيد مصادر من بين الإرهابيين صعب». ما اُتخذ (أم لم يتخذ) بشأن تلك المشكلة كان له أن يصبح مصدرا لقدر كبير للاتهامات بعد ٩/١١.

وفى السنتين اللتين أعقبتا ٩/١١، تمحورت استراتيجية بلاك لمحاربة القاعدة على استخدام جارة أفغانستان، أى أوزبيكستان كَمنصة وانطلاق إلى الداخل الأفغانى. سافر بلاك سرا إلى العاصمة طشقند وأشرف على تمويل الولايات المتحدة وتدريبها لقوة ميليشياوية أوزبيكية كان من المفترض لها اختطاف بن لادن أو نوابه من خلال «عمليات خطف سرية». كان ديكتاتور أوزبيكستان، إسلام كريموف، مُنخرطا فى حربه الخاصة ضد الجماعات الإسلامية فى البلاد، وكان متمرسا فى استخدام مخاطر قيام ثورة إسلامية لتبرير إجراءاته السياسية القمعية المنوعة، ومن بينها إلقاء القبض على الناشطين المنادين بالديموقراطية. وحينما قرعت السى آى إيه أبوابه رحب كريموف بفرصة استخدام غطاء الحرب ضد بن لادن لتبرير المساعدات العسكرية السرية من واشنطون. وفيما تمكنت السى أى إيه من استخدام قواعد البلد الجوية فى بعض العمليات، وتركيب. تجهيزات اتصال وتَنصت داخل أوزبيكستان، كانت النتيجة النهائية لدعم بلاك/الولايات المتحدة لكريموف، هى تلقى ذلك القائد الوحشى ملايين الدولارات من أموال السى آى إيه، أموالا استخدمها «ليبقى على غرف التعذيب التى أنشأها تعمل» وفقا لبَامورد، الذى أضاف «كما أن تدريب فرق الكوماندوز استُخدِم للاستمرار فى قمع النساء والأقليات الإثنية». عُرِف عن كريموف أيضا أنه أمر بغلىِ أعدائه السياسيين حتى الموت، وقد قال السفير البريطانى فى ذلك البلد إن تلك الممارسة «لم تكن حادثا مفردا».

عزز بلاك أيضا من دعمه لأحمد مسعود وتحالفه الشمالى بأفغانستان، ذلك التحالف الذى كان يعتبر بن لادن والقاعدة أعداءً. التقى بلاك، بصفته مدير CTC، وجها لوجه مع مسعود، مرتين على الأقل –فى طاجيكستان فى صيف عام ٢٠٠٠ كان اعتماد بلاك ووحداته بكثير من الثقل على مسعود لمواجهة القاعدة أمرا قد أثار جدلا خلافيا– حتى داخل عالم الاستخبارات. كانت قوات مسعود تمثل أقلية إثنية فى مشهد أفغانستان المعقد وكانت متمركزة فى الشمال، بعيدا جدا عن عمليات بن لادن الرئيسية. كان أيضا ثمة دواعى أوسع للقلق. وطبقا لبامفورد «فيما كان جزء من السى آى إيه يغدق الأموال على مجموعة مسعود، كان جزء آخر، مجموعة السى آى إيه لمكافحة المخدرات، يُحذر من أنه يمثل خطرا كبيرا. كانت جماعته مستمرة فى تهريب كميات كبيرة من الأفيون والهروين إلى الداخل الأوربى. وتوصل البريطانيون إلى النتيجة ذاتها». عارض خبير مكافحة الإرهاب البيت الأبيض، ريتشارد بلاك، التحالف مع مسعود ووصف التحالف الشمالى بأنهم «مهربو مخدرات ومنتهكون لحقوق الإنسان». بيد أن بلاك أخبر زملاءه أن دعمه هذا يتعلق «بإعداد ميدان القتال للحرب العالمية الثالثة». إلا أن مسعود لم يعش حتى يشاهدها. اغتيل فى ٩ سبتمبر ٢٠٠١، وكما زُعِم، على يد عملاء من القاعدة تخفوا كصحفيين.وفى تلك الأثناء، كان بلاك يضغط على القوات الجوية من أجل الإسراع بإنتاج طائرة تجسس بدون طيار من طراز Predator يمكن تجهيزها بصواريخ Hellfire لإطلاقها على بن لادن ومساعديه.

زعم بعض المسئولين السابقين عن مكافحة الإرهاب أنه أثناء فترة بلاك بـ CTC، كان ثمة اهتمام باستخدام القاعدة لتبرير إقامة بيروقراطية لمحور العمليات السرية بالسى آى إيه، أى «إدارة العمليات»، أكبر من أى اهتمام بالقيام بمهمة محددة لوقف بن لادن والتصدى له. قال مسئول السى آى إيه المخضرم مايكل شوِر الذى ترأس وحدة بن لادن من ١٩٩٥ إلى ١٩٩٩ قبل تعيين بلاك «كوفر بلاك، وصل، وكان هو الرجل، كان هو الخبير من إدارة العمليات». أخبر قيصر مكافحة الإرهاب

السابق ريتشارد كلارك مجلة فانيتي فير «ثمة بعض الحقيقة فى القول إنهم لم يكن لديهم ما يكفى من الأموال، لكن المثير للاهتمام هو أنهم لم يستخدموا أيا من الأموال التى كانت لديهم لتعقب القاعدة. اعتادوا أن يرددوا «القاعدة» «القاعدة» «القاعدة»، حينما كانوا يحاولون الحصول على أموال، ثم، حينما يحصلون عليها، لا تذهب تلك الأموال للقاعدة. كانوا يحاولون إعادة تأسيس إدارة العمليات، ومن ثم، ذهبت الكثير من الأموال إلى البنية الأساسية لإدارة العمليات، ثم كانوا يقولون طيب، لا تستطيع أن تبدأ باقتفاء القاعدة، عليك إصلاح إدارة العمليات جميعها، وكنت أقول لهم، بالتأكيد لابد وأن يوجد بعض المال فى مكان ما بالسى آى يُمكنكم إعادة توجيهه لاقتفاء القاعدة، وكانوا يقولون لا». أى أن ما كانوا يقولونه فعلا هو أن كل شئ آخر كان أكثر أهمية».

تصاعدت الحرب العلنية حول من كان مسئولا فى جماعة استخبارات إدارتى كلينتون وبوش عن الفشل فى منع ٩/١١، تصاعدت وزاد زخمها حينما نُشر كتاب بوب وودوارد «حالة من الإنكار State of Denial» فى سبتمبر ٢٠٠٦، فى هذا الكتاب ذكر وودوارد تفاصيل لقاء قيل إنه حدث فى ١٠ يوليو ٢٠٠١، قبل ٩/١١ بشهرين. اجتمع جورج تنت، مدير السى آى إيه ببلاك، الذى كان يترأس CTC آنذاك، بالمقر الرئيسى للسى آى إيه. ذكر وودوارد أن بلاك «عرض الوقائع، التى كانت تتكون من اعتراضات للاتصالات و التنصت، وبعض الاستخبارات الأخرى السرية للغاية التى توضح زيادة الترجيحات بأن القاعدة سرعان ما ستهاجم الولايات المتحدة. كان ذلك عبارة عن مجموعة كبيرة من الأجزاء الصغيرة، والنقاط، التى كانت بالرغم من ذلك تشكل محاجة قوية مقنعة، على درجة من القوة جعلت تنت يقرر أن يتوجه هو وبلاك على الفور إلى البيت الأبيض». آنذاك «كان تنت يواجه صعوبة للدفع بخطة عمل فورية ضد بن لادن، جزئيا، لأن وزير الدفاع، دونالد رمسفلد قد شكك فى كل اعتراضات الاتصالات التى قامت بها وكالة الاستخبارات القومية، وجميع الاستخبارات الأخرى. كان رمسفلد قد تساءل عن إمكانية أن يكون هذا كله خدعة كبرى. ربما أنها كانت خطة لقياس ردود أفعال

الولايات المتحدة ودفاعاتها، وفقا لرمسفلد». وبعد مراجعته الاستخبارات مع بلاك، هاتف تنت كونداليزا رايس، مستشارة الأمن القومي آنذاك من السيارة وهو في طريقه إلى البيت الأبيض. ووفقا لوودوارد، حينما التقى بلاك وتنت رايس ذاك اليوم، «شعرا أنهما لم يتركا تأثيرا على رايس. كانت مهذبة، لكنهما شعرا بالصدّ والرغبة في التخلص من حضورهما». قال بلاك فيما بعد «الشئ الوحيد الذي لم نفعله هو أن نضغط على زناد مسدس نوجهه إلى رأسها».

في ٦ أغسطس ٢٠٠١، كان الرئيس بوش بضيعته في كروفورد، حينما تسلم موجز التقرير الرئاسي اليومي وكان عنوانه «بن لادن عازم على الهجوم على الولايات المتحدة» ذكر التقرير مرتين إمكانية محاولة عملاء القاعدة القيام بخطف طائرات، قائلا إن معلومات الإف بي آي «تشير إلى أنماط من الأنشطة المريبة (في الولايات المتحدة) تتَّسِق مع إعدادٍ لخطف طائرات أو أنواع أخرى من الهجمات، ومن بين تلك الأنشطة رصدٌ حدثَ مؤخرا للمباني الفدرالية بنيو يورك». وبعد تسعة أيام خاطب بلاك مؤتمرا سريا لمكافحة الإرهاب بالبنتاجون. قال «سنُهاجم سريعا. سيموت أمريكيون كثيرون، ويحتمل أن يحدث هذا داخل الولايات المتحدة».

وكما حدث استمر الجدل حول مسئولية ٩/١١ لسنوات -تقاذف فيها مسئولو إدارتي كلينتون وبوش بالحجارة- لكن ذلك الجدل كان غير ذي أهمية بالنسبة لكوفر بلاك. في أعقاب الهجمات مباشرة وجد بلاك نفسه في مقعد القيادة مع قائد عام للقوات المسلحة مستعد ومتحمس ليحول أحلام بلاك بالعمليات السرية إلى واقع. ظل بلاك لمدة طويلة محبطا بسبب القيود والمحظورات التي كانت تحكم عمليات الولايات المتحدة السرية -وتحديدا الحظر ضد الاغتيالات- لكن «الحرب على الإرهاب» غيرت قواعد اللعبة بين عشية وضحاها. قال بلاك «كانت عاطفتي الشخصية هي: لقد بدأت الآن رسميا. يمكن أن أستخدم قياس حالة كلب حراسة فناء للخردة ظل مُسلسلاً إلى الأرض ثم أُطلق سراحه. لم يكن باستطاعتي الانتظار».

فى لقائه الأول مع الرئيس بوش بعد هجمات ١١/٩، أتى بلاك مُعَداً بطروحات مكتوبة، ثم ألقى بالأوراق على الأرض فيما كان يتحدث عن نشر قوات بالداخل الأفغانى.

وفى ١٣سبتمبر أبلغ بوش، دونما مواراة، أن رجاله سيهدفون إلى قتل نشطاء القاعدة «وحينما ننتهى من مهمتنا معهم، سيكون الذباب يسير على مقل أعينهم»، هكذا وعد بلاك فى عرض اكتسب به لقبا فى الإدارة بصفته «رجل الذباب الذى يسير على مُقل الأعين». وكما ذكرت التقارير، عشق الرئيس أسلوب بلاك؛ وحينما أبلغ بوش أن العملية لن تمضى دون إراقة دماء قال الرئيس «هيا، فلنبدأ. إنها حرب. هذا ما نحن هنا لنكسبه».

فى سبتمبر ذاك، أعطى الرئيس بوش الضوء الأخضر لبلاك والسى آى للبدء فى وضع قوات عمليات خاصة بالداخل الأفغانى. قبل انتشار Jawbreaker (كاسر الفكاك)، أو فريق السى آى إيه الأساسى فى أفغانستان فى ٢٧ سبتمبر ٢٠٠١، أعطى بلاك رجاله توجيهات مروعة مباشرة. أبلغ بلاك جارى شرون منفذ العمليات السرية بالسى آى إيه ومعه آخرون» أيها السادة، أود أن أعطيكم أوامر مسيرتكم وبدء مهمتكم، وأود أن أجعلها شديدة الوضوح. لقد ناقشتُ هذا مع الرئيس، وهو يوافقنى تماما. لا أريد أن يُأسر بن لادن وفتواته، أريدهم أمواتا.. يجب أن يُقتلوا. أريد أن أرى صورا لرءوسهم على رماح. أريد أن يُرسل رأس بن لادن هنا فى صندوق ملئ بالثلج المجفف. أود أن أستطيع أن أُرى رأس بن لادن للرئيس. لقد وعدته بذلك»، قال شرون إن تلك كانت هى المرة الأولى فى حياته الوظيفية التى دامت ثلاثين عاما التى يؤمر فيها باغتيال خصم بدلاً من محاولة أسره. سأل بلاك ما إن كانت أوامره واضحة. أجاب شرون «واضحة تماما يا كوفر. لكننى لا أدرى ما إن كان سيمكننا العثور على ثلج مجفف هناك، بأفغانستان، لكننى بالتأكيد متأكد أن باستطاعتنا تصنيع رماح فى الميدان» فسر بلاك بعد ذلك السبب فى كون هذا ضروريا. قال «سنحتاج لدَنَا. ثمة طريقة جيدة لفعل ذلك. اقطع رأسه بمنجل،

وسيكون لديك ملء جردل من الدنا، بحيث نستطيع رؤيته وفحصه. هذا أفضل من حمل الجثة بأكملها إلى هنا».

وفيما خططت الولايات المتحدة لغزو أفغانستان، استمر بلاك يتملكه ولعه المرضى المركز على التمثيل بالأجساد حينما رافق نائب كولن باول، ريتشارد أرميتاج إلى موسكو للقاء مسئولين سوفييت. حينما حذر الروس، من منطلق خبرتهم، من احتمال هزيمة الولايات المتحدة على أيدى المجاهدين، انفجر بلاك قائلا «سنقتلهم. سنضع رءوسهم على عصى. سنزلزل عالمهم». من المثير للاهتمام أن العمليات السرية التى نظمها بلاك بعيد ٩/١١، اعتمدت بقوة على المقاولين الخاصين، المسئولين أمامه مباشرة، بدلا من قوات الجيش الميدانية. استخدم رجال بلاك عقودهم لتجنيد حوالى ستين من رجال قوات دلتا، السيلز السابقين، وعاملين بقوات خاصة أخرى سابقين كمقاولين مستقلين للمهمة الأولى، وشكلت تلك القوات الغالبية من الأمريكيين الأوائل الذين دخلوا أفغانستان بعد ٩/١١.

فى نهاية ٢٠٠١، كان بلاك تحديدا فى المكان الذى أراده طوال حياته الوظيفية، يلعب دورا جوهريا فى صياغة وتنفيذ سياسات إدارة بوش لمكافحة الإرهاب. قال ستيف كول مؤلف كتاب الحروب الشبحية «كان هناك ذلك الحس الهائل بين الضباط الذين كانوا قد عاشوا فى تلك الحملة قبل ١١ سبتمبر أنه.. وفى النهاية، باستطاعتنا التغلب على هؤلاء المحامين، وصناع القرارات الحذرين هؤلاء الذين أعاقوا طريقنا من قبل، وأن باستطاعتنا الحصول على الترخيص الذى كنا جديرين بأن نحصل عليه من قبل». سرعان ما توسعت CTC برئاسة بلاك من ٣٠٠ من العاملين إلى ١٢٠٠

تم اختطاف الناس من أفغانستان ونقلهم بالطائرات إلى معسكر جوانتنامو، واحتجزوا هناك لسنوات، ووصفوا بأنهم مقاتلون أعداء وحُرِموا من أى حق للجوء إلى أى نظام قانونى. احتُجز آخرون فى معسكرات اعتقال جهنمية بالداخل الأفغانى وبلاد أخرى. أدلى بلاك بشهادة أمام الكونجرس عام ٢٠٠٢ حول المرونة

العملياتية» الجديدة المستخدمة فى «الحرب على الإرهاب»قال «هذا مجلس سرى للغاية، لكن علىّ القول إن كل ما تحتاجون معرفته هو: هناك ما قبل ٩/١١، وهناك ما بعد ٩/١١. بعد ٩/١١ خلعنا القفازات».

فيما بعد، عام ٢٠٠٤، تفاخر بلاك بأن «أكثر من ٧٠٪» من قادة القاعدة قد أُلقى القبض عليهم، احتجزوا، أو قُتِلوا، كما أن «ما يربو على ٣٤٠٠ من نشطائهم وداعميهم احتجزوا أيضا ولم يعودوا فاعلين». وكجزء من تلك «المرونة العملياتية» نفذت السى آى إيه» تسليمات استثنائية للمعتقلين -نقلهم إلى بلاد لها سجلات حقوق إنسان مشبوهة، أو بشعة بوضوح، حيث تم تعذيبهم نفسيا أو جسديا. ذكرت الواشنطون بوست فى تقرير لها أن CTC برئاسة بلاك استخدمت بدرجة خطيرة «مجموعة التسليم الخاصة بها والمكونة من ضباط عمليات، ميليشيات غير نظامية، محللين وإخصائيين نفسيين. وظيفتهم هى تدبّر اختطاف الأشخاص من شوارع المدن، تلال بعيدة، أو ركن منعزل بمطار تنتظر فيه السلطات المحلية». ووفقا لدانا بريست، من الواشنطون بوست:

«يتبع أعضاء مجموعة التسليم إجراء معياريا بسيطا: يقومون، فيما هم يرتدون الأسود من رءوسهم حتى أخماص أقدامهم، بما فى هذا الأقنعة، بعصب أعين أسراهم الجدد وتمزيق ملابسهم، ثم يعطونهم حقنة شرجية وعقاقير منومة. يُلبسون الموقوفين حفاضات وبذلة من قطعة واحدة إستعدادا لما يمكن أن يكون رحلة يوم كامل. أما الوجهة فتكون: إما معسكر احتجاز تُشغّله بلدان متعاونة فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، من بينها أفغانستان، أو أحد من سجون السى آى إيه السرية الخاصة -يشار إليها فى الوثائق السرية بتعبير «المواقع السوداء» التى ظلّت تُشغَّل فى أوقات عديدة فى ثمانية بلدان، من بينها عدد فى أوربا الشرقية».

ثم تمد السى آى إيه البلدان المضيفة بالأسئلة التى تريد المعتقلين أن يجيبوا عنها. أخبر أحد المسئولين بالولايات المتحدة -لم يذكر اسمه- وكان متورطا مباشرة فى تسليم الأسرى، الواشنطون بوست «لا نقوم بأنفسنا بانتزاع التفاصيل منهم.

نُرسلهم إلى بلدان أخرى كى يستطيعوا انتزاعها منهم». أبلغ مسئول آخر، كان قد أشرف على أسر المعتقلين ونقلهم، أبلغ الصحيفة «إذا لم تُنتهك حقوق البعض الإنسانية أحيانا، فالأرجح أنك لا تؤدى واجبك كما يجب». ثم أضاف، «لا أعتقد أننا نريد الترويج لتسامح صفرى فى هذه الحالات. كانت هذه هى مشكلة السى آى إيه لمدة طويلة».

لعب بلاك، ومنذ البداية، دورا مركزيا فى استخدام «التسليمات الاستثنائية» فى الحرب على الإرهاب، وبدأ هذا فى نوفمبر ٢٠٠١ حينما أسرت الولايات المتحدة الشيخ الليبى، مدرب القاعدة المزعوم. شعر عميل الإف بى آى بنيويورك، جاك كالونان، أنه من الممكن لليبى أن يكون شاهدا كبير القيمة ضد زكريا الموسوى وريتشارد ريد، الذى أُعد كمفجر سيارات، وكان كلاهما قد تدربا بمعسكر خالدن الذى زُعم أن الليبى كان يديره. أَمر كلونان عملاء الإف بى آى بالتالي «عليكم معالجة الموقف بنفس الأسلوب الذى كنت سأتبعه هنا، فى مكتبى بنيويورك». «أتذكر أننى كنت أتحدث إليهم بأسلوب مأمون مضمون كنت أقول لهم، سهلوا الأمور على أنفسكم أقرأ عليهم حقوقهم. قد يكون هذا الأسلوب موضة قديمة، لكن الحقائق ستظهر. قد يستغرق الأمر عشر سنوات، لكنكم ستتعرضون للأذى، وكذلك سمعة المكتب، إذا لم تعترفوا. فلتعترفوا من تلقاء أنفسكم ليكون هذا مثالا ناصعا لما نعتقد أنه صواب». لكن لم يناسب هذا الأسلوب السى آى إيه، التى اعتقدت أنها ستحصل على مزيد من الاعترافات من الليبى إذا اتبعت أسلوبا آخر. وبعد أن استدعت إلى الذاكرة الوعود بعدم التمسك بالقواعد المرعية فى الاستجوابات بعد ٩/١١، طلبت محطة السى آى إيه بأفغانستان من بلاك، رئيس مكافحة الإرهاب آنذاك، عمل الترتيبات كى تتولى الوكالة أمر الليبى. وبدوره، طلب بلاك هذا من جورج تنت، مدير السى آى إيه، الذى حصل على الإذن «بالتسليم الاستثنائى» من البيت الأبيض بالرغم من اعتراضات روبرت مويلر، مدير الإف بى آى.

وفى تلك الأثناء، كان محاميو البيت الأبيض يعملون بأسلوب محموم لتطوير

تبريرات قانونية لهذه السياسات فائقة العنف. قالت تلك التبريرات «رسمياً» للسي آى إيه إنه لا يمكن مقاضاتها لاستخدامها أساليب «تعذيب خفيف» لاينتج عنها «فشل الأعضاء» أو «الموت». كان بلاك، فى أعقاب ٩/١١، قد مُنح تصريحا بالتواجد بالبيت الأبيض تماما كالعاملين به، وقال زملاؤه السابقون إنه كان يعود من لقاءاته هناك «مليئا بالإلهام ويتحدث بتعبيرات المُبشرين».

وبعد مرور عام، وفى وجود بن لادن طليقا، يبث رسائل على الفضائيات ويثنى على المقاومة ضد الولايات المتحدة، ترك كوفر بلاك، فجأة، السى آى إيه. قال البعض إن وزير الدفاع، دونالد رمسفلد، أمر بفصله، بعد أن زُعِم أن بلاك عمل كمصدرٍ «خلفية متعمقة» لقصة إخبارية نشرتها الواشنطون بوست فى ١٧ إبريل ٢٠٠٢، وصفت فيها كيف أن البنتاجون، أتاح فرصة الهرب لبن لادن، بعد أن أُلقى القبض عليه فى تورا بورا، كما يقال. وفى فقرة التقرير الأولى الرئيسية، أسمت الصحيفة هذا السلوك بأنه «أخطر خطأ فى الحرب ضد القاعدة». وبعد شهر من هذا التاريخ، جاء فى سياق قصة إخبارية أخرى فى الواشنطون بوست، الكشف التالى «وفى تطورات أخرى حدثت أمس، قال مسئولو السى آى إيه، إن رئيس وكالة مكافحة الإرهاب، كوفر بلاك، قد نُقل إلى منصب آخر. وصفوا الإجراء بأنه جزء من حركة التنقلات المعتادة بالسى آى إيه». وفيما بعد، أجرت وكالة UPI (يونايتد برس) الإخبارية حوارات مع مسئولين سابقين بالسى آى إيه، قال أحدهم «لقد فُصِل بلاك. تم طرده». ذكرت وكالة الأنباء أيضا أنه «لم يتم فصل بلاك فقط، بل إنه مُنِع من دخول مقر الوكالة الرئيسى. وهذا إجراء معيارى فى حالة الفصل، هكذا أخبرت محللة السى آي إيه لشئون العراق، جوديث ياف الوكالة. وبعد أن لحقه الخزى، «حُدِّد عمله فى موقع للأقمار الصناعية تابع للوكالة، بتايسون كورنر (أريزونا)، وبذلك، انفصل عن زملائه الموثوقين وعن البيئة المألوفة المريحة». بيد أن بلاك، لم يكن قد انتهى أمره بعد فى الحكومة، كان من الواضح أنه أبقى على صداقات فى مناصب عليا. فى ١٠ أكتوبر ٢٠٠٢، عينه الرئيس بوش منسقه لشئون مكافحة الإرهاب، برتبة سفير بدون سفارة بوزارة الخارجية.

وبعيد توليه منصبه الجديد، تحدث بلاك، بالأقمار الصناعية، لمجموعة من الصحفيين المصريين من القاهرة، حيث ضغطوا عليه بشأن عدد من الإجراءات السياسية للإدارة المتعلقة بـ«الحرب على الإرهاب». أبلغهم بلاك «لقد ذهبت إلى جوانتنامو. وعليَّ أن أقول إننى سُررت جدا بما رأيته هناك أعنى، تعلمون،أنكم،وأننى سنكون جد محظوظين إذا آوانا أعداؤنا بهذا الأسلوب». لكن الأمر لم يستغرق وقتا طويلا حتى أصبح بلاك موضوع جدل خلافى.

أثناء خطاب حالة الاتحاد عام ٢٠٠٣، أعلن بوش «الليلة، سأُعطى التعليمات لقيادات الإف. بى. آى، السى آى إيه، الأمن الداخلى، ووزارة الدفاع كى يطوروا مركزاً يدمج التهديدات الإرهابية كى يدمجوا، ويحللوا جميع معلومات التهديد فى مركز واحد. لابد أن تحصل حكومتنا على أفضل معلومات ممكنة». وكجزء من هذه المهمة، أنيط ببلاك عملية تنسيق تقرير الحكومة السنوى الذى يصدر بعنوان «أنماط من الإرهاب» الذى كان من المفترض له أن يكون نوعا من التقرير الدورى عن كيفية تقدم «حرب» الإدارة على «الإرهاب» . وبعد بضعة أشهر، فى ٣٠ إبريل ٢٠٠٣، نشر بلاك التقرير الأول وزعم أن عام ٢٠٠٢ قد شهد «أدنى معدل للإرهاب منذ أكثر من ثلاثين عاما»وفيما لم يحدث تفحص عام للبيان آنذاك، فحينما نشر بلاك تقريره الثانى بعد عام الذى احتوى نفس المضمون تقريبا. تغيرت ردود الفعل.

فى ٢٩ إبريل ٢٠٠٤، ومع تفجير المقاومة المعادية للولايات المتحدة بالعراق أعلن بلاك ومعه نائب وزير الدفاع أرميتاج، تقرير «أنماط من الإرهاب الكوكبى ٢٠٠٣»، وزعما بوقاحة أنه يبرهن على أن الولايات المتحدة كانت تكسب «الحرب على الإرهاب» مستخدما ذات التعريف الفضفاض. قال أرميتاج «ستجدون فى هذه الصفحات أدلة جَلِيَّة على أننا ننتصر فى هذه الحرب». قال إن التقرير قد أُعِدَّ «كى يعرف الأمريكيون جميعهم ما نفعله للحفاظ عليهم آمنين». ومن جانبه، قال بلاك إن عام ٢٠٠٣ «شهد أدنى عدد من الهجمات الإرهابية منذ عام ١٩٦٩. أى أنه أدنى معدل فى ٣٤ عاما. حدثت ١٩٠ هجمة إرهابية عام ٢٠٠٣. وهذا نقص طفيف عن

١٩٨ هجمة التى حدثت العام الماضى، وأقل من ٤٥٪ من معدل ٢٠٠١ الذى وقعت فيه ٣٤٦ هجمة». بالنسبة للبيت الأبيض كان التقرير بمثابة دليل واضح على الاستراتيجية الناجحة، وبعد كل شئ، فقد أسمت هيئة الأبحاث بالكونجرس تقرير وزارة الخارجية السنوى «أكثر وثيقة حكومية أمريكية مُعلنة معتمدة تُقيِّم الهجمات الإرهابية».

كانت المشكلة هو أن التقرير كان زيفا واحتيالا. وسرعان ما كشف المحققون بالكونجرس والخبراء المستقلون الحقيقة. كتب آلان كروجر ودافيد ليتين، الخبيران المستقلان من جامعتى برينستون وستانفورد فى الواشنطون بوست بُعيد نشر التقرير «إن البيانات التى يُبرزها التقرير ملتبسة وخضعت للتلاعب –تمنح ثقلا غير متناسق للأعمال الإرهابية الأقل أهمية. المعلومات الوحيدة التى يمكن البرهان عليها فى التقريرين السنويين تشير إلى أن عدد الحوادث الإرهابية قد ارتفع سنويا منذ ٢٠٠١ وبلغ فى عام أقصى معدل له منذ عشرين عاما عام ٢٠٠٢.. إن التراجع المزعوم فى الإرهاب كان وبشكل شامل نتيجة تراجع الحوادث غير المهمة». وبدلا من انخفاض ٤٪ من الأعمال الإرهابية،كما زعم بلاك، فقد كان، فى الواقع، ثمة ارتفاع من المعدل بلغ ٥٪. وفى ذات الوقت، فإن الهجمات التى تُصنَّف على أنها «هامة» بلغت أقصى حد لها منذ ١٩٨٢. الأكثر من هذا، أوقف التقرير ذكر إحصاءاته فى نوفمبر ٢٠٠٢، على الرغم من وقوع عدد من الأحداث الإرهابية الكبرى بعد هذا التاريخ، وعلى الرغم من حقيقة أن المسئولين فى الولايات المتحدة، كانوا يشيرون فى خطاباتهم، روتينيا، إلى المقاومين بالعراق على أنهم إرهابيون، فقد صُنِّفت الهجمات على القوات فى العراق، فى تقرير بلاك على أنها معارك لا إرهاب. قال بلاك إنها «لا تتوافق مع التعريف القائم فى الولايات المتحدة منذ زمن طويل للإرهاب الدولى لأنها موجهة إلى مقاتلين، وجوهريا، إلى قوات الولايات المتحدة والتحالف فى الميدان». قالت النائبة الديموقراطية عن كاليفورنيا، إلن تاوتشر إن ذلك كان دليلا على أن الإدارة «مستمرة فى إنكارها للتكلفة الحقيقية للحرب وترفض أن تكون صادقة مع الشعب الأمريكى».

فى ١٧ مايو ٢٠٠٤، وفى خطاب أرسله إلى الرئيس بلاك المباشر، كولن باول وزير الخارجية، هاجم نائب كاليفورنيا الديموقراطى هنرى واكسمان، وعضو لجنة الإصلاح الحكومى بمجلس النواب، هاجم التقرير بعنف، وقال إن استنتاجاته مؤسسة على «تلاعب بالبيانات يخدم مصالح الإدارة السياسية.. وبتعبير بسيط، فإن من المؤسف أن يزعم تقرير وزارة الخارجية أن الهجمات الإرهابية تتراجع فى حين أن الأنشطة الإرهابية الهامة بلغت أعلى مستوى لها منذ ٢٠ عاماً». قال كاتب الأعمدة بالنيويورك تايمز بول كروجمان «إن الأنباء السارة المغلوطة عن الإرهاب أتت فى لحظة مناسبة جدا. كان البيت الأبيض مازال يترنح من كشوفات ريتشارد كلارك، رئيس مكافحة الإرهاب السابق، الذى عبر علنا، وأخيرا، عن رأى كثيرين من المطلعين على بواطن الأمور بالاستخبارات بأن أداء إدارة بوش فى الحرب على القاعدة بشع. وفى نفس الوقت، كان بوش فى حملة بالحافلة فى الغرب الأمريكى الأوسط حملة بعنوان نحن نكسب الحرب على الإرهاب». وبحلول شهر يونيو، أُجبر البيت الأبيض على إصدار تصويب رئيسى للتقرير، واعترف بأنه قد حدثت زيادة كبيرة فى الهجمات الإرهابية منذ أن شن بوش «الحرب على الإرهاب». ذكر التقرير المعدَّل أن الهجمات الإرهابية فى ٢٠٠٣ تسببت فى إصابة ٣٦٤٦ شخص بالجراح، أى أكثر من ضعف ما جاء فى تقرير بلاك الأصلى، وأن ٦٢٥ شخص قد قُتلوا بدلا من الـ٣٠٧ الذى ذكرهم الإحصاء الأصلى. وكما علق كروجمان، ألقى بلاك والمسئولون بمسئولية الأخطاء على الإهمال، عدم وجود العدد الكافى من العاملين، وقاعدة بيانات ضعيفة وغير كافية. تذكروا: نحن هنا نتحدث عن مركز البيانات الرئيسى للحكومة للمعلومات عن الإرهاب، الذى روج لإنشائه بصفته تعزيزا دراماتيكيا لجهود مكافحة الإرهاب قبل نشر ذلك التقرير بعام. وعلى الرغم من هذا فمازال لا يستطيع إدخال البينات فى حاسباته الشخصية؟ لا يجوز أن تعترينا الدهشة، فى عصر هاليبرتون هذا، إذا أنيطت مهمة إدخال البيانات إلى المقاولين ليُوقِّعوها».اتهم جون كيرى، المنافس الديموقراطى لبوش فى انتخابات ٢٠٠٤ الرئاسية، اتهم غريمه من خلال متحدث باسمه بأنه «كان يتلاعب كما يحلو له

بالحقيقة فيما يتعلق بالحرب على الإرهاب». وأضاف قلنلا إن البيت الأبيض «قد تم ضبطه وهو يحاول تضخيم نجاحه فى مقاومة الإرهاب». كانت ثمة أحاديث عن دحرجة رءوس فى وزارة الخارجية بسبب التقرير، لكن ليس رأس بلاك. زعم بلاك أنه «كان خطأ شريفاً، وليس خداعا متعمدا».

ورغم الجدل الخلافى، أتاح وضع بلاك فى وزارة الخارجية له أن يستمر فى مركز سياسة الولايات المتحدة لمكافحة الإرهاب.كان بلاك يعمل تحت رئاسة كولن باول مباشرة، الذى كان يشاركه، كما قيل، في وجود خصم مشترك لهما بالإدارة - دونالد رمسفلد. وفيما كان البنتاجون يحاول تغيير سياسة الولايات المتحدة بعد ٩/١١ ليتيح للجيش إدخال قوات عمليات خاصة إلى مختلف البلدان دونما إذن من سفراء الولايات المتحدة، أو رؤساء بعثة السى آى إيه فى البلدان المعنية، غدا بلاك الشخص المتصدى لإفشال خطة رمسفلد. أبلغ ريتشارد أرميتاج، نائب باول، الواشنطون بوست، وهو يصف كيف منع، هو وآخرون، نصف دستة من محاولات البنتاجون إضعاف سلطة رؤساء بعثات الولايات المتحدة فى تلك البلدان قال «أعطيت بلاك تعليمات محددة بأن يترجل، ويقتل الأحصنة، ويقاتل على قدميه -لن يحدث هذا». (من الشائق أن بلاك، أرميتاج وباول،استقالوا جميعهم فى غضون أسبوعين، الواحد تلو الآخر، فى نوفمبر ٢٠٠٤، بعد إعادة انتخاب بوش، فيما استمر رمسفلد عامين آخرين).

كان بين مهمات بلاك الأخرى فى منصبه الجديد تنسيق أمن الألعاب الأوليمبية باليونان عام ٢٠٠٤.سافر إلى أثينا وأشرف على تدريب أكثر من ١٣٠٠ من العاملين بالأمن بموجب برنامج الولايات للمساعدة فى مكافحة الإرهاب CATA. تلقى أكثر من مائتين من المتدربين تمرينات فى كيفية التعامل مع المتفجرات تحت المائية تحسبا لوقوع هجمات بحرية. فازت بلاكووتر بعقد بمبلغ لم يُعلن عنه فى ٢٠٠٣ لتدريب «فرق أمن خاصة» قبل الألعاب الدولية. أنكرت الشركة وجود أى شئ غير سوِى بخصوص هذا العقد، وأن توظيفها لبلاك بعد

هذا لا علاقة له بالعقد.

فى ١ إبريل ٢٠٠٤، بعد يوم من كمين بلاكووتر بالفلوجة، كان بلاك يدلى بشاهدة أمام لجنة العلاقات الدولية بمجلس النواب فى جلسة استماع عن «تهديد القاعدة» حينما أدلى بأولى تعليقاته العلنية على بلاكووتر. قال «ليس بإمكانى التعبير عن درجة حزننا لمشاهدة ذلك. وهذا يعود بذاكرتى إلى حوادث مماثلة، لقد رأيت تلك الأشياء من قبل. أعتقد أنه بما أن هذا قد حدث تحديدا بمنطقة الفلوجة، شديدة الولاء لصدام حسين، ذات التوجهات القبلية، يعنى هذا أنهم ينظرون إلينا على أننا العدو، حتى نبرهن على العكس، وبالطبع، فإن نزوعهم الطبيعى هو أن يصبوا غضبهم وإحباطهم، ما يرون على أنه إذلالهم وهزيمتهم فى مواجهة قوة أجنبية، ضد ممثلى ذلك الكيان. هذا أمر ليس مستغرباً». مضى بلاك يقول «الأشخاص الذين فعلوا هذا لم يكونوا، كما تعلمون ثلاثة رجال فى مغامرة مثيرة. تعلمون، هؤلاء رجال تلقوا تدريبات ولهم مصلحة ثابتة». وحينما سئل «أترى أية علاقة بين القاعدة وهذا النوع من الإرهاب الإسلامى» الذى شوهد بالفلوجة، أجاب بلاك «أعتقد، من منظورنا، أنه مرتبط، قريب. ليس ثمة، تحديدا، رابطة مباشرة بين هؤلاء الناس والقاعدة كما نعرفها. إنهم فقط يجدون أنفسهم فى وضع عدو عدوى هو صديقى».

وفى الشهر التالى، مُنِح بلاك فرصة لُيلْقى خطابا رئيسيا فى العشاء الذى أقيم أثناء التحدى العالمى فى الأسلحة والتكتيكات الخاصة SWAT الذى نظمته بلاكووتر. فى الإيميلات الجماعية التى أُرسلت لتعلن عن الخطاب، كتب جارى جاكسون «سيتحدث فى عشاء ليلة الخميس بووتر سايد ضيف رائع، ألا وهو السفير كوفر بلاك. تشمل مسئوليات السفير بلاك تنسيق مجهودات حكومة الولايات المتحدة لتحسين التعاون فى مجال مكافحة الإرهاب مع الحكومات الأجنبية، ومن بين تلك المسئوليات وضع السياسة والتخطيط لبرنامج مساعدة التدريبات المضادة للإرهاب لوزارة الخارجية».

فى نهاية ٢٠٠٤، بعد شهرين من الانتخابات الرئاسية، استحوذ بلاك على العناوين الإخبارية الرئيسية بعد أن زعم على التليفزيون الباكستانى أن الولايات المتحدة كانت على وشك القبض على بن لادن. أعلن «إذا كان لديه ساعة عليه أن ينظر إليها لأنها تُتكتك والوقت يمر ويقترب. سيُلقى القبض عليه» كان ذلك الإعلان الجسور خلافياً، وسرعان ما وضع كبار المسئولين بالبيت الأبيض، ونظرائهم الباكستانيين فى موقف دفاعى فى الإعلام. فى نوفمبر ٢٠٠٤، استقال بلاك من منصبه بوزارة الخارجية كى يبحث عن فُرص مهنية جديدة، وفقا لما قاله. قال المتحدث باسم وزارة الخارجية، آدم إرلى «أعتقد أن الوقت فيما بين تشكيل الإدارتين مناسب. لديه عدد من العروض فى القطاع الخاص، وسيقضى بعض الوقت يفكر فيها».

لفترة وجيزة بعد ٩/١١، ساعد بلاك فى إدارة حرب خفية غير مسبوقة كان بعض المسئولين قد ظلوا يسيل لعابهم توقا لها لطوال فترة حياتهم الوظيفية. إلا أن ذلك كان قد أصبح فى حكم التاريخ فيما نشطت مجموعات حقوق الإنسان والمحامين نشاطا محموما لتقويض النظام المشبوه الذى كان بلاك قد عمل جاهدا لتشييده. فى ٢٠٠٥، استهدفته وكالة المفتش العام (IG)، ومعه جورج تنت لتوقيع العقوبة عليه، وذلك لمسئوليته فى فشل الاستخبارات فى ٩/١١. إلا أن إدارة بوش، وقد تملكها القلق من أن ينتقم تنت ويُحرج البيت الأبيض بكشفه معلومات تدين (البيت الأبيض)، قامت بدفن تقرير IG، وأنقذت بلاك أيضا بتلك العملية.

وفيما بعد، استخدم الديموقراطيون بالكونجرس برنامج بلاك السرى كدليل على أن الإدارة قد أوكلت مهمة اصطياد بن لادن إلى «جهات خارجية» خاصة. لكن، وعلى حين أن عمله بالحكومة أنهى، فقد عثر بلاك على فرصة تناظر منجم ذهب بتوسيعه، دراماتيكيا، العالم الخاص لتعاقدات الجيش، الاستخبارات والأمن فى عالم التعاقدات مع شركات خاصة- حيث مراعاة حقوق الإنسان أمر اختيارى فى أفضل الأحوال. فى ٤ فبراير ٢٠٠٥، أعلنت بلاكووتر يو إس إيه، رسميا أنها قد تعاقدت مع بلاك كنائب لرئيس مجلس إدارة الشركة. قال إريك برينس «يأتى

السفير بلاك معه بخبرة ثلاثين عاما فى مكافحة الإرهاب حول الكوكب، وتكريس تام للحرية والديموقراطية والولايات المتحدة. يشرفنا أن يكون جزءا من فريقنا العظيم».

بالنسبة لبلاكووتر، فإن التعاقد مع بلاك كان نصرا لايكاد يُصدق. من الناحية التسويقية، كاد من المستحيل أن يكون ثمة منافس له. تحركت بلاكووتر سريعا لاستخدامه علامة تجارية فى حدا ذاته ومن أجل ذاته. فى أغسطس ٢٠٠٥، سجل بلاك مؤسسته «الاستشارية» الخاصة،مجموعة بلاك «التى أُعلن أنها ستتخصص فى الحماية والأمن التنفيذيين». قال بلاك فى بيان على موقعه الإلكترونى «قُصد بهجمات ٩/١١ تدمير اقتصاد الولايات المتحدة. ولإنزال أكبر ضرر ممكن، سيستهدف الإرهابيون شريان حياة أى بلد: اقتصادها. ولهذا السبب، فإن أكثر ٥٠٠ شركة ثراءً هى أهداف جذابة بخاصة، فيما تستمر الحكومة فى التأكيد على الأمن الداخلى. نسعى إلى التنبؤ بالتكتيك الإرهابى التالى ونهزمه– تمزيق سلاسل التزويدات، الهجمات المنسقة على الأصول الرئيسية، أو العملاء، أو حتى اغتيالات تنفيذيى الإدارات العليا. إن الشركات الكبرى هى الأهداف الأكثر عرضة للمخاطر. وظيفتنا، الحفاظ عليها آمنة». تفاخرت بلاك جروب بالتالى: «فى وجود قيادات اجتذبناها من المستويات العليا للفرع التنفيذى لحكومة الولايات المتحدة، فإن لدى بلاك جروب الخبرة العملية، والشبكة المهيّأة لتخفيف حدة المشاكل الأمنية. اضمنوا أمن أناسكم وأصولكم».

تومض صور أهداف محتملة على الشاشة فى موقع بلاك جروب الإلكترونى: حشد من الناس متجمعون بالمول بواشنطون دى سى، محطة كهرباء، رجل يرتدى زياً يستخدم آلية لفحص قاع سيارة بجراج تحت أرضى، علامة لوول ستريت. فى صفحة الاتصالات كان الشخصية الرئيسية الأخرى التى ذُكرت بالموقع، هو فرانسيس ماكليلاند، مسئول آخر بالسى آى إيه، كان قد عمل مع بلاك فى الوكالة. كان رقم الاتصال الهاتفى للشركة هو ذات الرقم الذى تستخدمه «مجموعة برينس»

فى مكليان بفرجينيا، مكان غير بعيد عن مركز السى آى إيه لمكافحة الإرهاب الذى ترأسه بلاك ذات اليوم.

ليس ثمة سوى أمريكيين قلائل شاركوا بعمق فى بواطن العمل الخاص بالعمليات السرية للولايات المتحدة فى عالم ما بعد ٩/١١ مثل كوفر بلاك. وسرعان ما بدأ يعمل كأبٍ روحى، بشكل ما لجماعة المرتزقة فيما كانت تُنقح من حملتها لإضفاء سمة أخرى مُعدَّلة على نفسها. وسرعان ما كان العملاء المحتملون لبلاكووتر يفترضون أنهم ستكون لديهم إتاحة مباشرة لموارد عالم السى آى إيه والاستخبارات من «قيادات اجتُذِبت من المستويات العليا للفرع التنفيذى لحكومة الولايات المتحدة» -وهو أمر لم يكن بإمكان سوى القلة من الشركات الخاصة أن تزهو به أو تُضمره. كان بلاك صاحب إنجازات من الوزن الثقيل، بين أكثر المنجزين وزنا، الرجل الذى أمسك بكارلوس وقوَّض طالبان. وسرعان ما سنجده يتولى قيادة الدعاية لبلاكووتر كقوة حفظ سلام مخصخصة يمكنها الانتشار بسرعة فائقة فى أماكن مثل دارفور، أو بالداخل الأمريكى فى عمليات أمن داخلى بالولايات المتحدة وسرعان ما سيلحق به مسئولون حكوميون نافذون للعمل ببلاكووتر فيما وجَّهت الشركة بصرها نحو تعاقدات الكوارث المربحة فى الولايات المتحدة فى أعقاب إعصار كاترينا فى نهاية عام ٢٠٠٥. لكن، وفيما كان بلاك يشمِّر عن ساعديه فى شقته الجديدة الفاخرة، كان المزيد من رجال بلاكووتر يموتون بالعراق فيما أصبح اليوم الذى لاقى فيه أكبر عدد من رجال بلاكووتر حتفهم حتى تاريخه■

16

الفصل السادس عشر

فرق الموت، المرتزقة و«خيار السلفادور»

حينما تسلل بول برمر إلى خارج العراق فى ٨ يونيو ٢٠٠٤، خَلَّف وراءه «بزوطة» من العنف والعماء أسماها البيت الأبيض عراقاً «ديموقراطيا ذا سيادة». ليس أدل على مدى عدم استقرار البلد حينما غادرها برمر من أنه كان عليه مسْرحة خروجه بأن يصعد إلى إحدى الطائرات أمام الصحفيين،ثم **يستقل أخرى إلى خارج بغداد،** من أجل -حسب تعبيره- «إخراجى من هنا... ومن المفضل (إخراجى) **قطعة واحد**». ومن منطلق واقعى، فإن هذه السيادة التى وصفها الرئيس بوش بأنها تعنى «استعادة الشعب العراقى لبلده» كانت مجرد وسيلة لإعداد المسرح كى يُحمَّل مسئولو الولايات المتحدة الحكومة العميلة ببغداد تدهور الكارثة أمريكية الصنع. حينما هربت طائرة برمر السرية من العراق، كانت الهجمات المعادية لأمريكا تتزايد بمعدل يومى فيما تدفق المرتزقة إلى البلد -وأصبحوا يعملون بحصانة وفى نفس الوقت، بدأت الفصائل العراقية فى تسليح الميليشيات، وبدأ الحديث عن الحرب الأهلية يطغى على توحيد المقاومة ضد الاحتلال الأمريكى. ووسط هذه التطورات، وصل

خليفة برمر إلى بغداد.

من المؤكد أن السفير جون نجروبونتي لم يكن غريبا على إراقة الدماء عشوائيا أو على العمليات التي تنفذ بأسلوب فرق الموت، بعد أن شب عن الطوق وهو يعمل تحت إمرة هنرى كيسنجر أثناء حرب ڤيتنام. وبدءا من عام ١٩٨١، كان نجروبونتي رجل إدارة ريجان المكلف بتعزيز فرق الموت بأمريكا الوسطى. وبصفته سفير الولايات المتحدة بهندوراس، كان نجروبونتي يترأس ثانى أكبر سفارة بأمريكا اللاتينية آنذاك، وأكبر محطة للسى آى إيه فى العالم. ومن موقعه، نسَّق نجروبونتي دعم واشنطون السرى لفرق موت الكونترا بنيكاراجوا، وللطغمة الحاكمة بهندوراس والتغطية على جرائم كتيبتها ٣١٦ السفاحة. وأثناء فترة عمل نجروبونتي بهندوراس، قال المسئولون الذين عملوا تحت رئاسته إن تقارير وزارة الخارجية الأمريكية عن حقوق الإنسان هناك، كانت تُصاغ وكأنها تقارير عن حقوق الإنسان بالنرويج ولا تعكس، بإطلاقه، الحال بهندوراس. قال جاك آر. بينز، الذى تولى منصب نجروبونتي قبله، للنيويورك

تايمز، إن خليفته كان يثبط محاولات كتابة التقارير لواشنطون عن عمليات الاختطاف، التعذيب، والقتل التى كانت تقوم بها وحدات جيش هندوراس سيئ السمعة. قال بينز «أعتقد أن نجروبونتى كان شريكا فى تلك الانتهاكات، وأعتقد أنه كان يحاول حجب تقارير الانتهاكات وأنه لم يكن صادقا مع الكونجرس عن تلك الأنشطة». ذكرت الواشنطون بوست فى تقرير لها أن من هندوراس «كان نفوذ نجربونتى الذى دعمته المبالغ الهائلة من المساعدات العسكرية من الضخامة بحيث إنه كان يفوق كثيرا نفوذ رئيس جمهورية هندوراس وكان منافسه الوحيد الحقيقى هو رئيس جيش ذلك البلد». بينت الصحيفة فى تقرير لها نُشر بُعيد ترشيحه للمنصب بالعراق أنه «كان سفيرا ذا سطوة بهندوراس فى مطلع الثمانينات لدرجة أنه كان يُعرَف بـ«البروقنصل»، وهو لقب كان يُمنح لكبار الإداريين النافذين فى العصور الكلونيالية. والآن، فقد اختاره الرئيس بوش لإعادة لعب هذا الدور بالعراق».

وربما كان من المفارقة أنه بُعيد تعيين نجروبونتى سفيرا بالعراق فى إبريل ٢٠٠٤، أعلنت حكومة هندوراس أنها ستسحب عديد قواتها التى تبلغ ٣٧٠ شخص من «تحالف الراغبين». وعلى الرغم من سجل نجروبونتى جيد التوثيق الذى يُثبت تورطه فى سياسات انتهاكات مروعة لحقوق الإنسان، فلم يقابل تعميده كسفير بالعراق بأية عقبات- وافق عليه مجلس الشيوخ بغالبية ٩٥ صوتا مقابل صوتين فى ٦مايو ٢٠٠٤. قال السناتور توم هاركين، الذى كان قد حقق فى الثمانينيات، كعضو بالكونجرس، فى أنشطة نجروبونتى بأمريكا الوسطى، قال إنه تمنى لو أنه فعل المزيد من أجل وقف تعيين نجروبونتى. قال هاركين «أصابنى الذهول من كيفية ترقى هذا الشخص بعد ما فعله فى أمريكا الوسطى حيث اختفى مئات الأشخاص تحت بصره. لقد زور أوراقا وتجاهل ما كان يحدث. وهذا من سيصبح سفيرنا فى العراق فى هذا الوقت».

تولت قوات بلاكووتر حراسة نجروبونتى لدى وصوله إلى بغداد فيما كان يصعد درجات أكبر سفارة أمريكية بالعالم -حيث كان يشرف على ٢٧٠٠ من العاملين من

بينهم ٢٥٠٠ من العاملين بالأمن، أى «وحدة أقل قليلاً من فوج كامل من المارينز». وترديدا لأصداء فترة عمله بهندوراس، آوت سفارة بغداد فى عهده ٥٠٠ من العاملين بالسى أى إيه. وفى نفس الوقت، كانت بلاكووتر قد فازت بعقد أمن دبلوماسى قيمته مئات الملايين من الدولارات. لكن، لم تكن الجيوش الأمريكية فقط هى التى كانت تسِمُ الوضع فى العراق. بالإضافة إلى تزايد توظيف قوات الاحتلال، وصناعة إعادة الإعمار، لشركات المرتزقة بالعراق، كان ثمة ارتفاع جاد فى أنشطة فرق الموت بالبلاد فى الأشهر التى تلت مباشرة الانتفاضة المشتركة الوجيزة للسُّنة والشيعة فى مارس/إبريل ٢٠٠٤.

بعد ستة أشهر من وصول نجروبونتى، فى ٨ يناير ٢٠٠٥، ذكرت النيويورك تايمز فى تقرير لها أن الولايات المتحدة كانت تستخدم نهجا جديدا لهزيمة التمرد، نهجا استدعى إلى الذاكرة عمل نجروبونتى القذر قبل ذلك بعقدين. كان ذلك النهج يُسمى «الخيار السلفادورى» الذى «يعود تاريخه إلى استراتيجية مازالت سرية فى معركة إدارة ريجان ضد تمرد رجال العصابات اليساريين فى إل سلفادور فى مطلع الثمانينيات حينذاك، وحينما واجهت حكومة الولايات المتحدة حربا خاسرة ضد الثوار السلفادوريين، قامت الولايات المتحدة بتمويل أو دعم قوات «قومية» زُعِم أنها تضم فرق موت موجهة لاصطياد قادة الثوار والمتعاطفين معهم وقتلهم». بدت الفكرة وأن الولايات تنوى السعى إلى استخدام فرق موت عراقية لاصطياد المتمردين المعادين للاحتلال، فيما تعمل على تجفيف موارد المقاومة وتشجيع التقاتل الطائفى فى آن. وعلى حين أن رمسفلد أسمى هذا التقرير الذى نشرته نيوز ويك «هراء» رغم اعترافه بأنه لم يقرأه، فقد رسمت الأوضاع على الأرض صورة مختلفة.

فى فبراير ٢٠٠٥، ذكرت وول ستريت جورنال فى تقرير لها من بغداد أن حوالى ٧٥٠٠٠جندى عراقى كانوا يعملون فى «وحدات مُخطَّط لها» هى نتيجة إعداد بالغ العناية، تم خلال هذا الصيف، قامت به الولايات المتحدة والقادة العسكريون العراقيون». وفى ذات الوقت، رأت البلاد ظهور ميليشيات «يقودها أصدقاء وأقارب

عاملين بمجلس الوزراء، وشيوخ العشائر -وكانت تلك الميليشيات تُعرَف بأسماء مثل حماة بغداد، فرق كوماندوز الشرطة الخاصة، المدافعين عن الخدامية، ولواء العمارة. وبشكل عام تدعم الحكومة العراقية هذه الوحدات الجديدة التى تتلقى تمويلات حكومية... يعتبرهم بعض الأمريكيين إضافة مُرحَّباً بها فى الحرب على التمرد- رغم أن آخرين يشعرون بالقلق من المخاطر». كان القادة العسكريون الأمريكيون يشيرون إليهم باسم وحدات «الظهور المفاجئ» وقدروا عددهم بخمسة عشر ألف مقاتل. قال الماجور كريس ويلز الذى طُلِب منه فى يناير ٢٠٠٥ تعريف تلك الوحدات بدأتُ أسميهم «فرق غير نظامية تديرها الوزارات». ميزت صحيفة وول ستريت جورنال ستّاً، على الأقل، من تلك الميليشيات، وكانت إحداها تضم «عدة آلاف من الجنود» مسلحين ببذخ بآليات لإطلاق القنابل اليدوية التى تدفعها الصواريخ، وأنابيب مورتار، والكثير من الذخائر». أسس إحدى تلك الميليشيات «فرقة كوماندوز الشرطة الخاصة» الجنرال عدنان ثابت الذى شارك فى مؤامرة انقلاب فاشل ضد صدام عام ١٩٩٦. أبلغ الفريق دافيد بتروس، الذى كان «يشرف على مجهود الولايات المتحدة الهائل لتدريب وتجهيز وحدات عسكرية عراقية» عام ٢٠٠٥، أبلغ وول ستريت جورنال أنه سلم وحدة ثابت تمويلات لتقويم قاعدتها ولشراء مركبات، ذخائر، لاسلكى، ومزيد من الأسلحة. قال «قررتُ أن هذا كان هو الحصان الذى يجب الرهان عليه».

لدى وصوله إلى بغداد، انضم نجروبونتى إلى مسئولين أمريكيين آخرين محنكين فى «الحروب القذرة» للولايات المتحدة بأمريكا الوسطى -من بينهم جيمس ستيل، نائب برمر السابق، الذى كان أحد المسئولين العسكريين الأمريكيين الرئيسيين الذين أداروا حملة «مكافحة التمرد» الوحشية بالسلفادور فى الثمانينيات. كتب بيتر ماس آنذاك بنيويورك تايمز مجازين «إن نموذج العراق اليوم، ليس هو ڤيتنام، التى كثيرا ما تقارن بها، بل السلفادور حيث قاتلت حكومة يمينية تساندها الولايات المتحدة تمردا يساريا فى حرب دامت اثنى عشر عاما وبدأت عام ١٩٨٠». كتب أيضا يقول:

«كانت التكلفة عالية -ما يربو على ٧٠٠٠٠ قتيل، غالبيتهم من المدنيين في بلد يبلغ تعداده ستة ملايين فقط. قام بمعظم أعمال القتل والتعذيب الجيش وفرق القتل اليمينية المرتبطة به. ووفقا لتقرير لمنظمة العفو الدولية عام ٢٠٠١، فإن الانتهاكات التي ارتكبها الجيش والميليشيات المرتبطة به شملت «إعدامات خارج سلطة القضاء، أعمال قتل غير مشروعة أخرى، اختفاءات، وتعذيب... استهدفت القوات المسلحة قرى بأكملها وذُبح سكانها». وكجزء من سياسة الرئيس ريجان لدعم القوات المعادية للشيوعية، سُرِبت مئات ملايين الدولارات من مساعدات الولايات المتحدة إلى الجيش السلڤادوري، وفريق من ٥٥ من مستشاري القوات الخاصة، قاده لسنوات عديدة جيم ستيل، الذي درب فرق الخطوط الأمامية التي وُجِهت إليها الاتهامات بانتهاكات كبيرة لحقوق الإنسان. في العراق اليوم يوجد أمريكيون أكثر كثيرا -حوالي ١٤٠٠٠٠ من القوات الأمريكية- أكثر مما كان بالسلڤادور، لكن جنود وضباط الولايات المتحدة هناك ينتقلون، بتزايد، إلى دور استشاري بالأسلوب السلڤادوري. وفي تلك المرحلة يقومون بمساندة القوات المحلية التي، ومثلما كان الأمر مع الجيش السلڤادوري، لا تتورع عن ارتكاب أعمال العنف. ليس من قبيل المصادفة أن تصبح هذه الاستراتيجية مرئية إلى أقصى حد في إحدى الوحدات التي يعمل ستيل كبير مستشاريها؛ وبما أنه كان مشاركا رئيسيا في الصراع بالسلڤادور، يعرِف ستيل كيف ينظم حملات مكافحة التمرد التي تقودها قوات محلية. وليس هو الأمريكي الوحيد بالعراق الذي يملك مثل تلك الخبرة: فإن كبير مستشاري الولايات المتحدة في وزارة الداخلية العراقية التي لها تحكّم عملياتي بفرق الكوماندوز هو ستيف كاستيل، كبير المسئولين سابقا في إدارة فرض القوانين المضادة للمخدرات الذي قضى جزءا كبيرا من حياته المهنية غارقا في حروب المخدرات بأمريكا اللاتينية. عمل كاستيل مع قوات محلية في بيرو، بوليڤيا، وكولومبيا».

وصفت نيوزويك «خيار سلڤادور» بالعراق بأنه استخدام الولايات المتحدة «لفرق من القوات الخاصة لإرشاد فرق الموت العراقية، ودعمها، وتدريبها أيضا، والأرجح أن تلك الفرقة هي من مقاتلي البشمرجة الأكراد المنتقين بعناية، والميليشيات الشيعية من

أجل استهداف المتمردين السنة والمتعاطفين معهم». ذكرت المجلة أيضا في تقرير لها أن الحكومة الانتقالية برئاسة إياد علاوى «يقال إنها من أكثر المؤيدين صراحة لخيار السلفادور». وهذا مثير للاهتمام حقا إذا أخذنا في الاعتبار ما ذكرته النيويورك تايمز من أن «نجروبونتي اتبع نهجا مكبوحا، واختار البقاء في الظلال مراعاة لإياد علاوى».

وعلى الرغم من الاتهامات بأن تورط الولايات المتحدة في العمليات السلفادورية بالعراق يسبق فترة نجروبونتي ببغداد، إلا أن تلك العمليات ازدادت قوة وكثافة بدرجة كبيرة في وجوده. وفي وقت مبكر من عمله هناك، أي في يناير ٢٠٠٤، كتب الصحفي روبرت دريفوس تقريرا عن وجود برنامج أمريكي سري بالعراق يماثل «برنامج فينيكس (العنقاء) للاغتيالات الذي وضعته السي آي إيه ونفذته بفيتنام، وفرق الموت بأمريكا اللاتينية، وسياسة إسرائيل الرسمية للاغتيالات المستهدفة للناشطين الفلسطينيين». ذكر دريفوس أن الولايات المتحدة أنشأت صندوقا «أسود» من ٣ بليون دولار مخبأة وسط تخصيصات العراق التي وافق عليها الكونجرس في نوفمبر ٢٠٠٣ والتي بلغت ٨٧ بليون دولار. وأن النية كانت هي استخدام تلك النقود لخلق «وحدة ميلشياوية يديرها رجال ميليشيات مرتبطين بمجموعات المنفى العراقية سابقا. يقول الخبراء إنها قد تؤدي إلى عمليات قتل خارج سياق الإجراءات القضائية، وليس فقط قتل الثوار المسلحين بل أيضا القوميين والوطنيين والمعارضين لاحتلال الولايات المتحدة للعراق وآلاف من البعثيين المدنيين». قال الرئيس السابق لمكافحة الإرهاب بالسي آي إيه، فينسنت كانيسترارو، إن قوات الولايات المتحدة بالعراق تعمل مع أعضاء رئيسيين في جهاز استخبارات صدام حسين سابقا. قال كانيسترارو إنهم «يشكلون فرقا صغيرة من أفراد السيلز والقوات الخاصة الأمريكية. مع فرق من العراقيين، يعملون مع بعض كبار المخابرات العراقية للقيام بتلك العمليات». وقال جون بايك الخبير في الموازنات العسكرية السرية «ستكرس تلك المبالغ المهولة لإنشاء وتثبيت بوليس سرى لتصفية المقاومة. ويكون عليهم أن يكونوا موالين سياسيا للولايات المتحدة».

قال الصحفى المتمكن المخضرم ألان نيرن، الذى فضح فرق الموت المدعومة من الولايات المتحدة فى أمريكا الوسطى فى الثمانينيات، قال إنه سواء كان نجروبونتى متورطا فى «خيار السلفادور» بالعراق أم لا «فإن هذه البرامج التى كانت وراء قتل المدنيين الأجانب جزء نظامى من سياسة الولايات المتحدة. إنها متعضونة فى سياسة الولايات فى دستٍ ودستٍ من البلدان». زار دوان كلاريدج، الذى أدار حرب السى آى إيه «السرية ضد الشيوعية بأمريكا الوسطى من هندوراس» زار زميله القديم نجروبونتى فى بغداد صيف ٢٠٠٤. أبلغ كلاريدج النيويورك تايمز أن «نجروبونتى عليه أن يلعب دورا غير ظاهر بالعراق ويدع العراقيين يظهرون فى الواجهة». ووفقا للصحيفة «حوّل نجروبونتى بليون دولار لتأسيس الجيش العراقى من أموال مشاريع إعادة الإعمار، وهى خطوة حفزتها خبرته فى نقاط ضعف الجيش جنوب الفيتنامى».

وصف نجروبونتى ربط اسمه «بخيار السلفادور» بالعراق بأنه «غير مبرر بإطلاقه». بيد أن مناصرى حقوق الإنسان الذين رصدوا حياته الوظيفية عن كثب قالوا إن تزايد أنشطة -نمط- فرق- الموت بالعراق أثناء فترة عمل نجروبونتى ببغداد أمر لا يمكن تجاهله. قال أندريه كورنرريرس، مدير برنامج المجموعة الحقوقية المسماة عدم العنف الدولية إنه «ليس من قبيل الصدفة أن نجروبونتى بعد أن عمل سفيرا فى هندوراس، حيث كان متورطا بقوة فى دعم فرق الموت، أصبح السفير بالعراق، وأن هذه كانت السياسة التى بدأت تُفعَّل هناك والتى لا تستهدف المقاومة فقط، بل إنها تستهدف القاعدة الداعمة التحتية، أفراد الأسر، وأفراد المجموعات السكانية حيث توجد المقاومة، تستهدفهم بالقمع والتعذيب والاغتيالات. إن تلك السياسات جرائم حرب».

لم يدم نجروبونتى طويلا فى العراق -فى ١٧فبراير ٢٠٠٥، رشحه الرئيس بوش أول مدير للاستخبارات القومية وقد يقول البعض إن نجروبونتى كان لديه مهمة ينفذها بالعراق، وقد أتمها، ثم رحل. بحلول شهر مايو من ذاك العام، كان قد عاد إلى الولايات المتحدة، فيما توالت التقارير التى تصف تزايد العمليات بأسلوب فرق الموت

بالعراق. ذكر تقرير بالواشنطون بوست بُعيد رحيل نجروبونتى «نفذت الميليشيات الكردية والشيعية، التى تعمل غالباً كجزء من قوات أمن الحكومة العراقية، موجة من الاختطافات، الاغتيالات، وعمليات ترويع أخرى، ورسخت بذلك تحكمها فى مناطق بأرجاء شمال العراق وجنوبه، معمقة بذلك تقسيم البلاد وفق خطوط إثنية وطائفية». قال جون بيس، وهو ديبلوماسى بالأمم المتحدة منذ أربعين عاما، وعمل رئيسا لحقوق الإنسان فى بعثة المساعدة التابعة للأمم المتحدة بالعراق أثناء فترة عمل نجروبونتى، قال «فى ٢٠٠٥، رأينا حالات كثيرة كان فيها سلوك فرق الموت مماثلا جدا، بل مماثلا بأسلوب غرائبى مخيف، لذلك الذى رأيناه فى بلدان أخرى، ومن بينها السلفادور» ثم قال، فى النهاية «كانت تبدأ كميليشيات، نوع من المجموعات المسلحة المنظمة، أجنحة عسكرية للفصائل المختلفة. كان الكثير منها يعمل فعلا كعملاء شرطة رسميين، جزء من وزارة الداخلية.. والآن، لديك تلك الميليشيات ترتدى زى الشرطة وتحمل شاراتها، وتنفذ، جوهريا، أجندة ليست فى صالح البلد ككل. لديها حواجز طرق ببغداد ومناطق أخرى، تقوم بخطف الأفراد. ظلوا مرتبطين عن كثب بعديد من عمليات الإعدام الجماعية».

قبيل رحيل نجروبونتى من العراق، تنبأ رئيس مفتشى الأسلحة بالأمم المتحدة، سكوت ريتر، أن «خيار السلفادور سيعمل حافزا لحرب أهلية شاملة. وبنفس الأسلوب الذى حفزت به اغتيالات سلطة التحالف المؤقتة للبعثيين، إعادة هيكلة المقاومة التى يقودها السنة وتقويتها، فإن أى محاولة لفرق الاغتيالات الكردية والشيعية التى تدعمها الولايات المتحدة ستزيل كل عوائق اندلاع حرب إثنية ودينية عامة بالعراق. من الصعب، كأمريكى، دعم فشل العمليات العسكرية بالعراق. فمثل هذا الفشل سيأتى معه بقتل وجرح كثير من أفراد الجيش الميدانيين، وعدد أكبر كثيرا كثيرا من العراقيين». برهنت رؤية ريتر فى الأشهر التى تلت، على أنها نبوئية، فيما زلزل العراق مستوى ثابت غير مسبوق من العنف وبدأ الكثيرون يصفونه بأنه حرب أهلية شاملة.

فى أكتوبر ٢٠٠٥، قضى طوم لاستر، مراسل وكالة أنباء نايت ريدر، أسبوعا فى دورية مع «وحدة هجمات مفاجئة من الجيش العراقى -اللواء الأول من الفرقة السادسة العراقية، والمؤلف من ٤٥٠٠ فرد». ذكر فى تقريره «بدلا من الارتقاء فوق مستوى التوتر الطائفى الذى يمزق الأمة، فإن تلك القوات ذات الغالبية الشيعية تُعدّ لحربٍ أهلية ضد الأقلية السنية، إن لم تكن تخوضها بالفعل». كانت الوحدة مسئولة عن الأمن فى المناطق السنية ببغداد، وذكر لاستر «أنهم يسعون إلى الانتقام من السنة الذين قمعوهم أثناء حكم صدام حسين». استشهد بقول أحد قادة الوحدة الشيعية، الماجور سوادى غيلان، إنه يريد قتل معظم السنة بالعراق. قال غيلان «هناك عراقان؛ وهذا أمر لم يعد باستطاعتنا إنكاره. على الجيش إعدام السنة فى أحيائهم كى يستطيع جميعهم رؤية ما يحدث، ومن أجل أن يتعلم جميعهم الدرس».

ذكر لاستر أن كثيرا من الضباط والجنود الشيعة قالوا إنهم «يريدون حكومة دائمة يهيمن عليها الشيعة تتيح لهم فى النهاية سحق الأقلية السنية، حوالى ٢٠٪ من السكان، وعمود المقاومة الفقرى». وصف لاستر، الفرقة الأولى، التى كان يعتبرها قادة جيش الولايات المتحدة النموذج المعيارى لجيش العراق فى المستقبل، كالتالى «إنهم يبدون، بل ويعملون، وكأنهم ليسوا وحدة من الجيش العراقى القومى، بل وكأنهم ميليشيا شيعية». قال الرقيب أحمد صبرى، من هذه الوحدة «فليدعونا فقط نحصل على دستورنا ونُجرى انتخاباتنا.. وسنفعل ما فعله صدام -نبدأ بخمسة أفراد من كل حى ونقتلهم فى الشوارع، ونواصل العمليات بعد ذلك». وبحلول نوفمبر ٢٠٠٦، كانت التقديرات هى أن ١٠٠٠ عراقى يُقتلون كل أسبوع، وأن مجموع القتلى العراقيين قد تجاوز بكثير ٦٠٠٠٠ عراقى منذ الغزو فى مارس ٢٠٠٣.

وبالنظرة الارتجاعية، وإذا خطونا خلفاً وتجاوزنا القصص الفرعية التى حدثت على أرض الواقع فى العراق فى ٢٠٠٥، فإن واقع الصورة الكبيرة كان هو أن البلد كان فى طريقه سريعا لأن يصبح المركز الكوكبى السطحى للحرب المخصيخصة مع وجود عشرات عديدة من المجموعات فائقة التسلح من ولاءات منوعة، وبأجندات مختلفة

تجوب العراق. بالإضافة إلى فرق الموت التى تدعمها الولايات المتحدة، والتى كانت تعمل بمشروعية مزعومة من داخل النظام الذى نصّبته الولايات المتحدة ببغداد، كان ثمة العديد من الميليشيات المعادية للاحتلال تتبع قادة شيعيين منوعين، مثل مقتدى الصدر، وحركات مقاومة من الفصائل السنية، التى تشكلت فى غالبيتها من ضباط وجنود الجيش العراقى السابق ومسئوليه، وأيضا ميليشيات من القاعدة. جعلت إدارة بوش من شجب وإدانة ميليشيات بعينها نهجا سياسيا لها. أعلن بوش: «فى العراق الحر المحرَّر، على أعضاء الميليشيات السابقين نقل ولائهم إلى الحكومة القومية، وتعلُّم العمل تحت سلطة القانون».

بيد أنه فى أعلى قمة هرم الميليشيات كان المرتزقة الرسميون الذين استوردتهم واشنطون وأرسلتهم إلى العراق -الشركات العسكرية الخاصة، التى كانت بلاكووتر قائدة صناعتها. وفيما كانت الولايات المتحدة تنادى بحل بعض الميليشيات العراقية وتقويضها، سمحت، علانية، لمرتزقتها الذين يعملون لدعم الاحتلال بالعمل فوق القانون بالعراق.

«مازالت الحاجة مستمرة لهذا النوع من الأمن»:

فى نهاية فترة عمل نجروبونتى ببغداد، وفيما ارتفعت وتيرة عنف الميليشيات، استحوذت قوات بلاكووتر مرة أخرى على العناوين الرئيسية حيث وقع أكبر حادث دموى -آنذاك- اعترفت به الشركة علنا، بالعراق. فى ٢١ إبريل ٢٠٠٥، يوم تعميد نجروبونتى فى منصبه الجديد كمدير للاستخبارات القومية بواشنطون، كان بعض حراسه الشخصيين السابقين يموتون بالعراق. فى ذاك اليوم، كانت مروحية Mi-8 يعمل عليها بلغاريون متعاقدون مع بلاكووتر تحلق فى طريقها من المنطقة الخضراء إلى تكريت، موطن صدام حسين. كان على متن الطائرة ستة أفراد أمريكيين من فرق بلاكووتر المتعاقدة مع مكتب الأمن الدبلوماسى بحكومة الولايات المتحدة. كان معهم ثلاثة من أفراد طاقم الطائرة البلغاريين و ٢ من المرتزقة من فيجى. فى اليوم السابق لرحلتهم، كان أحد رجال بلاكووتر، جيسون أوبرت من كلورادو، والذى كان فى

التاسعة والعشرين من عمره، قد هاتف زوجته جيسيكا التى قالت فيما بعد «أبلغنى أنه سيُرسَل فى مهمة. لم يكن مرتاحا لها. توسلتُ إليه ألا يذهب. أبلغته أن يعود إلى وطنه. لكنه لم يكن ليسمح لنفسه أن يُقلع عن هذا العمل أبداً؛ لم يكن هذا طبعه». قالت جيسيكا أوبرت إن زوجها لم يخبرها عن طبيعة المهمة. ومثل الكثيرين من الذين وقعوا عقودا مع بلاكووتر، اعتبر جيسون أوبرت ذلك فرصة لمراكمة مدخرات لزوجته وابنيه الصبيين. فى فبراير ٢٠٠٥، ترك عمله كضابط شرطة ووقع عقداً مع بلاكووتر. قال الملازم روبرت كينج، رئيس أوبرت فى قسم الشريف (كبير رجال الأمن) بمحكمة إل باسو الإقليمية «كان الربح المالى لا يُصدق. أبلغنى، وعديدا من الآخرين، أنه سيعمل (معهم) عاما واحداً، وذلك سيضمن مستقبل طفليه وزوجته. سيكفى هذا لتمويل تعليمهما الجامعى وتسديد ثمن منزلهم». وفى اليوم التالى الذى أبلغ زوجته عن «عدم ارتياحه» استقل المروحية Mi-8 مع زملائه من بلاكووتر، والفيجيين وأفراد طاقم الطائرة البلغاريين.

فى حوالى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ظهرا، وفيما كانت المروحية تئز باتجاه تكريت، مرت قرب مدينة ترمية الصغيرة على نهر دجلة، وتقع على بعد حوالى اثنى عشر ميلا شمالى بغداد وتسكنها مجموعة سكانية صغيرة من السنة. كان الطيار يُحلق على ارتفاع منخفض قريب من الأرض، وهو تكتيك عسكرى شائع لإعاقة المهاجمين المحتملين. وعلى سهل مرتفع قريب، كان يقف عراقى قيل إنه ظل ينتظر ثلاثة أيام على أمل أن تقترب طائرة للاحتلال بدرجة كافية تمكنه من تنفيذ مهمته. حينما أزّت الطائرة فى مداه، أطلق العراقى صاروخا من نوع Strela سوفييتى الصنع، وأصاب المروحية مباشرة، وأشعل فيها النيران فيما تحطمت على أرض الصحراء المنبسطة. صوّر المهاجم ورفاقه فيلما للهجوم وأبقوا الكاميرات تعمل فيما هرولوا باتجاه موقع تحطم الطائرة. يمكن سماعهم على فيلم الفيديو الذى التقطوه وهم يصيحون لاهثين مُردّدين «الله أكبر! الله أكبر». وحينما يصلون إلى الموقع، تُرى أجزاء الطائرة متناثرة على السهل المنبسط فيما تستمر عدة حرائق صغيرة مشتعلة. ترقد جثة أحد الرجال الموتى على الأرض وقد تفحمت وقد رُفِع ذراعها على شكل

حرف L وكأنما صاحبها كان ينكمش خوفا من هجمة ما. يقول أحد المهاجمين. «انظر إلى هذه القذارة. ابحث عن أى أمريكيين مازالوا أحياء».

يستمر المهاجمون فى تفحص بقايا المروحية حينما يعثرون على الطيار البلغارى، لبوبومير كوستوف، يرتدى بذلة الطيران الزرقاء، ويرقد وسط بقعة من الأعشاب الطويلة. يصيح أحد الرجال، بعد أن أدرك أن كوستوف مايزال حيا، يصيح بالعربية والإنجليزية «أية أسلحة؟». تدور الكاميرا بأسلوب بانورامى حول الطيار فيما يجفل ألما «قف! قف!» يصيح أحد المهاجمين بإنجليزية مُلَكّنة. يجيب الطيار «لا أستطيع».

ثم يخبرهم كوستوف وهو يشير إلى ساقه اليمنى «لا أستطيع. إنها مكسورة ساعدونى على الوقوف». يجيب أحد المهاجمين «تعال هنا، تعال هنا» فيما يساعد كوستوف على الوقوف على قدميه. يصيح آخر فى الطيار «اذهب! اذهب!» يستدير كوستوف فى الاتجاه الآخر ويمضى وهو يعرج وظهره إلى الكاميرا. وفيما يترنح إلى الأمام يدير كوستوف رأسه ويضع يده على رأسه وكأنما ليقول «توقفوا!»، حينما يصرخ أحدهم، فجأة «نفّذوا حكم الله». يطلَق المهاجمون النيران على كوستوف فيما هم يصيحون «الله أكبر»، ويصوّرون عملية الإعدام فيما يدفعون بثمانى عشرة طلقة تخترق جسده، ويستمرون فى إطلاق النيران على الطيار، حتى بعد سقوطه ميتا على الأرض.

وفى غضون ساعتين، كانت مجموعة عرّفت نفسها على أنها الجيش الإسلامى بالعراق، قد أرسلت الفيديو إلى الجزيرة، التى قامت ببثه. قالت المجموعة فى بيان مكتوب لها رافق الشريط «قام أبطال الجيش الإسلامى بإسقاط طائرة لجيش الكفرة وقتلوا طاقمها ومن كانوا على متنها. أُسِر أحد أفراد طاقم الطائرة وقُتِل». قالت المجموعة إنها أعدمت الطيار الذى كان قد ظل حيا «انتقاما للمسلمين الذين قُتِلوا بدم بارد فى مساجد الفلوجة الشجاعة المرابطة أمام أعين العالم وعلى شاشات التليفزيونات، ودنما أن يدين أحد قتلهم». فُسِّرت هذه الجملة على أنها إشارة إلى إعدام عراقى جريح فى مسجد بالفلوجة فى نوفمبر ٢٠٠٤ على يد جندى أمريكى (تم

تصوير الواقعة بالفيديو) أثناء هجوم الولايات المتحدة الثاني على الفلوجة.

وفى بيان نُشِر بُعيد إسقاط الطائرة، قالت بلاكووتر إن «الستة كانوا ركابا فى مروحية تجارية تُشغّلها شركة سكاى لينك بعقد مع بلاكووتر مساندة لعقد للشركة مع وزارة الدفاع». وعلى الرغم من استخدام الطائرة العسكرى الجَلِى، ظلت التقارير الإعلامية تشير إلى المروحية، بشكل دائم، بصفتها طائرة «مدنية» أو «تجارية». وفى تلك الأثناء بدأ المراسلون بالبنتاجون يذكرون فى تقاريرهم أن «تلك الطائرات التجارية تحلق دون إجراءات جوية وقائية كتلك التى تطير بها الطائرات العسكرية». بعيد إسقاط الطائرة أبلغ الفريق الجوى المتقاعد دون شبرد من القوات الجوية الأمريكية، والذى كان قد ترأس الحرس الجوى القومى، أبلغ السى إن إن «لابد أن تُزوَّد جميع الطائرات هناك، لو أمكن ذلك، بالوسائل المضادة والتوهجات تحت الحمراء. لحماية نفسها من الصواريخ التى تطلق من على الأكتاف والتى هى أكبر خطر يهدد المروحيات التى تحلق على ارتفاع منخفض.. بمجرد إطلاق صاروخ تحت أحمر محمول على الكتف عليك.. يُصبح بإمكانك التشويش عليه أو تحويل مساره بالتوجهات أو بالمناورات المتقدمة». ثم أضاف شبرد «كل هذه الوسائل تحميك». أثناء مؤتمر البنتاجون الصحفى بعد إسقاط الطائرة، سأل مراسل المتحدث باسم البنتاجون لارى دى ريتا عن الافتقاد الواضح «للوسائل المضادة» من مروحية بلاكووتر المستأجرة:

المراسل: تتعاقد وزارة الدفاع مع هؤلاء الناس. أثمة أى نوع من الإلزامات لديكم تفرضونها على هؤلاء المقاولين للتأكد من أن الأفراد الخاصين الذين يقومون بالعمل نيابة عن وزارة الدفاع تتوفر لهم نفس الحماية التى يحصل عليها أفراد القوات المسلحة الميدانيون فى بزاتهم العسكرية؟ أليس من الواجب أن يتمتع الأشخاص الذين يؤدون نفس العمل لوزارة الدفاع، نفس المهمات، ويحصلون على رواتبهم فقط من جهة أخرى -أليس من الواجب أن يتمتعوا بنفس أنواع الحماية التى يحصل عليها من يرتدون زى الجيش الرسمى؟

دى ريتا: لست متأكداً من أن هذه الفرضية هى الأساس الذى يعمل بموجبه هؤلاء الناس هناك. بتعبير آخر، هناك مقاولون يفترضون وجود قدر معين من المخاطر كأمر مسلم به. هناك -لا، لا أقول الجميع- هناك عدد من المقاولين المتعاقدين مع الجيش الأمريكى، مع وزارة الدفاع، وبعضهم مع وزارة الخارجية، وهؤلاء يفترضون وجود مخاطر معينة فى وجودهم هناك. ولا أجدنى أرغب أن أشخص المستوى المحدد. ليس أننا لا نتأسّى على فقدان الحياة، ومتأكد أنا من أن هذا المقاول (الشركة) لابد وأنه قد اتخذ جميع الاحتياطات. أعنى، أنى أعتقد أن هذا هو -يولون نفس الاهتمام بالعاملين لديهم، تماما مثل اهتمامنا بقواتنا. لكننى لا أستطيع القول إن هذا يعنى بالضرورة أنهم سيكونون على نفس المستوى. لا أعتقد أن هذا هو الوضع.

المراسل: لديهم نفس الإجراءات المضادة؟ ألا يجب أن يكون لديهم نفس الأجهزة الواقية، ألا يجب أن يكون لديهم نفس التجهيزات البالستية، ألا يجب أن يكون لديهم..

دى ريتا: كما قلت، أعتقد أن المقاولين يعرفون البيئة التى يشتغلون فيها. يعنى أنهم موجودون فى أرجاء العالم، ويعملون التعديلات المناسبة وفقا لحساباتهم.

وخلافا للبنتاجون -الذى كانت تحده قيود الميزانية- كانت تحدّ قدرة بلاكووتر على الدفاع عن العاملين لديها قرارات إنفاقاتها فقط، ومقدار ما كانت على استعداد لدفعه للإجراءات المضادة الدفاعية. قالت كاتى هلفنستون -وتنجل، التى كانت بالفعل قدر رفعت دعوى قضائية على بلاكووتر بسبب موت ابنها بالفلوجة «لدىّ كثير من المخاوف على المقاولين الكثيرين الذين مازالوا هناك. يبدو أن حكومتنا تؤجر هذه الحرب من الباطن، ولا تخضع تلك الشركات للمحاسبة».

وفى نفس اليوم الذى أُسقطت فيه المروحية، كان كيرتس هاندلى، البالغ من العمر اثنين وأربعين عاما، يعمل ضمن قوات الأمن الخاصة لبلاكووتر على أطراف مدينة الرمادى، غير البعيدة عن الموقع الذى أُسقطت فيه المروحية. كان يفصله بضعة أيام

فقط عن رحلة عودة إلى زوجته بمدينة وينستون -سالم، بكارولاينا الشمالية. ووفقا لوالده ستيف هاندلى، طيار مروحيات سابق كان قد خدم بفيتنام، الذى قال «حينما بدأت الحرب فى العراق، كان يريد القتال من أجل بلدنا. كان سنه أكبر من أن يلتحق بالجيش مرة أخرى، وهكذا التحق بفرق بلاكووتر الأمنية. استوجب هذا أن يظل فى الطرق بالعراق كل يوم تقريبا. أخطر مكان يمكن للإنسان أن يتواجد به. لم أره أبدا أكثر زهوا بما يفعله. كان يحب أن يُلقى بالحلوى إلى الأطفال فى الطرقات. ومثلى فى فيتنام، فى البداية، اعتقد أن التقدم كان على ما يرام. لكن سوء الحسابات المدنية -مثل عدم إرسال عدد كافٍ من القوات لضمان أمن مستودعات الذخيرة والحدود وضبطها، ثم حل الجيش العراقى بأكمله، الذى خلق على الفور آلاف الإرهابيين المحتملين -بدأ سوء الحسابات هذا يُحدث أثره. رأيت ابنى خالى البال يبدأ فى التحجر. كانت عيناه، ذات الوميض الدائم مختلفتين فى الصور التى أرسلها. حينما كنت أستطيع أن أجعله يتحدث عن وظيفته، كنت أشعر أنه بدأ يشعر بالاشمئزاز من الوضع الآخذ فى التدهور. ثم تحول الاشمئزاز إلى غضب فى الأسابيع الأخيرة من حياته». توفى كيرتس هاندلى بالرمادى فى ٢١ إبريل حينما انفجرت قنبلة بالقرب من حاملة مدرعة للعاملين بالشركة. كان موت هاندلى وتحطم الطائرة يعنى أن بلاكووتر فقدت سبعة رجال فى العراق ذاك اليوم، أكبر عدد من موتاها فى العراق فى يوم واحد حتى تاريخه. أعلن أحد العناوين الإخبارية «يوم بلاكووتر الأسود».

وسرعان ما احتشد تنفيذيو الشركة، بموبوك، ليعدوا إجاباتهم. قال رئيس مجلس الإدارة جارى جاكسون «هذا يوم حُزْن كبير لعائلة بلاكووتر. فقدنا سبعة من أصدقائنا فى هجمات إرهابية بالعراق، نشاطر أفراد أسرهم أحزانهم بأفكارنا وصلواتنا». قال بيان صحفى للشركة «لدى بلاكووتر فريق مكون من ١٥ فردا من المرشدين النفسيين يعملون مع أفراد تلك العائلات لمساعدتهم على التغلب على فقدان أحبائهم». وفى تلك الأثناء، تم تأبين الرجال السبعة فى وزارة الخارجية بصفتهم أبطالا. قال جو مورتون، مساعد وزير الخارجية «كان مقاولو بلاكووتر هؤلاء يدعمون مهمة وزارة الخارجية بالعراق، وكان دورهم بالغ الأهمية لمجهوداتنا لحماية

الدبلوماسيين الأمريكيين هناك، وهب هؤلاء الرجال الشجعان حياتهم كي يتمتع العراقيون، في يوم ما، بالحرية والديموقراطية التي نتمتع بها في أمريكا».

ومرة أخرى، ركز مقتل قوات من بلاكووتر الأضواء على العالم السري لشركات المرتزقة. قال آدم إرلي، المتحدث باسم وزارة الخارجية في إجابته عن أسئلة من الصحفيين «حقيقة الأمر هي أن شركات الأمن الخاصة ظلت تعمل بالعراق منذ البدايات الأولى، من ثم، لا جديد في هذا. ثمة حاجة إلى الأمن تتخطى ما باستطاعة العاملين بحكومة الولايات المتحدة توفيره، ونذهب إلى الشركات الخاصة لتوفر هذا. وهذه ممارسة شائعة. ليست قصرا على العراق. نفعل ذلك في أرجاء العالم». قال إرلي، في العراق «أعتقد أنه من نافلة القول أن نذكر أن الأوضاع وصلت لدرجة أنه أصبح من غير الآمن تماما التجول في أرجاء البلد، في جميع أجزائها، وفي كل الأوقات، من ثم تستمر الحاجة إلى الأمن -لهذا النوع من الحماية الأمنية».

لابد وأن هذه الكلمات كان لها وقع الموسيقى على آذان بلاكووتر: من ثم تستمر الحاجة لهذا النوع من الأمن، ومرة أخرى، تم ترجمة موت مقاولي بلاكووتر إلى مزيد من الدعم لقضية المرتزقة. في اليوم التالي لمقتل مرتزقة بلاكووتر السبعة، وافق مجلس الشيوخ على مشروع القانون الخلافي باعتماد مبلغ ٨١بليون دولار للإنفاق على احتلال العراق وأفغانستان، مما رفع التكلفة الكلية للحرب إلى أكثر من ٣٠٠ بليون دولار. تم تخصيص مزيد من الأموال لـ«الأمن» بالعراق. آنذاك، كان ١٥٤٦ جندي أمريكي قد ماتوا منذ الغزو، ومعهم عدد لم يُحص من المرتزقة. كان قد مر عام على كمين بلاكووتر بالفلوجة، ولم يكن البيزنس قد أصبح، أبدا، في وضع أفضل بالنسبة لإريك برينس وزملائه، رغم الوفاة الثابتة لثمانية عشر من مقاولي بلاكووتر بالعراق. أما في الولايات المتحدة، فقد كانت إمبراطورية بلاكووتر على وشك إضافة مسئول نافذ سابق في إدارة بوش إلى قائمة العاملين بها■

17

الفصل السابع عشر

چوزيف شميتز

جندى مسيحى

ظل جوزيف إى. شميتز، لفترة طويلة، جندياً مؤدلجا فى خدمة القضايا اليمينية قبل أن يعينه الرئيس بوش مفتش عام البنتاجون، أعلى مسئول أمريكى، مناط به مباشرة الاشراف على المقاولين العسكريين بالعراق وأفغانستان. وبرهن على أنه خادم مخلص للإدارة أثناء فترة عمله بذلك المنصب، **تلك الفترة التى أُبتليت** بالفضائح. وفى الوقت الذى قدّم فيه استقالته، كان **شميتز مُتَّهما، من قبل** الجمهوريين والديموقراطيين معا، بحماية مقاولى الحرب ذاتهم الذين أنيطت به مهمة مراقبتهم، وبإباحة استشراء الفساد والمحسوبية دونما أية كوابح. **فى فترة** «رقابة» شميتز، اقتنصت الشركات جيدة الصلات مثل هاليبرتون، كيه بى آر، بكتل، فلور، CACI، ترايبل كانوبى، دينكورب، وبلاكووتر أرباحا مهولة وهى تخدم الاحتلال بالعراق وأفغانستان. وبحلول ٢٠٠٥، كان لدى وزارة الدفاع بالعراق «عقد أصلى» مع سبعة وسبعين مقاولا، قيمتها حوالى ٤٢.١ بليون دولار. ووفقا لمكاتب مراجعة الحسابات بالبنتاجون كانت تعاقدات هاليبرتون «بمفردها تمثل ٥٢٪ من

مجموع قيمة التعاقدات».

بإمكان الاتهامات بالاحتيال والتدليس فى تلك التعاقدات، والتربح من الحرب فى تلك الفترة أن تملأ مجلدات، وقد أدان المشرعون غياب الشفافية وعدم الإعلان عن مناقصات علنية. ووسط الفضيحة التى أخذت فى التجمع حول تربح هاليبرتون والفساد بالعراق، قال شميتز فى يوليو ٢٠٠٤ «لم أر أى ابتزاز لأموال دافعى الضرائب الأمريكيين، لكننا ماضون فى التقصّى». وعلى حين كان ثمة العديد من المستويات البيروقراطية فى النظام الحكومى سهلت مثل سوء السلوك الشركاتى ذاك، فقد كان شميتز، الذى كانت مهمته الوحيدة الإشراف على مكتب يعمل به ١٢٥٠شخص، بميزانية قدرها ٢٠٠مليون دولار، هو وحده المناط به الإشراف على تعاقدات الدفاع المربحة التى يمولها دافعو الضرائب الأمريكيون، وضبطها.

وبعد ثلاث سنوات من لعب دور رئيسى فى نظام أمّن المتربحين الشركاتيين الراشين والمرتشين، تلك السنوات التى خلالها تطوع شميتز بأعمال غير مطلوبة منه

ليبرهن على ولائه لإدارة بوش، وجد أعلى رجل شرطة مكانة بالبنتاجون نفسه قيد التحقيق. أطلق السناتور الجمهورى الناقد، تشارلس جراسلى، عملية تحقيق لمعرفة ما إن كان شميتز قد «قام بطمس أو إلغاء تحقيقين جنائييْن سارييْن، أو أعاد توجيههما» بخصوص مسئولين كبيرين بإدارة بوش. وجه جراسلى أيضا «اتهاما لشميتز بتزييف بيانٍ إخبارى رسمى صادر عن البنتاجون، وبالتخطيط لرحلة متعة باهظة التكلفة إلى ألمانيا على حساب الدولة، وبحجب معلومات عن الكونجرس».

وأخيرا، وحينما تعرض لنيران الديموقراطيين والجمهوريين معا، قدم شميتز استقالته من منصبه كمفتش عام رغم أن مكتبه أنكر أن هذا كان نتيجة للتحقيق. وقبيل استقالته، كشف شميتز عن نيته للعمل لإريك برينس ببلاكووتر. وفى خطاب عليه ختم بتاريخ ١٥يونيو ٢٠٠٥، أبلغ وزارة الدفاع والبيت الأبيض رسميا «أننى غير مؤهل للمشاركة فى أى أمر رسمى يكون له تأثير مباشر أو محتمل على المصالح المالية» لبلاكووتر يو إس إيه. كتب شميتز قائلا إن لديه «مصالح مالية» فى بلاكووتر «لأننى أنوى التفاوض على إمكانية توظيفى (بالشركة) معهم». كانت بلاكووتر، أثناء الفترة التى عمل بها شميتز بالبنتاجون رقيبا على المتعاقدين، كانت قد طورت من وضعها كمرفق صغير خاص للأعمال العسكرية والتدريبات على مهمات فرض القانون وأصبحت مزودا كوكبيا بالمرتزقة لديها تعاقدات قيمتها عشرات ملايين الدولارات مع حكومة الولايات المتحدة.

لكن اهتمام شميتز ببلاكووتر (أو اهتمامها به) لم يكن ذا علاقة بتكريسه لحروب إدارة بوش، بحقيقة أنه قد عمل لإدارة ريجان، بأنه قد مثل رئيس مجلس النواب آنذاك، نووت جينجريتش، أو بتورطه فى العالم الفاسد الضبابى للمقاولين العسكريين. بالتأكيد، كانت تلك الأشياء، جميعها، عوامل، لكن الرباط كان أكثر عمقا من هذا. كان جوزيف شميتز، مثل تنفيذيى إريك برينس الآخرين ببلاكووتر، كاثوليكيا، وأصوليا مسيحيا. بل قد يذهب البعض إلى حد القول بأنه متعصب دينيا يسيطر عليه هوس «تفعيل سلطة القانون بتوجيه من الرب». عبر شميتز، فى عدة

خطب له أثناء عمله مفتشا عاما للبنتاجون، عن تصوره وفهمه للحرب الكوكبية على الإرهاب، مستخدما خطاب تَسيّد المسيحيين وسموهم. قال شميتز فى خطبة له فى يونيو ٢٠٠٤، بُعيد عودته من رحلتين إلى أفغانستان والعراق «لايجوز لأى أمريكى اليوم أن يشك أبدا فى أننا نعتبر أنفسنا مسئولين أمام سلطة القانون بتفويض من الرب. وهنا يكمن الفرق الرئيسى بيننا وبين الإرهابيين. والأمر بإيجاز -أننا نتباهى بتمسكنا المتشدد بسلطة القانون كما أنزله الرب». فى سيرته الرسمية، ذكر شميتز بفخر، عضويته فى أخوية فرسان مالطا العسكرية ذات السيادة، وهى ميليشيا مسيحية تشكلت فى القرن الحادى عشر، قبل الحملة الصليبية الأولى، وكانت مهمتها الدفاع عن «الأراضى التى استولى عليها الصليبيون من المسلمين». وتتباهى الأخوية اليوم بكونها «رعيّة ذات سيادة للقانون الدولى، لها دستورها الخاص بها، جوازات سفرها، طوابعها وأختامها، ومؤسساتها العامة» و«علاقات ديبلوماسية مع ٩٤بلداً». وبالإضافة إلى تعصبه المسيحى/الصهيونى، كان شميتز أحد المعجبين المبهورين بأحد المرتزقة الأجانب الأكثر شهرة الذى حارب إلى جانب الجنرال جورج واشنطون أثناء الحرب الثورية الأمريكية، أى: البارون البروسى ذو النزعة العسكرية المفرطة، فريدرتش ويلهلم ڤون ستوبن، الذى كان شميتز مُكرّسا بضراوة له وكان يشير إليه بصفته «مفتشنا العام الأول ذا التأثير الفاعل». ڤون ستوبن هو أحد أربعة رجال يستشهد بهم مسئولو بلاكووتر كمرتزقة مؤسسين للولايات المتحدة، والآخرون هم الجنرالات لافاييت، روشامبو، وكوشيوزكو، الذين تنتصب تماثيلهم فى مواجهة البيت الأبيض فى منتزه لافاييت الذى اعتاد مسئولو بلاكووتر تسميته «منتزه المقاولين». كل هذا جعله مرشحا مثاليا للالتحاق بصفوف برينس وعصبته فى بلاكووتر، حيث يجلس شميتز إلى يمين برينس مباشرة بصفته كبير الضباط العاملين والمستشار العام. فى بيان صحفى يعلن التعاقد معه، أشار إليه إريك برينس باسم «الجنرال شميتز».

ينتسب جون شميدت إلى عائلة من أكثر العائلات شذوذا وغرابة، عائلة من أقصى اليمين السياسى، وأكثرها ابتلاء بالفضائح فى تاريخ الولايات المتحدة. ولعقود،

نشطت عائلته على هوامش مشهد سيطرت عليه عائلات مثل كيندى، كلينتون وبوش. كان بطريرك العائلة، جون. جى شميتز، محافظا سياسيا متطرفا من ولاية كاليفورنيا أنشأ عائلته فى بيئة منزلية كاثوليكية متزمتة. وكنائب فى برلمان الولاية كان يدعم بضراوة حقوق الولايات. كان يطرح، بانتظام، إجراءات تدعم «تعديل الحرية» الدستورى، الذى كان يتطلب من الحكومة الفدرالية أن تتخلى عن أى بيزنس ينافس الصناعة الخاصة، وفى وقت من الأوقات، اقترح بيع جامعة كاليفورنيا. فى نهاية الستينات، اتهم حاكم كاليفورنيا، آنذاك، رونالد ريجان، الجمهورى المحافظ فى أعقاب زيادة في الضرائب بأنه يريد أن «يدخل الاشتراكية بكفاءة أكثر». بعد عام من اغتيال مارتن لوثر كينج الابن عام ١٩٦٨، قاد جون شميتز المعارضة بمجلس شيوخ ولاية كاليفورنيا ضد تخليد ذكرى قائد الحقوق المدنية الذى تم اغتياله. وبعد فوزه بمقعد بالكونجرس بصفته جمهوريا من إقليم أورانج فى مطلع السبعينيات، سرعان مما رسخ نفسه كأحد أكثر أعضاء الكونجرس اليمينيين جهرا بالآراء». ترشح للرئاسة ضد نيكسون عام ١٩٧٢ كمرشح للحزب الأمريكى المستقل، الذى أسسه عام ١٩٦٨ السياسى جورج ولاس وكان يدعو إلى سياسة الفصل العنصرى. عمل شميتز الكبير أيضا مديراً قوميا لجمعية جون بيرش المعادية للشيوعية لكنه فُصِل لتطرفه المبالغ فيه. وبعد أن أعلن الرئيس ريتشارد نيكسون عزمه على زيارة «الصين الحمراء» عام ١٩٧٢، وصفه شميتز -الذى كان يمثل منطقة نيكسون بالكونجرس- بأنه «مناصر للشيوعية» وقال إن تلك الزيارة هى «استسلام للشيوعية الدولية. إنها تقضى على أية فرصة للإطاحة بحكومة بكين». قال شميتز أيضا إنه «قد قطع علاقاته الديبلوماسية بالبيت الأبيض» وأعلن: «ليس لدى اعتراض على ذهاب الرئيس نيكسون إلى الصين. إننى أعارض عودته هنا». وفى النهاية، فقد شميتز مقعده بالكونجرس، وبعد فشله فى انتخابات الرئاسة، عاد إلى الحياة السياسية بالولاية. فى عام ١٩٨٢، ترأس جلسة للاستماع بخصوص الإجهاض بمجلس شيوخ كاليفورنيا. أسمى المحامية النسوية جلوريا أولرد «محامية مبتذلة فاسدة» أثناء هجومه على دعمها للحق فى الإجهاض.

رفعت أولرد دعوى عليه، وحكمت المحكمة عليه بغرامة ٢٠٠٠٠ دولار واعتذار علني. تحطمت حياته السياسية، التى قضاها يعظ عن قيم الأسرة وفضائلها، بفضيحة حينما اعترف بأنه أنجب طفلين غير شرعيين على الأقل. وفى النهاية، تقاعد جون جى. شميتز بمنطقة واشنطون دى سى، حيث ابتاع منزل بطله المتعصب المعادى للشيوعية السناتور جوزيف ماكارثى. ألف شميدت كتابين «غريب فى ميدان المعركة: تشريح عقدٍ من اللا أخلاقيات: ١٩٦٤-١٩٧٤» وكتاب «جبهة الفيتكونج بالولايات المتحدة». توفى عام ٢٠٠١، ودُفِن فى مقبرة أرلينجتون القومية بحفاوة عسكرية كاملة.

كان شقيق جوزيف شميتز الأكبر، جون باتريك، محاميا أيضا، وعمل نائب مستشار جورج إيتش. بوش بين عامى ١٩٨٥ و١٩٩٣، أثناء فترة عمل بوش نائبا لرئيس الجمهورية ورئيساً للجمهورية، ولعب دورا رئيسيا فى حماية بوش من التحقيق فى فضيحة إيران/كونترا. فى عام ١٩٨٧، تسلم بوش طلبا من «مكتب المستشار المستقل» لتسليم كل الوثائق التى من المرجح أن يكون لها علاقة بالتحقيق، ومن بينها «كل السجلات الشخصية والرسمية للأفراد العاملين بمكتب نائب الرئيس». أحال بوش المسئولية عن هذا إلى مستشاره سى. بويدن جراى، ونائبه المستشار جون بى. شميتز. استغرق الأمر خمس سنوات بعد هذا التاريخ - بعد شهر من انتخاب بوش رئيسا- حتى كشف جراى وشميتز أن بوش كان يحتفظ بيوميات أثناء الفضيحة، والتى من الواضح أنها كانت تدخل فى نطاق طلب إظهار الوثائق. وفيما قاما بتسليم المذكرات، أوقف جراى وشميتز تسليم وثائق متعلقة بالمذكرات، وعجزا عن تفسير سبب عدم الكشف عنها أثناء السنوات الخمس الحاسمة فى التحقيق. استجوب المحققون كل من له علاقة بتسليم الوثائق بمكتب بوش باستثناء جراى وشميتز، اللذين رفضا الإذعان. رفض شميتز تسليم مذكراته الخاصة، والتى كانت تغطّى الأعوام من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٢، وزعم أنها نتاج عمل ذى امتيازات خاصة، واستخدم تكتيكا مضللا أصبح فيما بعد تكتيكا يُعمَل بموجبه فى الفرع التنفيذى لجورج دبليو. بوش، وحتى بعد أن مُنِح جراى وشميتز

الحصانة، مضيا يرفضان الاستجواب؛ ترك شميتز الإدارة عام ١٩٩٣. كان لجوزيف شميتز علاقته الخاصة بفضيحة إيران/كونترا، حيث عمل، عام ١٩٨٧، مساعدا خاصا لإدوين ميس، المدعى العام، الذى عمل وزيرا للعدل فى إدارة ريجان وحاول «الحد من الأضرار». وقبل فترة عمله بالبيت الأبيض، كان جون باتريك قد عمل كاتبا للقاضى أنطونين سكاليا، قاضى محكمة الاستئناف الأمريكية آنذاك. وبعد ذلك، عمل جون باتريك محاميا ورجل لوبيهات فى شركة ماير، براون، رو وماو. كان بين عملائه: غرفة الولايات المتحدة التجارية، لوكيد مارتن، إنرون، جنرال إلكتريك، فايزر وباير. كان أيضا من ممولى «رابطة الرواد الكبرى» لجورج بوش، وتبرع بالآلاف لخزائن حملته الانتخابية.

من المرجح أن تكون الأكثر شهرة فى عائلة شميتز شخصية لا علاقة لها بالسياسة: أى مارى كاى لوتورنو، شقيقة جوزيف شميتز. فى عام ١٩٩٧، استحوذت تلك المدرسة المتزوجة، والأم لأربعة أطفال، على العناوين الرئيسية بعد اتهامها باغتصاب الطفل فيلى فاولاو، تلميذها ذى الثلاثة عشر ربيعا. وبعد أربعة أشهر، وضعت ابنة فاولاو. ظلت القضية هاجسا للصحافة الصفراء لسنوات عديدة. وبعد أن قضت سبع سنوات فى السجن، ولدت أثناءها طفلا آخر من فاولاو، تزوجت لوتورنو عام ٢٠٠٤ تلميذها السابق، الذى كان بالصف السادس الابتدائى. وفيما دافع عنها والدها -السياسى الذى يتبنى قيم الأسرة بأسلوب هيستيرى، ويهاجم النسويين، والمثليين، والإجهاض- دافع عنها بقوة، تحاشى أفراد الأسرة الآخرين ذكر شئ عن القضية التى تزامنت مع صعود جوزيف شميتز ليتولى منصبا بإدارة بوش.

تخرج جوزيف شميتز من الأكاديمية البحرية الأمريكية وعمل بالبحرية، ضابطا احتياطيا معظم الوقت -لسبعة وعشرين عاما حتى الوقت الذى ترشح فيه صيف عام ٢٠٠١، ليصبح المفتش العام بالبنتاجون. شمل عمله المحدود بالحكومة فترة وجيزة من العمل نائب المفتش العام لبرنامج استخبارات احتياطى القوات البحرية.

وقبل ترشيحه مباشرة، كان شميتز شريكا فى شركة اللوبيهات والمحاماة النافذة ذات الصلات الجيدة «بيتون بوجز»، حيث تخصص فى قانون الطيران، والتجارة الدولية فى سلع التقنيات الرفيعة وفى مجالات عسكرية حساسة. وأثناء فترة عمل شميتز بالبنتاجون، افتتحت بيتون بوجز فرعا لـ«إعادة الإعمار» بالعراق خاصا بها فى يونيو ٢٠٠٣. جاء بصفحة بيتون بوجز الإلكترونية عن فرعها لإعادة الإعمار «أن منظور الخبراء المطلعين علي بواطن الأمور حاسم.. بالنسبة للشركات التى تسعى للحصول على واحد من العقود الكثيرة لإعادة إعمار العراق»، وتفاخرت الشركة بأن لديها «عدداً استثنائياً كبيراً،من المحامين لديهم خبرة وصلات واسعة، تساندها معرفة قوية بالوكالات الفدرالية الرئيسية ذات العلاقة بإعادة تعمير العراق» لمساعدة العملاء الشركاتيين على الحصول على تعاقدات مربحة. ومثل كثير من مسئولى إدارة بوش، كان شميتز مُوَالياً جيد الصلات ورفيقا حميما. يمكننا الحصول على لمحة من آرائه السياسية المتطرفة، بل والشاذة أحيانا، من سلسلة من الخطابات المناهضة للإجهاض التى كتبها لصحف متنوعة بمنطقة واشنطون دي سى، بداية من عام ١٩٨٩. كتب شميتز فى أحد تلك الخطابات «بصفتى رجلا، فإن محنة ضحايا الاغتصاب وزنا المحارم قد تكون افتراضية، لكن وبصفتى جنيناً سابقا، فإن محنة الحياة البشرية البريئة المجهضة هى محنة واقعية جدا، تماما مثل محنة الاغتصاب لمعظم النساء». وفى خطاب آخر، يسمى شميتز الحكم فى قضية رو ضد ويد «التشريع الفدرالى غير القانونى بواسطة قضاة غير مُنتَخبين» ويقول إن على السياسيين «ترك القضايا السياسية التى لم يعالجها الدستور للولايات والشعب». ويعلن فى خطاب آخر «إن معظم من يدعمون الحياة لا يجدون غضاضة فى اتخاذ مواقف لا تحظى بشعبية دفاعا عن الحياة البشرية، سواء كانت تلك حياة جنين مُجمد، نطفة أو امرأة مسنة لا تلد، أو ضحية اغتصاب مراهقة. فبعد كل شئ، فقد قال رب المدافعين عن الحياة بورك من يُضطهدون فى سبيل العدالة، لأن مملكتهم هى مملكة السماء».

رشح الرئيس بوش شميتز لمنصب مفتش البنتاجون العام فى يونيو ٢٠٠١، حيث

يناط به «مسئولية القيام بمراجعات حسابية وتحقيقات مستقلة وموضوعية لبرامج الدفاع، وتحقيقات غير متحيزة للاتهامات بسوء السلوك التى توجه لكبار المسئولين والعاملين بالأقسام المدنية».

إلا أن تعميد الترشيح لم يمض بسلاسة. أعاق السناتور الديموقراطى كارل لڤين رئيس لجنة الخدمات المسلحة بمجلس الشيوخ تعيين شميتز. أثناء جلسة استماع عقدتها اللجنة فى أكتوبر ٢٠٠١، استجوب لڤين شميتز حول خطاب كتبه لصحيفة واشنطون بوست اليمينية عام ١٩٩٢، قبل ثلاثة أيام من الانتخابات الرئاسية التى جرت بين جورج دبليو. بوش وبيل كلينتون. كتب شميتز يقول «اعترف كلينتون، عمليا، بكونه مخاطرة أمنية أثناء حرب ڤيتنام. والآن، يريد بيل كلينتون ذاته أن يصبح قائدا عاما للقوات المسلحة، لكنه غير مستعد، حتى للحديث عن تنظيم أنشطة مناهضة للحرب فى إنجلترا، ثم سفره إلى موسكو أثناء ذروة الحرب الڤيتنامية. من المرجح أن KGB (الاستخبارات السوڤيتية) تعرف عن الجانب المشبوه لبيل كلينتون، أكثر مما سيعرفه الشعب الأمريكى أبدا. يستحق الشعب الأمريكى من هو أفضل من ذلك». وقع شميتز الخطاب برتبته الرسمية: جنرال الاحتياط بالبحرية. قال لڤين لشميتز أثناء جلسة الاستماع «الآن، كان هذا موقعا برتبتك فى الاحتياط، وهذا هو المهم هنا. وليس الآراء، أيا ما كان رأينا بشأنها، لكن المهم هو حقيقة أنك وقعت تلك الآراء بصفتك جنرالا فى احتياطى بحرية الولايات المتحدة». أجاب شميتز بأن أبلغ لڤين أن «الخطاب كان مجرد تدريب على التنفيس عن الغضب. لم يكن انعكاسا لأحكامى آنذاك، وبالتأكيد ليس انعكاسا لأحكامى اليوم». قال شميتز وقد انتقى كلماته بعناية «من الواضح أن الأسلوب الذى نشرت به الصحيفة خطابى مؤكدة على رتبتى يثير بعض القضايا. لقد ندمت عليه آنذاك، ومازلت نادما عليه اليوم. تعلمت درسا جيدا جعلنى الآن رجلا أفضل والأهم هو أننى سأكون مفتشا عاما أفضل نتيجة تعلمى الدرس إذا تمت المصادقة على ترشيحى». أثار لڤين أيضا مسألة رغبة شميتز التى صرح بها بأن يظل فى مجلس إدارة مجموعة تسمى نفسها شركة إنجليزية أثناء عمله مفتشا عاما. قال لڤين «إنها منظمة تعتقد أنه لا

يجوز القيام بأى بزينس حكومى بأية لغة باستثناء الإنجليزية. لماذا تعتقد أنه من المناسب لك كمفتش عام أن تظل فى مجلس إدارة مجموعة ذات موقف ثابت والتى -من الواضح تتخذ أوضاعا ومواقف لابد وأن تكون بغيضة، على الأقل، لبعض العسكريين؟». وبعد دفاع مستطال عن المجموعة، اتهم شميتز، أثناءه، لقين بتبنيه «مفهوماً عاماً خاطئاً»، قال«إنها مجرد مسألة عملية. إذا كنت تريد النجاح فى الولايات المتحدة، عليك تعلم الإنجليزية». طُلِب من شميتز الاستقالة من الشركة (وكان قد فعل هذا قبيل جلسة الاستماع) قبل التصديق على تعيينه مفتشا عاما، الذى حدث فى مارس ٢٠٠٢.

كان لجوزيف شميتز أن يصبح أكبر مسئول أمريكى أنيط به ضبط أكبر منجم ذهب للتربح الشركاتى فى تاريخ الحروب وأثناء أكثر سنوات هذا المنجم تفجرا. بيّن توصيف وظيفته مهمتَه أنها «منع الاحتيال والتدليس، الإهدار، والانتهاكات فى عمليات وبرامج البنتاجون» لكن، وبخلاف المفتشين العامين الآخرين، كان مفتش البنتاجون العام يخاطب رمسفلد مباشرة، وخلق بذلك ما قال بعض النقاد أنه تعارض مصالح جوهرى -تعارضاً ضاعفه أسلوب رمسفلد المتحكم بإفراط. على المستوى المثالى، لابد أن يحتل موقع المفتش العام مسئول مصمم على تمشيط النظام ليبحث «عن السلوك غير الصحيح، الفساد والمحسوبية. وبدلا من ذلك، أصبح لدى الإدارة فى شخص شميتز، مسئول يبدى إعجابه بنفس الأطراف التى من المفترض له أن يراقبها، ولم يكن رمسفلد نفسه أقل هؤلاء. أثناء فترة عمله بالبنتاجون، قدّم شميتز الثناء المنتشى التالى على رئيسه فى مستوصف رابطة مدربى المصارعة بسانت لويس، فى معرض خطاب له بعنوان «المصارعة من أجل الانضباط: دروس حياة فى القيادة»:

«وزير الدفاع، دونالد رمسفلد -رئيس- مصارع سابق آخر. عُرِف عنه عزمه وانضباطه فى الحلبة. مازال الناس يتناقلون القصص عن المرة التى انخلع فيها كتف رمسفلد أثناء مباراة مصارعة. كانت نقاطه أقل من غريمه لكنه رفض مغادرة

الحلبة. وبذراع واحدة، تمكن من إسقاط غريمه- ثلاث مرات أخرى- وخرج من المباراة منتصراً. إن انضباط الوزير رمسفلد أسطورى داخل أسوار البنتاجون الخمسة. لا يسمح أبدا للتشتت، تغيير الرأى العام، أو التفكير الرغبوى بإفساد بؤرته. إن رمسفلد يركز بأسلوب كامل فيما يقوم به لدرجة أنه يترك الآخرين وقد أصابتهم الرهبة من القدر الذى يمكنه إنجازه فى يوم واحد. يمكن القول أيضا، إن هذا المصارع السابق يسيطر على نفسه. إن سيطرتنا على أنفسنا- ومسئوليتنا أمام الرب وحده- هى مفتاح لعيش حياة فاضلة، شريفة، يوجهها الهدف».

كان شميتز يحمل معه دائما مبادئ رمسفلد الاثنى عشر فى جيبه العلوى. كانت الجملة الأولى فى تلك المبادئ «لا تفعل شيئا بإمكانه إثارة الأسئلة عن مصداقية وزارة الدفاع». وفى ظل رقابة شميتز، ازدهر المتربحون الشركاتيون، الذين كان للكثيرين منهم روابط بالإدارة، فيما مضوا يراكمون بسرعة رهيبة الموارد المخصصة لإعادة بناء العراق وأفغانستان. ووفقا للتحقيق الذى أجراه تى. كريستيان ميلر من لوس إنجيليس تايمز «أبطأ شميتز أو أوقف تحقيقات مع كبار مسئولى إدارة بوش، وأنفق أموال دافعى الضرائب على مشروعات أثيرة، وتلقى هدايا يُرجح أنها انتهكت الخطوط الإرشادية الأخلاقية» قال ميلر فى تقريره إن المحققين الذين يعملون تحت إمرة شميتز كانوا يأخذون ولاءاته فى الاعتبار لدرجة أنهم، أحيانا، كانوا يمتنعون عن إبلاغه عن الأشخاص الذين يجرون تحقيقات بشأنهم -واستخدموا شفرات بدل أسماء الأفراد فى التقارير الموجزة الأسبوعية- خوفا من أن يقوم شميتز بإبلاغ رؤسائه بالبنتاجون. «أصبح متورطا فى تحقيقات سياسية لم يكن من عمله التدخل فيها» هكذا أبلغ أحد كبار المسئولين بمكتبة صحيفة التايمز. قال السناتور الجمهورى عن ولاية أيوا، تشارلس إى. جراسلى «رأيت هذا المكتب يتورط فى كثير من المشروعات المشبوهة بالرغم من المعارضة المستمرة القوية من كبار العاملين. يبدو لى أن هذا أوجد حالة من عدم الاحترام والثقة، ونتج عنه مكتب مفتش عام غير فاعل».

فى مارس ٢٠٠٣، بعد عام من تولى شميتز منصب المفتش العام للبنتاجون، وفيما كان غزو العراق فى بدايته، وجد نفسه مسئولا عن التحقيق فى فضيحة زلزلت أحد مهندسى سياسة العراق بالإدارة: أى ريتشارد بيرل، القيادى الناشط بالمحافظين الجدد، مؤسس «مشروع القرن الأمريكى» ورئيس «مجلس سياسات الدفاع». كان بيرل وثيق الصلة ببول وولفويتز. نائب وزير الدفاع، وكان مكتبه مجاورا لمكتب رمسفلد بالبنتاجون. وفيما بُدئ فى تنفيذ غزو العراق، كشفت النيويورك تايمز ومجلة النيويوركر أن بيرل كان يستغل منصبه فى عمليات ضغط ومناورات لحساب عملاء شركاتيين فى تعاملاتهم مع وزارة الدفاع. قالت النيويورك تايمز فى تقريرها إنه «حتى فيما ينصح ريتشارد إن. بيرل البنتاجون فى أمور الحرب بصفته رئيسا لمجلس سياسات الدفاع الناقد، فقد وظفته شركة الاتصالات عن بعد «جلوبال كروسينجز» للمساعدة على التغلب على مقاومة وزارة الدفاع لبيعها المقترح لشركة أجنبية». كشفت التايمز، بعد أن أوضحت أن بيرل كان «وثيق الصلة بالعديد من المسئولين الكبار، ومن بينهم وزير الدفاع دونالد إيتش. رمسفلد،الذى عينه ليقود مجلس السياسات»، كشفت أن بيرل كان فى موقع يربح منه ٧٢٥٠٠٠دولار من شركة «جلوبال كروسينجز» إذا وافقت الحكومة على البيع. عارض البنتاجون والإف بى آى عملية البيع «لأنها ستضع شبكة جلوبال كروسينجز للألياف البصرية فى أنحاء العالم -تلك الشبكة التى تستخدمها حكومة الولايات المتحدة- فى ملكية الصين». كان بيرل، فى وثائق قانونية حصلت عليها التايمز، يتاجر، دونما مواراة، بموقعه بالنتاجون، ليُثبت أنه مؤهل، بأسلوب فريد، لمساعدة جلوبال كروسينجز. كتب بيرل فى عملية المراجعة: «بصفتى رئيسا لمجلس سياسات الدفاع، لدىّ منظور فريد ومعرفة وثيقة بمسائل الدفاع والأمن القومى التى ستُثار».

وحينما ذاعت الأنباء، استقال بيرل، سريعا، من المجلس الاستشارى، فيما أكد على براءته. أبلغ بيرل وزير الدفاع رمسفلد أنه باستقالته كان لا يريد أن تعمل الفضيحة على تشتيت الانتباه عن «التحدى المُلحّ الذى يشغلنا الآن» فى العراق. طلب رمسفلد من بيرل الاستمرار فى موقعه بالمجلس، واستجاب بيرل لذلك. دعا النائب جون

كونيرز لإجراء تحقيق فى أمر بيرل، وأرسلت القضية إلى جوزيف شيمتز. وبعد تحقيق دام ستة أشهر برأ شميتز ساحة بيرل من ارتكاب أى خطأ قائلا «لقد أكملنا تحقيقنا فى سلوك المستر بيرل ولم نجد ما يُثبت الاتهامات بسوء السلوك». وعلى الرغم من الكشوفات فى جميع المنافذ الإعلامية الرئيسية بالبلاد عن تعارضات المصالح العديدة فى أنشطة بيرل، فإن تقرير المفتش العام لم يجد أساسا كافياً للاستنتاج أن بيرل قد أوجد أى شكل من التصرفات غير اللائقة من منظور الشخص العاقل المنطقى». قال بيرل إنه كان «مسرورا جدا» من استنتاج شميتز، فيما أعلن رمسفلد أن «تقرير المفتش العام يؤكد نزاهة مجلس سياسات الدفاع، ومشاركة المستر بيرل».

ولم يمض وقت طويل على الكشوفات حول تعاملات البيزنس الخاصة بريتشارد بيرل، حتى انفجر جدل خلافى آخر حول مسئول كبير نافذ فى دائرة رمسفلد الداخلية، أى ضابط الجيش الجنرال ويليام بويكين، نائب مساعد وزير الدفاع لشئون استخبارات الدفاع. فى أكتوبر ٢٠٠٣، كُشف عن حقيقة أن بويكين قد شارك فى هجمات صاخبة معادية للمسلمين أثناء خطب علنية، ألقى الكثير منها وهو يرتدى الزى العسكرى. ومنذ يناير ٢٠٠٢، كان بويكين قد تحدث فى ثلاث وعشرين مناسبة ذات توجه دينى، وارتدى فيها جميعها، باستثناء اثنتين، زيه العسكرى. كان بين التصريحات التى أطلقها بويكين أنه يعلم أن الولايات المتحدة ستنتصر على عدوّها المسلم بالصومال «لأننى أعرف أن ربى أكبر من رب المسلم. أعرف أن ربى حقيقى وأن ربه صنم». اتهم بويكين أيضا الراديكاليين المسلمين بأنهم يريدون تدمير أمريكا «لأننا أمة مسيحية لن نتخلى عن إسرائيل أبداً». أعلن قائلاً «إن عدونا الروحى سيُهزم إذا حاربناه باسم المسيح». قال عن الرئيس بوش «لماذا يجلس هذا الرجل فى البيت الأبيض؟ لم ينتخبه غالبية الأمريكيين. لماذا هو موجود هناك؟ أخبركم فى هذا الصباح إنه بالبيت الأبيض لأن الرب وضعه هناك من أجل أوقات كهذه».

وفى خطاب آخر قال بويكين إن «البلدان الأخرى قد فقدت أخلاقها، فقدت قيمها. لكن أمريكا مازالت أمة مسيحية». أبلغ مجموعة كنسية بأوريجون أن قوات العمليات الخاصة تنتصر بالعراق بسبب إيمانهم بالرب: «سيداتى سادتى، أود أن أقنعكم أن المعركة التى تخوضها هى معركة روحية. يريد الشيطان أن يدمرنا كأمة، ويريد أن يدمرنا كجيش مسيحى».

كان بويكين ضابط جيش ممتهنا، من أوائل الكوماندوز بقوة دلتا وترقى فى الصفوف ليصبح على رأس القيادة المشتركة للعمليات الخاصة فائقة السرية. عمل بالسى آى إيه، وأثناء الحرب على الإرهاب كان مسئولا عن قوات الجيش الخاصة، قبل أن يلتحق بفريق قيادة رمسفلد شديدة الإحكام، وأنيطت به مهمة اصطياد «الأهداف ذات القيمة الكبيرة». كان بويكين أحد مسئولى الولايات المتحدة الرئيسيين الذين أنشأوا ما يزعم النقاد أنه نشاط فرق الموت بالعراق. حينما سُئل بالكونجرس أن أوجه الشبه بين برنامج فينيكس (العنقاء) فى ڤيتنام والعمليات الخاصة فى الحرب على الإرهاب، قال بويكين «أعتقد أننا ندير مثل هذا البرنامج. نحن نحاول اصطياد هؤلاء الناس. إن قتل أو أسر هؤلاء الناس مهمة مشروعة للوزارة. أعتقد أننا نقوم بما خُطِط لبرنامج فينيكس فعله: الاصطياد والقتل، دون أن نحيط عملنا بكل تلك السرية» كتب المحلل العسكرى ويليام أركين، أول من كشف عن تعليقات بويكين، قائلا «حينما يتقيأ بويكين هذه الرسالة المتشددة فيما يرتدى الزى العسكرى للولايات المتحدة، فإنه يوحى بقوة أن هذا رأى رسمى مصدق عليه –وأن جيش الولايات المتحدة هو حقا جيش مسيحى. لكن هذا جزء فقط من المشكلة. فإن بويكين أيضا يحتل موقعا عاليا فى صنع السياسات بالبنتاجون، ومن الخطأ الشديد السماح لرجل يؤمن بـ«الجهاد» المسيحى أن يحتل مثل هذا المنصب... لقد قال بويكين بوضوح إنه لا يتلقى أوامره من رؤسائه بالجيش،بل من الرب –وهذا خط قيادة تلقى أوامر مثير للقلق. ومن ناحية أخرى، فإنه لأمر أحمق وخطير أن يكون لدينا ضابط رفيع المستوى يرشد الحرب على الإرهاب بالعراق وأفغانستان ويؤمن أن الإسلام دين وثنى مدنس نشن ضده حربا

صليبية». حينما تعرض بويكين للهجوم لتعليقاته المعادية للإسلام، دافع عنه بقوة رمسفلد وضباط كبار آخرون بالبنتاجون. كتب سيدنى بلومنتال، كبير مستشارى كلينتون سابقا يقول «لم يُنحَّ بويكين أو يُنقل. آنذاك، كان فى قلب عملية... سجن أبو غريب، كان قد طار إلى جوانتنامو، حيث التقى بالضابط جفرى ميلر المسئول عن معسكر X-Ray. أمر بويكين الضابط ميلر بالطيران إلى العراق ومد أساليب X-Ray إلى نظام السجون هناك، بناء على أوامر رمسفد».

ووسط صيحات مجموعات حقوق الإنسان والمنظمات العربية والإسلامية، طلب بويكين، شخصيا، أن يجرى قسم شميتز بالبنتاجون تحقيقاً فى احتمال ارتكابه أى خطأ. قال الجنرال بيتربيس، نائب رئيس رؤساء الأركان المشتركة إن بويكين «يصر على أن يقوم المحقق بمهمة التحقيق كما يجب». وبعد مراجَعة استمرت عشرة أشهر، برأ مكتب شميتز، جوهريا بويكين، وانتهى إلى أن الجنرال قد انتهك ثلاثة أحكام داخلية للبنتاجون. ذكر تقرير للواشنطون بوست «بالرغم من أن ما أثار الجدل كان هو فحوى تعليقات بويكين، لا مراعاته لأحكام البنتاجون، فإن التقرير ابتعد عمدا عن التعليق على مدى لياقة إقحام الدين فى تصويره لجهود الجيش لمكافحة الإرهاب، بما فى ذلك مزاعم بأن (وجودا شيطانيا) يكمن وراء أفعال المسلمين الراديكاليين».استشهدت الصحيفة بقول مسئول كبير فى وزارة الدفاع «إن التقرير يُنظر إليه على أنه «براءة كاملة»، وأنه، فى النهاية، وجد بويكين مسئولا عن بعض «المخالفات الثانوية نسبيا، تتعلق بمسائل فنية وبيروقراطية».

فى يونيو ٢٠٠٤، سافر شميتز إلى العراق وأفغانستان، ولدى عودته ألقى خطابا هاما بعنوان «المبادئ الأمريكية كسلاح فاعل والإصابات المحتملة فى الحرب الكوكبية على الإرهاب». آنذاك كانت فضحية التعذيب والانتهاكات بأبوغريب مازالت حية بالولايات المتحدة، وبذل شميتز، الذى أنيط به التحقيق فيها، جهده لتبييض الفضيحة. ألقى بمسئولية أبو غريب على قلة «من الفاسدين» وقال «ليس لدى أى معلومات عن أوامر غير مشروعة أتت من القادة». أبلغ جمهورا بسيتى كلوب

بكليفلاند «لا يجوز أن تحجب الانتهاكات المنهجية القليلة، والأفعال التى تستحق الشجب من جانب قلة من أفراد شعبنا -والذين يجرى الآن تقديمهم للعدالة- لا يجوز أن تحجب تضحيات وإنجازات آلاف الأمريكيين الشجعان الذين مازالوا يخدمون بشرف وفقا لأفضل تقاليد قوات الولايات المتحدة المسلحة». قال شميتز إنه قد ذهب إلى أبوغريب وإلى «نقطة تجميع موقوفين أخرى» بأفغانستان «ليجنى المزيد من المعلومات عن الأحكام. المعايير، والإجراءات التى نستخدمها لجمع الاستخبارات، وللتعامل مع الإرهابيين الثابتين والمحتملين الذين نأسرهم أثناء العمليات العسكرية الجارية. وكلما قضيت وقتا أطول مع قواتنا المنتشرة فى الجبهات المتقدمة، واستمعت إلى قصصهم، وراقبتهم وهم يؤدون واجباتهم فهمت أكثر لماذا يكرهنا الإرهابيون لهذه الدرجة. بدون أى ريب، فإننا مدينون لرجالنا ونسائنا الأمريكيين الذين يخدمون بالخارج بالامتنان. ليس باستطاعتي أن أبدأ في إخباركم بكنه المهمة الرهيبة الشريفة التى تقوم بها قواتنا فى كل من العراق وأفغانستان». قال شميتز إن الإرهابيين «يرفضون الاعتراف بالمعايير ذاتها التى تُميّز الحضارة عن البربرية». وحتى بعد الكشوفات عن التعذيب المنهجي بأبو غريب، قال «مازلنا، بفضل الله، منارة الأمل بالنسبة للعالم». وفيما تحدث باستطالة عن «سلطة القانون» التى تحكم الولايات المتحدة، أبلغ شميتز مستمعيه «لايجوز لنا أن ندع الأشياء السيئة الآتية من أبو غريب تُعتم حقيقة أن لدينا بنات وأبناء عظاماً أبناء لأمريكيين عاديين، فلاحين وغيرهم، وهم موجودون هناك يقومون بعمل عظيم لكم ولى». قال شميتز إنه رأى فى العراق وأفغانستان «جنوداً أمريكيين يفعلون ما ظللنا نحن (اليانكى) نفعله دائما، مُحرّرين ودُودين، يصادقون السكان المحليين حينما يستطيعون، ويستهزئون بعدم وجود صلات حينما يُمنعون من ذلك من خلال تهديدات العنف بواسطة عدو مُبهم جبان».

ومثل الجنرال بويكين، كثيرا ما ألقى شميتز خطباً أثناء توليه منصبه بالبنتاجون، محملة، بوضوح، بالخطاب المسيحى، تحط من شأن الثقافات والتقاليد الأخرى. قال شميتز فى خطاب له فى مارس ٢٠٠٤ «تكاد سلطة القانون ألا توجد فى الثقافات

القبلية، مثل أجزاء من العراق وأفغانستان، حيث تطغى ولاءات الشخص لعشيرته على كل شئ -على الأمانة، القانون، الإنصاف، وحتى على الحكمة والفطنة». وأعلن فى خطاب آخر «لايشك رجال ونساء قواتنا المسلحة اليوم فى المبادئ الخالدة التى تجعل أمريكا عظيمة -ذات المبادئ التى ذكرها الرئيس ريجان وسط الحرب الباردة: المسئولية الفردية، الحكومة التمثيلية، وسلطة القانون فى ظل الرب». أنهى شميتز هذا الخطاب بالاستشهاد بـ«نصيحة» رمسفلد فى أعقاب ٩/١١: «ندعو اليوم، أبانا الذى فى السموات، بالدعاء الذى تعلمته أمتنا فى وقت آخر من النضال الأخلاقى القويم من أجل قضية نبيلة -صلاة أمريكا ودعائها الخالد: لا أن يكون الرب إلى جانبنا، يا إلهنا، لكن أن تظل أمريكا دائما فى جانبك». ثم قال شميتز لمستمعيه «إذا أردنا أن نظل أمة واحدة، فى ظل سلطة القانون، وفى ظل الرب، علينا أن نُلزِم أنفسنا بمعيار أسمى».

كان الخطاب الدينى يهيمن على أحاديث شميتز لدرجة أن أخبره أحد المستمعين لخطاب له «إن نكهة خطابك سببت لى نوعا من الإزعاج لأننى ظللت أعتقد أن الدستور وثيقة علمانية، وأن الحكومة من المفترض أن تكون تنظيما علمانيا. أجد أن هذه الإدارة قد طمست الفصل بين الدين والدولة». مضى شميتز وهو يتجاهل السؤال يثرثر عن رجال الدين الموجودين مع الجيش إلى أن قال له السائل «لم يكن هذا هو فحوى ما قلته. اعتقدت أننى كنت أتحدث عن...» وهنا، قاطع شميتز الرجل وأعلن أن «الشعب الأمريكى، وبخلاف شعوب أخرى فى أرجاء العالم، عميق التدين. هذه حقيقة تاريخية وحقيقة راهنة. من ثم، فإن نتظاهر، بأسلوب ما، بأنه لا يجوز لنا أن نعلن عن وجود الرب القوى المكين هو مجرد -تجاهل للواقع ياسيدى. آسف لأن أضطر لقول هذا. لكن هذه هى رؤيتى للأمور».

تعود بعض أكثر القصص غرابة عن فترة عمل شميتز بالبنتاجون إلى ما وصفه زملاؤه بأنه «هاجسه المسيطر» بالبارون ڤون ستوبن، أحد المرتزقة الذين حاربوا فى الحرب الثورية. تقول التقارير إن ستوبن هرب من ألمانيا بعد أن علم أنه سيحاكم

بسبب ممارساته المثلية، ورحب به جورج واشنطون فى أمريكا كمدرب رئيسى - أحد عديد المرتزقة الذين حاربوا البريطانيين. ووفقا لصحيفة لوس أنجيليس تايمز، فبمجرد تعيين شميتز بالبنتاجون:

«قضى أربعة أشهر يعيد تصميم ختم المفتش العام كى يحوى شعار أسرة فون ستوبن أى «فى رعاية الرب القدير دائما». أملى شميتز عدد النجوم، وأوراق الغار وألوان الختم. طلب أيضا تصميم نسر جديد قائلا إن الموجود على الختم يبدو مثل الدجاجة، وفقا لما قاله المسئولون الحاليون والسابقون بمكتب المفتش العام. وفى يوليو ٢٠٠٤، رافق هننج ڤون ستوبن، وهو صحفى ألمانى ورئيس رابطة عائلة ڤون ستوبن، إلى مناسبة أحيتها فرق مارينز الولايات المتحدة. أيضا، دعا شميتز هننج فون ستوبن إلى وجبة تكلفت ٨٠٠ دولار دفعها، كما يقول السناتور جراسلى من الأموال العامة، وتعاقد مع ابنه كى يعمل متدربا بدون راتب فى مكتب المفتش العام، وفقا لمسئول سابق من وزارة الدفاع، أيضا، قام بإلغاء رحلة تكلفتها ٢٠٠٠٠٠ دولار إلى أمانيا لحضور أحد المراسم المقامة عند تمثال فون ستوبن.. بألمانيا بعد أن استجوبه جراسلى بشأنها».

قال مسئول سابق بوزارة الدفاع للصحفى تى. كريستيان ميلر بلوس أنجيليس تايمز إن شميتز كان متشبعا تماما بكل ما هو ألمانى وكل ما هو ڤون ستوبن «كان مهووسا». أيضا، كان شميتز يُتبِّل خطبه الرسمية كمفتش عام بإشارات إلى فون ستوبن مستخدما فى ذلك تعبيرات تكاد تكون مسيانية. قال فى خطبة له فى مايو ٢٠٠٤ فى مراسم إهداء نُصب ستوبن التذكارى بنيوجرسى «نتخذ جميعنا من نموذجه السابق ومن حكمته بوصلة تُرشد القيادات بالبنتاجون- لمساعدتنا على العثور على طريقنا حينما تبدو الأشياء معقدة، متلفلفة ومشوشة، كما هى الحال غالبا فى التنظيمات البيروقراطية الكبيرة، خاصة وسط لهيب المعركة». وفى العراق، قال شميتز فى يونيو ٢٠٠٤، «لابد أن نصمد ونقف خلف قواتنا. من جانبى لقد نشرت أفضل ما لدى من أفراد يماثلون «ڤون ستوبن» على الأرض بالعراق

للمساعدة فى تدريب مفتشيهم العامين الجدد كأبطال يتبنون النزاهة، وآليات للتغيير الإيجابى فى كل من الوزارات العراقية الجديدة».

لم يستغرق الأمر طويلا حتى تم استدعاء شميتز للمحاسبة بناء على طلب مشرعين من مختلف الأطياف السياسية وعلى تقارير ميلر الصحفية التحقيقية الناقدة بعمق، والتى نشرتها لوس أنجليس تايمز. وربما كان أخطر ما واجهه شميتز من اتهامات قانونية عن دوره فى فضائح متنوعة، كانت تلك التى تبناها السناتور الجمهورى النافذ جراسلى. تركز أحد تلك التحقيقات على مساعد رمسفلد ونائب وكيل وزارة الدفاع جون (جاك) شو. كان شو أحد المتعصبين النافذين الجمهوريين الموالين. والذى عمل فى كل إدارة جمهورية منذ أيام جرالد فورد. أناط البيت الأبيض بشو مهمة الإشراف على جهاز الاتصالات بالعراق بمجرد ما أصبح الاحتلال ساريا، هذا على الرغم من حقيقة أنه لم يكن لدى شو «أية خلفية عن تعاقدات الدفاع أو فى الاتصالات» كما كتب ميلر. ووفقا لصحيفة لوس إنجيليس تايمز، ادعى مهاجموه من سلطة التحالف المؤقتة بالعراق أن شو حاول استغلال منصبه لتوجيه التعاقدات المربحة إلى محاسيبه الشركاتيين، وفقا لصحيفة لوس أنجليس تايمز. كان شو يعمل خلف الكواليس مع المشرعين الجمهوريين النافذين فى محالة لإعادة توجيه تعاقدات شبكة الخلوى المُدرة للأرباح الكبيرة بالعراق إلى بيزنيسات يديرها أشخاص على علاقة شخصية بشو، وفقا لميلر.

فى ٢٠٠٣، وقَّع شميتز، بصفته مفتشا عاما، اتفاقية مع شو منحته سلطة تحقيقات قيل إن شو استغلها للضغط من أجل إعادة توجيه تعاقدات الاتصالات واختص أصدقاءه بها. قال ميلر فى تقرير له «فى إحدى المرات، تخفى شو كأحد العاملين بهاليبرتون وتمكن من دخول أحد الموانئ بجنوب العراق بعد أن كان الجيش الأمريكى قد رفض منحه تصريحا بالدخول. وفى مرة أخرى، انتقد مسابقة رَعتها سلطة التحالف المؤقتة لمنح ترخيصات للتليفون الخلوى بالعراق. وفى كلتا الحالتين حث شو المسئولين الحكوميين على معالجة المشاكل المزعومة بتوجيه عقود قيمتها

ملايين عديدة من الدولارات إلى شركات مرتبطة بأصدقائه، دونما طرح مناقصات تنافسية، وفقا لمصادر البنتاجون ووثائقه. فى حالة الميناء، فاز عملاء أحد أصدقائه ممن يعملون باللوبيهات بعقد دونما مناقصة لرفع المتخلفات من قاع البحر».

حينما وصلت تلك الاتهامات إلى شميتز، أرسلها إلى الإف بى آى، بدلا من أن يحقق هو فيها، وذكر تعارض مصالح محتملاً لأن شميتز كان هو من أناب شو. أبلغ مسئول بالبنتاجون ميلر «إنه لرهان آمن أن يُدْفن التحقيق بالإف بى آى لأنهم لا يملكون الوقت للنظر فيه». كان الإف بى آى مهتما بالإرهاب بدرجة تفوق كثيرا اهتمامه بالفساد «هكذا ذكر ميلر فى كتابه «ثمن الدم». أضاف «عارض كبار المحققين فى مكتب شميتز هذا التحويل، ونظروا للقرار على أنه خطوة محسوبة لمساعدة زميل مُعيَّن له نفس التوجه السياسى. وكما كان متوقعا، لم تتحرك تحقيقات الإف بى آى. وفى النهاية، أُسقِط الموضوع نهائياً».

حينما كشفت لوس أنجيليس تايمز عن فساد شو، ساعد شميتز شخصيا فى كتابة بيان صحفى عن البنتاجون نُشِر فى الشبكة الإلكترونية يبرئ ساحة شو. ذكر بيان البنتاجون بتاريخ ١٠ أغسطس٢٠٠٤ «تم فحص الاتهامات بواسطة المحققين الجنائيين التابعين لمكتب المفتش العام بوزارة الدفاع ببغداد، ولم يُفتَح تحقيق جنائى أبدا. لم يحدث وأن كان شو الآن، أو فى أى وقت سابق، قيد التحقيق من قبل المفتش العام بوزارة الدفاع». أحال ذلك البيان الصحفيين إلى الإف بى آى لمزيد من المعلومات. ووفقا لتحقيقات ميلر الصحفية، أرسل تشاك بيردال، نائب شميتز، إيميل إلى شميتز يقول فيها إن البيان الصحفى «كان خطأ جسيما ولابد من سحبه من على الشبكة بأسرع ما يمكن. سينعكس عدم فعل ذلك بأسلوب مُشين على نزاهة وزارة الدفاع ونزاهتنا». ووفقا لميلر، فإن شميتز، أبلغ جرج باوير، أحد مساعديه أنه يميل لأن يدع الكلاب النائمة ترقد بسلام. قال «لقد فعلنا الصواب حينما أوصينا بنشر نسخة أخرى من التقرير الصحفى أقل قابلية لسوء التأويل، هكذا كتب شميتز فى إجابته بالإيميل». وفى خطاب لاحق إلى رمسفلد، كتب

السناتور جراسلى «ما أجده أكثر إثارة للقلق فى هذا الشأن هو ما قيل عن تورط المفتش العام، المستر شميتز فيه. أولا: ثمة دليل ورقى على أن المستر شميتز تورط مباشرة وشخصيا فى صياغة لغة هذا البيان الصحفى. وثانيا، أفهم أن المستر شميتز قد تلقى تحذيرات متكررة من العاملين معه بمحو هذا البيان من على الشبكة لأنه كان "زائفا بوضوح". حتى أنه قد قيل لى إن الإف بى آى قد ضغط من أجل هذا». أبلغ جراسلى رمسفلد أنه بعد أن أعلم شميتز عن نيته لاستجوابه، وطلب إتاحة ملفات شميتز المتعلقة بالأمر «أبلغتنى مصادر داخل مكتب المفتش العام، بأسلوب غير رسمى بأن جميع الأوراق المتعلقة بشو والمسألة الأخرى ختمت بصفتها تنفيذا لقوانين حساسة للحيولة دون إتاحتها لى». اتهم جراسلى شميتز أيضا بإعاقة استجواب مسئول عسكرى رفيع المستوى يعتقد جراسلى أنه قد كذب تحت القسم.

أثناء فترة عمله بالبنتاجون، تحدث شميتز علناً، وبحماس عن محنة الاتجار بالبشر، وركز بخاصة، على تجار الجنس -وهى مسألة أثيرةٌ لدى اليمين المسيحى وإدارة بوش. فى سبتمبر ٢٠٠٤، قدم شميتز إلى لجنة الخدمات المسلحة بمجلس النواب ورقة كتبها بعنوان «تفحص الاسترقاق الجنسى من خلال ضباب النسبية الأخلاقية» أعلن فيها أن «النسبية الأخلاقية هى عدوٌ لدستورِ الولايات المتحدة» وأن «رئيس الولايات المتحدة قد ميّز الاسترقاق الجنسى فى القرن الحادى والعشرين بصفته «شرا خاصا» بموجب قانون أخلاقى يظل نافذا على جميع الرجال والأمم. قال شميتز «لا يجوز أبدا أن تكون الموافقة الظاهرية للأطراف على الممارسات غير الأخلاقية مثل الدعارة أو الاسترقاق الجنسى، أن تكون مبررا لإغماض أعيننا». وختم بقوله «حتى فيما نواجه أعداء جدداً لا متناسقين، أعداء القرن الحادى والعشرين، فإن على هؤلاء منا الذين يقسمون على الدفاع عن دستور الولايات المتحدة (والمرجعيات المماثلة المؤسّسة على المبادئ) عليهم أن يعلموا أن عليهم، أن يواجهوا، ويقمعوا الاسترقاق الجنسى و«الممارسات الأخرى المنحلة وغير الأخلاقية» فى أى وقت وأى مكان ترفع فيها رءوسها القبيحة من خلال ضباب النسبية

الأخلاقية -وليساعدنا الرب».

لكن فيما كان شميتز يشجب النسبية الأخلاقية والاسترقاق الجنسى بقوة، وُجهت إليه الاتهامات، فى ذات الوقت، بعدم التحقيق فى اتهامات خطيرة لمقاولى العراق بالاتجار بالبشر، وكان من بين من وجه إليهم الاتهام شركة KBR التى كان لديها خمسة وثلاثون ألفا «من مواطنى العالم الثالث» يعملون بالعراق. وفى تحقيق يعتبر فتحاً فى مجاله بعنوان «خط الأنابيب إلى الخطر» وثّق كام سيمبسون من صحيفة شيكاغو تريبيون كيف أُرسل اثنا عشر مواطنا نيباليا إلى العراق فى أغسطس ٢٠٠٤ ثم تم اختطافهم وإعدامهم. كشفت الصحيفة عن أنه «يقال إن بعض المقاولين من الباطن وسلسلة من سماسرة البشر متورطون فى نفس نوع الانتهاكات التى تشجبها، روتينياً، وزارة الخارجية، بصفتها اتجارا بالبشر». أيضا وجدت التريبيون «أدلة على أن مقاولى الباطن والسماسرة يصادرون، بشكل روتينى، جوازات سفر العمال، ويخدعونهم بشأن أمنهم، وبنود عقودهم، وأنهم، فى حالة واحدة على الأقل حاولوا إرغام الرجال المرعوبين على الدخول إلى العراق والبقاء فيها تحت تهديد قطع الطعام والمياه عنهم» وأن KBR والجيش «سمحوا لمقاولى الباطن بتشغيل عمال من بلاد حظرت نشر مواطنيها بالعراق، مما يعنى أنه قد تم نقل الآلاف والاتجار بهم من خلال قنوات غير مشروعة».

ووفقا للهرالد تريبيون «فقد بينت سجلات منفصلة أن اتهامات مماثلة قد أثيرت فى سبتمبر ٢٠٠٤ مع جوزيف شميتز، الذى كان آنذاك مفتش وزارة الدفاع العام. لم يستجب شميتز بأية تفصيلات حتى ما يقرب من العام، ثم قال فى ٢٥ أغسطس ٢٠٠٥ فى خطاب منه إلى النائب الجمهورى كريستوفر سميث عن نيوجيرسى، إنه كان ثمة «قائمة من الإجراءات» أمر بها مسئولو التحالف العسكريون فى أعقاب تحقيقات مبدئية فى الاتهامات. لم يذكر الخطاب مصادرة جوازات السفر أو انتهاكات قوانين الولايات المتحدة التى تدين الاتجار بالبشر بل قال إن الظروف المعيشية تتطلب اهتماما أكثر، وأن المسئولين كانوا يرصدون تصحيح الأوضاع

التى قيل إنها كانت جارية. ولا يكاد يكون هذا بأية حال شجبا «للنسبية الأخلاقية» و«الشر الخاص» الذى من الواضح أن شميتز وحلفاءه يحتفظون به للجرائم «غير الأخلاقية المنحلة».

بدأت إحدى أكبر الفضائح التى تورط فيها شميتز فى مايو ٢٠٠٣، حينما وافق البنتاجون على استئجار طائرات لنقل البترول فى صفقة خلافية مع بوينج قيمتها ٣٠بليون دولار. لكن سرعان ما كانت الصفقة -أكبر عقد استئجار فى تاريخ الولايات المتحدة- موضع هجوم مجموعات ممن يراقبون الحكومة بصفتها «إنعاشا شركاتياً يبدد الأموال لأنها كانت تهدف إلى تعزيز صناعة الطيران التى تعانى». انتقد السناتور الجمهورى جون ماكين الصفقة بقوة ونعتَها بكونها «حالة للدراسة عن سياسة التزويد الرديئة والمحسوبية لمقاول آليات دفاع أوحد». زعم ماكين أن التحليلات التى أجراها المكتب العام للمحاسبة أظهرت أنه سيكون من الأرخص أُسيًا للحكومة أن تُحدِّث الناقلات الموجودة لديها، بدلا من استئجار أخرى إضافية من بوينج بأضعاف عدة لتكلفة الإصلاح. قال ماكين «لم أر أبدا المسئوليات الأمنية والإسنادية للحكومة الفدرالية تخضع بهذا الوضوح لصالح مُصنّع آليات دفاع واحد». قالت التقارير إن بوينج ولكي تفوز بتلك الصفقة الخلافية سخَّرت سلسلة من الداعمين النافذين من بينهم دنيس هيستر، رئيس مجلس النواب وحليف رئيسى للبيت الأبيض ولكارل روف وآندى كارد النافذين بالبيت الأبيض. قال كيث أشداون مدير جمعية «دافعى الضرائب من أجل حسن التصرف». «الأمر غير المعتاد فى ممارسات الضغط والمناورة لصالح بوينج هو أنها أتيحت لها كل أقسام الحكومة ابتداء من رئيس الجمهورية هبوطا، وأنها كان لديها جميع قيادات مجلس النواب والشيوخ، وعشرات المشرعين يمارسون نفوذهم ومهاراتهم لصالح الصفقة». ووفقا للفاينانشيال تايمز «استثمرت بوينج أيضا ٢٠مليون دولار العام الماضى فى تمويل رأس مال مشروع متعلق بالدفاع يديره ريتشارد بيرل، الذى اشترك مع شخص آخر فى كتابة افتتاحية بصحيفة وول ستريت جورنال يدعم فيها الصفقة. لكنه لم يكشف عن استثمار بوينج فى شركته».

وافق رئيس مشتروات السلاح للرئيس بوش بالبنتاجون، إدوارد سي. «پيت» أولدريدج الابن على الصفقة. تصادف أن أولدريدج كان رئيس شركة «ماكدونيل دوجلاس إلكترونيك سيستمز» التي أصبحت فيما بعد جزءا من بوينج. وافق أولدريدج على الصفقة في يومه الأخير بالبنتاجون قبل توليه منصبا بشركة لوكيد مارتن لصناعة الأسلحة. وسرعان ما سُجلت الصفقة على أنها «أهم عملية سوء إدارة في التزويد الدفاعي في التاريخ الحديث» وفقا لتعبير السناتور الجمهوري جون ورنر رئيس لجنة الشيوخ للخدمات المسلحة، مما نتج عنه إلغاء العقد، وسط اتهامات واسعة بالمحسوبية. دخل دارلين دويون، مسئول التزويد السابق بالقوات الجوية، دخل السجن، وكذلك ممثل بوينج، فيما استقال جيمس روتش، وزير القوات الجوية.

وفي نهاية المطاف، انتهى الأمر بالقضية على مكتب شميتز بالبنتاجون للتحقيق فيها. في يونيو ٢٠٠٥، نشر شميتز تقريرا عن الفضيحة من ٢٥٧صفحة، الذي اتهمه الناقدون بأنه أخفى الدور المُرجّح لأحد كبار مسئولي البيت الأبيض في الصفقة -احتوى التقرير على ٤٥ كشطاً لإشارات إلى مسئولين بالبيت الأبيض. وفي الواقع، كان شميتز قد سلم التقرير للبيت الأبيض لمراجعته قبل نشره، الذي ظهر أنه تعرض لكشط المعلومات المُدينة المحتملة. كتب السناتور جراسلي في خطاب له إلى شميتز «بإقصائك شواهد ذات علاقة من التقرير النهائي، أمكن حجب أهدافٍ محتملة معينة عن إمكانية المحاسبة». أضاف جراسلي «باستجابة منهم لإرشاد مسئولين كبار بالبيت الأبيض ونصائح منهم، والذين حُذِفت أسماؤهم من التقرير النهائي بأوامر منك؛ هؤلاء المسئولون أصبحوا غير معرضين للمحاسبة».

لم يُضمّن شميتز تعليقات رمسفلد أو وولفويتز لأنهما، كما قال، لم يقولا أي شئ «ذا علاقة». وإذا كان الأمر كذلك، كما أكد مجلس تحرير الواشنطون بوست «فلابد وأن المحققين لم يوجهوا الأسئلة الصحيحة. وكمثال واحد فقط: قال مستر روتش إن مستر رمسفلد هاتفه في يوليو ٢٠٠٣ لمناقشة ترشيحه الذي كان وشيكا آنذاك

ليكون وزيرا للجيش ونص تحديدا على أنه لا يريدنى أن أتزحزح عن موقفى من اقتراح عقد استئجار الشاحنات». وفى نسخة طبق الأصل من جوار لمكتب شميتز مع رمسفلد، حصلت عليها الواشنطون بوست سأل المحققون وزير الدفاع عما إن كان قد وافق على عقد استئجار ناقلات بوينج بالرغم من الانتهاكات العديدة بالعقد لأحكام البنتاجون والحكومة بأكملها الخاصة بالتزود. قال رمسفلد «لا أتذكر أننى وافقت عليه. لكنى بالتأكيد لا أتذكر أننى لم أوافق عليه، إذا شئتم». حينئذ سأل المحققون رمسفلد عن حقيقة أن الرئيس بوش طلب من رئيس أركانه آندى كارد، عام ٢٠٠٢، التدخل فى مفاوضات البنتاجون مع بوينج أحد كبار المساهمين فى حملات بوش الانتخابية. قال رمسفلد «لقد أُخبِرت أن المناقشات مع الرئيس سرية وكذلك المناقشات مع العاملين معه مباشرة». قالت الواشنطون بوست إن معظم المناقشات الباقية طُليت بالسواد فى تلك النسخة. ولم يتضمن تقرير شميدت أياً من تعليقات رمسفلد.

الأكثر من هذا هو أن فريق شميتز لم يستجوب أى أحد من خارج وزارة الدفاع بالرغم من التورط الموثق جيدا لعدد من كبار المشرعين، مسئولى الإدارة، والرئيس نفسه. أيضا، لم يستجوب شميتز إدوارد أولدريدج، مسئول البنتاجون الذى وافق على الصفقة. بيَّن تقريره أن أولدريدج لم يحصل على الموافقات المطلوبة قبل أن يمضى قُدما فى إتمام الصفقة، لكنه ذكر أن الموافقات كانت، على أية حال، موجودة واقعيا. قال ماكين لشميتز فى جلسة استماع بمجلس الشيوخ حول الفضيحة بعد نشر التقرير «وهكذا، فإن مستر أولدريدج، وبشكل جوهرى، قد كذب» وأجاب شميتز بالقول «نعرف بشكل عام.. أنه هو وآخرين بالقوات الجوية وبمكتب وزير الدفاع كانوا يحاولون معالجة لغة التخصيصات بجعلها تتجنب عددا كبيرا من المتطلبات القانونية». كاد ماكين ألا يصدق ما يسمعه. سأل شميتز «ألا تعتقد أنه كان من المهم أن تحصل على شهادته؟». فى النهاية، أكد شميتز أن «العاملين بمكتبى لم يستطيعوا الوصول إليه» وقال إنه أرسل إليه خطابا مسجلا وترك له رسالات صوتية. سأله ماكين وقد أصابه الذهول «لم تستطع الوصول إليه من خلال

لوكيد مارتن؟». ورغم أن شميتز كان يملك سلطة استدعائه للحضور كشاهد بأمر كتابى إلا أنه لم يستخدم هذه السلطة لإجبار أولدريدج على الحضور للاستجواب. أخبر السناتور جون ورنر شميتز «لا أعتقد أن الأمر بهذا الغموض. إنه عضو بمجلس إدارة شركة مقاولات رئيسية للدفاع، يبدو لى أن من الممكن العثور عليه بسهولة». وحقا، فمن الصعب جدا تخيل أن شميتز لم يستطع الوصول إليه بلوكيد مارتن. كان شقيق شميتز، جون بى. شميتز الذى كان قد سبق وعمل نائب مستشار الرئيس جورج إيتش. بوش، كان يعمل مع أحد اللوبيهات المسجلة لحساب شركة لوكيد مارتن من يوليو ٢٠٠٢ وحتى يناير ٢٠٠٥، وهى فترة تقاطعت مع صفقة بوينج والتحقيق فيها. عمل ضمن فريق من شخصين أو ثلاثة من مكتب اللوبيهات ماير، براون، رو وماو، الذى تقاضى ٤٤٥٠٠٠ دولار على الأقل من بوينج آنذاك. بيد أنه لا يوجد ما يوحى بأن جون بى. شميتز كان له أية رابطة مباشرة بصفقة فى الناقلات أو بأولدريدج.

وفى النهاية، أبلغ السناتور جراسلى جوزيف شميتز أن معالجته للفضيحة «تثير أسئلة حول استقلاليتك كمفتش عام». قال أشداون من جمعية «دافعى الضرائب من أجل حسن التصرف» نعلم أنه بالمستويات العليا بالبنتاجون والبيت الأبيض، تحدث رشاوى لتوجيه البلايين من الدولارات من التعاقدات الشركاتية إلى شركة بوينج». لكنه أضاف القول إنه بسبب «تقاعس المفتش العام عن استجواب وزير الدفاع استجوابا قاسيا» و«التنقيحات بالغة الحماس والانحياز.. تُركنا الآن ولدينا أسئلة أكثر مما لدينا من إجابات».

وفى وجود مكتبه متورطا فى فضائح متعددة، قدم شميتز إشعاره الرسمى فى يونيو ٢٠٠٥ بأنه يُعفى نفسه من المسائل المتعلقة ببلاكووتر لأنه كان يتفاوض مع الشركة بشأن تعيينه بها. لم تكشف تلك المذكرة الموجزة عما أدى به إلى الإفصاح عن تعاملاته مع بلاكووتر، لكنها أتت بعد عام تحديدا، من عودة شميتز من رحلة إلى بغداد استغرقت تسعة أيام عَمَل فيها مع بول برمر، عميل بلاكووتر الأثير، على

إنشاء شبكة من تسعة وعشرين مفتشا عاما (تضم أفضل من هم على شاكلة ڤون ستوبن) للتفتيش على الوزارات العراقية تُشكَّل قبل «تسليم» السلطة. بالنسبة لبعض المراقبين، فإن إناطة تطوير نظام للرقابة على الحكومة العراقية «الجديدة» إلى هذين المسئولَيْن كان يماثل الطلب من ثعلبين حماية عشة للدجاج.

في نوفمبر ٢٠٠٤، منح شميتز برمر جائزة جوزيف إتش. شريك، التي تُمنح للأفراد الذين لهم «إسهامات في مهمة المفتش العام». قال شميدت إنه منح برمر الجائزة لأنه «رجل ذو رؤية ومبادئ». ولدى قبوله الجائزة قال برمر «شعرت منذ قدومي إلى العراق أنه من المهم، ومع الأخذ في الاعتبار تاريخ الفساد في ظل صدام حسين.. أن نحاول ترسيخ مفهوم الثقة في الحكومة منذ البداية». في مطلع ٢٠٠٥، ألقى شميتز محاضرة على الرابطة الفدرالية لأخوية فرسان مالطا بكنيسة برمر في بلدة بِثِسدا، بمريلاند، روى أثناءها قصة من رواية فرانسِيس برمر (زوجة برمر) «الهروب إلى الفردوس». وبعد بضعة أشهر في نوفمبر ٢٠٠٥، اجتمع شميتز وبول برمر مرة أخرى، حينما استضافت بلاكووتر برمر في مناسبة «لجمع التبرعات» لضحايا إعصار كاترينا.

في ٢٦ أغسطس ٢٠٠٥، أبلغ شميتز العاملين بمكتبه، رسميا، أنه سيغادر البنتاجون ليعمل مع بلاكووتر. وفي إيميل أرسلها لجميع متلقي رسائله أعلن تركه منصبه، وقال «أدعو الخالق الذي ذُكِر في إعلان استقلالنا والذي وَهب كل واحد منا هذه الحقوق غير القابلة للتصرف فيها، أدعوه أن نفكر مَلِياً، كأمريكيين في «الأشياء الأولى» ونستمر في مباركة بعضنا». وبمجرد أن بدأ شميتز عمله ببلاكووتر في سبتمبر ٢٠٠٥، تصيدت الشركة العديد من تعاقدات الحكومة المربحة جدا، ونشرت قوات بلاكووتر المجهزة بأسلحة ثقيلة على أرض الولايات المتحدة، في أعقاب أسوأ «كارثة طبيعية» في تاريخ الولايات المتحدة.■

18

الفصل الثامن عشر

بغداد المسيسبي

وصل رجال بلاكووتر يو إس إيه إلى نيو أورلينز مباشرة بعد أن ضربها إعصار كاترينا فى ٢٩ أغسطس٢٠٠٥. سبقت الشركة الحكومة الفدرالية ومعظم منظمات الإغاثة إلى المشهد، فيما انتشر ١٥٠ فرد من قوات بلاكووتر، مثقلين بالسلاح، يرتدون أزياء المعركة، انتشروا وسط فوضى نيوأورلينزر. **رسميا، تفاخرت الشركة** بـ«انضمام قواتها إلى مجهودات الإنقاذ من الإعصار». **لكن رجالها على الأرض رووا** قصة مختلفة. جاب بعضهم الشوارع فى دوريات بسيارات SUV طُلى زجاجها بالأسود وظهر عليها شعار بلاكووتر فى الجزء الخلفى؛ سارع آخرون فى أنحاء الحى الفرنسى بسيارات غير مميزة لا تحمل لوحات. كانوا يرتدون أزياء كاكى، ونظارات شمس تلتف حول الرءوس، وأحذية عسكرية سوداء أوبيج، فيما كانت بطاقات الهوية الخاصة ببلاكووتر معلقة حول عضلات أذرعهم. كانوا جميعهم شديدى التسلح - بعضهم بعدافع M-4 الآلية ذات القدرة على إطلاق ٩٠٠ رصاصة فى الدقيقة أو بطبنجات رش. هذا على الرغم من زعم إدى كومباس، مفوض الشرطة بأنه «من غير

المسموح بحمل السلاح سوى لقوات فرض القوانين».

تجمع رجال بلاكووتر على ناصية شارعى سانت بيتر، وبوربون أمام بار اسمه 711. ومن الشرفة التى تعلو البار كان رجال بلاكووتر يُخلون إحدى الشقق. ألقوا بالمراتب، الملابس،الأحذية والأغراض المنزلية المختلفة من الشرفة إلى الشارع. علقوا علماً أمريكيا على الشرفة. وقف أكثر من دستة من الوحدة الثانية والثمانين المحمولة جواً فى تشكيلات بالشارع يراقبون العملية.

مضى المسلحون يتحركون دخولا إلى المبنى وخروجا منه فيما أخذ حفنة منهم يروون خبرتهم بالعراق. قال أحد رجال بلاكووتر «كنت أعمل فى قوة الأمن الخاصة لبرمر ونجروبونتى». اشتكى آخر، فيما كان يتحدث على هاتفه المحمول من أنه كان يتقاضى ٣٥٠ دولار فقط فى اليوم بالإضافة إلى مصروف نفقاته اليومية: «حينما قالوا لى نيوأولينز، سألت «فى أى بلد تقع؟»». كان يرتدى بطاقة هوية شركته حول

عنقه في حافظة طُبع عليها «عملية حرية العراق». وبعد أن مضى يتفاخر كيف أنه يجول في أنحاء العراق في «سيارة بي إم دبليو تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية ومحصنة ضد المتفجرات قال إنه «يحاول العودة إلى العراق حيث تحدث العمليات الحقيقية».

وفي حديث دام ساعة بالحي الفرنسي وصف أربعة من قوات بلاكووتر طبيعة عملهم بنيوأورلينز على أنه «السيطرة على الأحياء» و«مواجهة المجرمين». كانوا جميعهم يحملون أسلحة هجوم أوتوماتيكية ومسدسات محزومة حول سيقانهم، كانت جاكتاتهم المضادة للقذائف مغطاة بجيوب للذخيرة الإضافية. قال مقاول آخر من بلاكووتر «إنه لأمر جديد تماما أن يعمل أشخاص مثلنا على نطاق الولايات المتحدة. إننا معدون أفضل للتعامل مع الأوضاع بالعراق». قال جاري جاكسون، من تنفيذيي بلاكووتر لصحيفة فرجينيان بايلوت إن رجاله كانوا شديدي التسلح «نظراً لاستخبارات تلقيناها» ثم أضاف «لقد أجرينا تقديرا للمخاطر وقررنا إرسال قواتنا هنا ليقوموا بالعمل الحقيقي». زعم جاكسون أن بلاكووتر قد «أمّنت، بشكل أساسي» الحي الفرنسي، وهو زعم كان محل جدل ساخن من وكالات فرض القوانين حيث، قال أحدهم «ثمة شئ من التبجح» في زعم جاكسون. أخبر الماجور إد. بوش من حرس لويزيانا الوطني صحيفة فرجينيان بايلوت».. نحن نعيش هنا. من السذاجة الاعتقاد أن بلاكووتر سبقتنا إلى الحي الفرنسي».

أناطت بلاكووتر إلى دان بولتز أحد مقاوليها، وكان سابقا قد عمل ضابط شرطة بمشيجان، أناطت به حراسة عمال بل ساوث في نيوأورلينز. قال إنه بعد وصوله بعدة أيام، كان هو ومقاولون آخرون من بلاكووتر يجوبون الشوارع في دوريات بعربات SUV مسلحين بمدافع هجومية. قال «إن الفرق الوحيد بين هنا والعراق هو عدم وجود عبوات ناسفة. إنها مثل بلدان العالم الثالث. لا أستطيع أن أصدق أن هذه أمريكا ثم أضاف «تعترينا دائما تلك الأفكار الارتجاعية، أفكار عما كنا نفعله في العراق». زعم بولتز أن الشئ الوحيد الذى قتله كان ثورا كبيرا أطلق عليه النار

قبل أن يهاجمه.

كانت بلاكووتر بين حفنة من الشركات ذات الصلات الجيدة التى اقتنصت فرصة البيزنس ليس فقط وسط الأنقاض والتدمير بنيو أورلينز، بل أيضا وسط الهستيريا الإعلامية. وفيما تخلت الحكومات الفدرالية، الولاياتية، والمحلية عن مئات الآلاف من ضحايا الإعصار، كانت الصور التى هيمنت على التغطية التليفزيونية هى صور أعمال النهب، الخروج على القانون، والشواش. ضُخِمت التقارير، وكانت عنصرية، مثيرة. مثلا، إذا كنت تشاهد تلك التقارير من ولاية مين فربما تخيلت أن نيوأورلينز كانت منطقة شغب وعربدة كبيرة -مهرجان للمجرمين الذين أتاهم أخيرا زمن أمجادهم. وفى الواقع، فقد كانت مدينة مُقتلعين، أناس منبوذين فى أمس الحاجة إلى الطعام، الماء، وسائل النقل، الإنقاذ والمساعدة. كان ما يحتاجونه بشدة هو الطعام والماء والإسكان. وبدلا من ذلك، فما تدفق عليهم بسرعة مفرطة كان هو السلاح الكثير، الكثير منه.

فيما بعد قال فرانك بورلى، رجل الشرطة السابق الذى عمل ببلاكووتر فى الأيام الأولى للعملية، إنه حينما وصل إلى معسكر بلاكووتر بلويزيانا «تسلم مدفع Glock17 وبندقية Mossberg M590A. تسلمت أيضا حافظة ذخائر بها عشرة أمشاط من الرصاص. فى ذلك الوقت لم يكن ثمة ذخيرة عيار 9mm متاحة، لكن الله أنعم على بوجودى فى معسكر ممتلئ بمطلقى النيران. وقبل أن أنطلق إلى الخارج كان مخزن مدفعى Glock 17 قد حمل بذخائر عيار 9mm» علّق بورلي بعد أن تسلح جيدا «إن المجهود اللوچستى لدعم الحملة يبعث على الرهبة، وأعلم أنه بعد أن وصلت ذخائر بالطائرة يوم الإثنين، وصلت شحنة أخرى منها يوم الأربعاء. إن هذا لتعليق على روح الشرطى/المقاتل الأمريكى أن تستطيع بلاكووتر وضع هذا العدد من الرجال على الأرض بهذه السرعة. إن دعمهم لوجستيا لتحدٍ رهيب».

فى الأيام الأولى للإعصار، وحتى مع وجود رجال بلاكووتر المسلحين يقومون بدوريات فى شوارع نيوأورلينز، أبلغ راص نوك، المتحدث باسم وزارة الأمن

الداخلى، الواشنطون بوست أنه ليس لديه علم بخطط فدرالية لاستئجار بلاكووتر أو أى شركة أمن خاصة أخرى. قال نوك فى ٨ سبتمبر «نعتقد أن لدينا مزيجاً مناسباً من العاملين فى فرق فرض القوانين التى تُمكّن الحكومة الفدرالية من الوفاء بمتطلبات أمان الجماهير». لكن فى اليوم التالى، طرحت قوات بلاكووتر الموجودة على الأرض رواية مختلفة تماما. حينما سئلوا عن التفويض الذى يعملون بمقتضاه أجاب أحد مقاولى بلاكووتر «نحن متعاقدون مع وزارة الأمن الداخلى». ثم أشار إلى أحد رفاقه وقال «لقد فوّضه، حاكم ولاية لويزيانا. بإمكاننا إلقاء القبض على الأشخاص، واستخدام القوة المميتة إذا رأينا ذلك ضرورياً». ثم أمسك الرجل بشارة فرض القانون الذهبية لولاية لويزيانا والتى كان يرتديها حول عنقه. أيضا، قالت آن دوك، المتحدثة باسم بلاكووتر، إن الشركة لديها خطاب من مسئولى لويزيانا يفوض قواتها بحمل أسلحة مشحونة. وقال بعضهم إنهم ينامون فى معسكرات أقامتها وزارة الأمن الداخلى.

قال مايكل راتنر، رئيس مركز الحقوق الدستورية، حينما سمع عن نشر قوات بلاكووتر فى منطقة الإعصار «يبّين تفويض (الشركة) هذا بالأعمال الأمنية الانهيار التام للحكومة. لقد تصرفت قوات الأمن الخاصة هذه بوحشية فى العراق وهى تتمتع بالحصانة. من المخيف أن يأتوا بهم الآن إلى شوارع نيوأورليَنز، بل إنه قد يكون أمرا غير قانونى». ظهر بيان على موقع بلاكووتر بتاريخ ٢٠٠٥/٩/١ يعلن عن خدمات خطوط تموين جوية، خدمات أمنية، ضبط الحشود، وقال إن الشركة ستنشر شراعيتها SA-330 Puma «للمساعدة على إخلاء المواطنين من مناطق الفيضانات». زعم البيان أن «خدمات الدعم الجوية لبلاكووتر» يُتبرع بها من أجل جهود الإغاثة (بنيوأورلينز). قال إريك برينس، مؤسس الشركة «فى هذا الوقت على جميع الأمريكيين أن يتضامنوا معاً لمساعدة مواطنينا الذين ضربتهم الكارثة الطبيعية» أما بيل ماثيوس، نائب المدير التنفيذى لبلاكووتر، فقال «تشعر بلاكووتر بالفخر لأنها تخدم شعب نيوأورلينز. فأولا وقبل كل شئ فكل ما فى الأمر أن الأمريكيين يساعدون الأمريكيين الآخرين فى أوقات الشدائد». اخترع كوفر بلاك

قصة أن عمليات بلاكووتر فى نيو أورلينز كانت، حصريا، بدافع إنسانى. قال فيما بعد «أعتقد أنه من المهم أن تؤكد الشركات من أمثالنا مكرسة للخدمات الشاقة». ثم أضاف قائلا إنه حينما ضرب كاترينا الولاية «أطلقت شركتنا طائرة مروحية وطاقمها إلى نيوأورلينز دون عقد، بدون أن يدفع لنا أحد شيئا. استطعنا أن نكتشف كيف نضع أنفسنا تحت قيادة حرس السواحل -حصلنا على إشارة نداء حرس السواحل واستطعنا أن ننقذ حوالى ١٥٠شخص كانوا سيلقون حتفهم. وكنتيجة لذلك، اكتسبنا خبرة إيجابية» قال بلاك «نحن دائما تواقون لمساعدة مواطنينا، سواء تلقينا أجرا أم لم نتلق». بيد أن الحقيقة هى أن بلاكووتر كانت تتلقى الأموال، الكثيرة، عن عملياتها بنيوأورلينز.

فى ١٨ سبتمبر، قدرت بلاكووتر أن لديها قوات عددها ٢٥٠ فرد منتشرة فى المنطقة؛ وهو عدد قال ماثيوس، إنه سيتنامى. قال «نحن أناس نريد أن نساعد ونصنع فرقاً. -حان الوقت لتصحيح السجل: لسنا مرتزقة... نحطم الجماجم. لا نعتقد أننا سنحقق أرباحاً هنا. لقد عدونا إلى النار لأنها كانت مشتعلة». وفى حوار آخر قال ماثيوس إنه نظرا لأن بلاكووتر قد تبرعت بأكثر من مليون دولار على شكل خدمات طيران «فإننا، حتى إذا قصّرنا، فى الخدمات الأمنية، ستكون شركتنا قد حققت إنجازا كبيرا». وآنذاك، كانت الشركة فى خضم حملة توظيف شرسة لعملياتها بنيوأورلينز. تطلبت من المتقدمين أن يكون لديهم خبرة أربع سنوات على الأقل فى الجيش «فى مهمات تقتضى حمل السلاح». جاء بأحد إعلانات بلاكووتر «هذه الفرصة هى لانتشار فورى. الأجر المحتمل حتى ٩٠٠٠ دولار شهرياً».

وفى تلك الأثناء، روجت بلاكووتر لاقتراح قدمته لوزارة الأمن الداخلى (DHS) بشأن توليها إقامة مرفق تدريب لإعداد العاملين المحليين لوظائف صناعة/الأمن بنيوأورلينز إما مع بلاكووتر أو شركات أخرى. قال ماثيوس «سيكون الأمن قضية أثناء عملية إعادة الإعمار بأكملها». وعلى حين أن بلاكووتر قد تكون قد تبرعت ببعض «الخدمات» بنيوأورلينز، فقد أثيرت التساؤلات الجادة من قبل حرس الشواطئ

الأمريكية عن إنقاذها الناس بطائرتها المروحية التى تفاخرت بلاكووتر بأنها كانت تعمل بتوجيه منهم. فى مطلع ٢٠٠٦، تباهى إريك برينس أنه «بعد إعصار كاترينا، أرسلنا إحدى مروحياتنا من طراز Puma– ... قُلت "ابدأوا الطيران". ربطنا أنفسنا بخفر السواحل، وحقا، فقد أصبح عملنا إشارة نداء لخفر السواحل، وطرنا، وأنقذنا ١٢٨شخص». لا يبدو وأن تلك القصة صحيحة. قال الكوماندر تود كامبل من حرس السواحل الذى أدار جزءا كبيرا من عمليات الإنقاذ «عرضت بلاكووتر أن تقوم بأعمال الإنقاذ. لكن كان ثمة محظورات قانونية. ماذا لو أصيب أحد؟ من ثم طلبنا منهم ألا يشتركوا فى سحب الناس». قال لفرجينيان بايلوت «كانت بلاكووتر تعرض علىَّ تقريراً موجزا يوميا ولم يذكر أحد أبدا أنهم قاموا بأية عملية إنقاذ. إذا كانوا قد فعلوا ذلك، فلابد وأنهم فعلوه مستقلين».

علاوة على ذلك، ورغم تفاخراتها الأخلاقية، لا تكاد بلاكووتر أن تكون قد قامت بأية عمليات إنسانية للصالح العام بنيوأورلينز. فإلى جانب عملها فى حراسة الشركات الخاصة، البنوك، الفنادق، المواقع الصناعية، والأثرياء، تسلمت بلاكووتر سراً، عقدا، دون إجراء مناقصة، مع قسم الوقاية الفدرالية بوزارة الأمن الداخلى بذريعة حراسة مشروعات إعادة الإعمار. ووفقا لعقود بلاكووتر الحكومية من ٨ سبتمبر إلى ٣٠ سبتمبر٢٠٠٥ –أى فى مدة ثلاثة أسابيع فقط– تقاضت بلاكووتر ٤٠٩٠٠٠دولار للتزويد بأربعة عشر حارسا وأربع مركبات «لحماية مشرحة مؤقتة بباتون روج بلوس أنجيليس». توضح الوثائق أن الحكومة دفعت لبلاكووتر ٩٥٠ دولار يوميا عن كل من حراسها فى المنطقة –بزيادة ٦٠٠دولار يوميا عما زعمت الشركة أنها تدفعه لكل حارس على الأرض. كان العقد مستهلاً لهبات أخرى لبلاكووتر؛ وبنهاية ٢٠٠٥، أى بعد مجرد ثلاثة أشهر، كانت الحكومة قد دفعت إلى بلاكووتر ٣٣,٢مليون دولار نظير عملها فى إعصار كاترينا لصالح وزارة الأمن الداخلى. تم تبرير التعاقد على كل تلك الخدمات بزعم الحكومة بأنه لم يكن لديها عدد كافٍ من العاملين لنشرهم فى منطقة الإعصار، رغم أن المتحدثين الرسميين حرصوا على تحاشى ربط هذا بعمليات الاحتلال الدولية التى تقوم بها الولايات المتحدة. قال جان شاكوسكى النائب

الديموقراطى عن إلينوى، وأحد ناقدى بلاكووتر بالكونجرس «لقد رأينا التكلفة، من منطلق المحاسبة والدولارات، لهذه الممارسات بالعراق، والآن، فنحن نرى الأمر نفسه بنيو أورلينز. لقد منحوا مرة أخرى عقد مُحبّين، -دونما إجراء مناقصة علنية- لشركة لها روابط وثيقة مع الإدارة». وبنهاية يونيو ٢٠٠٦، كانت الشركة قد حصدت ٧٣ مليون دولار عن عملها الذى أدته للحكومة فى أعقاب إعصار كاترينا- حوالى ٢٤٣٠٠٠ دولار يوميا.

وبدلا من القيام بعملية إغاثة حكومية جدية بنيوأورلينز، فإن القوى التى حُشدت سريعا كانت هى الشركات التى لها صلات جمهورية -كثير من نفس الشركات التى كانت تقتنص أرباحا هائلة من احتلال العراق. ولمزيد من مساعدة تلك الشركات، ألغى الرئيس بوش قانون Davis-Bacon لعام ١٩٣١ الذى تطلب أن يدفع المقاولون الفدراليون الأجور السائدة للعاملين لديهم (أُجبر على إعادته مرة أخرى) مكّن هذا الشركات من دفع أدنى الأجور للعاملين فيما كانت هى تجنى أرباحا شركاتية مهولة. وبعيد الإعصار مباشرة، مُنحت شركة نائب الرئيس ديك تشينى «السابقة»، هاليبرتون/كيه بى آر (أكبر شركة مستفيدة من حرب العراق)، مُنحت ٣٠ مليون دولار «لتقييم المضخات والبنية التحتية بالمدينة ولإنشاء مرفق يدعم مجهودات استعادة الأوضاع»، فيما مُنحت شو جروب (التى تقاضت أكثر من ١٣٥مليون دولار بالعراق) عقوداً قيمتها أكثر من ٧٠٠مليون دولار لأعمال ما بعد كاترينا. مثّل الشركتين، أحد رجال اللوبيهات ويدعى جوزيف أوباو، الذى تصادف أنه كان المدير السابق لحملة بوش الانتخابية. وفيما بعد، رفعت الحكومة بدرجة كبيرة سقوف عقودها مع الشركات ذات الروابط الجمهورية: ٩٦٥ مليون دولار لشركة شو، ٤ ١بليون دولار لفلور، و٥٧٥ مليون دولار لبكتل. كان يدير مشروع كاترينا لشركة فلور آلان بوكمان، نفس المدير المسئول عن عقود الشركة بالعراق. أخبر رويترز «يتباطأ عملنا لإعادة البناء بالعراق. وقد أتاح هذا لنا أشخاصا للاستجابة إلى عملنا بلويزيانا».

بدأ البعض يشيرون إلى نيوأورلينز ومنطقة الكوارث المحيطة باسم «بغداد المسيسبى». وكما كتب كريستيان بارنتى فى تقرير له من نيوأورلينز بصحيفة نيشن «يبدو وأن مجهود الإغاثة يتحول إلى لعبة لحرب المدن: ستُفرض نسخة محلية متخيلة للنصر الشامل الذى يراوغ أمريكا فى بغداد، ستُفرض هنا بنيوأورلينز. يكاد يكون الموقف وكأن نهر دجلة -وليس المسيسبى- هو الذى أغرق المدينة. يبدو المكان كمدينة ملاهى مريضة -عالم مازوكى- يقوم فيه رجال الشرطة، المرتزقة، الصحفيون، والمتطوعون غريبو الأطوار من جميع الأنواع، يقومون بعرض آمن نسبياً لنسخة من خيالاتهم ذات الطبيعة العسكرية للهرمجدون والقبضة الحديدية المُطهّرة». ومع انتشار القوات الأمريكية لحد الوهن فى مناطق حرب متعددة، كان المشهد ناضجا للتربح الجماعى الكبير من الكوارث بواسطة بعض الشركات الأمنية والعسكرية الآخذة فى التمدد سريعا.

لم تكن بلاكووتر شركة المرتزقة الوحيدة التى استغلت فرصة الربح الهائل فى تلك الكارثة الكبرى. وفيما بدأ قادة البيزنس والمسئولون الحكوميون يتحدثون علنا عن تغيير ديموغرافية إحدى أكثر المدن الأمريكية النابضة ثقافياً، تمروح المرتزقة من شركات مثل دينكورب، أمريكان سكيوريتى جروب، واكنهوت، كرول، وشركة إسرائيلية تسمى Instinctive Shooting International (ISI)، تمروحوا سريعا لحراسة البيزنسات والمنازل الخاصة، وأيضا المشروعات والمؤسسات الحكومية. وخلال أسبوعين من الإعصار قفز عدد شركات الأمن الخاصة المسجلة بلويزيانا من ١٨٥ إلى ٢٣٥، واستمر فى الارتفاع بمرور الأسابيع. كان لبعضها، مثل بلاكووتر، عقود فدرالية. أما الأخرى فقد استأجرها أفراد النخبة الثرية، من أمثال إف. باتريك كوين، الذى استحضر أمنا خاصا ليحرس ضيعته الخاصة التى يبلغ قيمتها ٣مليون دولار وأيضا فنادقه الفاخرة، التى كانت الحكومة الفدرالية تفخر فى التعاقد معها نظير مبالغ باهظة لإسكان كبار العاملين فى الإغاثة.

أوضحت حادثة كادت أن تصبح مميتة تورط فيها مسلحون مستأجرون أخطار تولى

القوات الخاصة مهام الشرطة فى الشوارع الأمريكية. قال أحد حراس الأمن الخاصين إنه كان فى ليلته الثانية بنيوأورلينز، حيث كان يعمل وفقا لعقد مع أحد ملاك البيزنس الأثرياء، وكان فى طريقه مع مجموعة مهام خاصة شديدة التسلح ليرافق أحد شركاء رئيسه فى شوارع المدينة التى تسودها الفوضى. قال رجل الأمن إن موكبهم تعرض لإطلاق نيران من عصابة سوداء تطلق النيران تقف على كوبرى علوى بالقرب من الحى الفقير Ninth Ward. قال «أنذاك، كنت أتحدث على الهاتف مع زميل عمل لى. أسقطت الهاتف وأطلقت النيران». قال الحارس إنه ورجاله كانوا مسلحين بمدافع AR-15 وGlock، وأنهم أطلقوا وابلا من الرصاص بالاتجاه العام لمطلقى النيران المزعومين أعلى الكوبرى. «وبعد ذلك، كان كل ما سمعته هو أنات وصرخات. وتوقف إطلاق النيران. وهذا كل ما حدث. قُلتُ ما فيه الكفاية».

أضاف: «ثم ظهر رجال الجيش، وهم يتصايحون علينا، معتقدين أننا الأعداء. أخبرتهم بما حدث، ولم يلقوا بالا. غادروا المكان». قال الحارس إنه بعد خمس دقائق وصلت فرقة من خيالة الولاية إلى المشهد، وسألوا عن الحادث، ثم طلبوا منه إرشادات: «كيف يغادرون المدينة». قال الحارس إن أحداً لم يسأله أبدا عن أية تفاصيل عن الحادث، ولم يُعمل أى تقرير أبدا. قال «شئ وحيد بخصوص الأمن، هو أننا يجب أن ننسق مع بعضنا -أسرة واحدة». لكن من الواضح أن هذا التنسيق لم يشمل مكاتب الوزراء، بلويزيانا وألباما، الذين قالوا إنهم ليس لديهم أى سجل عن شركته.

وعلى بعد بضعة أميال من الحى الفرنسى، استحضر بزينسمان ثرى من نيوأورلينز، اسمه جيمس ريس، والذى كان يعمل رئيس سلطة للترانزيت الإقليمية بإدارة العمدة راى ناجين، استحضر عدداً من المسلحين بعتاد ثقيل لحراسة سكان منطقة النخبة Audubon Place ذات البوابات: كان المسلحون مرتزقة إسرائيليين يرتدون الأسود ومسلحون بمدافع M-16، وأحضروا إلى المدينة بطائرة مروحية. أبلغ ريس

وول ستريت جورنال «الذين يريدون رؤية هذه المدينة وقد أعيد بناؤها يريدون أن يُنجز هذا بأسلوب مختلف تماما: ديموجرافياً، جغرافياً وسياسياً. لن تستمر الأوضاع المعيشية التى عهدناها، وإلا سنغادر المكان». قال إسرائيليان كانا يقومان بحراسة البوابات خارج Audubon إنهما قد خدما كجنود مهنيين بالجيش الإسرائيلى، وتفاخر أحدهما باشتراكه فى اجتياح لبنان. ثم أعلن أحدهم «لقد ظللنا نحارب الفلسطينيين طوال اليوم، كل يوم، طوال حياتنا، هنا، بنيوأورلينز نحن لا نقوم بالحماية من الإرهابيين». ثم قال وهو ينقر على مدفعه الآلى «حينما يرى معظم الأمريكيين هذه الأشياء، يصابون بالذعر».

قال الإسرائيليون إنهم يعملون لحساب Instinctive Shooting International التى وصفت عامليها بأنهم «جنود مهمات خاصة سابقون ينتمون إلى الكيانات الإسرائيلية التالية: قوات الدفاع الإسرائيلية، وحدات الشرطة القومية الإسرائيلية لمكافحة الإرهاب، مدرسين فى وحدات الشرطة القومية الإسرائيلية لمكافحة الإرهاب، خدمة الأمن العام (GSS أوشين بيت)، ووكالات استخبارات أخرى محدودة. تكونت الشركة (ISI) عام ١٩٩٣. ذكر التعريف بشركة المرتزقة الإسرائيلية على موقعها الإلكترونى ما يلى «تُوفي خدماتنا المُحدَّثة بالاحتياجات المتحدية لاستعدادات الأمن الداخلى، وإجراءات المعارك الخارجية والتجهيز لها. ISI الآن هى بائع لخدمات الأمن الداخلى وتنال مصادقة حكومة الولايات المتحدة عليها».

وفيما تدفقت أعداد لا متناهية من المسلحين إلى نيوأورلينز كان ثمة غياب واضح لعمليات الإغاثة، الطعام، وتوزيع المياه. أثار حضور المرتزقة سؤالا هاما آخر: إذا أخذنا فى الاعتبار الحضور الهائل فى نيوأورلينز للحرس القومى، جيش الولايات المتحدة، حرس الحدود الأمريكى، الشرطة المحلية من جميع أرجاء البلاد، وعملياً من كل ولاية حكومية لها شارات، فما الحاجة لشركات الأمن الخاصة، وبخاصة لحراسة المشروعات الفدرالية؟ قال باراك أوباما سناتور إلينوى «ليس لدى أية معلومات عن

التخطيط لهجمات إرهابية ضد المكاتب الفدرالية فى منطقة شاطئ الخليج. أعتقد أنه، وفى وجود كل هذا العدد من رجال الحرس الوطنى هناك، مع مجموعة من رجال فرض القوانين يقومون بالمهام، ويعيدون الأوضاع إلى ما كانت عليه، أعتقد أن هذا قد لا يكون أفضل استخدام للأموال». وبعد أن فضحت صحيفة نيشن عمليات بلاكووتر فى نيوأورلينز، أثار النائب شاكوسكى وعدد آخر من أعضاء الكونجرس الأسئلة حول الفضيحة، أدخلوا التقرير الذى ورد بالصحيفة فى سجلات الكونجرس أثناء جلسات الاستماع فى نهاية سبتمبر ٢٠٠٥، واستشهدوا به فى خطابات إلى مفتش وزارة الأمن الداخلى الجنرال ريتشارد سكينر الذى بدأ يتحرى الأمر. فى خطابات له إلى مكاتب بالكونجرس فى فبراير ٢٠٠٦، دافع سكينر عن صفقة بلاكووتر مؤكداً أنه كان من «المناسب» للحكومة أن تتعاقد مع الشركة. اعترف سكينر بأن «التكلفة الحالية للعقد... جد مرتفعة» ثم ألقى، بهدوء بقنبلة، قال «إنه من المتوقع أن تتطلب وكالات إدارة الطوارئ الفدرالية خدمات حراسة خاصة على أساس تعاقدات لمدى طويل نسبيا (سنتين إلى خمس سنوات)».

واكب توابع الإعصار عودة لـ«الحرب على الإرهاب» إلى الوطن، مَنْجمٌ للتعاقدات جنت منه الشركات أرباحا مهولة مثيلة لأرباحها من العراق من دون أن تغادر البلد مع عدم وجود سوى أقل القليل من المخاطر. كانت الرسالة واضحة بالنسبة لناقدى تعامل الحكومة مع الإعصار. قال كريس كروم، المدير التنفيذى لمعهد دراسات الجنوب (الأمريكى) ومحرر جلف ريكونستركشن ووتش، «هذا ما يحدث حينما يكون الضحايا قوما سود، يُنتهكون وتشوه سمعتهم قبل العاصفة وبعدها -وبدلا من المساعدات، يتم احتواؤهم». اتهم كروم المسئولين بأنه فى حين أنه قد تم توزيع ما بدا وأنه كميات لامتناهية من الأموال على المقاولين الذين تلازمهم الفضائح، فإن المشاريع الحيوية بنيوأورلينز لم «تتلق سوى قدر صفرى من الأموال، أو أقل القليل منها» عن نفس الفترة بما فى هذا: خلق الوظائف، إعادة تعمير المستشفيات والمدارس، الإسكان بأسعار معقوله، وإصلاح الأراضى التى غرقت. لكن وزارة الأمن الداخلى وحتى فى هذا السياق، مضت تدافع عن عقد بلاكووتر. كتب مات چاداكى،

المفتش العام من وزارة الأمن الداخلى المختص بإنقاذ شاطئ الخليج من تبعات الإعصار، مذكرة إلى وكالة إدارة الطوارئ الفدرالية جاء بها أن إدارة خدمات الحماية الفدرالية تعتبر بلاكووتر «القيمة الفُضلى للحكومة». بعد شهر من إعصار كاترينا، كان رجال بلاكووتر يعملون أيضا فى منطقة إعصار ريتا لاقتناص مزيد الأرباح الهائلة. فى نقطة الذروة، كان لدى الشركة ستمائة مقاول منتشرون من تكساس إلى المسيسبى. وبحلول صيف ٢٠٠٦، كان يعمل بعمليات بلاكووتر فى نيوأورلينز أنماط من رجال الشرطة بدلا من الكومانوز الذين عملوا لدى الانتشار المبكر. حل محل أزياء المظللين قمصان البولو السوداء عليها شعار الشركة، والبنطلونات الكاكى والمسدسات فيما كان رجال بلاكووتر يحرسون موقفاً للسيارات لأحد أفرع وول مارت الذى كان قد تحول لموقع متقدم لوكالة إدارة الطوارئ الفدرالية.

وفى نهاية أغسطس ٢٠٠٦، كانت بلاكووتر مازالت تحرس المؤسسات العامة الحيوية مثل مكتبة المدينة -التى كانت تستخدمها الوكالات الفدرالية- التى قال أحد رعاتها حينما مُنع من الدخول بواسطة حارس من بلاكووتر، ووجد نفسه عاجزاً عن الحصول على تفسير لهذا، قال «رفض الممثل الوقح إعطاء اسمه واستدعى مشرفا رفض إعطاء اسمه أيضا أو اسم الممثل الذى منع الرجل من الدخول». أقامت بلاكووتر مقرا لمنطقة كاترينا فى بيتون روج، واستأجرت مساحة بكلية الإنجيل ومعهد اللاهوت التبشيرى الذى يديره جيمى سواجارت، المبشر التليفزيونى الصليبى (الذى تعرضت سمعته لحريق هائل عام ١٩٨٨ حينما ضُبط مع عاهرة فى أحد الموتيلات).

بالنسبة لبلاكووتر، كان كاترينا لحظة زخمة بالغة الأهمية -أول انتشار رسمى لها على أرض الولايات المتحدة. وعلى حين أنها اقتنصت أرباحا ضخمة نظير عملياتها فى الكوارث الداخلية، فقد كان اقتحامها سوقا جديدا مربحا لعمليات مرتزقتها هو الفائدة الكبرى -بعيدا عن عمليات إراقة الدماء بالعراق. وكما لاحظت فرجينيان

بايلوت، التى تتعقب بلاكووتر دائما، فقد مثلت أعاصير ٢٠٠٥ «سدادة محتملة لثقب فى نموذج بزينس بلاكووتر. تزدهر الشركات العسكرية الخاصة على الحروب -وهى حقيقة باردة من المحتمل لها تمزيق أحشاء تلك الصناعة المزدهرة حالياً حينما تستقر - أو إذا -استقرت الأمور بالعراق. أتاح إعصار كاترينا الفرصة لبلاكووتر لتنويع مجال عملها ليشمل الكوارث الطبيعية». قال إريك برينس إنه قبل كاترينا «لم يكن لدنيا أى خطط للدخول فى بيزنس الأمن الداخلى أبدا». لكن، فى أعقاب الإعصار، اقتحمت بلاكووتر قسما جديدا للعمليات الداخلية. قال سيموس فلاتلى، ممثل القسم الجديد، وهو ربان مقاتلة بحرية متقاعد «انظروا، لا يُحب أى منا فكرة أن تصبح الكوارث فرصة للبيزنس. إنها حقيقة غير مستساغة، لكنها حقيقة. يتربح الأطباء، المحامون، القائمون على شئون الجنازات، وحتى الصحف -يتربحون جميعهم من الشرور التى تحدث. وهكذا نفعل، لأنه لابد أن يعالج أحد الموقف».

لكن النقاد رأوا فى انتشار قوات بلاكووتر داخليا سابقة خطيرة بإمكانها تقويض الديموقراطية. قال راتنر من جماعة الحقوق الدستورية «بإمكان أفعالهم ألا تخضع للحدود الدستورية التى تنطبق على المسئولين والعاملين الفدراليين وبالولايات -بما فى هذا الحقوق التى كفلها التعديلان الأول والرابع للشعب بعدم الخضوع للتفتيشات والتوقيفات غير القانونية. وبخلاف ضباط الشرطة فإن (قوات المرتزقة) غير مدربة على حماية الحقوق الدستورية. هذه المجموعات الميليشياوية تستحضر إلى الأذهان فرق القتل النازية، وتعمل كآلية فرض قوانين خارج سياق الإجراءات القضائية باستطاعتها العمل خارج نطاق القانون. استخدام هذه الجماعات الميلشياوية تهديد خطير لأقصى حد لحقوقنا».

بلاكووتر والحدود:

إحدى الخاصيات التى تبديها بلاكووتر يو إس إيه باتساق، هى قدرتها الخارقة على التواجد فى المكان الصحيح وفى اللحظة المناسبة -خاصة حينما يتعلق الأمر باقتناص تعاقدات حكومية مدرة للأرباح الهائلة. وكأبعد ما يكون هذا عن كونه مجرد

ضربات حظ، فقد كرست الشركة موارد كبيرة لتوجهات الرصد في عالم فرض القوانين والعمليات العسكرية، واستأجرت العديد من الشخصيات الشبحية التي كانت تثير الرعب سابقا من ذوى الصلات الجيدة، مسئولين فدراليين، وضباط جيش من كبار الرتب السابقين. ومثل أفضل المقاولين المغامرين المنظمين للمشاريع، تسعى بلاكووتر دائما إلى ما تسميه عقود «تسليم مفاتيح» لحل مشاكل بيروقراطية الحكومة العليلة، أو لملء ما يبدو وأنه فجوات لا تنتهى فى «الأمن القومى» والتى أخذت فى الظهور فى أعقاب «الحرب على الإرهاب». برهنت بلاكووتر، فى السنوات التى تلت ٩/١١، على مهارتها اللافتة على وضع نفسها وسط معارك أثيرة عديدة كانت الإدارة (واليمين بعامة) تشنها: الخصخصة السريعة للحكومة، احتلال العراق وأفغانستان، ودعم البزينسات المسيحية/الجمهورية الصديقة. وعلى حين أن الأعاصير قد سارعت ببرنامج بلاكووتر المحلى، فلم تكن تلك، بأى حال هى المرة الأولى التى فكرت فيها الشركة فى الأرباح الهائلة الممكن اقتناصها من الجبهة الداخلية.

وحقا، ففى أواسط ٢٠٠٥، قبل ثلاثة أشهر من كاترينا –وفى وجود قواتها متخندقة بصلابة بالعراق، وقيمة الفواتير التى تُسدَّد بأموال دافعى الضرائب تسرع مباشرة من واشنطون دى سى إلى مويوك– ألقت بلاكووتر، بهدوء، قبعتها فى حلبة إحدى كبرى الجبهات الأخرى: الهجرة و«أمن الحدود». بعد إطلاق «الحرب على الإرهاب»، استغلت المجموعات المعادية للهجرة الخوف من مزيد من الهجمات للضغط من أجل عسكرة حدود الولايات المتحدة –وفى وجود دعوة البعض إلى إقامة جدار هائل يمتد مئات الأميال بطول الحدود الأمريكية/المكسيكية– ثم «اتخاذ إجراءات صارمة» ضد الأشخاص الذين يوصفون بأنهم «غرباء غير قانونين».

فى إبريل ٢٠٠٥، رُوِّج بشدة لقضية معاداة –المهاجرين وتأييداً للحدود– المعسكرة فيما اندفعت إلى المشهد بقوة فيالق مشروع ميليشيات Minutemen للدفاع المدنى. نظمت تلك الحركة ذات الغالبية البيضاء الساحقة ميليشيات معادية

للمهاجرين لحراسة حدود الولايات المتحدة مع المكسيك. أعلن رجال -Minute men، الذين أسموا أنفسهم باسم الميليشيات التى حاربت فى الثورة الأمريكية، أعلنوا عن أنفسهم بصفتهم «أمريكيين يؤدون المهمات التى لا تريد حكومتنا القيام بها». زعموا أن لديهم مئات من المتطوعين من سبع وثلاثين ولاية، ومن بينهم كثير من ضباط الجيش وضباط فرض القوانين السابقين بالإضافة إلى طيارين سيقومون بمراقبة جوية.

بدأ أحد حلفاء بلاكووتر الرئيسيين بالكونجرس، النائب دانكان هنتر، بمصاعدة حملته من أجل «جدار حدودى» هائل، فيما صادق رئيس إريك برينس السابق، النائب دانا رو هرباتشر على ميليشيات Minutemen، قائلا إن الميليشيات «قد برهنت على تأثيرات إيجابية فى تواجدها المتزايد على الحدود جنوب الغربية. ولا سبيل إلى إنكار أن زيادة أفراد حرس الحدود سيخلق حدودا أقوى ويقلص عدد عمليات العبور غير المشروعة التى قد تضم إرهابيين دوليين». ردد تى جيه بونر رئيس «مجلس حراسة الحدود القومية» -منظمة لوبيهات- ردد هذه المشاعر، مستدعيا هجمات ٩/١١. قال «حتى إذا كان الإرهابى واحداً من بين مليون، وفى وجود ملايين عديدة تدخل إلى البلاد كل عام، فسرعان ما سيصلون إلى الكتلة الحاسمة الضرورية لتنفيذ هجوم آخر بحجم ما حدث فى ٩/١١. هذا غير مقبول بإطلاقه من وجهة نظر أمن الوطن والأمن القومى. علينا ضبط الأوضاع على حدودنا».

وفى الكونجرس، استغل العملاء الجمهوريون الفرصة لتصعيد الحملة المعادية/للهجرة، المؤيدة للخصخصة، والمؤيدة للعسكرة، وللدفع بأجندة لم يكن لها أن تحظى بشعبية قبل ٩/١١. والآن، وفرت الهستيريا القومية الحلبة لمناسبة لشن المعركة. وسط هذه الأجواء، مرر مجلس النواب فى ١٨مايو ٢٠٠٥ مشروع القانون الأول لتفويض وزارة الأمن الداخلى، الذى سمح باستئجار حوالى ألفين من أفراد حرس الحدود. وفى ٢٤ مايو عقدت اللجنة الفرعية فى مجلس النواب لإدارة ودمج

الأمن الداخلى والإشراف عليه، عقدت جلسة استماع عن تدريب أفراد الحرس الجدد هؤلاء. بدا وأن أحد الأهداف المركزية لجلسة الاستماع هو دعم إيكال برنامج التدريب الأوسع للقطاع الخاص بموجب تعاقدات.

تشكلت المجموعة الأولى فى جلسات الاستماع من مسئولين حكوميين من إدارة الهجرة. مثلت المجموعة الثانية الصناعات الخاصة. لم يكن سوى متحدثَيْن اثنين عن تلك المجموعة: تى. جيه. بونر وجارى جاكسون. قال بونر للجنة الاستماع «نحن بحاجة ماسة لدعم (حرس الحدود)، ونحن بحاجة إليه منذ أمس. ثمة حاجة صارخة جلية لمزيد من أفراد الحراسة، الأمر الذى تشهد عليه الدعوة إلى مجموعات حراسة من المواطنين، حراسة عسكرية على الحدود. من الواضح أننا لا نؤدى مهمتنا. علينا إنفاق أى مبلغ يتكلفه هذا، ولا نحاول إنجازه بكلفة رخيصة. لا يجوز أن نحاول التفكير فى كيفية تخفيض النفقات كى نستأجر أكبر عدد ممكن ممن يقومون بحراسة الحدود، لكن علينا إنفاق أى مبلغ لدعم هؤلاء الرجال والنساء بحيث يستطيعون الذهاب هناك». بدأ جاكسون شهادته باستعراض موجز انتقائى لتاريخ بلاكووتر. قال إن الشركة أنشئت «من خلال رؤية واضحة للحاجة إلى تدريب مبتكر مرِن وحلول أمنية تدعم تحديات الأمن القومى والكوكبى. كان كل من الجيش ووكالات فرض القوانين بحاجة إلى قدرة إضافية لتدريب العاملين بها إلى المستويات المتطلبة لجعل بلدنا آمنا. ونظرا لأن تلك القيود على أماكن التدريب استمرت فى التزايد، اعتقدت بلاكووتر أن حكومة الولايات المتحدة لا بد وأن تتبنى التعاقدات من أجل تدريب عالى الجودة.

أقمنا مرفق بلاكووتر بكارولاينا الشمالية لتوفير الطاقة والقدرة التى اعتقدنا أن حكومتنا ستحتاجها للوفاء بمتطلبات التدريب المستقبلية. وبمرور السنوات لم تصبح بلاكووتر فقط قائدة فى صناعة التدريب، بل منطلقاً جديداً مليئاً بالابتكارات فى هذا المجال». قال جاكسون إنه فيما تنامت الشركة «أدركنا سريعا القيمة التى تقدمها للحكومة من أجل التسوق من مكان واحد. فعلى حين أن ثمة شركات أخرى تقدم

خدمة أو خدمتين للتدريب المتميز، فلا تقدم أى منها جميع خدماتنا، وبالتأكيد ليس فى موقع واحد». قال جاكسون إن أهمية هذا «لا يمكن المبالغة فيها. فإن استطاعتك القيام بالتدريبات فى موقع مركزى هو أكثر الأساليب المجدية من حيث توفير التفقات التى تضمن أن يتدرب أفراد فرق فرض القوانين الفدرالية الجدد إلى المستوى الذى تطلبه تحديات اليوم الأمنية القومية والداخلية».

شن ممثل ألاباما الجمهورى، مايك روجرز، الذى ترأس جلسة الاستماع بالكونجرس، هجمة شرسة على تكاليف برامج التدريب الحكومية لحرس الحدود، وقال «إن تكلفة تدريب ضابط حرس حدود فى برنامج يستغرق عشرة أشهر ستزيد على ما تتكلفه أربع سنوات يقضيها الطالب بجامعة هارفارد للحصول على شهادة جامعية». سأل روجرز: إذا أعطيت بلاكووتر ١٠٠٠٠٠ دولار عن تدريب كل ضابط، هل تعتقد الشركة «أنها ستمنحهم تدريباً يماثل التدريب الذى يتلقونه أم تدريبا أرفع مستوى من برنامج تدريب الحكومة الفدرالية؟» أجاب جاكسون مسرعا «يمكننى أن أؤكد لك ذلك». أبلغ المشرعين أن باستطاعة بلاكووتر تدريب عدد الألفين من أفراد حرس الحدود الجدد، جميعهم فى عام واحد. قال جاكسون «تتولى بلاكووتر إدارة شراكة عامة/خاصة مماثلة مع وزارة الخارجية لتجنيد، تدريب، نشر وإدارة إخصائيين فى الأمن الدبلوماسى بالعراق وفى مجالات اهتمام أخرى. إن ضمان أمن حدودنا سيستمر يمثل تحديا لأمتنا. إن الأهمية المُلحة جلية. يبين التاريخ، تكرارا، أن الإبداع والكفاءة هما ما يغير التوازن الاستراتيجى، وتقدم بلاكووتر كلا منهما لدعم تدريب ضباط حراسة الحدود الجدد. وكما استجاب القطاع الخاص لنقل البريد والطرود حول العالم بأسلوب أكثر كفاءة، تستطيع بلاكووتر إحداث نقلة مماثلة فى حراسة الجمارك والحدود بحيث تستجيب لاحتياجات التدريب المفروضة التى تظهر».

وبعد بضعة أيام، حملت نشرة بلاكووتر الأسبوعية Tactical Weekly العنوان الرئيسى «على حرس الحدود التفكير الجدى فى التعاقدات الخارجية للتدريب، يقول

أحد النواب». جاء بالمقال من صحيفة فدرال تايمز أن «عضو الكونجرس روجرز قال إنه قد يتعين على الحكومة الالتجاء إلى بلاكووتر يو إس إيه أو متعاقد آخر، إن كان بإمكانهم القيام بالمهمة بتكلفة أقل: لدينا التزام توكيلى لدافعى الضرائب للبحث عن خيارات أخرى».

فى نوفمبر ٢٠٠٥، أقامت بلاكووتر والصليب الأحمر الأمريكى مناسبة (مشتركة لجمع التبرعات «لإغاثة منطقة الخليج (نيوأورلينز)» والتى اكتملت معها على المستوى الرمزى، دائرة تعاقدات بلاكووتر المتنوعة. كان المتحدث الرئيسى، الذى لاقى حفاوة حماسية من الجمهور الذى وقف لتحيته، هو عميل بلاكووتر الأثير فى الماضى، إل بول. برمر، الذى كان كتابه عن العراق قد نُشِر لتوه. زعمت بلاكووتر أنها جمعت فى تلك الليلة ١٣٨٠٠٠ دولار- أقل بحوالى ١٠٠٠٠٠ دولار مما كانت تُحصله الشركة يوميا من كنز كاترينا. قال جارى جاكسون «كانت الليلة ناجحة لأنها كانت عن أمريكيين يساعدون أمريكيين آخرين» مُردِّدا بذلك ما كان قد أصبح ترنيمة بلاكووتر الجديدة. أضاف «مكننا عاملونا العظام، علاقتنا الخاصة مع السفير برمر والصليب الأحمر من إنجاز هذه المناسبة رغم الصعوبات». كانت المناسبة شبيهة بتهليل صناعة التبغ لإسهاماتها الواهية فى الحملات المعادية للتدخين، فى الوقت الذى تقوم فيه بالتسويق الضارى لسجائرها بموارد مضاعفة أسياً. وفى الواقع، فقد تربحت بلاكووتر من الإعصار أكثر كثيرا كثيرا مما أفاده ضحايا الإعصار بنيوأورلينز من خدمات بلاكووتر.

استغل الرئيس بوش كارثة كاترينا فى محاولة لإلغاء قانون استخدام قوة البلاد المحاربة Posse Comitatus Act (حظر استخدام قوات جيش الولايات المتحدة كقوات فرض قوانين داخلية). وبادرت بلاكووتر وشركات أمن أخرى بالضغط من أجل وضع قواتها قواتٍ دائمة على أرض الولايات المتحدة، وبذلك تستحضر الحرب إلى الداخل بأسلوب منذر آخر. قال أحد مرتزقة بلاكووتر فى نيوأورلينز «قد أصبح هذا توجها. سترى أشخاصا مثلنا بأعداد أكبر كثيرا فى أوضاع كهذه». كانت

بلاكووتر آنذاك قد رسخت وضعها ليس فقط كأحد أكبر المستفيدين من «الحرب على الإرهاب» بل أيضا كلاعب رئيسى فى مجالات كثيرة لأجندة المحافظين الجدد. فى الذكرى الأولى لإعصار كاترينا، استغل جارى جاكسون المناسبة كفترينة عرض لخدمات بلاكووتر. كتب قائلا «حينما اتصلت وزارة الأمن الداخلى تطلب حلاً أمنيا عاجلا ملحا شاملا لكوادر فدرالية متعددة، استجبنا، إن مشروع الاستجابة السريعة، الخاص بنا له مدى نفوذ كوكبى وباستطاعته إحداث فرق إيجابى فى حياة الذين يتأثرون بالكوارث الطبيعية والأحداث الإرهابية».

وبُعيد أن بدأت أرباح بلاكووتر من كاترينا فى التدفق، أرسل إريك برينس مذكرة مكتوبة على أوراق «برينس جروب» إلى كل المسئولين، العاملين والمقاولين المُستقلين ببلاكووتر يو إس إيه». موضوعها: «قَسم بلاكووتر يو إس إيه القومى ومعايير قيادتها». تطلب المذكرة من العاملين ببلاكووتر أداء نفس القَسم على الدستور مثل «عملاء (بلاكووتر) ممن لهم صلة بالأمن القومى» أن «أدعم، وأدافع عن دستور الولايات المتحدة ضد كل الأعداء جميعهم، الأجانب والمحليين... وليساعدنى الرب».

الانهيار المُدوّى

فى يناير ٢٠٠٦، وفيما مضت بلاكووتر تتمتع بالسيل المتدفق من إعصار كاترينا، سقطت مؤسسة اللوبيهات التى تعمل لحسابها، أى ألكساندر ستراتيجى جروب

ASG وسط لهيب فضيحة جاك أبراموف، الذى يمارس أعمال اللوبيهات. كان أبراموف عضوا فى «الفريق الانتقالى» عام ٢٠٠١ للرئيس بوش، وكان أحد ذوى السطوة الذين يمارسون الضغط والمناورة، ورفيقاً مقرباً لمعظم اللاعبين السياسيين النافذين فى الولايات المتحدة. فى مارس ٢٠٠٦، وبعد أشهر من الكشوفات المتواصلة عن أنشطة أبراموف لبيع النفوذ، انتهى به الأمر بالاعتراف بأنه مذنب بالنسبة لخمسة من الدعاوى الجنائية فى واحدة من أكبر فضائح الفساد فى تاريخ واشنطون الحديث. كانت ألكساندر ستراتيجى جروب ASG واحدة من الكيانات التى أصابتها نيران فضيحة أبراموف. كانت شركة اللوبيهات الجمهورية الكبيرة

ذات الصلات الجيدة تلك، والتى أسسها وأدارها رئيس المسيئولين عن التعيينات بمكتب قائد الغالبية السابق بمجلس النواب طوم ديلاى، كانت متورطة بعمق فى فضائح عديدة أخرى زلزلت واشنطون آنذاك. وفيما كان أبراموف فى طريق هبوطه إلى القاع، تدافع أعضاء لوبيهات ASG مذعورين، يبذلون محاولات محمومة للنأى بأنفسهم عن السفينة الغارقة.

كان من الصعب، قبل آنذاك بأشهر قلائل، التنبؤ بسقوط ASG. تمتعت الشركة بازدهار عام ٢٠٠٥، وجاء ترتيبها بين أول خمسة وعشرين جهازا من أجهزة اللوبيهات وفقا لناشونال جورنال، بعائدات ترتفع بثبات -حوالى ٣٧٪ فى عام واحد، حتى وصلت الزيادة فى دخلها إلى ٨مليون دولار من الكيانات التى أسمتها الواشنطون بوست «القائمة «A» لحوالى سبعين شركة ومنظمة». وبالإضافة إلى الشركات النافذة من أمثال PhRMA، إنرون، تايم ووِرنر، مايكروسوفت، وإلى ليلى، أحصت ASG بين عملائها لسنوات طويلة العديد من القائمين على القضايا والمنظمات المسيحية الإنجيلية والتبشيرية الصليبية ومن بينها عمليات إعلامية يمينية مثل «Salem Communi Catians»، و«الإذاعات الدينية»، و«أنباء البشارة». كانت ASG أيضا تبذل جهودا سرية للحصول على تعاقدات عسكرية مربحة لبعض عملائها. وفى وقت سقوطها، كانت ASG تحتل مكانا بارزا فى صناعة كانت الأسرع تناميا داخل عالم العسكرة -أى الأمن الخاص. وكان الفضل فى هذا يرجع إلى حد كبير، إلى العلاقة، ومنذ وقت طويل، بين بهرندز، الشريك فى ASG، وإريك برينس، مالك بلاكووتر.

وعلى حين أن بهرندز كان يمارس أعمال الضغط والمناورة لصالح برينس، تقريبا منذ اللحظة الذى ابتدأ فيها البرينس، فإن المساعدة الرئيسية التى قدمها بهرندز أتت فى أعقاب كمين الفلوجة عام ٢٠٠٤ مباشرة. فى نوفمبر ٢٠٠٥، حينا بدأت بلاكووتر وشركات الأمن الأخرى تضغط من أجل إعادة قولبة صورتها كشركات مرتزقة تحت راية «رابطة عمليات السلام الدولى» (IPOA)، أى رابطة تجارة المرتزقة، كان

بهرندز وASG هما من لجأت إليهما الرابطة للمساعدة على إنجاز هذا. بين هؤلاء الذين سجلتهم ASG للقيام بأعمال الضغط لحساب رابطة IPOA، كان للعديد ممن عملوا سابقا فى مكتب ديلاى، ومن بينهم إد بكهام وكارل جالانت اللذان ترأسا، سابقا مجموعة ديلاى ARMPAC، وطونى رودى، مستشار ديلاى السابق، والذى اعترف بأنه مذنب فى مارس ٢٠٠٦، فى تهمة بالتآمر لإفساد المسئولين العموميين، والاحتيال على العملاء. من الشائق أن رودى كان قد عمل أيضا مع بهرندز فى مكتب النائب دانا روهرباتشر فى مطلع التسعينيات –ذات الوقت الذى زعم إريك برينس أنه قد عمل هناك كمحلل دفاع. ووفقا لمكتب روهر باتشر، فقد كان برينس، فى الواقع، متدرباً دون راتب. ظل روهرباتشر مدافعا متحمسا عن أبراموف، الذى كان قد التقاه للمرة الأولى حينما كان أبراموف أحد قادة الجمهوريين الجامعيين وكان روهرباتشر مساعدا لريجان. حينما صدر الحكم على أبرام عام ٢٠٠٦، كان روهرباتشر عضو الكونجرس الوحيد الذى كتب إلى القاضى الذى أصدر الحكم يطلب منه الرأفة. قال «كان جاك وطنيا إيثاريا معظم الوقت الذى عرفته فيه. كان همه الأول والأهم هو حماية أمريكا من أعدائها. مؤخرا فقط، استفاد من التعاقدات التى كان يقوم بها من منطلق جهوده المثالية».

تمكن برينس، نفسه، من تفادى التفحص، على الرغم من روابطه مع رودى وصلاته بأبراموف. منح «صندوق إدجار وإلسابرينس» الذى كان إريك نائب رئيس مجلس إدارته، ووالدته رئيسته، منح «Toward Tradition»، وهى منظمة وصنّفت نفهسا على أنها «تحالف قومى لليهود والمسيحيين المكرسين لمكافحة المؤسسات العلمانية التى ترعى التعصب المعادى للدين، وتهدد مستقبل أمريكا»، منحها الصندوق ١٣٠٠٠٠دولار على الأقل. كان أبراموف رئيس مجلس المنظمة التى كان يديرها صديقه، منذ القدم، الحاخام دانييل لابين حتى عام ٢٠٠٠، وظل فى مجلس إدارتها حتى عام ٢٠٠٤. طفت «منظمة» Toward Tradition فى الدعوى القضائية ضد أبراموف بصفتها «كياناً غير ربحى» الذى من خلاله «منح أبراموف أشياء ذات قيمة.. بقصد التأثير.. فى قرارات رسمية». تبرع كل من عميلى

أبراموف: Elottery، وهى شركة قُمار بالإنترنت، وشركة مجازين بابليشرز أوف أمـريكا بمبلغ ٢٥٠٠٠ دولار لمنظمـة «Toward Tradition». ثم تم دفع مبلغ الخمسين ألف دولار إلى ليسا، زوجة رودى، على أقساط كل منها ٥٠٠٠ دولار نظير خدمات استشارية. آنذاك، كان رودى نائب رئيس العاملين بمكتب ديلاى، وكان يساعد شركة Elottery للتصدى لمشروع قانون يحظر القمار بالإنترنت، ويساعد مجازين بابليشرر أوف أمريكا على منع الزيادة فى أسعار البريد.

ورغم فضيحة ASG فى مطلع ٢٠٠٦، أبلغ دوج بروكس رئيس IPOA، صحيفة رول كول أن الروابط مع بهرندز ستتواصل، قائلا إن IPOA وجدته «مفيدا ومتعاونا فى ما نحاول تحقيقه». وفيما حاولت جماعات ضغط ASG جاهدة إقامة مؤسسات ومكاتب جديدة بأسماء جديدة، وجاهد عملاؤها كى ينأوا بأنفسهم عن الفضيحة، بدأ بهرندز يعمل مع شركة COM Capital Link، وهى ذراع مكتب المحاماة النافذ Cromwella Moring، وكان بهرندز قد عمل مع تلك الشركة سابقا لحساب بلاكووتر، فى عام ٢٠٠٤، إلا أن البعض تساءل عن استئجار رجل لوبيهات ذي صلات بديلاى. قال جون ثورن رئيس شركة CeM Capital «لقد قمنا بما يجب علينا وأدينا ذلك بكل اجتهاد. سُمعة بهرندز راسخة. قال جميع من تحدثنا إليهم إنه لم يعد على علاقة البتة بذلك البيزنس». لكن بهرندز لم يكن قد تخلى عن بزينس المرتزقة بعامة، أو عن رهانات بلاكووتر فيه بخاصة. كانت الرابطة بين رجل اللوبيهات النافذ وبرينس من القوة بحيث لم يكن لها أن تتأثر بمجرد فضيحة سياسية. علاوة على ذلك، فقد تبدت فى الأفق المزيد من المشاريع الكبرى.

كانت الشركة على وشك توسيع مدى نفوذها الكوكبى وشهيتها للتعاقدات الدولية، بطرحها قواتها قوات حفظ سلام محتملة فى أماكن مثل دارفور –إحدى مناطق الأزمات التى تقع فى ملعب كوفر بلاك القديم، أى السودان. وبعد ثمانى سنوات من بدايات بلاكووتر كمؤسسة منعزلة، غدت الشركة لاعبا رئيسيا فى ثورة المحافظين الجدد، ومضت تعمل زمّاراً أرقط لحركة إعادة تصنيف المرتزقة الجُدد.■

19

الفصل التاسع عشر

فرسان المائدة المستديرة

في الوقت الذى استقال فيه وزير الدفاع دونالد رمسفلد فى نهاية ٢٠٠٦، كان حقا، وكما أعلن الرئيس بوش، قد أشرف «على أكبر تحول شامل فى وضعية القوة الكوكبية الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية». وبحلول آخر يوم له فى منصبه، كاد معدل جنود الولايات المتحدة الميدانيين، مقارنة بالمقاولين الخاصين **المنتشرين بالعراق، أن يكون** واحدا إلى واحد، وهو بند إحصائى غير مسبوق فى **الحروب الحديثة. أسمى ديك** تشيني، **نائب الرئيس،** رمسفلد «أفضل وزير دفاع عرفته الأمة». وهذا الثناء الصادر عن تشيني، مفهوم. ففى ظل تولى رمسفلد وزارة الدفاع تنامت خطة خصخصة الجيش الدراماتيكية التى أُطلقت حينما كان تشيني وزيرا للدفاع أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١، بدرجة تفوق أكثر توقعاته جموحا، وغيَّرت، إلى الأبد، الأسلوب الذى تشن به الولايات المتحدة حروبها. لكن، وعلى الرغم من المستوى غير المسبوق لتورط القطاع الخاص فى ساحة الحرب، لم يحدث، إلا نادرا، أن تمدد جيش الولايات المتحدة إلى هذه الدرجة من الوهن، أو واجه أوقاتا أكثر خطرا. أرهق احتلال إدارة بوش للعراق وأفغانستان قوات

الولايات المتحدة إلى درجة دفعت كولن باول، وزير الخارجية السابق إلى أن يُعلن فى نهاية ٢٠٠٦ أن «الجيش الميدانى يكاد يكون قد تبدد». ووسط مثل هذا التعليق الصادم من أحد أبرز شخصيات البلد العسكرية، أعلن الرئيس بوش عزمه على زيادة حجم القوات الأمريكية المسلحة «لتنظيم جيشنا بحيث يكون مُعداً للاستمرار فى خوض حرب طويلة». دعا بوش، فى خطاب حالة الاتحاد عام ٢٠٠٧، إلى زيادة قدرها ٩٢٠٠٠ جندى ميدانى خلال خمس سنوات واقترح تشكيل قوة احتياط مدنية لتكملة قوات الولايات المتحدة الرسمية.

وعلى حين أن «استنزاف» جيش الولايات المتحدة كان، دونما شك، نتيجة سياسات الإدارة العدوانية وعمليات احتلالها، المرفوضة، لبلدان أخرى، بدت القيادات الديموقراطية الجديدة بالكونجرس التى اكتسحت طريقها إلى السلطة فى نوفمبر ٢٠٠٦، بدت على أتم الاستعداد لمسايرة تطلعات بوش لزيادة حجم الجيش، بدلا من مساءلة شهيته النهمة للغزو التى جعلت من هذه الزيادة ضرورة. من بين تلك القوى التى ارتاحت إلى ذلك

الوضع كانت تلك التى حققت أرباحا كبرى من الحرب على الإرهاب -أى شركات صناعات الحرب. لم يحقق سوى القلة قدر المكاسب التى حققتها بلاكووتر يو إس إيه فى سنوات بوش، وباستثناء القلائل أيضا، لا يتطلع أحد إلى اقتناص قدر الأرباح التى ستجنيها تلك الشركة من مسلك الولايات المتحدة فى المستقبل. يعلم إريك برينس هذا وحقا، فقد عرض علاجا خاصا به لمأزق أعداد أفراد الجيش -أى خلق «لواء المقاولين». أكد برينس فى تعليق له على خطة زيادة عدد قوات الجيش الرسمى بقوله «بإمكاننا بالتأكيد تحقيق ذلك بتكلفة أقل». وهذه كلمات رجل أشعره نجاحه بالقوة والتمكن، رجل واثق من مستقبله. كلمات رجل يملك جيشه الخاص. رجل حيّته صحيفة المحافظين الجدد، ويكلى ستاندارد بصفته «ألف وياء تعاقدات الجيش».

وفى الفترة منذ أن بدأت بلاكووتر عام ١٩٩٧ كميدان رماية بالقرب من أرض المستنقعات الكبرى بكارولاينا الشمالية، فقد نمت لتصبح أقوى جيش خاص فاعل على المشهد الدولى. عام ٢٠٠٦، كان لدى بلاكووتر ٢٣٠٠ جندى خاص منتشرين فى تسعة بلدان حول العالم وتباهت بقاعدة بيانات تضم ٢١٠٠٠ مقاول إضافى تستطيع استدعاءهم فور الحاجة إليهم. عام ٢٠٠٦، علق أحد أعضاء الكونجرس بالقول، إنه فيما يتعلق بالقوة العسكرية، فإن بإمكان الشركة الإطاحة بعديد من حكومات العالم بمفردها. والآن، غدا مرفقها بمويوك، كارولاينا الشمالية، الذى يبلغ مساحته ٧٠٠٠ فدان، أكثر مركز عسكرى خاص تطورا فى العالم، فيما تمتلك الشركة أكبر المخزونات الخاصة من الأسلحة الثقيلة. كما أنه مركز تدريب أساسى لقوات الأمن والجيش المحلية بالولايات المتحدة، وأيضا للقوات الأجنبية والأفراد. تبيع منتجاتها الخاصة من أنظمة الاستهداف ومركباتها المدرعة. يُرحِّب مقر الشركة المقام على ٦٠٠٠٠ قدم مربع والذى صُنعت مقابض أبوابه من فوهات الأسلحة الآلية، بالزوار من جميع الأنحاء. كما أنه فى سبيله إلى تطوير مناطيد مراقبة ومهابط طائرات لأسطوله الجوى الذى يشمل مروحيات مدفعية.

تقيم بلاكووتر مرافق لها فى إلينوى (بلاكووتر نورث) وكاليفورنيا وبلاكووتر وست،

وأيضا مركز تدريب بالغابات بالفلبين يقع فى قاعدة الولايات المتحدة البحرية السابقة بخليج سوبيك، التى كانت أكبر قاعدة عسكرية أمريكية فى آسيا. تحوز الشركة مئات الملايين من الدولارات بعقود مع حكومة الولايات المتحدة، من بينها العقود «السوداء» التى يُحتفظ بها بعيدا عن الأنظار، وبدأت فى حملة تسويق ضارية للتعاقد مع كبرى الشركات. للشركة أيضا روابط عميقة مع الاستخبارات الأمريكية وأجهزة الدفاع وقد غدت حارس الإدارة الإمبراطورى فى حربها على الإرهاب. وعلى حين أنه من المحتمل أن مدراء بلاكووتر التنفيذيين كانوا يصبُون، فى البداية، إلى أن يصبحوا أحد أجنحة الجيش الأمريكى -مثل المارينز أو القوات المسلحة- إلا أن الشركة الآن، وقد تملكها دوار نجاحاتها، لم تعد ترضى بالتبعية للولايات المتحدة. ففيما أنها مازالت تُبقى على عهد الولاء والوطنية، تحاول بلاكووتر أن تصبح جيشا مستقلا، ينتشر فى مناطق النزاع، بديلا لقوات الناتو أو الأمم المتحدة، جيشا لا يحاسبه سوى مُلاَّك بلاكووتر، لا الأمم الأعضاء.

أحلام دارفور:

فى نهاية مارس ٢٠٠٦، استقل كوفر بلاك الطائرة إلى عمّان، حيث مثّل بلاكووتر فى واحد من أوائل بازارات الحرب فى العالم، أى معرض ومؤتمر قوات العمليات الخاصة (SOFEX). كان هناك أكثر من مائتى شركة تتراوح بين مُصنّعى عتاد، وتجار أسلحة إلى مستشارين ومدربين عسكريين، إلى فرق مرتزقة كاملة تعرض بضائعها وخدماتها على الحكومات الثرية من أنحاء الشرق الأوسط، شمال أفريقيا والعالم. تباهى المُنظمون أن SOFEX «هو المعرض والمؤتمر الرئيسيان فى العالم لقوات العمليات الخاصة، الأمن الداخلى، قوات مكافحة الإرهاب والأمن، يقومان على خدمة سوق الدفاع الكوكبى». سرعان ما أصبح الشرق الأوسط، بعد الحرب الباردة أحد أكثر الأسواق الجوعى، فى العالم، إلى التجهيزات العسكرية والخدمات التدريبية، وكان هذا المؤتمر، الذى يُعقَد مرة كل عامين، فرصة قيّمة للقادة والمخططين العسكريين ليفحصوا ويشتروا أحدث ما لدى مقاولى الحرب الدوليين وتجار السلاح من سلع. كان الحضور هم وفود

عسكرية من اثنتين وأربعين دولة وأكثر ٧٥٠٠ زائر من أنحاء الكوكب. وكما تباهت المواد الدعائية للمؤتمر بأن «الشرق الأوسط، بزغ فى العقد الأخير، كأكبر منطقة فى العالم تستورد تجهيزات الأمن والدفاع العسكرية، وتمثل حوالى ٦٠٪ من الإتفاقات الكوكبية على الدفاع». وكأنما ليُضفى على الأمر مظهر مشروعية إضافية، روّج عامر طابة، مدير المؤتمر لحقيقة أن SOFEX قد «صادقت عليه وزارة التجارة الأمريكية.. الأمر الذى يوضح الثقة الكوكبية والعقيدة التى يؤمن بها الكثيرون».

كان راعى مؤتمر SOFEX أحد أوثق حلفاء الرئيس بوش العرب، العاهل الأردنى الملك عبدالله الثانى. وخلافا لوالده الملك حسين الذى عارض حرب الخليج عام ١٩٩١، فإن عبدالله، الذى تعلم بالولايات المتحدة وبريطانيا، أمد الإدارة الأمريكية بدعم رئيسى فى الإعداد لغزو العراق وتنفيذه. أيضا، كانت الأردن نقطة انتقال رئيسية وأرض انطلاق للشركات الكبرى التى تعمل فى خدمات الحرب وتدعم الاحتلال فى العراق المجاورة. ومثل البيت الأبيض، طورت بلاكووتر علاقات خاصة مع الأردن، وفتحت مكتبا لها فى عمان فى وقت مبكر من احتلال العراق. ومنذ أن خلف الملك عبدالله والده المتوفى، عمل جاهدا على تحديث وغربنة قدرات جيش الأردن والارتقاء به كقوة تلعب دورا بارزا فى المنطقة. وحينما قرر الملك عبدالله -والذى كان سابقا قائدا للعمليات الخاصة- أن يُنشئ، فى عام ٢٠٠٤، وحدة قوات خاصة جوية مضادة للإرهاب، استأجرت الأردن بلاكووتر للقيام بتدريب القوة النخبوية. بيد أن وزارة الخارجية الأمريكية أوقفت العقد بسبب أحكام ضبط التصدير التى تخضع لها الطبيعة الحساسة لتدريب قوات عسكرية أجنبية. إلا أن الملك عبدالله زار واشنطون عام ٢٠٠٤ وأثار قضية عقد بلاكووتر المُعطَّل مع كل مسئولى أمريكى التقاه. وبعيد ذلك، صادقت إدارة بوش على تنفيذ العقد. يقضى هذا العقد أن تتلقى الوحدة الأردنية تدريبات فى تشغيل طائرات الهجوم المروحية المختلفة المُعدة عسكريا، مثل طائرات بلاكهوك وهيوز MD500، للاستخدام فى العمليات المضادة للإرهاب، الهجمات الجوية السريعة، والاستطلاع الاستباقى. قالت الأردن إنها ستدفع نفقات التدريب من البليون دولار التى تتلقاها سنوياً كمساعدات عسكرية من الولايات المتحدة. قال إريك برينس «أتانا الأردنيون. استأجرونا للمساعدة فى بناء

كتائبهم الخاصة، لتعليمهم الطيران ليلا باستخدام المناظير، ولتنفيذ عمليات بالطائرات المروحية».

وتصديقاً على توجه عبدالله لإعادة بناء الجيش الأردنى، أكد مسئولون فى المملكة، قبيل انعقاد مؤتمر SOFEX أنهم قد أتموا التخطيط لما أسموه «مركز عبدالله لتدريب قوات العمليات الخاصة» بالأردن، وهو مشروع تكلفته ١٠٠مليون دولار، تُموّله أيضا الولايات المتحدة. قال الملك عبد الله إن سلاح المهندسين بالجيش الأمريكى هو الذى يشرف على المشروع. وبدا من وصف الملك للمركز أنه كان فى سبيله لإنشاء مرفق مُنمْذج على مجمع تدريب بلاكووتر بمويوك. قال الملك إن المرفق سيُستخدم «لتدريب القوات الخاصة الوطنية والإقليمية، وأيضا قوات مكافحة الإرهاب، قوات الأمن، ووحدات خدمات الطوارئ، ويعمل كأول مركز للتدريب على إطلاق النيران الحية فى الشرق الأوسط». وحقا، فقد كان أفراد وحدة مكافحة الإرهاب الأردنية النخبوية، الكتيبة ٦١، قد شاركوا فى سباق SWAT بمويوك، ورأوا مرأى العين مرفق التدريب ذائع الصيت بالولايات المتحدة.

جعلت علاقة بلاكووتر الخاصة بالملك الأردنى الشركة ظاهرة كونية مُصغّرة فى بازار الحرب الدولى بعمان فى مارس ٢٠٠٦. تخيرت بلاكووتر مؤتمر SOFEX للكشف عن فريق البارشوتات الذى كانت قد شكلته حديثا، والذى أدى عروضاً أمام الجمهور لأول مرة فى افتتاح المؤتمر بقاعدة الملك عبدالله الجوية. لكن، وبالرغم من أن فريق بارشوتات بلاكووتر أبهر الجمهور، إلا أن كوفر بلاك كان هو من استحوذ على العرض فى يوم الافتتاح. أحدث بلاك «دهشة» بين ممثلى القوات الخاصة الدوليين حينما أعلن أن بلاكووتر كانت مستعدة لنشر قوات خاصة كل منها بحجم لواء جيش كامل فى أماكن الصراع أو الأزمات فى أى مكان بالعالم. قال بلاك «إنها فكرة جيدة آسرة من وجهة النظر العملية لأننا نمتاز بالسرعة والتكلفة المنخفضة. أما السؤال، فهو، من سيدعنا نلعب فى فريقه؟". وكمثال، اقترح بلاك أن بإمكان بلاكووتر الانتشار بدارفور، وقال إن الشركة كانت بالفعل قد طرحت الفكرة على مسئولين بالولايات المتحدة والناتو لم تذكر أسماءهم. قال بلاك «أدركنا منذ عام أننا نستطيع القيام بهذا. ثمة إمكانية واضحة للقيام

بعمليات أمنية نظير كسرٍ من تكلفة عمليات الناتو». بعد تصريحاته هذه، احتشد حول بلاك جماهير من مُزودى احتياجات الدفاع الذين أثار حماسهم احتمال وجود فرص لأسواق جديدة ذكرها أحد نجوم الصناعة، ناهيك عن كونه أحد الجواسيس الأمريكيين الأسطوريين. بيَن بلاك أن بلاكووتر عملية ذات اكتفاء ذاتى. قال «لقد ناورنا فى الحروب واشتركنا فيها بمهنيين. بإمكاننا القيام بتلك المهمة» وسرعان ما أضاف إلى ذلك أن الشركة لن تتناقض مع سياسة الولايات المتحدة بتأجيرها خدماتها إلى أعداء الحكومة. أعلن بلاك قائلا «إننا شركة أمريكية. سيكون علينا الحصول على موافقة الولايات المتحدة على أى شئ نقوم به لأصدقائنا بالخارج».

وبعد تعليقات بلاك بالأردن، توسع نائب رئيس بلاكووتر كريس تايلور فى شرح تصور مؤسسته عن الانتشار بالسودان. قال «بالطبع يمكننا توفير الأمن فى معسكرات اللاجئين، أمن دفاعى، ما نسعى إلى فعله أولا هو أن نكون أفضل رادع بإمكاننا أن نكونه». تفاخر أن بإمكان بلاكووتر حشد قواتها أسرع من الأمم المتحدة أو الناتو. قال تايلور فى بث لإذاعة قومية «بإمكانى أن أكون متواجدا على الأرض فى ثلث الوقت الذى يستغرقه تشكيل وحدة معترف بها دولياً، وبتكلفة أقل بمقدار ٦٠٪». لكن الخبراء المستقلين فنّدوا مزاعم بلاكووتر. قال بى. دبليو. سينجر من بروكينجز إنستيتيوشن «تُمثل عمليات الناتو أو الأمم المتحدة تنويعة كاملة من الالتزام السياسى والأنشطة، وليس فقط مجموعة صغيرة من الجنود المسلحين. ولهذا السبب فإنهم يتكلفون كثيرا، كما أنهم مختلفون كلية».

لم تكن بلاكووتر تتحدث فقط عن دارفور. وسع تايلور أيضا موضوع الجيوش الخاصة المعروضة للإيجار، مُروّجا لفكرة تأجير حكومة العراق لرجال بلاكووتر من أجل قمع هجمات مجموعات المقاومة. أبلغ تايلور صحيفة فيرجينيان بايلوت «من الواضح أننا ليس بمقدورنا الدخول إلى جميع أنحاء العراق، لكن قد يكون بإمكاننا دخول إحدى المناطق أو المدن». لفَق كوفر بلاك والمسئولون الآخرون بالشركة رؤية لهم عن عمليات «لحفظ السلام» و«الاستقرار» و«المساعدات الإنسانية» وقالوا إن مصدرها هو حنقهم الأخلاقى الشديد

الناتج عن المعاناة البشرية. تحاججوا بالقول إن المجتمع الدولى بطئ فى ردوده وغير فاعل، على حين أن بلاكووتر، وفقاً لما قاله بلاك فى الأردن «تقضى وقتا طويلا تفكر: كيف لنا أن نسهم فى الخير العام؟» ما لا يكاد تنفيذيو بلاكووتر أن يناقشوه فى العلن، إن هم فعلوا ذلك أبدا، هو الأرباح الهائلة التى يجنونها من خدماتهم فى مناطق الكوارث، والمآزق، والحروب. وفى الأردن، قامت بلاكووتر وشركات المرتزقة الأخرى بالترويج بضراوة لتدويل الخصخصة السريعة للجيش والأمن، تلك الخصخصة التى يتمتعون بها الآن فى الولايات المتحدة.

وتحت شعار «المساعدات الإنسانية» الناعم، أمُلت تلك الشركات فى اقتناص «البزنس» من الكيانات الحكومية الدولية مثل الناتو والأمم المتحدة، والاتحاد الإفريقى والاتحاد الأوربى. بالنسبة لبلاكووتر، فإن مثل هذا التحول سيعنى فرصة للتربح الدائم، الذى لا يحده سوى عدد الأزمات والكوارث والصراعات الدولية. قال تايلور من بلاكووتر «ظلت عمليات فَرْض السلام وحفظه، وبأسلوب إجرامى، غير فاعلة من ناحية التكلفة، وفاشلة عملياتيا. ترسلون ١٠٠٠٠ من قوات الأمم المتحدة إلى دارفور؟ وتبددون بذلك الأموال. إنكم لا تخلقون أمنا وسلاحا بإلقائكم مزيدا من الأشخاص غير المتميزين، وغير الملتزمين فى المعمعة».

لاحظ سينجر، الذى درس باستطالة دور الشركات العسكرية الخاصة فى النزاعات الدولية، لاحظ التالى على طلب بلاكووتر الذهاب إلى السودان»:

«تمضى الشركات تتحدث عن قدرتهم على إنقاذ الهُرَيرات أعلى الأشجار فقط إذا سمح لهم المجتمع الدولى الكبير الشرير بذلك، لكن الوضع أكثر تعقيدا بكثير من هذا. يحاول أسلوب الضغط والرعاية هذا دائما تشويش الناس... إن المسألة التى تحول دون الفعل المؤثر فى دارفور ليست هى مجرد موضوع التكلفة المالية.. أى أنه ليس ثمة نقطة متخيلة للتكلفة التى إذا استطاعت مثل هذه الشركات العمل بمقتضاها، أن تُحلّ المشكلة. المشكلة الحقيقية هى واقع اللخبطة والفوضى السياسية على الأرض، ليس ثمة مفوضية أمم متحدة فاعلة. أو إرادة سياسية خارجية للاشتراك الحقيقى، بالإضافة إلى وجود

حكومة سياسية مُعوّقة، وعمليا فإنها أحد أطراف الصراع (يعنى هذا أنك إذا ذهبت إلى هناك دونما تفويض فعليك أن تكون مستعدا لاقتحام الأبواب وتحطيمها، وتدمير القواعد الجوية.. إلخ، الأمر الذى ليس بمقدور أى شركة فعله، ومن ثم تعود التنسية برمتها إلى الولايات المتحدة، الناتو والأمم المتحدة)، وكل هذا يمنع، إلى الآن، أى انتشار مفيد. ومن ثم، فحتى إذا كان لديك شركات على استعداد للقيام بالمهمة، سيكون ما يزال عليك حل هذه المشاكل".

تمتد قيمة السودان لبلاكووتر لما هو أبعد كثيرا من مجرد عقد مُفرَد لحفظ السلام، أو قلقٍ إنسانى مزعوم على ضحايا دارفور. كانت تلك هى تذكرة بلاكووتر لدخول عالم جديد من التطور الممكن -أصبحت دارفور الصيحة المدوية للحصول على إجماع لعملية إعادة تصنيف تهدف إلى اقتناص عقود دولية جماعية لشركات المرتزقة. وبالتقابل مع غزو العراق واحتلاله الذى عارضته الغالبية الساحقة من العالم، فإن النداءات الداعية إلى تدخل فى دارفور أكثر شيوعاً بكثير، ومن ثم يصبح من السهل على بلاكووتر وحلفائها تسويق الاستخدام المتزايد للجنود الخاصين. وحقا، فحتى فى التظاهرات المعادية للحرب، كان المحتجون يحملون لافتات كتب عليها «اخرجوا من العراق، وادخلوا دارفور».

يبدد العرض السريع لموارد السودان الطبيعية الشاسعه أية فكرة عن أن دافع رغبات الولايات المتحدة/الشركات للدخول إلى السودان هو النوازع الإنسانية الخالصة. أولا، فإن من المحظور على شركات الولايات المتحدة، وبسبب تصنيف وزارة الخارجية للسودان كدولة راعية للإرهاب، الاستثمار فى السودان. من ثم، أصبحت الصين لاعباً رئيسيا فى استغلال مواد النفط السودانية الهائلة. وعلى حين أن السودان ليست عضوا فى الأوبك، فقد تم منحها مكانة مراقب فى اجتماعات المنظمة فى أغسطس ٢٠٠١، هى ميزة لا يحظى بها سوى كبار منتجى النفط فى العالم. وبعد أربع سنوات، ارتفعت احتياطاتها الثابتة من النفط ستة أضعاف لتصل إلى ٦.١بليون برميل، أى الاحتياطى الخامس والثلاثين فى العالم من حيث الحجم -وكله غير متاح لشركات النفط الأمريكية.

تمتلك شركة نفط الصين الوطنية ٤٠٪ من شركة النيل الكبرى العاملة للبترول،وهو أكبر نصيب مفرد. يهيمن هذا الاتحاد الشركاتي على حقول النفط السودانية. لدى السودان أيضا احتياطي كبير من الغاز الطبيعي. كما أنها واحدة من ثلاثة مستودعات كبرى لليورانيوم عالي النقاء في العالم، ورابع أكبر مستودع للنحاس. من ثم، سيؤدي تغيير النظام بالسودان إلى فتح فرص استثمارات عالية الأرباح أمام شركات الولايات المتحدة، وفرصة لإمكانية اقتناصها من الصين، أيضا، سيعني هذا نهاية حكم إسلامي في السودان استمر في تحديث البلد رغم العقوبات التي تقودها الولايات المتحدة. وهكذا، فبإمكان إرسال قوات خاصة أمريكية تحت غطاء مهمة إنسانية دولية، توفير موطئ قدم قوي لواشنطون للعمل بالسودان في المستقبل.

كانت دارفور وقت رحلة كوفر إلى الأردن تحتل كثيرا من العناوين الإخبارية الرئيسية. كان بلاك نفسه قد أمضى وقتا ليس بالقصير بالسودان كجزء من عمله للسي آي إيه. قال كريس تايلور «ظللتُ وكوفر نتحدث عن قُدرتنا اللامتناهية على مساعدة دارفور، وهذا يُحبِط عالم المنظمات الإنسانية.. لديهم مشاكل مع قوات الأمن الخاصة، ليس بسبب الأداء، لكن بسبب اعتقادهم أنها تلغي قدرتهم على عبور الحدود، كي يتحدثوا إلى الطرفين، ليكونوا حياديين. هذا جيد، لكن هنا يحضرنا السؤال القديم -هل الحياد أهم من إنقاذ حياة فرد آخر؟ ما المنفعة الحدية لحياة شخص آخر؟». في فبراير ٢٠٠٥، في الشهر الذي انضم فيه بلاك إلى شركة بلاكووتر، أثار إريك برينس، للمرة الأولى، احتمال استخدام قوات حفظ سلام خاصة في منتدى للرابطة القومية الصناعية للدفاع. قال برينس للتجمع العسكري «في الأماكن التي تتواجد بها الأمم المتحدة، حيث يوجد كثير من عدم الاستقرار، فإن إرسال قوة كبيرة تقليدية غير مقبول سياسيا؛ إنه مكلف، وصعبٌ دبلوماسيا. بإمكاننا تشكيل قوة متعددة الجنسية، محترفة، نمدها بالتجهيزات، نديرها، نقودها ونضعها تحت تحكم الأمم المتحدة أو الناتو أو الولايات المتحدة، أيا كان الأجدى. بإمكاننا العمل على استقرار الأوضاع». اقترح برينس أن بإمكان بلاكووتر نشر «قوة رد فعل سريعة» لحماية المنظمات غير الحكومية بدارفور أو مناطق الصراع الأخرى. «تتحدثون عن دارفور. لا أعتقد أن ثمة حاجة لإرسال قوة حفظ سلام قوامها

٨٠٠٠ شخص. إن كان ثمة بشاعات تُرتكب، فعلينا وقف ميليشيا الجناويد، وعلينا التحرك وإنهاء المشكلة، وحل التهديد المباشر. وليس إحضار قوة من ٨٠٠٠ أو ١٠٠٠٠شخص».

ومثلما استغلت الشركة «مذبحة» كولمباين لكسب بزنس جديد، كانت بلاكووتر تستغل أزمة كوكبية وجدت أطرافا من الطيف السياسي يدعون إلى التدخل ويدينون ما شعروا بأنه لا مبالاة من قبل الأمم المتحدة والكيانات الدولية الأخرى. أصبحت السودان القضية الأثيرة لدى قوى مسيحية يمينية كثيرة تشارك بلاكووتر الفراش، ولم يكن أقلها منظمة «الحرية المسيحية الدولية»، التى يجلس فى مجلس إدارتها الصغير المكون من تسعة أفراد كل من إريك برينس وبول بهرندز رئيس اللوبى الذى يعمل لبلاكووتر. ظلت منظمة «الحرية المسيحية»، التى أسسها الصليبيون الإنجيليون الجمهوريون من ذوى الصلات الجيدة، ظلت تُتهم باستخدام توصيفها بأنها منظمة «مساعدات إنسانية» كغطاء لأنشطتها التبشيريه. وعلى الرغم من أنها تعمل بشكل أساسى فى البلاد الإسلامية، فالمنظمة تنص علناً على «أننا نؤمن أن الإنجيل هو كلمة الرب الوحيدة الموحاة ذات المرجعية التى لاتخطئ».

ظلت قيادات «الحرية المسيحية» على علاقة استمرت طويلاً بالأزمة فى السودان بسبب الصراع المسيحى/الإسلامى. فى بداية عملها تورطت الجمعية فى ممارسة عمليات «خلاص العبيد» -كانت تشترى مسيحيين اعتقدت أنهم مُستَرقّون- لكنها تخلت عن تلك الممارسة فيما بعد قائلة إن عمليات «الخلاص» تلك أصبحت مصدر تمويل للجماعات المتمردة وإن الناس كانوا «يخترعون قصص استعبادهم لمحاولة الحصول على الأموال». ولسنوات، طرحت جماعة «الحرية المسيحية» رؤيتها للسودان بنفس التعبيرات الاقتصادية التى أمدت سياسات إدارة بوش الكوكبية والاستراتيجية الشركاتية لبلاكووتر بالوقود. كتب جيم جاكبسون، مؤسس «الحرية المسيحية» والمسئول السابق بإدارة ريجان فى أحد عواميده الصحفية «يرغب مسيحيون كثيرون فى جنوب السودان التحرر من الهبات والحسنات الدولية، وفى تعلم مبادئ السوق الحر، المهارات المفيدة والتكنولوجيات

التى ستنقلهم من التبعية إلى الاستقلال. حان الوقت لمساعدة مسيحيى السودان على أن يبدأوا المشى. حينما يأتى هذا اليوم -وهو آتٍ- سينتهى الرق فى السودان». ومثل تنفيذيى بلاكووتر، أدان جاكبسون عمل الأمم المتحدة واتهمها بأن لها مصالح ثابتة فى الإبقاء على اللاجئين فقراء. قال «أعتبر كثيرا من منظمات الأمم المتحدة تجار تعاسة. إن المنظمات الإنسانية للأمم المتحدة بحاجة إلى أناس فى ظروف بائسة من أجل تبرير وجودها. فكلما زاد من يعتمدون عليها، تضاعفت الأموال التى تتلقاها. نحاول الدعوة إلى الاكتفاء الذاتي وتعزيزه من أجل خلاص الناس من الحسنات».

وفيما مضت بلاكووتر تدفع قُدما بحملتها الضارية من أجل دخول السودان، استخدم برهرندز -رئيس لوبى الشركة- موجات الإذاعات المحافظة للضغط من أجل دعم الشركة. قال بهرندز عام ٢٠٠٦ فى حوار معه ببرنامج «منطقة الخطر» وهو برنامج إذاعى تموله وتبيعه مؤسسة الدفاع عن الديموقراطيات التابعة للمحافظين الجدد، وقدم البرنامج بهرندز بصفته ممثلا لبلاكووتر. قال «أود أن أوضح أن أى نقود نجنيها هناك ستصب مرة أخرى فى خدمة السكان، المستوصفات، المدارس، الطرقات، لأن هذا ليس المكان الذى نود التربح منه، بل هو مكان تدفعنا مشاعر قوية لمساعدته».

ومثلما هو الحال فى عمليات انتشار بلاكووتر فى ظل إدارة بوش، فبإمكان الشركة جني الأرباح فيما هى تعمل على خدمة الأجندة السياسية والدينية للإدارة ولحلفاء إريك برينس من المحافظين الجدد. لكن، وإلى جانب الدوافع السياسية والدينية لضغط بلاكووتر من أجل الانتشار فى السودان، فقد أتاح الاقتراح ومضة شديدة الوضوح فى الاستراتيجية التى تراها بلاكووتر مفتاحا لمستقبلها: إعادة تغليف المرتزقة بصفتهم قوات حفظ سلام. قال سينجر، مؤلف كتاب «المحاربون الشركاتيون» :«ثمة أزمات كثيرة فى العالم. إذا تمكنوا من إدخال قدمهم من الباب إليها، فإن ذلك يوفر لهم إمكانية فتح قطاع بيزنس جديد تماما أمامهم». وفيما اقترحت التقارير الإعلامية وقت مؤتمر الأردن العسكرى أن طرح كوفر بلاك «لحفظ السلام» كان تطورا جديداً فى رؤية بلاكووتر الاستراتيجية، فقد كان هذا قيد الإعداد منذ عام على الأقل. قال الكاتب روبرت يونج

يلتون إن الشركة طورت خطة مفصلة لانتشار بلاكووتر في السودان بمجرد زيارة كولن باول، وزير الخارجية آنذاك، لدارفور عام ٢٠٠٤. قال يلتون «إذا نظرت للطرح لوجدتَ أنه لايتضمن فقط رجالا مسلحين. إنهم يقدمون طائرات مروحية مدفعية، وقاصفة مقاتلة لها القدرة على إسقاط القنابل العنقودية وأسلحة ترشدها الأقمار الصناعية، ومركبات مدرعة. عندئذ تقول مهلاً هذه قوات هجومية كثيرة. ما علاقة هذا بحفظ السلام؟».

في يناير ٢٠٠٦، بعد ثلاثة أشهر من إرسال كوفر بلاك إلى الأردن، تحدث برينس في مؤتمر عسكري آخر حضره عشرات من المسئولين العسكريين الأمريكيين. قال «أحد المجالات التي ربما نستطيع المساعدة فيها هي حفظ السلام. في هيتي، لديك لواء مؤلف من ٦٠٠٠ شخص لحفظ السلام، بتكلفة تصل إلى ٤٩٦مليون دولار سنوياً. اذكروا لي – إن استطعتم– أية عمليات حفظ سلام ناجحة للأمم المتحدة. أعني، أنني أشاهد فيلم «فندق رواندا» وأشعر بالغثيان وأقول، لماذا تركنا هذا يحدث؟ بإمكاننا أن نفعل شيئا بهذا الخصوص في المرة القادمة دونما وجود آثار أقدام ضخمة للولايات المتحدة. بإمكاننا تشكيل لواء متعدد الجنسية من المهنيين يخضعون لفحوصات تتفق مع المعايير التي تستخدمها وزارة الخارجية لحراسة السفارات كي نتأكد أننا لا نُشغل مجرمي حرب وأشخاصاً أشراراً، ثم ندربهم ونجهزهم، ويصبح لديك قدرة متعددة الجنسية يمكنك فعل أي شئ بها». لكن، وكما أوضح سينجر «فإنه، ببساطة، لا يوجد أي دعم لمثل تلك العملية المخصخصة بالكامل في الأمم المتحدة. فالخط الرسمي لدى المتحدث باسم المنظمة هو أنها لا يمكن أن تبدأ». «أجد أنه أمر شديد الدلالة أن هيئتين منفصلتين على مستوى عالٍ من قادة العالم وتنظران في أمر كيفية إصلاح «حفظ السلام»... ولا تطرح أي منهما خصخصة حفظ السلام كنقطة للنقاش، ناهيك عن دعمها. كما أنهم أيضا لم يتحدثوا عن أناس من المريخ يأتون لإدارة عمليات حفظ السلام، لكن، ومرة أخرى، فلا أعتقد أن سكان المريخ لديهم جهود لوبيهات مماثلة». وفي قصة دعائية كبيرة لبلاكووتر عام ٢٠٠٦ غطت عناوينها غلاف مجلة ويكلي ستاندارد التي يصدرها المحافظون الجدد، كتب مارك همينجواي يقول «في الوقت الراهن، لدى قسم عمليات حفظ السلام بالأمم المتحدة ميزانية سنوية تبلغ ٧ بليون دولار، ناهيك عن بلايين التبرعات الخاصة

والمساعدات الأجنبية التى تتدفق على أسوأ المناطق بالعالم. لابد وأن حتى هؤلاء الذين يتشككون فى دوافع بلاكووتر يعلمون أن اهتمامهم بهذا العمل سيكون فطنة فى صالح البزنيس. لماذا الجرى وراء عملاء شركاتيين مشبوهين حينما يكون المبدأ الأساسى هو مساعدة الناس؟» ثم أسمى بلاكووتر «ألف وياء التعاقدات العسكرية الخارجية».

ولم يمض وقت طويل على اقتراح بلاك بالأردن، حتى تلقت بلاكووتر كثيرا من الدعم والتأييد لقضيتها من معلقين بارزين عديدين. كتب ماكس بوت، وهو زميل رفيع المستوى فى «مجلس العلاقات العامة» عمودا فى اللوس أنجيليس تايمز، واسعة الانتشار، بعنوان حل دارفور: أرسلوا المرتزقة». يقول بوت:

«لو أن ما يسمى أمم العالم المتحضر كانت جادة فى وضع حد لما وصفته حكومة الولايات المتحدة بأعمال الإبادة، لما ألقت بالمهمة على عاتق الأمم المتحدة ولأرسلت قواتها الخاصة بها لكنها بالطبع غير جادة. وعلى الرغم من ذلك، فثمة طريقة لوضع حد لأعمال القتل حتى بدون إرسال جيش أمريكى وأوربى. أرسلوا جيشا خاصا. ثمة شركات أمن تجارية، مثل بلاكووتر، مستعدة، ونظير ثمن مناسب، لإرسال قواتها المكونة، إلى حد بعيد، من أفراد جيوش غربية متقاعدين، لوقف أعمال الإبادة. نعلم من التجربة أن مثل تلك الوحدات الخاصة ستكون أكثر فاعلية بكثير من قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام. فى التسعينيات قضت الشركة جنوب الإفريقية «إكزكيوتيف أوتكام» والشركة البريطانية «ساندلاين» سريعا على حركات التمرد بإنجولا وسييراليون. يشكو الناقدون من أن هؤلاء المرتزقة لم ينجزوا سوى توقف مؤقت للعنف، لكن، فقد كانت تلك هى المهمة التى استؤجروا من أجلها. ومن المفترض أن تخلق العقود لمدة أطول، فترة أطول من الأمن، ولا تتكلف سوى جزء ضئيل من تكلفة قوات الأمم المتحدة. لكن العمالقة الأخلاقيين الذى يديرون شئون الأمم المتحدة يرون هذا الحل غير مقبول. يزعمون أنه من غير المقبول (أخلاقيا، استخدام المرتزقة. إلا أنه من غير المقبول بدرجة أكبر هو إصدار قرارات فارغة، وإرسال قوات حفظ سلام غير فاعلة، وترك أعمال الإبادة مستمرة».

ثم اقترح بوت نشر بلاكووتر أو شركة مرتزقة أخرى بالسودان بعد أن تستأجرها

«مجموعة من البلدان المهتمة، تُشكّل لهذا الغرض، أو حتى الأفراد المهتمون بالشئون الإنسانية مثل بيل جيتس أو جورج سوروس. لكن لم يكن المحافظون وحدهم هم من اصطفوا لدعم بلاكووتر. كتب أحد أكثر الصحفيين تبجيلا فى تاريخ الولايات المتحدة، أى تد كويل، افتتاحية فى النيويورك تايمز بتاريخ ٢٢مايو ٢٠٠٦، بعنوان «مسلحون للإيجار»، بدأها على النحو التالى «ثمة ما هو مُغر بدجة كبيرة فى فكرة جيش من المرتزقة». ثم مضى يعدد الأسباب التى تجعل مثل هذا الجيش مُغرياً:

«زيادة تبدّد الأوهام بشأن الحرب فى العراق. احتمال استمرار حملة لا نهاية لها على الإرهاب الكوكبى؛ جيش تم مطه إلى حد الوهن، تسانده قوات احتياط وحرس قومى منهكة، بل حتى مستنفدة؛ عدم استعداد، أو عدم قدرة الأمم المتحدة أو للنظمات متعددة الجنسية الأخرى لإرسال قوات كافية للتعامل سريعا مع البشاعات المروعة المنتشرة (انظر دارفور والكونغو). توسع الشركات الأمريكية فى أماكن قصية، متشظية ويحتمل لها أن تكون عدائية».

وبعد أن أكمل القائمة التى بدت وأنه قد نقلها من دعايات شركات المرتزقة، بيّن كويل أنه «مثلما أراح تكوين الجيش بالكامل من المتطوعين الحكومة من الضغط السياسى الذى لازم التجنيد الإجبارى، فإن بإمكان القوة المُستأجَرة، التى تتيح الفرصة لكل محارب مفترض أن يؤجر نفسه نظير مبلغ لن يستطيع أبدا الحصول عليه من الخدمة المباشرة فى جيش العم سام، بإمكانها أن تعفينا من تنويعة من الضغوط السياسية الراهنة».

بعد ذلك، خصص كويل جزءا كبيرا من افتتاحيته لتقديم ما يُعتبر، واقعيا، إعلانا لبلاكووتر:

«من ثم، ماذا عن الخطوة التالية الحتمية –قوة عسكرية دفاعية تضطلع بتكاليفها مباشرة الشركات الخاصة التى ستجنى أكبر استفادة من حمايتها لها؟ مثلا، إذا هدد تمرد فى نيجريا قدرة البلد على تصدير النفط (كما هو حاصل فعلا)، لماذا لا تدع تشفرون أو إكسون موبيل تتكفل بإرسال لواء أو لثنين من المرتزقة؟

«أراد كريس تايلور، نائب رئيس إدارة بلاكووتر يو إس إيه للمبادرات الاستراتيجية والاستراتيجية الشركاتية، أراد أن يتأكد من أننى قد فهمت أن هذا الأمر لن يحدث سوى بموافقة الحكومة النيجيرية، والتفهم المضمر، على الأقل، من واشنطون. لكن، هل باستطاعة بلاكووتر التزويد بلواءين فى تلك الأحوال؟ أجاب «ستمائة فرد فى اللواء. بإمكانى التعاقد مع ١٢٠٠ شخص، نعم. ثمة أناس فى أرجاء العالم خدموا، بشرف، فى جيوشهم، أو شرطة بلادهم. باستطاعتى الذهاب والعثور على أشخاص شرفاء، وتفحص خلفياتهم، والتعاقد معهم وتدريبهم بالمستوى الذى نتطلبه.

«يمكن لهذا أن يعمل على استقرار أسعار النفط، ومن ثم يخدم المصالح القومية الأمريكية، بدون الإنفاق من الميزانية الفدرالية. وفى تلك الأثناء، يكون باستطاعة شركات النفط حماية بعض مصالحها الهامة بالخارج بدون الحاجة إلى شغل الكونجرس فى مناقشة السؤال الملِّ عما إن كان من واجب الأمريكيين التورط عسكريا فى دولة عالم ثالث ذات سيادة».

ما أغفل كوبل ذكره فى مقاله، هو احتمال أن يكون التمرد الذى سيكون بإمكان قوات بلاكووتر قمعه بنيجريا دفاعا عن تشفرون أو إكسون موبيل، احتمال أن يكون تمردا شعبيا يسعى لاستعادة موارد نيجيريا الكبيرة من النفط من أيدى حكومة الولايات المتحدة/شركات النفط التى تدعمها الطغمة المستبدة الحاكمة التى ظلت تحكم أكبر بلاد إفريقيا من حيث عدد السكان، وبأسلوب وحشى لعقود عديدة. كما أغفل كوبل، أيضا، ذكر أن شركات النفط متعدية/الجنسية تستخدم بالفعل قوات ضارية للدفاع عن مصالحها ضد سكان نيجريا الأصليين، خاصة فى منطقة دلتا النيجر الغنية بالبترول. أُعدِم الكاتب المسرحى النيجيرى كِن سارو- ويوا شنقاً مع ثمانية آخرين عام ١٩٩٥ لمقاومته شركة شل النفطية، كما ظلت تشفرون متورطة بعمق فى قتل المحتجين بدلتا النيجر. أما أكثر ما يثير القلق فى افتتاحية كوبل فهو أنه يُضفى مصداقيته وسمعته الخاصة على مسعى قضية إعادة تصنيف المرتزقة- وفى لحظة حاسمة. فى أواخر ٢٠٠٦، خفف بوش عقوباته على جنوب السودان المسيحى، ممهداً بذلك الطريق لتدرب

بلاكووتر قوات الجنوب.

وفيما ازداد زخم حملة بلاكووتر، رأى أحد أعضاء الكونجرس الناقدين القلائل أن الحديث عن الانتشار بدارفور دلالة مُنذرة. قال النائب جان شاكوسكى إن بلاكووتر «لديها السطوة والنفوذ فى الإدارة لدرجة أدت بها إلى الاعتقاد أن بإمكانها أن تكون قوة أقوى من الناتو فى مكان مثل دارفور، مثلا. ويعنى هذا أن لدينا شركة مترىحة تجول حول العالم، شركة أقوى من الدول، وبإمكانها القيام بتغيير النظم فى الأماكن التى تريد الذهاب إليها؛ ويبدو أن لديها جميع ما تحتاجه من دعم الإدارة، وأن لديها مغامرات فى أنحاء العالم وتعمل تحت جنح الظلام. يثير هذا أسئلة حول الديموقراطيات، حول الدول، حول من يؤثر فى السياسة فى أرجاء الكوكب، وحول العلاقات بين بعض الدول». قال شاكوسكى إنه من المحتمل أن يكون هدف بلاكووتر هو «جعل التحالفات بين دول الناتو، غير ذى أهمية فى المستقبل، بحيث يصبحون هم المهمين، مفتوحين على من يقدم أعلى سعر. من هو حقيقةً هذا الذى يقرر أمر الحرب والسلام فى أرجاء العالم؟».

ثم أضاف إن هذه حقيقة مثيرة للقلق ولها تبعات هائلة. إلى من يذهب ولاؤهم؟ أيضا، فهذا يُمكِّن إدارة مثل إدارة بوش- أى أنه إذا كان بإمكانهم الاشتراك فى مثل تلك الحروب المخصخصة، أو فى جيش خاص، إذا ما حاجتهم إلينا؟ بإمكانهم العمل فى ميادين صراع منفصلة، تماما والتورط فى صراعات فى أرجاء العالم، ويبدو أنهم ليسوا بحاجة لاستشارتنا بشأنها».

بلاكووتر والأسد النائم:

نصح كوفر بلاك من يعملون فى صناعة المرتزقة بأن يكونوا «انتهازيين» -وهى صفة طبيعية تتميز بها بلاكووتر. تفاخر جارى جاكسون فى صيف ٢٠٠٦ قائلا «لدينا خطة عمل دينامية مدتها عشرون عاما. لن نذهب إلى أى مكان». لكن فيما تمتعت بلاكووتر فى أعقاب ٩/١١ بازدهار لا يكاد يوجد له نظير، وصعود إدارة بوش، ومعها الكونجرس الذى يتحكم به الجمهوريون، يدرك تنفيذيوها أن مثل تلك اللحظة، المليئة بهؤلاء الداعمين الأقوياء ممن يتولون السلطة، قد لا تتسنى سريعا مرة أخرى، إن هى تسنت أبدا. فعلى

حين أن إدارة بوش شجعت بقوة خصخصة الجيش واستخدام قوات وتكتيكات بغيضة وغير أخلاقية، فقد لا تتحمس الإدارات بعدها لفكرة استخدام المرتزقة. كان جزء واضح من «خطة البيزنس الدينامية» التى تحدث عنها جاكسون هى حملة إعادة تصنيف راقية متطورة تهدف إلى إزاحة صورة المرتزقة، وترسيخ «شرعية» دور الجنود الخاصين فى نسيج سياسة الولايات المتحدة الخارجية والداخلية، وأيضا فى سياسة الكيانات الدولية مثل الأمم المتحدة والناتو. فعلى الرغم من أن إدارة بوش ستخدم لفترة زمنية محدودة، فقد استغلت بلاكووتر وحلفاؤها إلى أقصى درجة، الحماس لقضيتهم فى غرف السلطة أثناء سنوات بوش للإسرا ع قُدُما بمهمتهم طويلة المدى لإعادة التصنيف.

إعادة التصنيف هذا يحدث على مستويات عديدة، وتتواتر أصداء المصطلحات بالفعل فى الخطاب الأوسع. تسمى شركات المرتزقة الآن «شركات عسكرية خاصة» أو «شركات أمن خاصة». وبدلا من المرتزقة، فإن رجالها الآن هم «جنود خاصون» أو «مقاولون خاصون». وعلى حين أن ثمة تنافساً ضاراً بين المرتزقة، فإنهم يدركون بوضوح الحاجة إلى تطوير لغة مشتركة للدفع قُدما بقضيتهم. لكثير من تلك الشركات عقود مع جماعات الضغط (اللوبيهات). كانت بلاكووتر ذات تأثير كبير فى النمو السريع للرابطة التجارية للمرتزقة، التى اختير لها اسم أرْوِيلى، أى «رابطة عمليات السلام الدولية». (IPOA) أما شعارها (اللوجو). فهو أسد كارتوني نائم يلائم تماماً متتالية ديزنى «الملك الأسد» وفى ظل IPOA، غدت بلاكووتر وحلفاؤها دعائيين عداونيين لوضع أحكام لصناعة الأمن/الجيش الخاصة». تفخر IPOA بالقول «إننا نعمل فى بيزنس السلام لأن السلام مهم». ويقول المتحدثون باسمها إن المنظمة تتكون من «الشركات الأكثر مهنية، ذات النظرة التقدمية، الأخلاقية، فى مجال تلك الصناعة». بين أعضائها الشركات الرئيسية التى تعمل فى «الحرب على الإرهاب» أى بلاكووتر، أرمور جروب، إرنيس، هارت سكيوريتى، و MPRI.

ورغم أن كثيرا من الشركات تتلافى اللوائح التنظيمية والإشراف، فقد اضطلعت بلاكووتر بالدور القيادى للضغط من أجل مثل تلك السياسات –على الأقل تلك التى

تتوافق مع أجندتها. أكد جيه. جيه. مسنو، المتحدث باسم IPOA أن «بلاكووتر ظلت من قادة من يتبنى التنظيم، المحاسبة، والشفافية». والسبب بسيط، فإن هذا أفضل للبيزنس على المدى الطويل. لكن الأهم هو أن هذا أيضا يسمح لشركات المرتزقة تشكيل القواعد التي تحكم انتشارها بأسلوب يعمل لصالحها، كما فعلت بلاكووتر في أعقاب كمين الفولجة حينما «قادت محاولات اللوبيهات لشركات الأمن الخاصة والمتعاقدين الآخرين في محاولة لسد الطريق على جهود الكونجرس والبنتاجون لإخضاع تلك الشركات والعاملين بها لنفس قانون العدالة الذي يخضع له العاملون بالجيش النظامي».

وفيما أدركت تماما المشاكل الحادة السلبية التي لحقت بصورة صناعة المرتزقة، حاولت IPOA إحضار ممثلين من منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوقية أخرى تحظى بالاحترام للعمل كمستشارين. تتفاخر IPOA بـ«لائحة السلوك» كتبت «بإسهامات من منظمات غير حكومية، محامين لحقوق الإنسان وأكاديميين». أشار كريس تايلور، في شهادة له أمام الكونجرس عام ٢٠٠٦، إلى عضوية شركته في IPOA كدليل على أن بلاكووتر «ملتزمة بالمعايير التعريفية التي يُصادَق بها على مقاولينا الخاصين بصفتهم مؤهلين للعمل بالصناعة، وتحسين عملية التعاقدات الفدرالية، وتوفير مزيد من الشفافية في عمليات البيزنس، وتشجيع مناقشة صناعتنا كي تصبح مندمجة بشكل تام في عملية إيجاد حلول للتحديات الصعبة». اقترح تايلور أيضا أن تستخدم «وكالات التعاقد» IPOA «كشهادة جودة، مثل برنامج إدارة الجودة للأيزو 9000».

تُلزم لائحة قوانين IPOA، الذي يُتطلب من جميع الشركات توقيعها، أعضاءها «بالموافقة على جميع أحكام القانون الإنساني الدولي، وقوانين الحقوق الإنسانية التي تنطبق عليها وأيضا جميع البروتوكولات والمعاهدات الدولية ذات العلاقة». يتضمن عقوبات تتعلق بالشفافية، الأخلاقيات والمحاسبة، وتحذر IPOA من أن: «الموقعين الذين لا يلتزمون بأي من النصوص التي تحويها اللائحة قد يتعرضون للفصل من IPOA وفقا لما يراه مجلس إدارة IPOA». بيد أن لائحة قوانين IPOA ليست وثيقة مُلزِمة وليست لها أي ثقل قانوني. هذا بالإضافة إلى أن رئيس مجلس إدارة

IPOA ابتداء من ٢٠٠٦ كان هو كريس تايلور -وهو مرشح غير محتمل لتولى مهمة فصل بلاكووتر من المجموعة فى حالة انتهاكها حقوق الإنسان.

أما الدور الحاسم الذى لعبته IPOA فى حملة إعادة التصنيف فكان هو استخدام المشرعين، الصحفيين، وجماعات حقوق الإنسان لوبيهات لدعم مزيد من خصخصة الجيش وعمليات حفظ السلام ذلك بالترويج لفكرة أن المجتمع يستفيد من صناعة مرتزقة خاضعة للتنظيمات. وفى نفس الوقت، فإن لائحتها المنظمة للسلوك، غير القابلة للتنفيذ وغير القانونية، تُستخدم من قِبل شركات المرتزقة كنقطة فى الأحاديث للدلالة على أنهم مسئولون يتصرفون بما يمليه الضمير- بأسلوب طوعى. ظلت IPOA تعمل كجناح سياسى لصناعة المرتزقة المنظمة، والتى أعادت تسميتها لتصبح «صناعة السلام والاستقرار».

وبالرغم من حقيقة وجود ما قُدِّر بمائة ألف متعاقد يعملون بالعراق فى ديسمبر ٢٠٠٦، لم يكن ثمة نظام إشراف موجود على الأرض، أو كيان قانونى له سلطة قضائية فاعلة على المقاولين. ظل مرسوم بول برمر رقم ١٧، الذى مُنِح بمقتضاه المقاولون الحصانة من المحاكمة فى العراق، ظل هو قانون البلاد فى ظل الحكومات العملية المتعاقبة من إياد علاوى وحتى نورى المالكى- التى حكمت العراق بعد رحيل برمر وتقويض سلطة التحالف المؤقتة. ونظريا، فإن ضبط سلوكهم هى مسئولية البلدان التى يأتون منها. وفى الواقع، فقد تُرجِم هذا إلى حصانة. عُرِفت تلك الفكرة بأسلوب دراماتيكى، فى إحدى جلسات الاستماع بالكونجرس بشأن المقاولين بالعراق فى يونيو ٢٠٠٦. استجوب النائب دنيس كوسينيتش، مدير البنتاجون لشئون التزويد، شاى أسد، أى مدير القسم المسئول عن المتعاقدين بوزارة الدفاع. بين كوسينيتش أن قوات جيش الولايات المتحدة يخضعون لأحكام اشتباكات قابلة للتفعيل، وأن منهم من قُدِّم للمحاكمة بسبب الانتهاكات فى العراق، فيما لا يخضع المقاولون لشئ مثيل.

كوسينيتش: هل تعرف ما هو قانون التقادم المُسقِط لجرائم القتل بالولايات المتحدة؟

أسد: لا، لا أعرف يا سيادة النائب.

-لا يوجد- لايوجد مثل هذا القانون. والآن، إذا تورط شخص مرتبط بشركة تعاقدات خاصة فى مقتل أحد المدنيين، هل الوزارة مستعدة للتوصية بمحاكمته؟

أسد: سيدى، لست مؤهلا للإجابة عن هذا السؤال.

سأل كوسينيتش، وهو غير مصدِّق، المسئولين الحكوميين الآخرين الموجودين على المنصة: «أثمة من هو مؤهل للإجابة عن هذا السؤال؟ وإن لم تكونوا كذلك، فما سبب وجودكم هنا، مع احترامى؟» بيّن. كوسينيتش أنه حتى تاريخ جلسة الاستماع فى يونيو ٢٠٠٦، «لم يقدَّم أى مقاول أمن إلى المحاكمة» على جرائم ارتُكبت بالعراق. ثم سأل أسد مباشرة «هل وزارة الدفاع مستعدة لأن ترى دعوى تُرفع على مقاول خصوصى يثبُت أنه قد قتل مدنيا بشكل غير قانونى؟»

أجاب أسد «سيدى، لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال».

صاح كوسينيتش «واو، فكر فيما يعنيه هذا. باستطاعة هؤلاء المقاولين ألا يسألوا عن جريمة قتل». ثم أضاف قائلا إن المقاولين «لا يبدو وأنهم يخضعون لأية قوانين البتة، من ثم، فلديهم ترخيص يستطيعون بموجبه أخذ القانون فى أيديهم».

وفى جلسة الاستماع ذاتها كان تايلور من بلاكووتر، ودوج بروكس مؤسس IPOA المدافعيْن الرئيسيين عن شركات المرتزقة. قال بروكس فى جلسة الاستماع «هذه الصناعة على قدر عالٍ من المسئولية. تضم IPOA الشركات الأكثر مهنية، الأخلاقية وذات التفكير التقدمى فى تلك الصناعة، وجميع أعضائنا ملتزمون. دائما وعلناً بلائحة قوانين السلوك الخاصة بنا». بيد أن بروكس، وفيما كان يعظ من إنجيل المحاسبة أمام كونجرس الولايات المتحدة، كان فى ذات الوقت يقاوم المحاولات لكبح جماح المرتزقة بالقارة الإفريقية. حيث تنتظر الصناعة أرباحاً كبيرة إذا سُمح لها القيام بالعمليات بالسودان ومناطق الأزمات الأخرى.

النموذج جنوب الإفريقى:

ربما لم تكن أكثر الأعمال المرئية التى قامت بها IPOA فى السنوات الأخيرة هى

أنشطتها داخل الولايات المتحدة، رغم ما لتلك الأنشطة من تضمينات هائلة لبلاكووتر وغيرها من شركات الولايات المتحدة – خاصة فيما يتعلق بتطلعاتها لانتشار قواتها لحفظ السلام بالقارة الإفريقية. ورغم خطابها عن أحكام مُلزمة للصناعة، بذلت IPOA وبروكس محاولات كبيرة فى جهد منسق لإفشال تشريع جنوب إفريقيا الرائد المعادى للمرتزقة، الذى أيدته الغالبية الساحقة من أعضاء برلمان البلاد المنتخبين.

وحقا، فإن لجنوب إفريقيا –بل وللقارة الأفريقية تاريخا دمويا طويلا مع المرتزقة البيض. بعد سقوط نظام الآبارتايد فى مطلع التسعينيات، وجد الكثير من رجال الجيش والشرطة جنوب الأفارقة البيض، الذين كانوا قد قضوا السنوات الماضية يُرهبون الأفارقة السود، أنفسهم يبحثون عن وظائف جديدة. عمل عدد غير معروف من هؤلاء بخدمة شركات، حكومات، وقضايا ضد/ثورية، وبهذا ألحقوا مزيدا من العار بجنوب إفريقيا، هذه المرة كقاعدة لعمليات المرتزقة. وبين أكثر الشركات جنوب الإفريقية سوء سمعة، كانت «إكزكيتيف أوتكم EO» التى أنشأها عام ١٩٨٩ قائد سابق من حقبة الآبارتايد وعملت بأسلوب علنى حتى إغلاقها عام ١٩٩٨. كان من بين عملائها شركة الماس العملاقة دوبيرس، وحكومة إنجولا، حيث تم التعاقد مع EO عام ١٩٩٢ لاستعادة المناطق الغنية بالنفط لحساب قوات الحكومة. ربما أكثر عمليات EO ذيوعاً هى العمليات التى قامت بها فى سييراليون، الغنية بالماس، حيث تم التعاقد مع قواتها للدفاع عن الحكومة ضد التمرد الذى قامت به حركة جبهة فوداى سنكوه الثورية المتحدة التى كانت ترتكب انتهاكات واسعة لحقوق الإنسان. دفعت الحكومة لـEO حوالى ٣٥مليون دولار –ثلث ميزانية الدفاع السنوية– عام ١٩٩٥ لسحق التمرد بعد أن رفضت حكومة الولايات المتحدة والأمم المتحدة التدخل. استغرق الأمر من EO تسعة أيام لوقف التمرد، ويومين لاستعادة حقول الماس بكونو. استخدم داعمو صناعة المرتزقة عمل EO وساندلاين (شركة تيم سبايسر القديمة) كدليل على نجاح القوات الخاصة.

لكن الغايات لا تبرر الوسائل دائما. كان نجاح EO يعزى إلى حد كبير، لحقيقة أنها من سلالة قوات نظام الآبارتايد جنوب الأفريقى النخبوية، والتى ورثت منها نظاما واسعا من

الروابط الشركاتية، شبكات تحت أرضية، وأجهزة مضادة للتمرد في جميع أنحاء إفريقيا والتي استخدمت لقمع السكان السود والمعارضين. وبالرغم من التهليل له «النجاحات» التكتيكية التي أحرزتها EO بأنجولا وسيراليون، فقد أثار تورط المرتزقة في الصراعات الدولية مسألة أكبر: من هو الذي يحدد النظام الدولي؟ الأمم المتحدة؟ الدول ذات السيادة؟ الأغنياء؟ الشركات؟ وأيضا، من يحاسب تلك القوات؟ اكتسبت القضية مكانة بارزة مع وجود الخصخصة الواسعة في عمليات احتلال أفغانستان والعراق. وفيما تحاشت الولايات المتحدة، إلى حد كبير، مسألة محاسبة القوات الخاصة، لم يكن الأمر كذلك بجنوب إفريقيا. في وجود تجربتها المباشرة الزاعقة الطويلة في استضافة المرتزقة بعد سقوط نظام الآبارتايد، وبدء عملية «الحقيقة والتصالح»، انتشرت المطالبات بإغلاق شركات المرتزقة، وبخاصة لصلات الكثير منها بنظام الآبارتايد. أدى هذا إلى سن قانون معادٍ للمرتزقة في جنوب إفريقيا عام ١٩٩٨

لكن بعد سنوات قليلة، ومع التقارير عن نشر قوات مرتزقة جنوب إفريقية بالعراق، أطلق المشرعون الاتهامات بأن القانون لم يطبق بفعاليه. أكدوا أن القانون لم ينجم عنه سوى «عدد قليل من المحاكمات والإدانة»، بالرغم من وجود أدلة واضحة على أنشطة مرتزقة يقوم بها جنوب الأفارقة –وليس فقط بالعراق. لم يكن العراق هو السبب الوحيد الذي أدى إلى طرح مشروع قانون «حظر أنشطة المرتزقة» بالبرلمان جنوب الإفريقي عام ٢٠٠٥ بل أيضا الاتهام بتورط أكثر من ستين جنوب إفريقي في مؤامرة للإطاحة بحكومة، غنيا الاستوائية عام ٢٠٠٤. حاز هذا الحادث على عناوين رئيسية دولية بسبب ما قيل عن ضلوع السير مارك ثاتشر، ابن رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارجريت ثاتشر في المؤامرة. كان ذلك البلد الصغير البالغ عدد سكانه خمسين ألف نسمة قد اكتشف مؤخرا احتياطات نفطية هائلة، وقد أصبح ثالث أكبر منتج البترول بإفريقيا. أما قائد الانقلاب المتهم، فكان سايمون مان، وهو ضابط SAS (قوات جوية بريطانية خاصة) سابقا، ومؤسس إكزكيتيف أوتكام وساندلاين، وصديق مارك ثاتشر.

قال رعاة مشروع القانون جنوب الإفريقي إن مؤامرة الانقلاب تبرهن على أن «أنشطة

المرتزقة يُضْطَلَع بها من داخل الحدود» فى جنوب إفريقيا، وبينوا تحديدا أنه «ثمة استمرار فى تجنيد جنوب الأفارقة بواسطة من يُسمّون بالشركات الحربية الخاصة من خارج الجمهورية، للتزويد بخدمات عسكرية وأمنية فى مناطق النزاع المسلح (مثل العراق). آنذاك، قدرت حكومة جنوب إفريقيا، رسميا، أن أربعة آلاف من مواطنيها يعملون فى مناطق الصراع فى أنحاء الكوكب، من بينهم ما يُقدر بألفين فى العراق. كان غالبية هؤلاء من أفراد الأقلية البيضاء. أما التقديرات الأخرى فقالت إن عدد جنوب الأفارقة المنتشرين كوكبيا وفى العراق هو أكثر كثيرا.

سعى مشروع القانون لمنع أى جنوب أفريقى من المشاركة «كمقاتل نظير الربح الخاص فى صراع مسلح». أو للضلوع فى «أى فعل يهدف إلى الإطاحة بحكومة، أو تقويض النظام الدستورى، أو السلامة الإقليمية لأية دولة». تطلب من جنوب الأفارقة الذين يسعون إلى العمل فى شركات خاصة عسكرية أو أمنية الحصول على تصريح من الحكومة، ونص على الغرامة والسجن لمن ينتهكونه. أيضا، حُظِر على جنوب الأفارقة الخدمة فى جيوش أجنبية إذا عارضت الحكومة ضلوع ذلك البلد فى حرب أو صراع. وآنذاك، كان ثمة ثمانمائة جنوب أفريقى يخدمون ميدانيا فى الجيش البريطانى، إضافة إلى عدد غير معروف يخدمون فى الجيش الإسرائيلى. ومن الشائق أن مشروع القانون سمح باشتراك جنوب الأفارقة فى الصراعات المسلحة المشروعة، بما فى هذه النضالات التى تشن، ووفقا للقانون الإنسانى الدولى، للتحرر القومى: حق تقرير المصير؛ الاستقلال. وضد الكولونيالية، أو لمقاومة الاحتلال، العدوان والهيمنة بواسطة أجانب أو قوات أجنبية».

كان دوج بروكس وIPOA أبرز القوى التى عارضت محاولة جنوب إفريقيا كبح جماح المرتزقة. انضم كلاهما إلى أحزاب الأقلية البيضاء جنوب الإفريقية وشركات المرتزقة وكونوا فريق عمل محموماً لمنع تمريره. وفى العام المؤدى إلى التصويت على القانون كتب، بروكس افتتاحيات فى الصحف، وأوراقا بحثية فى السياسة، وسافر إلى جوهانسبرج حيث التقى بأعضاء البرلمان. عبر عن إحباطه من أن المشرعين قد «تجنبوا»

إشراك صناعة المرتزقة في صياغة مسودة القانون، وقال إن تمريره سيكون «كارثيا» على الشركات الخاصة العاملة في الأماكن الساخنة وبإمكانه تقويض عمليات حفظ السلام. توسل بروكس إلى المشرعين قائلا «ستتعرض كثير من الجهود الدولية للمخاطر.. وسيكون على بعضها، إنهاء عملياتها إذا لم تستطع الاعتماد على جنوب الأفارقة. فجنوب الأفارقة أشداء غلاظ» يستطيعون العيش في ظل أحوال تقشفية، لديهم مرونة متزايدة، وبإمكانهم التكيف مع الظروف المتغيرة». وجد بروكس نفسه في جانب السياسيين البيض جنوب الأفارقة الذين اشتكوا من أن القانون يستهدف أفراد القوات المسلحة سابقا الذين سيجدون أنه «من شبه المستحيل أن يعثروا على عمل». وفيما كان بروكس يحشد الجهود ضد محاولات جنوب إفريقيا اتخاذ الإجراءات ضد المرتزقة، كان أيضا يعرض أجندته الحقيقية: يروج بشراسة لاستخدام المرتزقة في القارة الإفريقية، لا في السودان فقط، لكن في الكونغو ومناطق الأزمات الأخرى أيضا. أعلن بروكس «إن الناتو مكلِّف إلى حد الجنون،إنه ليس منظمة مجدية من حيث التكاليف. وكذلك الحال مع الاتحاد الإفريقي. ستكون الشركات الخاصة أقل كلفة كثيرا كثيراً».

في ٢٩ أغسطس ٢٠٠٦ مُرِّر مشروع قانون «حظر نشاطات المرتزقة» بأغلبية ساحقة: ٢١١ صوت ضد ٢٨صوتا في البرلمان جنوب الإفريقي. رفض موسيوالكوتا وزير الدفاع جنوب الإفريقي محاولة إعادة تصنيف المرتزقة، وأطّر الجدل بالرجوع إلى تاريخ إفريقيا الدموي مع المرتزقة الذي قال إنه يعود لعام ١٩٦٠ في الكونغو التي كانت قد حصلت على استقلالها مؤخراً.

قال «بمجرد حصول» الكونغو على استقلالها أُطلق كلاب الحرب على البلد». أعلن لكوتا قبيل تمرير مشروع القانون أن «المرتزقة هم كرابيج لجلد مناطق العالم الفقيرة. إنهم قتلة معروضون للإيجار. يؤجرون مهاراتهم لمن يدفع أكثر. باستطاعة أي أحد يملك الأموال استئجار هؤلاء البشر وتشغيلهم آلات للقتل أو دانات مدافع». بذلك، وجهت جنوب إفريقيا لطمة نادرة إلى عالم شركات المرتزقة الآخذ في التوسع سريعا، لكنها كانت مجرد نكسة واحدة في قصة تقدم الصناعة ككل- وبلاكووتر بخاصة.

جرستون

لم تقتصر خطة بلاكووتر فقط على اختراق عالم حفظ السلام. كان تصور برينس وحلفائه هو إعادة التشكيل الشامل لجيش الولايات المتحدة، إعادة تشكيل يناسب السياسة الأجنبية العدوانية الهجومية التى كان البيت الأبيض قد أطلقها منذ ٩/١١. كانت العقبات الرئيسية التى حالت دون توسيع إدارة بوش لحروب الاحتلال والعدوان هى نقص قوة الجيش البشرية وأعمال التمرد على الأرض التى حفزتها تدخلاتها. ينتج عن المعارضة الداخلية للحروب العدوانية تقلص فى عدد المتطوعين للخدمة فى القوات المسلحة، الأمر الذى عمل تاريخياً، على انكماش الحافز لشن الحروب، أو إلى اللجوء إلى التجنيد الإجبارى. وفى نفس الوقت، فقد تسببت المعارضة الدولية لحرب الولايات المتحدة فى جعل إقناع الحكومات الأخرى بدعم حروبها واحتلالها للبلاد صعبا على واشنطن. لكن تلك الديناميات تتغير جذريا فى حالة شركات المرتزقة، حيث لا يحد المخزون من الجنود المحتملين المتاحين لإدارة عدوانية سوى عدد الرجال فى أنحاء الكوكب المستعدين للقتل نظير الأموال. وفى وجود المرتزقة لا توجد حاجة إلى التجنيد الإجبارى أو حتى دعم الجمهور لشن حروب عدوانية، كما أنه ليس ثمة حاجة للتزود بالقوات من قبل حلف من «الراغبين» إذا رفضت الجيوش القومية فى الدول الأخرى الانضمام إلى «تحالف الراغبين»، فهناك بلاكووتر وحلفاؤها الذين يقدمون تمويلا بديلا للقوات بتجنيد جنود خاصين من أنحاء الكوكب. إذا لم تلحق الحكومات الأجنبية بالركب، يظل بالإمكان شراء جنود أجانب.

قال مايكل رانتر، من جماعة الحقوق الدستورية CCR «تجعل زيادة استخدام المقاولين، القوات الخاصة، أو ما يسميهم البعض المرتزقة، من السهل بدء الحروب وبدء القتال– كل ما يتطلبه الأمر هو الأموال لا موافقة المواطنين. فكلما زادت درجة اللجوء إلى السكان من أجل الدخول فى حروب، زادت المقاومة لها، مقاومة ضرورية للحيلولة دون قيام حروب تفخيم الذات، الحروب الحمقاء، وفى حالة الولايات المتحدة حروب الهيمنة والإمبريالية». تكاد تكون القوات الخاصة ضرورة لولايات متحدة عازمة على الحفاظ على إمبراطوريتها

الآفلة».

وفى وجود رئيس مغامر بالبيت الأبيض، يصبح بإمكان المرتزقة التمكين من مغامرات لا تنتهى من الغزو، عمليات سرية، احتلال، انقلابات -كلها تحت طبقات من الحماية البيروقراطية، تصريحات إنكار مقبولة ظاهريا، وإغفالٍ لإرادة السكان (أو لعدم وجودها) . هذا بالإضافة إلى أن الجنود الخاصين لا يتم إحصاؤهم ضمن أموات قوات الولايات المتحدة، وهذا حافز آخر لاستخدام الحكومة لهم. قال توماس بوج، من فريق السيلز سابقا والذى التحق بأكاديمية بلاكووتر «يمكن استخدام تلك القوات دون كثير من الإعلان- وهذه سمة جد مفيدة لأى حكومة. سهلة سياسياً ولا تتطلب كثيرا من الإجراءات الروتينية. إننا قابلون للاستهلاك. لا يماثل موت عشرة مقاولين موت عشرة جنود. لأن الناس سيقولون إننا هناك من أجل المال. ولهذا دلالة مختلفة تماما لدى الجمهور الأمريكى».

وعلى حين أن عمليات بلاكووتر بالعراق ونيو أورلينز حازت على فائق الاهتمام وأثارت جدلا كبيرا، فتلك لا تخرج عن كونها انتشارات مؤقتة وجزءا فقط من سطوة الشركة الكوكبية وطموحاتها. ورغم صورة الشركة بصفتها بزنيسا أمريكياً بالكامل مستعدا للتصدي لأعمال الإبادة بسرعة فائقة، فإن بلاكووتر تستثمر بعمق فى مشروع سرى تجند من أجله الشركة أفرادا من أماكن تتسم بأكبر قدر من انتهاكات حقوق الإنسان على وجه الأرض، وبعد ذلك يصبح بالإمكان إعادة تغليف هؤلاء الأفراد بصفتهم قوات حفظ سلام مخصخصة أو قوات مشاة فى عملية عسكرية أخرى لتحالف الراغبين. أُسْمِي هناك المشروع جريستون.

بعد حوالى شهر من كمين الفلوجة سيئ السمعة عام ٢٠٠٤، سجلت بلاكووتر، بهدوء «جريستون ليميتد» فى المكتب المركزى للتعاقدات التابع لحكومة الولايات المتحدة، الذى ذكر «تاريخ بدء نشاطها» على أنه ١٣مايو ٢٠٠٤. لكن بدلا من تأسيسها فى كارولاينا الشمالية أو فرجينيا، أو ديلاوير مثل أقسام بلاكووتر الأخرى، سُجِّلت جريستون بالخارج من باربيدوس بالكاريبى. من ثم، صنفتها الحكومة الأمريكية بصفتها «كياناً

شركاتياً معفى من الضرائب»، وذكرت خدماتها على أنها: «جنود أمن وخدمات حراسة». لكن هذا الوصف الذى يستدعى للأذهان حراس المولات التجارية لا يمت بصلة إلى أدبيات وفيديوهات جريستون الدعائية التى تستهدف عملاءها المحتملين. كان الموقع الإلكترونى الأصلى الذى أقامته بلاكووتر لجريستون يُفتح على عرض وامض تظهر فيه كلمة «جريستون» أعلى قمة صخرة كبيرة. وفجأة، ومن أعلى الشاشة، يهبط سيف مُزخرف فضى عصر أوسطى يشق الصخرة بحيث يُشكّل حرف «T» فى كلمة -Grey sTone بأسلوب الملك آرثر.

وبعد هذه المقدمة القصيرة، كان الموقع يتحول إلى صفحة يظهر فيها السيف يشق الصخرة إلى جانب شعار الشركة «دعماً للسلام والأمن فى جميع الأنحاء».

فى ١٩ فبراير ٢٠٠٥ أقامت بلاكووتر «حفل افتتاح» لجريستون مترفاً لـVIPS، اقتصر على المدعوين فقط، بفندق ريتز- تشارلتون الفاخر بواشنطون دى سى. ضَمّت قائمة المدعوين للمناسبة التى استمرت سبع ساعات مزيجا كاشفا من الدبلوماسيين الأجانب، أصحاب مصانع الأسلحة، شركات النفط وممثلين لصندوق النقد الدولى. اختير الدبلوماسيون من بلدان مثل أوزبيكستان، اليمن، الفلبين، إندونيسيا، تونس، الجزائر، المجر، بولندا، كرواتيا، كينينا، أنجولا والأردن. حضر الحفل عدد من ملحقى تلك البلاد الدفاعيين أو العسكريين. خاطب كُتيِّب الشركة الدعائى الحضور بالقول «أصبح من الصعب على بلدك الآن، وأكثر من أى وقت سابق، حماية مصالحه بنجاح ضد تنويعة من التهديدات المعقدة فى عالم اليوم الرمادى حيث لم تعد الحلول لمخاوفكم الأمنية بيضاء وسوداء ببساطة. إن جريستون شركة خدمات أمنية دولية تقدم لبلدكم، أو منظمتكم حلا كاملا لاحتياجاتكم الأمنية الماسة. لدينا العاملون، الدعم اللوجستى، التجهيزات والخبرة لحل أكثر مشاكل أمنكم خطورة». أما بطاقة الدعوة، فوعدت الضيوف «بفرصة للقاء الخبراء المعترف بهم من صناعة الأمن الكوكبية: ستتاح لكم الفرصة لمشاهدة عروض لأحدث القدرات، ولرؤية استعراضات تكتيكية تمثل نماذج من التجهيزات المبتكرة، وتكنولوجيا الحلول للحرب الكوكبية على الإرهاب». كان المتحدث الرئيسى هو كوفر بلاك

الذى عُرِّف على بطاقات الدعوة بصفته.. «السفير السابق لمكافحة الإرهاب بوزارة الخارجية، ومدير مركز مكافحة الإرهاب بالسى آى إيه سابقاً».

أعلنت المواد التى وُزعت على العملاء المحتملين من الشركات والدول أن «جريستون مكرسة للتزويد بأفضل عناصر الأمن الفيزيقي من جميع أنحاء العالم دعماً للحرية، صناعة السلام، والمحافظة على السلام. تمكننا بؤرتنا الدولية من تطوير حلول فريدة مبتكرة تناسب الاحتياجات الخاصة لكل عميل على حدة». قالت جريستون إنهم مستعدون «للانتشار الفورى دعما لأهداف الأمن القومى وأيضا المصالح الخاصة». كانت بين «الخدمات» المعروضة فرق أمن جوالة بالإمكان استخدامها، بين وظائف أخرى، لعمليات الأمن الشخصى، الرقابة والرقابة المضادة. أيضا، بالإمكان استئجار فرق جريستون المهنية للالتحام المباشر «للقيام بمتطلبات أمن موجودة أو طارئة للعملاء بالخارج. فرقنا مستعدة للقيام بجهود للاستقرار، لحماية الأصول واستردادها، والانسحاب الطارئ للعاملين».عرضت أيضا مدى واسعاً من خدمات التدريب من بينها «عمليات دفاعية وهجومية للمجموعات الصغيرة». تباهت جريستون بأنها «تحتفظ بقوة عمل اجتذبتها من قاعدة منوعة من المهنيين السابقين فى العمليات الخاصة، الدفاع، الاستخبارات، وفرض القانون، وتدربهم، وهؤلاء مستعدون للانتشار كوكبياً فى الحال».

يُفتح شريط ڤيديو دعائى لجريستون مدته دقيقتان على صورة السيف يخترق الصخرة ثم يخبو ويحل محله مشهد مروحية لبلاكووتر تُسلِّم الإمدادات لقواتها أعلى سطح. ثم بعد ذلك يظهر مشهد لمرتزقة فى ملابس مدنية يوزعون المساعدات باليد لحشد من البائسين، ربما عراقيين أو أفغان. تنطلق موسيقى رخيصة من جهاز كاسيو فى الخلفية. ثم يعرض الشريط بعد ذلك صورا ممنتجة: رجل كوماندوز فائق التسلح يرتدى ثيابا تمويهية وقناع تزلج على الجليد يقتحم غرفة، ميليشيات تسير فى دورية بشارع يُغلفه الدخان، قوات تحطم باباً وتلقى بقنبلة دخان يدوية بالداخل. ثم تومض الكلمات «توفر الحماية» على الشاشة، ويظهر المرتزقة يُحكمون أمن محيط خارجى بوحدة مدافع K-9 قبل مرافقة «شخصية بارزة» من سيارته SUV إلى مبنى. تظهر كلمات «الأمن

الدولى» قبل أن تبدد ويظهر ممر ملئ بالدخان يندفع فيه كوماندوز بملابس سوداء وأسلحتهم مرفوعة. مزيد من مرافق VIPS، ثم مروحية تحلق فوق مساحة مائية. ثم ينقلنا الفيديو إلى مشاهد من حروب الغابات، ثم إلى مظليين يقفزون من الطائرات، ثم عودة مرة أخرى إلى الغابة. تومض «تقدير المخاطر» على الشاشة. يظهر وجه مخفى على الشاشة، يتبعه رجال بيض يرتدون تى شيرتات سوداء ونظارات شمسية، وصدريات كاكى ويشهرون أسلحة آلية فيما هم يرافقون شخصية VIP أخرى تخرج من سيارتها. ثم ينتقل الشريط إلى سيارة تعترض، بأسلوب هجومى، مركبة أخرى قبل أن يعود سيف جريستون الذى يشق الصخرة مرة أخرى للظهور.

وعلى حين أن بلاكووتر تصور نفسها على أنها عملية أمريكية بالكامل. فإن اسم جريستون هو تلاعب على الغموض الأخلاقى والقانونى لمهمتها، وللحرب، وهو غموض تدعمه جهودها لتجنيد المرتزقة. تسأل استمارة التقدم لجريستون المرتزقة المحتملين عن «مكان تجنيدهم»- حيث تضع قائمة بأسماء وكالات مثل بيوولف، سبارطان وAVI. البلدان التى قالت جريستون إنها تجتذب منها مجنديها هى: الفلبين، تشيلى، نيبال، كولومبيا، إكوادور، إل سلفادور، هندوراس، بناما وبيرو. وتطلب الاستمارة من المتقدمين وضع علامة أمام الأسلحة المؤهلين لاستخدامها: مدافع AK-47، Glock-19، مدفع M-16 سريع الطلقات، بندقية M-4 القصيرة، المدافع الآلية، المورتار، أو مدافع LAA وRPG. بين التخصصات المذكورة فى الاستمارة:قناص، هدَّاف، مُحطم أبواب، خبير مفرقعات، فرق مضادة للهجمات.

وفيما عدا تسويقها الذى يستهدف عملاء محتملين، التزمت بلاكووتر الصمت حيال جريستون. بعد إطلاقها المشروع بوقت قصير، ألغت بلاكووتر الموقع وحل محله صورة أكثر نعومة بها رسمة جديدة. اختفى السيف الذى يشق الصخرة، وكذلك صور المعارك الصريحة وحلت محلها صورة لجندى فى ثياب تمويهية ويرتدى بيريه يحمل طفلا صغيراً فى حجره مع تعبير «المساعدات الإنسانية» أعلى الصورة. ثمة صورة أخرى لرجل فى بذلة أنيقة يتحدث فى جهاز لاسلكى. ثم يظهر أعلى الصفحة الشعار الجديد «نعم

الاستقرار، نشر السلام»، أما الخدمات المعروضة فكانت: الأمن، التدريب، الدعم اللوجستي، المساعدات الإنسانية/حفظ السلام. أيضا، نُقِّح البيان الذى ينص على مهمة جريستون ليصبح: «تركز جريستون على توفير الاستقرار فى المواقع التى تعانى من الاضطرابات سواء نتيجة الصراعات المسلحة، الأوبئة، أو الكوارث الطبيعية أو التى يتسبب فيها البشر. لجريستون القدرة على الانتشار السريع الكفء فى جميع أرجاء العالم لخلق بيئة أكثر أمانا لعملائنا» أيضا، بإمكان جريستون دعم «عمليات استقرار واسعة المدى تتطلب أعدادا كبيرة من الناس للمساعدة للسيطرة على منطقة ما. هدفنا هو دعم وجود بيئة إيجابية تعزز الأمن المدنى وتتيح للتجارة أن تزدهر».

فرسان المائدة المستديرة:

فى نفس الشهر الذى أُطلقت فيه جريستون، بدأ إريك برينس، علنياً على الأقل، فى إثارة احتمال إنشاء ما أسماه «لواء مقاولين» لإكمال الجيش الأمريكى التقليدى. أبلغ برينس منتدى عسكريا بواشنطون دسى فى مطلع ٢٠٠٥ «ثمة ذعر فى وزارة الدفاع حول الحجم المستدام للجيش. يريدون إضافة ٣٠٠٠٠ فرد، وتحدثوا عن تكلفة تتراوح بين ٣ ٦بليون دولار و٤ بليون دولار للوصول لهذا الهدف. حسنا، ووفقا للحسابات، يتكلف الجندى الواحد ١٢٥٠٠٠دولار». أكد برينس، بثقة، أن بإمكان بلاكووتر إنجاز هذا بتكلفة أقل. كان هذا ظهورا علنيا نادرا لبرينس، ومثل جميع أحاديثه، كان خطابه مؤسسا على إنجيل السوق الحر، وألقاه على جمهور عسكرى.

كان هذا هو الحال فى يناير ٢٠٠٦، حينما خاطب برينس «West 2006» وهو مؤتمر كبير للقادة العسكريين، صناع الأسلحة وموزعيها، المقاولين، وكيانات أخرى عسكرية. كان رعاته كبرى الأسماء فى تكنولوجيا الحرب: رايثون، بوينج، جنرال داينميكس، لوكيد مارتن ونورثورب جرومان. كان برينس هو الممثل الوحيد للمرتزقة بمنتدى لكبار القادة العسكريين، من بينهم دنيس هجليك، قائد فرق العمليات الخاصة بالمارينز؛ شون بابياس، قائد مجموعة الحرب البحرية الخاصة؛ والكولونيل إدوارد ريدر، قائد مجموعة القوات الخاصة السابعة. تساءل برينس، دون توقع إجابة «لماذا نحن؟ لماذا منظمة خاصة؟ لماذا

أنا هنا؟ فكرة أن تقوم المنظمات الخاصة بفعل أشياء اعتاد أن يكون مجالها الوحيد هو حكومة الولايات المتحدة؟». فى عرضه، استعرض برينس الخطوط العريضة للصعود السريع لبلاكووتر، وتحدث بفخر عن إنشاء «حقل أحلامه»، أى مجمع بلاكووتر الهائل بمويوك، كارولاينا الشمالية. قال وهو يقدم عرضا موجزا لبعض عملياته «لدينا الآن حوالى ٧٣٠٠ فدان، إنها منشأة عسكرية خاصة كبيرة» ثم أضاف إنها تدرب حوالى ٣٥٠٠٠ من ممثلى الجيش وهيئات «فرض القوانين» سنويا، من بينهم رجال جيش ميدانيون، قوات عمليات خاصة، والعاملون بوزارة الأمن الداخلى، وكذلك من حكومات الولايات، والحكومات الفدرالية والمحلية. قال «إننا مندمجون رأسيا أعلى وأسفل وعبر اللوحة. لدينا عملنا المستهدف الخاص بنا، نعمل بإنشاء مرافق كاملة للتدريبات التكتيكية، لدينا ذراعنا الجوى من عشرين طائرة، وعمليات بالكِلاب فى وجود ستين فريقاً بالكلاب منتشرة بالخارج، وأعمال إعمار، وخدمات استخبارية خاصة». آنذاك، قال برينس إن لدى بلاكووتر ١٨٠٠ شخص منتشرين حول العالم «جميعهم فى مناطق شديدة الخطورة».

تحدث برينس أيضا بصراحة لافتة عن تصوره لمستقبل المرتزقة: «حينما تُرسلوا رسائل يجب تسليمها سريعا، هل تستخدمون الخدمات البريدية (العادية) أم تستخدمون فِدكس؟» سأل الجمهور وشركاءه على المنصة. إنه نوع من – هدفنا الشركاتى هو أن نفعل للجهاز الأمنى القومى ما فعلته فِدكس للخدمات البريدية– لن نحل محلها أبدا، لكننا نريدها أن تدار بشكل أفضل، أسرع، أذكى، نجعل الناس يفكرون خارج أُطرهم الضيقة». أخبر برينس الحضور أن وزارة الدفاع تستهلك ٤٨٪ من الإنفاقات العسكرية العالمية «ومن الصعب جدا لمنظمة فى مثل هذا الحجم الهائل أن تغير نفسها. لكن، إذا كان لديها أطراف خارجية تقوم بأعمال مماثلة، فإن ذلك يعطى للناس شيئا يستتنون عليه». قال مقارنا الصناعات العسكرية بصناعة السيارات «بإمكان أداء جنرال موتورز أن يتحسن فقط إن هى نظرت إلى كيفية أداء تويوتا وهوندا. يجعلهم هذا يفكرون خارج نطاق أُطرهم ويمنحهم آلية يعملون وفقها». روى برينس قصة حدثت عام ١٩٩١ بعد سقوط حائط برلين، حينما كان يقود سيارة مستأجرة بطريق السيارات السريع بألمانيا.

وفجأة «أسرعت مرسيدس S500 متخطيةً إياي بسرعة حوالى ١٤٠ميل فى الساعة. كانت أحدث وأعظم مرسيدس موجودة، قوة ٢٠٠حصان، بأكياس هوائية، نقلات أوتوماتيكية، وكل الأجراس والصفارات». لكن بعد المرسيدس المصنوعة بألمانيا الغربية، غيرت سيارة تربيانت بطيئة- السيارة القومية فى ألمانيا الشرقية الشيوعية- حارتها المرورية أمام المرسيدس وكادت تتسبب فى حادثة. قال برينس «فكرت، يالها من دراسة فى المتناقضات! لديك نفس البلدين، نفس اللغة، نفس الثقافة، نفس الخلفية، وبنية قيادة مختلفة: إحداهما كانت تخطيطا مركزيا، والأخرى ذات توجه كبير للسوق الحرة، إبداعية، تخاطر، وأكثر كفاءة بكثير».

إذا فهمنا رسالة برينس ذاك اليوم بمعناها الظاهرى، فيمكن إيجازها فى كلمة واحدة «الكفاءة». فى نهاية حديثه قال برينس إنه لا يريد أن «يزدرى» البنتاجون. قال «لدى وزارة الدفاع أعداد كبيرة من الأشخاص الرائعين، لكنهم يقعون فى مصيدة الطبقات العديدة من البيروقراطية التى ظلت موجودة منذ حوالى سبعين عاما وهذا يخنق كثيرا من الابتكار. نأتى نحن بطبعة قدم مختلفة». بيد أن «طبعة القدم» الصغيرة تلك التى يحلو لبرينس الحديث عنها تتنامى لتصبح أكبر وأكبر مع مرور كل يوم، وهى تنمو بسبب هذا الجهد المتناغم لشلة مرتزقة العصر الحديث القوية التى تفهم العلاقات العامة، تستأجر اللوبيهات، وتعمل على نسج التلفيقات، والتى كانت شديدة الفعالية فى ركوب موجة الخصخصة. وفيما تقلص عدد الجنود الميدانيين الرسميين لجيش الولايات المتحدة على مدى العشرين سنة الأخيرة من ١ ٢مليون فى الثمانينيات إلى ٣. ١مليون فى وقت غزو العراق عام ٢٠٠٣، ارتفعت المدفوعات لشركات المرتزقة والتعاقدات معها ارتفاعا صاروخيا. قبل أن تغزو الولايات المتحدة العراق، وما بين عامى ١٩٩٤ و٢٠٠٢، منح البنتاجون أكثر من ثلاثة آلاف عقد لشركات مقارها الولايات المتحدة قيمتها أكثر من ٣٠٠ بليون دولار. وكما لاحظ بى. دبليو. سينجر بقوله «على حين أن المقاولين، منذ وقت طويل ظلوا يرافقون قوات الولايات المتحدة المسلحة، فإن تلك التعاقدات بالجملة على الخدمات العسكرية الأمريكية منذ ١٩٩٠ غير مسبوقة». وبالتأكيد، فقد تصاعد هذا التوجه فى ظل إدارة بوش فى وجود دونالد رمسفلد الذى تعهد فى وقت مبكر من الحرب

على الإرهاب «أن يسعى من أجل فُرصٍ إضافية للتعاقدات الخارجية والخصخصة» جزئيا بسبب هاجسه الشخصى بأن للجيش الحديث «طبعة قدم صغيرة». وكما علق بول كروجمان، كاتب الأعمدة بالنيويورك تايمز بالقول «للمحافظين ولع طقوسى بخصخصة وظائف الحكومة؛ بعد انتخابات ٢٠٠٢، أعلن جورج بوش خططا لخصخصة عدد يصل إلى ٨٥٠٠٠٠ وظيفة فدرالية. لكنه فى الداخل، وخوفا من ردود أفعال الجمهور، فقد تحرك ببطء لتحقيق هذا الهدف. لكن فى العراق، حيث لا يوجد إشراف عام، أو إشراف من الكونجرس، فقد قامت الإدارة بخصخصة كل شئ فى مجال البصر». لم تكن العراق آخر التوجه، بل كانت نموذج المستقبل. قال دوج بروكس من IPOA «الجيوش أصغر مما كانت عليه لدى نهاية الحرب الباردة. من ثم، فإذا أراد أحد فعل أى شئ، فعليهم، جوهريا، التوجه إلى القطاع الخاص الآن. وما يجدونه، هو أنه أسرع، أفضل وأقل تكلفة. إن الجيوش منظمات ذات قدرات لا تصدق، لكنه لم يخطط لها لتكون ذات فعالية من حيث التكاليف».

ليس ثمة شك أن أحداث القتل بالفلوجة عام ٢٠٠٤ مثلت دفعة قوية لنجاح بلاكووتر الشركاتى. فمن ناحية، حُوِّل موت الأفراد إلى فوائد نقدية، وظهرت على الفور فوائد أحداث القتل التى لقيت رواجا إعلاميا هائلا. أما الطريقة الأخرى للنظر إلى تلك الأحداث، فإن أعمال القتل تلك التى لم يكن مخططا لها تصادف وأن أمدت بلاكووتر بمسرح أحداث وجمهور مثاليين للدفع قدما بحملتها التى كانت نشطة بالفعل فى طريق متوهج باتجاه خصخصة أعظم –مع وجودها هى فى المقدمة بالطبع. أتاحت حملة إعادة تصنيف المرتزقة، التى هدفت للإسراع بخطى الخصخصة للوصول إلى الحد الأقصى من الأرباح، أتاحت لشركات مثل بلاكووتر إقامة وجود مؤسساتى دائم لنفسها داخل بُنى الدولة. يوفر إعادة التصنيف فرص علاقات عامة هائلة وخطاباً للتجنيد والتعاقدات، فيما يمهد لنشر خطة تبرير جاهزة أمام السياسيين والبيروقراطيات المختلفة لمزيد من التعاقدات الخارجية والخصخصة ولمزيد من العمليات العسكرية والأمنية التى يمولها دافعو الضرائب مما يؤدى إلى شرعية إضافية وأرباح تتنامى وتتنامى. وهذا جميعه يصل بالأشياء إلى دائرة مكتملة: ففى النهاية، يمكن إيجاز كل هذا فى «الأموال– الكثير

الكثير منها. يكاد يكون من المحال تحديد مقدار الأموال التى دفعتها حكومة الولايات المتحدة إلى شركات المرتزقة- وترجع هذه الحقيقة بدرجة كبيرة إلى الغياب الواضح للشفافية ومسك الدفاتر الشامل. اعترف تقرير لمكتب المحاسبة الحكومية فى يونيو ٢٠٠٦ أنه «ليس لدى وزارة الخارجية، أو وزارة الدفاع أو USAID -الوكالات الرئيسية المسئولة عن مجهودات إعادة الإعمار بالعراق- بيانات كاملة عن التكاليف المرتبطة باستخدام موردين خاصين للأمن»، لكن التقرير وجد أنه «ابتداء من ديسمبر ٢٠٠٤، فإن الوكالات والمقاولين الذين راجعناهم صرفوا مستحقات تربو على ٧٦٦مليون دولار نظير الخدمات والتجهيزات الأمنية» بالعراق. وجد مكتب المحاسبة الحكومى GAO أن الأمن غالبا ما يكلف أكثر من ١٥٪ من تكلفة العمل والعمليات بالعراق، ولا يتضمن هذا تكلفة أمن المتعاقدين من الباطن، وكتبت وزارة الخارجية تقريرا بأن التكاليف الأمنية تمثل ما بين ١٦٪ و٢٢٪ من أموال مشروعات إعادة التعمير. وإذا أخذنا فى الاعتبار التكلفة الكلية لإعادة الإعمار من ٢٠٠٤ وحتى ٢٠٠٧، والتى تبلغ ٥٦بليون دولار، فإن تخصيص ١٠٪ فقط (وهذه نسبة محافظة جدا) للأمن يعنى ٥.٦بليون دولار. والنقطة الجوهرية هى أن حكومة الولايات المتحدة لم تقدم معلومات علنية ممكن التحقق منها عن شركات خاصة كثيرة تقوم باستئجارها من أموال دافعى الضرائب.

بلغت قيمة تعاقدات بلاكووتر وحدها، أى تعاقداتها المعلن عنها مع الحكومة فى ظل «الحرب على الإرهاب» والتى لا تتضمن البيزنس «الأسود»، أو تعاقدات «الحاجة الملحة الضاغطة»، أو عملها للمقاولين الخاصين، بلغت ٥٠٠ مليون دولار ويبدو خطابها حول توفير أموال دافعى الضرائب وكفاءات السوق الحرة، يبدو، ويتزايد خطابا أجوف، إذا أخذنا فى الاعتبار أن أقسامها الأمنية لم تفز أبدا بأى عقد تُطرح له مناقصة تنافسية. ومع عدم استطاعة الحكومة الأمريكية، جدولة إنفاقاتها على الخدمات الأمنية/العسكرية الخاصة بفعالية، أو عدم رغبتها فى ذلك، فإن أى تقدير لتلك الإنفاقات على المستوى العالمى يبرهن على كونه أكثر مراوغة. فى عام ٢٠٠٣، فى الوقت الذى كان قد بدأ فيه تنفيذ الحرب على العراق، وقبل أن تبدأ الطفرة الكبرى فى بزينس المرتزقة قدّر ب. دبليو سينجر قيمة الصناعة العسكرية الخاصة بما يربو على ١٠٠بليون دولار على مستوى

الكوكب. قدر مركز «أبحاث الأمن الداخلى» أن الحكومات والبزينسات قد أنفقت ٥٩بليون دولار، على مستوى الكوكب، لمكافحة الإرهاب، وهو مبلغ لا يتضمن الخدمات الأمنية الخاصة «السلبية» والتى مثلت زيادة قدرها ستة أضعاف عن عام ٢٠٠٠.

ما يعنيه هذا على المستوى العملى هو أن حملة إعادة التصنيف تُمكّن المرتزقة من إلصاق غُربال «دائم بأكبر المصادر المربحة للتغذية بالأموال –أى الميزانيات القومية للولايات المتحدة وحلفائها من صناع الحروب. لم تعد هذه «الخدمات» قصرا على البلدان المتقلقة التى تجاهد للحفاظ على السلطة بل إنها يُرحب بها من قِبل القوى العظمى بالعالم جزءا عضويا فى قواتها القومية. قال كوفر بلاك وهو يتحدث عن «الدور الآخر فى التوسع» لصناعة المرتزقة «أعتقد أنه شئ علينا جميعا التفكير فيه. نحتاج للحديث عنه والتوافق حوله. لا أرى أن ثمة سبيلاً للرجوع عنه. لا أرى أن بإمكان القوات القومية أن تتزايد أُسِّياً، وأرى أن استخدام شركات مثل بلاكووتر هى آلية مُجدية من حيث فعالية التكلفة».

الأمر المقلق بخاصة بشأن «الدور الآخذ فى التوسع» لبلاكووتر، تحديدا، هو مسألة قيادات الشركة اليمينة، قُربها من دائرة كاملة من القضايا والسياسيين المحافظين، أجندتها المسيحية الأصولية، ذات الطبيعة السرية، وروابطها العميقة الطويلة مع الحزب الجمهورى، الجيش الأمريكى والوكالات الاستخبارية. تسير بلاكووتر بخطى حثيثة فى طريقها لأن تصبح أقوى جيش فى العالم، والعديد من مسئوليها الكبار هم متعصبون يدينون بالصهيونية المسيحية، ويبدو أن بعضهم يؤمن أنهم يخوضون معركة ملحمية دفاعا عن العالم المسيحى. إن نشر القوات تحت قيادة كتلك فى البلدان العربية والإسلامية يدعم أسوأ مخاوف الكثيرين فى العالم الإسلامى بشأن أجندة صليبية جديدة تتخفى كمهمة للولايات المتحدة لـ«تحريرهم» من قامعيهم. ما يبدو وأن بلاكووتر تدعو إليه، تتبناه، وتتصوره، هو جيش خاص من الوطنيين المتدينين، يتلقون رواتب جيدة، مكرسين لأجندة هيمنة الولايات المتحدة –يدعمه جيش آخر من المشاة، يُستخدمون دانات للمدافع، جنود من بلدان العالم الثالث يتقاضون أجورا متدنية من بلدان لها إرث طويل من الأنظمة الوحشية،أو فرق الموت، التى ترعاها جميعها الولايات

المتحدة. وبالنسبة لقواتها الأمريكية التي تتباهى بها، وسّعت بلاكووتر من عامل دافع الترزق، إلى أبعد من المكاسب المالية المجردة (رغم أن هذا يظل عاملا رئيسيا) ليشمل الدافع النزوع الواضح لأداء الواجب. قال كوفر بلاك «لا يتعلق هذا بالبيزنس والمكاسب وتكوين الثروة، على الأقل في شركتنا وأبلغ تايلور صحيفة ويكلى ستاندارد: «إذا لم تكن مستعدا لاحتساء شراب بلاكووتر، كوول إيد، والالتزام بدعم الديموقراطية الإنسانية في أرجاء العالم، فابحث عن مكان آخر يناسبك» أكثر من بلاكووتر «لأن هذا هو ما تفعله هنا جميعنا».

يتخيل تنفيذيو بلاكووتر أنفسهم، في الصورة الأيديولوجية الأكبر، جزءا من إرث مرتزقة «عادل». أكد دوج بروكس من IPOA «لا يوجد جديد في هذا. كان لدى جورج واشنطون مقاولون». وهذه محاجة يولع تنفيذيو بلاكووتر باستخدامها. وحقا، فكثيراً ما يستشهدون بالتماثيل في منتزه لافاييت في الجهة المقابلة للبيت الأبيض، آثار باقية تخلّد تجارتهم وموروثهم. في منتصف المنتزه، ثمة تماثل للرئيس أندرو جاكسون ممتطيا صهوة جواد. ويحيط بأركان المنتزه الأربعة تماثيل المرتزقة الذين حاربوا إلى جانب الولايات المتحدة في الحرب الثورية: الجنرال الماركيز جيلبرت دو لافاييت، والماجور جنرال كومت جان دو روشامبو من فرنسا؛ ومن بولندا الجنرال تاديوس كوشيوزكو؛ والماجور جنرال البارون فريدريتش فيهلم فون ستوبن من بروسيا (والمهووس به جوزيف شميتز المستشار العام لبرينس جروب). أبلغ إريك برينس مؤتمرا عسكريا عام ٢٠٠٦ «ليست فكرة وجود مقاولين في ميدان المعركة، يقومون بنوع العمل هذا شيئا جديداً». ثم استشهد بالتماثيل في منتزه لافاييت وقال «هؤلاء الضباط العسكريون الأربعة، الضباط الأجانب، أو المقاولون إذا شئتم، الذين أتوا هنا وبنوا قدرة الجيش القارى، ذلك الجيش الذى كان يواجه أوقاتا صعبة حتى أتوا. مكتوب على تمثال فون ستوبن أنه أعطى الجنود المدنيين تدريبا عسكريا وانضباطا بحيث تمكنوا من إنجاز استقلال الولايات المتحدة. هذا ما نفعله بالعراق أو بأفغانستان، في أي مكان تُستأجر به من قِبل حكومة الولايات المتحدة وتفوضنا للقيام بهذا، نعطيهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم، وعلى التخلص من مشاكلهم، بحيث لا يصبح عليك أن ترسل جيشا تقليديا كبيرا للقيام بهذا.

تعلمون أن المرتزقة الألمان حاربوا إلى جانب الاتحاد فى الحرب الأهلية حتى أنهم فازوا بميدالية الشرف». ردد كوفر بلاك هذه الرواية «ليس ثمة ما هو جديد فى هذا. ما نفكر فيه حقا هو عن إدارة هذا لصالح البلد ولتحقيق الهدف. بالإمكان تسمية منتزه لافاييت منتزه المقاولين تيمناً بالأبطال الذين أتوا إلى هذا البلد ودربونا، دربوا أسلافنا».

فى فبراير ٢٠٠٦، حصلت صناعة المرتزقة على نصر هائل فى حملتها لإعادة التصنيف حينما أعْتُرِف بالمقاولين الخاصين رسميا فى تقرير the Pentagon Quadrenni-al كجزء من «القوة الكلية» لجيش الولايات المتحدة. قال وزير الدفاع، دونالد رمسفلد، لدى نشر التقرير إن وثيقة المراجعة تلك «تبين أين تقف وزارة الدفاع الآن والاتجاه الذى تعتقد أنها يجب أن تسلكه». وأضاف «والآن، وفى السنة الخامسة من هذه الحرب الكوكبية، فإن الأفكار والمقترحات التى تتضمنها الوثيقة تُطرَح كخارطة طريق للتغيير المؤدى إلى النصر». ابتهج كوفر بلاك بخاصة من ذلك السطر الذى يحتويه التقرير والذى اعترف صراحة بالمقاولين من أمثال بلاكووتر: أى «القوة الكلية لوزارة الدفاع –مكوناتها الميدانية والاحتياطية، عاملوها المدنيون، ومقاولوها– يشكلون قدرتها وطاقتها القتالية. يعمل أعضاء القوة الكلية فى آلاف المواقع فى أرجاء العالم، ويؤدون تنويعة هائلة من الواجبات لإنجاز المهام». ووفقا للتقرير، فإن سياسة البنتاجون «تتوجه الآن إلى تضمين أداء المقاولين للأنشطة التجارية.. فى الخطط والأوامر العملياتية. وبتضمينهم المقاولين عناصر فى خططهم يمكن لقادة المقاتلين الآن تحديد احتياجات مهماتهم». كانت تلك لحظة زخمة بالغة الأهمية لصناعة المرتزقة– لحظة أدركت بلاكووتر والشركات الأخرى أنها علامة فاصلة فى الدافع إلى مثل هذا الإدماج والشرعية التى ينظرون إليها بصفتها أمورا مركزية فى بقائهم وتربحهم. لم يعد التعاقد مع المرتزقة خيارا: بل أصبح سياسة الولايات المتحدة الرسمية. لم ير أحد أهمية لكون هذا الخيار هو أمر أصدره رمسفلد دونما جدل عام. وبحلول ٢٠٠٧، كانت بلاكووتر قد نشرت قواتها فى بلدان ثمانية على الأقل. انتشر حوالى ٢٣٠٠ من قوات بلاكووتر الخاصة فى أنحاء الكوكب إضافة إلى ٢١٠٠٠ مقاول آخر موجودين فى قاعدة بياناتها يُستدعون فور الحاجة إلى خدماتهم.

يرقى صعود بلاكووتر إلى كونه تجسيداً للسيناريو المُنذر الذى تنبأ به أيزنهاور منذ عقود حينما حذر «التضمينات الخطيرة» لصعود المجمع العسكرى/الصناعى ووضع «السلطة» فى «المكان الخطأ».

وفيما امتطى مركز صناعة الأفكار اليمينى «أمريكان إنتربرايز إنستيتوت» صهوة جواد عالٍ فى قافلة الخصخصة التى دفع بها رمسفلد قدما بضراوة، ذلك المركز الذى احتل الجبهة المتقدمة لخصخصة الحكومة والجيش. ومن ثم رعى عقد مؤتمر للمرتزقة بواشنطون دى سى فى صيف عام ٢٠٠٦. أسموا المؤتمر «مقاولون فى ميدان القتال: تقارير موجزة عن مستقبل صناعة الدفاع». تحدث فى المؤتمر مسئولان سابقان بالبنتاجون كانا أساسييْن فى خطط الخصخصة، بالإضافة إلى كوفر بلاك، نائب رئيس مجلس إدارة بلاكووتر. ازدحمت قاعة المؤتمر بممثلين لشركات عسكرية خاصة متنوعة، ووزارة الخارجية، والبنتاجون، ومجموعة من المنظمات غير الحكومية. كان الشعور السائد هو أن المناسبة هى معسكر إعادة تثقيف يديره المرتزقة، فى وجود الأب الروحى بلاك يشرف على دروس إعادة التصنيف وتسويق المُنتج: أى خدمات المرتزقة. أبلغ بلاك الجمهور «إننا ككوكب فى حالة من الفوضى. وشخصيا، يُشعرنى هذا بالقلق لأننا وقد خرجنا من الحرب الباردة، كنت قد اعتقدت حقا أننا سننعم بفترة هدوء واسترخاء وإرادة طيبة بين البشر. إن هذه الفوضى مُدمرة». ثم تحول مباشرة إلى تجارة المرتزقة، وسط صمت تام بالقاعة، وتحدث ببطء، جزمٍ، ومنهجية وكأنه منوِّم، مغناطيسى يتحدث إلى شخص فى غشية. أعلن الجاسوس المُحنك «قد يماثل هذا، نوعا، فرسان المائدة المستديرة، لكن هذا ما نؤمن به. التركيز على السلوك الأخلاقى، والمبادئ الأخلاقية والنزاهة. هذا مهم. لسنا من طيور الظلام. لسنا حواة ونصابين. نؤمن بهذه الأشياء. نؤمن أن نكون مُمثّلين. نؤمن بتقديم الدعم. إننا أخلاقيون. نمد العاملين لدينا بالتدريب. هذا شئ سيتنامى ويتنامى نريد أن نتمكن من الإسهام لمدة زمانية طويلة».■

قائمة المحتويات